نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

أفريقيات

دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي

نقولا زيادة

أفريقيات

دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي

17

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

إفريقيات

دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

محتويات الكتاب

مقدمة ٩
المدخل ٣٥
١ ـ العرب في شمال أفريقيا إلى القرن الثامن عشر ٣٧
٢ ـ الجزائر وفرنسا ٦٧
٣ ـ فرنسا في تونس ٨٨
القسم الأول: في ربوع المغرب العربي ١٠٥
١ ـ المدينة في الإسلام: وظيفتها وخصائصها ١٠٧
٢ ـ مراكش ١١١
٣ ـ مدينة فاس في التاريخ ١١٨
٤ ـ تطوان ١٢٦
٥ ـ رباط الفتح ١٢٩
٦ ـ من تاهرت إلى سجلماسة ١٣٤
٧ ـ مدينة الجزائر ١٣٩
٨ ـ فون مالتسان في الجزائر ١٦٤
٩ ـ تلمسان ١٧٩
١٠ ـ القيروان ١٨٨
١١ ـ تونس ١٩٦
١٢ ـ رباطا المنستير وسوسة ٢٠٥
القسم الثاني: في النواحي الثقافية في المغرب العربي ٢١١
١ ـ المدرسة الإسلامية في المغرب العربي ٢١٣
٢ ـ ابن خلدون ٢٢١
٣ ـ المؤسسات الثقافية في الجزائر في العهد العثماني ٢٢٥
٤ ـ الزاوية الدلائية ٢٢٨
٥ ـ اليوسي المغربي ٢٣٠
٦ ـ قراءة في مذكرات أحمد باي حاكم ولاية قسنطينة ٢٤٠
٧ ـ الشيخ محمود قبادو وديوانه ٢٤٧
٨ ـ أبو القاسم الزياني وكتابه الترجمانه الكبرى ٢٥٥
٩ ـ السنوسية ٢٦٢

١٠ ـ الحشائشي ورحلته في ليبيا ٢٧٣
١١ ـ الحياة الفكرية والأدبية الحديثة في المغرب العربي ٢٩٢
١٢ ـ المحافظة والتقليد في أدب المغرب العربي ٣١٠
١٣ ـ نظرة أربعة مؤرخين جزائريين إلى تاريخ الجزائر الحديث ٣١٧
القسم الثالث: في السودان الغربي ٣٢٧
١ ـ حدود الإسلام في افريقيا ٣٢٩
٢ ـ سكان الصحراء الكبرى والسودان الغربي ٣٣٦
٣ ـ مع ابن بطوطة في الصحراء الكبرى ٣٥٩
٤ ـ معاهد العلم الإسلامية في السودان الغربي في العصور الوسطى ٣٦١
القسم الرابع: المغرب والسودان الغربي في أيام المنصور الذهبي ٣٧٧
المغرب والسودان الغربي ٣٧٩

مقدمة

١

بيني وبين المغرب العربي صلة قوية، هي بصلة الرحم اشبه. وتعود هذه الصلة إلى سنة ١٩٤٩، إذ قضيت بعضها في برقة حيث كنت أعمل مساعداً لمدير المعارف (في زمن الإدارة البريطانية). وقد أتاح لي ذلك التعرف إلى البلاد وأهلها، فشعرت نحوهم بحب عميق. ولا غرابة في ذلك. فأنا عربي كنت بين أهلي وعشيرتي؛ فلكل ربع من ربوع العرب حرمة وهوى تغلغل مني في صميم الفؤاد.

كان وصولي إلى بنغازي، عاصمة برقة، في فصل الربيع من تلك السنة. وكانت أول نظرة ألقيتها على برقة من الطائرة. فيسرّ لي ذلك أن اتعرف إلى معالم سطحها، أو على الأقل الجزء الشمالي منها، بشيء من الوضوح. فرأيت هذا الشاطىء المنحني كأنه قوس يمتد من البَرديَّة إلى خليج سِرت، والذي هو خلو من التعاريج الكبيرة النافعة، باستثناء تعريجة واحدة حرية بالذكر عند طُبرق. وهذا الشاطىء يتلوه سهل ساحلي هو، في الجزء الأوسط من البلاد، ضيق جداً، بحيث يتكون في الواقع من جيوب ساحلية تنحشر بين رؤوس صخرية تصل إلى الشاطىء، وتعانق البحر. لكن على جناحي برقة: في البُطنان (أو مرمَريقة) شرقاً ـ وفي برقة البيضاء والحمراء غرباً ـ يتسع هذا السهل الساحلي بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقي بالصحراء.

مرت بنا الطائرة فوق البُطنان، أو جبل عَقَبَة، الذي بدا لنا منبسطاً، ولا غرابة في ذلك، فإن ارتفاعه لا يتجاوز المائتين من الامتار إلا في ما ندر. واتضح لنا، وكانت الطائرة على ارتفاع يمكننا من تبين معالم الأشياء، أن هذا الجناح من برقة إنما هو جزء محدود الموارد، تغلب عليه الصحراوية أو ما يشبه ذلك. فنحن نطير في فصل الربيع، وليس فيه ما يدل على الربيع!

حلقنا فوق الجبل الأخضر، وهي الهضبة التي تستأثر في برقة بالأجزاء المرتفعة، والأمطار الغزيرة (نسبياً)، والأرض الخصبة. وقد ظهر هذا بادياً للعيان. فهذه الغابات تكسو الأجزاء الجنوبية المرتفعة من الجبل الأخضر، وهذه الكروم تغطي السفوح الشمالية منه. وهذا جزؤه الغربي يبدو وقد آتى أكله لأولئك الذين أحسنوا خدمته.

فإذا تم لنا اجتياز الجبل الأخضر، واستشرفنا بنغازي من الجو، عاد إلى الأرض عريها، وبدا ما يشبه الصحراء، إن لم تكن الصحراء بعينها، يمتد أمامنا مئات الكيلومترات غرباً وجنوباً.

وثمة أمر آخر رأيناه من الطائرة، وهو أن الجبل الأخضر يرتفع في الشاطىء ارتفاعاً

مباشراً في الشمال، وكأنه يرتقي في ثلاث درجات (تبلغ أعلاها ٨٧٥ متراً)، ارتقاء مصعّداً صعباً، لكنه ينحدر نحو الجنوب، إلى الصحراء، انحداراً تدريجياً فيه هون ولين. وكأني بالطبيعة كانت رئيفة بالمصعّد من الصحراء، فلم توصله إلى ما يشبه الجنان بسرعة، وكانت رفيقة بالمحدّر إلى الصحراء، فلم تلقه في أحضانها دفعة واحدة.

ومع ذلك فما احسب ان الذي ألقينا عليه هذه النظرة السريعة من الطائرة يتجاوز سبعين أو ثمانين ألفاً من الكيلومترات المربعة، وهو لا يكاد يزيد على عشر مساحة برقة البالغة نحو ٨٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع.

فشاطئها، من الحدود المصرية شرقاً، إلى الحدود الفاصلة بينها وبين طرابلس الغرب غرباً، يبلغ طوله نحواً من ١,٥٠٠ كيلومتر. أما عرض البلاد، إلى الجنوب، فيمتد إلى السودان وافريقيا الوسطى.

إن التصعيد من السهل أو الساحل إلى الجبل الأخضر صعب، سواء أكان ارتقاؤك من بنغازي إلى الأبيار، أم من توكره أو طلميثة إلى المرج، أم من سوسة إلى شحات والقَيقب، أم من دَرنة إلى عين مارَة والقبَّة. ولكن هذا الجهد الذي تبذله في التصعيد تكافأ عليه: «وقد كان أول ما لفتني، لما تركنا توكره، واتجهنا جنوباً نحو الجبل الأخضر، هو أن السيارة خففت سيرها. ثم فاجأتنا في أول الطريق لوحة كبيرة كتب عليها ـ ممر توكره ـ طريق شديدة الارتفاع. والتوت الطريق، وتبعتها السيارة متعبة. واخذت اطراف الأودية تبدو على اليمين والشمال؛ وبدت بعض الأشجار والأنجم، مثل البطم والخروب القزم، على الجانبين، ولم تلبث أن ظهرت بعض صنوبرات من الصنوبر الإفريقي. لكن هذه الأودية تبدو طفلة إذا قوبلت بأودية لبنان، وهذه الجبال تبدو قزمة إذا قورنت بجباله.

«وانتهينا من ممر توكره فإذا بنا في الجبل الأخضر، في اجزائه الغربية المسماة المرج، وهي هضبة متسعة. وكأنها سهل مرتفع، تتوسطه مدينة المرج نفسها. وقد كان الإيطاليون يطلقون عليه سهل بارتشي.

«ها أنا في شحات (قيريني)، وقد ذهبت اليوم إلى سوسة (ابولونية) في زيارة قصيرة. لقد شعرت وأنا في السيارة، وهي تهبط هذه الطريق الملتوية المعوجة، كأنني انحدر من جبال كسروان نحو جونية، أو كأنني انحدر من رام الله إلى الرملة. فلا تختلف الطريق ولا ما حولها عن تينك الطريقين أو ما حولهما.

«وحول شحات هنا تقع منطقة من أجمل المناطق التي يمكن أن ترى في برقة. فالأرض، إلى مسافة بعيدة، تكسوها الأشجار الجميلة، بعضها طبيعي كالزيتون البري والصنوبر والسرو، وبعضها غرسته الأيدي العاملة، على عدوات الأودية، وجوانب الطرق، وأكثره من شجر اليوكالبتوس.

«وأقبلنا على درنة. وتبدّت لنا، ونحن في طرف الجبل الأخضر، مدينة صغيرة بيضاء تكتنفها أشجار النخيل، وتجملها زهور الياسمين وغيرها. وهي في جيب من هذه الجيوب

الساحلية التي يمتاز بها الشاطئ البرقاوي المصاقب للجبل الأخضر. وقد انحدرنا نحو اربعمائة متر في نحو أربعة كيلو مترات أو أقل، في طريق يتلوى كأنه قد لدغته حية، فسرى الألم في جسمه»(١).

«غادرنا درنة إلى طبرق. فلما أخذت السيارة تصعد في هذا الطريق الشديد الارتفاع، نظرت خلفي لألقي نظرة على درنة من جهة الجنوب الشرقي، فوجدتها كالصغير يحاول أن يلعب لعبة الاختباء. إن اعوجاج الطريق يظهر المدينة حيناً، ويخفيها حيناً آخر، وهي فرحة بهذا، فلا يبدو منها إلا وجه ضاحك فرح، كأنها لم تعرف الألم»(٢).

فإذا صعّدت من الساحل إلى الجبل الأخضر، وتنفست هواء الجبل المنعش، وجدت في هذا السفح الذي يسميه البرقاويون الوسَيطة، أرض المرج الخصبة، التي تنتج القمح والفواكه والخضار والكروم والتين، وتصلح للزيتون، وإن كانت لا تنتجه اليوم. ووجدت إلى الشرق منها أرض العرقوب، وهي الأرض المخددة الكثيرة الأودية، المكسوة بالأحراج الكثيفة، ولو ان الكثير من اشجارها صغير.

«أما بين دانزينو والزاوية البيضاء (سيدي رافع) فثمة مجموعة من الأودية الصغيرة، تأتي من الهضبة، وتلتقي أكثرها معاً في وادي الكوف (الكهوف)، الذي هو اشبه ما يكون بوادي الزرقا في شرق الأردن، بين عمان وجرش، لكنه خال من الماء، ولا يمتلئ إلا في فصل الشتاء، فصل الأمطار. على أنه، وهو عميق وجميل وخطر، لا يبلغ في هذه كلها ما تبلغه الزرقا أو أودية لبنان. ولعل مطلع باب الواد، بين القدس والرملة، أقرب الأماكن شبهاً به. وهنا يبدو شجر السرو، ويكثر الصنوبر»(٣).

وإلى الجنوب من المرج والعرقوب تمتد الأجزاء المرتفعة من الجبل الأخضر، وهي التي تسمى الظاهر، وأعلى أجزائها هو ٨٧٥ متراً. وهذه الأجزاء هي التي يصح أن يطلق عليها اسم الغابة فعلاً، لأن الغابات تكسوها بأكملها.

وينحدر الجبل الأخضر تدريجاً نحو الصحراء جنوباً. وتكثر في هذه الانحدارات الأودية، لكن المنظر هنا، كما يبدو من الطائرة، وكما هو في الواقع، مختلف. فالغابة وأشجارها تنعدم، وتُرى الأنجم الصغيرة القزمة والأعشاب التي تظهر بعد سقوط المطر. وحيث تتكون وهدات متسعة يكثف الكلأ، إذ تتجمع فيها المياه، وتظل مدة أطول تغذي هذه الأعشاب بعد انقطاع الأمطار. لكن كلما اتجهنا جنوباً قل العشب، وبدت طلائع الصحراء القاحلة، ثم تمعن الأرض في القحولة بحيث لا تعود تصلح لشيء، ولا تعرف للنبات معنى.

بين دَرنة والبرديَّة، على الشاطئ البرقاوي، نحو ثلاثمائة كيلومتر، وبينهما تقع طبرق وهي أقرب إلى الأخيرة قليلاً منها إلى الأولى. وانت إذ تجتاز هذه الطريق، تشعر، بعد تخلف دَرنة وراءك، أنك في أرض قاحلة.

إن الطريق من درنة إلى طبرق فيها قريتان فقط. وقد رأينا مزرعتين تقومان حول نبعين من الماء. أما بين طبرق والبردية فلم نجز إلا في قرية واحدة، هي قرية كمبوت.

وهذه الطريق القفر لا يقطع عليك تفكيرك فيها إلا أكداس العتاد الحربي المهشم، من أيام الحرب العالمية الثانية، وإلا صف من الإبل تراه على الأفق بين آن وآخر.

«ولا شك أن هذه الحالة تتغير في الشتاء. فنحن الآن في الصيف (فأنا أكتب في أواخر حزيران/ يونيو). ولكن متى هطلت الأمطار القليلة، ونبتت الأعشاب، كثرت هنا الأغنام والماعز والأبقار، التي تكون في هذه الأيام في الجبل الأخضر، تفتش عن غذائها(٤)».

هذا هو ساحل البُطنان أو جبل عقبة أو مرمريقة. وعلى كل فإن هذه الأجزاء الصالحة للرعي لا تعدو ثمانين كيلو متراً إلى الجنوب من الساحل، أما بعد ذلك فهي أرض صحراوية، غاية في القحولة، ولا تصلح لشيء.

وبرقة البيضاء والحمراء، وهي المنطقة التي تمتد إلى الجنوب من بنغازي، والتي تتوسطها السَلوق وأجدابيَة، فيها مناطق تصلح للشعير والرعي، وبعضها ينبت فيه القمح.

«فإذا انتهى المرء إلى اجدابية، على الشاطىء أو السلوق في الداخل، واجتازهما، ودّع الأرض الصالحة للاستغلال، ودخل في قلب الأرض الصحراوية. وهذه الطريق التي اجتزتها أمس من بنغازي إلى طرابلس الغرب، هي، بين أجدابية ومدينة سِرت، لا تقع العين فيها إلا على ما يذكرك بالجفاف. وقد مرت بنا ساعات، اجتزنا فيها نحو ٦٠٠ كيلومتر، ولم تقع العين على ما يذكرنا بالحياة، إلا هذه الأشواك التي تتغلب على الجفاف، وإلا هذه الطريق التي كانت تمتد أمامنا كأنها طريق الأبدية»(٥).

ومن برقة سرت غرباً. أخذت أقضم المغرب العربي على مهل وفي زيارات كثيرة جداً. وقد انتقلت في الطريق الساحلي، من البردية على الحدود الليبية ـ المصرية، إلى وهران. هذا الطريق الذي قلت عنه إنه يشبه طريق الأبدية، قطعته في أنواع مختلفة من وسائل النقل: فمن سيارة شحن إلى سيارة إسعاف إلى باص مقاعده وظهورها من الخشب إلى سيارات عادية إلى سكة الحديد. وفيما بعد تنقلت براً من طنجة إلى أغادير في المغرب. توغلت في داخل البلاد أحياناً، واجتزت جبال الأطلس في سلاسلها الثلاث. تعرفت إلى البلاد، وعرفت أهلها صغاراً وكباراً.

أردت أن أتعرف إلى الأجزاء الداخلية من ليبيا. فزرت فزان حيث قضيت بضعة أيام.

أقلعت الطائرة بنا من مطار طرابلس الغرب وفي برديها عزم وهمة وفي جوفها ركاب أسلموا انفسهم لله بعد أن ارتفعت هذه الآلة الضخمة عن الأرض. وقد كان في الطائرة من عرف الطريق غيباً ومن كان تعباً منهكاً، فلم يهتم بما تحته أو بما فوقه. أما أنا فقد سمرت عيني على ما هو خارج الطائرة. الجو صافٍ والسماء زرقاء. وتحتنا مزارع خضراء وزيتون يغطي الأرض مسافات واسعة. ولكن ما الذي حدث؟ إنها خمس وعشرون من الدقائق أو نحو ذلك وإذا بالمزارع تختفي والزيتون يغيب. ولمَ كل هذا؟ إن الصحراء بدأت. وأكدت النظر إلى ما تحتنا، فاتضح لي أننا نطير فوق رمال ورمال ورمال. لكنها ليست كلها رمالاً ناعمة تنقلها نسمة الهواء أو تسفيها الرياح. إن بعض هذه الرمال صلبة قاسية، بل ثمة منها ما يتحد

ويتجمد ويرتفع بحيث يكون تلالاً وجبالاً تلقي على ما أمامها أو خلفها ظلالاً. وأنت تطير على ارتفاع ثلاثة آلاف من الأمتار، ومع ذلك يملأ الفرح نفسك إذا لمحت في هذه الرقعة الشاسعة الممتدة تحتك شجرة أو ظل شجرة. أما إذا وقعت عينك على واحة ـ وقد تقع ـ فأنت ترقص من الفرح مشاركة لمن يمكن أن يكون سائراً فوق تلك الرمال. وظل الشجرة نادر وأندر منه، في الطريق الذي طرناه، مجتمع الأشجار في واحة.

ظلت الطائرة مستقيمة هادئة، إلا من جيب هوائي هنا أو هناك، حتى وصلنا فوق الزلاف، وهو جزء من الصحراء فيه كثبان من الرمل الناعم، يقع بين سبها وبراك في منطقة الشاطىء. كان النهار قد تجاوز منتصفه، وكانت الرمال قد امتصت من الحرارة ما زاد على حاجتها، فنقلته إلى الهواء فوقها، وهذا كثرت الثقوب في جيوبه وهو صاعد، فأخذت الطائرة تنفذ إلى هذه الجيوب فتتهادى وتتمايل بل وترقص. وقال قائل القوم إنه الزلاف، وقلت: «إذن فهذه رقصة الزلاف». وزاد في رقصتها أنها اضطرت إلى الانحدار التدريجي لأنها قاربت الوصول إلى هدفها. ولم نلبث أن رأينا واحة، فقال جاري: سبها. وبعد ساعتين ونصف الساعة على خروجنا من طرابلس هبطت الطائرة على مدرج رملي طبيعي في مطار سبها.

سبها بلدة صغيرة بعد، لا يتجاوز عمرها بضع سنوات. فهي بنت من بنات استقلال ليبيا، بني أول ما بني فيها دار لواليها الأول هي التي يقطنها الوالي الحالي. ثم أضيفت، تدريجاً، بيوت وأبنية لدوائر الحكومة والمدارس والموظفين. لكنها بلدة تنمو وتتطور. تقف في أعلى نقطة من قلعتها، فتشرف على شوارع لطيفة وبيوت أنيقة وحوانيت مرتبة. وترى طرقاً رملية مخططة، وإن لم تكن مزفتة، تخرج منها متفرعة إلى غات ومرزق وبراك وهون وغيرها. وعند أول كل طريق إشارة تبين لك المسافة إلى المكان الذي تقصده.

خرجنا من سبها إلى البحيرة. والبحيرة مجتمع ماء تحيط به أجمة من النخيل. وفي الشتاء يتسع بحيث يكون بحيرة لطيفة، لكن ماءها ملح وإن لم يكن أجاجاً. أما في أواخر الصيف، وهو الوقت الذي وقفت فيه على ضفتها، فقد كان فيها بعض الماء الآسن. ولكن نحن في صحراء، في جوف الصحراء، وكل ماء مهما قل وملح، فإنه مدعاة للسرور والطرب. ونحن في بلادنا نقطف بعض الثمار عن الشجر باليد ونأكلها وهناك على شاطىء البحيرة قطفت التمر عن شجر النخيل دون تسلق أو اعتلاء.

ولم اكتف بالوصول إلى قلب الصحراء في سبها. ذلك أنني أردت أن أتوغل فيها قليلاً. وتلطف رئيس الحكومة فوضع تحت تصرفنا ـ أنا وصديق لي عزيز عليّ ـ سيارة قوية نقلتنا إلى مرزق. فكنا على بعد ٩٠٠ كيلومتر عن الشاطىء.

مرزق كانت عاصمة الولاية في ايام العثمانيين. كان فيها قائمقام تركي وقاض تركي ورئيس جند تركي. وكانت القلعة التي بناها الأتراك، ولا تزال جُدُرها قائمة، مركز الحكم ومستودع الهيبة ومهبط آمال العدل، ولم تحقق دوماً كل ذلك. لكن مرزق كانت إضافة إلى ذلك منفى تبعث إليه الحكومة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ببعض أولئك الذين يغضب

السلطان عليهم، فيقضون أياماً وشهوراً وسنوات، وقد ينسون هناك وقد ينتقلون إلى العالم الآخر رأساً من مرزق.

القلعة التركية في مرزق مكان للزيارة لا للإقامة، والجامع التركي المبني من اللبن المجفف أثر لا مصلى فيه. والوقفة على القلعة تكشف أمامك منبسطاً لا حد له، ومتسعاً ينتهي عند الأفق. ولا شك أنه مكان يعشق، إن لم يرغم المرء على الإقامة فيه.

مرزق تمثل في تاريخ ليبيا الحديث، حكم الأتراك وحكم الإيطاليين وحكم الفرنسيين، لكنها تحكي أيضاً حكايات بطولات انتهت بالاستقلال. وهذه الحكايات حرية بأن تسمع وحرية بأن تُدوّن.

ومع أن قصص التاريخ وقصص البطولات محبب إلى النفس أخاذ جذاب، فإن قصص الواقع والإنشاء قد يفوقه. ولعل ما تم في فزان في السنوات العشر الأخيرة مما يستحق عناية خاصة. الواقع أن كل ما تم في ليبيا يستحق ذلك، لكن فزان حالة خاصة. بلد بعيد عن البحر، كان يعيش على القوافل وما تحمله إلى واحاته، ولا تزال الواحات مراكز العيش والتجمع. لكن سَبها، قلب فزان الإداري، ترتبط اليوم بالعالم بغير القوافل. فالطائرة تنقل الركاب المدنيين منها إلى طرابلس وبالعكس. ومعنى هذا أنها اصبحت مرتبطة بالعالم كله. وهذا البريد يصل إليك مرتين في الأسبوع وأنت هناك. وخط التلغراف أو خطوطه تربط أنحاء المملكة الليبية بعضها البعض، ولذلك فإنها تيسر العمل. وثمة طريق، على وشك أن ينتهي، يصل طرابلس بسبها عن طريق هون. وهون منطقة غنية بالتمر الجيد، لذلك أنشىء فيها مصنع للتمر المحشو باللوز وغيره، ينتج إنتاجاً جيداً. وقد حملت منه هدية صغيرة أعجب بها كل من ذاقها.

٢

جدّ بي السير إلى تونس. فزرت منها مدنها الرئيسة، وتنقلت في ربوعها. ودخلت جزيرة جربة. وهي رقعة من الأرض يدور بها البحر من جميع جهاتها، فيسرع إليها ممرغاً وجهه على جسمها الناعم، فإذا أحس ارتواء انحسر عنها، ولا يلبث أن يعاوده الشوق إليها فيعود لينعم بها. وهكذا يقضي أيامه ولياليه وهو بين شعور بالارتواء وإحساس بالشوق. ويطل القمر بدراً من خلال هذه الغيوم المتناثرة في رقعة السماء، ليتأكد من هذه الأشباح الواقفة على الجزيرة، هل هي عذارى نثر الريح شعورها يمنة ويسرة، أم هي أشجار نخيل تطعم الناس لذيذ ثمرها، وتسكرهم بخمرها؟ ومع أنه ينزوي خلف غيمة خجلاً دون أن ينال بغيته، فإنه يبدو ثانية وكأنه يسترق النظر إلى هذه الأشياء المتكورة البيضاء ليرى أهي صدور العذارى شرّعتها للهوى أم هي قباب هذه البيوت التي أوى إليها أهل العمل والأحلام؟ ويظل القمر يحار في الأمر، فلا هو قادر على إدراك الحقيقة ولا هو قادر على طرد الأحلام.

وهذه الشمس تلفحها عند الشروق فتثير ما فيها من شوق إلى الحياة، وتحرقها عند

الظهيرة فتسترخي كسلاً، وتودعها عند الغروب تاركة لها شفقاً وردياً يحبب إليها اللذائذ والملاذ.

وهذه الجزيرة تختبر الحياة، فتحب وتكره، وتسر وتألم، وتحيي وتميت. وهي في كل هذا تتململ راضية حيناً، غاضبة حيناً. فإذا كان في تململها غضب أو ألم ظهرت آثار ذلك على جسمها أرضاً قاحلة أم صبراً شائكاً. ولكنها يغلب عليها تقبل الرضى، وعندها تتفجر ينابيع صغيرة تروي الزرع والضرع، أو تنبت نخيلاً ينعم الناس به غذاء ووعاء وكساء، أو تغذي شجر الزيتون الذي يتبارك الناس به ثمراً وبلسماً وحطباً.

وتحركت جربة، وقد أحست بخفيف الوطء على أديمها، وابتسمت وتكلمت قائلة:

«أنا قديمة قدم الأسطورة. الأسطورة التي ترتبط بزهرة اللوتس اللطيفة. ألم يسمني الناس جزيرة أكلة اللوتس؟ لقد أدركوا ما في جسمي من نعومة، وما في نفسي من طهارة، وما في قلبي من شوق، وما في دمي من نشاط، فربطوني بزهرة اللوتس الجميلة الأنيقة. إن الأقدمين كانوا كثيري الاحترام للمثل العليا التي أدين بها، فاحترموني من أجلها».

فقلت لها، وقد أثارت كلماتها بعض ما سمعت عن هذه الجزيرة: «ولكنك لم تحافظي دوماً على مثلك. ألست أنت التي أسرت يوليسس، وقد كان في طريقه إلى زوجته؟».

فتحركت الجزيرة، وبدت على وجهها امارات الغضب الهادىء وقالت: «لم آسر أحداً في حياتي. كل ما هناك أن الناس، قبل يوليسس وبعده، يقعون في التجربة، ويفتنون. ويبدو أن بي فتنة وإغراء. لذلك وقع يوليسس كما وقع غيره، وفتن كما فتن غيره، ومع ذلك فما الذي حدث له؟ لقد كان خصومه يقتفون أثره، ويحاولون القضاء عليه، فخبأته هنا، وأنقذته. لقد كان مشرفاً على الموت فعادت اليه الحياة، وكان يائساً فأعدت له الأمل، وكان تعباً فعاد إليه النشاط. أمن أجل ذلك ألام؟».

صمتت قليلاً ثم أضافت: «وهذا شأن كل من يسكن هنا. سيغرب ويشرق، ويغيب أياماً وشهوراً وسنين، ويعود بعد ذلك إليّ. هؤلاء هم أبنائي ينشؤون اعمالهم في جهات الأرض، ثم هم لا يهدأون ولا يقر لهم قرار حتى يعودوا هنا ليتمتعوا بالطمأنينة والهدوء. وها أنت قد زرتني هذه المرة. ولكنني واثقة من انك ستعود في المستقبل».

وهكذا أصغيت لصوت جربة ـ جربة الأسطورة والواقع ـ وبينهما، بين الأسطورة والواقع، تاريخ طويل عريض، وحياة مديدة، وجهاد كبير. جهاد لدفع الأذى ورد العدى، وجهاد لإخراج الحب، وجهاد في سبيل العيش.

وتذكرت الكثير من هذا التاريخ الذي يحدثنا أن أول من استوطن الجزيرة البربر الليبيون، وكانوا قوماً أصحاب زراعة وبعض صناعة محلية. ولأنهم لم يبنوا البيوت الحجرية، فهم لم يخلِّفوا آثاراً عمرانية. ذلك أنهم اصطنعوا بيوتهم، أو اخصاصهم على الأصح، من الجريد. ويبدو أن هذا الطابع ظل الغالب على بيوت الجزيرة حتى اليوم. ولا يزال الزائر لجربة يعثر على بعض الأخصاص.

وما كانت جربة، بموقعها القريب من البر التونسي، والمحمي من هجمات سكانه بالبحر المحيط بها، لتغيب أهميتها عن الشعوب التي وصلت تونس وليبيا نازحة أو فاتحة. لذلك هبطها الفينيقيون واليونان تجاراً وصيارفة، وأقاموا في شواطئها الشمالية يشرفون على أعمالهم. وقد خلّف الفينيقيون صناعة الفخار في الجزيرة. ولا تزال هذه الصناعة قائمة إلى اليوم وخاصة في القلالة.

كانت إقامة الرومان أطول وأمتن أصولاً وأعرق جذوراً. فنحن إذا تذكرنا انهم ذهبوا إلى افريقيا فاتحين، وأنهم منذ منتصف القرن الثاني ق.م. أصبحوا حكام المنطقة بأسرها، وإذا اعتبرنا أن الفترة الرومانية ـ البزنطية هي فترة واحدة، كان لنا من ذلك نحو ثمانية قرون خضعت فيها الجزيرة لهذا النوع من الحضارة التي يرجع إليها على ما يبدو، فضل كبير في ترسيخ الأسس العامة للمدن التي قامت في الجزيرة. ذلك أن أكثر المؤرخين اتفقوا على أن الرومان أنشأوا في الجزيرة ما لا يقل عن ست مدن لا تزال هي أو آثارها قائمة إلى الآن. وقد قال الاستاذ محمد المرزوقي في مقدمته لكتاب «مؤنس الأحبة»: «وتنبه الرومان إلى أهمية هذه الجزيرة مدة احتلالهم لافريقيا وقضائهم على دولة قرطاجنة سنة ١٤٦ ق.م. فنزلت بها أساطيلهم، وشرعوا حال نزولهم في إدخال حضارتهم وأسباب عمرانهم إليها، فأسسوا بها الضيعات الزراعية والمراسي التجارية والمدن، وربطوا بينها وبين البر بجسر بني بالحجارة في مكان (القنطرة)، فكان المسافر يستطيع أن يسلكه على الرجلين. وفي وسط هذا الطريق بنوا حصناً للحراسة، وصلوه بالطريق بواسطة جسر متحرك يرفع بالسلاسل عند الحاجة فيقطع الطريق، وينزلونه حين يريدون المرور. ونحن لا نعرف كثيراً عما أحدث الرومان بجربة من الحصون والمدن ما دامت مصلحة الحفريات لم تتجه بعنايتها إلى التنقيب عن هذه الآثار».

قضينا ليلة في صفاقس، وكنا قد أتيناها من طرابلس (ليبيا). وكانت الشمس قد ارتفعت في الأفق الشرقي، وانعكست أشعتها على مياه المتوسط التي تغسل شاطىء مدينة صفاقس، لما تركنا هذه المدينة ميممين شطر عاصمة الديار التونسية. وصفاقس، التي كنا قد قضينا فيها ليلتنا، تنظر إلى الماضي فتجد له في نفسها ذكرى متمثلة في سور يحيط بالبلد يرد عنها عادية الأيام، وفي جامع أنيق البناء والزخرف يرجع إلى أيام الحفصيين. فإذا عمقت الذكرى وجدت في ضميرها البعيد صدى حضارة أقدم من ذلك، تعود إلى يوم كانت تقوم في أرجائها مسارح للتمثيل ومسابق للفرسان. على أرضها تحارب القرطاجيون والرومان، وفي رياضها تبارت الفتيات والغزلان، وفي أجوائها علق الشعراء بالحسان. وما ذلك بغريب على بلد انطوى على البحر فطوق البحر خاصريه، وقبل النيرين فصب النيران ضوءهما في ناظريه، وأحاطت به الغابة والزياتين، وزينته أشجار النخيل والبساتين.

تركنا صفاقس واتجهنا شمالاً محاذين للشاطىء في سيرنا، متعمدين البطء في تنقلنا، راغبين في أن نرى القسم الكبير، طامعين في أن نذكر مما نرى الكثير.

وتهادت السيارة بنا، وإن كان سائقها تضايق، فقد كان يحب السرعة. والسرعة في رأيي عدوة المتعة، وخاصة في تنقيل العيون بين مغاني الجمال التي تعرضها عليك تلك المنطقة الشرقية من الساحل التونسي. وكان البحر كمن أفاق من حلم لذيذ، يتمطى متثائباً ويغمض عينيه رغبة في استعادة الرؤى. فإذا لمح أننا أدركنا ما به غمزنا إغراء، مطالباً إيانا بأن نعدل عن السير لنرتمي في أحضانه. وما أكثر ما يغري البحر! ولكن كان علينا أن نسير.

وسرنا حتى وصلنا المهدية، فوقعنا على مدينة جليل قدرها شهير ذكرها، تحمل في قلبها ذكرى جماعة من السادة النجب الذين كان لهم على حضارة العرب والإسلام فضل، وأي فضل! إن المهدية من بناء عبيد الله المهدي أول الفاطميين وإليه تنسب. وقد روى المؤرخون قصة بنائها قالوا: «خرج عبيد الله المهدي بنفسه سنة ثلاثمائة إلى تونس فاجتاز قرطاجنة وغيرها ومر على جميع السواحل يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة تحصنه وتحصن بنيه من بعده.. فأقام يلتمس ذلك مدة فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع المهدية فبناها هنالك وجعلها دار مملكته. وكان أول ما ابتنى منها سورها الغربي... وعندما وضع أول حجر منه أمر ناشباً كان بين يديه أن يوتر قوسه ويقف على ذلك الحجر ويرمي سهمه. ففعل الرامي ذلك، فانتهى السهم إلى المصلى ووقع قائماً على نصله. وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية فكانت مائتين وثلاثة وثلاثين ذراعاً. وكان المهدي يقف على فرسه فيأمر الصناع بما يصنعون. وأمر بعمل باب الحديد للمدينة».

حرص المهدي، فيما حرص عليه من بناء المهدية، على أن يحفر لها مرسى في الحجر الصلد ليكون ثمة حصناً لمراكبه الحربية، وأقام على فم المرسى سلسلة من حديد يرفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت. وانشأ فيها دار صناعة كانت من عجائب الدنيا. وكانت المدينة كثيرة الجباب التي ملئت ماء وكانت اهراؤها مختزنة طعاماً.

وما أكثر ما وهبتنا المهدية من تاريخ وأدب وشعر، وليس المجال مجال عرض هذا كله، ولكن بضعة أبيات للقيسي اللياني قد تلذ للقراء. قال متشوقاً لبلده وهو بعيد:

سرح دموع العين مبتدراً	وبذكر ماضي عهدهم فاشدُ
والثم على شغف مواطئهم	إن عاق عن مقصودك البعد
لم أنسَ يوم وداعهم سحراً	والدمع أسلم دره العقد
هز الصبا اغصان بانهم	فتعانقت وتواجد الرند

وتونس الحاضرة تسحر وتأسر، وقد وقعت في سحرها وأسرها وأوقعت معي غيري ممن زارها برفقتي، من أولئك زوجي، رحمها الله، وأصدقاء رافقوني في أنحائها في آخر زيارة لي للمدينة، سنة ١٩٨٤.

زرت تونس من قبل، وزرتها ثانية مؤخراً (بعيد الاستقلال).

كان أول ما فعلته في تونس، بعد وصولي إليها بقليل، أن خرجت إلى الشوارع أستجلي معالمها وأستعيد ذكرياتها. ودرت في المدينة أتزود منها فراعني وراقني أمر هام. أن السور

الذي كان يحيط بالمدينة فيفصلها عن العالم الخارجي قد زال. راعني ذلك أول الأمر لأنني أرى في آثار التاريخ شيئاً من القداسة، لكنني لم ألبث أن راقني ذلك إذ أدركت معنى إزالته، في أجزاء منه. ذلك أن هذه المدينة وسكانها ليس ثمة ما يفصل بينهم وبين العالم. لقد كان عالمهم ينتهي من قبل داخل بوابة المدينة، وكان عالم غيرهم يبدأ خارج هذه البوابة. أما الآن فقد أصبح لهم الحق في أن يمتدوا قلباً وعقلاً وروحاً وجسماً إلى المدى الذي تطيقه اجسامهم وتقوى على تحمله نفوسهم. إنهم أصبحوا أحراراً. وهذا هو الذي راقني، حريتهم.

وتطلعت يمنة ويسرة، وحدقت أمامي، وتلفت خلفي، فرأيت العلم التونسي يرفرف في كل مكان وفوق كل بناء حري به. وأهم من رفرفة العلم تعلق أرواح الناس به. حتى لكأنك ترى في رأس كل علم روحاً مستعدة لتدرأ عنه الخطر.

ودخلت المكتبات أفتش عن الكتب، فهالني كثرة الكتب العربية التي تصل المدينة من أنحاء العالم العربي. ولم يكن ليسمح لها قبلاً (أي في عهد الحماية) بدخول البلد.

٣

وسرت غرباً نحو الجزائر.

والمسافر من تونس إلى مدينة الجزائر إلى تلمسان، إذا استقل السكة الحديد، استطاع أن يتعرف إلى الجزائر، على الأقل في قلبها. وقد قمنا بهذه الرحلة فبدأنا «السفرة في سهول تونس التي كان بعضها أجرد بحكم العادة، والبعض الآخر أجرد هذه السنة (صيف ١٩٥١) بسبب قلة الأمطار. وهي شبيهة بالسهل الساحلي في جنوب فلسطين، أي بين اللد وغزة، بعد أن يجرد من البيارات، على أن يحتفظ بأشجار الزيتون وبعض النخيل وكروم العنب. ويرى الواحد على الجانبين، عن بعد، جبالاً يرتفع بعضها إلى نحو ٥٠٠ متر... وفي محطة غرديمو على الحدود التونسية ـ الجزائرية، وفي بناء واحد، مكتبان: الواحد كتب عليه الدوانة التونسية أي مكتب الجمرك التونسي (ودوانة هي تعريب لكلمة douane الفرنسية المأخوذة أصلاً من كلمة ديوان العربية)، وعلى المكتب الثاني وضعت كلمتا الدوانة الفرنسية. والسبب في تسمية الجمرك الجزائري فرنسياً يرجع إلى أن الفرنسيين يعتبرون القطر الجزائري جزءاً من فرنسا، لا كما هي الحال في تونس ومراكش المعتبرتين محميتين... وبعد غرديمو أخذ القطار يسير في أودية متعرجة، حتى وصل سوق الخميس، فارتفعت الجبال على جانبي الطريق، واكتست بالأحراج الجميلة، وصارت أقرب شبهاً بجنوب لبنان وأواسطه. وأخذ القطار يصعد وظل على ذلك فترة من الوقت لا بأس بطولها حتى انتهى التصعيد في دوفيفيه. لكن الطريق استمر مجتازاً منطقة جبلية، وقبل أن يصل إلى قسنطينة عاد فصعّد، لأن هذه المدينة تقع على مجموعة من القمم يتراوح ارتفاعها بين ٦٨٠ و٧٦٠ متراً».

«والطريق من قسنطينة إلى الجزائر أكثر إمتاعاً. حقاً إن الجزء الأول منها كان عادياً، يجتاز أرضاً سهلية تخترقها أودية أكثرها جاف، لكن بعضها فيه من الماء ما يكفي لأن ينمو البعوض فيه. إلا أن الطريق أخذ يظهر بعض محاسنه تدريجاً، وخاصة بعد أن اجتزنا محطة

برج بوعريريج. فقد تنوعت الألوان في الجبال، حتى لحسبت أن الحديد لا بد أن يكون داخلاً في تركيبها. وقد صدق حدسي، إذ لم نلبث أن مررنا بمحطة اسمها، بوزت دي فر، أي باب الحديد.

وهذه الأشجار، التي بدأت زيتوناً وصنوبراً افريقياً متفرقاً، لم تلبث أن تزاحمت في بقع كثيرة، ثم تناكبت في غيرها، وأخيراً تعانقت صفصافاً وحوراً جميلاً على عدوات الأودية. وقد بدا عناقها رائعاً لأنه جاء مع غروب الشمس، التي كانت تختفي ثم تبدو، بسبب دوران الطريق ولفها في هذه الأودية المحاطة بجبال ترتفع أحياناً حتى تحسب أنك تسير بين قمم لبنان الشمالي، وخاصة المجموعة التي تقع على يميننا (أي شمال الطريق) والمعروفة باسم القبايل الكبرى.

«وأخيراً خيم الظلام، فلم أعد أتبين سوى أنوار المزارع والقرى عن بعد، وأنوار المحطات إذ نجتازها سراعاً أو نقف فيها لحظات.

«وفي زيارتنا للبليدة، على نحو خمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من الجزائر، اجتزنا وسط كروم هي غاية في الإتقان والترتيب والعناية، تتخللها أشجار من الزيتون، ويزين التلال الملاصقة لها شجر الصنوبر وبعض الأرز. والقرى التي في الطريق تمثل عمل الفرنسيين أي اغتصابهم للأرض. والبليدة تقع في منطقة التل، أخصب أجزاء القطر الجزائري. وعلى مقربة من البليدة، على نحو خمسة عشر كيلومتراً منها، زرنا وادي السعادين. وهو من حيث جماله وماؤه وهواؤه لا يقل عن أودية قاديشا والباروك والقرين. تحف به الجبال إلى ارتفاع شاهق وتكسو سفوحها أشجار الأرز، ويخترق الوادي نهير ينبع في أعاليه، ثم يتدحرج إلى البليدة وما إليها وهو يروي الأرض وينعش السكان»

«والطريق من مدينة الجزائر إلى تلمسان يجاري أطراف منطقة التل والسفوح الجنوبية للأطلس الشمالية. ولا تقل هذه الطريق التي اجتزناها في الساعات العشر الماضية جمالاً عن تلك التي وصفتها من قبل بين قسنطينة والجزائر. وقبل أن نصل تلمسان أخذت الطريق تدور بنا وتلف، متجنبة هذه الأودية السحيقة، مجارية لهذه الجبال السامقة، مستظلة بين الفينة والفينة بهذه الأشجار الباسقة، مشرفة، بين الحين والحين، على نهيرات عذب ماؤها وصفا لونه حتى لكأنه غير الماء. ولم نلبث أن أشرفنا على تلمسان، فإذا بنا في منبسط من الأرض جاد فيه التراب، فأينع الثمر، وانتظم الشجر، وفاح من الزهور أريج، وكسا الجبال غاب، فنقلنا ذلك كله إلى عالم فيه من الجمال ما يعجز الوصف. لولا أن كثيراً من هذا، مثل ذلك الذي رأيته في طريقي إلى البليدة، يمثل انتزاع الفرنسيين للأرض من أبنائها، وإقامتهم ملكهم على أشلاء المجتمع العربي في البلاد.

«ومثل ذلك يقال عن الطريق من تلمسان إلى وهران، ومنها إلى مستغانم. فإنا نسير في كل هذه المناطق في أراض جميلة خصبة، وإن كان يعطل هذا الخصب، في سنوات كثيرة، جفاف يحوق بالأجزاء الجنوبية من التل وبالسهوب، فيأتي على الحرث والسعي (الماشية) ويزيد في فقر القوم»(٦).

٤

وأتيح لي أن أصل المغرب. وكانت الزيارة الأولى سنة ١٩٥٩، إذ لم أمنح تأشيرة لدخول المغرب أيام الحماية الفرنسية، ولم أدرِ لماذا!

كان من أول الأماكن التي استمتعت بزيارتها زرهون حيث شاركت في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف. وقد كتبت عن ذلك يومها ما يلي:

نحن في المغرب، في قلبه الخفاق، إننا نقف على ارتفاع يقرب من ٧٥٠ متراً، في مدينة صغيرة لعل عدد سكانها لا يتجاوز العشرة آلاف. إن بيوتها تتوج هامة هذا الجبل الأشم، وتنحدر على جوانبه بحيث تلفه كأنها تحاول أن تقيه من عوامل الطبيعة. فإذا وقفت البيوت عند هذا الحد قامت أشجار الزيتون القوية بالمهمة نيابة عنها، حتى تبلغ الوادي الذي يدور بالقرية وجبلها من جهات ثلاث. ومهمته ان يدرأ عنها عوادي الزمن، لكن الوادي نفسه تحميه من مثل هذه العوادي جبال تحوط به وترتفع في أجواز الفضاء. والمدينة نفسها يتوسطها جامع وضريح. وليست العبرة في أن يكون في المدينة جامع وضريح، ولكن أن يكون هذين بالذات. إنه ضريح مولاي إدريس الأكبر (١٧٢ ـ ١٧٧هـ/ ٧٨٩ ـ ٧٩٣م) وجامعه. وأنت إذ تلقي نظرة إلى الجهة التي تخلّى عنها الوادي، وقع طرفك على سهل جليل عامر؛ فيه خصب وفيه ماء وفيه تاريخ. أما الماء والخصب فهما اللذان صنعا التاريخ إلى حد ما. فقد تحلق الناس حول الماء، فلما كثر عددهم حفروا للماء سبلاً وصل بها إلى رقعة أوسع، أوى إليها من الناس عدد كبير. وكان أن تعددت ألوان السهل والجبال المحيطة به: فاخضرار الشجر والزرع تجاوره التربة الحمراء حتى لكأنها قلب تفتح الحب فيه فجرى أثره في الوجنات. وإلى جانب هذين تقف الصخور الدكناء والمغبّرة والبيضاء، وهي صخور ما كانت لتقول الكثير لو أنها بقيت في أمكنتها. أما وقد عملت بها أيدي الناس فاقتلعتها من مكانها، وسوّت أطرافها وهذّبت حواشيها ورفعتها حجراً جنب حجر، وصفاً فوق صف، فبدت بنياناً مرصوفاً، فكانت معبداً وسوقاً وحماماً وقصراً وقوس نصر وشارعاً تحيط به الأروقة وسوراً. هذه هي وليلي وتسمى وليبولس. وهي فينيقية الأصل، ولكنها من الناحية التاريخية أهم مدينة أنشأها الرومان في المغرب. فقد نالت مدينة الزيت والزيتون عناية أباطرة روما في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، فأغدق عليها انطونيوس بيوس وسفيروس ومرقص أوريلوس وكركلا المال الكثير لإقامة مبان أنيقة جميلة فخمة. وقد استمرت المدينة مركزاً للحياة الرومانية الوثنية والمسيحية. لكن الزمن عفا عليها، فاختفت معالمها تحت التراب وسماها الناس قصر فرعون. ولم يتعرف العالم الحديث إليها ثانية حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ عملت فيها المعاول بانتظام، ونظفت شوارعها أيدٍ مدربة، فخرجت تعلن للعالم أن الحضارة وصلت تلك الجهات في ما غبر من القرون وفات.

وقفت على انقاض وليلي وأجلت ناظري حولي ـ قريباً وبعيداً ـ فرأيت عجباً. هناك في رقعة أخرى من الأرض بعيدة ينبسط امامك سهل فسيح واسع كثير المياه والخيرات، جميل المنظر والمخبر حيي خفر مع منعة وقوة، اسمه سهل البقاع. وفي ركن منه، بقية كبيرة من

مدينة عبد الناس فيها الله عشرات السنين، وبأشكال متغايرة. لكنهم عبدوه بفن وقدسوه بالفن. وقد تعاورت على بعلبك الأيام وتبدل الأحكام، ولكن الأعمدة ظلت مرفوعة الرأس والهامة منتصبة القامة، تتجه نحو السماء، شأنها في ذلك شأن النفوس العلوية.

بعلبك ووليلي وبينهما آلاف الأميال، هما نتاج عصر واحد. ومع أن اليد التي أقامت بعلبك كانت أمهر، فإن الإله الذي صنعهما واحد في الأساس.

وكما انطلق التاريخ من بعلبك غير مرة فقد انطلق التاريخ من وليلي كذلك. فإن هذه كانت موطن المولى إدريس الأكبر الذي وصل هناك في أواخر القرن الثامن للميلاد واستقر به المقام بين أهلها، وكان بينهم أتباع الأديان على اختلافها، لكنه علمهم الإسلام فقبلوا ذلك منه وملّكوه عليهم.

وهكذا فنحن نطل على وليلي فنشرف على تاريخ طويل ينتهي منه فصل ليبدأ فصل. في هذه الرقعة انتهت حضارة الرومان، لتبدأ حضارة العرب. وانتهت الوثنية والنصرانية، ليبدأ الإسلام. ولكن ظل من كل ذلك الماضي شيء في الذي تلاه، لا في الآثار فحسب، ولكن في الحياة. فالتاريخ لا يقف فجأة ليبدأ فجأة. والحضارات أمور تتلو فيها الأجزاء بعضها البعض ليتم منها كل أو ما يشبه الكل. ومن هنا كان هذا الإعجاب الذي شاهدناه بأنفسنا ونحن نرقب إخواننا المغاربة وهم يتجولون بين انقاض وليبولس، ويدركون أن شيئاً من أولئك الذين رفعوا تلك العمد وأقاموا تلك الأسوار وبنوا تلك القاعات وشيدوا تلك الهياكل، لا يزال يسري في دمائهم ويقيم في نفوسهم.

أشرف ابن زاكور على مقام مولانا إدريس بن عبد الله بزرهون، وهو على مقربة من وليلي، فقال فيه:

«هذا هلال المغرب — هذا مجلي الغيهب
هذا الذي أنواره — تفوق كل كوكب
هذا الذي من أمَّه — لا يختشي من نوب
هذا الذي من زاره — ليس يرى من تعب
هذا رفيع الرتب — هذا عظيم المنصب»

وحظيت بعلبك أيضاً بشاعر يصف خربها هو خليل مطران الذي قال من قصيدة طويلة:

«خِربٌ حارت البرية فيها — فتنة السامعين والنظّارِ
معجزات من البناء كبار — لأناس ملء الزمان كبار
ألبستها الشموس تفويف درّ — وعقيق على رداء نضار
وتحلَّت من الليالي بشامات، كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع — شربتها ظوامىء الأنوار
زادها الشيب حرمة وجلالاً — توّجتها به يد الأعصار
ربَّ شيب أتم حسناً وأولى — واهن العزم صولة الجبّار

مـعـبـد لـلأسـرار قـام ولكن صنعـه كـان أعظم الأسـرار
مـثّل القـوم كلَّ شيء عـجـيب فـيـه تمـثـيل حكمـة واقـتـدار
صنعـوا من جـمـاده ثمـراً يجنى ولـكن بالـعـقـل والأبصـار
وضـروبـاً مـن كـل زهـر أنـيـق لـم تفـتـهـا نـضـارة الأزهـار
وشـمـوسـاً مـضـيـئـة وشـعـاعـاً باهـرات لكنهـا مـن حـجـار
تـلـك آيـاتـهـم ومـا بـرحـت فـي كـل آن روائـع الـزوار
ضـمّـهـا كلّهـا بديع نظام دق حـتـى كـأنه في انـتـشـار
في مـقـام للحسن يعـبـد بعـد العـقل فـيـه والعـقل بعـد البـاري
منتـهـى مـا يجـاد رسـمـاً وأبهى مـا تحج القـلوب في الأنظـار»

ومن وليلي ومن بعلبك انطلق التاريخ، فما وقف عند حد. وهكذا التاريخ لا يقف ابداً ولا يمكن أن يوقفه أحد.

٥

وأنت إذ تهبط مدينة ما أو تزور بلداً ما، لا بد أن تطالعك هناك أمور وأشياء. فهناك موقع المدينة وهناك طبيعة البلد وهناك الناس. فموقع المدينة قد يثير في نفسك شفقة عليها أو حيالها، وفي الحالين تحب أن تعبر عن هذا ساعتها وأن تتذكر الشيء نفسه فيما بعد. وطبيعة البلد لا بد أن تترك في نفسك أثراً من الآثار. فأنت في الصحراء، سواء أكنت تنتقل على دابة أم تحملك سيارة شحن أم ترفعك طيارة إلى الجو لتلقي بك في الطرف الآخر. تمتلىء نفسك رهبة وخوفاً. هذا ما أحسست به مثلاً وأنا أجتاز الصحراء الكبرى من بنغازي في برقة إلى كانو في شمال نيجيريا. هي الرهبة من الفراغ، ولو أنه دونك، أو لأنه دونك، بآلاف الأمتار، والخوف من الخواء الذي تشعر أنه يلف كل شيء. وكل شيء هذا هو امتداد رملي، ناعم حيناً وصلد حيناً آخر، تزوقه الألوان من الأبيض إلى الأصفر الفاتح إلى البني الخفيف، وليس هناك ما يخفف من رهبته وفراغه وخوائه من الشجر أو النبات.

وكم يختلف شعورك إذا كنت تنتقل عبر أرض مكسوة بالشجر أو الزرع يجول في أنحائها الضرع، أو كنت ترى هنا زهرة يفوح منها الأريج وهناك طائراً يغرّد على فنن. فأنت في الصحراء. أو حتى فوقها، لا تنفك تنتظر الخروج منها، فيما أنت، في الثانية، لا ترغب في الانفصال عنها.

وكل مدينة زرتها في المغرب العربي، من تارودانت في السوس إلى درنة في شرق ليبيا، جذبتني إليها ثم أسرتني. فلما أطلقت سراحي كان سحرها قد تغلغل في نفسي، فإذا عدت إلى بيروت لحقت بي أصوات حورياتها البحريات وجنياتها الجبليات، فلا ألبث حتى أعود إليها فرحاً مسروراً كمن يعود إلى حبيبته بعد طول هجر، ودون كلمة عتاب!

أما الناس هناك فقد ربطتني بعشرات منهم صلات ود عميق، فهم لا يفتأون يسألون عني سواء في ذلك الهادي المطردي الليبي والفقيه التطواني الذي يستفسر عبر الدكتور

احسان عباس عن الشيخ نقولا زيادة.

ليس من اليسير أن يتذكر الواحد منا عشرات الأصدقاء الذين ارتبط بهم خلال الزيارات القصيرة والطويلة، ولست أنوي أن أفعل شيئاً من هذا. لكنني اذكر أنني كنت في سنة ١٩٥١ في بنغازي (وكانت هذه زيارة بعد اقامة بضعة شهور من قبل سنة ١٩٤٩)، فلقيت المرحوم المحامي الاستاذ عامر عامر (وكانت تربطني به رابطة صداقة). فلما عرف أنني ميمم شطر تونس والجزائر زودني برسالتين: الواحدة إلى (المرحوم) السيد محمد الحبيب في الأولى، والأخرى إلى (المرحوم) الشيخ محمد بن زكري في الثانية. واكتشفت إذ وصلت تونس أن السيد الحبيب هو أديب ممثل، ولكنه لم يكن يحصل على عمل في المسرح كما إنه لم يكن يُشجع على الكتابة المسرحية. فالرجل كان من المشتغلين بالحركة الوطنية. وهؤلاء كانوا يحرمون العمل الرسمي أو شبه الرسمي، إذ كان كل ذلك في يد الإقامة العامة (الفرنسية).

أما الشيخ محمد بن زكري فقد كان مديراً للمدرسة الإسلامية في العاصمة. وهذه واحدة من ثلاث مدارس فتحتها الإدارة الفرنسية في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان. في هذه المدارس كان الطلاب يعلمون اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي. وكانوا يعلمون اللغة العربية وآدابها والشريعة. وكان خريجو هذه المدارس يوظفون في المحاكم الشرعية في الجزائر، إذ كان يوكل إليهم أمر ترجمة الأحكام (أو تلخيصها في بعض الأحيان) التي تصدرها المحاكم الشرعية، إلى الفرنسية كي يطلع عليها الموظف الفرنسي المسؤول عن التصديق على هذه الأحكام.

وقد لازمني الرجلان ـ الحبيب وابن زكري ـ فعرّفاني إلى كثير من نواحي المدينة وأحيائها، ويسرا لي الاتصال بجماعة من أهل الفكر. وكانت ملازمتهما تتسم بالصداقة والإلفة مع كرم النفس والخلق.

وليس هنا مجال التحدث عن آخرين لا يزالون، ولله الحمد، على قيد الحياة. وقد نعمت بزيارات لهم في آخر مرة زرت تلك الربوع قبل سنوات. ولست أكتم الناس أنني في شوق شديد إلى زيارة للمنطقة في اليقظة، فزيارة الكرى لا تشبع رغبة طالب السرى.

وأنا طالب علم؛ فالزيارة هي ناحية واحدة من نواحي التعرف إلى البلاد وأهلها، ولكن ثمة قراءة في النصوص وفي الآثار؛ وقد فعلت ذلك فغصت في التاريخ، وهو صناعتي، أَستجلي صحفه، وأتبين قصصه، وأكشف عن أساطيره، وأتملى من رواياته، فتم لي من المعرفة الكثير إذا قيس بجهدي، ولكنه قليل إذا قيس بالموجود. وعلى كل، فقد خرجت بثروة أخضعتها لمقاييس من البحث والأسلوب قبستها طالباً وقارئاً وأقررتها لنفسي باحثاً وكاتباً. ودونت بعض ما اهتديت إليه عن المغرب العربي في كتب عدة كان أولها برقة (بيروت، ١٩٥٠)، ثم «ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال» (القاهرة، ١٩٥٨)، وتونس في عهد الحماية (القاهرة، ١٩٦٣)، وصفحات مغربية (بيروت، ١٩٥٥). وترجمت عن الإنكليزية تاريخ المغرب في القرن العشرين لروم لاندو (بيروت، ١٩٦٣)، وليبيا الحديثة لمجيد خدوري (بيروت، ١٩٦٦)، وفاس

لتورنو (بيروت، ١٩٦٧). ووضعت بالإنلكيزية الكتب التالية:

Whither North Africa (Aligarh, India, 1957)

Sanusiya (Leiden, 1958, 1968, and 2nd ed. 1983).

Origins of Nationalism in Tunisia (Beirut, 1983).

وإذا كان كتاب برقة، على ما جاء في الكلمة التي قدمت بها للكتاب: «هو وفاء لبعض الذين الذي طوقت به تلك البلاد وأهلها الغر الميامين عنقي»، فإن كل كتاب وضعته عن المغرب العربي، كلا أو جزءاً، كان فعل إيمان بالقضية التي تحدثت عنها؛ ولكنه فعل إيمان ركيزته البحث عن الحقيقة في مظانها الأصلية، وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة، قبل تدوين النتائج.

٦

كان لا بد من الدخول مع العرب إلى شمال افريقيا فاتحين وحاكمين ومدبرين قبل القيام باكتناه الدور الحضاري الذي تم على أيديهم. ومن هنا فقد أطلقنا على الفصول الأولى من كتابنا افريقيات، «المدخل». والفصل الأول من المدخل، والأولى بهذا الفصل أن يسمى البوابة، لخصنا ما تم على أيدي العرب من فتح أولاً واستيطان ثانياً (خصوصاً على أيدي بني هلال وبني سليم في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، وثورات متنوعة ضد الحكم الأموي ثم قيام دويلات ودول ظل بعضها يعترف بالخلافة بعض الوقت، واستقل بعضها الآخر استقلالاً تاماً، بل بلغ البعض حد التلقّب بالخلافة. حاولنا، في هذا الفصل، أن نجمل ما يحتاج إلى مساحة كبيرة لتفصيله. فالبوابة هي نقطة للدخول، لكن كان يغلب على البوابات، في المغرب العربي وفي سواه، أن يكون تخطيط البوابة معقداً، كي لا يسهل الدخول منها إلى المدينة. أما نحن فحاولنا أن نخطط بيسر ونوضح بسهولة. وكل ما يحتاجه القارىء ـ لهذا الفصل وسواه ـ أطلس يقلّب صفحاته ليحصل على الخارطة المناسبة.

وسيرى القارىء أننا ألمحنا إلى الإنجازات الحضارية التي تمت على أيدي العرب في الفترة الممتدة منذ بدء الفتوح ٢٢ هـ/ ٦٤٠م، حتى الفتح العثماني للبلاد ـ إلا المغرب ـ في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

إن أخصّ ما يلفت في دراسة هذه الفترة من تاريخ المغرب العربي، هو أن الدويلات التي تفرعت عن دولة الخلافة، جاءت نتيجة قوة الضرح المركزي (أي قوة الدفع عن المركز)، ولكن كانت ثمة مبررات لجأ إليها القوم لما انكمشوا على أنفسهم، البعض في ظل الخلافة، والبعض مستقلاً على ما ذكر، كانت لهم مقولات يرتكزون إليها، منها الديني ومنها الإتني ومنها الإداري ومنها التجاري. لكن هذه القوة الدافعة إلى الخارج كان يقابلها قوة اللم الداخلي، إذا صح التعبير. وهذه تمثلت بالإسلام الذي انتشر تدريجاً ثم تجذر وأصبح العروة الوثقى، وباللغة العربية التي كانت وسيلته إلى القوم كما كانت تتقوى بوجوده.

ولما وصل العثمانيون إلى المغرب العربي حازوا ليبيا وتونس والجزائر، وامتنع المغرب

(الأقصى) عليهم. وتجربة المغرب مستقلاً، وما تبقى من المغرب العربي ولايات عثمانية لكل كيانها الخاص وخصوماتها وحروبها فيما بينها، هذه التجربة وما عرفته المنطقة من تحرك اقتصادي كان يتناسب مع ما يتطلبه العالم يومها ـ وكان قد اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح والعالم الجديد ـ هي موضوع الفصلين الثاني والثالث.

لم يسمح الغرب الأوروبي للمغرب العربي أن يتم تجربته أو أن يظل مكانه على الأقل. فقد خرجت أوروبا في القرن التاسع عشر إلى العالم الواسع تقضم منه أجزاء هنا وأجزاء هناك، وتحتل منطقة هنا وأخرى هناك، لتقيم لمتاجرها اسواقاً، وتلتهم المواد الخام اللازمة لصناعتها. وهي تدّعي، عهراً وبطلاناً، أنها إنما تحمل على عاتقها واجب الرجل الأبيض لنشر الحضارة عموماً، والحرية والفكر خصوصاً، بين الشعوب التي فرضت نفسها عليها. وكان الاستعمار الذي عرفه المغرب العربي من أسوأ ما خبره الناس في العصور الحديثة.

فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠، وتونس ١٨٨١، والمغرب ١٩١٢، كما هاجمت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١، وفرضت فرنسا على القطر الجزائري نفسها، فضمته إلى أرضها واعتبرته جزءاً منها. وانتزعت من السكان الأراضي الخصبة وقسمتها بين رعاياها الذين أرسلتهم إلى تلك البلاد. أما تونس فقد فرضت عليها نظام الحماية، وهذا هو الذي فرضته على المغرب لما وصل دوره. لكن إذا جرّدنا القضية من الاسم، فإن ما فعلته فرنسا في المحميتين كان من نوع ما فعلته في الجزائر. ولم تقصر ايطاليا، إن لم تكن أشرس في معاركها خصوصاً. وقد تناولنا عمل ايطاليا في ليبيا في كتابينا: ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال (القاهرة، ١٩٥٨ ـ ط ٢)؛ ليبيا في العصور الحديثة (القاهرة ١٩٦٣).

أما في هذا المجلد، فقد رأينا أن نضع في المدخل فصلين: الواحد عن «الجزائر ومشكلاتها»، والثاني عن «تونس وقضيتها». وهما الفصلان الثاني والثالث.

٧

أمّا وقد اجتزنا المدخل، فإننا نجد أنفسنا في رحاب المغرب العربي، وأمامنا أحاديث ومقالات عن مدن زرتها، وطرق جزتها ومؤسسات عرفت عنها أو عرفتها. وسيرافقني القارىء مستمتعاً بما استمتعت، مستلهماً ما استلهمت، مكتشفاً معي ما اكتشفت. وقد يجنح به الخيال، كما جنح بي أحياناً، فيرى أكثر مما رأيت.

ومع ذلك، فهذه الفصول التي أضعها بين يديه قد تظل منفصلة متفرقة إن لم أربط بينها بما جرى لي هنا وهناك وبأحاديث عمن عرفت ولو لماماً. ولأن زياراتي كانت تتنوع أسبابها وتتعدد مسبباتها، فقد يبدو حديثي وكأنه مكوكي. وأنا أرى أن هذا التعبير مناسب لما أريد قوله على اعتبار أن المكوك هو أداة الحياكة والنسيج، وأنا أحاول أن أحوك هنا وأنسج، لا شبكة اصطاد بها القارىء، ولكن قطعة من القماش الناعم لعلني أستطيع أن أرسم عليها صوراً فيها متعة تنضاف إلى متعة القراءة.

في أول زيارة لليبيا سنة ١٩٥١ (بعد فترة العمل السابقة)، كان بين من استقبلني رئيس

وزراء ليبيا في الحكومة الانتقالية، المنتصر، الذي وضع سيارة حكومية تحت تصرفي وكلف الاستاذ برهان، من أعضاء مجلس النواب، أن يرافقني. وهذا الرجل كان ذا معرفة وافية بتاريخ ليبيا، ومن رجال السياسة والجهاد فيها، فكان أن زودني بالكثير مما يشار إليه على أنه «معلومات داخلية»، وكنت أنا مغرماً بزيارة الآثار الليبية، وهي كثيرة، وكان ثمة بدء عمليات التنقيب عن الآثار. كنت قد زرت قيريني (الشحات) في الجبل الأخضر في برقة. وكان مدير الآثار في برقة المستر جونز الذي كان أحد موظفي ادارة الآثار العامة بفلسطين. والذي كانت تربطني به صلة من تلك الأيام. وذهبت مع برهان في يوم قاظ وسطه، وكان أن وصلنا الخمس (لبدة) في تلك الساعة. فرجوت برهان، وكان فيه سمن وله تقدم في السن، أن يقيل في ظل شجرات لطيفات، وذهبت أنا أدور بين الآثار، وإذا بي أمام مدير الحفريات. ولما أظهرت رغبتي في الزيارة ترك عمله ورافقني وحدثني عن تاريخ هذه المدينة الرومانية أصلاً كما تحدث عن مدينة صبراتة (التي زرتها في اليوم التالي). وفي سنة ١٩٦٨ أقامت الجامعة الليبية ـ وكانت بعد جامعة واحدة بفرعين: واحد في بنغازي (الآداب والتربية والتجارة)، والآخر في طرابلس (العلوم والهندس) في فرعها في بنغازي ـ مؤتمراً تاريخياً عن ليبيا عبر التاريخ. وكنت بين المدعوين. وفي يوم الافتتاح وجدتني وجهاً لوجه امام الاستاذ نفسه الذي كان مدعواً للتحدث عن الآثار الرومانية المعمارية في ليبيا!

ولما زرت ليبيا مع زوجتي مرغريت في السنة ذاتها، كان من اليسير علي، وقد وضع الحاج أحمد الهوني وزير الثقافة والإعلام يومها (ونزيل لندن اليوم ورئيس تحرير جريدة العرب التي تصدر هناك) سيارة تحت تصرفنا، أن أكون دليلاً للبلاد والآثار لها ولصديقتها السيدة رائدة جار الله الحسيني التي كانت تعمل هناك في دار المعلمات!

في تونس تزور الجامع الأعظم، وهو جامع الزيتونة، وترافقني في الزيارة، ولو أتيح لك أن ترافقني في السير من باب البحر إلى الجامع لأتيح لك أن ترى الكثير من آثار الصناعة المحلية، حلياً من الفضة وزرابيات (بسُط) وشاشيات (طرابيش تونسية) وغيرها. ولكنت تتنشق رائحة التاريخ الطويل تملأ رئتيك، دون أن تصدعك، ولكنت استمتعت بما كنت أستمتع أنا به إذ أدخل حوانيت الوراقين ـ باعة الكتب القديمة الطبع، وبعضها مطبوع على الحجر ـ حيث نتحدث حول الكتب، وأبتاع منها ما يقدر عليه جيبي، وأترك لصديقي المزابي (الجزائري الأصل) إرسال الكتب بالبريد! وكان هذا يتكرر كلما زرت تونس!

كان رفيقي في تونس الحاضرة في أول زيارة (١٩٥١) السيد محمد الحبيب، على ما ذكرت. وكان ممن تعرفت إليهم في تلك الزيارة الشيخ الفاضل بن عاشور، أحد كبار شيوخ الزيتونة يومها. زرته في مكتبه في الجامع، ورافقني متفضلاً لزيارة المكتبة، ثم رتب لي زيارة لحضرة والده الشيخ الطاهر بن عاشور وكان أحد كبار رجال الإصلاح في تلك الحقبة. وكان من غرائب المصادفات أنني بعد زيارتي لتونس والجزائر في ذلك الصيف (١٩٥١) أن عرجت على استانبول لحضور مؤتمر المستشرقين.

وصلت عاصمة الامبراطورية العثمانية قبل الموعد بأسبوع لأمتع نفسي بالتعرف إلى معالم المدينة الكبيرة. وفيما أنا خارج في أحد الأيام من زيارة جامعة السلطان أحمد، وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الشيخين الأب والابن اللذين كانا داخلين لأداء صلاة العصر، فكان لقاء وتحية ودعاء بأن يتقبل الله منهما وأن يذكراني بالخير.

وكان ان لقيت الشيخ الشاذلي النيفر العالم الفقيه والاديب. وأسرة النيفر في تونس أسرة عرفت العلم والادب جيلاً عن جيل. وقد كان منهم صاحب عنوان الاديب الذي يؤرخ لأهل الادب والشعر في تونس. الشيخ الشاذلي استقبلني في بيته اكثر من مرة، يومها وفي الزيارات التالية، ضيفاً الى مائدته، وطالب علم في مكتبته.

أردت أن أزور القيروان (١٩٥١)، وكنت قد تعرفت إلى الاستاذ مصطفى (سليمان) زبيس، أحد كبار العاملين في الآثار الإسلامية في تونس، فأصر على مرافقتي. ومن هنا جاءت معرفتي الأولى، ثم اتبعتها بما قرأت. وتعرفت في تونس في تلك الزيارة إلى خزانة المعرفة التاريخية في البلد وهو عثمان الكعاك، وكان موظفاً كبيراً في المكتبة الوطنية يومها، وأصبح فيما بعد مديراً لها. زرته في تلك السنة في مكتبه. لكن في سنة ١٩٥٩ حملني إلى منزله في سيدي بوسعيد. ولهذا المنزل حكاية، كان مثلها في تونس مئات. بعد الاستقلال (١٩٥٦) خرج كثرون من الفرنسيين من البلاد عائدين إلى فرنسا، وكان هؤلاء قد بنوا البيوت الجميلة في ضواحي الحاضرة وفي مصايف الشاطىء التونسي الجميل. فرغت المباني من أصحابها وعرضت للبيع بأسعار متهاودة. لذلك تمكن عثمان الكعاك وأمثاله من شراء بيوت جميلة أنيقة، وإلا فمن أين للموظف أن يملك «فيلا» في مصيف بوسعيد!

المكتبة الوطنية كانت غنية بالكتب التي تعنى بالبلد. وقد كانت تحوي نحو ثلاثمائة مجلد عن جغرافية القطر التونسي الطبيعية والجيولوجية. كانت الكتب الفرنسية كثيرة، ولم تكن الكتب العربية موضع عناية كافية. لكن لما تولى عثمان الكعاك الأمر وجه العناية إلى هذه الأخيرة فأصبح الوصول إليها متيسراً، وكثر زوار المكتبة من أبناء البلد.

كان عثمان الكعاك خزانة علم ومعرفة، لكنها خزانة كان ينقصها التنظيم. فأنت إذ تفتحها لتأخذ منها ما تريد، هرّت منها محتوياتها لأنها لم تكن مرتبة. لكنها كانت غنية. وكان الشاطر يستطيع أن يفيد منها.

وهناك لقيت بعضاً من الصحفيين، وكان في مقدمتهم الصحفي الشاب نور الدين صمود، وهو الآن في مقدمة العاملين في حقلي الشعر والأدب في البلاد. وقد اتصلت بعدد من الشباب المنضمين إلى الحزب الدستوري الحر وتنظيماته. ورافقتهم في رحلات طويلة إلى صفاقس وقابس وطبرقة وبنزرت وجربة. وحضرت، بدعوة من القيادات المحلية، اجتماعات اللجان التي كانت تدرس مقترحات أتتها إما من أهل المنطقة أو من القيادة لإبداء الرأي والملاحظات. وكان أكثر ما حضرت منها في حومة السوق (جربة) وقابس وسوق الأربعاء. وكانت هذه الاجتماعات في الزيارات التالية: (١٩٥٩ و١٩٦١ و١٩٦٨ و١٩٧٠). وطلب

مني أن ألقي محاضرات ففعلت في تونس وصفاقس. وألح علي مدير قسم الأحاديث الأدبية في الإذاعة التونسية (السيد حسين العكروت) فلبيت طلبه أو على الأصح بعض ما طلب!

هذه الاتصالات والتنقلات والرحلات والزيارات أتاحت لي فرصاً للتعرف إلى الحياة في تونس أو في مما تحمله الكتب والوثائق إلى القارىء. فكانت الواحدة دعماً للأخرى.

أما الحبيب بورقيبة فقد لقيته لا في تونس ولكن في بيروت في خريف سنة ١٩٥١، وفي بيت الزميل الصديق سيسل حوراني. ولهذا اللقاء قصة ليس هنا موضعها.

٨

لعل تعرفي إلى الجزائر والجزائريين لم يختلف عما لقيت في تونس إلا من حيث المساحة. فالجزء الذي زرته من هذا القطر كان صغيراً، لكنه كان كافياً لأتعرف منه مشكلات البلاد (اما تاريخها فحصلت عليه من الكتب من قبل ومن بعد). كان دليلي في الجزائر (المدينة)، كما مر بنا، الشيخ محمد ابن زكري. واقترح علي يوماً أن أزور حاكم الجزائر العام، فقبلت على أن يرافقني ليترجم لي. وتم الترتيب وذهبنا إلى مكتبه، وكان الحاكم نفسه في إجازة، ولكن السكرتير العام للحكومة كان ينوب عنه دائماً. كان الموعد في الثانية عشرة زواليه. ولما دخلنا مكتبه شكرته على استقبالي فقال لي: نحن لا يزورنا كل يوم استاذ جامعي. وقد خصصت لك ساعة كاملة للحديث، فاسأل ما تشاء. سرني ذلك. وبعد أن شكرته وجه لي سؤالاً بسيطاً فيما إذا كنت قد زرت مدناً أخرى قبل العاصمة. فقلت له إنني زرت قسنطينة، فأضاف نحن احتفظنا بقسنطينة متحفاً اجتماعياً، فقلت له: كان من الممكن الاحتفاظ بها متحفاً نظيفاً (سيرى القارىء في الفصل الخاص بالاستعمار الفرنسي في الجزائر معنى هنا). عندها نظر إلى ساعته وقال إنه تذكر أن لديه موعداً آخر. وهكذا مُسخت الساعة إلى خمس دقائق.

الشخص الآخر الفرنسي الإداري الذي لقيته كان الكابتان سولبير، وهو المنسق للعلاقات بين المغرب والجزائر وتونس. ذلك أنني لما تركت بيروت كنت قد حصلت على تأشيرة لزيارة الجزائر وتونس، أما تأشيرة المغرب فلم تكن قد وصلت. في بيروت كان يقيم واحد من أصدقائي هو المرحوم عز الدين الشوا، الذي كان يعرف الكابتان سولبير. فنصحني أن أحاول الاتصال به لعله يسهل المهمة؛ ولكن لا رسالة عز الدين ولا شفاعة ابن زكري نفعت، ولم يسمح لي بزيارة المغرب يومها.

كان في جعبتي رسالة إلى أحمد توفيق المدني. وهو من المناضلين الجزائريين، فضلاً عن كونه من أهل الفكر هناك. تواعدنا، لما اتصلت به الساعة الرابعة بعد ظهر يوم من أيام آب/ اغسطس، فذهبت في الموعد، وقال لي إن اجتماعاً سيعقد في مكتبه في الساعة السادسة، لذلك فنحن لدينا ساعتان. أحمد توفق المدني شرح لي القضية الجزائرية شرحاً وافياً. بعد نحو ساعة ونصف الساعة من وصولي بدأ المجتمعون بالوصول، فاتفقنا على أنني استطيع ان أبقى وأتحدث إلى القادمين إلى أن يكتمل النصاب، فأنسحب. لكن الذي حدث أنه لما اكتمل النصاب قال أحدهم: لماذا لا يبقى الضيف؟ نحن لا نعمل في الخفاء. بقيت وكان

المجتمعون يمثلون المجتمع الجزائري السياسي من أقصى اليمين إلى أحدّ اليسار. من جمعية العلماء المسلمين في الجزائر إلى الحزب الشيوعي. وكان القصد من الاجتماع «إنشاء لجنة الدفاع عن الحقوق الديمقراطية في الجزائر». أكان من الممكن أن تتاح لي فرصة أفضل من هذه للتعرف إلى الناس والاطلاع على ما يريدون؟.

وعن طريق أحمد توفيق المدني أرشدت إلى الشيخ البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر (وهي التي ستقرأ عنها في موضعها، والتي كنت أول من كتب عنها من المشارقة). ونشأت بيني وبين الشيخ البشير صداقة في الزيارات التي قمت بها لمركز الجمعية. وفي سنة ١٩٧٠ كنت في تونس وعرفت أن الشيخ البشير هناك، وكان مريضاً، فزرته وطلب مني أن أنحني ليغمرني بقبلة (في سنة ١٩٧٨ كنت في الجزائر لحضور مؤتمر عن ابن خلدون، ولقيت أحمد الإبراهيمي وكان وزيراً فقال لي إن والده كان يحدثه عني. وكم سررت أن هذا الشيخ الجليل تذكر هذا الزائر العربي من المشرق).

كان في نيتي زيارة تلمسان ووهران. ولما عرف الشيخ البشير بذلك أنبأني أنني سأكون ضيف الجمعية هناك. وأخذت القطار من العاصمة إلى تلمسان. سار القطار من العصر، عبر الليل، ولما قارب الوصول إلى تلمسان بدأت حواراً مع نفسي: هل أحلق وأغير القميص في القطار، أم أترك ذلك حتى الوصول إلى الفندق؟ وأخيراً تغلبت عادتي علي فحلقت وغيرت القميص. وكم سررت بذلك إذ وجدت عشرة من الشباب ينتظرونني على المحطة!

سيعثر قارىء هذا الكتاب على وصف وتاريخ لتلمسان في مكانه من الكتاب، لكن الذي لن يجده هناك، والذي أرويه هنا هو الأمسية التي قضيناها في منزل التاجر الكبير الكريم الحاج بن يونس. دعينا للعشاء، وكان هناك هو وأنا وفئة من أعضاء الجمعية؛ لعلنا كنا جميعاً نحو الدزينة. بدأ الاجتماع حوالى الثامنة مساء، وطُعمنا خير زاد. ودار الحديث حول القومية العربية.

اتفقنا من أول الأمر أننا لن نحاول الإقناع بصحة القضية القومية ولا بعقمها. كانت الفكرة توضيح هذا الذي ندعو إليه في المشرق ومعناه وغايته. تناقشنا إلى بعيد منتصف الليل. وكان آخر ما قاله الحاج بن يونس: هل تنتظر مني إذا كانت هناك مشكلة وقعت لك، وأخرى مماثلة وقعت لباكستاني، أن أهرع إلى مساعدتك قبل الباكستاني لأنك عربي مع أنه مسلم؟ قلت: لا أمنعك طبعاً من مساعدة الباكستاني، لكنني أود أن تشعر أنني أقرب إليك بسبب العروبة من الباكستاني المسلم، الذي ليس عربياً. فقال ـ وكان قوله فصل الخطاب في حديث تلك الأمسية الطويلة المفيدة: «لا، الباكستاني المسلم اقرب إليّ منك».

أود أن أسرع إلى القول أن الحاج بن يونس ليس الجزائر بأكملها. إنه واحد، ولعله كان له مشايعون وأنصار ومؤيدون. لكن رجلاً مثل أحمد توفيق المدني والشيخ البشير الإبراهيمي مثلاً كانا مسلمين عربيين. وشعار جمعية العلماء المسلمين في الجزائر كان:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتمي

وحتى الشباب الذين لقيتهم في تلمسان ووهران، وهم من جماعة المدرسين في المدارس الرسمية ومدارس الجمعية كانت لهم ميول عربية قوية. لكن مشكلتهم كانت في الدرجة الأولى، عجزهم عن التعبير عن آرائهم باللغة العربية. كانوا يتحدثون عن الأمور العادية بالعربية، فإذا انتقلوا إلى شيء من شؤون الفكر اضطروا إلى اللجوء للفرنسية.

في زيارات لاحقة أتيح لي أن اتعرف إلى آخرين من أهل الفكر في الجزائر مثل أبو القاسم سعد الله المؤرخ للحياة الثقافية في البلاد، ورشيد بورويبة وزملائهما في معهد الدراسات التاريخية.

٩

لم أتمكن من زيارة المغرب للمرة الأولى إلا في سنة ١٩٥٩. وكانت طنجة المدينة الأولى التي عرفتها، وكان العلاّمة عبد الله كنون أول من لقيت من علماء المغرب. زرته في بيته مرتين، ولقيته بعد ذلك مرات، كانت إحداهما في القاهرة. عبد الله كنون عالم جمع معرفة السلف ورؤيته إلى محاولة لدرس الأدب دراسة فيها محاولة النظرة الحديثة؛ ولكنني واثق من أنه لم ينل رضى أهل الحداثة ولا ثقتهم. وأنا، لأنني طالب علم، كان من حسن حظي أن أجتمع إلى هذا الرجل.

لما وصلت الرباط ـ بعد زيارة لطنجة وتطوان ـ نصحني سفير لبنان في المغرب يومها أن أذهب لزيارة مراكش، لأن عيد المولد النبوي اقترب. والمألوف منذ عقود طويلة من السنين هو أن يحتفل بالعيد في زرهون. ويكون ملك المغرب (محمد الخامس يومها) على رأس المحتفلين. ويرافق الملك جميع الموظفين الكبار ورجال السلك الدبلوماسي. ومعنى هذا أن الرباط تفرغ ممن يستحق أن يزار أو يقابل. وقبلت النصيحة.

إلا أنني عرفت، مصادفة، أن مرغريت بوب تعمل في القسم الإنكليزي من الإذاعة المغربية. ومرغريت هذه عرفتها في فلسطين (في الأربعينات) إذ كانت تعمل في الصحافة، وكانت قد خطبت لأحد أصدقائي؛ ثم اختلفا ففسخت الخطبة. كلمتها تلفونياً ودعوتها للعشاء. ولما جاءت سألتني عما أنوي فعله، ولما انبأتها عن نصيحة السفير اللبناني لم توافق عليها. وقالت إن هذه فرصة العمر لأن أحضر احتفالات المولد النبوي في زرهون. وذكرت لي أن السيد مراد، القائم بالأعمال الهندي في الرباط (وهو حديث عهد بعمله) لا يعرف العربية، ولعله يسر إذ انا رافقته. وكلمته تلفونياً، فكان عند حسن ظنها، وهكذا مرّ بي في اليوم التالي، ووفقت في الحصول على غرفة في فندق مكناس في مدينة مكناس (مكناسة الزيتون) وهي المدينة التي بناها المولى إسماعيل (١٠٨٢هـ/ ١١٣٩م هـ ـ ١٦٧٢م/ ١٧٢٧م) لتكون عاصمته، ولم تكمل في أيامه وأهملت بعده. وقضيت خمسة أيام في المنطقة زرت خلالها وليلي وزرهون ومكناس وأفران وكنت في صحبة جماعة من الدبلوماسيين وذلك بسبب السيد مراد. ولقيت في زرهون وفي مكناس سفير لبنان في المغرب لكنه لم يعن بي. ذلك شأنه، رحمه الله.

لعل زياراتي للمغرب كانت، من حيث العدد، أكثر من زياراتي لأي من أقطار المغرب

العربي. تعددت وكان بعضها بمهمات رسمية، فضلاً عن الدعوات لحضور مؤتمرات وزيارات خاصة. وتنقلت في أنحاء المغرب وزرت مدنه العديدة. جميع زوار المغرب يعرفون الدار البيضاء وفاس والرباط ومراكش. لكنني أضفت الى ذلك تطوان وطنجة وشفشاون في الشمال، ووادي زم في اواسط البلاد، وتارودانت وأغادير وآسفي في الجنوب.

وأتيح لي أن اتعرف إلى عدد من الزملاء في الجامعة (جامعة محمد الخامس) مثل: محمد زنيبر ومحمد الحجي وإبراهيم حركات ومحمد بن شريفة، وآخرين من أهل العلم والبحث مثل: الفقيه التطواني والفاسي والكتاني وابن داود ومحمد القبّاج. ومن رجال السياسة: علال الفاسي، وألقيت عشرات من المحاضرات على معلمي المدارس الابتدائية (١٩٦٥ و١٩٦٦)، وأخرى عامة بدعوة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (١٩٧٩).

لن يستغرب القارىء، بعد أن يقرأ هذه الصفحات التي دونت فيها، وبكثير من الاختصار، بحيث إنها كانت إشارات، مدى اتصالي بالمغرب أرضاً ومدناً وقرى وناساً وأشرت إلى القدر الذي أتيح لي للتعرف إلى جغرافية البلاد لا من حيث تضاريسها فحسب، ولكن من حيث انها الرقعة التي حدث التاريخ فوقها، والتي أثرت في توجيهه. والدرجة التي استمتعت فيها بوجودي هناك وتذوقي الطعام الذي يطبخ من الكسكس إلى الطجين إلى السمكة الحارة. إذا عرف القارىء هذا، وهو قليل مما دخل في تكويني النفسي، استطاع أن يدرك الحب الذي عبرت عنه في وصفي للمدن والمجتمع والطرق، والشوق الذي أكنه لكل شخص لقيت، وكل مكان زرت، وكل طريق قطعت، وكل رفيق درب عاشرت، وكل جهد بذلت، وكل تعب لقيت، وكل مشقة عانيت. وهذا كله، وكثير غيره، هو الآن ليس شيئاً أتذكره فأنشد ذكره فحسب، بل كل حادث من هذه له في قلبي مقر وفي نفسي مستقر وفي عقلي موضع وفي أذني مسمع. وأنا إذ أجلس احياناً إلى نفسي، وأستعيد مراحل حياتي، التي طالت (ولله الحمد) لكنني لم أملّها ولم تملّني (أقول هذا تحدثاً بنعمة الله) وأستذكر الأحداث، أرى لعلاقتي بالمغرب العربي بقعاً صافية ونقاطاً واضحة، تدور الذكريات حولها، فتتخذ شكل الفتاة الجميلة اللعوب حيناً، والعجوز الحكيم حيناً آخر. ولعلها تبدو جنية ساعة وحورية ساعة أخرى. وكم وجدتني وقد انجذبت نحو الواحدة أو الأخرى فنسيت وجودي وجريت نحوها محاولاً الإمساك بها، فيوقظني من حالتي صوت العجوز الحكيم. ثم أكتشف أن هذا الصوت هو حلم في حلم. أنا في تذكري أسفاري يصيبني مثل هذا، لكن أحلام المغرب العربي أقوى أثراً في نفسي، لأن تلك الزيارات أعمق مكانة في قلبي.

١٠

لم يتح لي أن أزور السودان الغربي، وأقرب مكان إليه وصلته هو شمال نيجيريا. ومع أن أكثر الوقت قضيته في كانو ثم في زاريا ـ وكنت في الحالين ضيف الجامعة هناك ـ فقد أتيح لي التنقل في تلك المنطقة.

هناك اتصلت بعالم يختلف كلياً عن العالم الذي عرفته. هذا العالم يشبه، من حيث بعده عن عالمي الخاص، عالم الهند وباكستان. لكن ذلك لم يقلل من محاولتي التعرف إلى

خصائصه. وأدركت أن هذه المنطقة هي المحطة الأولى، جنوب الصحراء الكبرى، على الطريق الموصل من ليبيا وتونس إلى السودان الغربي.

وتابعت تطور بضعة امور في السودان الغربي، منها انتشار الاسلام في تلك المناطق، والمجتمعات الاسلامية التي نشأت عن ذلك هناك، ومعاهد العلم الاسلامية في السودان الغربي. ورافقت ابن حوقل وابن بطوطة في انتقالهما في تلك الربوع، وحاولت أن أرى التطور الذي اصاب السكان بين القرن الثالث والثالث الهجري/ التاسع والرابع عشر الميلادي. وأخيراً رافقت جيش المنصور الذهبي (٩٨٦ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) الذي سيّره من مراكش الى تمبكتو وجوارها.

هنا وقف الكلام المباح عن السودان الغربي.

وبعد، فهذه الفصول، التي أضعها أيها القارىء بين يديك، فيها معرفة هي نتيجة البحث والقراءة العميقة والتفكير والتنظيم الدقيقين والخبرة الطويلة في التعامل مع التاريخ والحضارة.

وفي هذه الفصول انطباعات هي ما تركه تنقلي الواسع في أنحاء البلاد. وقد سجلت العين هذه الانطباعات، ثم جاء القلم يعبر عنها تعبيراً صادقاً.

وفيها عواطف جاشت بها النفس من حيث أنها نتيجة ما مرَّ بين الناس هناك وبيني في بيوتهم وأنديتهم ومقاهيهم ومضاربهم وقاعات المحاضرات ومسارح التمثيل واجتماعات الأحزاب السياسية؛ وما كان أكثر هذه كلها عبر نحو أربعة عقود من السنين بدءاً من سنة ١٩٤٩، وما أكثر ما كان فيها من أحاديث خاصة، وصلات حميمة ونقاش حاد. لكن ذلك كله كان في إطار من الود والحب. ومن هنا كانت هذه العواطف التي يشعر بها القارىء لهذه الفصول.

وفي هذه الفصول أثر من البيئة الطبيعية التي خبرتها في رحلاتي هناك: صحراء قاحلة حارة، وواحات فيها الخير كل الخير، وجبال تريك نفسك شيئاً ضئيلاً.

هذه الفصول تمثل، من وجهة نظري، احتضان المغرب العربي لي واختزاني المغرب العربي في أعماق قلبي.

في خاتمة المقدمة التي وضعتها لكتابي شاميات (رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٩)، ألفت نظر القارىء إلى ثلاثة أمور: الأول، هو أن تلك الفصول كتبت على مدى سنوات طويلة. فبعضها وضع في الخمسينات، والبعض الآخر كتب في أواخر سنة ١٩٨٥. وهذا يفسر ما قد يجده القارىء من تفاوت في الأسلوب والتعبير. والثاني، ورود التكرار مرات متعددة، وذلك إما لتشابه في المناطق أو في المنطلقات او تيسيراً للقارىء لما كتبت هذه الفصول اصلاً. والثالث، هو انه بسبب هذا المدى الزمني في كتابة الفصول، يمكن أن يكون قد تسرب إليها نوع من التناقض بله التكرار. ولست أعتذر عن التناقض، إن وجد، بل اعلله بأنه يعود إلى

تطور في تفكيري وآرائي. وهذا أمر أعرفه من نفسي، وأنا أحمد الله عليه. فإنني بسببه لم أتوقف عند حاجز، ولم أتقيد في تفكيري. وأقول لقارىء افريقيات مثل هذا القول، آملاً له ومنه أن يفيد منها أولاً، وأن يبحث عن الهنات فيها تالياً.

بيروت نيسان/ ابريل ١٩٩٠

الهوامش

(١) من رسائل الكاتب إلى زوجه أيام إقامته ببرقة.
(٢) من رسائل الكاتب إلى زوجه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) من رسائل الكاتب إلى زوجه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) هذه مختارات من رسائل الكاتب إلى زوجه أثناء زيارته للجزائر في صيف سنة ١٩٥١.

المدخل

١ ـ العرب في شمال افريقيا إلى القرن الثامن عشر

أ ـ العرب في الشمال الأفريقي

إن الفترة التي نريد أن نتحدث عنها تمتد من بدء الفتوح العربية للمغرب الكبير إلى الفتح العثماني في القرن السادس عشر الميلادي (إن المغرب الأقصى، أي بلاد المملكة المغربية الحالية، لم يقع تحت الاحتلال العثماني، ولكننا سنقف عند ذلك القرن حتى بالنسبة إليه، وذلك من أجل التنسيق التاريخي).

ويمكننا أن نقسم هذه الفترة تاريخياً إلى أزمنة تدور، بالدرجة الأولى، حول الأسر الحاكمة التي قامت في شمال افريقيا. وإن كنا سنجد أن هناك توازياً زمنياً بين بعض هذه الأسر على اعتبار الأجزاء الخاصة التي استقرت فيها. والدور الأول، في رأينا، كان دور الفتوح الذي يمتد من سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٠م نحو ثلاثين سنة. ذلك أن عملية الفتح التي بدأت في أعقاب استيلاء العرب على مصر (٢١ هـ/ ٦٣٩م) لم تتَّبع بسبب ما تعرضت له الدولة العربية الإسلامية الأولى من حروب أهلية. فلما قامت الدولة الأموية (٤٠ هـ/ ٦٦١م) استؤنفت الفتوح. لكن عملية الفتح لم تكن سهلة، وذلك بسبب بعد المسافة بين العاصمة، دمشق، وبين ميادين القتال. إذ لم يكن إرسال المدد من الرجال والعدة للقتال والمؤن والزاد بالأمر الهين. ومما لا شك فيه أن بناء القيروان، واتخاذها مركزاً للتموين والميرة ومعسكراً للجند، كان له أثر كبير في سير الفتوح. ويمكن القول اجمالاً بأن الفتح تم، بشكل عام، قبل إرسال حملة طارق ابن زياد إلى شبه جزيرة ايبيريا.

والفترة التي تشمل زمن الدولة الأموية والقرن الأول من العباسية، يطلق عليها عادة عصر الولاة. وفي هذه الفترة كانت العصبية القبلية العربية ـ القيسية واليمانية ـ تشتعل في بلاد المغرب، كما كانت ثمة عصبيات محلية بين قبائل البربر. وهذه العصبيات، مع تصرف الولاة الذي لم يكن دوماً بعيداً عن العصبية، جعل من تلك البلاد أرضاً خصبة لانتشار نزعات إسلامية كانت قد بدأت في المشرق وانتقلت إلى المغرب. وهكذا، فمع أن الإسلام كان قد انتشر بين جماعات كبيرة من البربر، ومع أن اللغة العربية كانت قد وجدت سبيلها إلى مناطق واسعة في تلك الديار، باعتبارها لغة الإسلام والدولة، فإن مذهب الخوارج، وبخاصة الصفرية والأباضية منهم، لقي تجاوباً كبيراً مع سكان البلاد. ويمكن القول إجمالاً إنه منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، كان الصفرية قد قويت شوكتهم في المغرب الأقصى (المملكة المغربية على وجه التقريب) وبعض المغرب الأوسط (الجزائر)، كما كانت قد أصبحت الأباضية صاحبة نفوذ في المغرب الأدنى أو افريقيا (تونس) وبعض المغرب الأوسط.

وجدير بالذكر أن الخوارج في بلاد المغرب، سواء في ذلك القادة الذين جاءوا من المشرق، مثل عكرمة الصفري وأبي سلمة بن سعيد الأباضي وخلفائهما، أو القادة الذين ظهروا في المغرب نفسه، أخذوا يقومون بثورات عنيفة ضد الحكم الأموي منذ سنة ١٢١ هـ/ ٧٣٩م، واستمروا في ذلك إلى أيام العباسيين.

ويجدر بنا أن نضع هنا جدولاً بالدول التي قامت في بلاد المغرب (أي شمال افريقيا) إلى القرن السادس عشر للميلاد، مع التعريف بكل منها.

١ ـ قامت في بلاد المغرب دولتان خارجيتان هما:

(أ) **بنو مدرار** في سجلماسة، في جنوب المغرب الأقصى، صفرية، (١٤٠ ـ ٢٩٧هـ/ ٧٥٧ ـ ٩٠٩م). وقد كان أساس اقتصادها سيطرتها على الطرق التجارية الموصلة من الشمال إلى السودان الغربي؛ وبما أن علاقتها كانت طيبة (على العموم) مع الأدارسة (إلى الشمال منها) والأمويين في اسبانيا، فقد كانت التجارة ناجحة ومفيدة لها.

(ب) **الدولة الرستمية** في تاهَرت (أو تيهرت) في غرب الجزائر، أباضية، (١٦٠ ـ ٢٩٦ هـ٣٨ ٧٧٧ ـ ٩٠٩م). وقد ازدهرت العاصمة والدولة بسبب تجارة الصحراء أيضاً. كما انها كانت المركز العصبي للعمل الخارجي في الشمال الأفريقي.

٢ ـ **دولة الأدارسة**، مؤسسها إدريس الأول الذي بنى فاس واتخذها عاصمة له. هذه الدولة علوية، إذ إن إدريس من أحفاد الحسن بن علي. استمرت الدولة من ١٧٢ إلى ٢١٤ هـ/ ٧٨٩ إلى ٩٢٦م. وقد كان قيام هذه الدولة احتجاجاً على تصرف العباسيين نحو العلويين. ولكن الأدارسة لم يكونوا شيعة.

٣ ـ **دولة الأغالبة**، مؤسسها إبراهيم بن الأغلب، الذي فعل ذلك بتفويض من هارون الرشيد، الخليفة العباسي. وقد ظلت هذه الدولة تابعة، ولو بصورة اسمية، للخلافة العباسية. وكانت عاصمتها القيروان، ودام حكمها من ١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٥م. وإلى الأغالبة يعود الفضل في فتح العرب لجزيرة صقلية وبعض سردينيا.

٤ ـ في سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م توطدت أسباب **الخلافة الفاطمية** في افريقيا (قامت الخلافة في مدينة المهدية)، وكانت النتيجة الأولى لذلك القضاء على الدولة المدرارية والدولة الرستمية ودولة الأغالبة وإضعاف دولة الأدارسة. لكن لما دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م، ضعف شأنهم في بلاد المغرب، وقامت على أنقاض دولتهم هناك:

(أ) **الدولة الزيرية** التي اتخذت من القيروان عاصمة لها (٣٦١ ـ ٥٤٧ هـ/ ٩٧٢ ـ ١١٥٢م).

(ب) **دولة بني حماد** (٣٦١ ـ ٥٧هـ/ ٩٧٢ ـ ١١٥٢م) في الجزائر. (بدأت الدولتان واحدة، لكنها انقسمت بين فرعي الأسرة أيام باديس ٣٨٦ ـ ٤٠٦هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠١٦م).

٥ ـ **دولة المرابطين** (٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م). قامت على اكتاف قبيلة صنهاجة وحلفائها. بنى يوسف بن تاشُفين مراكش واتخذها عاصمة له. استولى سلاطينها على المغرب والجزائر وأجزاء من اسبانيا، التي كان الأسبان قد اخذوا باحتلالها من

الشمال.

٦ ـ **دولة الموحدين** (٥٢٤ ـ ٦٦٧ هـ/ ١١٣٠ ـ ١٢٩٦ م) قام بحركة الموحدين ابن تومرت، وكانت احتجاجاً على المرابطين في أيامهم الأخيرة. وقد اتسع ملك الموحدين بحيث شمل المغرب الأقصى والأوسط وافريقيا ومنطقة طرابلس وأجزاء من اسبانيا.

٧ ـ **الدولة المرينية** (٥٩٢ ـ ٨٦٩ هـ/ ١١٩٦ ـ ١٤٦٥ م)، وقد قامت في أعقابها الدولة **الوطاسية** (٨٣١ ـ ٩٥٦ هـ/ ١٤٢٨ ـ ١٥٤٩ م). كانت عاصمة المرينيين فاس، وكان عندهم شعور بأنهم خلفاء الموحدين، وانه يتوجب عليهم الجهاد ـ وكانت إسبانيا ميدان الجهاد يومها. وفعلوا ذلك. وقد ضعف أمر المرينيين بحيث تولى الوطاسيون الأمر بعدهم، فضلاً عن الدويلات التي نشأت في أجزاء مختلفة من البلاد.

٨ ـ **الدولة الحفصية** (٦٢٥ ـ ٩٨٢ هـ/ ١٢٢٨ ـ ١٥٧٤ م). كان بين اتباع ابن تومرت الموحدي عالم هو الشيخ أبو حفص عمر (توفي ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م). وقد تولى أحفاده مناصب رفيعة في دولة الموحدين. وفي سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م تولى أبو زكريا يحيى إدارة ولاية افريقيا، ولم يلبث أن استبد بالأمر (٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧ م) دون الموحدين. وأنشأ دولة مستقلة ـ استمرت إلى احتلال الأتراك العثمانيين لتونس. والدولة الحفصية من أجلّ دول الشمال الأفريقي في عصرها.

٩ ـ **السعديون** في المغرب (٩١٧ ـ ١٠٦٩ هـ/ ١٥١١ ـ ١٦٥٩ م). هذه الدولة وحدت المغرب ونجحت في إخراج البرتغاليين من المدن الساحلية (الأطلسية) التي كانوا يحتلونها. وفي أيام المنصور السعدي (٩٨٦ ـ ١٠١٢ هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣ م)، احتل السعديون السودان الغربي (تمبكتو وغوا وغيرهما). وقد خلف السعديين الأسرة العلوية المالكة حالياً.

وجدير بالذكر أنه في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)، رحلت من مصر إلى شمال افريقيا، قبائل بني هلال وبني سُلَيم. وهذه القبائل البدوية دمرت الكثير من معالم الحضارة، وبخاصة مدينة القيروان بالذات، لكنها أعطت البلاد دماً عربياً وساعدت على انتشار اللغة العربية.

على أن المهم بالنسبة إلى دخول العرب إلى شمال افريقيا واستقرارهم فيها، ليس قيام الدول المختلفة، ولا الحروب التي قامت بين هذه الدول، ولكن الحضارة التي قامت في تلك الديار نتيجة لهذه الفتوح.

ومن الممكن إجمال المآثر الحضارية هناك في الأمور التالية:

أولاً: وصل العرب إلى تلك الديار في الوقت الذي كان فيه الجمل قد وصل إليها، لكنه لم يكن قد تغلغل في أنحائها. وكانت للعرب صحبة طويلة معه في الجزيرة العربية، لذلك فإنهم سخّروه في قطع الصحراء الكبرى. ومن هنا جاء انتعاش التجارة بين الشمال الأفريقي والسودان الغربي، وهي التجارة التي كانت قد تعطلت أيام الرومان والبزنطيين. وكان التبر والملح المادتين الرئيستين للاتجار، مع الاهتمام بمواد تجارية أخرى كالأقمشة والرقيق.

ثانياً: ترتب على وجود العرب هناك وقيام الدول المختلفة، إنشاء عدد كبير من المدن

نذكر منها على سبيل المثال: القيروان وجامعها الكبير وتونس وجامع الزيتونة وفاس وجامع القرويين ومراكش وجامع الكتبية وتلمسان ومسجد بومدين والجامع الكبير وتطوان الأندلسية الطراز وطنجة والرباط وقلعة بني حماد. وهذه المدن كانت مراكز للعلم والبحث والدرس والترجمة. وقد برز عدد من الأطباء في تونس وغيرها (بنو الجزار في تونس). ولا شك أن أكبر مراكز العلم كانت القيروان (إلى أن دمرها الهلاليون)، وتونس (جامع الزيتونة)، وفاس (جامع القرويين)، وهذان الآخيران لا يزالان من مراكز الحياة العلمية في تلك البلاد.

ثالثاً: كانت البلاطات المختلفة محجة أهل العلم والأدب والشعر. فتاهرت الرستمية (في الجزائر) ومراكش الموحدين عرفتا تشجيعاً للعلم كبيراً. وإلى الأخيرة ذهب أمثال ابن طفيل وابن رشد الفيلسوفين الطبيبين الكبيرين.

رابعاً: في أيام الحفصيين وصلت المدرسة النظامية (مؤسسها نظام الملك، الوزير السلجوقي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) إلى تونس، ومنها انتشرت إلى مدن المغرب، وكانت للمرينيين هواية في بناء المدارس وزخرفتها على ما نشاهده إلى اليوم من آثار مدارسهم في فاس (البوعنانية والعطارين والصفارين). وهذه المدارس كانت ترفد المعاهد الكبرى في تونس وفاس بالطلاب.

خامساً: عني أصحاب السلطة في الدول المختلفة التي قامت في بلاد المغرب بالبناء والزخرف. والجوامع والمساجد والمدارس والرُبُط التي لا تزال آثارها قائمة إلى الآن، تشهد للبنائين والفنانين بطول الباع.

سادساً: وإذا نحن تذكرنا الروابط التي كانت قائمة بين الأندلس والمغرب، وما كان للعرب في الأندلس من مهارة معمارية فنية، أدركنا أن هذا التحاك الذي كان قائماً بين المنطقتين أدى إلى التطوير الفني الذي عرفته بلاد المغرب. وقد ازداد هذا الأثر الأندلسي منذ أن أخذ الاسبان باحتلال المناطق العربية في الأندلس، إذ هاجرت جماعات من العلماء والبنائين والفنانين وأصحاب المعرفة في الزراعة والري والتجارة من إسبانيا إلى المغرب. وترتب على ذلك نقل الخبرات الفنية إلى تلك الجهات. فمن المؤكد أن الكثير من شؤون الزراعة وفنون الري انتقلت مع مسلمي الأندلس إلى الشمال الأفريقي.

سابعاً: وإذا كان الغرب الإسلامي قد بدأ حياته الأدبية والعلمية عالة على المشرق، بسبب سبق هذا، فإن بلاد المغرب (ومعها الأندلس) لم تلبث أن أصبح لها طابعها الحضاري الخاص، فأنتجت فقهاءها وأدباءها وعلماءها وفلاسفتها وبنّائيها وفنانيها ومتصوفتها. وآثار هؤلاء شاهد على الأصالة والشخصية المغربية الخاصة بأبناء المنطقة.

ب ـ الأدارسة

دولة الأدارسة في المغرب: مؤسس هذه الدولة هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن أبي طالب. وكان إدريس قد اشترك في ثورة قام بها الحسنيون في الحجاز ضد العباسيين. وقد انتهت الثورة بالفشل، فأوقع العباسيون بالحسنيين في موسم الحج من سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٦ م في موضع فخ أيام الخليفة الهادي. إلاّ أن قلة من هؤلاء السادة الأشراف

تمكنت من الإفلات من المجزرة، وكان إدريس واحداً منها. وقد انتهى به المطاف إلى المغرب، إلا أن سيره إلى تلك الديار لم يكن يسيراً ولا هيناً. فقد خرج مع مولاه راشد متخفيين متسترين مع الحجاج. لكن أمرهما لم يلبث أن افتضح، فعرف به والي مصر العباسي، علي بن سليمان. إلا أن الوالي لما عرف الرجل ومنزلته أعان صاحب البريد في مصر، وهو واضح (مولى صالح بن الخليفة المنصور)، على أن ييسر لإدريس الخروج من ولايته. وصاحب البريد كان شيعياً، فأراد إنقاذ رجل من أهل الفضل كإدريس، والوالي لم يرد أن يشترك في اراقة دمه أو القبض عليه تمهيداً لذلك. ويبدو أن واضحاً نفسه رافق إدريس.

لم يخرج إدريس ومولاه راشد معاً، ولم يتخذا طريقاً واحدة، وذلك حفاظاً على إدريس ودفعاً للشبهات. ولكننا لا نعرف الطريق التي اتخذها كل منهما. فإدريس وواضح، على ما يروي البكري، سارا في «طريق غامضة». ويعتقد سعد زغلول عبد الحميد أن الطريق الغامضة هذه هي طريق البريد. لكن معرفتنا بطرق البريد الافريقية في تلك الفترة ضئيلة إلى حد أن الجزم بهذه القضية يبدو أمراً بعيداً. وحتى القول بأن راشداً نفسه اتخذ الطريق العام، أي طريق الحاج والتجار، لا يبين لنا تماماً الأماكن التي كان يقف فيها.

وتم الالتقاء في برقة (مدينة المرج الحالية). ومن هناك عاد واضح، واتخذ إدريس ومولاه راشد طريقهما غرباً. ولم يكن اجتياز برقة ومنطقة طرابلس (وخصوصاً أنهما سارا في الجهة الجبلية) صعباً، إذ إن الإشراف الحكومي على هذه الجهات لم يكن قوياً. لكن القيروان كانت صعبة الاجتياز. لذلك، فإننا نرجح رواية البكري وصاحب الاستبصار التي ترى في إدريس رجلاً يقظاً حذراً، يتجنب مراكز القوة العباسية ورجالها (كالقيروان) ويضرب في البلاد جنوباً بعض الشيء، متنقلاً بين البربر متوقلاً سلاسل الأطلس متجنباً سواحل تونس والجزائر ومنطقة التل فيها. وهذه الرواية تفضل، في رأينا، رواية صاحب روض القرطاس الذي أخرج أن إدريس دخل القيروان ومعه راشد وقد تزيّا الأول بثياب صوف خشنة ليبدو وكأنه خادم لراشد. وعلى كل فقد وصل إدريس وراشد إلى المغرب الأقصى مجتازين وادي تازة حتى وصلا طنجة فأقاما فيها. ومن هناك أخذ إدريس يتعرف إلى شؤون البلاد التي اعتقد أن مستقبله ارتبط بمستقبلها. والذي يمكن أن يقال لهذه المناسبة هو أن إدريس أدرك ما كان عليه المغرب من مواقف عدائية للعباسيين أولاً، ومن رغبة في ألا يتبع أمويي الأندلس ثانياً، ومن ميل أصيل إلى استقلال يثبت فيه شخصيته. ولكن يبدو أن طنجة لم تيسر له المكان المناسب للعمل مباشرة فانتقل إلى «وليلي». وتقع هذه عند أقدام جبل زرهون، ويبدأ عندها سهل خصب متسع يمدها بما تحتاج، وتلتقي عندها طرق تنحدر من الجبل إلى السهل، وطرق تتجه من الشمال إلى الجنوب وبالعكس. وسكان المنطقة قبائل بربرية شديدة البأس قوية المراس. وكان التقدم فيها لقبيلة «أوربة»، وكانت زعامة القبيلة قد انتهت إلى اسحق بن محمد بن عبد الحميد. فنزل إدريس عليه. والسؤال الذي يتبادر حالاً إلى الذهن هو: هل كان أسحق يعرف ضيفه إدريس؟ وسؤال آخر: هل أكرم اسحق وفادة إدريس لأنه كان يرى فيه زعيماً كريماً من آل الرسول يمكن أن يكون وجوده هناك حجة ضد

كل من العباسيين (بغداد) والأمويين (الأندلس) فيما إذا رمت أي من الفئتين إلى إخضاع المنطقة؟ لا شك أن إدريس كان يعرف أن دولاً أخرى قامت في المغرب رافعة راية الاستقلال ولم تعترف بدمشق أو بغداد (كالرستمية والصفرية). وكان إدريس يعرف قوة «أوربة» ومكانتها وهي، على الغالب، القبيلة التي اعترضت سبيل عقبة بن نافع من قبل. قد يصعب القول بأن زعيم قبيلة أوربة قبل إدريس ضيفاً مكرماً مدة طويلة وسمح له أن يتمكن من المكان وبعض السكان، وانتظر مدة طويلة ثم قبل به زعيماً. ولذلك فالمرجح، فيما نرى، أن اسحق وإدريس كانا يعرفان كلّ شخصية الآخر وموقفه وأهدافه، وأنهما اتفقا من أول الأمر على الكتمان حتى تستقر الأوضاع ويمكن إعلان الأمر على الملأ.

وعلى هذا، فقد ظل إدريس مجهولاً بالنسبة الى أفراد قبيلة أوربة حتى حان الوقت لإعلان حقيقته. وعندئذ بايعه زعيم القبيلة، وسارت القبيلة خلف زعيمها، وأصبح إدريس إماماً للجماعة. وحري بالذكر أن اسحق نفسه رأى في هذا الوضع ما يرفع من قيمته لا بين جماعته فحسب، بل في المنطقة بأسرها. وهذا ما حدث فعلاً، إذ إنه لم يكد أمر إدريس يعلن ويبايع بالإمامة في أول ربيع الأول من سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٧ م حتى اقبلت على الدخول في دعوة الإمام وبايعته قبائل الجوار الرئيسة وهي «زناتة» و«زواغة» و«زواوة» و«لماية» و«سدراتة» و«مسراتة» و«نفزة» و«مكناسة» و«غمادة». وهكذا، فقد دخلت الدعوة العلوية المغرب من الباب الواسع. وعندها أقامت الدولة الإدريسية في تلك الديار.

وتبع هذا أمران مهمان. أما أولهما فنشر الإسلام بين الذين لم يكونوا قد قبلوه من قبل. ولا شك أن الناس أقبلوا على ذلك بسبب أن صاحب الدعوة كان من سبط الرسول، فأرادوا أن يكون لهم شرف قبولها على يديه. أما الأمر الثاني فهو أن الإمام أخذ نفسه بالفتح والتوسع. ويمكن إجمال عملية الفتح فيما يلي:

١ ـ فتح تامسنا وهي منطقة غنية لأنها تقع في إقليم الغرب وهو من أخصب أجزاء المغرب. فقد احتل إدريس شالة ومنها انتقل إلى منطقة تامسنا فأخضعها (١٧٢ هـ/ ٧٨٩ م).

٢ ـ فتح إقليم تادلا (١٧٣ هـ/ ٧٨٩م). وإقليم تادلا يمتد بين مكناس ومراكش على الطريق الجبلي الداخلي. فإخضاعه كان معناه السيطرة على الطرق التي يمكن أن تصل الساحل بالجبل والشمال بالجنوب. وكان كثير القلاع والحصون، فالاستيلاء عليها يمكّن لإدريس سيطرة كاملة على القبائل القائمة في تلك الجهات.

٣ ـ فتح تلمسان (١٧٣ هـ/ ٧٨٩ م) في شرق المغرب الأوسط (الجزائر). وقد دخل الإمام إدريس تلمسان دون حرب أو قتال لأن القبائل المجاورة، قبلت به إماماً لمجرد تجريده حملة إلى تلك الجهات. وبنى إدريس مسجداً في تلمسان.

يبدو أن الخلافة العباسية في بغداد أدركت عجزها عن الوصول إلى إدريس في تلك الديار النائية، أو لعلّ الخليفة لم يعن بقيام إمامة جديدة هناك، إذ إن المنطقة لم تكن تحت سلطة الخلافة لمدة طويلة. لكن تطور الأمور واتساع الرقعة التي سيطر عليها الإمام

واتجاهه نحو الشرق، لم تكن من الأمور التي يصح السكوت عنها. على أن يد الخليفة لم تكن تستطيع الوصول إلى إدريس حرباً، فوصلت إليه بطريقة أخرى. ذلك بأن الرشيد العباسي، على ما نقله الرواة العلويون والعباسيون، أرسل إلى إدريس من دس له السم في طعامه، فقضى شهيداً، وكان ذلك في سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ ـ ٧٩٢ م. ودفن على مقربة من وليلي التي كانت لا تزال عاصمته، في سفح الجبل المشرف عليها. وهو المكان المعروف إلى اليوم باسم مولاي إدريس في منطقة زرهون. وفيه يحتفل المغاربة بعيد المولد النبوي، ويرأس الاحتفال ملك المغرب بنفسه.

قام إدريس بن عبد الله بهذه الأعمال الكبيرة في ولاية لعلها لم تتجاوز السنوات الأربع. وفرض نفسه وزعامته عل الناس والبلاد بما كان له من قوة الشخصية وارتفاع المنزلة والنشاط المستمر. ولا شك أن أهل تلك الجهات كان يلائمهم أن تنتهي زعامتهم إلى رجل من سبط الرسول. ولذلك فقد كان اختفاؤه عن المسرح السياسي والحربي مدعاة للقلق، إذ إنه لم يترك وريثاً. إلا انه ترك كنزة، وهي جارية بربرية الأصل. حاملاً. فاقترح راشد، وكان لا يزال قائماً، على الزعماء انتظار المولود. فإن كان ولداً ورث أباه، وإن جاءت فتاة اختاروا لهم زعيماً جديداً. ووضعت كنزة ولداً سمي باسم أبيه تيمناً، وكان ذلك بعد وفاة إدريس بن عبد الله بنحو شهرين، تولى راشد خلالهما الفصل في الخصومات بين الناس وأمَّ بهم في الصلاة. واستمر راشد في الوصاية على إدريس بن إدريس حتى وفاته، فانتقل أمر العناية بإدريس إلى أبي خالد العبدي.

ويبدو أن إدريس اعترف القوم بولايته أول مرة سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م وهو في سن الحادية عشرة، وبويع مبايعة الراشد وهو في سن الثالثة عشرة ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م، ثم جاءت مبايعة ثالثة سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م في مدينة فاس، عاصمته الجديدة.

إنشاء مدينة فاس: تختلف الروايات في أمر بناء فاس. فالذي عليه شبه الاجماع هو أن إدريس الأصغر أو الأزهر (أي الثاني) هو الذي بنى المدينة سنة ١٩٢ هـ٤٣ ٨٠٨م. ولكن الدراسة التي قام بها ليفي بروفنسال انتهت به إلى القول بأن المحاولة الأولى لبناء مدينة في موقع فاس الحالية قامت أيام إدريس الأكبر. فبنى هناك بلدة (١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م) على الضفة الشرقية للوادي، وهي التي عرفت فيما بعد بعدوة الأندلس. ولعل وفاته المبكرة حالت دونه وإتمام العمل الذي بدأه، والذي كان يرمي من ورائه إلى خلق عاصمة جديدة لدولته. لذلك تأخر بناء فاس بعض الوقت، حتى بويع إدريس ابنه بالإمامة فأخذ على عاتقه اتمام الأمر الذي بدأه والده. وكان في ذلك إعلان رسمي بأن الدولة الإدريسية قامت بنفسها وفي عاصمة جديدة. وكان ما بناه إدريس الأكبر قد أهمل بعض الشيء ولو انه ظل مأهولاً. فقام إدريس الأزهر (الثاني) ببناء مدينة جديدة على الضفة الغربية من النهر وهي التي عرفت فيما بعد بعدوة القرويين.

والتسميتان ـ عدوة الأندلس وعدوة القرويين ـ فيهما دلالة كبيرة. فقد أخذت فئات من أهل الأندلس، كأهل ربض قرطبة، ينتقلون إلى فاس. ذلك بأنهم ثاروا بالحكم الثاني

فوضع حداً لثورتهم فخرجوا من البلاد إلى فاس ثم تبعهم آخرون واستقروا في عدوة الأندلس. ثم جاءت جماعات من القيروان، بسبب اضطراب الأمر هناك، واستقرت في القسم الثاني أي عدوة القرويين. وظل القادمون من الأندلس ومن افريقيا ينضمون إلى من سبقهم، وكان إدريس الأزهر وخلفاؤه يشجعون الفريقين على الاستقرار في فاس.

وهذا التشجيع والاستقرار هناك له دلالة كبيرة. ذلك بأن إدريس أراد أن يقوي نفوذ جماعة من العرب ليحدث بينهم وبين البربر بعض التوازن.

أعمال إدريس الثاني: انتقل إدريس إلى فاس واتخذها عاصمة له وأنزل بها جنده وأعوانه وأقطع السكان منازلهم وجعل فيها إدارته وإماراته وإمامته. وبعد ذلك انتقل إلى توسيع دولته. ففتح بلاد المصامدة (١٩٧هـ/ ٨١٢ م)، ثم انتقل إلى تلمسان فأعادها وأحوازها وجوارها إلى السلطة الإدريسية وحصّن المدينة ليأمن على دولته من احتمال هجوم من المشرق. وبعد ذلك أخذ بالقضاء على بقايا الخوارج في المغرب من السوس الأقصى إلى شلف. وظل ينظم أمر الدولة حتى وفاته ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م.

آلت الإمامة إلى أكبر أولاده الاثني عشر أو الأحد عشر على رواية أخرى وهو محمد بن إدريس بن إدريس. فاقترحت عليه جدته كنزة أن يتخذ من اخوته أعواناً في إدارة دولته الواسعة فقبل ذلك، وعين الثمانية الراشدين ولاة على الشكل التالي:

١ ـ القاسم: وله ولاية طنجة، وتشمل: سبتة وتطوان وقلعة حجر النسر وبلاد مصمودة، وما إلى ذلك من البلاد والقبائل.

٢ ـ داود: وله بلاد هوارة وبلاد تسول وتازا ومكناسة وجبال غياتة وتامليت.

٣ ـ عيسى: وله مدينة شالة وسلا وأزمور وبلاد تامسنا، وما إلى ذلك من القبائل.

٤ ـ يحيى: وله مدينة البصرة وأصيلا العرايش وأعمالها. وبلاد ورغة.

٥ ـ عمر: وله مدينة تيجساس (تيكساس) وترغة، وقبائل صنهاجة الهبط وغمارة، وفيما بينهما.

٦ ـ أحمد: وله مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلا.

٧ ـ عبد الله: وله مدينة أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة والسوس الأقصى وبلاد لمطة.

٨ ـ حمزة: ولي مدينة وليلى وأعمالها، ومدينة تلمسان وأعمالها.

على أن هذا الترتيب الذي رمى من ورائه إلى تقوية الدولة بالتعاون بين الأخوة أدى إلى قيام التنافس بينهم، وانتهى الأمر إلى حروب أهلية في أيام محمد ثم اتسع نطاقها في أيام خليفته، ابنه علي (٢٢١ ـ ٢٣٤هـ/ ٨٣٦ ـ ٨٤٩ م).

وتوالى على حكم الدولة الإدريسية بعد علي أخوة يحيى بن محمد، ثم ابنه يحيى الثاني. ولما قتل هذا في فتنة داخلية، اغتنم ابن عمه (وحموه) علي بن عمر الفرصة واستولى على فاس وحاول ان يعيد دولة إدريس الأزهر (الثاني) إلى ما كانت عليه. إلا أن ثورات البربر عليه انتهت بإقصائه عن السلطة، التي تولاها يحيى (الثالث) ابن القاسم

المسمى المقدام. وخسر هذا السلطة في ثورة جديدة، وخلفه يحيى (الرابع) بن إدريس بن عمر (٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م).

في هذه الفترة كانت دولة الفاطميين قد ظهرت في تونس. وكانت دولة قرطبة الأموية تتقوى. فكانت الدولتان مصدر خطر كبير على الأدارسة. وتقدم الفاطميون إلى المغرب رغبة في احتلاله. ووجد الأدارسة أنفسهم مضطرين للالتجاء إلى قبيلة غمارة في الريف المغربي. وقد تمكن الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، وهو المعروف بالحجام، من استعادة السلطة وحتى من الاستيلاء على فاس نفسها (٣١٤ هـ/ ٩٢٦ م)، إلا ان حاكم عدوة القرويين في فاس أسلمه إلى القائد الفاطمي. ولم يبق بعد ذلك من دولة الأدارسة الواسعة إلا إمارتان صغيرتان في الريف بين سبتة وطنجة. ولما استولى أمويو الأندلس على سبتة (٣١٩ هـ/ ٩٣١م) اتقلص ملك الأدارسة، وأصبحوا فيما بعد ولاة على المنطقة من قبل صاحب قرطبة. الا أن هذا نفسه لم يطل. فقد أسر القائد الأموي غالب من تبقى من الأدارسة ونقلهم إلى قرطبة سنة ٢٦٤هـ/ ٩٧٤ م.

دولة الحموديين: ترجع تسمية هذه الدولة بالحمودية أو دولة الحموديين إلى حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب. وقد كان لحمود ابنان هما القاسم وعلي. ففي فترة الاضطراب التي مرت بها الخلافة الأموية في قرطبة في مطلع القرن الرابع الهجري/ أوائل الحادي عشر الميلادي، انتزع الأخ الأكبر القاسم لنفسه حكم الجزيرة الخضراء في جنوب إسبانيا، واستخلص أخوه الأصغر علي سبتة لنفسه. وتمكن هذا من احتلال مالقة، ثم خلع الخليفة الأموي الضعيف سليمان المستعين (٤٠٧هـ/ ١٠١٦) وأعلن نفسه خليفة في قرطبة. ولما اغتيل علي فعل اخوه القاسم فعله (٤٠٨ هـ/ ١٠١٨ م)، وقد أقصاه عن العرش ابن اخيه يحيى بن علي (٤١٢هـ/ ١٠٢١م)، لكنه استعاده في السنة التالية وظل في الوقت ذاته يحكم مالقة. الا ان حكم مالقة كان حصة خلفاء علي بن حمود الثمانية، الذين استمروا فيه إلى سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م لما انتقل حكمها إلى باريس الزيدي صاحب غرناطة، بينما ظلت الجزيرة الخضراء خاضعة لأسرة القاسم بن حمود. فتولى أمرها محمد بن المهدي (بن القاسم) ٤٣١ ـ ٤٤٠هـ /١٠٣٩ ـ ١٠٤٨م ثم القاسم الواثق (بن محمد) ٤٤٠ ـ ٤٥٠هـ/ ١٠٤٨ ـ ١٠٥٨م، وعندها انتقل أمرها إلى عباسيي أشبيلية.

وتوالى على حكم مالقة من سلالة علي:

- يحيى بن علي: ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م ـ ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م.
- إدريس (الأول): ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥م ـ ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩م.
- الحسن المستنصر: ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م ـ ٤٣٨هـ/ ١٠٤٢م.
- إدريس (الثاني) العالي: ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢ م ـ ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦ م.
- محمد (الأول) المهدي: ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦ م ـ ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م.
- إدريس (الثالث) الموفق: ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م ـ ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م.

ـ إدريس (الثاني) للمرة الثانية: ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م.
ـ محمد (الثالث) المستعلي: ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤م ـ ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م.

الإدريسي (الجغرافي): هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي. ولد بسبته (٤٩٣ هـ/ ١١٠٠م) وتوفي فيها سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٦م. تلقى العلم بقرطبة ومن ثم سمي القرطبي. وقد تنقل في الأقطار كثيراً ثم استقر مدة في بلاط روجار، ملك صقلية النورماني، في بلرم (بلرمو). وقد أتم لهذا الملك صنع كرة للعالم من الفضة ووضع تفسيراً لها كتابه المشهور «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» (والذي يسمى أيضاً كتاب روجار). ويعتبر الباحثون كتاب الإدريسي أهم كتاب جغرافي عربي، خصوصاً بسبب الخرط الكثيرة التي وصلت إلينا سالمة. أما الكرة الفضية فقد تحطمت في ثورة قامت في صقلية بعد الفراغ منها بمدة قصيرة.

جامع القرويين: كان بين من ورد على فاس في مطلع القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي محمد بن عبد الله الفهري القيرواني. وقد توفي بعد وصوله بمدة قصيرة وخلف بنتين فاطمة ومريم وترك لهما ثروة كبيرة. ورأت السيدتان أن جامعي العدوتين في فاس قد ضاقا بالمصلين والمدرسين والطلاب، فارتأتا أن تبنيا جامعين جديدين. فاتجهت مريم نحو بناء جامع في عدوة الأندلس، وانصرفت فاطمة إلى عدوة القيروان، فأنشأت جامع القرويين فيها، وكان ذلك في سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩م، في ايام يحي بن محمد ادريس. ووسع الجامع فيما بعد في سنة ٣٣٢هـ/٩٣٤م ثم في سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٧م. وقيمة الجامع ليست في بنائه وزخرفه فحسب، ولكن في كونه أصبح، على توالي الأيام، أكبر مركز للعلوم الإسلامية والأدبية واللغوية والتاريخية في المغرب. وقد وفد إليه الطلبة في مختلف العصور من شمال افريقيا واسبانيا والسودان. وإليه يرجع الفضل في حمل مشعال الثقافة والعلوم عبر أحد عشر قرناً.

ج ـ المغرب العربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر

١

يمثل القرن السادس عشر الميلادي، بالنسبة إلى البحر المتوسط، فترة نشاط سياسي وعسكري كبير. ففيه كانت الدولة العثمانية سيدة الحوض الشرقي منه، وكانت فرنسا واسبانيا والبرتغال تتنافس على الأجزاء الغربية من حوضه. وقد دارت حروب ومعارك برية وبحرية بين العثمانيين والأسبان حول شمال افريقيا. و(كانت فيها فرنسا على الحياد بسبب المعاهدة الخاصة التي عقدها السلطان سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) مع فرنسوا الأول ملك فرنسا (١٥١٥ ـ ١٥٤٧) في سنة ١٥٣٥.

كانت النتيجة النهائية لجميع النشاطات هي استيلاء العثمانيين على الجزائر وليبيا وتونس (وكانوا قد استولوا على بلاد الشام ومصر في مطلع القرن). أما البرتغال فقد كان لها في القرن السادس عشر مراكز تجارية حربية على سواحل الأطلسي. والمغرب الأقصى حافظ على استقلاله بالنسبة إلى الدولة العثمانية، كما انه نجح في إخراج المحتلين.

الجزائر: بين سنتي ١٥٠٥ و ١٥١٠ تمكنت اسبانيا من احتلال المرسى الكبير ووهران وبجاية ومدينة الجزائر، محاولة في ذلك التحكم في المنافذ التجارية لطرق القوافل المؤدية إلى داخل البلاد والصحراء وأواسط افريقيا. وفي سنة ١٥١٦ استنجد سكان مدينة الجزائر وأحوازها بالقرصان التركي الكبير عروج، الذي كانت له سيطرة كبيرة على غرب البحر المتوسط. فاستجاب عروج للطلب واستولى في السنة ذاتها، على مدينة الجزائر وعلى تلمسان وقسنطينة وجزء مما بينهما، اضافة إلى مناطق داخلية. ثم انتزع خير الدين بربروسا أماكن اخرى حتى احتل البنُون (١٥٢٩)، وهي جزيرة تقع قبالة مدينة الجزائر، فحرر المدينة من خطر دائم. وقد قاد شارل الخامس بنفسه حملة ضد الجزائر (١٥٤١) باءت بالفشل. وهكذا اصبحت الجزائر تابعة للدولة العثمانية.

وكانت الجزائر يديرها (إلى سنة ١٥٨٧) بيلربك، نائباً عن السلطان العثماني. ثم تلا هذه الفترة دور يعرف بعصر الباشاوات (١٥٨٧ ـ ١٦٥٩). وجاء دور آغا الانكشارية (حتى سنة ١٧١١). ومنذ تلك السنة وحتى الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠) كان الداي هو رأس الإدارة العثمانية. على أن القوة الحقيقية كانت، منذ أواسط القرن السادس عشر، إما بيد الانكشارية أو بيد رؤوساء الطوائف (وهم قادة منظمات القرصان والأسطول). وكانت الخلافات بين الفريقين كثيراً ما تعطل سير العمل. والانكشارية كانوا يُحملون إلى الجزائر من الأناضول، أما الفريق الآخر فكان متنوع الأصل. وكان الأتراك قلة بينهم. ولكنهم كانوا دعامة الحياة المالية، لأن حكام الجزائر انصرفوا إلى البحر (قرصنة واغارات وتجارة) وتركوا البر (زراعة وتجارة).

ازدهرت إيالة الجزائر في القرن السابع عشر اقتصادياً. إذ وطد حكامها علاقات دبلوماسية وتجارية مع دول غرب أوروبا: انكلترا وهولندا وفرنسا. وهذه الدول كان لها قناصل في مدينة الجزائر. وعادت القرصنة على البلاد بثروة كبيرة، إذ كان هم القرصان أسر السفن والاستيلاء على سلعها ورجالها، وهؤلاء كانوا يفتدون بمبالغ طائلة. كما راجت تجارة الرقيق في تلك الفترة.

ولم تنجح محاولة العثمانيين في الاستيلاء على الداخل لأن القبائل قاومت ذلك وحافظت على استقلالها. أما القبائل القريبة من السواحل فقد دفعت الضرائب للدولة وقبلت بسلطتها كارهة.

وبسبب نمو القوة البحرية الأوروبية في القرن الثامن عشر تضاءلت امام القرصان الجزائري فرص العمل. ومن ثم نلاحظ ان عدد سكان المدينة نقص من حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة، في مطلع القرن الثامن عشر، إلى نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة في آخره. ومع أن القراصنة أصابوا بعض النجاح أثناء انشغال أوروبا بحروب نابليون، فإن هذه الدول، ممثلة ببريطانيا (وفرنسا)، ضربت مدينة الجزائر من البحر (١٨١٦) انذاراً للقرصان بوجوب التوقف عن أعماله. وفي عام ١٨٣٠ أنزلت فرنسا قواتها في المدينة واحتلتها.

تونس: كانت اسبانيا قد استولت على تونس وجربة (في مطلع القرن السادس عشر)

وكانت المنافسة بين العثمانيين والاسبان قوية في تلك الفترة؛ ولما كان العثمانيون قد استقروا في الجزائر (بين ١٥١٦ و١٥٢٩) وكانوا قد احتلوا طرابلس (١٥٥١)، فقد أصبح بإمكانهم احتلال تونس. فدخلت القوات العثمانية البحرية والبرية (من طرابلس والجزائر) المدينة واحتلتها سنة ١٥٧٤ (كان ثمة احتلال عثماني موقت سنة ١٥٣٥).

واختط سنان باشا، القائد الفاتح، نظاماً لإدارة البلاد قوامه والٍ (برتبة باشا) هو الحاكم العام للبلاد، يعاونه رئيس الانكشارية (وعددهم أربعة آلاف جندي تُركي) والباي وهو المشرف على الشؤون المالية ورايس (أو رئيس) هو أمير البحر. وضُم هؤلاء في ديوان كان المرجع الأخير في تدبير الولاية وأمور الجند. ولكن ثورة الجند (١٥٩٠) حملت «الداي» على الإشراف على الانكشارية وحكم المدينة. واستمر هذا إلى سنة ١٦٥٠. وقد نعمت البلاد في عهد الدايات بقسط وافر من الثراء والأمن والتقدم، خصوصاً وقد هبطها بين ٦٠ و٨٠ الفاً من مهاجري عرب الأندلس (الذين أخرجوا من اسبانيا قسراً). وهؤلاء أنشأوا المزارع والقرى وعمروا مدناً أو أنشأوها (سليمان وقرنبالية والجديدة وزغوان وطبرقة ومجاز الباب وغيرها)، وأقاموا في تونس الحاضرة صناعات النسيج والقاشاني (الزليج). وكانت تجارة تونس الخارجية في هذه الفترة ناجحة.

وكما زالت سلطة الباشا اختفت سلطة الداي وخلفه الباي (حوالى سنة ١٦٥٠)، الذي كان يختاره الجند للحكم ويوافق الباب العالي على الاختيار، ويمنحه رتبة الباشاوية. واستمر هذا العهد المعروف بالمرادي إلى سنة ١٧٠٥. حيث دب الخلاف بين أفراد الأسرة المرادية. عندها نادى الجند بحسين بن علي التركي آغا أوجاق (أي آمر فرقة) باجة، حاكماً للبلاد (١٧٠٥) وأقرت الدولة العثمانية ولايته. (وهذه الأسرة الحسينية ظلت تحكم تونس، على تباين في النفوذ والسلطة، حتى سنة ١٩٥٧).

وفي العصر الحسيني الأول (١٧٠٥ ـ ١٨٣٧) كثرت الحروب مع طرابلس والجزائر، كما شهدت تونس ثورات ضد الحكام. ومع ذلك فقد نشطت تونس وتقدمت عمراناً وصناعة وتجارة. وكان في المدينة ١١٥ مكتباً لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين واللغة.

وكان نفوذ الدولة العثمانية في تونس اسمياً، وفي حكم محمود باي (١٨١٤ ـ ١٨٢٤) ألغي الرق في الأراضي التونسية.

ليبيا: خضعت طرابلس لاسبانيا (١٥١٠ ـ ١٥٣٥) الا أن ملك اسبانيا نقلها (١٥٣٥) إلى فرسان القديس يوحنا (مع جزيرة مالطة) وظلت تابعة لهم إلى سنة ١٥٥١ لما احتلتها الدولة العثمانية. وفي الفترة كلها (١٥١٠ ـ ١٥٥١) كان الأسبان يحتكرون التجارة، ولذلك ملّ السكان الحكمين، فاستنجد أهل تاجوراء بالعثمانيين، إذ أرسلوا وفداً إلى عاصمة السلطنة، فأرسل سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) قوة تمكنت من احتلال طرابلس (١٥٥١).

على أن اهتمام الدولة العثمانية بتلك المنطقة كان عسكرياً، فاقتصرت عنايتهم على بعض المدن الليبية الساحلية، وأهملوا الداخل. وقد تأخرت الايالة في أيام حكم الانكشارية. وفي سنة ١٧١١ أنشأ أحمد باشا القرمنلي حكومة شبه مستقلة، وشملت سلطته ليبيا

بكاملها تقريباً، وكان أحمد باشا واحداً من ضباط الانكشارية، وقد انتخبه السكان حاكماً عليهم، ووافقت الدولة العثمانية على ذلك بعد لأي. وظلت الأسرة القرمنلية إل سنة ١٨٣٥، حيث تمكنت الدولة من إعادة الايالة إلى حظيرتها.

زمن الأسرة القرمنلية كان مضطرباً سياسياً، وكانت واردات الحكومة تأتي أصلاً من القرصنة ومن المبالغ التي تدفعها الدول الأوروبية لقاء السماح لسفنها بالاتجار مع الموانىء الليبية. وقد انتهى عهد القرصنة سنة ١٨١٩، ولذلك أخذ القرمنليون يفرضون ضرائب باهظة على السكان، فضاق هؤلاء ذرعاً بذلك، وقامت ثورات كثيرة في عهدهم. وكانت المنافسة بين بريطانيا وفرنسا شديدة، فكانت كل من الدولتين تؤيد فريقاً ضد الآخر حسب رغباتها.

وأخيراً استعادت الدولة الايالة سنة ١٨٣٥، كما ذكرنا.

٢

دب الضعف في دولة بني مرين (١١٩٦ ـ ١٤٦٥) منذ أوائل القرن الخامس عشر، وأخذ الوطاسيون محلهم، في جنوب المغرب الأقصى، كما قامت دويلات أخرى فيما تبقى من البلاد. وكان البرتغاليون جد حريصين في الاستيلاء على الموانىء الأطلسية للبلاد، فاحتلوا أصيلا (١٤٧١) وأغادير (١٥٠٤) وآسفي (١٥٠٨) وآزمور (١٥١٣). وكانوا قد تملكوا طنجة والقصر الصغير. أما على شواطىء البحر المتوسط فقد استولى البرتغاليون على سبتة (١٤١٥) كما استولى الاسبان على مليلة (١٤٩٧). ولم ينقذ المغرب الأقصى إلا قيام الدولة الشريفية السعدية (١٥١١). وكان محمد القائم أول السعديين (حكم ١٥١١ ـ ١٥١٧). وحريّ بالذكر أنه في هذه السنة بالذات (١٥١٧) احتل العثمانيون مصر وقضوا على دولة المماليك، وآلت برقة أيضاً إلى نفوذهم. ومعنى هذا انه لم يكد ينتهي القرن السادس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تسيطر تماماً على سواحل البحر المتوسط من البلقان عبر آسيا الصغرى (بلادها) وبلاد الشام ومصر وليبيا وتونس والجزائر. ولم يبق من الشمال الافريقي خارج نفوذها سوى المغرب الأقصى.

الدولة السعدية: تولى القائم الأمر بدعوة من زعيم الفرقة الصوفية الجزولية (وهي فرع من الطريقة الشاذلية)، وظل في الحكم إلى سنة ١٥١٧، وخلفه ابنه أحمد الأعرج (١٥١٧ ـ ١٥٤١) ثم ابنه الثاني محمد الشيخ (١٥٤١ ـ ١٥٥٧). وقد نجح هذا في استرداد أغادير وآزمّور، ثم تخلى البرتغاليون عن آسفي وأصيلا. وفي أيام محمد الشيخ اهتم الأتراك العثمانيون باحتلال المغرب (بالسير إليه من الجزائر). وقد استمرت هذه المحاولة طويلاً. وفي هذا النزاع كانت الجزولية تؤيد السعديين، أما الأتراك فكان يؤيدهم شيوخ الطريقة القادرية.

وفي عهد الملوك الثلاثة الذين تولوا المغرب بعد محمد الشيخ، وهم: الغالب بالله (١٥٥٧ ـ ١٥٧٤) والمتوكل (١٥٧٤ ـ ١٥٧٦) وأبو مروان عبد الملك (١٥٧٦ ـ ١٥٧٨)، كان ثمة اهتمام بتقوية التجارة الخارجية، وبخاصة مع انكلترا. وقامت حملة تركية على المغرب

من الجزائر أيام المتوكل. وتولى سبستيان (حكم ١٥٥٧ ـ ١٥٧٨) عرش البرتغال وأراد أن يستعيد بعض ما خسره أسلافه في تلك البلاد. ولذلك قبل مساعدة ابن عبد الله أحد الخارجين على أبي مروان، وجاء إلى المغرب (١٥٧٨)، وكان في جيشه كثير من المرتزقة الأسبان والالمان والطليان. والتقى المغاربة بالجيش البرتغالي في وادي المخازن، وانتصر الأولون. وتوفي في المعركة السلطان أبو مروان (وكان مريضاً يقاد به في محفة) وسبستيان والثائر على السلطان (ابن عبد الله). وتعرف هذه المعركة، عند مؤرخي الافرنج، بمعركة الملوك الثلاثة. وتولى أمور المغرب حينذاك أبو العباس أحمد المنصور المعروف بالذهبي (حكم ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣).

المنصور الذهبي والحملة على السودان الغربي: امتد حكم المنصور ربع قرن من الزمان (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) قام أثناءه بأعمال عمرانية وإدارية كبيرة في المغرب، وحصّن أطراف البلاد. وقد أرسل حملة إلى السودان الغربي قضت على مملكة سنغي (سنغاي) التي كانت تتمركز في منعرج النيجر حول العاصمة غوا، والمدينة التجارية الكبيرة تمبكتو، وجنّي.

والمنطقة التي قامت فيها مملكة سنغي (١٤٦٤ ـ ١٥٩١) كانت غنية بالحبوب والقطن والأرز والمراعي. وأهم من هذا، كانت مدنها نقط اتصال تجاري بين ما يقع جنوبها والصحراء (إلى الشمال) والمغرب بعد ذلك.

كان السعديون حريصين على لقب الإمامة، وكان المنصور أشدهم حرصاً (وهو لقب اتخذه الموحدون ١١٣٠ ـ ١٢٩٦ أولاً وحافظ عليه بنو مرين). وأراد المنصور ان تعترف له الدولة الإسلامية السودانية بالإمامة فقبل بذلك ملك بورنو، ولكن اسكيا (ملك سنغي ١٥٨٣ ـ ١٥٩١) رفض الطلب. فكان ذلك أحد أسباب الحملة. والسبب الثاني هو أن المغرب لم يعد بإمكانه التوسع شمالاً (لأن الاسبان لن يسمحوا له بذلك) ولا شرقاً (لأن الأتراك كانوا في الجزائر)

فلم يبق امامه إلا التوسع جنوباً. وبذلك يستولي، فيما ظن، على مصدر الذهب الافريقي وأسواق العاج والرقيق والغالية.

أرسل المنصور الحملة على دفعتين، الأولى سنة ١٥٩٠ بقيادة جودر، وقد وصلت غُوا وخيمت حول تمبكتو. وذهبت الدفعة الثانية (١٥٩١) بقيادة محمود، واستولت على المنطقة بأكملها. وبذلك قضي على مملكة سنغي. وبلغ عدد الجنود الذين أرسلهم المنصور الى السودان الغربي ٢٣ الف رجل. وكانت معهم العدة والسلاح بما في ذلك المدافع، التي حملت على الإبل عبر الصحراء (١٣٥ يوماً من مراكش إلى غوا).

ومع ان المنصور لم تصل قواته إلى مناجم الذهب، لأنها لم تكن هناك أصلاً (بل في وَنفَره إلى الجنوب الغربي من سنغي)، فقد فتحت أسواق المنطقة أمام التجار المغاربة. كما ان كميات الذهب التي كانت تنقل أصلاً إلى المغرب تجارة أصبحت تصله عمالة.

الدولة العلوية والمولى إسماعيل وخلفاؤه: اضطرب أمر المغرب بعد وفاة المنصور (١٦٠٣)، ولكن الموقف أنقذه قيام الدولة العلوية الشريفة على يد محمد بن الشريف أول ملوكها (حكم ١٦٣١ ـ ١٦٣٥). ومن أشهر ملوكها الرشيد (١٦٦٣ ـ ١٦٧٢) الذي قضى على زعامة الزاوية الدلائية ووحد قسماً كبيراً من البلاد تحت حكمه.

ويعتبر المولى إسماعيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧) أكبر ملوك العلويين في عصرهم الأول. وفي أيامه نفذت سلطة ملك المغرب إلى جميع أجزاء المملكة، كما انه عقد معاهدة مع الأتراك (في الجزائر) واستولى على مناطق ساحلية في السودان الغربي. واستعاد المولى إسماعيل المعمورة المهدية (١٦٨١)، والعرائش (١٦٨٩)، وأصيلا وطنجة (١٦٨٤) من الأجانب.

وكان للمولى إسماعيل جيش ضخم مكون من الودايا (وهم مجموعة من العرب من قبائل متعددة)، والعبيد (بلغ عددهم بين ١٢,٠٠٠ و١٥,٠٠٠)، وبعض المرتزقة أو الأسرى من الأوروبيين (كان العدد نحو ثلاثة آلاف). وهؤلاء كانوا يستخدمون في الأمور الفنية ولتدريب الجنود الآخرين.

وفي أيامه اتسعت تجارة المغرب الخارجية، وبخاصة مع انكلترا وهولندا وفرنسا واسبانيا وايطاليا. أما السلع فكانت تشمل الأقمشة (من انكلترا بخاصة) والودع والبهارات والافاويه والمرايا والأدوات النحاسية والأسلحة والذخائر (وأكثر هذه السلع كانت تأتي من هولندا). وكانت إيطاليا تزود المغرب بالبارود والترابة (للدباغة). وكانت قادس (اسبانيا) مركز التجارة المغربية مع إنكلترا وهولندا. أما الموانىء المغربية الكبرى فكانت سلا وتطوان وآسفي وأغادير. كما كانت تفيلالات وتارودانت منافذ التجارة مع افريقيا. فكانت تنقل عبرها إلى المغرب التمور والعاج والنيلة والذهب وريش النعام والرقيق.

وقد جدد المولى إسماعيل الحصون وبنى العديد منها أيضاً (بلغ ذلك كله ٧٦ حصناً). واتخذ مكناس (مكناسة الزيتون) عاصمة له بعد ان بنى فيها القصور والمساجد والأسواق. وكان يعمل في البناء أسارى الافرنج مع العمال المغاربة.

بعد وفاة المولى إسماعيل مرت بالمغرب فترة من الفوضى والقتال الداخلي (١٧٢٧ ـ ١٧٥٧)، ثم عادت إليه فترة استقرار أيام محمد بن عبد الله (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠) والمولى سليمان (١٧٩٠ ـ ١٨٢٢).

والدولة العلوية التي قامت سنة ١٦٣٨، لا يزال ملوكها على العرش المغربي إلى يوم الناس هذا.

د ـ تجارة الصحراء الكبرى

بين حوالى سنتي ٩٠٠ و١٥٠٠ ميلادي كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء الكبرى ناقلة سلع أوروبا ومدن الشمال الافريقي إلى السودان، وخصوصاً السودان الغربي، وعائدة من هناك بما كانت تلك المنطقة تنتجه إلى موانىء المغرب العربي.

كانت أهم هذه الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب أربعة هي:

أولاً: الطريق الموصل بين موانىء المغرب الأقصى (طنجة وأصيلا والعرائش) عبر فاس وسجلماسه إلى وَدَان وأَوْدَاغُشْت ثم إلى مالي.

ثانياً: الطريق الذي يبدأ بوَهْران ويمر بتلمسان وسجلماسة أيضاً ثم يسير إلى تغازى فإلى ولاطة وينتهي بتمبكتو.

ثالثاً: وكان هناك طريق يصل تونس بغوا ماراً بالقيروان ووَرغَله وتَدمكّة.

رابعاً: الطريق الذي يبدأ بطرابلس ويتجه إلى غدامس ثم إلى غوا. (فضلاً عن طريق الإسكندرية القاهرة فموانىء البحر الأحمر).

فضلاً عن هذه الطرق الشمالية الجنوبية، فقد كانت هناك أربعة طرق تجتاز الصحراء الكبرى من الغرب إلى الشرق. وهي: الأول، الطريق الساحلي الشمالي من فاس إلى تلمسان فتونس فطرابلس إلى القاهرة (إما رأساً أو عن طريق الإسكندرية). والطريق الثاني، هو الذي كان يوازي الهضاب الشمالية بدءاً من مدن جنوب المغرب الأقصى إلى تونس عن طريق فاس والقيروان. والثالث هو طريق القصور من نول (لمتا) إلى سجلماسة ثم إلى ورغلة وقابس ونفوسة. وهناك الطريق الرابع، وهو الذي يحاذي أطراف الصحراء في الجنوب مجتازاً مناطق الساحل. هذا الطريق كان يبدأ من أوليل (فيمر بتكرور وغانة أو كومبي صالح) أو قد يبدأ من أرغوين (فيمر بوَدان) إلى ولاطة ثم إلى تمبكتو فغاو ومن هذه يتجه إلى مصر إما بطريق تاكدّه أو غات.

ومن المناسب أن نلاحظ أن هذه الطرق كان لها تفرعات تصلها بمدن أخرى. فطريق القصور بشكل خاص كانت تخرج فروع منها من سجلماسة إلى فاس وتاهِرت، ومن ورغَلة إلى تاهرت والقيروان، ومن قابس إلى القيروان.

كانت القوافل تحمل من السودان الغربي الذهب والرقيق وريش النعام، كما كانت تنقل إلى مدنه وبلدانه الزجاج والثياب والأقمشة والتمور والزيوت والملح (من الصحراء) والمصنوعات المعدنية والأسلحة.

كانت رحلة القافلة تستغرق سنتين من الزمان بين خروجها من مدينة في الشمال واجتيازها المسافة ومبادلتها السلع في الأسواق التجارية على الطريق ثم القيام ببيع ما تحمله إلى الجنوب وجمع ما يمكن من سلع الجنوب والعودة إلى الشمال. وهذه الطرق كانت طرق الحاج الافريقي الذي يخرج من أي صقع من الاصقاع متبعاً الطريق الذي يلقي به إلى فاس أو تونس أو طرابلس حيث يتكامل الجمع وينتقلون إلى الفسطاط (ثم القاهرة بعد بنائها في القرن العاشر الميلادي).

على أن استعمال هذه الطرق لم يسر على وتيرة واحدة. ذلك بأن مثل هذا الأمر ـ أي اجتياز هذه الطرق ـ يخضع لعوامل متعددة متنوعة. منها الطبيعي ويدخل في عداده

التضاريس الرئيسة ونوع التربة فيها. فالأرض ذات الرمل الناعم الذي تسفوه الرياح وتنقله من مكان إلى آخر، قد يبلغ من الحدة والشدة أن يدفن قافلة بكاملها. وقد قيل إن الذي يرشد إلى طرق القوافل أكثر من أي شيء هو الجثث الملقاة على جوانبها. ومواقع الماء هي في غاية الأهمية في مثل هذه الأسفار. وما أكثر ما روي عن جماعات هلكت ونفقت الدواب التي تحملها لأنها لم تعثر على الماء الذي قد يكون على مسيرة يسيرة من حيث هلكت.

وعندما تخف شدة العوامل الطبيعية، فقد يكون فعل البشر عائقاً كبيراً للتنقل، وذلك عندما تعمد القبائل البدوية، وهي هناك منوعة الأعراق متعددة الأصول، لكنها جميعها تعمد، حين تركبها الحاجة، إلى السلب والنهب. وعندها تشلُّ واحدة من الطرق أو أكثر. فالأمن الصحراوي أمر أساسي للتجارة عبر الصحراء.

هذا فيما يخص داخل الصحراء؛ أما فيما يتعلق بخارجها فثمة أمور ثلاثة يجب أن تتوافر في البلاد الواقعة إلى الشمال من الصحراء ـ المغرب العربي ـ وإلى الجنوب منها، وهي المنطقة المعروفة بالسافانا من حيث طبيعة نباتها؛ وتعرف بالساحل أيضاً لأنها، في نظر جغرافيي العرب، ساحل الصحراء الذي يرتاح المسافر عند الوصول إليه شأن المسافر بحراً إذ ينزل إلى الشاطىء، والتي اصطلح على تسميتها بالسودان الغربي. وأما الأمور الثلاثة فهي: استقرار سياسي، ولو نسبي، في المنطقتين، وتجمعات سكانية «مدنية» ثرية تنتج ما تبيعه، وتحتاج إلى ما ينتجه غيرها؛ فضلاً عن ذلك، فإن وجود أسواق مجاورة لواحدة من المنطقتين يساعد الحركة التجارية.

وحري بالذكر أن تاريخ المغرب في الفترة الممتدة من منتصف القرن الثالث/ التاسع الهجري إلى أوائل القرن العاشر/ السادس عشر الميلادي هو، من حيث الإجمال، تاريخ خصومات ومنازعات ومفارقات ومنافسات. فهناك الخلاف بين البداوة والحضارة ـ البداوة التي يمثلها البربر أصلاً، وسكان الصحراء طبعاً، وقبائل بني هلال وبني سليم التي وصلت المنطقة أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ـ وهناك الخصومة بين البربر والعرب، إذ نظر الأولون إلى الآخرين نظرة محتل متجبر، فكانت ثمة ثورات متعددة. وهناك الخصومة والخلاف بين سكان المناطق الجبلية وسكان السهول، والسهول الساحلية خصوصاً، إذ كان الأولون يهبطون إلى مناطق الآخرين حيث الخصب والثراء الزراعي الذي يفتقده الجبليون. وكان هناك خلاف وخصومة وحروب بين مؤيدي السنة والجماعة والفئات الخارجة عليها أخوارج كانت أم أباضية. وقد كانت هذه ناحية مهمة من الحروب التي قامت في المغرب العربي بين الفئات التي خالفت السنة والجماعة، أي الخلافة (الأموية أولاً، والعباسية فيما بعد) وثارت على السلطة المركزية وأنشأت لها دويلات مستقلة في الربوع المغربية.

هذه الخلافات والخصومات والمنافسات والمنازعات كان لها تأثير كبير في نشوء

الدول والدويلات ـ إما تحت جناح العباسيين، كالأغالبة ـ أو مستقلين عن بغداد كالرستميّين وبنيَ مدرار والأدارسة.

ويمكن القول إجمالاً بأنه خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نعم المغرب العربي، في نصفه الغربي على الأقل، بكثير من الأمن والنظام تحت حكم الأدارسة والرستميين والأغالبة، وذلك بعد حروب وثورات عاصفة في عصر الولاة. وهذه الدول شجعت التجارة الصحراوية كما شجعها الفاطميون. فقد كان الجميع بحاجة إلى ذهب السودان ورقيقه، وكانت لهاتين السلعتين سوق كبيرة في الأندلس، وكان التجار النافذون هم الأباضيون. وكان هؤلاء يتمركز نشاطهم في أغمات وسجلماسة وتاهرت في الشمال، ومنها يسيّرون القوافل محملة بالسلع المغربية والأندلسية (والأوروبية إلى درجة أقل) ومنها التمر والحبوب والايزارات القطنية، واساور النحاس وخواتمه وخلاخله والمرجان والودع (الذي كان يستعمل نقوداً وظل على ذلك قروناً عديدة). كما كانت القوافل تنقل معها الملح (من تَفازى) والنحاس الخام (من تادمِكّة). وكما كانت سجلماسة بوابة الصحراء في الشمال كانت أوداغُشت مركزاً رئيساً للمناطق الجنوبية الغربية، مع أن هذه المدينة كانت حديثة العهد، إذ انها بنيت في منتصف القرن الثامن الميلادي، وكانت القوافل التي تخرج من الشمال الافريقي حاملة السلع أكثر مما يحتاجه نقل الذهب إلى الشمال. لذلك كانت الإبل تباع في السودان الغربي، ثم قدم المغرب العربي بنو هلال (وبنو سليم).

بدأ انتقالهم إلى المغرب العربي أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي واستمر ذلك بضعة عقود من السنين. وكانت آثار هذه الغزوة كبيرة في ربوع المغرب العربي، وخصوصاً حتى غرب الجزائر،. فقد دمرت مدن كثيرة وأُتلفت مزارع واسعة وتعطلت الصناعة والتجارة بالنسبة إلى ليبيا ومصر وبقية أقطار المشرق العربي. ذلك بأن الهلاليين ومن معهم أقاموا لهم ما يشبه الحكومة في شريط يكاد يشمل تونس وبعض الجزائر في اتجاه شمالي جنوبي، فتعطل نقل الذهب والرقيق إلى مصر وبلاد الشام في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. الا ان بعض الذهب نقل إلى غرب أوروبا في تلك الفترة.

وبعد أن استقر هؤلاء القادمون في المنطقة وأعادوا إليها الكثير من بداوتها، عاد النظام والحكومة إليها، فقامت دولة المرابطين ثم الموحدين في المغرب ودولة الحفصيين في تونس. وكان من الطبيعي أن ينشط التجار ويفيدوا من الأحوال الجديدة، فتعود القوافل تزرع الصحراء جيئة وذهاباً، واحتل المرابطون سجلماسة وأوداغشت وغانة (كومبي ـ صالح)، ومع انهم خربوا فيها كثيراً، فقد حموا القوافل وطرقها من هذه الأماكن.

ومما تجب ملاحظته هنا هو أن القرنين الحادي عشر والثاني عشر عرفا توسعاً في صناعة الأقمشة في أوروبا، ثم طرأ على الصناعة على تنوّعها، توسع كبير في القرنين الثالث

عشر والرابع عشر، فعنيت المدن التجارية الأوروبية بالتوسع التجاري، وازدادت حاجتها إلى الذهب الذي كان يصل إليها في مقابل مصنوعاتها. فقد كان الذهب يباع في أسواق السودان سبائك لا بالوزن الدقيق. وكان كثيراً ما يقايض بالملح وزناً بوزن. وقد تنبه مؤرخو أوروبا الاقتصاديون إلى أن سك النقود الذهبية في المدن التجارية في صقلية وفرنسا وانكلترا ومدينتي جنوا وفلورنسا، قد ظهر في أواسط القرن الثالث عشر. ويلاحظ أيضاً أن البيوت التجارية الأوروبية بدأ تأسيسها في موانىء المغرب العربي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وقد كان تجار جنوا وقطلانية البادئين، ثم لحق بهم البيزيون وتجار البروفنسال. أما المدن التي أقيمت فيها هذه البيوت التجارية بشكل دائم فإنها تشمل تونس وعنابة (بون) وبجاية والجزائر ووهران.

وهنا يجب أن نتذكر ان عدد السكان ازداد في القرون الثلاثة: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر في أوروبا وشمال افريقيا، والسودان الغربي. وكان هذا، بحد ذاته، مما ينشط التجارة. لكن هذه الزيادة في السكان تبعها قيام تجمعات مدنية هي التي أصبح سكانها المستهلكين للكثير من سلع الحضارة القادمة من الشمال.

لم يكن قيام المدن غريباً على الشمال الافريقي. فقد عرفت البلاد ذلك منذ أقدم الأزمنة. والمدن التي عمرت من جديد كانت كثيرة، وحتى المدن الجديدة قامت على مقربة من مدن كانت هناك ثم عفت. وقد تبدلت العواصم قرناً بعد قرن، لكن المدن الأصلية، حتى ما تهدم منها، حافظت في أغلب الحالات، على أسس كان من اليسير أن يبنى عليها مثل تونس خليفة قرطاجة وفاس خليفة «وليلي». والمهم الذي يجب أن لا يغيب عن البال هو أن الحضارة كانت مجذّرة في المغرب العربي، ولو أن البداوة المختلفة الأعراق والأصول كانت أيضاً حاضرة هناك بقوة.

أما في السودان الغربي، فالتجمع المدني كان حديث العهد، ومثْل ذلك يقال في الدول. فالتطور الزراعي واستعمال الحديد هما اللذان مهدا للتجمعات المدنية. وجاء ضغط الصحراء سكانياً وتجارياً ليقوي الشعور بوجوب قيام المراكز الصالحة لإراحة الإبل والتجار ولتبادل السلع. ولعل أهم عامل ضاغط في هذا التطور كان حاجة السكان إلى الملح الذي كان يحمله التجار من شمال الصحراء ومن غربها، والذي كان لا بد له من سوق لبيعه.

والدول، ومن ثم عواصمها ومراكز الحركة التجارية فيها، التي عرفها السودان الغربي هي، على التوالي الزمني، قبائل السنغال التي تكتلت حول العاصمة تكرور (حوالى ٨٥٠م). وقد كانت الأسرة الحاكمة في تكرور أول أسرة سودانية تعتنق الإسلام. وقد استمر وجود دولة تكرور (السنغالية) على تداور بين القوة والضعف إلى حوالى أواسط القرن الثالث عشر إذ قضت دولة مالي عليها. لكن السنغاليين أنفسهم ظلوا، حتى بعد القضاء على دولتهم، أصحاب نفوذ من حيث انتشار لغتهم من شواطىء المحيط الأطلسي إلى إقليم دارفور في السودان.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان لهم يد في نشر الإسلام في تلك الجهات.

وكانت دولة غانا، التي قامت في «الساحل» حوالى سنة ٨٥٠م أيضاً، الثانية زمناً من حيث بلوغها درجة الدولة المنظمة. وكان قيام هذه الدولة يعتمد على تجارة الصحراء، لكنها في سنة ١٠٠٠م احتلت أوداغشت، ويبدو ان العاصمة انتقلت إلى كومبي صالح. وقد تم للمرابطين القضاء على دولة غانا ١٠٧٦م (وكانوا قد احتلوا أوداغشت سنة ١٠٥٤ ـ ١٠٥٥)، وفرضوا الإسلام على السكان. ومع أن هذه الدولة عادت فاستقلت إلا انها لم تقو على عوادي الزمن وعوامل الضعف والوهن، فانتهى أمرها حوالى سنة ١٢٤٠، ثم انحلّت كدولة، ولو أن السكان ظلوا يقيمون في مناطقهم ولو أن أكثرها تصحر مع الزمن.

كانت نواة دولة مالي قد نشأت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لكن الدولة لم تكتسب شخصيتها إلا في القرن التالي. وقد بلغت مالي شأواً كبيراً في القرن الثالث عشر، وهي التي قضت على غانا نهائياً. وقد أدى أحد ملوكها الكبار منسى موسى (١٣٠٧ ـ ١٣٣٢) فريضة الحج، إذ ان مملكته امتدت من حدود تكرور غرباً إلى دندي في الشرق، ومن ولاطة واروان وتادمِكة شمالاً إلى فوت جالون جنوباً. وقد انفق المال الكثير في رحلته وحجه، خصوصاً في البقاع المقدسة ومصر. إلا أن هذه الدولة دب الوهن في كيانها بعيد وفاته. وفي نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كانت الدولة خبراً يروى.

وجاء دور حوض النيجر كي تقوم حول الانحناءة الكبرى فيه بلدان تجارية هي غُوا وغُنغيا (كوكيا؟) و«كاوكاو». وقامت أسرة زا (أو ديا) باتخاذ هذه عاصمة أولاً، ثم بعد أن اعتنقت الأسرة الحاكمة الإسلام نقلت العاصمة إلى غوا. وقامت دولة سونغي تحت نفوذ أسرة زا (ديا؟) ثم توسعت على يد سني علي (أو شي علي) في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي فشملت تقريباً، كل الأراضي التي قامت عليها الدول الثلاث السابقة. لكن هذه الدولة، مثل عدد كبير من الدول الأخرى، كان يعوزها البنى الإدارية الرئيسية، لذلك تضعضعت أحوالها. وأخيراً أرسل المنصور الذهبي سلطان المغرب حملة إلى تلك الجهات قضت عليها.

وقد كان ثمة مدن قامت على أيدي التجار دون أن تكون عاصمة حتى لدويلة. فمدينة ولاطة أنشأها تجار خرجوا من غانا لما احتلها المرابطون (١٠٧٦) واتخذوها مركزاً لأعمالهم. وجني، في حوض النيجر، بدأت مركزاً تجارياً قبل أن تكون جزءاً من الدولة التي احتضنتها.

وكان لقيام الدولة السعدية في القرن الخامس عشر وسيطرتها على منطقة واسعة من المغرب الأقصى، ولقيام دولة سونغي في حوض النيجر في الفترة نفسها، أثر كبير في تقوية التجارة. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر استولى البرتغاليون على الموانىء الأطلسية الواقعة بين رأس بوجادور ومصب نهر الكونغو، وتبعهم أهل قشتيلة (قسطالة). وهنا قام طريق بحري صرف لنقل المتاجر من السواحل الأطلسية إلى شمال المغرب وأوروبا.

وكان التجار البرتغاليون يبحثون عن طريق جديد إلى الهند، لكنهم كانوا في الوقت ذاته

يسعون لتحويل تجارة الذهب والرقيق من السودان الغربي لمصلحتهم. لذلك سعوا جهدهم لتحويل التجارة السودانية عن الطرق الصحراوية وجذبها نحو الموانىء، بحيث يمكن نقل السلع إلى بلادهم رأساً. ولعل هذا التطور هو الذي حمل المنصور، ملك المغرب، على إرسال الحملة إلى تمبكتو عام ١٥٩٠، على ما سنرى.

وشهد القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ظهور قوة جديدة في شمال افريقيا هي الدولة العثمانية، التي نجحت في ضم ليبيا وتونس والجزائر إلى أملاكها، وامتنعت بلاد المغرب عليها.

على أن الأمر الذي يجب أن يذكر بالنسبة إلى الشمال الافريقي هو أهمية البحر في تطوره الاقتصادي في الفترة العثمانية. لقد أهملت الزراعة إهمالاً كبيراً في الايالات العثمانية. والذي نقصده بأهمية البحر هو صناعة القرصنة. فالأمر كان مقبولاً على جانبي البحر المتوسط، شماله وجنوبه. كانت السفن المغربية تخرج من سَلا، وسفن الايالات تبحر من الجزائر وتونس وطرابلس، وكانت حتى المدن الأصغر شأناً لها سفن تقوم بهذا العمل. وكانت هذه السفن تستولي على السفن الأوروبية التجارية (في مقابل ما كانت تقوم به السفن الأوروبية) وتقودها إلى موانئها. وكانت بعض السفن من الشمال الأفريقي، ومنها سفن طرابلس، تغير على الموانىء الأوروبية بالذات في جنوب فرنسا واسبانيا وايطاليا، وتأسر من يقع في يديها. فالسلع التي كانت تحملها السفن الأوروبية، وكانت تعتبر ملكاً للقرصان (وقد يشترك رجال الحكم معهم فيها)، شملت الذهب (الذي أخذ الاسبان ينقلونه إلى أوروبا بعد اكتشافهم أميركا) والفضة كذلك. ويلي هذين الأقمشة والزجاج والمصنوعات المعدنية والسلاح، وكانت هذه السلع تباع في أسواق المدن الكبرى، وكثيراً ما كانت تنقلها القوافل الصحراوية إلى السودان الغربي والأوسط.

وأما الأسرى فكان ما يصيبهم يتوقف على مدى النشاط الذي كانت تقوم به المؤسسات الأوروبية المتعددة، دينية وسياسية، من افتداء هؤلاء الأسرى. وكان هذا الافتداء يزود الدولة (والقراصنة) بمبالغ كبيرة، إذ إن عدد الأسرى كان كبيراً. فقد بلغ عددهم، في فترات من القرنين السابع عشر والثامن عشر، نحو ثلاثين ألفاً في السنة. والقرصان من مدينة الجزائر، الذي وصل حتى القنال الإنكليزي في مغامراته، أسر، من السفن ومن المدن، ١٢,٢٣٩ رجلاً بين سنتي ١٦٠٧ و١٦١٧، واستولى على ٢٥١ سفينة. وقد تحتفظ دول المغرب العربي وحكوماته بعدد من هؤلاء الأسرى لتستخدمهم في أعمال البناء وفي الصناعات العسكرية.

ظهرت آثار هذه الثروة في مدينتي الجزائر وتونس ـ بشكل خاص ـ فثمة بيوت كبيرة ومساجد عديدة بنيت، واشيدت قصور دايات الجزائر وبيوت الموسرين من السكان والجوامع الكثيرة، مثل جامع القصبة في تونس.

ومما ساعد على التطور الاقتصادي في المغرب العربي هبوط الآلاف من العرب

المسلمين واليهود الذين هُجروا من إسبانيا في القرن السابع عشر إلى مدن المغرب العربي. وكانوا صناعاً مهرة وزراعين عمليين، فأحيوا الكثير من الارضين ونشطوا صناعات قائمة وأنشأوا صناعات جديدة في المدن التي نزلوها.

إلا أن الدول الأوروبية قوّت أساطيلها واستطاعت أن تخفف من نشاط القرصنة. وبذلك نقصت موارد الحكام، فاتجهت حكومات المغرب العربي إلى تنشيط التجارة مع أوروبا. وكانت المملكة المغربية قد انصرفت، حتى قبل قيام الدولة السعدية، إلى الاهتمام بصناعة السكر. وكانت بريطانيا بحاجة شديدة إلى سكر المغرب. وكانت المنطقة تكثر فيها الجلود والصوف. ومن هنا نجد أن المملكة المغربية تعقد مع انكلترا (١٥٥١) معاهدة تجارية بحيث تحصل هذه على السكر والجلود وتزود تلك بالأقمشة. وأنشئت (١٥٨٥) شركة شمال أفريقيا التجارية، لكنها صُفيت سنة ١٥٩٧، إلا أن التبادل التجاري بين المغرب وانكلترا استمر فترة طويلة.

أنشأت فرنسا أيضاً في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر الشركة (الفرنسية الافريقية للقيام بالمشروعات التجارية، ولكن فرنسا كانت أكثر اهتماماً بالجزائر وتونس. وفي سنة ١٦٢٨ منحت حكومة الجزائر فرنسياً من مرسيليا اسمه سنسون نابلون امتيازاً للاتجار بالمرجان المستخرج من الشواطىء الجزائرية (لكن هذا التاجر اخذ يهرب الحبوب وأهمها القمح من الجزائر).

وكان في مدينة تونس عدد كبير من التجار الأجانب بحيث انه كان لهم حي خاص بهم يقع على مقربة من الميناء، وكان بينهم موظفون تعينهم الحكومة الأجنبية للإشراف على التبادل التجاري بين دولهم وتونس. وفي سنة ١٦٦٦ منحت تونس شركة فرنسية امتيازاً للاتجار بالمرجان والحبوب. وكان في طرابلس تجار فرنسيون، وكان كبيرهم يتولى الإشراف على الشؤون الخاصة بالتجارة والاتجار، لكنه لم يكن موظفاً رسمياً.

وصناعة السكر المغربية التي أشرنا إليها طُورت منذ القرن السادس عشر بحيث أن الدولة المغربية كانت تدفع ثمن ما تستورده من أوروبا من الرخام والأقمشة والمصنوعات المعدنية والزجاج والأسلحة من تصدير السكر والحبوب والجلود.

ولما كانت الدول الأوروبية تتنافس فيما بينها بشدة للحصول على مواطىء قدم لتجارها، كانت تدفع مبالغ سنوية معينة لكل من الجزائر وطرابلس. وكانت تبعث بالهدايا إلى الداي (الجزائر) أو الباشا (طرابلس). وكانت المملكة المغربية تحصل على مثل ذلك، لكنها كانت تصر على أن تكون هذه الهدايا مدافع وأسلحة وذخيرة. وهذا ينطبق بشكل خاص على ملوك العلويين وأبرزهم في ذلك المولى إسماعيل (١٠٨٢ ـ ١١٣٩/ ١٦٧٢ ـ ١٧٢٧)، الذي كان عنده جيش ضخم من الودايا (وهم من القبائل العربية المختلفة) ومن العبيد الأفارقة، وكانوا بحاجة إلى السلاح.

لكن اضطراب الأمور في الجزائر في أواسط القرن الثامن عشر أضعف موقفها من

الدول الأوروبية، على نحو ما حدث بالنسبة إلى باشوية طرابلس. وتلكأت الدول عن دفع ما كان مفروضاً عليها. فتأخرت البلدان اقتصادياً وتناقص عدد السكان، بحيث أن الجزائر كلها لم يكن فيها سوى نحو ثلاثة ملايين من السكان، يعيش تسعة اعشارهم في الريف، وهي المناطق التي لم تعرها حكومات البلاد أي اهتمام، وذلك بسبب اهتمامها بالبحر، وأصبح السكان يعتمدون أصلاً على الثروة الحيوانية وخصوصاً الماعز والأغنام. واحتكرت الحكومة المحلية التجارة الخارجية لتحصل على المال اللازم لها. فالصادرات من الحبوب والزيوت والمواشي والجلود، والواردات وفيها الأقمشة والمواد الغذائية وخصوصاً السكر والبن، كانت جميعها بيد الحكومة. وما لم يكن حكراً على الحكومة أفاد منه التجار الأجانب بشكل خاص. والصناعات البسيطة التي عرفتها مدينة الجزائر وقسنطينة ووهران وتلمسان لم تكد تكفي السوق المحلية. والمدن الرئيسة في القطر كانت الجزائر (٣٠,٠٠٠ نسمة)، وقسنطينة (١٢,٠٠٠ نسمة)، ووهران (٩,٠٠٠ نسمة).

وفي تونس استقرت القبائل في السهوب واهتمت بتربية المواشي، وزاد إنتاج الزيتون والحبوب. وهذه كانت مواد التصدير الرئيسة إلى أوروبا. وكان هناك صناعات محلية تشمل صناعة الأقمشة والزرابي (البسط) والشاشية (الطرابيش) والجلود، وهذه كانت ترسل إلى الجزائر وإلى المشرق. وهذا التقدم النسبي يرجع إلى استقرار في الأوضاع السياسية. وكانت التجارة الخارجية هنا أيضاً حكراً على الحكومة.

وقد أضر بليبيا، في القرن الثامن عشر، ما قام بين أفراد الأسرة القرمنلية من نزاع وحروب أهلية، وعجزت واردات الحكومة عن الوفاء بنفقاتها. وكانت الدول الأجنبية تدفع ما قيمته ١٠٠,٠٠٠ قرش، فهبط هذا إلى أقل من النصف. ولزّم يوسف القرمنلي جمارك طرابلس (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢) ليحصل على المال. وشدد الخناق على الشعب في جمع الضرائب. فكانت النتيجة أن جلا كثيرون من الفلاحين إلى تونس والمملكة، كما رحلوا إلى المشرق واستقروا في مصر بشكل خاص.

النشاط الاقتصادي في المغرب العربي

١

عنيت دولتا إسبانيا والبرتغال، منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، بالبحث عن طريق يوصلهما إلى الهند، في محاولة للتخلص من احتكار المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) للتجارة الشرقية وخصوصاً تجارة التوابل والطيوب. فقد فرض المماليك هذا الاحتكار ليفيدوا منه أفراداً ـ سلاطين وأصحاب نفوذ ـ رغبة منهم في الوفاء بحاجاتهم الإدارية والعسكرية والشخصية. ولما كان تجار المدن الإيطالية، وفي مقدمتها البندقية، هم الذين تعاملوا مع مصر المملوكية، وتعهدوا نقل هذه السلع الشرقية إلى أوروبا، فقد فرضوا هم الأسعار التي كانوا يرغبون في الحصول عليها.

وكان ان اتجهت إسبانيا غرباً عبر المحيط الأطلسي أملاً في الوصول إلى الهند، لكنها اهتدت في النهاية الى عالم جديد. أما البرتغال فقد سارت في عملياتها الاكتشافية محاذية لسواحل افريقيا الغربية، حتى أتيح لها أن تدور حول رأس الرجاء الصالح وتصل إلى المحيط الهندي في حوالى ٩٠٠ هـ ٦٠ ١٥٠٠ م، فتدخل عالم التجارة الشرقية من بابه الخلفي.

على أن هذه المحاولات لاكتشاف الطرق الجديدة رافقتها هجمة شرسة على موانىء المغرب العربي، بقصد الاستيلاء عليها طمعاً في السيطرة على منافذ الطرق الصحراوية التجارية التي تصل إلى السودان الغربي. ذلك بأن كلاً من هذه الطرق الداخلية تنتهي إلى ميناء في الشمال الافريقي، بحيث تنقل إليه السلع الداخلية ـ وفي مقدمتها الذهب والرقيق وريش النعام ـ كما كانت تحمل إلى الداخل بضائع أوروبا والمشرق التي كانت تنقلها السفن إلى هذه الموانىء.

بدأت هذه الهجمة حتى قبل سقوط غرناطة (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م). فقد احتلت اسبانيا تطوان (٨٠٤ هـ/ ١٤٠٠ م) واستولت البرتغال على سبتة (٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م)، والقصر الصغير (٨٦٢ هـ/ ١٤٥٢ م)، وأصيلة وطنجة (٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م).

وبعد سقوط غرناطة وجهت اسبانيا همها نحو موانىء البحر المتوسط فاحتلت مليلة (٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م)، والمرسي الكبير (٩١١ هـ/١٥٠٥ م)، وحجر باديس (٩١٤ هـ/١٥٠٨ م) ووهران وبجاية (٩١٥ هـ/١٥٠٩ م). والجزائر (٩١٦ هـ/١٥١٠ م). ودمرت طرابلس (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) واحتلتها بعد وقت قصير. واستولت على تونس (٩٤١هـ/ ١٥٣٥م). أما الاتجاه البرتغالي فكان نحو الموانىء الأطلسية للمغرب. فاستولى البرتغاليون على أغادير وموغادور وآسفي (٩٠٣ ـ ٩١٤ هـ/١٤٩٦ ـ ١٥٠٨ م)، وعلى أزمور (٩٢٠ هـ/١٥١٣ م).

كانت الدولة العثمانية قد بلغت، في العقود الأخيرة من القرن التاسع الهجري ٦٠ الخامس عشر الميلادي وفي القرن التالي، الغاية في قوتها واتساع نفوذها، واستطاعت أن يكون لها أسطول يقارع الاسبان في البحر المتوسط. وقد ازداد شعور السلاطين العثمانيين بالقوة بعد أن استولى السلطان سليم الأول (٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م) على بلاد الشام ومصر وقضى على دولة المماليك (٩٢٣ هـ ١٥١٧ م) وأصبح يسيطر على الحجاز وبرقة. ثم تسلم العرش السلطاني بعده سليمان القانوني (حكم ٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) وهو من أقدر سلاطين آل عثمان. في هذه الفترة استعاد العثمانيون الجزائر (٩٢٢ هـ٦٠ ١٥١٦ م)، والبنيون (٩٣٥ هـ/ ١٥٢٩ م)، وطرابلس (٩٥٧ هـ/ ١٥٥١ م)، وتونس (٩٨٢ هـ/ ١٥٧٤ م). وهكذا قبل انتهاء القرن العاشر الهجري ٦٠ السادس عشر الميلادي كانت طرابلس وتونس والجزائر قد أصبحت تابعة للدولة العثمانية.

أما إخراج البرتغاليين من المغرب بالذات، فقد تم على أيدي الدولة السعدية (٩١٧ ـ ١٠٦٩ هـ/ ١٥١١ ـ ١٦٥٩ م)، وكان ميناء أغادير أول بلد استرجع (٩٥٦ هـ/ ١٥٤١ م) ولم يبق

في أيدي البرتغال سوى الجديدة (التي استرجعت في عهد الدولة العلوية (١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٩ م) وكان ذلك سنة ١١٨٣ هـ/ ١٧٦٩ م).

ترتب على الوضع الذي نشأ في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي أن قامت في المغرب العربي منطقتان مختلفتان في نظمهما. ففي طرابلس وتونس والجزائر قام حكم عثماني، وقد عرفت هذه الأقطار باسم الايالات وظلت تابعة للدولة العثمانية، على اختلاف في درجة التبعية حتى عاد الأوروبيون فاستولوا على الجزائر (١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م)، وتونس (١٢٩٩ هـ/ ١٨٨١ م)، وليبيا (١٣٢٩ هـ/ ١٩١١ م).

أما المغرب الأقصى فقد حافظ على استقلاله، ضد الأتراك أولاً، رغم المحاولات المتكررة من الجزائر، ثم ضد الهجمات الأوروبية، في عهد الدولة العلوية التي تولت مقاليد الأمور سنة ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٩ م. إلا أن المغرب نفسه لم ينج في النهاية من احتلال فرنسا (١٣٣٠ هـ/ ١٩١٢ م).

وكانت الإدارة في الايالات العثمانية تختلف في الواحدة عنها في الأخرى. فإذا أخذنا الجزائر مثلاً، وجدنا أن حاكمها، وقد عرف بلقب الداي، كان يتولى منصبه (بفرمان) من السلطان، لكنه في الواقع لم يكن له نفوذ أو سلطان بعد ٩٩٥ هـ/ ١٥٨٧ م. إذ إن الإشراف المباشر كان في يد الانكشارية أو في يد رؤوساء الطوائف مناوبة أو مغالبة. والانكشارية كانوا يمثلون الجند التركي الذي كانت الدولة العثمانية تبعث به إلى الايالات. أما رؤوساء الطوائف فكان منهم قادة منظمات القرصان والأسطول والميناء. وهؤلاء كانوا منوعي الأصول. وكان الأتراك الأصليون قلة بينهم، لكنهم كانوا دعامة الحياة المالية. فالجزائر لم تلق في العهد العثماني أي عناية بالزراعة أو التجارة مع الداخل. بل كان البحر، بتجاراته وغاراته، المورد الأول للحكم. ومما لا يجب أن يغيب عن البال هو أن الصراع على السلطة والنفوذ كان مستمراً في حياة الجزائر، الأمر الذي كان كثيراً ما يوقف دولاب العمل، على ما كان عليه من بطء على كل حال.

مرت تونس بأحوال مماثلة. فالانكشارية، الذين بلغ عددهم نحو الألفين في بعض الأحيان، كانوا في خصومة مع ريس البحر وصاحب المال (الخازندار). ومع أنهم توصلوا إلى إقامة نظام اسمه الديوان (كان اعضاؤه رؤوساء الانكشارية وريس البحر وصاحب المال وبعض المتقدمين من الأتراك في وظائف الدولة، فإن ذلك لم يمنع التصادم بين هؤلاء وحتى بين رؤوساء الانكشارية أنفسهم. وأخيراً استولى على السلطة مغامر اسمه حسين بن علي (١١١٧ هـ/ ١٧٠٥ م) وأنشأ الدولة الحسينية التي ظل باياتها يتعاقبون على عرش تونس حتى سنة ١٩٥٧. ومع أن هذا أدى إلى استقرار نسبي في الأمور، فإن الخصومات العائلية من جهة والحروب مع الجزائر من جهة ثانية استنفد الكثير من النشاط والثروة.

وألمت بالايالة الطرابلسية أو باشوية طرابلس (وهو الاسم الإداري والدبلوماسي لليبيا)

احوال لم تختلف كثيراً عما مر بالايالتين الأخريين. كان الحاكم ويلقب «الباشا» تركيا يولّى من استانبول. وحتى لما أنشأ أحمد القرمنلي (القرمانلي) أسرة حاكمة (١١٢٤ هـ/ ١٧١١ م)، فإن الخلافات بين أفراد الأسرة لم تنقطع، كما لم تنقطع الثورات الداخلية بسبب عسف الحكام. وقد دامت هذه الأسرة إلى سنة ١٢٥١ هـ/ ١٨٣٥ م لما استعادت الدولة العثمانية سيطرتها على الايالة.

وما يقال عن نفوذ القرصان في الايالة الواحدة ينطبق على الايالتين الأخريين.

أشرنا من قبل إلى ان المغرب (الأقصى) ظل مستقلاً، رغم محاولات الأتراك المتواصلة للاستيلاء على البلاد، بل انه استرجع بعض الموانىء التي كان الأجانب قد استولوا عليها. وقد حكم المغرب منذ اوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي الأسرة السعدية والأسرة العلوية. ومؤسس الدولة السعدية هو القائم بأمر الله (٩١٧ هـ/ ١٥١١ م). وحكم بعده ابناه أحمد الأعرج ومحمد الشيخ (٩٢٣ ـ ٩٦٤ هـ/ ١٥١٧ ـ ١٥٥٧ م). واستعيدت في عهدهذا الاخير أغادير وأزمور من البرتغاليين. وتولى ثلاثة ملوك من السعديين هم الغالب بالله والمتوكل وأبو مروان عبد الملك (٩٦٤ ـ ٩٨٦ هـ/١٥٥٧ ـ ١٥٧٨ م) وكان لهؤلاء اهتمام بالتجارة الخارجية وخاصة مع انكلترا.

اعتزم ملك البرتغال سبستيان (حكم ١٥٥٧ ـ ١٥٧٨ م)، وكان معاصراً للملوك المغربيين الثلاثة المذكورين، على العودة إلى المغرب فتحالف مع أحد الخارجين على أبي مروان. وجاء المغرب (٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م)، ومعه الخارج وكان جيشه مؤلفاً من عناصر برتغالية، لكن كان يحتوي على أعداد كبيرة من مرتزقة الألمان والاسبان والطليان. والتقى المغاربة بالجيش البرتغالي في وادي المخازن، وانتصر الأولون في تلك المعركة، التي سميت باسم الوادي، (٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م). وقتل الملوك الثلاثة الذين اشتركوا في المعركة، وهم أبو مروان وسبستيان والثائر (ابن عبد الله) ومن ثم فإن هذه المعركة يسميها المؤرخون الأوروبيون معركة الملوك الثلاثة. وتولى حكم المغرب الملك أحمد (الذهبي) الذي حكم من (٩٨٦ ـ ١٠١٢ هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣ م) وحصن اطراف البلاد وقام بأعمال عمرانية وإدارية كبيرة. وأرسل حملة إلى السودان الغربي (٩٩٩ هـ/١٥٩٠ م) بقيادة جودر فوصلت غوا وعسكرت حول تمبكتو، وتبعتها إمدادات في السنة التالية بقيادة محمود، فاستولت على المنطقة بأكملها وقضت على دولة سونغي. وقد بلغ عدد الجنود الذين رافقوا الحملة ٢٣٠٠٠ وكانوا ينقلون العدة والعتاد، بما في ذلك المدافع، عبر الصحراء الكبرى على الإبل. وقد قضت الحملة ١٣٥ يوماً في الطريق من مراكش إلى غوا عند منعطف النيجر.

يعتبر المولى إسماعيل (١٠٨٢ ـ ١١٣٩ هـ/ ١٦٧٢ ـ ١٧٢٧ م) أكبر ملوك العلويين في الدور الأول من حياة الأسرة. فقد سار حكمه على جميع أنحاء المملكة، وعقد معاهدة مع الأتراك (في الجزائر) واستولى على مناطق ساحلية في السودان الغربي واستعاد المعمورة

(المهدية) والعرايش وأصيلا وطنجة من الأجانب بين (١٠٩٢ و١١٠٠ هـ/ ١٦٨١ و ١٦٨٩ م) وكان جيش إسماعيل ضخماً يتكون من الودايا (وهم مجموعة من القبائل العربية التي أيدته) والعبيد الأفارقة الذين جمعهم من بيوت سابقيه وأتباعم للغرض بالذات (وقد قدر عددهم بين ١٢٠٠٠ و١٥٠٠٠). وكان في الجيش نحو ثلاثة آلاف من الأوروبيين وأصلهم مرتزقة أو أسرى حرب. وهؤلاء كانوا يستعلمون في الأمور الفنية، مثل البناء (في عاصمته الجديدة مكناس أو مكناسة الزيتون) وصنع السلاح وفي تدريب الجنود.

ويعزى إلى إسماعيل انه جدد وبنى من الحصون ٧٦ حصناً. وبنى لنفسه عاصمة جديدة هي مكناس.

٢

بعد وفاة إسماعيل مرت بالبلاد فترة اضطراب دامت ثلاثين سنة، ثم تلا ذلك فترة استقرار تميز فيها ملكان هما محمد بن عبد الله والمولى سليمان.

رأينا أن نضع هذه الخلاصة التاريخية امام القارىء ليتمكن من متابعة ما سنقوله عن النشاط الاقتصادي في المغرب خلال الفترة المذكورة. وأول ما يجب أن نوجه إليه التفاتنا هو البحر، والدور الذي كان يقوم به بالنسبة للاقتصاد المغربي. فالبحر كان يقدم لأقطار المغرب العربي ـ المملكة المغربية والايالات الثلاث ـ المورد المالي الرئيس. ذلك بأن القرصنة، التي كانت عملاً مقبولاً في جهتي البحر المتوسط الشمالية والجنوبية والتي لم تعتبر لصوصية، قط، هي التي كانت تزود الحكام بحاجتهم من الأموال للنفقات العامة والخاصة، أو بالقسم الأكبر منها على كل حال. وكانت القرصنة تتم بموافقة الحكام. وكانت السفن الأوروبية تقوم، من ناحيتها، بأعمال القرصنة أيضاً.

كانت السفن المغربية تخرج من موانىء سلا (المحيط الأطلسي) ومن الجزائر وتونس وطرابلس، وحتى من الموانىء الأصغر شأناً، فتستولي على السفن الأوروبية التجارية (بالمقابل لما كانت تقوم به السفن الأوروبية) وتقودها إلى موانئها. وكانت بعض السفن، مثل سفن طرابلس، تغير حتى على الموانىء الأوروبية بالذات. (وكانت موانىء جنوب فرنسة واسبانية وايطالية وصقلية خاصة تتعرض لهذه الغزوات). وكانت سفن المغرب العربي تحمل ما تقع عليه في جميع الحالات من المتاجر، ومن تأسره من الرجال (وغيرهم)، إلى بلادها. ومن الطبيعي أن يعتبر كل هذا حقاً للقرصان ـ فالمتاجر تباع في الأسواق، والناس يفصل الحكام بأمرهم. فهم أسرى حرب ويعتبرون رقيقاً.

أما ما كان يقع في أيدي القرصان الافريقي من التاجر والسلع، فأهمه الذهب (الذي أخذ يتدفق على أوروبا بعد اكتشاف اسبانيا لمناطق مختلفة من أواسط اميركا وجنوبها، واستلابها ما كان فيها من ذهب وفضة). ويلي ذلك الأقمشة والزجاج والمصنوعات المعدنية والسلاح، سواء في ذلك ما كان يحمله البحارة أنفسهم أو ما كانت تنقله السفن للاتجار به.

وهذه السلع كانت تباع في أسواق الموانىء الكبرى، وكثيراً ما كانت تنقلها القوافل عبر الصحراء الى السودان الغربي ـ أي حوضي النيجر والسنغال.

وأما الأسرى فكان ما يصيبهم يتوقف على مدى النشاط الذي كانت تقوم به المؤسسات الأوروبية المتعددة. دينية أو سياسية، من جهد لافتداء الأسرى. وكان الافتداء هذا يزود الدولة (أو القرصان) بمبالغ كبيرة.

وكثيراً ما كانت حكومات المغرب العربي تحتفظ بعدد من هؤلاء الأسرى، الذين اعتبروا رقيقاً في الواقع (الا من أسلم منهم)، لتستخدمهم في أعمال البناء وفي الصناعات العسكرية، وحتى بحارة في السفن التابعة للدولة. وقد عمل بعضهم مدربين للجيوش في المغرب.

قد ظهرت أثار هذه الثروة في مدينتي الجزائر وتونس في الفترة التي نتحدث عنها. فبنيت الجوامع الجميلة (مثل جامع القصبة في تونس) والقصور الفخمة، مثل قصور دايات الجزائر. وحتى بيوت سكن الموسرين بدت عليها الأناقة والضخامة والزخرف. إذ ان هؤلاء كان أكثرهم من التجار الذين كانوا يفيدون من شراء البضائع التي تجلبها سفن القرصان وبيعها في أسواق البلاد، أو على الغالب، لتجار الأفارقة من الجنوب ـ أي الواقعة بلادهم جنوبي الصحراء الكبرى. فيبتاع هؤلاء الأقمشة والحلي والثياب والزجاج لقاء ما يحملونه من السودان الغربي من الذهب والرقيق والعاج والريش. وهذه السلع كان تجار المغرب يبيعونها إلى التجار الأوروبيين.

وجدير بالذكر أن عشرات الألوف من العرب المسلمين ومن اليهود أجلوا عن إسبانية في القرن العاشر/ السادس عشر ومطلع القرن التالي. والغالب على هؤلاء انهم كانوا أصحاب مهارات صناعية وهندسية وزراعية. وقد أفادت أقطار المغرب العربي من أولئك الذين استقروا في البلاد.

على أن القرصنة كان لا بد لها أن تقف عند حد. فقد عملت الدول الأوروبية على تحسين اساطيلها وتنظيم العمل فيما بينها، للدفاع عن نفسها. فقل وارد القرصان من السفن، ونقصت، تبعاً لذلك، موارد الدول. فانتقلت اقطار المغرب العربي إلى الاهتمام بتقوية التجارة القائمة مع الدول الأوروبية. وكانت منتوجات البلد الواحد هي التي تعين نوع التجارة ومداها. فالمملكة المغربية كانت لديها مصانع للسكر، لعلها تعود إلى قبل الدولة السعدية إنشاءً، ولكنها وسعت في عهد هذه الدولة وأيام الدولة العلوية. وخاصة أن زراعة قصب السكر انتشرت في المنطقة الساحلية في الجنوب. وكانت اقطار المغرب غنية بالجلود، وخاصة المملكة المغربية. وإذ كانت انكلترا بحاجة كبيرة إلى هاتين المادتين، ولذلك فإن المعاهدة التجارية بين المملكة المغربية وانكلترا المعقودة سنة ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م، تجددت في القرن التالي. وكانت شركة افريقية البريطانية للاتجار مع أقطار المغرب العربي قد أنشئت سنة ٩٩١ هـ/ ١٥٨٥ م، وكانت تقوم بأعمال تجارية كبيرة. ومع أن هذه الشركة صفيت بعد انشائها بنحو خمس عشرة

سنة، فإن الاتصالات التي بدأت مع قيامها استمرت بالتحسن، وزاد نشاطها بعد توقف القرصان عن العمل.

وأنشأت فرنسة، في العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر/ السابع عشر، الشركة (الفرنسية) الافريقية، التي كانت تركز نشاطها على أسواق الجزائر وتونس.

وكان في مدينة تونس عدد كبير من التجار الأجانب، بحيث أنه كان لهم حي خاص بهم يقع على مقربة من الميناء. وكان بينهم موظفون تعينهم حكوماتهم للإشراف على التبادل التجاري مع تونس. وفي سنة ١٠٦١ هـ/ ١٦٦٦ م منحت حكومة تونس شركة فرنسية امتيازاً للاتجار بالمرجان والحبوب (وقد كان الاتجار بالحبوب ممنوعاً في تونس من قبل، شأنها في ذلك شأن الجزائر).

واستقر في طرابلس عدد من التجار الفرنسيين لا يستهان به. وكان كبيرهم يتولى الإشراف على شؤونهم، لكنه لم يكن يعين من قبل الحكومة الفرنسية.

استمر تطوير صناعة السكر في المغرب حتى القرن الثالث عشر/ التاسع عشر. وكانت الحبوب المادة الرئيسية الثانية للتصدير بعد السكر. وكانت الصادرات من هاتين المادتين كافية لأن يدفع المغرب ثمن ما كان يستورده من أوروبة من الرخام والأقمشة والمصنوعات الزجاجية والمعدنية والأسلحة وغيرها.

وأفادت تونس من مهاجرة الأندلس الذين استقروا في وادي مجردة والساحل التونسي، إذ انعشوا الزراعة ونوعوا الحاصلات الزراعية. والذين منهم أقاموا وفي تونس الحاضرة في بعض المدن الأخرى عنوا بالصناعة، فصارت تونس تصدر خيوط الحرير والأقمشة الصوفية والزرابي (البسط الصوفية) والزليج أو الزلاج (القيشاني) والشاشية (الطرابيش) إلى بعض الأقطار الأوروبية وإلى البلاد الشرقية، مثل مصر وبلاد الشام.

وبسبب حملة المنصور الذهبي إلى السودان الغربي نشطت تجارة الذهب والعاج والرقيق آتية من هناك. كما أرسل المغرب إلى تلك الديار الملح والسكر والمصنوعات المحلية، ومنها الأقمشة، والسلع الأوروبية ومنها الزجاج. وكان الكثير من الرقيق السوداني ينقل إلى تركية والمشرق.

٣

في القرن الثاني عشر/ الثامن عشر سيطرت المملكة المغربية على تجارتها الخارجية. فكانت قد استعادت المعمورة (١٠٩٢ هـ/ ١٦٨١ م)، وطنجة (١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٤ م) والعرائش (١١٠١ هـ/ ١٦٨٩م) وأصيلا (١١٠٣ هـ/ ١٦٩١ م). وعقدت معاهدة تجارة مع فرنسة (١١٨١ هـ/ ١٧٦٧ م) وأخرى مع اسبانية (١١٨٩ هـ/ ١٧٧٥ م) وجددت المعاهدة القديمة مع بريطانية. وظل السكر والقمح الصادرات والأقمشة والمصنوعات المعدنية والسلاح أكبر الواردات.

لما كانت الدول الأوروبية متفرقة الكلمة، وكانت المنافسة على أسواق المغرب العربي بينها شديدة، كانت تضطر أن تدفع جعلاً سنوياً لكل من حكومات تلك المنطقة كي يسمح لتجارها بدخول الموانىء والمتاجرة فيها. وكان تعيين المشرف التجاري الجديد (القنصل فيما بعد) أو حتى تبديله، يقتضي من الدولة أن تقدم لحاكم الايالة هدية كبيرة.

لكن اضطراب الأمور في الجزائر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر/ الثامن عشر أضعف موقفها أمام الدولة الأوروبية، فتلكأت هذه عن دفع الجعالات أو الاتاوات. فنقصت موارد الدولة، وتأخرت البلاد اقتصادياً بسبب الحروب الداخلية. وقد هبط عدد سكان القطر الجزائري في ذلك القرن إلى نحو ثلاثة ملايين نسمة، كان يعيش تسعة أعشارهم في الريف، وهي المناطق التي لم تعرها الحكومة أيَّ عناية. فاضطر السكان إلى الاعتماد على الثروة الحيوانية، وأخصها الماعز والأغنام. واحتكرت الدولة التجارة الخارجية لتحصل على حاجتها من المال. فالصادرات من المواشي والجلود والحبوب والزيوت، جمعاً وبيعاً، والواردات وفيها الأقمشة والمواد الغذائية والسكر والبن، استيراداً وبيعاً، كانت حكراً على أرباب الدولة. وأما ما بقي خارج نطاق الاحتكار فقد أفاد منه التجار الأجانب ـ مثل المرجان والفلين (على أساس امتيازات تمنح لتجار أجانب).

وكانت توجد في الجزائر (المدينة) صناعات بسيطة لبعض أنواع من المواد الغذائية والأدوات المنزلية وبعض أصناف القماش. لكن منتوجها لم يكن يكفي السوق المحلية.

أما في القطر التونسي فقد استقرت القبائل في السهوب، وعنيت بتربية المواشي. وارتفع إنتاج الحبوب والزيتون، وكانت هاتان المادتان الأكبر قيمة في الصادرات إلى أوروبا. وكانت الأقشمة والزرابي والمصنوعات الجلدية والطرابيش تصدر إلى الجزائر والمشرق. وكانت التجارة الخارجية حكراً على الحكومة. وهذا التقدم النسبي في الأحوال الاقتصادية كان سببه الاستقرار النسبي أيضاً ـ في الأوضاع السياسية.

وأما في ليبيا فإن الخلافات والحروب الأهلية بين أفراد الأسرة القرمنلية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر/ الثامن عشر أضعف الحكومة، فعجزت واردات الدولة عن القيام بمصاريفها، إذا امتنعت الدول الاجنبية عن دفع الجعالات للباشا. فهبط المبلغ من ١٠٠,٠٠٠ (مئة ألف) قرش إلى أقل من النصف. فلزم يوسف باشا القرمنلي جمارك طرابلس، فظلم الملتزمون التجار، فتأذت التجارة الخارجية. وشدد الباشا الخناق على الناس في تحصيل الضرائب. فجلا عدد كبير من الفلاحين إلى تونس وغيرها من أقطار المغرب، وإلى المشرق، ومصر بشكل خاص.

٢ - الجزائر وفرنسا

١

تمتد الجزائر ألفاً ومائتين من الكيلو مترات بين تونس ومراكش، وتبعد أجزاؤها الجنوبية نحواً من ألفي كيلو متر عن شواطىء البحر الأبيض المتوسط. وتبلغ مساحتها ٢,٢٠٤,٨٦٤ كيلو متراً مربعاً، منها ١,٨٦٤,٠٠٠ مناطق صحراوية أو شبيهة بذلك.

وتقسم الجزائر، من حيث طبيعة السطح والمناخ، إلى منطقة التل، التي تمتد موازية للبحر الأبيض المتوسط وتشمل السهول الضيقة وسفوح الأطلس وسلسلتها الشمالية وبعض الهضبة الواقعة بين سلسلتي الأطلس. ويلي التل منطقة السهوب، وهي سفوح الأطلس الجنوبية وانحداراتها نحو الصحراء، ثم المنطقة الصحراوية بواحاتها. ومنطقة التل تتسع في الجهة الشرقية جنوباً على حساب السهوب، كما أن السهوب تمتد في الجهة الغربية شمالاً معتدية على التل. ومساحة التل ١٣٤,٠٠٠ كيلو متر مربع بينما تبلغ مساحة السهوب ١٧٢,٠٠٠ كيلو متر مربع. ولكن بينما نجد ان معدل سقوط المطر في منطقة التل لا يقل عن ٤٠ سم، فإن كمية المطر الساقطة في منطقة السهوب لا تتجاوز ذلك أبداً. أما المنطقة الصحراوية فتبلغ ٨٦ بالمئة من مساحة القطر الجزائري بكامله.

والمسافر من تونس إلى مدينة الجزائر إلى تلمسان، إذا استقل السكة الحديد، استطاع أن يتعرف إلى الجزائر، على الأقل في قلبها. وقد قمنا بهذه الرحلة فبدأنا «السفرة في سهول تونس التي كان بعضها أجرد بحكم العادة، والبعض الآخر أجرد هذه السنة (صيف ١٩٥١) بسبب قلة الأمطار. وهي شبيهة بالسهل الساحلي في جنوب فلسطين، أي بين اللد وغزة، بعد أن يجرد من البيارات، على أن يحتفظ بأشجار الزيتون وبعض النخيل وكروم العنب. ويرى الواحد على الجانبين، عن بعد، جبالاً يرتفع بعضها إلى نحو ٥٠٠ متر... وفي محطة غرديمو على الحدود التونسية الجزائرية، وفي بناء واحد، مكتبان: الواحد كتب عليه الدوانة التونسية أي مكتب الجمرك التونسي، وعلى المكتب الثاني وضعت كلمتا الدوانة الفرنسية. والسبب في تسمية الجمرك الجزائري فرنسياً يرجع إلى أن الفرنسيين يعتبرون القطر الجزائري جزءاً من فرنسا، لا كما هي الحال في تونس ومراكش المعتبرتين محميتين... وبعد غرديمو أخذ القطار يسير في أودية متعرجة، حتى وصل سوق الخميس، فارتفعت الجبال على جانبي الطريق، واكتست بالأحراج الجميلة، وصارت أقرب شبهاً بجنوب لبنان وأواسطه. وأخذ القطار يصعد وظل على ذلك فترة من الوقت لا بأس بطولها حتى انتهى التصعيد في دوفيفيه، لكن الطريق استمر مجتازاً منطقة جبلية. وقبل أن يصل إلى قسنطينة عاد فصعد، لأن هذه المدينة تقع على مجموعة من القمم يتراوح ارتفاعها بين ٦٨٠ و٧٦٠ متراً.

«والطريق من قسنطينة إلى الجزائر أكثر إمتاعاً. حقاً أن الجزء الأول منها كان عادياً، يجتاز أرضاً سهلية تخترقها أودية اكثرها جاف، لكن بعضها فيه من الماء ما يكفي لأن ينمو البعوض فيه. إلا أن الطريق أخذ يظهر بعض محاسنه تدريجاً، وخاصة بعد أن اجتزنا محطة برج بوعريريج. فقد تنوعت الألوان في الجبال، حتى لحسبت أن الحديد لا بد أن يكون داخلاً في تركيبها. وقد صدق حدسي، إذ لم نلبث أن مررنا بمحطة اسمها بورت دي فر، أي باب الحديد. وهذه الأشجار التي بدأت زيتوناً وصنوبراً افريقياً متفرقاً، لم تلبث ان تزاحمت في بقع كثيرة، ثم تناكبت في غيرها، وأخيراً تعانقت صفصافاً وحوراً جميلاً على عدوات الأودية، وقد بدا عناقها رائعاً لأنه جاء مع غروب الشمس، التي كانت تختفي ثم تبدو، بسبب دوران الطريق ولفها في هذه الأودية المحاطة بجبال ترتفع احياناً حتى تحسب أنك تسير بين قمم لبنان الشمالي، وخاصة المجموعة التي تقع على يميننا (أي شمالي الطريق) والمعروفة باسم القبايل الكبرى.

«وأخيراً خيم الظلام؛ فلم أعد أتبين سوى أنوار المزارع والقرى عن بعد، وأنوار المحطات إذ نجتازها سراعاً أو نقف فيها لحظات.

«وفي زيارتنا للبلدية، على نحو خمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من الجزائر، اجتزنا وسط كروم هي غاية في الاتقان والترتيب والعناية، تتخللها أشجار من الزيتون، ويزين التلال الملاصقة لها شجر الصنوبر وبعض الأرز. والقرى التي في الطريق تمثل عمل الفرنسيين أي اغتصابهم للأرض. والبليدة تقع في منطقة التل، أخصب أجزاء القطر الجزائري. وعلى مقربة من البليدة، على نحو خمسة عشر كيلومتراً منها، زرنا وادي السعادين. وهو من حيث جماله وماؤه وهواؤه لا يقل عن أودية قاديشا والباروك والقرين. تحف به الجبال الى ارتفاع شاهق وتكسو سفوحها أشجار الأرز، ويخترق الوادي نهير ينبع في أعاليه، ثم يتدحرج إلى البليدة وما إليها وهو يروي الأرض وينعش السكان.

«والطريق من مدينة الجزائر إلى تلمسان يجاري أطراف منطقة التل والسفوح الجنوبية للأطلس الشمالية. ولا تقل هذه الطريق التي اجتزناها في الساعات العشر الماضية جمالاً عن تلك التي وصفتها من قبل بين قسنطينة والجزائر. وقبل أن نصل تلمسان أخذت الطريق تدور بنا وتلف، متجنبة هذه الأودية السحيقة، مجارية لهذه الجبال السامقة، مستظلة بين الفينة والفينة بهذه الأشجار الباسقة، مشرفة، بين الحين والحين، على نهيرات عذب ماؤها وصفا لونه حتى لكأنه غير الماء. ولم نلبث أن اشرفنا على تلمسان، فإذا بنا في منبسط من الأرض جاد فيه التراب، فأينع الثمر، وانتظم الشجر، وفاح من الزهور أريج، وكسا الجبال غاب، فنقلنا ذلك كله إلى عالم فيه من الجمال ما يعجز الوصف. لولا أن كثيراً من هذا، مثل ذلك الذي رأيته في طريقي إلى البليدة، يمثل انتزاع الفرنسيين للأرض من أبنائها، وإقامتهم ملكهم على أشلاء المجتمع العربي في البلاد.

«ومثل ذلك يقال عن الطريق من تلمسان إلى وهران، ومنها إلى مستغانم. فإنا نسير في

كل هذه المناطق في أراض جميلة خصبة، وإن كان يعطل هذا الخصب، في سنوات كثيرة، جفاف يحوق بالأجزاء الجنوبية من التل وبالسهوب، فيأتي على الحرث والسعي (الماشية) ويزيد في فقر القوم».

وتوزيع الأراضي في القطر الجزائري هو على النحو التالي (بالهكتارات) بالنسبة إلى الاستغلال والفائدة:

السنة	للزراعة والمراعي	للغابات	غير المستغلة
١٩٣٩	٣٨,٥٧٩,٠٠٠	٢,٩٥٧,٥٥٥	١٨٧,٣٩٠,٠٠٠
١٩٤٩	٤٧,٤٠٥,٠٠٠	٢,٩٥٨,٠٧٦	١٧٠,٠١٢,٠٠٠

وفيما يلي أرقام توضح الإنتاج الزراعي في القطر الجزائري نضعه بين يدي القارىء، على أن نعود إليه فيما بعد لتحليله (هذه الأرقام معدلة عن سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩):

المادة	الكمية	المادة	الكمية
القمح	٩٤٦,٦٠٠ طن	الفواكه	١٧٦,٧٠٠
الشعير	٨٩٠,٤٠٠ طن	الزيتون	١١٦,١٠٠
الشوفان	١٤٢,٤٠٠ طن	التمور	١٠٢,٦٠٠
الذرة	٩,٠٤٧,٠٠٠ طن	التبغ	٢٠,٠٧٠
الخضار والقطاني	٢٢٦,٠٠٠ طن	القنب	١٧,١٠٠
الأثمار الحمضية	٢٢٣,٢٠٠ طن	القطن	٣٠

الخموز ١٤,٤١٢ هكتولتراً.

الثروة الحيوانية كانت في سنة ١٩٤٩ كما يلي:

المادة	الكمية	المادة	الكمية
الأبقار	٧٤٧,٠٠٠	الماعز	٢,٥٩٦,٠٠٠
الخيول	٢٠٤,٠٠٠	الإبل	١٣٨,٠٠٠
البغال	٢٣٠,٠٠٠	الخنازير	١٦٠,٠٠٠
الحمير	٢٥٥,٠٠٠	الأغنام	٣,٨٣٩,٠٠٠

وقد بلغ الصوف الذي جمع من الأغنام ٢,٥٠٠ طن.

أما الثروة المعدنية التي توجد في الجزائر فتتضح من الأرقام التالية:

النحاس	٣٠٤	أطنان	(سنة ١٩٤٥)
الزئبق	٤	أطنان	(سنة ١٩٤٩)
البترول	٣١٩	طناً	(سنة ١٩٤٩)
الحديد	٢,٦١٥,١٠٠	طن	(سنة ١٩٤٩)
الزنك	١٥,٧٠٠	طن	(سنة ١٩٤٩)
الفوسفات	٦٤٨,٢٠٠	طن	(سنة ١٩٤٩)
الكبريت الطبيعي	٣٢,٧٠٠	طن	(سنة ١٩٤٩)
الفحم	٢٢,،٤٩٤	طناً	(سنة ١٩٤٩)

وقد ضربنا صفحاً هنا عن الثروة الناتجة من الحجارة الصالحة للبناء والصلصال الصالح لصنع الفخار والترابة (الاسمنت).

والصناعة الجزائرية تتلخص في الأمور التالية:

١ ـ يوجد في القطر كله ستة عشر مصنعاً للنسيج (الصوفي والقطني) انتجت في سنة ١٩٤٨ ما يلي: ٢,١٥٨ طناً من الغزولات و٢,١٠٠ ألف متر من القماش العادي و٣,٠٦٢ طناً من القماش الخشن.

٢ ـ في سنة ١٩٤٩ أنتجت مدينة الجزائر والواد وقسنطينة ووهران وتلمسان من البسط الصوفية ما بلغ وزنه ٤٠٦ أطنان.

٣ ـ بلغ ما صنع من البسكويت وما شابه ذلك (١٩٤٩) ٣٦٥,٦٠٠ طن.

٤ ـ ووضع في العلب ٦,٤٨٠ طناً من السمك (١٩٤٩). أما كمية ما صيد من السمك في السنة نفسها فهي ٢٩,٧٦٩ طناً.

٥ ـ وكذلك حفظت كمية ٨,٧١٣ طناً من الخضار والفواكه في العلب (معدل سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩).

٦ ـ وفي البلاد المصانع التالية التي تعمل تحت إشراف دائرة الريجي (١٩٤٩):

للكحول	٢٠ مصنعاً
للتبغ	٤٣ مصنعاً
للكبريت	١ مصنعاً (١٧٢ مليوناً من علب الكبريت)
مواد متفجرة	١٧٠ (مستودعاً)

٧ ـ بلغت كمية المصنوعات المعدنية (١٩٤٩) سواء في ذلك المصنوع بالطاقة الكهربائية أم بالطاقة الميكانيكية ٣٥,٣٠٠ طن، والمواد الكيماوية بما في ذلك الورق ١٦١,٨٠٠ طن، والصابون ١٢,٨٠٠ طن، والاسمنت ٤,٥٠٠ طن، والفخار والصيني ٧,٦٠٠ طن، والجلود ١٠٠ طن.

وتجارة الجزائر الخارجية يمكن إجمالها في الجدول التالي (١٩٤٩):

الواردات	بالطن
من فرنسا	١,٢٢٢,٧٠٠
من الاتحاد الفرنسي	١١٩,٨٠٠
من بقية الأقطار	٩٥٤,٨٠٠
المجموع	**٢,٢٩٧,٣٠٠**
الصادرات	
إلى فرنسا	١,٩١١,٣٠٠
إلى الاتحاد الفرنسي	١٢٣,٣٠٠
إلى بقية الأقطار	٣,٤٠٧,١٠٠
المجموع	**٥,٤٤١,٧٠٠**

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أنه إذا قدرت هذه الكميات بأثمانها كان لدينا النسب المئوية التالية (بالنسبة للصادرات):

فرنسا ٧٦,١ بالمئة

الاتحاد الفرنسي ٧,٢ بالمئة

بقية الأقطار ١٦,٧ بالمئة

٢

يبلغ عدد سكان القطر الجزائري بحسب إحصاء ٣١ تشرين الأول٧١ اكتوبر (١٩٤٨) ٨,٦٧٦,٠٠ نسمة (وقد قدر في سنة ١٩٤٩ بـ ٨,٦٨١,٧٨٥ نسمة) منهم ٧,٦٧٧,٨٠٠ جزائريون مسلمون و٩١٧,٨٠٠ أوروبيون و٨٠,٤٠٠ من رجال الجيش وما إليهم.

١ ـ الجزائريون، العرب منهم والبربر، مسلمون سنيون في الغالب، وأكثرهم على المذهب المالكي. إلا انه يوجد بين البربر المقيمين في الجنوب جماعات تُعرف بالمزابية، يقطنون مزاب وغردية، في عقيدتهم شيء من تعاليم الخوارج.

٢ ـ أكثر مناطق القطر ازدحاماً بالسكان جبال جرجورة، أو القبايل الكبرى، وهي المنطقة المتاخمة للساحل والممتدة بين قسنطينة ومدينة الجزائر، ثم منطقة أصغر بكثير تقع على الساحل إلى الغرب من مدينة الجزائر؛ ومنطقة ثالثة شمال شرق بسكرة. وسكان هذه المناطق يعملون في الزراعة وحياتهم قرارية منذ عصور قديمة.

٣ ـ بقية مناطق التل والسفوح الشمالية للأطلس الجنوبية، يعمل السكان فيها بالزراعة وتربية المواشي، لكن الازدحام أقل منه في المناطق السابقة.

٤ ـ إلى الجنوب من منطقة التل التي أي في السهوب، تبدأ االحياة البدوية بالظهور، وإن كانت تتمركز حول واحات كبيرة تمتد من بسكرة إلى جنوب تلمسان.

٥ ـ ما تبقى من البلاد تسيطر عليه حياة قبلية بدوية يفيد السكان فيه من قيامهم بالتجارة مع الداخل الأفريقي واستغلال الواحات للتمر وتربية أنواع من الماشية تتحمل الجفاف مثل الإبل.

٦ ـ يبدو في الجدول التالي الارتباط بين توزيع السكان والمناطق الطبيعية للبلاد:

المنطقة	المساحة بالنسبة الى القطر	السكان الأوروبيون بالنسبة الى مجموعهم	السكان الجزائريون بالنسبة الى مجموعهم
التل	٦ بالمئة	٨٢,٥ بالمئة	٩٨,٥ بالمئة
السهوب	٨ بالمئة	١٠,٨ بالمئة	١,٢ بالمئة تقريباً
الصحراء	٨٦ بالمئة	٦,٤ بالمئة	٠,٣ بالمئة تقريباً

٧ ـ يبلغ عدد الأوروبيين في الجزائر ٩١٧,٨٠٠ نسمة، منهم ٩٥ بالمئة فرنسيون أصلاً أو اختياراً، و٥ بالمئة أوروبيون لا يزالون يحتفظون بجنسياتهم المختلفة. وبين الفرنسيين اليهود، الجزائريون الذين اختاروا الجنسية الفرنسية، ويضاف إلى هؤلاء نحو ١٠,٠٠٠ جزائري اختاروا الجنسية الفرنسية من مدة. أما الأوروبيون فيدخل في عدادهم الاسبانيون والايطاليون والمالطيون.

٨ ـ يقيم الأوروبيون في المدن بحيث يبلغ عددهم فيها ٦٨٧,٠٠٠ والباقون يقيمون في الريف. وهم يسيطرون على الحياة الاقتصادية في المدينة، وعلى الإنتاج الزراعي الرئيس في الريف. فقد بلغ ما يستغله هؤلاء من الأراضي الزراعية ٢,٧٠٠,٠٠٠ هكتار، منها ١,٧٠٠,٠٠٠ تمثل النهب الرسمي للأراضي الجزائرية، والباقي يمثل العمل الفردي في سبيل الحصول على الأرض من أصحابها.

٩ ـ يمكن من دراسة الأرقام التالية معرفة العلاقة بين السكان وملكية الأرض وأثر ذلك:

مساحة قطع الأرض	عدد المالكين من الجزائريين	مجموع مساحة ما يملكون بالهكتار	عدد المالكين	مجموع مساحة ما يملكون بالهكتار
أقل من ١٠ هكتارات	٣٩١,٠٠٠	١,٨٥٠,٠٠٠	٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠
من ١٠ ـ ٥٠ هكتاراً	١١٨,٠٠٠	٣,٠١٣,٠٠٠	٧,٠٠٠	٢٠٩,٠٠٠
من ٥٠ ـ ١٠٠ هكتار	١٧,٤٠٠	١,٢٢٦,٤٠٠	٤,٠٠٠	٣٠٦,٠٠٠
من ١٠٠ ـ ٥٠٠ هكتار	٥,٠٠٠	١,١٠٨,٠٠٠	٥,١٠٠	١,٢٠٢,٠٠٠
ما يزيد على ٥٠٠ هكتار	٦٠٠	٤٧٤,٧٠٠	٩٠٠	٩٦٣,٠٠٠
المجموع	٥٣٢,٠٠٠	٧,٦٧٣,٨٧٢	٢٥,٠٠٠	٢,٧٢٠,٠٠٠

ومن هذا يتضح:

(أ) أن مجموعة من الأوروبيين هم في عددهم يكونون ١/٢١ من مجموع السكان الجزائريين، تملك أرضاً تقرب من خمسي الأرض التي يملكها الجزائريون.

(ب) بين الجزائريين يوجد ٦٠٠ شخص يملك الواحد ما يزيد على ٥٠٠ هكتار، بينما نجد أن ٩٠٠ من الأوروبيين يملكون قطعاً مماثلة في المساحة. لكن هؤلاء الفرنسيين هم ١/٢٨ من مجموع الملاكين بينما يكون الجزائريون ١/٩٠٠ من مجموع ملاكيهم. ومع ذلك فمجموع ما يملكه هؤلاء الفرنسيون هو ضعف أملاك الجزائريين.

(ج) يجب أن نذكر أيضاً ان القسم الأكبر من املاك الأوروبيين هو في المناطق الأكثر خصباً.

(د) تبلغ مساحة الأراضي المزروعة حبوباً والتي تخص الجزائريين ١,٩٢٥,٠٠٠ هكتاراً بينما يملك الأوروبيون ٦٩٤,٠٠٠ هكتاراً.

٣

لا يتسع المجال هنا لاستعراض، ولو مقتضب، للتاريخ الجزائري. ولكننا نرى لزاماً علينا أن نذكر القارىء ببعض أحداث الفترة الحديثة، رغبة في ان يمكننا ذلك من متابعة المشكلة الجزائرية في ملابساتها المختلفة.

في سنة ١٨٣٠ هاجمت القوى الفرنسية الجزائر، وبدأت احتلاها. وكانت البلاد يومها جزءاً من الامبراطورية العثمانية نظرياً، وكانت مستقلة من الناحية العملية. وفي ٢٢ تموز/ يوليو ١٨٣٤ اقيمت «حكومة الممتلكات الفرنسية في شمال افريقيا». وفي سنة ١٨٤٠ ارتأت فرنسا ان يكون احتلالها للأجزاء الشمالية فقط، لكن صمود الأمير عبد القادر الجزائري وتقوية حركات التحرير غيّر رأي فرنسا. ولما تم لها الانتصار عليه، في سنة ١٨٤٧، رأت الحكومة الفرنسية ان تستمر في العمل. إلا أن اضطراب الأمور الداخلية في فرنسا، وتغير الحكومات وشكلها، جعلا الأمر صعباً. فلما تم قيام الجمهورية الثالثة في سنة ١٨٧١، شمرت فرنسا عن ساعدها وبدأت العمل الجدي في سبيل الاحتلال، فتم لها احتلال التل، ثم اتجهت إلى الجنوب. وأخيراً استطاعت أن تفرض نفسها على الجنوب، وأخيراً استطاعت أن تفرض نفسها على القطر كله في مطلع القرن العشرين.

فالاحتلال، وما جره معه من اغتصاب الأرضين، وترحيل أصحابها، هو من عمل الجمهورية الثالثة بشكل خاص، وان كان الكثير منه قد بدأ من قبل.

ليس المهم في الأمر الاحتلال العسكري أو الإدارة الغريبة عن البلاد، ولكن الأهم من هذا كله هو السياسة التي سارت عليها فرنسا في القطر الشقيق. فمرسوم سنة ١٨٤٠ الصادر من لويس فيليب، ملك فرنسا، اعتبر الجزائر جزءاً من فرنسا. وفي سنة ١٨٤٦ حسب الجزائريون فرنسيين، ووضعت أسس الحكم المباشر. وكان ذلك أعلاناً لسياسة البطش التي لا هوادة فيها. ومع أن الامبراطور نابليون الثالث أعلن سنة ١٨٦٥ مساواة الجزائريين

بالفرنسيين، فإن هذا لم يعد الوعد الكلامي. ذلك ان المعمرين الفرنسيين الذين كانوا قد استوطنوا الجزائر لم يقبلوا بذلك. وكل ما ظل من هذا المنشور معمولاً به، هو ان الجزائرين المسلمين يرجعون إلى أحكام الشريعة في الأحوال الشخصية.

فلما سقطت الملكية الثانية وقامت الجمهورية الثالثة، عادت فرنسا إلى شدتها. ففي أول هذه الفترة صدر القانون المعروف بقانون «كريمو»، وهو الذي منح اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية. وفي مقابل ذلك وُضع المواطنون الجزائريون تحت تصرف الحاكم العام المطلق وأقصوا عن الحقوق العامة، واعتبر كل من يناهض الحكومة الفرنسية، عاصياً ثائراً يجوز سجنه أو نفيه أو تجريده من أملاكه.

ووضعت الحكومة الفرنسية نصب عينيها سياسة انتزاع الأراضي من الأهالي وخصوصاً في التل، فترتب على ذلك أن خرجت مصادر الثروة الرئيسة من أيدي الجزائريين، فأدى هذا إلى تدهور اقتصادي واجتماعي في حياتهم. وقد جربت الحكومة الفرنسية سياسة الإفناء لمدة من الزمن. ولعل هبوط عدد السكان الجزائريين من ٢,٦٥٢,٠٠ في سنة ١٨٦٦ إلى ٢,١٢٥,٠٠٠ في سنة ١٨٧١ كان نتيجة لهذه السياسة البغيضة.

وانكسار فرنسا في الحرب البروسية ـ الفرنسية في سنة ١٨٧١، وتسليمها الالزاس واللورين لالمانيا، كانا بعيدي الأثر في السياسة الفرنسية في الجزائر. فمن الجهة الواحدة جربت فرنسا أن تستعيض المجد العسكري المحطم في أوروبا، بحروب في الجزائر. ومن الجهة الثانية، أرادت أن تعوض على الفرنسيين خسائرهم في أراضي الالزاس واللورين، فأخذت تتشدد في انتزاع الأراضي التلية من أصحابها وإعطائها للمعمرين الفرنسيين. وفي ذلك يقول الأستاذ وليم فتزجرالد: «لم يكن الأمر يسير على غير هدى أو يقوم على المصادفة، بل كان لهذا الاستعمار سياسة مرسومة لها قواعد واضحة. وعندما تقابل بما يشبهها من حركات نقل الشعوب وإجلائها، تبدو انها الخطة التي نالت أكبر قسط من العناية والدرس... لقد أنشئت القرى وهيئت للمعمرين، بعد انتزاع ملكية الأرض، قبل أن يصل هؤلاء». هذه السياسة، نعود فنقول، التي كانت قد بدأت من قبل، تبدو واضحة في تصرف لجنة خاصة لبحث مشكلة الأراضي في سهول مِتِدجة (في التل) التي أصدرت سنة ١٨٥٠ قراراً سمحت فيه للجزائريين بـ ١١,٠٠٠ هكتار، وللفرنسيين بـ ٣٦,٠٠ هكتار، وللحكومة بـ ٩٦,٠٠٠ هكتار، وهذه الأخيرة بطبيعة الحال، وضعت تحت تصرف المعمرين.

زاد في حرية تصرف الحكومة الفرنسية في الجزائر الاتفاق الذي تم بينها وبين بريطانيا في سنة ١٨٩٠، إذ منحت بموجبه فرنسا حرية العمل في ممتلكاتها الافريقية (وكانت تونس قد أصبحت محمية فرنسية، كما كانت فرنسا ترنو بعينيها إلى مراكش).

لم يقف الجزائريون مكتوفي الأيدي أمام هذه التصرفات. فالثورات تعاقبت منذ الاحتلال الفرنسي، وما حركة الأمير عبد القادر، إلا المثل الأقوى لهذه الثورات الأولى. وممن أيد حركته في ذلك الوقت الزعيم المراكشي أبو معزى. ومثل ذلك يقال في ثورة ١٨٤٩ التي

قادها أبو زيان، وقاوم فرنسا ستة أشهر كاملة. ولما انتصر الجيش عليه بعد حصره في بسكرة، نكّل الجيش بالسكان هناك فدمر الواحة وقتل جميع سكانها.

وفي سنة ١٨٧١ قامت ثورة عمت بلاد زواوة، ومقاطعة قسنطية، وايالة الجزائر. وكان على رأسها المقراني والشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية. وبلغ القتلى فيها نحو ستين ألفاً من الجزائريين وعشرين ألفاً من الفرنسيين. وبعد انتصار الجيش الفرنسي حكم على ستة آلاف جزائري بالاعدام، وغرمت البلاد ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك. وبسبب عجز القبائل عن الدفع صودرت الأملاك، وأجلي السكان، فقامت على أثر ذلك ثورة أخرى بوهران استمرت خمس سنوات. وفي سنة ١٨٨٢ قامت ثورة القبائل المهرانية.

٤

على ان الجزائريين لجأوا إلى غير القوة في سبيل الحصول على حقوقهم، وتوضيح وجهة نظرهم. ولكن الخلاف بين النظرة الجزائرية للقضية والنظرة الفرنسية كان كبيراً، كبيراً جداً. ففرنسا تريد أن تكون الجزائر فرنسية، والجزائريون فرنسيين، بحيث ينسون مقوماتهم الذاتية وشخصيتهم التي أكسبهم إياها تاريخهم ولغتهم ودينهم. وهذه السياسة تقررها فئتان من الناس: المعمرون الفرنسيون في الجزائر الذين هم أصحاب القول الأول في شؤون القطر كله، والحكومة الفرنسية التي اتبعت هذه السنّة منذ الاحتلال. أما الجزائريون فيأبون هذه الفَرنسة. انهم يريدون ان يظلوا جزائريين مسلمين، ويريدون ان يكونوا أحراراً مستقلين في بلادهم. ومن ثم لا سبيل إلى إيجاد حل لمشكلة بهذا الشكل إلا عن طريق الثورات، وقد قاومتها فرنسا بمنتهى الشدة. ومع ذلك فقد جرب الجزائريون مرة ومرة ومرة أن يتفاهموا مع الحكومة الفرنسية. وقد قبلوا في أول الأمر درجة بسيطة ـ نسبياً ـ من حفظ كيانهم. لكن كلما اشتطت فرنسا في القمع، ازدادت مطالب الجزائريين، ونشطت حركاتهم، وانتشرت بين الشعب حتى أصبح هدفهم اليوم: الاستقلال.

كانت أولى هذه المطالبات السياسية السلمية تلك التي بدأها أحمد ابو دربة وصادق دندان والحاج عمار في حدود ١٩١٠. وقد طالب هؤلاء بتطبيق قانون سنة ١٨٦٥ (القائل بالمساواة بين الجزائريين والفرنسيين)، وكانت حركتهم ترمي إلى تقوية الجامعة الإسلامية، مستعينة بالدولة العثمانية. فقد كان الناس ما يزالون يؤمنون، ولو إلى درجة محدودة، بأن الدولة العثمانية باستطاعتها ان تنشط إلى تبوء القيادة في العالم الإسلامي.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى هاجت الجزائر على أثر اعتزام الحكومة الفرنسية تجنيد العدد الكبير من أبناء البلاد، فوعدتهم فرنسا بأن تمنحهم سائر الحقوق المدنية بعد الحرب. لذلك، لما انتهت الحرب، تقدم وفد جزائري إلى ولسن يطالب بحقوق الجزائريين على أساس البنود الأربعة عشر. وهذه الجماعة نفسها هي التي أصبحت «كتلة الناخبين المسلمين الجزائريين» وتركزت أهدافها في أمرين: الحصول على الحقوق كاملة، وإصلاح احوال الجزائرين الاجتماعية. وكان على رأس هذه الكتلة الأمير خالد. وقد نفي الأمير خالد مرتين لسبب انتشار فكرته بين الشعب، وتوفي في سوريا (١٩٣٦).

وفي سنة ١٩٢٤ انعقد «المؤتمر المغربي في باريس» الذي طالب بحرية القول والنشر وإلغاء قانون الانديجينا (أي قانون السكان الأصليين): الذي كان يحرم الجزائريين حقوقهم المدنية بله السياسية. وقد نشأ عن هذه الحركة وعن انتشار الروح القومية بين الافريقيين في فرنسا قيام «جمعية نجم شمالي افريقيا» التي صارت سياسية في سنة ١٩٢٦. وفي سنة ١٩٣٣ انعقد اجتماع عام لهذه الجمعية اتخذت فيه المقررات التالية: (١) اطلاق حرية الصحافة والاجتماعات. (٢) إقامة برلمان قومي في الجزائر منتخب بتصويت عام. (٣) تمكين الجزائريين من وظائف الدولة في بلادهم. (٤) جعل التعليم باللغة العربية إجبارياً في القطر.

وبعد إدخال هذه الاصلاحات المستعجلة ينظر في بقية البرنامج ويشمل: (١) جلاء الجيوش الفرنسية وتأسيس جيش جزائري. (٢) منح الجزائر الاستقلال التام واعتبار كل المنشآت الاقتصادية ملكاً للدولة الجزائرية. (٣) إعادة الأراضي المغتصبة إلى أصحابها. وقد ظلت الجمعية قائمة إلى سنة ١٩٣٧، إذ حلتها الحكومة الفرنسية.

وفي الوقت الذي كانت فيه جمعية النجم تعمل في فرنسا، كانت جمعية العلماء المسلمين تعمل في الجزائر. وسنتحدث عن هذه الجمعية فيما بعد، ولكننا نشير الآن إلى غاياتها كما أوضحها مؤسسها المغفور له الشيخ عبد الحميد بن باديس في مجلة «الشهاب» في سنة ١٩٣٦، قال: «اننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الأرض وهي لا تزال حية ولم تزل. ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة كمثل سائر الأمم الدنيا. وهذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا تريد ان تصبح هي فرنسا، ومن المستحيل ان تصبح فرنسا حتى ولو جنسوها».

وفي سنة ١٩٣٧ انعقد في مدينة الجزائر مؤتمر جزائري برئاسة الدكتور ابن جلول، تمثلت فيه النزعات السياسية المختلفة، وقرر المطالبة بما يأتي: (١) انتخاب الجزائريين في البرلمان. (٢) نسخ القانون الانديجينا وإلغاء الأوامر التي من شأنها اعتبار مقاومي السيادة الافرنسية مجرمين يستحقون العقاب. (٣) الاعتراف باللغة العربية لغة قومية في الجزائر. (٤) تطهير الإدارات الجزائرية من العناصر المقاومة لرغبات الشعب. وذهب وفد من قادة المؤتمر إلى فرنسا ليفاوض حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية (حكومة بلوم). لكن الشعب الجزائري كان يريد أكثر مما قرر المؤتمر، فقامت تظاهرات واضرابات ومصادمات في البلاد، حملت الحكومة الفرنسية والمعمرين الفرنسيين على التشدد في قمعها من جهة، وعلى اهمال الكثير من هذه المطالب على بساطتها.

وفي هذه السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، قامت في الجزائر أحزاب سياسية، أهمها إثنان، يمكن إجمال أهدافها فيما يلي:

١ - حزب الشعب الجزائري (صار فيما بعد انتصار الحريات الديمقراطية). أنشأه مصالي الحاج سنة ١٩٣٧. وقد نفي زعيمه وسجن غير مرة. وكان الحزب يدعو إلى التحرر

الكامل والاستقلال التام.

٢ ـ حزب اصدقاء البيان (صار فيما بعد الاتحاد الديمقراطي لمسلمي الجزائر). أسسه عباس فرحات سنة ١٩٤٣. وقد دعا إلى تأسيس جمهورية جزائرية ذات برلمان جزائري منتخب انتخاباً حراً كاملاً. وقد قبل هذا الحزب أن تظل الجمهورية الجزائرية داخلة في الاتحاد الفرنسي. لكن الكثيرين من قادته تبنوا فيما بعد فكرة الاستقلال التام.

بعد حوادث ٨ أيار/ مايو ١٩٤٥ الدامية، والتي أدت إلى قتل عدد كبير من الجزائريين يقدر بنحو ١٥ ألفاً في سطيف وغيرها، ثبت أن فرنسا لا تنوي بالبلاد خيراً. وبذلك ازدادت المطالبة بالاستقلال قوة وشدة. وقد عرضت الحكومة مشروعاً أقره مجلس النواب الفرنسي في سنة ١٩٤٧، وقوامه الأمور التالية: (١) تعتبر الجزائر مجموعة من العمالات (الولايات) الفرنسية ذات شخصية مدنية، واستقلال مالي، وتنظيم خاص بها. (٢) يظل الوالي (الحاكم) العام محتفظاً بالسلطة التنفيذية باستثناء شؤون العدل والمعارف، فإنها تتبع الوزيرين المختصين في باريس. (٣) تنحصر السلطة التشريعية في مجلس حكومي يتكون من ستة أعضاء، ثلاثة منهم تعينهم الولاية العامة، يضاف إليهم رئيس ونائب رئيس ومدير المال. وهذا المجلس هو الذي يراقب المجلس النيابي الجزائري. (٤) والمجلس النيابي يتألف من ١٢٠ عضواً نصفهم فرنسيون ينتخبهم الفرنسيون ونصفهم الثاني ينتخبهم الأهالي. وينتخب الأعضاء بالاقتراع السري وعلى درجتين لمدة ستة أعوام. وعمل هذا المجلس مناقشة الميزانية العامة والموافقة عليها. ولا يجوز للمجلس أن يصوت ضد الحكومة.

أدخلت الإدارة الجزائرية هذه الاصلاحات (؟) في البلاد، ثم سمحت للجزائريين أن يصبحوا رعايا فرنسيين مع الاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية الإسلامي. لكن هذه الأمور لا ترضي الشعب الجزائري. إن التفريق في المعاملة كان لا يزال قائماً، والمساواة معدومة، قولاً وعملاً، في جميع نواحي الحياة. وقد اعتبرت اللغة العربية لغة من لغات الاتحاد الفرنسي.

ولعل آخر تكتل سياسي شهدته الجزائر جاء في تكوين «الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات»، صيف سنة ١٩٥١، إذ انضم إلى هذه الجبهة ممثلون عن الحزبين الكبيرين المذكورين آنفاً وجمعية العلماء المسلمين وحتى عن الحزب الشيوعي الجزائري. كما انضم إلى الجبهة جماعة من الجزائريين المستقلين عن الأحزاب.

٥

إذا ألقينا نظرة عامة على موارد الثروة في القطر الجزائري وجدنا انها لا يستهان بها. ولكن الأمر الحري بعنايتنا هو حصة كل من الفريقين من السكان، أي الجزائريين والأوروبيين. وها نحن أولاً نضع أمام القراء بعض الملاحظات، آملين أن تمكنهم من معرفة الواقع.

١ ـ إن ٩٨,٥ بالمئة من السكان الأوروبيين يقطنون في التل، أي في المناطق الخصبة من الجزائر.

٢ ـ نحو ٦٠ بالمئة من الأوروبيين يقيمون في المدن.

٣ ـ تبلغ مساحة الأرض المزروعة حبوباً شتوية والتي يستغلها الجزائريون ٧,٦٦٠,٠٠٠ هكتار، أما الأوروبيون فيستغلون ٧٢٢,٠٠٠ هكتار. ومعنى هذا ان سبع السكان يستغلون أرضاً تبلغ على وجه التقريب ٢/٥ مما يستغله الجزائريون.

ـ ٤ يبلغ منتوج الجزائريين من الزيتون نحو ٩٠,٠٠٠ طن، أما الأوروبيون فينتجون حول ٢٧٥,٠٠٠ طن.

٥ ـ الأراضي المزروعة كرمة أكثرها بيد الأوروبيين.

٦ ـ بلغ عدد الامتيازات الممنوحة للأوروبيين لاستغلال المعادن في الجزائر (١٩٤٩) ١١٢ امتيازاً أهمها ٢٦ للحديد و٧٩ لمعادن أخرى. ولم يستغل من هذه الامتيازات (١٩٤٩) سوى ٣٠. ومعنى هذا ان ٨٢ امتيازاً معطاة لكنها معطلة. والغاية من إعطائها للأوروبيين، مع انهم لا يستغلونها، الحيلولة دون الجزائريين والحصول عليها.

٧ ـ توجد في الجزائر ٥٠٥ مؤسسات صناعية وتجارية يعمل في كل واحدة منها خمسون شخصاً أو يزيد. وأكثر هذه بيد الأوروبيين. وإذا استخدموا جزائرياً فإنهم يعطونه الأعمال البسيطة والأجر القليل.

يبدو من هذه الملاحظات العابرة ان الثروة لا يتمتع بها السكان بالنسبة إلى عددهم أو حاجاتهم وإنما أكثرها بيد الأوروبيين. وظلت الأعمال الصغيرة والحقيرة للعدد الكبير من أهل البلاد. ومن هنا نشاهد هذا الفقر المدقع الذي يعيش فيه أكثر الجزائريين. فإذا أضفنا إلى هذا كله سيطرة المستعمرين الفرنسيين على سياسة الحكومة الاقتصادية بحيث تكاد التجارة الخارجية والمنشآت الصناعية الرئيسة ومؤسسات الإنتاج الكهربائي تكون حكراً على الأوروبيين؛ وإذا تذكرنا سيطرة المعمرين في شؤون التشريع والإدارة عامة، والتفريق بين الأوروبي والجزائري، خرجنا من ذلك كله بأن الجزائري يتعب ويشقى في بلده ولا يكاد يحصل على ما يتبلغ به. وأدركنا سر هذه الحياة التي يحياها القوم هناك. وقد شاهدنا من أثر هذه السياسة ما حزّ في النفس والصدر. ولئلا نتهم بالغلو، فإننا نضع بين يدي القارىء صوراً للحياة هناك شاهدناها بأنفسنا.

«لقد فاجأتني قسنطينة اليوم بما لا استطيع له وصفاً من القذارة والفقر. لست أدري كيف يستطيع البشر أن يسمحوا لأنفسهم بأن يعيشوا على أكوام من القذارة تشاركهم لعبهم وأكلهم ومعيشتهم في الشوارع والطرق والحوانيت ومداخل البيوت، ولست أدري كيف تكون البيوت من الداخل... ولكن هذه فرنسا، بعد ١٢١ سنة تقضيها في هذه البلاد، تسمح لمثل هذه المدينة بأن يظل الجزء العربي منها بهذا الشكل، والجزائر تعتبرها فرنسا جزءاً من الجمهورية... لقد وقفت على جسر سيدي راشد، وأشرفت منه على طرف من أطراف البلدة، فرأيت أرضاً تشبه بركة السلطان في القدس، ورأيت من هذا الارتفاع مجموعة من الخلق اختلط مسكنها بمبيعها بأكلها بما يخرج منها بأقذار المدينة نفسها... لقد نقمت على حكام الجزائر، وعلى الاستعمار... ففي أي شرعة يجوز أن تظل الأمور على هذا الحال؟ وليس غريباً

أن ترى في مدينة الجزائر وغيرها قوماً بهذه الحالة. هذا هو الفقر، يضاف إليه الجهل. بل لعلّ الأصح أن يقال هذا هو «التفقير» و«التجهيل» المقصودان. وماذا ينتج عن ذلك؟ حياة تكاد تكون كالعدم يعيشها العدد الكبير من الناس، ومجتمع ضعيف لا يخشى جانبه، لولا أن هذا المجتمع فيه بقية من إيمان وشيء من عقيدة».

٦

وما دمنا بصدد المجتمع الجزائري فلنتحدث عن التعليم. وفي الجزائر منه نوعان: الرسمي والحر. ولنتناول الرسمي أولاً، وتاريخه يعود إلى بعيد الاحتلال بسنوات، إذ قررت الحكومة فتح مدارس في الجزائر وقسنطينة ووهران وعنابة والبليدة ومستغانم (سنة ١٨٥٠). لكن هذا القرار ظل يعرج العمل فيه حتى ان القطر لم يكن فيه في سنة ١٨٧٠ سوى ٣٦ مدرسة فيها ١٣,٠٠٠ طالب. لكن الحرب البروسية ـ الفرنسية والثورة التي اندلع لهيبها آنذاك في الجزائر أخرت البرنامج، وأدت إلى إقفال بعض المدارس. بحيث أنه في سن ١٨٨٠ لم يكن في القطر سوى ١٦ مدرسة فيها ٣,١٧٢ تلميذاً. وقد وضعت سياسة التعليم في سنة ١٨٨٣، ولنضع الآن الأرقام التالية أمام القارىء:

السنة	عدد المدارس	الطلاب الجزائريون
١٨٩١	١٢٤	١١,٢٤٦
١٨٩٨	١٩٩	٢٣,٨٢٣

وفي سنة ١٨٩٨ كان عدد الأطفال في سن التعليم ٦٨,٠٠٠ في القطر كله، كما أن التعليم كان مقصوراً على البنين. والأرقام التالية، المأخوذة عن الاحصاءات الرسمية التي نشرتها الولاية العامة مؤخراً، توضح أمر التعليم في الخمسين سنة الأخيرة:

السنة	الطلاب						المجموع
	الجزائريون		الفرنسيون		الأجانب		
	البنون	البنات	البنون	البنات	البنون	البنات	
١٩٠٠ ـ ١٩٠١	٢٣,١٩٦	١,٧٧٩	٣٧,٦٦٦	٣٧,٤٤٢	٢٠,٥٠٦	١٩,٩٦٢	١٤٠,٥٥١
١٩١٠ ـ ١٩١١	٣٧,٢٥١	٣,٥٢٧	٤٦,٤٥٠	٤٥,٨٤١	٢٣,٠٨٩	٢١,٥٩٩	١٧٧,٧٥٧
١٩٢٠ ـ ١٩٢١	٣٨,٧٧٣	٤,١٣١	٤٤,٢٢٣	٤٢,٨٠٦	١٢,٥١٣	١٢,٧٨١	١٥٥,١٢٧
١٩٣٠ ـ ١٩٣١	٥٩,٣٢٨	٨,٤١٠	٥١,٣٧٦	٥٣,٣٢٦	٩,٥٨٢	٩,٧٣١	١٩١,٧٥٣
١٩٤٠ ـ ١٩٤١	٩٤,١٧٩	٢٢,٩٧٦	٧٠,١١٢	٦٧,١٦٥	٥,٨٣٤	٥,٩٢٤	٢٦٦,١٩٠
١٩٥٠	١٥٩,٤٦٠	٥٣,١٠٣	٦٩,٠٣٦	٦٩,٣٤٦	١,٨٦١	١,٧٤١	٣٥٤,٥٥٦

ونود، قبل تحليل هذه الأرقام، أن ندون الملاحظات التالية:

١ ـ هذه الأرقام تشمل التعليم الابتدائي وما يسبقه من حدائق الأطفال ودور الحضانة.

٢ ـ نقص الأرقام في سنتي ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ يرجع سببه إلى النكسة التي أصابت التعليم

في الجزائر بعيد الحرب العالمية الأولى.

٣ ـ هذه الأرقام يدخل في عدادها طلاب يتلقون علومهم في مدارس حرة، عربية وأوروبية.

والآن نتناول الأرقام نفسها بالتحليل مقتصرين على آخر سنة.

١ ـ إن الطلاب الجزائريين، بنين وبنات، يبلغ عددهم ٢١٢,٥٧٢ والفرنسيين ١٣٨,٣٨٢، ومعنى هذا أن كل ثلاثة طلاب جزائريين في المدارس يقابلهم طالبان فرنسيان. مع ان عدد السكان هو بنسبة ٦ إلى ١.

٢ ـ إن نسبة البنات الجزائريات في المدارس إلى البنين هو ١ إلى ٣. أما في حالة الفرنسيين فهو ١ إلى ١.

٣ ـ قدّر عدد البنين والبنات (من الجزائريين) في سن التعليم الابتدائي لسنة ١٩٥٠ بنحو مليون. ومعنى هذا أن واحداً من كل خمسة يجدون مكاناً للتعليم. بينما الفرنسيون جميعهم يجدون في المدارس متسعاً لأولادهم.

٤ ـ يمكن أن يضاف إلى هذا كله أن المدارس نفسها ليست موزعة في أنحاء القطر الجزائري توزيعاً عادلاً. فهي تكثر حيث يزداد الفرنسيون، وتقل حيث يتغلب الجزائريون. فضلاً عن ذلك فهي في بلاد زواوة أكثر منها في جهات أخرى.

فإذا انتقلنا من التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي والمهني والعالي، وجدنا أن للحكومة ٤٤ مدرسة ثانوية (ليسيه) كان فيها في سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ المدرسية:

	طالب	طالبة	المجموع
من الجزائريين	٢,٧٣٤	٣٠١	٢,٤٣٣
من الفرنسيين وغيرهم	١٢,٤٦٧	٨,١٩١	٢٠,٦٥٨
المجموع	١٤,٩٠٠	٨,٤٩٢	

ويتضح من هذا: (١) أن الجزائريين كان لهم نحو ٩ بالمئة من مجموع الطلاب في المدارس الثانوية. (٢) أن نسبة البنات من الجزائريين إلى مجموع البنين هو نحو السبع. (٣) وأن نسبة البنات الجزائريات إلى مجموع البنات هو ١ إلى ٢٨.

ويجب أن نضيف إلى التعليم الثانوي ٢٦٦ طالباً جزائرياً موجودين في ثلاث مدارس جزائرية خاصة بالطلاب المسلمين موجودة في مدينة الجزائر وقسنطينة ووهران.

وقد كان في المدارس المهنية ٨,١٤٥ تلميذاً منهم ١,٨١٦ جزائريون أي بنسبة ١ إلى ٤,٥.

أما جامعة الجزائر فقد أمّها في سنة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ من الطلاب ٤,٦٣٩ منهم ٢٨٢ جزائرياً (٢٥١ طالباً و٣١ طالبة)، أي ان الجزائريين حصلوا على ١ من ١٦,٥ من الأماكن في الجامعة.

على ان الغبن اللاحق بالجزائريين لا يقتصر على هذه المسائل العديدة فقط. لكنه يشمل البرامج، المبنية على سياسة خاصة يمكن إجمال خطوطها الرئيسة في الأمور التالية:

١ ـ المدارس تسير على النهج الفرنسي، ومعنى هذا ان اللغة العربية إما في ان يحرم منها الطلاب بالمرة، وإذا اعطيت لهم، فهي عربية عامية في الثانويات، «وماذا يهمهم (أي القائمين على شؤون الجزائر) من لغة لم يعترف بها كلغة رسمية بجنب اللغة الفرنسية، ولم يخصص لها معها إلا نحو ثلاث ساعات في الأسبوع، تزاحمها اللغة العامية التي اشتقت منها ثم اعتبرت لغة مستقلة عنها... وقد عهد بالتأليف في اللغتين إلى طائفة من الأساتذة فألفوا في اللغة العامية كتباً مختلفة ملئت بالحكايات المكذوبة تقرأ للتسلية... كما ألفوا في هذه اللغة الأخيرة (الفصحى) كتباً أخرى على طريقتهم المعروفة من مزج الشرح والبيان باللغة الفرنسية، فابتكروا لكل منهما أساليب خاصة، وأحدثوا لهما نحواً خاصاً غريباً لا يعتمد في التطبيق إلا على جمل ركبت تركيباً ليس من العربية في شيء». وهذا الذي ذكر لا ينطبق على المدارس الرسمية الإسلامية الثلاث.

٢ ـ ليس في هذه المدارس دروس تتناول التاريخ العربي والإسلام. بينما يحمل الطلاب على تعلم التاريخ الفرنسي بدقة وتفصيل. ومثل ذلك يقال عن الجغرافيا.

٣ ـ الأصل في هذه المدارس عامة هو أنها للفرنسيين، فإذا ظل فيها متسع دخلها الجزائريون.

٤ ـ قلما يشجع الجزائريون على دخول الجامعة مع انه ينفق عليها من أموال الحكومة.

وهذا هو توزيع الطلاب الجزائريين على فروع الجامعة المختلفة:

	القانون	العلوم	الآداب	الطب	الصيدلة	المجموع
طلاب	١٠٢	٣٣	٥٧	٤٣	١٦	٢٥١
طالبات	–	١	٥	٢١	٤	٣١
المجموع	١٠٢	٣٤	٦٢	٦٤	٢٠	٢٨٢

توجد في الجزائر مدارس حرة، ويعنينا منها المدارس العربية. وهي على نوعين: الواحد يتلقى إعانات مالية من الحكومة، وفي هذه الحالة يطلب من هذه المدارس أن تخصص ثلث ساعات التدريس فيها للغة الفرنسية. أما النوع الثاني فهو الحر الذي يعتمد على نفسه وتأييد القوم له في حياته وعمله، وهذا هو الذي ينصرف لتدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية. وإذا استثنينا بضع مدارس، (كتاتيب) هنا وهناك، فإن المدارس الحرية بالاهتمام من هذا النوع هي مدارس «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر».

٧

آن لنا أن نولي هذه الجمعية بعض العناية لأنها، كما عرفنا ولمسنا وأحسسنا، تقوم

بدور كبير في حياة الجزائر الحديثة.

في سنة ١٩٢٩ أنشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس، بالمشاركة مع إخوانه وأبنائه من المشتغلين بالحركة العلمية في القطر الجزائري «جمعية العلماء بالجزائر». والشيخ ابن باديس عربي الأصل صميمه، جزائري النبت كريمه، زيتوني النهج قويمه، كان رحمه الله ثابت الجنان، ناصع البيان، قوي الإيمان. اجتمع له من هذا كله، ومن نظره الثاقب، ورأيه الصائب، ما جعله رجل الجزائر تدفع به المصائب، وتجتلي في طلعته جميع المناقب. ما كان أول جزائري فكر بأمر بلاده، ولا كان أول من لبى داعي جهاده، ولكنه يمثل في حياته وعمله، وعلمه ومثله، خلاصة أماني الأمة الجزائرية وصفوة القائلين بالدعوة الإسلامية. دعا الناس الى العودة إلى صحيح الإسلام، وحملهم على «سلفية» تلك الأيام. أسر الناس بفضله، وكسبهم برحابة عقله. عمل لأمته، فوحد جهود العاملين معه، وكان لهم نبراساً.

دعا إلى نبذ الخرافات والعودة بالدين إلى جوهره، وأهاب بالناس أن يذكروا اللغة العربية بالخير. وكان في صميم هاتين الدعوتين تقوية للشعور بالشخصية الجزائرية. وهذه الدعوة روحية اجتماعية في وسائلها، لكنها في صميم الحياة السياسية هناك. ذلك انها تتعارض تماماً مع وجهة النظر الرسمية للسياسة الفرنسية. ومن هنا جاءت نقمة السلطات على جمعية العلماء المسلمين. ولكن ابن باديس وصحبه وحملة لوائه من بعده يحاولون أن يكون اتصالهم بالشؤون السياسية اتصالاً فردياً شخصياً فيصيبهم الأذى في نفوسهم، وتظل المؤسسة قائمة. ومع ذلك فلم تفت القضية السلطات. فما أكثر ما حاولت ان تضع للجمعية حداً. لكن هذه الجمعية التي فرضت نفسها بادىء الأمر على الناس فرضاً، لم تلبث أن أصبحت لحركتهم رمزاً، ولحياتهم ركزاً، ولذلك فإنهم لا يسمحون لها ان يقضى عليها.

وكانت «الشهاب» الأسبوعية جريدة ابن باديس والجمعية، تنطق بلسانهم وقلوبهم. وقد نقلنا من قبل عبارة كتبها ابن باديس في سنة ١٩٣٦ مبيناً فيها عقيدة الجمعية التي تعمل من أجلها، ولا تزال هذه عقيدتها.

وقد مرت الجمعية في الجزائر بثلاثة أدوار الأول قارعت فيه ضعفة المسلمين واتباع الخرافات الحجة، فبينت خطأهم. وجاء الدور الثاني، دور بناء وتشييد، فبدأ سنة ١٩٣٩ لكن نكسة الحرب أوقفته حتى جاء الدور الثالث وهو الذي بدأ بعيد الحرب والذي لا تزال الجمعية تسير فيه وتقوم فيه بخدمة جلى، هو دور العودة إلى إنشاء المدارس والعناية بالتعليم. ومع ذلك فليس هذا وحده هو الذي توليه الجمعية اهتمامها، ولكن هذا أبرز نواحي جهادها.

وقد أتيحت لنا فرصة الاجتماع برئيس الجمعية الفاضل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي خلف المغفور له ابن باديس سنة ١٩٤١، لما لبى الأخير نداء ربه. والتقينا بعدد من رجالها الأبرار في مدينة الجزائر وتلمسان ووهران، فوجدنا فيهم، كبيرهم وصغيرهم، شيخهم وشابهم، غنيهم وفقيرهم، عالمهم وطالبهم، تفانياً في العمل، وإخلاصاً للمبدأ، وثقة في النفس، ورغبة في الخدمة. وفوق هذا كله تعطشاً للإفادة، وتطلعاً إلى النمو.

وهذه خصال ما اجتمعت لمؤسسة إلا ضمنت لها النجاح.

في العدد ١٧٢/١٧٣ من السنة الرابعة «من البصائر» (تاريخ ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥١) وفيه تقريرالرئيس عن عمل الجمعية في نواحيه المختلفة في سنوات خمس. وها نحن أولاء نقتطف منه هذه المعلومات:

١ ـ للجمعية من المدارس الابتدائية ١٢٥ مدرسة (باستثناء المعطلة إدارياً) فيها من الطلاب ١٦,٢٨٦ طالباً نهارياً و٢٠,٠٠٠ طالب مسائي. فالأولون يلازمون المدارس بانتظام ويتعلمون فيها اللغة العربية والإسلام ومبادىء الحساب والعلوم. أما الفريق الثاني فهم ممن يذهبون إلى المدارس الرسمية بانتظام لكنهم يأتون مدارس الجمعية مساء لتعلم العربية والدين. وهذه المدارس يعمل فيها ٢٧٠ معلماً. وتبلغ ميزانيتها نحو ٤٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

٢ ـ هذه المدارس ابتدائية. وقد أنشأت الجمعية معهد ابن باديس في قسنطينة، وهو معهد تجهيزي يتناول الطلاب من الخامسة الابتدائية فيعدهم إعداداً ثانوياً تمهيداً للحاقهم بجامع الزيتونة بتونس. وما كاد المعهد الباديسي يقوم حتى احتضنه الشيخ الفاضل الطاهر بن عاشور شيخ الجامع الزيتوني، واعتبره فرعاً من فروع المؤسسة الكبرى.

٣ ـ هذه المؤسسات كلها تقوم على هبات يقدمها مؤازرو الجمعية، وأكرم بهم من مؤازرين.

٤ ـ تصدر الجمعية جريدة «البصائر» الأسبوعية، وهي في ثماني صفحات تعنى بالتوجيه الفكري والأدبي، وشرح حقوق الجزائريين وتوضيح العقيدة الإسلامية، وتعنى بالسياسة العالمية والوطنية. ولسنا نريد أن نذكر أسماء الأدباء الذين يساهمون في تحريرها خشية أن نزل، ولكن لا بد لنا من الإشارة إلى هذه الديباجة المشرقة والأسلوب الحي الرصين الذي ينمق به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس الجمعية مقالاته، وإلى العمق والمعرفة اللذين يعالج بهما الاستاذ أحمد توفيق المدني القضايا السياسية العالمية. ومما توجه الجمعية اهتمامها نحوه، وخصوصاً عن طريق «البصائر»، الجزائريون المقيمون في فرنسا.

٥ ـ بلغت مالية الجمعية (سنة ١٩٥١) نحو ٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني.

٦ ـ للجمعية فروع في أكثر مدن القطر الجزائري، وإن كانت أكثر فروعها في عمالة قسنطينة. والفروع تشرف على المدارس، وتقيم حلقات الوعظ والارشاد، وتعقد الجلسات الأدبية، ويتطارح الحضور فيها الأدب والشعر.

٧ ـ الجمعية تهيب برجال العالم العربي أن يوطدوا العلاقات معها، وأن يقدموا لها آراءهم واختباراتهم. فرجالها يعرفون أنهم لا يقفون وحدهم في جهادهم، ويدركون ان قوتهم من قوة اخوانهم.

البصائر هي الجريدة العربية الوحيدة في الجزائر، وهي أسبوعية تصدر في صفحات ثمان. وثمة جريدة أخرى نصف أسبوعية، تصدر في قسنطينة في وجهين، اسمها «النجاح». وعدا هذا، فالقارىء إذا أراد الاطلاع على الشؤون السياسية والقضايا العالمية والأمور العلمية، اضطر إلى الرجوع للصحافة الفرنسية. وبعض هذه تصدرها الأحزاب السياسية

العربية، لكن القضية هي قضية لغة وواسطة عقلية.

وفي الجزائر هيئات كثيرة أدبية تعنى بالمحاضرات والجلسات الأدبية، لكنها محدودة النشاط مقيدته. وفي مقدمة هذه نادي الترقي الذي يشرف عليه ويدير حركته الأستاذ الفاضل الشيخ الطيب العقبي.

٨

جاء احتلال فرنسا للجزائر مبكراً في القرن التاسع عشر، قبل أن تلفح البلاد نيران النهضة الحديثة التي أتيح لها أن تصيب ديار الشام ومصر وتونس والمغرب الأقصى حتى قبل ان تحتل الدول الأوروبية هذه البلاد. وجاء الاحتلال للجزائر بعد فترة جهل وخمول شملت العالم العربي من شرقه إلى غربه. وجاء الاحتلال قوياً، فأعمل السيف، ولجأ إلى الضغط والخنق. فلما أفاقت الأمة هناك على نفسها وجدت القيود تحيط بها من كل جانب، والسلاسل ترهقها من كل صوب. وفضلاً عن ذلك فقد كان الاحتلال في شكله وروحه انتقاماً من الجزائريين لمضايقتهم للدول الأوروبية في غرب البحر المتوسط. ومن ثم كان رد الفعل الجزائري أيضاً عنيفاً قوياً فيه روح الانتقام. ولذلك تأصلت في نفوس الفريقين روح الكراهية التي تستطيع أن تلمسها في المدن الجزائرية في كل ناحية من نواحي الحياة: في الترام وفي المقهى وفي الشارع، دع عنك المحافل السياسية والمعترك الاقتصادي.

وجاءت الثقافة الغربية فرنسية الثوب تواكب الاستعمار وتجاريه، ويسخرها أهلها للقضاء على الشخصية الجزائرية. فكان من ذلك نفور من كل ما هو غربي ـ حتى ولو جاء معه الخير ـ وقد يكون في هذا القول بعض المبالغة، ولكن الخير الذي يريد أن يمحق الشخصية لا يستمرئه الناس كثيراً. ولما آذن الوقت بانتعاش الحركات الفكرية والروحية بين المسلمين في الجزائر، اتخذت هذه الحركات صفة سلفية قوية، ومحافظة على كل شيء في الإسلام وإحيائه. فإذا كانت السياسة ترمي إلى القضاء على اللغة العربية والإسلام، فمقاومتها تقضي بالتشدد في الحفاظ على العروبة والإسلام. ولعل هذا ما يوضح المحافظة القوية التي تتسم بها الحركة في الجزائر. ولعل خير ما يوضح هذه المسألة، عبارة قالها لنا رئيس جمعية العلماء المفضال الشيخ الإبراهيمي وهي: «لقد نجحت الجمعية في أمرين: توجيه الأمة نحو العروبة ونحو الشرق». والتوجيه نحو الشرق قصد به الشيخ استمداد نور الاصلاح الديني والتوجيه الإسلامي من الحركة السلفية التي بدأت من قبل في القاهرة.

نشرت المدارس الفرنسية والمعاهد الأخرى العلوم الطبيعية والرياضية باللغة الفرنسية، وحرمت العرب أن يتعلموا هذه الموضوعات بلغتهم، على نحو ما أتيح لنا نحن أبناء الشرق العربي. فنشأ الناس على أنه ثمة عالمان منفصلان: الواحد عالم الفكر الغربي ولا يعبر عنه إلا بالفرنسية، والثاني عالم الفكر الإسلامي العربي، وهذا تقتصر العربية عليه. وقد التقينا بجماعة من الجزائريين تخرجوا في الجامعة، يقومون بتدريس العلوم والرياضيات باللغة الفرنسية، ولكنهم لا يستطيعون ان يتحدثوا باللغة العربية في خارج حدود الأمور اليومية

العادية، من مأكل ومشرب. وهذا الفصل الفكري زاد في النقمة على الغرب وفكره. وقد اتضح لنا ان هذا الفصل الفكري موجود حتى في المعاهد التي تعلم الثقافتين العربية والفرنسية، وحتى في الذين يعلمون في تلك المعاهد. فقد وقر في نفوسهم ان الثقافتين منفصلتان متباعدتان متنافرتان متناقضتان، وأنهما تمتان إلى عالمين لا سبيل إلى التوفيق بينهما.

يضاف إلى هذا أن السياسة الفرنسية تصر على اعتبار الجزائريين مكونين من جماعتين مختلفتين أصلاً وتاريخاً وعاطفة وفكراً: الواحدة عربية والثانية بربرية. ويقول الباحثون الفرنسيون بأن الفروق كبيرة بين الجماعتين لأن البربر لم يتعربوا وان إسلامهم كان سطحياً، ولذلك عمل الحكام الفرنسيون على تدوين القانون الخاص بالبربر باللغة الفرنسية، واعتبروه أصلاً لحياتهم. وهذا الذي دون هو مجموعة من العرف والعادة، بعضه حري بأن يتلف، لولا ان السياسة أرادت استغلاله. وقد قامت محطة الإذاعة الجزائرية مؤخراً بوضع برنامج خاص باللغة «القبايلية» (لغة البربر) فيه أخبار وأحاديث أدبية وعلمية وسياسية. وهذه التفرقة لقيت بعض النجاح في أماكن محدودة، وكان من نتيجتها زيادة البلبلة في صفوف المفكرين الجزائريين الذين كان يكفيهم أن يكون ثمة عربية وفرنسية، فيقاومون الثانية بإحياء الأولى. أما الآن فعليهم أن يبعثوا الأولى في نفوس اخوانهم، ومن ثم يتم لهم مقاومة الثانية.

٩

في الجزائر إمكانات قوية، وقوى لا تزال مخبوءة يجب أن تظهر وأن توجه وأن يفاد منها. وللجزائريين آمال وأمان. فهم الآن يريدون الاستقلال ولا يرضون عنه بديلاً. ويريدون هذا الاستقلال في إطار من جامعة إسلامية. فإخواننا هناك يغلب هذا عليهم. ولكن بينهم من يكتفي بالجامعة العربية على أساس أن القومية، لا الدين، هو الرابط الأساسي. ونود أن نؤكد للقراء ان اخواننا الجزائريين لم يطلبوا الاستقلال مجاناً ولا استجدوه استجداء. إنهم دفعوا، وما زالوا يدفعون ثمنه نفياً وتشريداً ودماءً. وهو ثمن حريٌّ بأن يأتي بنتيجة.

عرف القادة هناك أن الاستقلال «كلٌ»، لا يمكن أن يسعى الناس له سعياً مجزأً، ولا يمكن أن يقام بناؤه مفرقاً، لذلك أخذوا أنفسهم في السنوات الأخيرة ببناء النواحي الأخرى للوصول إلى أهدافهم، وخصوصاً في الحقل الاقتصادي والميدان الفكري الثقافي. ولا يزال الحقل الأول وقفاً على أفراد، لكن نشاطهم كبير. أما في الميدان الثقافي فالعمل أوسع نطاقاً، وإن لم يكن أسهل بسبب موقف السلطات. وهنا أمور حرية بأن تؤخذ بعين الاعتبار، وهي أمور تحدثنا فيها إلى أخواننا وأحبابنا من الجزائريين في غير مناسبة، ولقينا منهم رغبة في تفهمها، لأن مشكلتهم شبيهة بمشاكلنا، وصعوباتهم قريبة في نوعها من مصاعبنا، وقد اجتزنا نحن دوراً أبعد مدى، ففي بعض اختبارنا ما قد يعين.

في مقدمة هذه الأمور أن يتذكر الجزائريون أنهم يقاومون جماعة لها حضارة وثقافة ذات قيمة علمية عالمية. وقد تكون في هذه الحضارة مغامز، وقد تكون فيها مواطن ضعف، لكنها من جهة أخرى، حضارة تقوم على العلم وروحه ـ ونحن هنا لا نتحدث عن السياسة

وألاعيبها ـ وفهم حقائق الأمور فهما علمياً عقلياً. وهي حضارة قوامها المساواة في الفكر وفي فرص العيش وقيم الحياة. وهي حضارة فيها أدب حديث حي، وفكر نابض قوي، وحياة متوثبة. وفيها فضلاً عن ذلك اختبارات روحية اجتماعية تعتبر الفرد أساساً للمجتمع. إلى هذا كله هي حضارة لها أسلوبها وشكلها ومظهرها. وقد أخذنا بالمظهر إلى أكثر مما نحتاج، لكننا لم نأخذ بالأسلوب الذي تعبر به تلك الثقافة عن نفسها. وميزة هذا الأسلوب أنه حي.

والأمر الثاني هو أن الجزائريين، وهم مثلنا في هذه القضية، يبنون حياتهم الروحية والفكرية على الثقافة العربية والإسلام. وهم، وجمعية العلماء في طليعة العاملين على هذا، يريدون ان يفقهوا الناس في الدين، ويبغون إحياء الروح العربية عن طريق دراسة التاريخ العربي والأدب العربي والثقافة العربية. والتاريخ العربي، مثل كل تاريخ في الدنيا، يعرض حياة أمة وشعوب قروناً طويلة، ولذلك ففيه الغث وفيه السمين. وقد أشبعنا المؤرخون الغربيون وهم يطعموننا الغث من تاريخنا، وقززوا نفوسنا وهم يعرضون الصحف السود فيه. لذلك آن لنا أن نعرض لنواحي القوة فيه، وللصحف البيض منه، فنعرضها على أنفسنا لنعرف له قيمته. وهذا يتيسر لنا إن نحن أخذنا أنفسنا بدرس تاريخنا وثقافتنا درساً عميقاً، وفهمنا ما عندنا ـ ما لنا وما علينا ـ فهماً صحيحاً، ثم عرضنا ما نحتاجه بالقدر الذي نحتاجه. وهنا يقتضي الأمر منا أن نفيد من أسلوب الغرب في معالجة موضوعاته وتاريخه وفكره، حتى نتمكن من الوصول إلى ما نريد على خير السبل.

وإذا كان من الواجب إحياء الإسلام وتفقيه الناس في أمور دينهم، فمن حق الإسلام علينا أن نعرضه للناس بأسلوب يتساوق مع العصر الذي يعيشون فيه. ولعلّ هذا الأمر يفرض نفسه فرضاً في قطر كالجزائر تحاول السياسة أن تقاوم الإسلام بكل وسائلها الفكرية الحديثة. وإذاً فالمتوجب على الذين يقفون أنفسهم للمنافحة والدفاع عنه أن يكون عملهم إيجابياً لا سلبياً. فالسلبية الفكرية هي شر ما نخشى على كياننا. والإيجابية الفكرية هي التي مكّنت من قبل للحضارة العربية الإسلامية أن يكون لها كيان أو يقوم لها بنيان. علينا أن نقارع الحجة بالحجة ونرمي البرهان بالبرهان، وهذا لا يتم إلا إذا أخذنا بالأسلوب العلمي العقلي في سبيل توضيح المسائل المختلفة لأولئك الذين يقفون بالباب طالبين منا ضريبة القيادة الفكرية، والذين ارتضونا لهم مرشدين.

ونحن ما زلنا نعالج هذه القضايا بأسلوب ذاتي عاطفي، نزجي فيه العبارة تلو العبارة، وندبج المقالة بعد المقالة، ولا شك إن هذا شيء ضروري. فالعاطفة من حقها أن تلهب، والشعور من حقه أن يثار. ولكن ذلك وحده لا يكفي. فالعقل من حقه أن يشبع والمعرفة من حقها ان ترضى. وهذا أمر مرتبط بتوصيل جهودنا من النظرة الذاتية العاطفية إلى النظرة الموضوعية العقلية، النظرة إلى تاريخنا وآرائنا وعقائدنا ومشاكلنا وقضايانا وحاجاتنا. في حياتنا العقلية والفكرية فراغ، وفي أسلوب تفكيرنا ضعف، وفي أدبنا الحديث فقر. وقد عرف الغرب من هذه الأمور الكثير وفي اختباراته ما ينفع. فيجب أن نتجه إليه لنأخذ منه ما فيه من خير لنطعّم ما عندنا، ونشد أزره، فيصبح وهو أقدر على مغالبة الأيام، وأصلح للحياة في هذا

العالم الذي سبقنا قروناً، ولا نريد أن نتخلف عنه.

وما قلناه من قبل عن تونس يصح قوله عن الجزائر، وما تونس والجزائر والمغرب وليبيا والوادي وديار الشام والعراق والجزيرة إلا بنى لأم واحدة. في مشاكلها شبه، وفي منازعها قربى، وفي حاجاتها اتفاق. وإذا كان كل هذا صحيحاً، فالعلاج والدواء ولا شك يجب أن يكونا متقاربين في الطبيعة إن لم يكن في التفاصيل.

٣ ـ فرنسا في تونس

١

تشغل المملكة التونسية ١٢٥ الف كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها ٣,٢٣٠,٠٠٠ (الزمن الذي كتب فيه هذا الفصل) وهم موزعون على الترتيب التالي:

العرب	٢,٧٨٠,٠٠٠	أوروبيون آخرون	١٢,٠٠٠
الفرنسيون	١٤٤,٠٠٠	يهود	٧١,٠٠٠
الإيطاليون	٨٤,٠٠٠	الجيش ... الخ	١٣٩,٠٠٠

جميع الأوروبيين يحملون جوازات سفر فرنسية إذا شاءوا ذلك.

وقد احتلت فرنسا البلاد سنة ١٨٨١، بحجة المحافظة على الحدود الجزائرية، والحيلولة دون وصول الأسلحة والذخائر من التونسيين إلى اخوانهم الجزائريين. وقد فرضت فرنسا المحتلة على باي تونس معاهدة باردو (١٢ أيار/ مايو، ١٨٨١)، التي نصت، في جملة ما احتوته، على الأمور التالية:

١ ـ تظل الاتفاقات التجارية وغيرها من المعاهدات القائمة بين سمو الباي وحكومة فرنسا قائمة، بل انها تعتبر كأنها تجددت منذ ذلك التاريخ.

٢ ـ يقبل سمو الباي بأن تحتل السلطات الفرنسية العسكرية مراكز الحدود والشواطىء اللازمة لضمان سير الأمور وتنظيمها. على ان هذا الاحتلال ينتهي متى وجد أن السلطات المدنية تستطيع القيام بالمهمة.

٣ ـ المعاهدات القائمة الآن بين سمو الباي وأي دولة أخرى، يصبح تنفيذها منوطاً بالحكومة الفرنسية. ويقوم رجال السلكين الدبلوماسي والقنصلي الفرنسيون برعاية مصالح التونسيين في الخارج.

٤ ـ تتعهد حكومة سمو الباي بمنع دخول السلاح إلى المملكة التونسية كي لا يتسرب إلى الجزائريين.

٥ ـ تعين الحكومة الفرنسية وزيراً مقيماً لها في تونس، يكون حلقة الاتصال بينها وبين حكومة سمو الباي.

٦ ـ القبائل الثائرة على الفرنسيين في تونس تفرض عليها غرامة حربية، تقرر فيما بعد، وتكون حكومة سمو الباي مسؤولة عن جمعها.

٧ ـ تتعهد الحكومة الفرنسية بالمحافظة على سمو الباي شخصياً وعلى أسرته، وعلى البلاد التي يحكمها.

ومع ان هذه المعاهدة تنص على ان وجود الحكومة الفرنسية هناك موقت، فإن فرنسا لا تزال في تونس، مع انه قد مر على ذلك سبعون سنة.

وقد اتبعت الحكومة الفرنسية في القطر التونسي سياسة أبعد ما تكون عن هذه المعاهدة التي فرضتها بنفسها، على ما في المعاهدة نفسها من ضرر لحق بالبلاد وأهلها. ويمكن إجمال هذه السياسة الفرنسية في الأمور التالية:

١ ـ ملأت الوظائف بالموظفين الفرنسيين، وقد شجعتهم بمختلف المنح المالية كي يتركوا بلادهم ويأتوا إلى تونس للعمل. وقد بلغت العلاوات والمنح التي نالها الفرنسيون العاملون في الإدارة التونسية ثلاثة وأربعين صنفاً، وبلغ ما ينفق على هؤلاء الموظفين ٧٥ بالمئة من ميزانية الدولة.

٢ ـ استعيض عن العربية بالفرنسية في الإدارة، بحيث انك لا تستطيع أن تتم معاملة، كائنة ما كانت ، إلا بالفرنسية (باستثناء المحاكم الشرعية). وقلما تجد في الدوائر حتى من يتكلم العربية ليرشدك إلى ما يجب ان تعمل، اللهم الا ان يكون حاجباً أو آذناً. فهذا عمل لا يليق بالفرنسيين.

على أن الأمر تعدى الناحية الرسمية. فقد جاء على القطر التونسي وقت لم يكن يسمح فيه بدخول الكتب العربية إليه، إلا إن تكون أموراً بسيطة. أما الكتب والمجلات الفرنسية، وكثير منها من النوع المبتذل، فإنها تملأ الأسواق. وقد تحسنت قضية دخول الكتب العربية إلى تونس اليوم، بسبب نشاط أفراد قلائل. وهذه المكتبة العامة بتونس نفسها تحوي ٣٠٠ الف كتاب فرنسي، بينما لا يوجد فيها الا نحو خمسة الاف كتاب عربي، بدىء بشرائها سنة ١٩٤٨.

٣ ـ منحت الجنسية الفرنسية لجميع الأجانب، وقبلها اليهود أيضاً. أما العرب فقد رفضوها، لأنهم لا يريدون ان يكونوا جزءاً من فرنسا.

٤ ـ عملت الحكومة الفرنسية على تسهيل امتلاك الأرض للأوروبيين، والفرنسيين خصوصاً. ومن الوسائل التي لجأت إليها، والتي شرحها لي التونسيون أثناء زيارتي لتلك البلاد في صيف ١٩٥١، هي الاستيلاء على أراضي الوقف، واستبدالها بعقارات في المدن، وإعطاء هذه الأرض للمعمرين الفرنسيين. ويسمى هذا نزال.

٥ ـ جعلت فرنسا القول الأول في شؤون تونس لهؤلاء المعمرين Colons، بحيث أصبحوا هم حكام البلاد فعلاً. وأي اقتراح للاصلاح لا يوافقون عليه يسقط فعلاً.

٦ ـ في الناحية الإدارية احتفظت فرنسا بالمناصب الإدارية المحلية للتونسيين العرب. فالقائد والكاخيا والشيخ منهم. لكن جعلت البلاد تسع عشرة منطقة إدارية، على كل منطقة «مراقب» فرنسي، هو في الواقع صاحب القول الفصل في الأمور. وثمة ست مناطق عسكرية تدار إدارة عسكرية بإشراف ضباط من الجيش.

٧ ـ وعلى هذه الطريقة جعلت جميع الأعمال الكبرى في البلاد بيد رجال الإدارة الفرنسيين. فالشؤون المالية والزراعية والتجارية والصحية والاجتماعية يشرف عليها

فرنسيون.

٨ ـ شجعت فرنسا المعمرين على استغلال موارد البلاد الاقتصادية. والصناعات الكبرى، وتجارة الصادر والوارد، والامتيازات الاقتصادية والمواصلات تكاد تكون حكراً عليهم. أما أهل البلاد العرب فظل لهم صناعات صغيرة محلية، وشيء كثير من زراعة الزيتون وعصر زيته. وهذه الصناعات المحلية لا تتمتع بحماية ما، لذلك تجد الآن أن أصحابها يعانون مشاكل كثيرة. وهذه القيروان، بلد صناعة البسط والسجاجيد من الصوف، لا يكاد أهلها يحصلون ما يتبلغن به في هذه الأيام. وإن زيارة قصيرة لأي من هذه المدن، تقنعك بأن السياسة تقوم أصلاً على «تفقير» التونسيين.

٩ ـ اتبعت فرنسا في التعليم سياسة من شأنها أن تؤدي إلى بقاء الجهل، إن لم نقل نشره، وسنتحدث عن هذه فيما بعد.

لم يقف التونسيون مكتوفي الأيدي امام الاحتلال، ولا ما تلاه. فقد قامت ثورات عنيفة في السنة التالية لدخول الفرنسيين، كبدتهم خسائر فادحة. لكن النصر كان للقوة العسكرية. فلجأ التونسيون إلى العمل السياسي.

وكان أول احتجاج على هذا التدخل المباشر في إدارة البلاد، ذلك الذي قدمه الشيخ محمد السنوسي إلى سمو الباي، فلقي منه تأييداً. لكن الشيخ السنوسي نفي في اليوم التالي.

وقام الشيخ المكي بن عزوز بحركة إصلاحية، لكنه اضطر إلى الهجرة لديار المشرق.

وفي سنة ١٩٠٥ قامت جماعة من مثقفي الزيتونيين وخريجي فرنسا وغيرهم من المدرسين بإنشاء جريدة «الحاضرة»، التي كان يحررها علي أبو شوشة. وهذه الجامعة كانت ترمي إلى ربط الحركات التونسية بالجامعة الإسلامية. وقد ازداد نشاط الجماعة إثر زيارة لتونس قام بها الشيخ محمد عبده. ولسنا نستطيع متابعة هذه الحركة الأولى، لكننا نشير إلى بشير صفر، الذي يعتبر واضع أسس النهضة الأدبية الحديثة في القطر التونسي، وكان من أقوى العاملين في هذه الجماعة.

على ان كل هذا كان لا يتجاوز العمل الفردي، أو عمل جماعة صغيرة. إلا أن الشعور ضد فرنسا، بسبب ما كانت تقوم به حكومتها، كان يتزايد. لذلك نجد انه منذ سنة ١٩٠٨ أصبحت الحركة السياسة عمل جماعات منظمة. وأولى هذه الجماعات هو «حزب تونس الفتاة» الذي قام حوالى ١٩٠٨، والذي انضم إليه نفر من رجال «الحاضرة»، فقوي بهم، وتقووا به.

والرجل الذي كان الحزب يدور حوله، ويغذيه برأيه ونشاطه، هو علي باش حمبة، الذي ظل كذلك حتى سنة ١٩١١، إذ نفي فذهب إلى الآستانة. وكان باش حمبة وجماعته يؤكدون الاعتراف بالخلافة العثمانية، ويهيجون الرأي العام على الفرنسيين، ويدعونه إلى تحرير نفسه من ربقتهم. وكانت جريدة «التونسي» تصدر بالعربية والفرنسية معبرة عن رأي الحزب في هذه المسائل.

ظلت الحركة السياسية بتونس تعوزها القيادة الحكيمة المنظمة حتى سنة ١٩١٩، إذ قرر أصحاب الرأي أن يحاولوا الافادة من مؤتمر الصلح لعرض قضية بلادهم. وقد نشأ عن هذه الحركة قيام الحزب الدستوري، الذي كان برئاسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي. ويمكن إجمال المطاليب التي تقدم بها الدستوريون في ذلك الوقت فيما يلي:

١ ـ إنشاء مجلس تشريعي يكون أعضاؤه تونسيين وفرنسيين، على ان ينتخبهم الشعب، وعلى ان تعطى له سلطات واسعة فيما يتعلق بشؤون الميزانية.

٢ ـ تكون الحكومة التونسية مسؤولة امام المجلس.

٣ ـ تفصل السلطات الثلاث ـ التشريعية والقضائية والإدارية ـ الواحدة عن الأخرى فصلاً تاماً.

٤ ـ يسمح للتونسيين الحائزين على الشروط اللازمة للعمل الحكومي بأن يوظفوا في دوائرها.

٥ ـ يتساوى التونسيون والفرنسيون في الأجور والمرتبات.

٦ ـ تكون جميع المجالس المحلية منتخبة.

٧ ـ جعل التعليم إلزامياً.

٨ ـ يسمح للتونسيين بشراء الأراضي من إدارة الشؤون الزراعية.

٩ ـ تقرير حرية الصحافة والاجتماعات والجمعيات.

هذه المطاليب قدمت إلى الباي، أما المذكرة التي قدمها الحزب الدستوري إلى الرئيس ولسن، فقد طلبت الاستقلال التام للقطر التونسي. لكن رؤي، عند تقديم المطاليب داخلياً، أن يكتفى بطلب أقصى حد ممكن من دون العمل على استفزاز فرنسا أو إحراج الباي.

لبت فرنسا بعض هذه المطاليب، لكنها اكتفت بالأمور التي لا تمس سيادتها ولا تعطي التونسيين إلا القليل. ففصلت السلطات، وسمحت بحرية الصحافة. لكن ذلك لم يطل أمده. ولم تلبث السلطات أن أخذت بالضغط على أفراد الحزب، والحد من حرية زعمائه، ومقاومة فروعه الكثيرة التي قد انتشرت في أنحاء القطر. ورأى الشيخ عبد العزيز الثعالبي نفسه مضايقاً مطارداً مضطهداً فغادر تونس إلى المشرق (١٩٢٣) وظل غائباً حتى سنة ١٩٣٧. وكان خروج الثعالبي إيذاناً بهبوط درجة الحرارة العملية في الحزب، حتى آن لها أن تتقد بزعامة نفر من الشباب التونسي. وكان ذلك في سنة ١٩٣٣ إذ تقدم هؤلاء، وفي طليعتهم الحبيب بورقيبة وطاهر صفر، بتحديد الرغبات التونسية بالأمور التالية (بعضها من المطاليب الأولى):

١ ـ انشاء برلمان تونسي ينتخبه الشعب.

٢ ـ تكون الحكومة مسؤولة أمام البرلمان.

٣ ـ تفصل السلطات الثلاث فصلاً تاماً.

٤ ـ منح الحريات العامة دون تضييق أو خنق.

٥ ـ جعل التعليم إلزامياً.

٦ ـ وضع ضمانات اقتصادية تعطي للتونسيين الفرصة للعمل الاقتصادي المثمر، بحيث يمكن للبلاد السير قدماً.

٧ ـ إخضاع جميع السكان للقضاء التونسي.

على ان الأمر المهم الذي نتج عن هذا النشاط هو قيام حزب جديد على أنقاض الحزب الدستوري القديم، سمي «الحزب الدستوري الجديد»، بقيادة الدكتور الماطري والحبيب بورقيبة. وأنشأ الحزب «الديوان السياسي»، بدل اللجنة التنفيذية القديمة. وكان هذا سنة ١٩٣٤.

قصة الحزب التونسي الدستوري الحر (الجديد) في كفاحه مع الاستعمار الفرنسي طويلة وطريفة، لكن هذه العجالة لا تتسع لدرسها، لذلك نكتفي بإيراد أهم المواقف. فقد سجن زعماؤه غداة تأليفه، وشردوا. ومع انه سمح لهم بالعودة إلى ميدان العمل سنة ١٩٣٦، فقد اجتاحت تونس بين ١٩٣٨ و١٩٤٢ موجة من الشدة قامت بها فرنسا لقمع جميع الحركات الوطنية، وكان ممن أوذي في هذه الفترة زعماء الحزب ورجاله، وبينهم، عدا عمن ذكر قبلاً، علي البلهوان. وفي هذه الفترة قام الحزب بجميع أعماله سراً، واستطاع ان يحتفظ بمراكزه وقواعده. ولم يعد الحزب إلى الميدان المكشوف إلا سنة ١٩٤٢، برئاسة الدكتور تامر.

وفي سنة ١٩٤٦ عقد في تونس مؤتمر وطني عام بدعوة من الحزب الدستوري (الجديد) والحزب الدستوري (القديم) واتحادات العمال واساتذة جامعة الزيتونة والاتحاد التونسي لموظفي الحكومة، وقد أصدر هذا المؤتمر قرارات مهمة تعتبر الميثاق القومي لإخواننا التونسيين.

استعرض المؤتمر القضية التونسية منذ سنة ١٨٨١، لما كانت تونس دولة ذات استقلال ذاتي تربطها بالخلافة روابط روحية، وقد اعترفت الدول بهذا الوضع بحيث عقدت معاهدات مع سمو الباي. ثم عرضت القرارات لمسألة المعاهدة التي فرضت على الباي بالقوة، ورأت أن هذه المعاهدة، على ما فيها من شر، لم تحافظ فرنسا على بنودها، بل تعدتها من حماية موقتة لها ظروفها، إلى حكم مباشر مستمر. وفي ظل هذا الحكم مهدت فرنسا للفرنسيين المعمرين كل وسائل التقدم، وحالت دون التونسيين والسير إلى الأمام، بل أفقرتهم وأدت إلى بقائهم في الحضيض الاقتصادي والاجتماعي، بينما ينعم غيرهم من الأجانب بخير البلاد، ويتمتعون بمواردها الغنية. وما دامت فرنسا قد أخلّت حتى بما رضيت به أصلاً، وافتأتت حدودها وظلمت وآذت، فقد حق للشعب التونسي أن يعلن، بلسان مؤتمره الوطني:

«إن نظام الحماية نظام سياسي واقتصادي لا يتفق مطلقاً مع سيادة الشعب التونسي ومصالحه الحيوية، وإن هذا النظام استعماري قضى على نفسه أمام العالم بالإخفاق بعد تجربة خمس وستين سنة، كما يعلن عزم الشعب الثابت على استرجاع استقلاله التام، والانضمام ـ كدولة ذات سيادة ـ إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة والمشاركة في مؤتمر الصلح».

وهكذا حدد المؤتمر الوطني أهداف الحركة التونسية ومطاليبها وغايتها. وأمام إصرار الشعب على الحصول على الاستقلال التام، تقوم فرنسا ببعض إصلاحات وتعديلات في حكمها بسيطة يسيرة. فمن ذلك أنها زادت عدد الوزراء، حتى يكون عدد التونسيين في مجلس الوزراء متساوياً. وكذلك صارت رئاسة مجلس الوزراء إلى تونسي. هذا ما تنص عليه اللوائح. لكن الواقع هو ان لكل وزارة مديراً عاماً فرنسياً هو الذي يسيطر على إدارتها وتنظيمها، وبيده الحل والعقد، ومن ذلك ان الحكومة أخذت تعين تونسيين في المناصب الكبيرة، ولكن هذه الوظائف التي منحت إن هي، حتى الآن، إلا تعلة، لا تنقع الغلّة.

نشر في شباط/ فبراير من سنة ١٩٥٠ برنامج اصلاحي واسع النطاق، قد يكون فيه للبلاد خير، إذا طبق. وقد رأى الديوان السياسي ان يساهم في هذه الاصلاحات. فاشترك في الوزارة وقبل سكرتيره العام منصب وزير العدل وقد كان ذلك في آب/ أغسطس ١٩٥٠ ولما كانت في تونس في آب/ أغسطس ١٩٥١ كانت المعركة حامية بين الصحف المؤيدة للديوان السياسي والصحف المعارضة حول مدى النجاح الذي أصابته هذه الاصلاحات. على ان سنة واحدة لا تكفي لبرنامج ضخم.

٢

على أننا عندما ننتقل من الحقل السياسي إلى الحقل الاقتصادي والاجتماعي، نجد ان السياسة الفرنسية أبعد أثراً منها في ذلك. فالمبدأ الذي سارت عليه الإدارة التونسية منذ سنة ١٨٨١ هو أن يكون للمعمرين الحق الأول في خيرات البلاد وثرواتها. وبقدر ما تزداد مقدرة هؤلاء المعمرين على الاستغلال الزراعي والصناعي والتجاري، بسبب انهم يلجأون إلى الوسائل الحديثة، يزداد التونسيون تأخراً في هذه الميادين. ذلك انهم لم يعلّموا ولم يدربوا على الجديد من الأصول والمبادىء والوسائل. وتوضيحاً لما ذهبنا إليه نعرض على القارىء هذه اللمحة الموجزة للحياة الاقتصادية في الديار التونسية.

مساحة تونس هي ١٢,٥٠٠,٠٠٠ هكتار. منها ٣,٥٠٠,٠٠٠ هكتار أرض صحراوية، ونحو ١,٠٠٠,٠٠٠ هكتار غابات. فالباقي هو ٩,٠٠٠,٠٠٠ هكتار. وقد كان المستغل منها سنة ١٨٨١ نحو ٦٠٠,٠٠٠ هكتار موزعة على الشكل التالي:

لزراعة الحبوب ٥٣٠,٠٠٠ هكتار للزيتون ٣٠,٠٠٠ هكتار

للحدائق والواحات ٥,٠٠٠ هكتار للكرمة ١,٠٠٠ هكتار

أما في إحصاء سنة ١٩٤٨ فقد كانت الأراضي التونسية، موزعة كما يلي:

زراعة الحبوب... الخ	٢,٩٦٠,٠٠٠ هكتار	أي ٣٢,٩ بالمئة
الأشجار المثمرة	٨٠٦,٠٠٠ هكتار	أي ٨,٩ بالمئة.
المراعي	١٠٠٠,٠٠٠ هكتار	أي ١,١ بالمئة
الغابات	١,٠٠٩,٠٠٠ هكتار	أي ١١,٢ بالمئة
أراض غير مستغلة	٤,١٢٥,٠٠٠ هكتار	أي ٤٥,٩ بالمئة

(بما في ذلك الصحاري)

ويبـدو من هذه الأرقـام أن اسـتـغـلال الأراضي تقـدم فـي القطر الـتـونسي. لكن نـظرة فاحصة إلى الأرقام التالية توضح ناحية أخرى من هذا التقدم.

إن شركة الانفدا المرسيلية كانت قد ابتاعت من الوزير خير الدين (سنة ١٨٨٧) ٩٦,٠٠ هكتار. لكن بعد الاحتلال الفرنسي اتخذ تملك الأراضي بالنسبة إلى المعمرين، طريقين: الأولى الخاصة، وتمركزت في سهول تونس (الحاضرة) وبنزرت (بزرتة) وماطر وبونة. والثانية الرسمية، وقد اهتمت بالمناطق الوسطى والجنوبية. وقد بلغ ما ابتاعه المعمرون، بالطريقة الأولى (إلى سنة ١٩٣٩) ٥٤٠,٠٠٠ هكتار، موزعة كما يلي:

الفرنسيون ٤٠٠,٠٠٠ هكتار

الغرباء (ومعظمهم) من الايطالين ١٤٠,٠٠٠ هكتار

أما التملك الرسمي، أي الذي أشرفت الحكومة على شرائه أو الحصول عليه وإعطائه للمعمرين، فقد بلغ إلى سنة ١٩٣٩، ما يأتي:

في المنطقة الوسطى ٣٣٦,٠٠٠ هكتار

في المنطقة الجنوبية ٢٦٨,٠٠٠ هكتار

المجموع ٦٠٣,٠٠٠

وبذلك يصبح مجموع ما يملكه المعمرون (إلى سنة ١٩٣٩) ١,٢٣٩,٠٠٠ هكتار. وهذا كله من الأرض الصالحة للحبوب والأشجار المثمرة والزيتون. وعندما نقابل هذا بالأرقام السابقة، نجد ان ما يملكه المعمرون من الأرض المستغلة يزيد قليلاً على ٣٠ بالمئة (١,٢٣٩,٠٠٠ من أصل ٣,٧٦٦,٠٠٠ هكتار).

ويمكن اجمال الإنتاج الزراعي في القطر التونسي للسنوات الأخيرة بما يلي:

المــادة	مساحة الارض	الكميــة
القمح	٨٠٠,٠٠٠ هكتار	٤٠-٥٠٠ مليون كيلو غرام
الشعير	٦٠٠,٠٠٠ هكتار	٤ مليون كيلو غرام
الذرة	هكتار	٤,٨ ملايين كيلو غرام
الزيتون	٥٥,٠٠٠ هكتار	٣٧,٥ مليون كيلو غرام
الكرمة	٤٢,٤٥٠ هكتار	١٠٠ مليون كيلو غرام
الأثمار الحمضية	١,٠٩٨,٠٠٠ هكتار	٢٤ مليون كيلو غرام
التمور	١,٠٨٧,٠٠٠ هكتار	٣ ملايين كيلو غرام

إضافة إلى هذه الغلات الرئيسة، فإن البلاد فيها نحو مليون شجرة من المشمش والدراق والخوخ، وفيها ١٧,٨٠٠ هكتار من الأرض تزرع أنواع الخضار المختلفة. كما أن معدل إنتاج التبغ بلغ ٦٠٠,٠٠٠ كيلو غرام في السنوات العشر الأخيرة.

والمراعي التونسية تصلح لتربية الأغنام، إلا أن توالي الجفاف قد يؤدي إلى نقص كبير فيها. ففي سنة ١٩٤٢ كان في البلاد ما يزيد على ثلاثة ملايين ونصف المليون، لكن الجفاف

المتوالي أدى إلى هبوط الرقم إلى مليون ونصف أو يزيد قليلاً سنة ١٩٤٩، إلا ان جفاف الموسم الماضي (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) أدى إلى حالة سيئة.

وفي البلاد نحو مليون ونصف المليون من المواشي الأخرى الصالحة لحومها للأكل

أما مواشي الحمل فقد كان في البلاد منها سنة ١٩٤٨ من الإبل ١٧٦,٩٠٠ الخيول ١٧,٧٠٠ البغال ٤٧,١٠٠ الحمير ١٠٨,٠٠٠.

أما الغابات التونسية (١,٠٠,٠٠٠ هكتار)، فتنتج أنواعاً مختلفة من الأخشاب مثل الصنوبر الألبي وغيره، فضلاً عن الفلين الذي بلغ محصوله ٣,٦ ملايين كيلوغرام (١٩٤٩).

ومن حاصلات تونس البرية الحلفاء، الذي يشغل نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ هكتار من الأرض، وقد جمع منه كميات كبيرة راجت في الأسواق العالمية بسبب استعماله في صنع الورق. وفي سنة ١٩٤٩ مثلاً بلغت كمية الحلفا ١٤٣,٠٠٠ طن. ويقدر عدد الذين يعملون في جمع الحلفا وتجفيفه ورزمه وكبسه بنحو ٣٥٠,٠٠٠ نسمة.

والبحر مورد رزق لا يستهان به بالنسبة إلى القطر التونسي. فأسماكه كثيرة ومتنوعة. وقد تراوح ما صيد من الأسماك في سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩ بين ١١,٠٠٠ و ١٢,٠٠٠ طن.

ونحن عندما نرى هذه الأرقام نجد ان البلاد غنية. لكن العبرة ليست بمجموع موارد ثروة الأرض والبحر، ولكن المهم هو توزيعها بالنسبة إلى الأفراد، وبالنسبة إلى العنصرين المقيمين في البلاد: العرب والمعمرين. وإذا تذكرنا أن المعمرين يملكون ٣٠ بالمئة من الأرض المستغلة، وأنهم يلجأون إلى الوسائل الفنية في الاستغلال، لا نستغرب ان نعرف انهم يتمتعون بأكثر من نصف المنتوج العام من الزراعة وما إليها.

على ان ثمة ثروة أخرى في البلاد تكاد تكون حكراً للأجانب، هي الثروة المعدنية، وفي مقدمة مقوماتها الفوسفات، الذي يستخرج منه ما يقرب من مليوني طن في العام، والحديد وقد استخرج منه (سنة ١٩٤٩) ٦٧٩,٠٠٠ طن. على انه جاءت على البلاد أوقات بلغ المستخرج من الحديد فيها أكثر من ذلك ٩٧٨,٠٠٠ (طن سنة ١٩٢٩).

وفي البلاد كميات قليلة من القصدير والنحاس والمغنيزيوم والزئبق والكحل. وقد استخرج من الأرض التونسية ٤٧,٠٠٠ طن من الفحم سنة ١٩٤٩.

فإذا انتقلنا مما تدره الأرض إلى ما تصنعه اليد والآلة، وجدنا أن القطر التونسي له ماض في الصناعة مجيد. وهذه الصناعات محلية الصبغة، تقليدية الشكل، وسيلة للكسب كما هي سبيل للتعبير عن الشعور بالنسبة إلى صانعيها. فأنت تجد في أسواق تونس نفسها، كما ترى في أسواق بعض المدن الأخرى، تجانساً في الفن واتساقاً في الصنعة وتشابهاً في الصيغة، كما ترى السوق الواحدة حكراً على صناعة واحدة، تنظم أهلها، ويشرف «أمين» السوق على عملهم.

فالمنسوجات من الصوف والحرير والقطن تصنع في أكثر المراكز الحضرية، ولكن لبعضها تفوقاً خاصاً. فتونس تمتاز بالنسيج الحريري الفاخر ذي الألوان البراقة، وقصر هلال

(في الساحل) تعرف أقطانها وفوطها في الجنوب؛ وجربة تدفىء أصوافها - ثياباً وأحرمة - أهل البلاد إذا ما دهمهم البرد والفقر. والقيروان لا ينساها الناس ما داموا يفترشون زرابيها (بسطها) المتينة الجميلة. ولرؤوس التونسيين من الشاشيات (الطرابيش) نصيب من صنع أيديهم كبير. والجلود تخضع لمهارة العامل التونسي خضوعاً تاماً. وفي البلاد صناعة الخزف والزلاج (القيشاني).

ولكن هذه الصناعات كلها تعاني أزمات حادة في هذه الأيام. فالأقمشة المستوردة من الخارج تزاحم الصناعة التونسية اليدوية، واستعمال السكان لمصنوعاتهم الوطنية في تناقص. فضلاً عن ذلك، فإن هذه الصناعات قلما تتمتع بحماية الحكومة، لذلك خسرت أسواقها الداخلية. أما أسواقها الخارجية فقد ازدادت الخسارة فيها لأن تلك الأسواق أغلقت في وجهها.

إضافة إلى هذه الصناعات اليدوية، فإن القطر التونسي فيه صناعات أسسها زراعية أو معدنية. وأهمها عصر الزيتون والصابون والعطور والمربيات والخمور والمآكل المحفوظة والحدادة واستخراج القوة الكهربائية. وأكثرها بيد الأوروبيين.

وفي الميدان التجاري تقدمت تونس تقدماً كبيراً في السبعين سنة الأخيرة. فقد كانت تجارتها الخارجية سنة ١٨٨١ مائتي ألف طن. أما في سنة ١٩٣٨ فقد بلغت ٤,١٢١,٠٨٣ من الأطنان. وكان ثمن هذه المواد ٢,٥١٨ مليون من الفرنكات. ومع ان الصادر كان أكثر وزناً من الوارد إلى البلاد (٧٧,٨ بالمئة صادر، ٢٢,٢ بالمئة وارد)، فإن الثمن يكاد يكون عكس ذلك، إذ إن البلاد دفعت ثمن ما استوردته ٦١,٥ بالمئة من قيمة التجارة الخارجية، وقبضت ٣٨,٥ بالمئة من قيمة التجارة الخارجية ثمناً لما صدّرته.

أما بعد الحرب العالمية الأخيرة فقد كانت قيمة التجارة الخارجية ٦٧,٥٣٥ مليوناً من الفرنكات منها أربعون ألف مليون ويزيد قيمة الواردات والباقي قيمة الصادرات.

والبلاد التي تتاجر مع تونس هي على الترتيب: فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وإيطاليا والمانيا. وحصة فرنسا في هذا الميدان هي ٧٤ بالمئة من الواردات و٤٨ بالمئة من الصادرات، (أي ٦١ بالمئة من مجموع التجارة الخارجية).

يتضح من هذا العرض الموجز لماذا كانت الحركات السياسية المختلفة تطالب، فيما تطلبه في أن يسوى بين التونسي وغيره (الأجنبي) في شراء الأرض وفي الفرص الاقتصادية الأخرى. ان التونسي يريد ان يتخلص من حالة الفقر الخانقة.

٣

المجتمع التونسي العربي حضري مستقر، إذ ان البداوة مقصورة فيه على مناطق محدودة في الجنوب. ولسكان المدن صفات خلقية عالية، نشأت من هذه التقاليد القوية ومن ان البلاد كان لها دائماً، في تاريخها الطويل، مراكز ثقافية تغذي السكان. فالقيروان أولاً، وتونس منذ أيام الحفصيين، أوجدت للتونسيين مقاييس فكرية وتقاليد ثقافية وأدباً رفيعاً.

وكان من نتائج ذلك انك تجد أهل تونس على جانب كبير من دماثة الخلق واتساع الأفق وعلى استعداد للإفادة دائماً. وإن كان فيهم حفاظ، فليس فيهم جمود، وإن كان فيهم غيرة على ما عندهم، فليس فيهم تعصب ضد الذي عند غيرهم، وإن كان فيهم هوى لتقاليدهم، فما يعميهم هذا عن الخير مما عند الآخرين. وإن كان الشوط الذي قطعوه أقصر مما كان يجب قطعه، فذلك لأن القيود التي وضعت في الطريق كانت كثيرة وقوية.

وإذا أردنا أن نتعرف إلى مظاهر التقدم الاجتماعي في تونس فنحن واجدوه في أمرين:

الأول نشوء جماعات مدنية عمالية صناعية منظمة. فاتحاد العمال التونسيين مثلاً، يدل على هذه الرغبة الأكيدة في السير نحو العمل المشترك. وفي هذه الجماعات المدينية خاصة تتجلى العناية بالتعليم والمدارس ويبدو الاهتمام باللغة العربية.

والأمر الثاني الذي يدل على نشاط اجتماعي هو تقدم المرأة التونسية إلى ميدان العمل. قد لا نستطيع أن نجد في تونس حركة نسائية شبيهة بتلك الحركات المنظمة التي عرفتها مصر وسوريا ولبنان مثلاً. لكن ثمة البرعمة التي بدأت تتفتح والتي لن تلبث أن تصبح نبتة قوية. ولقد روى لي أحد أصدقائي هناك القصة التالية قال: «قبل نحو ربع قرن نشر المرحوم الشيخ طاهر الحداد كتاباً بعنوان امرأتنا في الشريعة والمجتمع، أشار فيه إلى وجوب تعليم المرأة، وإخراجها من أسرها. فرد عليه المرحوم الشيخ ابن مراد، مفتي الديار التونسية يومئذ، بكتاب اسمه الحداد على امرأة الحداد، نعى فيه إلى الشيخ طاهر أراءه، ونقده نقداً شديداً. وقبل سنة جاء وفد من الصحفيين المصريين إلى تونس في زيارة، فكان بين من استقبلهم ورحب بهم وخطب فيهم الآنسة بشيرة بنت مراد، ابنة المفتي السابق». وفي هذه القصة دلالة على تطور وجهة النظر وتغيرها.

على أننا، ونحن ننظر بعين الأمل إلى هذه الحركات، لا نستطيع أن ننكر ان الحياة الاجتماعية، بمدلولها الحديث، لا تزال متأخرة في القطر الشقيق. والحياة الاجتماعية لا يمكن أن تسير قدماً والفقر يقف في طريقها، والجهل يحول دونها، والمرض يقعد الناس عن اللحاق بها. وهذه أمور مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً. ولذلك نجد ان أكثرية الشعب يشكو تأخراً اجتماعياً، أساسه فقره وجهله.

ورغبة في التدليل على ما يعانيه التونسي من حالة اجتماعية متأخرة، نذكر على سبيل المثال بعض الأرقام المأخوذة من دراسة للحالة الصحية والاجتماعية في القطر لتونسي، قامت بها جماعة من الباحثين.

إن السكان الأوروبيين في حاضرة تونس، لما درست حالتهم، ظهرت النتائج التالية:

٦,٧٠٠ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من مسكن واحد.

٩,٠٧٠ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من مسكنين اثنين.

٦,١٧٠ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من ثلاثة مساكن.

٢,٥٠٠ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من أربعة مساكن.

٨٣٦ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من خمسة مساكن.

٤١٥ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من ستة مساكن.

أما في المدينة، الحي العربي من حاضرة المملكة التونسية، فقد أظهر الدرس النتيجة التالية:

٩٣ أسرة ليس لها مكان تقيم فيه.

٣٥,٠٠٠ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من مسكن واحد.

٧,٦٠٠ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من مسكنين اثنين.

٣,٦١٨ أسرة تقيم كل في بيت مؤلف من ثلاثة مساكن.

وثمة أسر قليلة العدد تقيم في بيوت أكبر من ذلك. ومعنى هذا أن القسم الأكبر من السكان العرب يقيمون في بيوت أضيق بكثير مما يجوز.

أما في الريف فقد ظهر ان ١,٥٦,٠٠٠ نفس، وهم تونسيو الريف، يقطنون ٢٩٦,٠٠٠ بيت، يتكون كل منها من مسكن واحد. ومعنى هذا أن معدل ما تحويه الغرفة الواحدة هو خمسة أو ستة أشخاص.

وإضافة إلى ما مر، فثمة الأمور التالية التي ظهرت من نتيجة هذه الدراسة:

١ ـ لقد تبين، بعد درس حالة ٥٩٥ مسكناً في تونس (المدينة)، إن أربعة أخماس هذه المساكن في حالة لا تدعو إلى الارتياح من حيث النظافة.

٢ ـ وقد اتضح ان معدل عمر الإنسان، في هذه البيئة المحدودة، هو ١٨ سنة.

٣ ـ وأن ٣٢٠ شخصاً من أصل ٤٣٦٤ شخصاً (سكان هذه البيئة المحدودة) مصابون بالسل على درجاته المختلفة.

وإذا جربنا أن نتعرف إلى الأسباب التي أدت إلى ذلك، لوجدنا أن الفقر هو العامل الأول. فالرجل الذي لا يكاد يتاح له أن يحصل على قوت يومه لا يستطيع أن يسكن داراً كبيرة واسعة مريحة نظيفة. والرجل الفقير لا يمكنه أن يحسن حالته الصحية أو يعالج أسرته علاجاً تقتضيه المدنية الحاضرة. والرجل الفقير يضطر أن ينفق كل فلس يحصل عليه في سبيل الخبز، لذلك لا يمكنه إلا أن يظل جاهلاً. والفقر والمرض والجهل أعداء الإنسان. وأحسب لو ان التونسيين أتيح لهم أن يتخلصوا من هذه، لتمكنوا بما عندهم من استعداد وأصالة وإدراك للمشاكل، ان يصلوا إلى درجة تفوق الدرجة التي وصلها إخوانهم العرب في أقطار أخرى، ممن يسرت لهم الحياة ظروفاً أنسب، وأحوالاً أحسن.

ومما يتصل بالحياة الاجتماعية اتصالاً وثيقاً ويدل على الاتجاه السياسي العام، التعليم. فالحكومة، التي تسيطر على التعليم وتضع برامجه على النظام الفرنسي، يسرت في العام الدراسي ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ أماكن في المدارس لـ ١٣٤,٠٠٠ طالب (وطالبة) في الدراسة الابتدائية، (إضافة إلى ذلك فقد استقبلت المدارس الخاصة ٣٠,٠٠٠ طالب). مع أن العدد الذي كان في سن الدراسة في السنة نفسها هو ٦٠٠ الف طالب. ومعنى هذا أن واحداً من كل

أربعة أو خمسة أولاد استطاع أن يتعلم.

وهذا الرقم، على ما فيه من دلالة على الاهمال، عندما ندرسه نجد فيه مغامز أخرى، على ما يبدو من المقارنة التالية (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ـ ١٩٥١):

	في الابتدائي	في الثانوي	في الفني	في العالي
مجموع الطلاب	١٤٢,١١٥	١,٥٧٦	١,١٩٥	٧٢
الطلاب الفرنسيون	٢٥,٨٩٦	٥,١٩١	٣,٣٥١	١٤٣

فالطلاب الفرنسيون يزيدون على ٢٢ بالمئة من مجموع الطلاب في المدارس الرسمية،بينما عدد الفرنسيين في تونس كلها لا يزيد على ٥ بالئة من عدد السكان. ففي المدارس الابتدائية طالب فرنسي مقابل خمسة، وفي المدارس الثانوية طالب فرنسي مقابل طالب واحد، وفي المدارس الفنية طالب فرنسي مقابل طالبين، وفي الدراسة العليا أربعة طلاب فرنسيون مقابل ثلاثة من العرب.

على أننا يجب أن نضيف أمراً آخر الى هذا كله. ذلك أن المدارس ليست موزعة على أنحاء المملكة التونسية توزيعاً عادلاً. فبينما نجد أن مُناستير فيها من المدارس ما يكفي لنصف الأولاد الذين هم في سن الدراسة، نرى أن صفاقس وجربة وتوزر فيها من المدارس ما يكفي لربع الأولاد المماثلين سناً، أما سليمان ونابل فالمدارس فيهما لا تكفي إلا ١٢ بالمئة و١٥ بالمئة من الأولاد. لكن قفصة وحمامة فيهما من المدارس ما يكفي لنحو ٥ بالمئة فقط. وسبب هذا الفرق في توزيع المدارس يرجع إلى أن عدد المدارس يتناقص بنسبة تناقص السكان الفرنسيين في المدن والمراكز.

هذا إلى انه باستطاعة أي أسرة فرنسية، أينما كان سكنها، أن تبعث بأولادها الذين هم في سن التعليم إلى مدرسة داخلية أو إلى حيث يمكنهم ان يتعلموا ويعنى بشؤونهم. ويتم ذلك على حساب الخزينة العامة.

٤

فإذا انتقلنا من عالم الاقتصاد والاجتماع بصورته العامة، وإذا تركنا هذه المدارس التي عرضنا لها عرضاً مقتضباً، ورحنا ندرس نواحي الفكر والأدب في القطر التونسي، وجدنا شيئاً أكثر نشاطاً وحيوية. ذلك ان التونسي المتعلم، كما ذكرنا، ينعم بكثير من هذه الثقافة المتزنة التي تحدرت إليه مع العصور. وهو حريص على أن يزداد منها ومن غيرها، إذا اطمأن إلى الاخلاص فيها. ولعل خير ما نفعل هو أن نعرض إلى مقومات هذه الناحية من حياة التونسيين، ثم نحاول أن نقدرها، بالقدر الذي أتاحته لنا إقامة قصيرة، واتصال محدود تمّ لنا في صيف ١٩٥١.

«وفي مقدمة ما يستحق ان يعنى به هو هذا المعهد الأول في تلك الديار، الجامعة الزيتونية. والجامع من عمل الحفصيين، الذين أنشأوه في القرن الثالث عشر للميلاد. ومنذ

انشائه والجامع يقوم بدور الملجأ الحصين للثقافة العربية الإسلامية، ويغذيها لا في تونس وحدها ولكن في الجزائر والمغرب. وقد اعتبرت الحكومة التونسية الجامع جامعة، وتعتبر شيخه رئيساً rector، مثله في ذلك مثل رؤوساء الجامعات الفرنسية. ولكن التونسيين يفضلون لقب «الشيخ» له. وتضم هذه المؤسسة الكبيرة نحواً من أربعمائة استاذ ومدرس، وفيها بما في ذلك فروعها الكثيرة نحو ١٢,٠٠٠ تلميذ. والأبحاث التي تعلم في الجامعة تشمل كل ما يمت إلى الدين الإسلامي واللغة العربية بصلة، وقد أدخلت العلوم العصرية ولكن إلى درجة محدودة.

«والدراسة في الجامعة على ثلاث درجات: أولاها هي الأهلية، وهي دراسة ابتدائية، وثانيتها التحصيل، وهي ما يقابل الأقسام الثانوية، والثالثة هي قسم العالمية، وهو التعليم العالي، مع التخصص.

«والجامعة الزيتونية تجتاز اليوم الدور الذي اجتازته الجامعة الأزهرية قبل سنين، أي دور الاصلاح. ويشرف على الجامعة اليوم الشيخ الطاهر بن عاشور. وحياته، مد الله فيها، متصلة بالجامعة منذ نحو نصف قرن. فقد خدمها ناظراً لقسم فيها، ثم أحد نظار المعهد نفسه، ثم عضواً في هيئة كبار العلماء، ثم مديراً، ثم شيخاً مرتين. ومن هنا كانت حركة الاصلاح في الجامعة الزيتونية شديدة الارتباط به.

والبرنامج الذي يعمل لتحقيقه في سبيل الاصلاح، على ما لخصه لنا فضيلته، يمكن إجماله في أمور ثلاثة: (١) إدخال العلوم العصرية، بحيث يستطيع الزيتوني مجاراة الآراء الحديثة مع التعمق في دراسته الخاصة. (٢) تغيير في أساليب التدريس، بحيث يطبع بالبحث والتقصي بدل الطريقة التقليدية في الحفظ والتعليق. (٣) توسيع دائرة التخصص بحيث يمكن الحصول على علماء واسعي الاطلاع عميقي المعرفة سليمي التفكير، يمكن لهم أن ينفخوا في الحياة العقلية في تونس الروح القوي، ويقووها بالرأي السديد.

«على ان الاصلاح في معهد كهذا ليس قضية يمكن أن تحل بين عشية وضحاها. ذلك ان بعضاً من الزيتونيين لا يقرون الشيخ على كثير من وجهات نظره. فهم يرون ان ليس في الامكان ابدع مما كان، خشية على «الزيتونة» ان تفقد طابعها، فتفشل في مهمتها، وتقعد عن اداء رسالتها. وثمة فريق آخر من أهل تونس يرون ان لا ينفرد الزيتونيون بإصلاح الجامعة. فهم يرون أن هذا البيت المصمد في الحياة الفكرية يجب أن يشترك في إصلاحه الفئة المختارة من رجال الفكر في تونس، حتى ولو كانوا ممن تعلم خارج جُدُره. وإلى هنا يستطيع الواحد ان يفهم وجهات النظر. لكن الذي يعقد القضية هو انها أصبحت مسألة سياسية أيضاً. وتدخل السياسة، خصوصاً السياسة المصلحية، يعوق الأمور. ولكن لنا ملء الثقة بأن هذا المعهد سيتم له الخير، ليتسنى له ان يقدم الخير لأولئك الذين يقضون فيه سني شبابهم رغبة منهم في إعداد أنفسهم لخدمة بلادهم».

ومما يتصل بالجامعة الزيتونية المدرسة الخلدونية، التي أنشئت في أوائل القرن

الحالي، إثر زيارة الشيخ محمد عبده لتونس (١٩٠٥). وهي مدرسة ثانوية، تدرس العلوم العصرية إضافة إلى العلوم الدينية، وتكون، على وجه التدقيق، مدرسة ثانوية تغذي الجامعة الزيتونية بطراز خاص من الطلاب. وتشرف الجمعية الخلدونية على المدرسة، التي يرئسها الشيخ الفاضل ابن عاشور أحد أساتذة الزيتونية وابن شيخها.

وثمة الصادقية، وهي كلية يرجع تاريخها إلى أيام الصادق باي، أنشأها قبيل الاحتلال الفرنسي بسنوات (١٨٧٦)، ليتم فيها تعلم اللغات الأوروبية والعلوم الحديثة، والصادق باي في طليعة الذين عملوا في سبيل النهضة الحديثة في تونس. تلك النهضة التي خنقها الاحتلال الفرنسي وهي بعد في المهد.

والكلية الصادقية هي اليوم تحت إشراف الحكومة، التي تنفق عليها، وتشرف على التعليم فيها. والصادقية يسرت للكثيرين في تونس ثقافة عصرية باللغة العربية، فكانت، ولا تزال، عاملاً فعالاً في سبيل توضيح الثقافة الغربية، للتونسيين. وقد قال لي أحد الشباب التونسي المثقف: «خريجو الصادقية يجيدون العربية، ولهم من معرفتهم بالفكر الغربي ما يمكنهم من نقل آثار الغرب إلينا، هذا النقل الذي نحن بأشد الحاجة إليه».

وليس في تونس جامعة رسمية، على غرار ما في الجزائر. ولكن «معهد الدراسات العليا» في تونس، هو نواة هذه الجامعة على ما وصفه سكرتيره الإداري. والمعهد، فضلاً عن انه ييسر للتونسيين والفرنسيين الدراسة العليا في القانون والآداب والتاريخ والعلوم، فإن أساتذته معنيون بالبحث والتنقيب، خصوصاً في الشؤون التونسية. وقد بدأ المعهد عمله بإعداد موظفين للدولة، لكنه آخذ في التخلص من هذه الصفة الضيقة.

وما دمنا بسبيل التحدث عن دراسة القضايا التونسية، نشير إلى «معهد الآداب العربية» الذي أنشأه «الآباء البيض» في تونس، والذي ينشر نتيجة دراساته وأبحاثه في مجلته المسماة «إبلا». (IBLA)، وهذا مقصور بطبيعة الحال، على أولئك الذين يجيدون الفرنسية.

«هذه هي المعاهد والمراكز. فإذا انتقلنا من ذلك إلى الوسائل العامة لتثقيف القراء، وجدناها قليلة بالنسبة إلى هذه الجماعات الكبيرة في الديار التونسية.

ففي تونس ثلاث صحف يومية هي الصباح والنهضة والزهرة، الأولى صباحية والأخيرتان مسائيتان. وهذه الصحف سياسية إخبارية في الدرجة الأولى، ولكنها تفسح في المجال، متى اتسع، لقضايا الفكر والأدب. والنهضة تخص الأدب بصفحة كل يوم ثلاثاء، ومع ان هذه الصحف تجعل القارىء التونسي على اتصال بالعالم وأخباره، فإنها لا تتمكن من نقل الكثير من ثمار الفكر، في العلم والأدب إليه. فمن الجهة الواحدة حجمها صغير، ومن الجهة الثانية وسائلها محدودة. ولعلنا ما كنا نحمل الجرائد اليومية مسؤولية نقل نتاج القرائح إلى القراء، لولا ان تونس لا توجد فيها مجلات عربية تغذي هذه الناحية.

وفي تونس صحف أسبوعية، أكبر من الصحف اليومية حجماً في بعض الأحيان مثل «الأسبوع»، وأصغر الاسبوعيات «الطليعة»، الجريدة الرسمية للحزب الشيوعي التونسي،

و«الكفاح» و«الإرادة». وهذه الاسبوعيات لا تستطيع ان تتصرف إلى البحث الجدي أو الموضوع فتشبعه، إلا أن يكون ذلك بين حين وآخر.

و«الرائد التونسي» هو اليوم الجريدة الرسمية للحكومة، مع أنه من قبل كان يحتوي، فضلاً عن الأنظمة والقوانين والأوامر الرسمية، صفحات أدبية تعنى بالتاريخ والأدب عناية لا يستهان بها.

٥

هذه لمحة إلى الحياة التونسية في مناحيها وميادينها. ولعله يجدر بنا أن نقف الآن وقفة قصيرة محاولين ان نتعرف إلى اتجاهات الحركة الفكرية في القطر التونسي.

وقد لا يضيرنا ان نعيد هنا ما قلناه من قبل من ان تونس تتمتع بحياة حضرية مستقرة، وهذا الاستقرار، مع وجود معاهد العلم في العصور العربية المختلفة، يسر للتونسيين أن تكون حياتهم لها أسس ثقافية فكرية، أصبحت جزءاً من تقاليدهم، وبذلك كان سهلاً عليهم أن يتلقوا العلم ويوسعوا آفاقهم الفكرية. فماذا كان موقفهم من هذه الحضارة الغربية التي غزت بلادهم؟

اتصلت تونس بالحضارة الغربية منذ مدة. ولكن اقتباس بعض هذه الحضارة بدأ رسمياً في عهد أحمد باي الأول الذي ارتقى العرش سنة ١٨٣٧. فقد زار باريس، فأعجب بما رآه، فلما عاد اهتم بالجيش يقويه ويجدده، وأنشأ الأكاديمية العسكرية، واستقدم لها الخبراء الأوروبيين، وبنى دوراً لصناعة السفن. وهذا العمل يشبه، إلى حد ما، العمل الذي قام به محمد علي باشا في مصر والسلطان محمود الثاني في تركيا. وفي سنة ١٨٥٨ نشر محمد باي، خليفة أحمد باي «عهد الأمان» الذي حدد فيه حقوقه كحاكم وحقوق شعبه. وفي سنة ١٨٦١ أعاد الصادق باي نشر هذا العهد، بعد أن أضاف إليه أموراً جديدة، بحيث أصبح دستوراً للبلاد. ونفذ الصادق باي بعض هذه الاصلاحات فأسس مجلساً تشريعياً من ستين عضواً، واعتبر نفسه مسؤولاً أمام المجلس. كما انه أعطاه حق خلع الباي إذا ظهر في أعماله وتصرفاته ما يغاير الدستور، وقرر الباي فصل السلطات. واهتم كذلك بالحياة الاجتماعية، وأنشأ المدرسة الصادقية لتدريس العلوم الحديثة واللغات الأوروبية، وهي التي لا تزال قائمة في تونس. وأرسل نفراً من الشباب التونسي في بعثات علمية إلى فرنسا وإيطاليا. وقد ظهرت في عهده أول صحيفة عربية في تونس هي الرائد التونسي.

وهكذا، فإن القطر التونسي كان قد أخذ بأصول الاصلاح لما داهمته فرنسا واحتلته في سنة ١٨٨١ وكان من نتيجة ذلك أمران: الأول، ان هذا التيار، الذي كان بعد في بدء تكونه، توقف. والثاني، ان التونسيين نفروا من هذه الحضارة الغربية وخشوها. نفروا منها لاتصالها بفرنسا وبأساليب فرنسا. وخشوها لأنهم اعتبروها أداة في أيدي السياسة الفرنسية. ولا يزال في نفوس التونسيين، أو بعضهم على الأقل، نفور وخشية من هذه الحضارة.

إن الشباب التونسي يتطلع إلى حياة أفضل، والجماعة المثقفة في القطر العزيز تعمل

في سبيل ذلك جاهدة، والمصلحون يتطلعون إلى كل مكان يحاولون اقتباس خير وسائل التقدم والإصلاح. والثقافة التونسية، تتسم بطابع عربي إسلامي، وقبلتها دوماً في المشرق. فالخطوات الأولى في حركات الاصلاح كانت شبيهة بالخطوات التي سارت عليها مصر والشام، وإصلاح الجامعة الزيتونية يتأسى فيه دعاته الجامعة الأزهرية. لكن هذا الشباب الواعي يدرك أيضاً ان في الغرب خيراً حرياً بأن يفهم ويؤخذ. إلا ان الظروف التي يعيش فيها اخواننا هناك تحملهم على صرف الجهد الأكبر في الميدان السياسي، لمقارعة السياسة الفرنسية. وهم في هذا المجال قد قطعوا شوطاً كبيراً في تفهم القيم العامة الخيرة في الحياة السياسية الغربية. لذلك نرى أن مطالبتهم بالحرية والحياة الدستورية والاصلاح الداخلي تقوم على فهم عميق لمعاني هذه الأمور، وإدراك تام لملابساتها وأسسها الاقتصادية والفكرية، بالنسبة إلى الفرد والجماعة التي يتكلمون باسمها. انهم يدركون مشاكلهم، ويفقهون حلولها، ويعرفون كيف يوضحونها. ولسنا ندعي ان الجميع في ذلك سواء، ولكنني أقصد هذه الجماعة المستنيرة، التي قبلها الكثيرون مرشدة.

وبسبب هذا الانصراف الكبير إلى الحقل السياسي منيت النواحي الأخرى من الحياة الفكرية العامة ببعض الخسارة. فالثقافة الغربية لم يتيسر لها بعد أن تتغلغل في العقول، وتتسرب إلى النفوس، فتكسبها قوة جديدة، وتمنحها نشاطاً. إن المحاولة لا تزال في دورها الأول.

ونحن إذا عرضنا للأمر، فإننا لا ندعي الاحاطة بالقضية. ذلك ان إقامتنا بتونس كانت قصيرة، فلم نتمكن من النفوذ إلى اللباب تماماً، لكننا لم نقف عند حد القشور. لذلك فإننا نسمح لأنفسنا بإبداء هذه الملاحظات، آملين ان تتاح لنا الفرصة لدراسة هذه المسائل درساً أدق.

وأولى هذه الملاحظات هي أن الفكر الغربي ـ بعلمه وفلسفته وروحه ـ لم يصل بعد الا إلى قلة من الناس، هم الذين يعرفون الفرنسية معرفة تمكنهم من متابعة هذه التطورات المهمة في تلك الميادين. ذلك ان التعليم الثانوي والعالي، على قلته، سبيله إلى الناس اللغة الفرنسية والكتب التي تعالج هذه الأمور، مما يحصل عليه المرء في تونس، مكتوبة بهذه اللغة.

ويتبع ذلك، وهذه هي الملاحظة الثانية، هو ان أولئك الذين يطلعون على هذه النواحي الفكرية ينتقلون بتفكيرهم إلى اللغة الفرنسية، بدل ان ينقلوا تلك الأفكار إلى لغتهم العربية. فتظل أفكارهم الجديدة ملكاً خاصاً بهم لا يفيد منها اخوانهم بالعدوى المستمرة.

والملاحظة الثالثة هي أن أولئك الذين يجيدون العربية ويحسنون التعبير بها والكتابة فيها هم ممن تثقف في المعاهد التقليدية، وحذق الثقافة العربية والإسلامية، وأتقن مفاهيمها، لكنه لم يأخذ بحظ من هذه الآراء الجديدة، ليتكون له تزاوج واتساق بين الخير من مجالي التفكير في الثقافتين. فنحن نرى مثلاً ان الإنتاج الأدبي ـ الشعر منه والنثر ـ الذي ظهر في تونس في القرن العشرين فيه جزالة في اللغة، ومتانة في الأسلوب، وقوة في العبارة،

وأناقة في الصياغة، لكنه في غير الوطنيات، لا يعدو كونه تردادا لآراء عرفناها، وأمور خبرناها سنوات وأجيالاً.

والأمر الرابع الذي نريد أن نقرره هنا هو ان الفكر في تونس (ولا ندخل الأوروبيين في حسابنا) له عالمان: عالم عربي وعالم غربي. سبيل الاول اللغة العربية، وسبيل الثاني اللغة الفرنسية. وهذا الانقسام في اللغة يقوي التباعد الفكري، وتونس بحاجة إلى التقريب في هذه الناحية.

والذي يحدث في تونس الآن، على ما اتضح لنا من التحدث في هذه المسألة مع عدد من الأصدقاء، هو ان ثمة محاولة لنقل آثار الفكر الغربي إلى القارىء العربي. ويرى هؤلاء الاخوان ان المدرسة الصادقية هي التي تهيىء السبيل لمثل هذا العمل. فخريجوها يعرفون العربية، ولهم اطلاع على الثقافة الفرنسية، ولذلك يمكنهم أن يقوموا بذلك. وقد أكد هؤلاء الأصدقاء ان الأمر لا يعدو كونه بداءة متواضعة، وأثره بعد محدود ضيق.

على ان الذي نود أن نشير إليه هو أن مثل هذا الأمر ـ نقل الفكر الغربي إلى القارىء العربي ـ عمل لا يقوم على أكتاف معهد واحد، وخصوصاً إذا كان هذا المعهد لا يتجاوز الدرجة الثانوية إلا قليلاً. هذا عمل يقوم به جمع من الناس تيسر له إتقان لغته، والعبّ من مناهل الفكر الأوروبي عباً ينقع الغلة، بحيث يفيض طبيعة لا تكلفاً، ويخرج أصلاً لا تصنعاً. وعندها تكون الصادقية وما إليها من المعاهد تعد القارىء لهذا الفكر، والمستمتع بهذا النتاج، والواعي لهذا الأثر، ويكون الانتفاع به على مستوى رفيع، وصعيد عال.

ونحسب ان هذا لن يتم إلا إذا أصبحت العلوم والفلسفة تدرّس بالعربية في المدارس الثانوية والمعاهد العليا، بحيث تتكون عند الناس فكرة واضحة سداها الفكر ولحمتها اللغة، تمكنهم من قبول الآراء أولاً لأنفسهم، حتى إذا اتسعت أمامهم آفاق الفكر عن طريق التعلم العالي في معاهد أوروبا، عادوا إلى بلادهم فأعطوا للفكر غذاء دسماً فيه قوة ونشاط، ولقحوا هذه الثقافة العربية بالجيد مما عند أولئك الذين سبقونا في ميدان العلم التجريبي والنظري والفكر الفلسفي، فخرج لنا من ذلك جماعة تنظر إلى الحياة نظرة عميقة فتفسرها وتشرحها وتحللها لتقوم ما أعوج من أمورها، وتصحح ما اختل من أوضاعها، وتنظم ما اضطرب من مسالكها.

وإلى هذا كله حري بإخواننا التونسيين ان ينزعوا من نفوسهم ـ إن كان ثمة شيء من هذا على ما نعتقد ـ هذا النفور من حضارة الغرب، وهذه الخشية من ثقافة أوروبا. فالعالم العربي ـ شرقه وغربه ـ بحاجة إلى أن يقوي نفسه في جميع نواحي حياته حتى يتمكن من الكفاح، في جميع الميادين، ضد الغرب الطامع. فلا تجوز الحرب دون إعداد الوسائل، ولا يمكن الكفاح بلا سلاح.

القسم الاول
في ربوع المغرب العربي

١ـ المدينة في الإسلام : وظيفتها وخصائصها

ما أكثر ما مصر العرب والمسلمون من الأمصار، وأنشأوا من المدن، وعمروا من القديم منها فجددوا شبابها وأعادوا إليها رونقها وزيادة. فالدولة العربية الإسلامية التي امتد نفوذها من أواسط آسية إلى جبال (البرانيس) البرانية، والتي دامت سيطرتها، موحدة أو مقسمة، قروناً طويلة كان لا بد لها من أن تقوم في ظلالها مدن كثيرة.

وكل مدينة أقيمت كانت لها وظيفة أساسية: فهي إما أن تكون مركزاً للجيش، خصوصاً في أيام الفتوح، يريح فيها ويستعد، وتجمع له فيها أقواته ومؤنه مثل القيروان والبصرة والكوفة، وإما أن تكون مركزاً للملك أو الإدارة، وإما عاصمة لملك عريض كدمشق وبغداد، وإما مركزاً لإدارة محلية كتونس وقرطبة وغيرهما. وكل مدينة، وخصوصاً تلك التي كانت تقوم على حدود العالم الإسلامي، كان عليها أن تقوم بالدفاع عن الإسلام. وقد يفرض عليها موقعها أن تقوم بنشر الإسلام في الجوار.

لكن، إضافة إلى هذه الوظائف الأساسية الأصلية، كانت ثمة لبعض المدن وظائف خاصة ودور يميزها عن غيرها. والذي فرض على مدينة معينة أن تقوم بدور معين بالذات، هو واقعها التاريخي بالنسبة إلى تاريخ العروبة والإسلام في وقت ما. فنحن إذا أخذنا دمشق، مثلاً، وجدنا أنها واحدة من المدن التي كانت قائمة قبل ظهور العرب على مسرح التاريخ بقرون طويلة. ومنذ أن تولى معاوية الخلافة أصبحت عاصمة لهذا الملك العريض. فهل قيض واقع دمشق التاريخي لها أن تقوم بدور خاص؟

لنذكر أنه لم يكد يمضي قرن على انتقال الرسول الكريم (ص) إلى الملأ الأعلى، حتى كان العرب المسلمون قد ضموا إليهم بلاداً منوعة في جغرافيتها متباينة في خلفياتها التاريخية، متعددة التجارب الحضارية والإدارية. ولم يكن للعرب بعد كبير تجربة في شؤون الإدارة، ومن ثم فقد كان التحدي الأول الذي جابههم هو تنظيم هذا الملك الواسع. والأمويون هم الذين بدأوا بالاستجابة لهذه المجابهة. فقد كان لهم، بطبيعة الحال، من هدى القرآن الكريم والحديث الشريف ما يدلهم على المبادىء السامية التي لا يمكن أن يضلوا سواء السبيل إن هم اتبعوها. أما فيما يتعلق بالتفاصيل الإدارية البيروقراطية التنظيمية، فقد أخذوا ما عرف في البلاد التي حكموها من قبل، على أن لا يخالف ذلك أصلاً من أصول الإسلام. ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً. لقد احتفظ الأمويون بالسجلات والقيود في كل من العراق وإيران وبلاد الشام ومصر باللغة التي كانت شائعة قبل الفتح وهي الفارسية واليونانية والقبطية، إذ لم يكن عندهم العدد الكافي من الكتّاب لتوثيق هذه القيود بالعربية. فلما كان زمن عبد الملك وابنه الوليد تغير الوضع. فقد وجد عندها من يستطيع أن يقوم بالعمل باللغة

العربية فنقلت الدواوين جميعها إلى تلك اللغة. وتعريب الإدارة هذا عمل جليل، له في مستقبل الدولة العربية الإسلامية شأن مهم. يضاف إلى ذلك أن هذه الفترة شهدت أيضاً سك الدينار والدرهم عربياً، لا من حيث النقش الذي عليه، ولكن من حيث وزن الدينار ذهباً. ومعنى هذا أن عصر عبد الملك وأبنائه كان بدءاً لخلق نظرة مالية خاصة بهذه الدولة الجديدة. فدور دمشق الخاص كان تنظيم الحياة الإدارية والمالية في الدولة.

لكن بغداد كانت، كما نعرف، إنشاءً عباسياً. كانت تمثل حكماً جديداً وأسرة جديدة. ولم تلبث أن أصبحت، كما يقول عنها اليعقوبي، سرة الدنيا. فأديرت منها بلاد الخلافة، وانصبت إليها الثروة، وصارت مركزالفكر والعلم. ولكن ما هو دورها الخاص؟

إن بغداد عرّبت الفكر المعروف إلى يومها بأن نقلت التراث الهندي والفارسي والسرياني واليوناني إلى اللغة العربية، ثم أخذت نفسها بخلق الحضارة العربية الإسلامية في الوقت ذاته. إلا أن هذا الخلق نفسه له وظيفة خاصة: ذلك بأن الثقافات التي لقيتها بغداد وقابلتها كانت ثقافات حية نشيطة في مجالات الفكر والفلسفة والجدل. ومن ثم كان على بغداد أن تفكر وتتفلسف وتجادل. فقامت بهذا العمل على شكل متين. يضاف إلى ذلك أن الخلافة العباسية كانت تعنى عناية خاصة بتمتين موقفها على قواعد الإسلام، فكان أن قامت بغداد بقسط وافر من الاهتمام بالفقه والشريعة.

قد يبدو للقرّاء أن النقلة من بغداد إلى مراكش نقلة غير طبيعية على الخصوص، وهي نقلة في الزمن أيضاً. لكنني أنظر إلى قضية المدينة في الإسلام لا من حيث تطورها الزمني، ولكن من حيث الوظيفة الخاصة التي كانت تقوم بها مدينة ما، ومراكش مدينة المرابطين والموحدين، أي أنها من نتاج القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين مع استمرار في القرن التالي. وهذه المدينة الواقعة في جنوب المغرب، عندما ننظر إلى دورها التاريخي نجد أنها كانت معقل الإسلام وعاصمته في رقعته الجنوبية ـ الغربية، وكانت نقطة الانطلاق لتوضيح الإسلام وتفسيره بشكل صحيح لأهل تلك الجهات. وقد كان لمراكش دور آخر. ففي الوقت الذي كانت مراكش تعد فيه نفسها لدورها الكبير، كانت الأندلس تتعرض لخسارة كبيرة في بلادها وامتدادها. ولذلك قامت مراكش، مرابطية وموحدية، بتقديم الحماية اللازمة، فاجتاز أولو الحكم فيها إلى الأندلس مرات عديدة.

وكانت مراكش تشعر بأنها عظيمة بالإسلام، وكان ملوكها يشعرون بذلك. لذلك، فإنهم بنوا المدينة ومؤسساتها على شكل يدل على هذه العظمة. فجامع الكتبية في مراكش له صومعة ضخمة يبلغ ارتفاعها قرابة مائة متر. ولنذكر على سبيل المثال أن محاولة أخرى لم تتم كانت قد قامت في الرباط لبناء جامع كان مقدراً له أن يكون أوسع وأكبر جامع في الإسلام.

وإذا انتقلنا من مراكش إلى قرطبة في الأندلس، وجدنا أنفسنا أمام مدينة عاصرت بغداد زمناً، إذ إنهما ترجعان إلى القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة/ الثامن والتاسع

والعاشر للميلاد، وشابهتها من حيث أنها كانت نقطة اجتماع لعناصر مختلفة من الشعوب والثقافات. لكن الثقافة الاسبانية التي لقيها العرب في قرطبة والأندلس لم تكن شيئاً مقابل ما لقيه العرب في المشرق. لذلك لم يكن في قرطبة غليان فكري وتصارع ثقافي. وإنما كان فيها قبول لما ينتج في الشرق وامتصاص لعادات اجتماعية كانت هناك. لكن وظيفة قرطبة، وغيرها من مدن الأندلس مثل طليطلة، كانت طريقاً انطلق عبره الفكر العربي الإسلامي والفلسفة الإسلامية والعلوم المختلفة من ديار العرب والإسلام إلى أوروبا. فقرطبة كانت مدينة عربية إسلامية على الحدود تعطي للراغبين في الزاد الفكري مؤونة للطريق وما بعد الطريق.

في الإسلام مدينتان لهما منزلة خاصة في نفوس الناس: القاهرة في المشرق وفاس في المغرب، والقاهرة، بقطع النظر عن الأماكن التي سبقتها في جوارها مثل الفسطاط والقطائع والعسكر، هي إنشاء فاطمي. وقد أقيمت لتمثل دولة جديدة وفلسفة خاصة. أنشئت في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد وآلت إلى أن تصبح دار علم ودار دعوة متمثلة بالأزهر الشريف وغيره من مؤسسات الدرس والتعليم. ومع أن هذا الدور الحضاري للقاهرة كان مهماً، فالواقع التاريخي للقاهرة حفظ لها دوراً أهم في القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر للميلاد. كان هذا في أيام المماليك، وكانت القاهرة عاصمة سلطنة تشمل مصر وبعض ليبيا والديار الحجازية وبلاد الشام. وكانت دولة غنية بسبب سيطرتها على طريقي التجارة الرئيسيين في المنطقة: طريق البحر الأحمر وطريق الخليج العربي. فالدور الذي قامت به القاهرة عسكرياً هو أنها أخرجت الصليبيين من ديار الشام نهائياً وأوقفت الزحف المغولي، لكن دورها الثقافي كان أهم من ذلك. في هذه القرون أصبحت القاهرة مستودع العلوم الإسلامية والثقافة والفكر الإسلاميين. كانت بغداد قد اجتاحها المغول ودمروها. ولم يبق للفكر والعلم ملجأ سوى دمشق والقاهرة في المشرق. والقاهرة التي لخصت الحضارة الإسلامية، خلصتها مما قد يعلق بها من أمور خارجية.

إلى هذا كله يضاف شيء آخر. كان المماليك مغرمين بالبناء، وقد زينوا القاهرة بالمساجد الصغيرة والكبيرة والمدارس والزوايا والقباب، بحيث أن المدينة أصبحت متحفاً حياً للفنون الإسلامية عمارة ونقشاً وزخرفاً. وقد أتيح لي أن أزور ثلاثة وثمانين مسجداً من مساجد القاهرة، كان أكثرها من أيام المماليك، وكان أكثر هذه جميلاً جداً.

ومثل الدور الذي قامت به القاهرة في المشرق تعهدته فاس في المغرب في أيام بني مرين أي في القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. كانت مدن الأندلس تتساقط الواحدة بعد الأخرى، وكانت دولة الموحدين قد زالت. وجعل المرينيون فاس عاصمة سياسية لدولتهم، فضمت العلم إلى النفوذ. فلجأ إلى جامع القرويين فيها أهل العلم والمعرفة، فاختزنت فاس العلم واحتضنته وحافظت عليه ونقلته، بحيث أنها كانت ضمير الإسلام المتعلم في المغرب الإسلامي. وهكذا فقد كان في طرفي العالم العربي مستودعان

امينان للمعرفة الإسلامية.

أنشأ عقبة بن نافع القيروان في تونس مراحاً لجيوشه ومستودعاً للمؤن والذخائر ونقطة انطلاق للأعمال العسكرية والحربية والفتوح. ولم تلبث أن أصبحت مركزاً للعلم أيضاً، حتى كان يقال في المغرب في مدح العالم انه يجمع علم القيروان إلى علم الأندلس. لكن القيروان عصفت بها الحملة الهلالية في القرن الخامس للهجرة، فدالت دولتها. وكانت تونس، خليفة قرطاجة القديمة، قد أصبحت عاصمة المنطقة ودار صناعة ومركز اسطول. وكان جامع الزيتونة قد أخذ يجذب إليه أهل العلم، شيوخاً وطلاباً.

وفي أيام بني حفص، أي في القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر للميلاد، قامت تونس بدور حضاري خاص. فهي يسرت للكثيرين منتجعاً للعلم وملجأ لمهاجرة الأندلس. فكان فيها المشتغلون بالموسوعات كالتيفاشي والقرطاجني، ورجال العلم الرياضي كالسقلادي والأطباء كأسرة الصقلي، والنباتيون كابن البيطار.

والدور الذي قامت به القيروان أولاً وتونس ثانياً، هو أنهما كانتا محطتين كبيرتين على طريق العلم. القيروان محطة على الطريق الشرقي ـ الغربي، وتونس محطة على طريق انتقال الطب والعلوم الأخرى إلى أوروبا.

وما دمنا بصدد التحدث عن المدن المحطات، فلنذكر بلرمو في صقلية. لنترك تاريخ بلرمو القديم جانباً، ولنذكر أن العرب احتلوا صقلية في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، ودخلت حضارة الإسلام منهم إليها. وفي القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، انتزع النورمان صقلية من العرب. ولكنهم تركوا للسكان، وهم يونان مع حضارة يونانية وعرب مع حضارتهم الإسلامية، حرية العمل والتقدم. وفي أيام روجار الصقلي وضع الشريف الإدريسي في بلرمو كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وصنع صورة الأرض ورسم خرط العالم. واستمرت الحضارة العربية الإسلامية في بلرمو مدة طويلة. وكانت بلرمو محطة بين تونس وإيطاليا. فعن طريقها نقل قسطنطين الإفريقي طب ابن سينا من تونس إلى سالرنو في القرن الخامس للجهرة/ الحادي عشر للميلاد. ومن صقلية انتقل الفن العربي إلى أوروبا كما نقلت صناعة السكر والقطن والكاغد أي الورق، بعد أن كان انتقال الكاغد قد بدأ من قرطبة.

هذه مدن ثمان، جميعها في العالم العربي، كانت لكل منها، إضافة إلى وظيفتها الأساسية، وظيفة خاصة ودور معين في تطوير الحضارة الإسلامية، إما نقلاً أو خلقاً أو مزجاً أو حفظاً أو عطاءً. وبسبب الدور الذي فرضه الواقع التاريخي تميزت كل بخصائص: إما علماً أو فناً أو أدباً أو صناعة.

ودراسة هذه المدن وغيرها هي دراسة لجماع الحضارة الإسلامية.

٢ـ مرّاكش

١

زرت مدينة مراكش مرات عديدة، ودخلتها من جهاتها الأربع. أطللت عليها أول مرة من الشمال وكانت الشمس قد توارت خلف الأفق، لكن نور القمر، وكان يومها بدراً، خلع على المدينة، وعلى غابات النخيل التي تحيط بها، روعة لا تنسى. وجئتها من الشرق في يوم قاظ وسطه حتى لقد خُيّل إلى أن الحر فيها لن يطاق، ولكن ما إن دخلنا غابتها ووصلناها حتى طابت لنا فيها الساعات. وألقيت عليها نظرة من الجنوب، من جبال الأطلس الجنوبية، فكان منظرها ساحراً. وجلست يوماً على سطح مقهى النهضة، وكانت الشمس تجمع آخر خيوطها الذهبية، فتجلت لي مراكش ـ تربة حمراء، تغطيها مئات الآلاف من أشجار النخيل الخضراء، وأبنية حديثة لجدُرها لون مثل لون التربة ـ ويتلو ذلك المدينة القديمة يدور بها السور الذي لا يفارقها. فكان أن مددت إقامتي بها يومين إضافيين.

ركبت عربة دارت بي حول سور المدينة، من باب الراحة في الغرب مروراً بباب دكالة، ثم بموضع باب فاس في الشمال، ثم باب الخميس وباب الدباغ، وهو من آثار الموحدين، وباب أغمات (وهذه جميعها في الشرق)، ثم دخل بي الحوذي عبر أزقة ضيقة نظيفة، حتى عاد بي، عن طريق باب الرُّب وباب أغنو الغني بزخرفه ونقوشه، وباب المخزن إلى باب الراحة. وقد كانت هذه الدورة من أمتع الزيارات التي عرفتها في زيارة مدينة من مدن المغرب العربي. والسور الذي درت حوله مزيج، تاريخياً، من عهود مختلفة تمتد من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، إلى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.

والأثر الذي تتركه مراكش في نفس الزائر الذي يحاول أن يفهم روح المدينة عبر تاريخها هو أنها قامت عاصمة لدولة إسلامية ارادت، قبل كل شيء، أن تُعلي كلمة الإسلام في تلك البقاع ـ في جنوب المغرب الأقصى ـ هي دولة المرابطين. وجاءت بعدها دولة الموحدين لتزيد في قيمة المدينة رفعة، فجعلت منها لا عاصمة لدولة شملت المغربين الأقصى والأوسط وافريقيا (تونس) وطرابلس فحسب، بل جزءاً كبيراً من اسبانيا أيضاً. وكانت مراكش تدل على ذلك بشكل لا يقبل الشك أبداً. فكل ما بني يومها كان ضخماً قوياً عظيماً واسعاً فخماً جميلاً أنيقاً بسيطاً، يتفق مع الروح التي كانت وراء قيام هاتين الدولتين.

٢

وليسمح لي القارىء بأن أضع بين يديه لمحة تاريخية مختصرة عن هاتين الدولتين، اللتين سيرتا قدر الغرب الإسلامي مدة قرنين من الزمان ويزيد قليلاً (٤٤٨ ــ ٦٦٧هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٢٦٩م).

الدولة الأولى، وهي دولة المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م)، صنهاجيّة من جنوب المغرب، قامت على أساس التعاليم الإسلامية التي دعا إليها ابن ياسين في رباطه (ومن هنا جاءت التسمية) في جزيرة في نهر السنغال. واتخذ المرابطون الأُوَل، وأول من كان له منهم سلطان هو أبو بكر، أَغمات مستقراً لهم. إلا أن ابي بكر نفسه كان يدرك ان السبيل الوحيد للسيطرة على جنوب المغرب الاقصى أولاً، وللانطلاق إلى الشمال ثانياً، هو أن تتجمع جنوده عند أقدام الأطلس الجنوبية، فتكون هذه له متكأً وملجأً، ويكون السهل إلى الساحل (غرباً في شمال) تحت عيونهم، والطريق الجبلي (شرقاً في شمال) إلى فاس على مسمع منهم. فاتخذ أبو بكر من مراكش معسكراً، ولعله كان يحسبه موقتاً.

فلما استفحل أمر يوسف بن تاشُفين (٤٥٣ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٦١ ـ ١١٠٦م)، ورسخت قدمه في الملك، سمت همته إلى بناء مدينة في موضع المعسكر. فبنى هناك مسجداً جامعاً ومكاناً لسكنه وقبة لاختزان المال والسلاح، وهي المعروفة إلى اليوم بسور الحجر. واستقر الناس في نواحي المنطقة. ويوسف هذا هو الذي أتم فتح المغرب وغرب الجزائر، ثم لبى نداء العرب في اسبانيا، فعبر البحر وقاتل الإسبان في معركة الزّلاقة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) وانتصر عليهم.

وولي الأمر بعد يوسف ابنه علي (٥٠٠ ـ ٥٣٧هـ/ ١١٠٦ ـ ١١٤٢م)، الذي ورث أمبراطورية واسعة موطدة الأركان. فأراد لعاصمته أن تجاري الامبراطورية مكانة. فكان أن بنى فيها مسجداً جامعاً كبيراً، وأدار بها سوراً بلغ طوله بضعة كيلومترات، وأقام قصراً منيعاً لسكناه مع حاشيته ورجال الحكم والإدارة.

والجامع الذي بناه ابن يوسف كانت مساحته مائة وعشرين متراً في ثمانين متراً، على ما تبين من أعمال الحفر والتنقيب عنه. وكان زخرفه جميلاً ومنبره من أجمل ما عرف في المغرب، وموضأته من الرخام.

خلف الموحدون المرابطين في المغرب (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)، لما أنشأ ابن تومرت الدولة الجديدة. ويهمنا من أهل السلطان أربعة هم:

عبد المؤمن: (٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٦٣م).

أبو يعقوب يوسف: (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٨٤م).

المنصور (أبو يوسف يعقوب): (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ/ ١١٨٤ ـ ١١٩٩م).

محمد الناصر: (٥٩٥ ـ ٦١١هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٤م).

(وقد انتهى أمر دولة الموحدين ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م).

كان عبد المؤمن مؤسس الدولة الفعلي، وهو أول من تلقب أمير المؤمنين في المغرب، فعمل، إضافة إلى الفتوح الواسعة التي أوصلت جيوشه شرق طرابلس وجنوب اسبانيا، على تنظيم الدولة تنظيماً متقناً من حيث الإدارة والجيش والتعليم وما إلى ذلك. وقد قام بتزيين مراكش وتوسيعها، ثم خلفه ابنه يوسف الذي بنى جامع الكتبية. وفي أيام خليفته الملقب بالمنصور، وسَّعت مراكش بحيث أصبحت دورة سورها تسعة كيلومترات. وكانت قصور

السلاطين وجامع القصبة وزيتون المنارة والمشوَر والمدارس والبيمارستان معالمها الرئيسة. ولكن من المؤسف أن الكثير من هذه المعالم قد درس، ولم يبق إلا القليل من آثارها.

ازدحمت المدينة بالسكان في عصر الموحدين، بحيث أن عدد سكانها قُدِّر بنحو نصف مليون، وكثرت فيها الصناعات التي تتطلبها العاصمة الكبيرة، كما أصبحت مركزاً تجارياً مهماً. وكان من أبنيتها المهمة الفنادق لإقامة التجار الغرباء.

جاءت بعد الموحدين أسر كثيرة حكمت المغرب، وكان بنو مرين من أشهرها (٥٩٢ ـ ٨٠١هـ/ ١١٦٩ ـ ١٣٩٩م)، لكن هؤلاء اتخذوا فاس عاصمة لهم. ومع أنهم لم يهملوا مراكش بالمرة، فإنها لم تنل منهم العناية التي أولوها عاصمتهم. لكن لما قامت الدولة السعدية (٩١٧ ـ ١٠٦٩هـ/ ١٥١١ ـ ١٦٥٩م) وجعلت مراكش عاصمة لها، عاد إلى المدينة رواؤها. فبنى فيها السعديون المصانع والقصور والبساتين ـ مثل قصر البديع وبستانه ـ وشادوا الجوامع والمدارس.

٣

في أيام علي بن يوسف (بن تاشفين) المرابطي بنيت مدرسة ابن يوسف (وقد جددت هذه أكثر من مرة حتى أصبحت على ما هي عليه الآن). وكان علي يريد لهذه المدرسة أن تعبر عن العنصر المغربي الأصيل علماً وفكراً، فلا تكون عالة على فاس أو الأندلس، وكان تأسيس هذه المدرسة سنة ٥١٤هـ/ ١١١٦م على أشهر الروايات. وكان الطلبة يتلقون فيها التفسير والفقه والأصول والنحو واللغة.

ويبدو أن تفسير الطبري وموطأ مالك وصحيح مسلم وكتاب العين لسيبويه والإيضاح والمخصص والمحكم ومؤلفات ابن سينا، كانت الكتب المعتمدة في معهد ابن يوسف. وقد قيل عن المرابطين إن دولتهم لما جاءت جمعت ما كان متفرقاً بالمغرب من كلمة الإسلام، وتمسكوا بالنسبة وعظم شأن الفقهاء في دولتهم.

لكن عصر الموحدين الذهبي هو عصر المنصور. ففيه رفع شأن المدينة وجمِّلت. وكانت الفترة المميزة للحياة الفكرية والعلمية. وبسبب من خروج الأندلسيين إلى الأندلس، إما هجرة أو تلبيّة لدعوة الحاكم، فقد عرفت مراكش زهر وابنه من الأطباء، وابن باجة وابن طفيل وابن رشد من الفلاسفة، وأبا علي الحسن من الفلكيين والجغرافيين. هذا، إلى العدد الكبير من أهل العلم الشرعي والشعراء والأدباء، فضلاً عن أهل الفن والمعمار والزخرفة. فقد هبط مراكش أولئك الذين ساعدوا في إقامة مبانيها وتخطيط مدارسها وجوامعها. فانتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب، كما انتقلت أمور من المغرب إلى الأندلس. لقد كان عصر الموحدين عصر تمازج الثقافات في المغرب الإسلامي.

٤

الأثر المعماري الذي يدل على روح مراكش وتمثل الفكرة الإسلامية التي كان الموحدون يطوون أضلاعهم عليها، هو جامع الكتبية ومنارته أو صومعته. ولست أبالغ إذا قلت إن رؤية

هذه المنارة وحدها تستحق أن يشد المرء من أجلها الرحال ـ جواً أو براً أو بحراً ـ إلى مراكش. وأؤكد للقارىء أنني لست مبالغاً في قولي هذا. لكنني أرجوه أن لا يكلفني مشقة رسم صورة قلمية حية لهذا الأثر النفيس.

وكيف تنتظر مني أن أنقل إليك بالقلم انطباعات عن زيارات سبع لمراكش، وفي كل مرة كنت أزور فيها الكتبية أكثر من مرة! فمنارة الكتبية سامقة في الارتفاع، إذ تصل قرابة ثمانين متراً. وهي آية في الإتساق إذ إن ضلع الجهة الواحدة منها ١٢,٨٠ متراً (إلى ارتفاع ٦٩ متراً)، ثم تضيق هذه التربيعة بحيث يسمح للمؤذن أن يدور على رفراف ليدعو الناس إلى الصلاة. ويتم للمنارة الاتساق لأنها ليست مزخرفة من الخارج بحجارة ملونة؛ بل لأن الحجر المستعمل في بنائها فيه احمرار خفيف من الصخر المراكشي، وهذا يضفي على تناسقها المعماري جمالاً طبيعياً في ألوانه. وهذا اللون يتبدل بتبدل النور الطبيعي الذي يقع عليه في مختلف أوقات النهار.

على أن الفنان الذي بنى المنارة جعل في واجهاتها الأربع مناور يستضيء بنورها أولئك الذين يصعدون درجها الداخلي. وهذه المناور حدّد مكانها تلوّي الدرج ومنعطفاته من الداخل. فهي ليست على ارتفاعات متساوية في الواجهات الأربع. كما أن الفنان راعى أن لا تكون المناور جميعها على شكل واحد. وبذلك استطاع أن يحفظ للمنارة بساطتها ويبين شموخها كما احتفظ للفن بحرمته وللروح الإسلامي الموحدي بطابعه إذ لم يكثر الحفر والزخرف. وأستطيع أن أجزم، وقد رأيت آثاراً إسلامية كثيرة في المنطقة الممتدة من دلهي في الهند إلى المغرب والأندلس، أن منارة الكتبية من أروع ما شاهدت. وللمنارة، بهذه المناسبة، أختان في اشبيليا (الجيرالدا) وفي الرباط.

وقلما يخطر ببال الناظر إلى المنارة من الخارج أن داخلها مكون من سبع طبقات، وأن درجاً يصل هذه الأدوار واحدها بالآخر. والدور السابع، وهو الأخير، تغطيه القبة الجميلة التي تعلو المنارة، وهذه القبة تتوجها التفافيح. والجزء الأعلى من القبة فيه مدماك واحد من الزلّيج (القيشاني) الأزرق كأنه يمثل الصلة بين البناء والسماء.

وجامع الكتبية نفسه قلما يلفت نظر المار به، وذلك لما في واجهته الخارجية من البساطة المتناهية. وأنت تقف في صحن الجامع وتنظر حولك فتجد أن هذا الجامع ليس مستطيل الشكل، بل هو معين. وإذا اتجه نظرك إلى المصلى رأيت سبعة عشر رواقاً تكوّن إيوان بيت الصلاة، وهذه يتوسطها رواق المحراب. وتقتعد المنارة الزاوية الشمالية ـ الشرقية من الجامع. والأقواس جميعها التي تُرى في جميع الأروقة هي من نوع حذاء الفرس.

ولن تجد في الجامع سوى البسيط من الفن المعماري والزخرف، إذ إن قيمة هذا الجامع تكمن في اتساق تخطيطه وخلفية أروقته الجميلة وخطوط أقواسه الدقيقة وبساطة زخرفه. فإذا أضفنا إلى هذا كله ما في المنارة من الروعة، لم نبالغ إذا قلنا إن البناء بكامله يقع في القمة من الأبنية في المغرب الإسلامي.

وقد كان في الجامع منبر صنع في الأندلس وكان من العود والصندل الأحمر والأصفر وصفائحه مذهبة ومفضّضة.

وجامع الكتبية بناه عبد المؤمن (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م)، لكن المنصور بنى أيضاً جامع القصبة الذي كان يتوسط قصبة المنصور الواسعة الضخمة بقصورها وأسواقها وبساتينها. ومع أن جامع القصبة له منارة جميلة، فإن وجود منارة الكتبية على مقربة منها يخطف منها بعض أثرها الجميل.

٥

كان للموحدين في مراكش مدرسة خاصة فيها آلاف الطلبة، الذين كانوا يقرأون كتب المهدي بن تومرت ويتعلمون الفنون الحربية. وكان هؤلاء الطلبة على ثلاث طبقات، على ما أخرجه المرحوم عثمان الكعاك. فالطلبة أبناء الأمراء كانوا يتعلمون في مدرسة خاصة بهم ليترسم بعضهم إلى الوظائف الملوكية العليا كالوزارة وما إليها. والطلبة المصامدة، الذين هم من قبيلة مصمودة عصب الموحدين، كانوا يدخلون في القسم الإداري ليتخرجوا في وظائف الدولة الإدارية (المخزنية). وهناك طلبة الحضر الذين كانوا يتعلمون ما يلزمهم لتولي الوظائف الشرعية. ولكل صنف من الطلبة رئيس أو مقدم أو مزوار يسمى سلطان الطلبة ينتخب لعام عادة.

ومن الابنية المهمة التي أقامها المنصور الموحدي مستشفى كبير يقوم في ساحة واسعة، متقن الصنع حسن الحدائق جميل الفرش.

وقد أهملت مراكش بعد الموحدين، وتهدم الكثير من أبنيتها فتأثر بذلك ابن الخطيب فقال في ذلك:

بلدٌ قد غزاه صرف الليالي ... وأباح المصونَ منه مبيح
فالذي خرّ من بناه قتيل ... والذي خر منه بعض جريح
وكأن الذي يزور طبيب ... قد تأتى له بها التشريح
أُعْجمت منه أربعٌ ورسومُ ... كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغاني ... وجمال أخفاه ذاك الضريح
ساكن الدار دوحها كيف يبقى ... جسد بعدما تولى الروح!

لكن عهد الدولة السعدية (٩١٧ ـ ١٠٦٩هـ/ ١٥١١ ـ ١٦٥٩م) وخصوصاً أيام أحمد المنصور (الذهبي) (٩٨٦ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م) كانت لمراكش أيام عز، إذ عادت عاصمة المغرب. فالمنصور بنى قصر البديع الذي دام العمل فيه ما يزيد على عشر سنوات. وقد حشد له الصناع حتى من بلاد الإفرنج. وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه بالسكر وزناً بوزن. ذلك بأن المنصور قد وسع صناعة السكر في بلاده إلى درجة كبيرة ونشر معاصره في حاحة وشيشاوة وغيرهما. ولم يأل المنصور جهداً ولم يقتر في الإنفاق على قصره.

ومن أروع الاحتفالات التي كان أحمد المنصور الذهبي يعنى بها، الاحتفال بالمولد الشريف. وقد وصف التمغروتي واحداً من هذه الاحتفالات، فأظهر لنا ما كان في قصر البديع من قباب متقابلة عالية، وفرش من الحرير، وأستار مخوصة بالذهب، حائطيات (جدرانيات) من المخمل. وقد دخل الناس الايوان السعيد، والسلطان جالس في أفخر ملبس وأعظم هيئة، وعلى رأسه الوصفان والعلوج، فكانت كل طبقة من الناس، من قضاة وعلماء ووزراء وقواد وكتّاب وأضياف، تدخل مجتمعه. وأُحضر الطعام في القصاع المالقية والبلنسية والأواني التركية والهندية وحمل الماء في الطوس والأباريق. ونصبت مباخر العنبر والعود. وتكلم المنشدون وأثيبوا على ما قالوا، ثم ختم الجميع المجلس بالدعاء للسلطان.

والاحتفال بعيد المولد النبوي تقليد قديم في المغرب، ولا يزال ملوك المغرب يحتفلون به احتفالاً خاصاً بزرهون. وقد أتيح لي أن أحضر هذا الاحتفال قبل سنوات، فرأيت شدة العناية دينياً واجتماعياً التي أولاها الملك لتلك المناسبة الكريمة.

ومن اليسير أن نعثر على الكثير من الشعر الذي هو مديح أو وصف شيق لمراكش. ولكننا آثرنا نقل المقطوعة التالية لطرافتها، وهي مما يمكن أن يقال في تقديمها، ولن تعدم الحسناء ذاماً. صاحب هذه المقطوعة عاش في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أي في أيام الازدهار السعدي. قال الرجل:

ما كان ظني وحق الله فرقتكم ... لو أن مراكشا كانت تواتيني
أظل في نصب مما أكابد من ... نفض الغبار ومن طرد الذبابين
وطول ليلي في كد وفي تعب ... ما بين بق وناموس يناغيني
أبيت أحرس فرشي من عقاربها ... والقلب في فكر منها وتخمين
إذا رأيت سواداً مر بي وأتى ... ظننتُها عقربا دبت لتوذيني
لم يبق في الفم ضرس استعد به ... أفناه مضغ الحصى في الطواحين
منوا علي بإطلاقي بفضلكم ... هذا العجاج بها قد كاد يعميني
لم يبق في الكيس فلس أستعين به ... أفنيت مالي في غسل وتصبين

وليقل صاحبنا ما قال ويقول. فهو ولا شك رجل طريف لكنه رجل خاب أمله في الحصول على أمور قد لا يستحقها وقد يستحقها.

أما أنا فادعوني لزيارة مراكش في أي وقت شئتم، فإنني ألبي الدعوة. فهناك فضلاً عن جامع الكتبية الذي بني في حي الوراقين، أي باعة الكتب (ومن هنا جاءت التسمية) وكان منهم عدد يناهز المائتين في جوار الجامع؛ هناك أقول المدرسة اليوسفية. وهي أصلاً إحياء مريني لذكرى مدرسة ابن يوسف السابقة. والبناء الذي قام به أبو الحسن المريني (٧٣٢ ـ ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ ـ ١٣٤٨م). وهذا البناء بعد أن تهدم بعضه أعاد إليه السلطان السعدي عبد الله (٩٦٤ ـ ٩٨١هـ/ ١٥٥٧ ـ ١٥٧٤م) حياته ورونقه. فجعل منه أماكن لسكنى الطلبة في جهتيه الغربية والشرقية، وفي كل منها طابقان. ويصل النور إلى كل غرفة من صحن صغير

تطل عليه. وكان بيت الصلاة في الجزء الجنوبي من المدرسة. ويتوسط هذه جميعها، صحن من الرخام. فهي، لا تزال إلى الآن، واسعة ممتلئة؛ فحجمها وأعمدتها وصحنها وزخرفها توحي جميعها بذلك. وهي شبيهة بالمدرسة البوعنانية بفاس، لكن تلك أضخم وأقوى، ومن ثم فقد كانت لعوادي الدهر أصمد.

در بمراكش ـ لا حول سورها فحسب ـ في أماكن النزهة فيها، وهي التي لا يزال منها الكثير قائماً، وستذكر كل من وضع حجراً في أي منها ـ من الموحدين إلى المرينيين إلى السعديين إلى الدولة العلوية ـ هذا ما تراه في أجدال ـ بساتين الزيتون في المنارة ـ وحوض الماء الكبير فيها وحدائق فندق المأمونية.

٣ ـ مدينة فاس في التاريخ[١]

أ ـ قيام المدينة وبناء جامع القرويين

أسست فاس في أيام إدريس الأكبر سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٩م، وذلك بعد أن ضاقت وليلي به وبجماعته وبمن وفد عليه من أهل المنطقة. ويبدو أن النقود ضربت في فاس هذه منذ سنة ١٨٩هـ. وبعد ذلك بمدة ذهب إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر إلى فاس ليستوطنها. ولما كان مولعاً بالبناء والتجديد، على غرار ما عُرف عن كبار أهل الحكم في العالم الإسلامي، فقد بنى هو الآخر مدينة جديدة على الطراز الشرقي الإفريقي وذلك في سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م، وقد سميت أولاً العالية. ولكن بسبب كثرة من رحل إليها من القيروان وما إليها، فقد عرفت فيما بعد باسم مدينة القِرويين.

وفي سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، قدم إلى إدريس الأزهر القرطبيون المعروفون باسم «ثوار الربض». ذلك أن ثورة قامت في قرطبة ضد الحكم أميرها، فقام الحكم بإخمادها وفرّق الثوار ثم أمر من بقي منهم، وهم كثرة، بالخروج من الأندلس. فانصرف بعضهم إلى فاس. فتلقاهم إدريس هناك، واستقروا على الضفة الشرقية من النهر، وأنشأوا تدريجاً مدينة اندلسية الشكل والنمط، وهي التي سميت فيما بعد مدينة الأندلسيين أو عدوة الأندلس[٢].

ولما تم للإمام الأكبر إدريس بناء المدينة، وحضرت الجمعة الأولى، صعد المنبر وخطب بالناس، ثم رفع يديه في آخر الخطبة وقال: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة. وإنما أردت أن تُعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد (ص) ما بقيت الدنيا. اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤونة أعدائهم وأدر عليهم الرزق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير»[٣].

ومما يتصل بفاس، وإن كان تأخر عن بناء المدينة قليلاً، إنشاء جامع القرويين. وقد روى خبر بنائه ابن القاضي في جذوة الاقتباس قال:

«ذكر أبو القاسم بن جنون وغيره في تأريخ فاس أنه لما كثر الواردون عليها في أيام يحيى بن محمد بن إدريس، كان ممن قدم عليها ووفد إليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهري، ونزل بعدوة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه. فمات وترك ابنتين وهما فاطمة المدعوة بأم البنين ومريم وتحصّل لهما بالإرث مال كثير طيّب من والدهما. ورغبتا أن تصرفاه في وجوه من أعمال البر. فاعلمتا باحتياج الناس إلى جامع كبير في كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس. فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين، ومريم في بناء جامع الأندلس. أما جامع القرويين فكان الشروع في حفر أساسه، والأخذ في أمر بنائه، يوم السبت

مهلّ شهر رمضان المعظّم من عام خمسة وأربعين ومائتين. وكان بموضعه الذي بني فيه أرض لمعمر الخضر، وفيها أشجار لرجل من هوارة، كان قد حاز ذلك أبوه بوجه جائز صحيح حين أسست المدينة حرسها الله بمنّه، فاشترتها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الخاص لها بالميراث من أبيها، وتطوعت ببناء الجامع المذكور. فحفر في أرضه وأخذ منها التراب والكذان لبنيانه، وحفرت فيها بئر لأخذ الماء لبنيانها ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء، الذي أسسه إدريس بن إدريس بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم في ذلك. وبنى من أربع بلاطات من قبلة إلى جوف، في كل بلاط اثنا عشر قوساً من شرق إلى غرب. وجعل محرابه بمقدّم البلاط الذي أمام الثريا الكبرى اليوم. وجعل بمؤخره صحن صغير وصومعة حيث العنزة اليوم، وتم على نحو ما أرادته، وذلك بمطالعة الأمير يحيى. ولم تزل صائمة من يوم أسس إلى أن كمل وصلّت فيه شكراً لله تعالى الذي وفقها لذلك. ولم يزل على نحو ما ذكر في أيام الأدارسة إلى أن اتصلت العمارة واتصل البناء في أرض المدينة من سائر الجهات. وجرى أمر زناتة في أرض المغرب في سنة سبع وثلاثمائة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره. فصنع له منبر من خشب الصنوبر وكان أول خطيب خطب عليه بها الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن علي الفارسي. وإن الذي أقام الخطبة إذ ذاك هو الأمير حامد بن حمدان الهمداني عامل عبد الله الشيعي على بعض بلاد المغرب، بعد أن كان تغلب عليها مصالة بن حبوس. ولم يزل كذلك إلى أن تقوى ظهور زناتة بالمغرب فاستدعاه الناصر لدين الله عبد الرحمن المرواني ملك الأندلس. ثم لما ولى عليها عاملاً له من زناتة يعرف بأحمد بن أبي بكر الزناتي، وكان من أهل الفضل والدين، كتب إلى الناصر يستأذنه في بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه، لحاجة الناس إلى ذلك. فأذن له وبعث إليه بمال كثير من أخماس غنائم الروم، وامره أن يصرفه فيه. فأصلحه وزاد فيه أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف في موضع الصحن الذي كان فيه. وجعل بمؤخر الصحن الذي به الآن وفي غرب هذا الصحن بلاطين وفي شرقه كذلك وفي جوفه بلاطاً واحداً بعد أن هدم الصومعة التي كانت به، وبنى به الصومعة التي به الآن. ولما شرع في بنائها جعل سعة كل وجه منها احد وعشرين شبراً، ويصعد لها على مائة درجة ودرجة، وجعل بابها من جهة القبلة. وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الأصفر. وتمّ العمل في بنائها في شهر ربيع الأول من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب في التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن. وجعل في أعلاها قبة صغرى ووضع في ذروتها تفافيح مموهة من ذهب في زج من حديد، وركّب في الزج المذكور سيف الإمام إدريس الذي أسس المدينة»(٤).

ب ـ الموحدون وتطور المدينة

مع أن عصر فاس الذهبي هو عصر بني مرين، فإن المدينة كانت، حتى قبل ذلك، مهبط أهل العلم، لأنها جمعت علم المشرق والمغرب، أي علم القيروان وقرطبة، وأضافت إلى ذلك الكثير من تفكير ابنائها بالذات.

وقد خلّف لنا غير مؤلف وشاعر وصفاً لفاس. فمن ذلك وصف جغرافيي العرب في القرن الرابع. ونجتزىء من ذلك اثنين هما ابن حوقل والمقدسي. قال ابن حوقل: «وفاس مدينة جليلة يشقها نهر. وهي جانبان يليهما أميران مختلفان، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل. ونهرها كبير وغزير الماء عليه أرحية كثيرة. وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة، أحدثها إدريس بن إدريس. في كل يوم من أيام الصيف يرسل في أسواقها من نهرها الماء، فيغسلها فتبرد الحجارة. وجميع ما بها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات فزائد على سائر ما قرب منها وبعد في أرض الهبط موقعه، وظاهر بكثرته حده وموضعه، ومستفاض بوفوره مكانه ومرفقه»[٥]. وقال المقدسي: «فاس بلدان جليلان كبيران كل واحد منهما محصّن، بينهما واد جرار عليه بساتين وارحية، قد استولى على أحدهما الفاطمي وعلى الآخر الأموي. وكم ثم من حروب وقتل وغلبة. بناؤهما مدر وحصنهما طوب. وبها قلعة شميت، بناها ابن البوري وأخرى على الوادي بناها ابن أحمد. وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون»[٦].

وممن وصف فاس عبد الواحد المراكشي الذي تحدث عنها أيام الموحدين إذ قال في المعجب: «ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه. اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس، كما كانت القيروان حاضرة المغرب. فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بعبث العرب فيها، واضطرب باختلاف بني أمية بعد موت ابن أبي عامر وابنه، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة. فنزل أكثرهم مدينة فاس. فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم. وما زلت أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب. وبحق ما قالوا ذلك، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها، وموجود فيها، ومأخوذ منها. لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب. ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة. فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة. وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها. وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات. وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً تنغلق عليها أبوابها، ويحيط بها سورها. وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء. ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها، إلا ما كان من العطر الهندي، سوى مدينة فاس هذه. فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة، بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً»[٧].

وثمة وصف لعالم من علماء فاس أيام الموحدين هو عثمان السلالجي (أو السلالقي)، من قلم تلميذه أبي الحسن بن عتيق قال فيه: «وخاف الله تعالى فراقبه، وعمل بمقتضى ما

علم فشرح صدره وعلّمه علم ما لم يعلم، ووهبه من الفهم لخطاب الشارع (ص) والتفقه فيه، والعلم بقاصده، والكشف لمعانيه، ومن التحقيق والتنسيق، والتحرير والتدقيق، ما يقصر عن وصفه اللسان وتكل دون البلوغ إلى كنهه الأذهان. واتقى الله تعالى فوقاه، وتوكل عليه فكفاه، واهتدى بهديه فوفقه وهداه، وجعل له من أمره يسراً ومخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ووضع البركة في علمه وعمله. ورزقه من الصبر والاحتمال وحسن الخلق والعشرة والأدب وحركاته وسكناته، حتى تقيدت افعاله كلها بأحكام الشرع، وجرت على مقتضيات أوامر الباري تعالى وإذنه. واقتدى بهدي السلف الصالح رضي الله عنهم ففتح له وعلى يده فتحاً خرق العادة، وحرّك النفوس، وقامت به الحجة على المبطلين، مع حداثة سنه، وقلة تمكنه مما يجده غيره من المال والجدة وسعة الحال. فساد أقرانه ورأس إخوانه، وشرف جيرانه، وزين عصره ووقته وزمانه. أسأل الله تعالى أن يجعل البركة في عمره ورزقه، وأن ينفعه ويكفيه كل هم»(٨).

وفي بلاط أبي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن أسفاره، قص أخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء. فأعجب السلطان بها، ولذلك صدرت إرادته إلى الرحالة بأن: «يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار»(٩). ووضع السلطان كاتبه ابن جزي تحت تصرف الرحالة. فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الأدبية التي ننعم بقراءتها فنطلع على كنز من المعرفة، فنذكر بالخير الرحالة والسلطان وابن جزي.

ج ـ فاس عاصمة بني مرين

إلا أن مدينة فاس تقدمت واتسعت في أيام بني مرين إذ اتخذوها عاصمة لملكهم لما استقر أمرهم في البلاد. والذي يعود إليه الفضل في إنشاء الدولة والعاصمة الجديدة لها هو أبو يوسف. فإنه: «لما عزم أمير المسلمين أبو يوسف على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وحاضرته وحشمه، ركب يوم الأحد الثالث لشوّال من سنة أربع وسبعين وستمائة وخرّج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع. فتخيروا موضعها على وادي فاس، وشرع في حفر أساسها. وأخذ طالع ذلك الفقيه المعدل أبو الربيع سليمان الغيّاش وأبو عبد الله محمد بن الحبّاك. وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت يمن وبركة زمزّية دلّ على طول بقائها وكثرة عمارتها واتصال خيراتها وما يجيء إليها من الأموال. فكانت والحمد لله مدينة مباركة. فاتخذها دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده، يجيء إليها جميع خراج المغرب، ومن بركتها وسعادتها ويمن طالعها أنها لا يموت فيها خليفة، وأنها لم يخرج منها قط جيش إلا ظفر، ولم يعقد قط بها لواء إلا نصر. ومصداق ذلك أن أمير المسلمين أبا يوسف، الذي اختّطها وبناها وشيدها وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه، توفي رحمه الله غائباً عنها في المدينة التي بناها أمام الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس. ثم ولده الخليفة بعده أمير المسلمين أبو يعقوب توفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناها بتلمسان، وهو محاصر لها، فاستوطنها ومتنها واتخذها حاضرته إلى أن توفي بها. كذلك

حفيده الخليفة بعده وهو الأمير أبو عبد الله بن أبي يعقوب المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة. وكذلك أخوه الوالي بعده أبو الربيع سليمان فإنه توفي أيضاً بقصبة رباط تازا. ولما تم سور هذه المدينة السعيدة فاس الجديدة بالبناء، أمر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة فبني على يد أبي عبد الله بن عبد الكريم الجدودي وأبي علي بن الأزرق والي مكناسة والنفقة فيه مال معصرة مكناسة. ولم يخدم في بناء هذا الجامع الكبير مع المعلمين إلا أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس. وفي شهر رمضان سنة سبع وسبعين وستمائة تم الجامع المذكور بالبناء وصلّى فيه. وفيها ابتدىء بعمل منبره الذي به الآن على يد المعلم الغرناطي الرصّاع. وأول خطيب خطب به الفقيه المحدّث أبو عبد الله محمد بن أبي زرع. وفي أول جمعة من شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وسبعين وستمائة تم المنبر بالعمل، وخطب عليه. وفي يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وستمائة علّقت الثريا الكبرى بالجامع المذكور. وزنها سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً. وعدد كؤوسها مائة كأس وسبعة وثمانون كأساً. وكان الصانع لها المعلم الحجازي، والإنفاق فيها من جزية اليهود وفي شهر رمضان من سنة تسع المذكورة بنيت المقصورة بالجامع المذكور. وفيها بنى في المدنية المذكورة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة، وبنى بها حماماً عظيماً: «وأمر رحمه الله عماله ووزراءه ببناء الديار بها فبنى كل واحد منهم داراً»(١٠).

ولبني مرين يرجع الفضل في تقوية مركز المدينة علمياً. فقد وسع أبو عنان خزانة القرويين وبنى المدرسة البوعنانية. وقد جاء في جنى زهرة الأس: «وأما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بها فإنه لما كان من رأي أبي عنان، رحمه الله تعالى، حبّ العلم وإيثاره والاهتمام به والرغبة في انتشاره، والاعتناء بأهله ومتحمليه والتودد لقرائه ومتحليه، انتدب لصنع هذه الخزانة واوسع على طلبة العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها، ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى. وعيّن لها قيماً لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة. وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة. وأما خزانة المصاحف التي أمر بها مولانا أمير المؤمنين أبو عنان، رحمه الله تعالى، في قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع انشىء على حسنها ما لم يسبقه إليها أحد من أيمة هذه الأصقاع. فإنه رحمه الله تعالى صوّرها في ذهنه الثاقب المبين ثم أبرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين. فابدأ من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهّل بها على الناس تلاوة القرآن، في كل وقت من الأزمان. واعدّ فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية، وأباحها لمن أراد التلاوة فيها، بعد أن كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مرّ الأعوام والليالي والأيام، ونجز لها من قيّد لإخراجها من هذه الخزانة وأبرزها وردها لصيانها في موضعها وإحرازها، وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها. فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى أن

يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وأجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية وكتب فوق هذه الخزانة ما نصه: «الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله أمره وأعزّ نصره بتأريخ شهر شوال سنة سبعين وسبعمائة، رزقنا الله خيرها. وأما زاوية القرّاء البهية التي أمر بها مولانا المستعين، رحمه الله، في شرق هذا الجامع مسافتها على ساباط هنالك، وجعل لقبليّها وجوفها من صناعة الخرط والتزيين بالأصبغة ما يهيم به المار والسالك، ورتب فيها قرائين يتلون القرآن، ويجتهدون بطول السبعة أيام وعلى مر الأزمان[١١].

ولأبي سعيد المريني فضل على المدارس كبير. أنشأ المدرسة العظمى: «وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضاً ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس، وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين. فبنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار. وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بمحضره. فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها. وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هناك. وشحنها بالطلبة ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم. وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية. واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتساباً بالله تعالى. وسيأتي التنبيه على ما بناه ابنه أبو الحسن من ذلك أيام ولايته وحفيده أبو عنان وغيرهما إن شاء الله. وبالجملة فقد كان لبني مرين جنوح إلى الخير ومحبة في العلم وأهله، تشهد بذلك آثارهم الباقية إلى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها»[١٢].

ولعل خير ما وصفت به فاس في أيام بني مرين هو ما جاء في روض القرطاس، لابن أبي زرع، من مؤرخي عهدهم وأعلامه: «ومدينة فاس لم تزل أم بلاد المغرب في القديم والجديد وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين أطال الله أيامهم وأعلى أمرهم وخلّد سلطانهم فهي منهم في المحل الرفيع والشكل البديع. وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعة المحرث وعظيم بركته وقرب المحطب وكثرة عوده وشجره. وبها منازل مونقة وبساتين مشرقة ورياض مورقة وأسواق مرتبة منتشقة وعيون منهمرة وأنهار متدفقة منحدرة وأشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة. وقالت الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء هي النهر الجاري والمحرث الطيّب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمر سبلها وكف جبابرتها. وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة. فلها المحرث المعظم سقياً وبعلاً على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبلتها، يصبح كل يوم على أبوابها احمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة. ونهرها يشقها بنصفين وينشعب في داخلها أنهاراً وجداول وخلجاناً فتتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها وحماماتها، وتطحن به

أرحاؤها، ويخرج منها وقد حمل اثقالها وأقدارها ورمادتها. ومن فضائل هذا النهر ما ذكره ابن جنّون المتطبِّب أنه ينبه شهوة الجماع إذا شرب على الريق، ويغسل به الثياب من غير صابون فيبيضها ويكسوها رونقاً وبصيصاً ورائحة طيبة، كما يفعل الصابون، ويخرج منه الصدف الحسن الذي يقوم مقام الجوهر النفيس، تباع الحبة منه بمثقال ذهب وأقل وأكثر، وذلك لحسنه وصفائه وعظم جرمه ويخرج فيه أيضاً أنواع من الحوت... وهو حوت لذيذ الطعم كثير المنفعة. وعلى الجملة إن نهر مدينة فاس يفوق مياه المغرب في العذوبة والخفة وكثرة المنفعة»(١٣).

د ـ عالم في فاس

وصل إلينا من قلم ميمون الخطابي ذكره لأساتذته وشيوخه مما يدل على ما كان يحيط بطالب العلم في فاس من عناية أيام الموحدين. قال الخطابي: «أنا ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي. وبنو خطاب في قبائل من المغرب والبربر. فبنو خطاب في صنهاجة، وفي هسكورة من ملزوزة، وفي ورغة من مكناسة ورغة، وفي غمارة من صنهاجة الريف، وفي بني أبي عدي بالحامة. وأنا من الصنهاجيين. فهذا النسب حميري يمني قحطاني. وأما مولدي فبمدينة فاس، قاعدة من قواعد المغرب، وأكثر قراءتي بها على الجلة الذين لحقت. وأكبرهم جدي من الأم علي بن مهدي القيسي، وعن الفقيه العالم الفاضل أبي الحسن بن حرزهم وتقول العامة (ابن حرازم) وصحب ابن دوناس من كبار العلماء بها. وقرأت على جماعة في هذا الطبقة. وقرأت في سبتة على ابن عبيد الله الحجري. سمعت الموطأ والبخاري، وكتاب السنن عليه. وقرأت بها الرسالة القشيرية على أبي الصبر. وكانت له رحلة إلى المشرق والأندلس ولحقت من الأندلس من لا أحصيه كثرة. وأكبرهم شأناً أبو محمد القرطبي وأبو الحجاج بن الشيخ البلوي. وقرأت بالمنكب على الفقيه القاضي ابن سمجون وكان عالي الرواية يحمل عن الحافظ أبي بكر بن العربي، وعن ابن نفيس عن الطبري، بالحرم شرفه الله. ولحقت من اصحاب شريح المقرىء ثلاثة: أبا نصر التلمساني وابن حسون ببياسة، وابن المؤذن بمالقة، وأجازوني. وفي غرناطة جماعة من أقران أبي ابن كوثر، ومن أصحابه، وفي مرسية جماعة وبها تممت قراءتي على الفقيه القاضي أبي محمد حوطه الله مدة كونه قاضياً بها. وقرأت بشاطبة على الحافظ أبي عمر ابن عات رحمه الله. ولحقت بوادي آش الحافظ ابن عمر شارح الموطأ بأحسن شرح رئي. وفي أشبيلية لحقت بها من المتأخرين أبا الحسن بن زرقون ونظرائه. وفيها قرأت على أبي الخطاب بن واجب في أهل بلنسية، وكان من أهل الرواية والفضيلة. وكتب لي أبو عبد الله بن نوح من بلنسية. وسمعت بمالقة خمسة أجزاء من تواليف أبي الربيع الكلاعي على أبي الربيع المذكور. وكنت سمعت بها، فساقه الله وساقها إلي، وقرب القصد علي. وقرأت بشلب عن أبي فاروق الشارح قصيدة ابن عبدون ما لليالي، ولحقت بها ابن عمر احد الرواة بها. وقرأت في طبيرة على صاحبي الحافظ بن خلفون. وأما من لقيت وقرأت عليه من علماء الأدب وأيمة والشعر والنحو، ومن العلماء بطريق الآخرة أعني المتصوفة فممن لا احصيه كثرة. وأما سني فما اضبط تاريخه لكني أعلم أني في السبعين

حقيقة. والسلام عليكم ورحمه الله تعالى وبركاته»(١٤).

هـ ـ شعر في فاس

ومما جاء في وصف فاس شعراً قول أبي الفضل ابن النحوي:

يا فاس منك جميع الحسن مسترق ... وساكنوك ليهنهم بما رزقوا
هذا نسيمك، أم روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي، أم الورق؟
أرض تخللها الأنهار داخلها ... حتى المجالس والأسواق والطرق

وقول الفقيه أبي عبد الله المغيلي يتشوق إلى فاس وكان يلي خطة القضاء بمدينة آزمور:

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي أربت على ... حمص بمنظرها البهي الأجمل
غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء ألد من الرحيق السلسل
وبساتن من سندس قد زخرفت ... بجداول كالأيم أو كالمقصل
وبجامع القروين شرف ذكره ... أنس بذكراه يهيج تململ
وبصحنه زمن المصيف محاسن ... فمع العشي الغرب منه استقبل
واجلس إزاء الخصة الحسنا به ... واكرع بها عني ـ فديتك ـ وانهل

الهوامش

(١) شغلت فاس المؤرخين بسبب الدور الكبير الذي قامت به على مسرح التاريخ ولا تزال تقوم به. فقد ظلت عاصمة المغرب الثقافية، ومركز حضارته الأدبية والفكرية، على ما اعتراها من محن ومصائب. وشهادة المؤرخين والرحالين العرب دليل على ذلك.

(٢) نقولا زيادة، **لمحات من تاريخ العرب** (بيروت: مكتبة المدرسة، ١٩٦١).

(٣) عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي** (بيروت: مكتبة المدرسة، ١٩٦١)، ج ٢، ص ٣١.

(٤) أ. ليفي ـ بروفنسال، **نخب تاريخية** (باريس: لاروس، ١٩٤٨)، ص ٢٢ ـ ٢٤. نقلاً عن «جذوة الاقتباس» لابن القاضي.

(٥) أبو القاسم محمد بن حوقل، **صورة الأرض** (ليدن: بريل، ١٩٣٨).ص ٩٠ ـ ٩١.

(٦) أبو عبد الله محمد القدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (ليدن: بريل، ١٨٧٧)، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٧) عبد الله كنون، **ذكريات مشاهير رجال المغرب**، ج ٢٨، عبد الواحد المراكشي (بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د. ت)، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٨) كنون، المصدر نفسه، ج ١١، عثمان السلالجي، **تطوان**، معهد مولاي الحسن، (د. ت.)، ص ١٨ ـ ١٩.

(٩) أبو عبد الله محمد بن بطوطة، **مهذب رحلة ابن بطوطة** (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٤)، ص ٤.

(١٠) ليفي ـ بروفنسال، **نخب تاريخية**، ص ٤٩ ـ ٥٠. نقلاً عن «الذخيرة السنية».

(١١) المصدر نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٩. نقلاً عن «جنى زهرة الآس».

(١٢) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤)، ج ٣، ص١١٢.

(١٣) ليفي ـ بروفنسال، المصدر نفسه، ص ٢١ ـ ٢٢. نقلاً عن «روض القرطاس» لابن أبي زرع.

(١٤) كنون، **ذكريات مشاهير رجال المغرب**، ج ٧، ميمون الخطابي (تطوان، (د. ت.)، ص ١٢.

٤ ـ تطوان[1]

١

إذا أتيح أن تتنقل في المغرب العربي، وخصوصاً في الأجزاء الساحلية منه، وقعت عينك على عدد من المدن الكبيرة والصغيرة، الممتدة من درنة في ليبيا شرقا، إلى تطوان غرباً، التي يبدو فيها أثر الأندلسيين واضحاً. ولسنا نقصد بذلك الآثار المعمارية والفنية والحضارية التي جاءت نتيجة التبادل الطويل الأمد بين شمال افريقيا والأندلس عبر عصور التاريخ العربي الإسلامي؛ ولكن الذي نقصده أن عدداً من هذه المدن إما أنشأه مهاجرة الأندلس منذ القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، أي منذ أن أخذ هؤلاء بالنزوح عن بلادهم إلى المغرب العربي، أو أنهم على الأقل أصلحوه وطبعوه بطابعهم الخاص. فالذي يعرفه التاريخ هو أن هؤلاء الأندلسيين، منذ أن بدأ الإنسان باحتلال المدن الأندلسية، الواحدة بعد الأخرى، وبحثاً عن دار هجرة يتفق مع مزاجهم. وهذه الهجرة زادت بعد سقوط غرناطة، وبلغت ذروتها لما أخرج العرب من الأندلس.

وتطوان واحدة من هذه المدن، بل لعلها أكثر مدن المغرب تمثيلاً للأثر الأندلسي الذي أشرنا إليه. وتقع تطوان في الشمال الغربي من المغرب على نحو عشرة كيلومترات من البحر الأبيض المتوسط، وتبعد أربعين كيلومتراً عن مدينة سبتة الواقعة شمالها، كما أن طنجة تقع إلى الجهة الشمالية الغربية على بعد ستين كيلومتراً عن تطوان.

وترتكز تطوان على جبل درسة الأمر الذي يكسبها مناعة وجمالاً، لأن الأشجار تكسو الجبل وما حوله. وأمّا جهاتها الثلاث الأخرى فتنتهي بسهول.

وأنت عندما تصل إلى تطوان، سواء من طنجة كان مجيئك أو من شفشاون، تطل على مدينة مكتنزة بيض بيوتها، وتبدو لك واضحة المعالم، فيخيل إليك أنك عرفت كل شيء عن تلك المدينة. لكنك لا تكاد تدخلها حتى تجد نفسك أمام مدينة ذات أسرار. وكل مدينة، تقريباً، لها أسرارها، لكن تطوان فيها سرها الخاص. فشوارعها الضيقة المتعرجة المبلطة، والأبواب الصغيرة التي تؤدي إلى منازل واسعة الصحن، تذكرك بمدن الأندلس. وفي هذه الشوارع ـ الأزقة والمنازل ـ تقيم أسرار تطوان الأندلسية. وقد تضيق ذرعاً بهذه الشوارع، إذا كنت قد ألفت مدناً متسعة الشوارع، ولكنك متى انتهيت إلى الأسواق، وانتقلت فيها من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى، ودخلت الحوانيت لا لتبتاع منها ولكن لترى اقواس أبوابها وعقود داخلها، والحنيات التي توضع فيها المتاجر، عاد إليك شوقك إلى استكناه الأسرار. ولكن المدن كالنساء، لا تكاد تدرك بعض السر منها حتى تجد نفسك في أول الطريق. والوصول إلى نهاية الطريق أمر صعب!

٢

ولا بد لنا، في سبيل التعرف إلى تطوان، من استطلاع التاريخ. والتاريخ هو الآخر سر، لكنه أيسر منالاً من بقية الأسرار.

ولسنا نريد أن نوغل في التاريخ فنرجع إلى ما كانت عليه تطوان في العصور الغابرة، ولكن لا بد من الإشارة إلى ما مر عليها منذ أن صارت، مع المغرب العربي كله، جزءاً من دار الإسلام، وكان ذلك في القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد. ولكنها لم تبلغ شأو المدن الأخرى إلا في القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد، إذ أصبحت مركزاً للمنطقة المجاورة، وقد روى البكري (في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد) أن تطوان كانت «على أسفل وادي راس... وهذا النهر يتسع هناك وتدخله المراكب اللطاف من البحر حتى تصل إلى تطاوان... بها منار، وبها مياه كثيرة سائحة عليها الأرحاء». وبهذه المناسبة فإن تطوان يكتب اسمها بصيغ مختلفة ضبطها مؤرخ تطوان الشيخ محمد داود على الصيغ التالية: تطوان ـ تطاون ـ تيطاوين ـ تطاوان ـ تيطاوان ـ تيطاون. وقد ذكر في القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي، أن «مدينة تيطاوان... مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع طيبة الهواء والماء». وقد صح عندي هذا في زيارات أربع قمت بها لهذه المدينة.

٣

وهذه المدينة استمرت عامرة حتى أواخر القرن الثامن للهجرة١٢٧ الرابع عشر للميلاد، إذ أصابها الخراب نتيجة للحروب والإغارات الكثيرة. ولكن بناءها جدد في العقدين الأخيرين من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وهذا البناء الجديد للمدينة أندلسي بكل معنى الكلمة، وتطوان الداخلية اليوم تكاد تكون تطوان التي بنيت في ذلك الوقت وفي القرن الذي تلاه.

وقصة بناء تطوان في ذلك الوقت طريفة. فالفئة الأولى التي وردت على المكان كانت نحو ثمانين شخصاً، وقد بنوا أربعين داراً أو نحو ذلك، وكانوا بقيادة القائد المجاهد أبي الحسن علي المنظري الغرناطي. هذه الفئة الأولى جاءت سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، وبعد نحو عشر سنوات تدفقت الجماعات الأندلسية على تطوان، وذلك بعد سقوط غرناطة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م).

والمدينة التي تم بناؤها يومئذ وصفها لنا العربي الفاسي (توفي ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م) في كتابه مرآة المحاسن، بأنها: «بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاثة من الأبواب وسورها في عرضه سبعة أذرع، ودار بالسور الأول سور ثان وبعده دارت به الحفائر (الساحات المتروكة) وأعظمها حفير القصبة». وقد طرأ على المدينة الأندلسية تبديل وتغيير وتوسيع وما إلى ذلك. لكن الصورة العامة هي هي. وأنت إذ تدخل المدينة وتدور بها تحس بذلك إحساساً واضحاً.

٤

ولعل خير ما يمثل تطوان القديمة أبوابها وأسوارها. فباب العقلة بسيط في زخرفه، ينتهي بقوس كأنه حذوة مخففة ويعلوه جص مسطح الشكل، لكن القوس نفسه يحيط به

زخرف بسيط من الجص وفي القسم الأعلى جزء مسنن.

وباب العقلة هو الواقع في الربض الأسفل الشرقي في اتجاه البحر الابيض المتوسط (ويسمى الآن بوابة الملك الحسن الثاني).

ونحن إذا وقفنا خارج الباب مقابلين له ونظرنا إلى جهة اليسار رأينا جزءاً من السور القديم المسنن أعلاه، وهو الشكل نفسه الذي يرى في أعلى أسوار تطوان جميعها تقريباً.

وثمة الباب الغربي الواقع في الجهة الغربية والذي كان المخرج إلى طنجة والقصر الكبير وفاس. وهو أكثر زخرفة من باب العقلة من حيث أن الزخرفة المحيطة بالقوس هي على صفين، ومن حيث أن نوعاً من الغطاء يعلو القوس وفيه زخرف افريزي من الجص.

والأسوار القديمة في تطوان مسننة في أعلاها في الغالب. وفي أحيان كثيرة أضيفت إلى الأجزاء العليا من الأسوار العريضة فتحات تمكن للمدافع أن توضع فيها. ومن تحصينات تطوان المهمة أبراجها، وهي حصينة مزخرفة مسننة الأجزاء العليا.

كان لتطوان جامع أعظم قديم، وقد أصبح مع الوقت صغيراً ضيقاً بالمصلين، كما أصاب المدرسة القريبة منه بعض الخراب. لذلك فقد استبدل هذا بجامع كبير جديد يليق بالمدينة التي اتسعت مع الزمن. والجامع الأعظم بتطوان بني سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م. ولباب الجامع الكبير ـ أو الجامع الأعظم ـ بتطوانِ قوس على شكل حذوة الفرس، يعلوه زخرف شبيه بالزخرف الجصي الذي وجدناه في الباب الغربي. وصحن الجامع متسع مبلط له أبواب تصله بالأروقة وفيه فسقية لطيفة. وإيوان الصلاة يتكون من عدد متواز من الأروقة، وفي وسط الجدار القبلي يقع المحراب.

أما صومعة الجامع الكبير أي مئذنته فإنها مربعة وتنتهي بتسنين يشبه التسنين الذي نشاهده على الأسوار، ويتوسط سطحها برج صغير تحيط به رقعة السطح حيث يدعى إلى الصلاة.

وأنت عندما تلقي نظرة عامة على مدينة تطوان تجد الصومعة تتوسطها.

في المغرب اهتمام خاص بإحياء التراث الفني القديم (العربي الإسلامي). وهذا يراه الزائر في الكثير من الأبنية التي شيدت في العقود الماضية أو التي تشيد الآن. ومن الأمثلة على ذلك دار الخليفة (أي وكيل السلطان) في تطوان. فتخطيطها وزخرفتها الجصية والخشبية وأروقتها وزخارفها ـ كل ذلك ـ إحياء للماضي، وهو إحياء بطريقة تدعو إلى السرور، وأسلوب يملأ النفس بهجة وارتياحاً. وثمة باب منزل في تطوان وقد نقشت عليه عبارة: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ومع أن في تطوان شوارع قديمة جميلة بأبوابها وواجهاتها الجذابة، فإننا إذ نغادر المدينة نودعها في شارع جديد تحيط به أشجار النخيل.

الهوامش

(١) مدينة أندلسية في المغرب.

٥ ـ رباط الفتح

١

عندما ينتقل المرء من طنجة إلى الرباط أو من مراكش إلى الرباط، عبر الدار البيضاء، أو عندما يهبط الرباط من مرتفعات فاس ومكناس، كما تنقلنا أكثر من مرة، يدرك أهمية هذا المركز الذي تقتعده الرباط من الناحية الجغرافية والتجارية والاستراتيجية.

أولاً: إنها تكون مع سلا، التي يفصلها عنها وادي بورقراق موقعاً بحرياً مهماً.

ثانياً: إنها تتوسط منطقة الغرب الغنية التي لا يصلح الملك في المغرب دونها.

ثالثاً: هي نقطة الاتصال الطبيعية بين مراكش وفاس.

ذلك أن جبال الأطلس المرتفعة تقع بين المدينتين؛ واجتياز هذه الجبال ليس بالأمر اليسير على التاجر والمحارب. لذلك فقد كان التجار وقادة الجيوش ينتقلون من مراكش إلى فاس ومن فاس إلى مراكش عن طريق الرباط. فاجتماع الطريق اليسير والسهل الخصيب والميناء الصالح هو الذي حدد الدور الذي قامت به هذه النقطة من التراب المغربي.

وقد عرف القدامى للمنطقة أهميتها، وإن كانت سلا لا الرباط المركز الأول. ذلك بأنه قد ورد ذكر تلك في القرن الثالث قبل الميلاد، واستمر لها ذكر بعد ذلك. أما في العصر الإسلامي فيبدو أن إقامة بناء مع شيء من التحصين في سلا يرجع الفضل فيه إلى إدريس الذي قام بذلك في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. ولما أنشأ بنو افرن دولة لهم هناك في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كانت سلا عاصمة ملكهم. ومع ذلك فقد كان للرباط موضع مهم في هذا كله. فليس يعقل أن يترك ولي أمر نقطة مهمة تقع على العدوة المقابلة لوادي بو رقراق لغيره.

وفي أيام الموحدين تمركزت قبيلة برغواطة في سلا، وقام الموحدون بقتالها حتى انتهى الأمر بعبد المؤمن الموحدي أن هدم تحصينات المدينة لما استولى عليها في أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ولما عاد حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور من غزوة الأرك (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) أمر ببناء رباط الفتح، وهو الاسم التاريخي الكامل لمدينة الرباط. وقبل أن يموت كانت أسوار المدينة قد ارتفعت وجامعها الكبير قد بانت معالمه وشيدت منارته.

في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م استولى بنو مرين على سلا، واستمر القتال بينهم وبين الموحدين على رباط الفتح، إلى أن انتصر المرينيون أخيراً. وقد ظلت سلا (مع الرباط ولا شك) الميناء المغربي الأول على المحيط الأطلسي طيلة العصور الوسطى. فقد كان سكانها مشهورين بدعتهم ومهارتهم التجارية، بحيث كانت السفن التجارية تقصد مدينتهم من موانئ

البحر المتوسط الإيطالية مثل بيزا وجنوا والبندقية وكتلانية ومن فلاندرز (الأراضي المنخفضة) وانكلترا. وكانت أسواق سلا تمتلىء بالأقمشة والبسط والعاج والمسك والزجاج. وقد عرفت المدينة ازدهاراً وثروة في تلك الحقبة.

ليس هذا تأريخاً للبقعة، ولم نرم نحن إلى ذلك. ولكننا أردنا أن نؤكد للقارىء أن مركزاً مثل هذا المركز كان لا بد أن ينال من أهل السلطان العناية اللازمة، وقد نال. ولولا ما كان يصل إلى بعض هذه الأبنية من عبث أولئك الذين ينقلون الحجارة والأعمدة لإقامة الأبنية الخاصة بهم، لكان الذي نشاهده اليوم أكثر وأوفى بناء، وأجمل رونقاً، وأبهى صنعة.

تقف علىِ طرف الرباط (رباط الفتح) المشرف على بو رقراق فترى سلا على المقابلة، وتنتقل إلى سلا فتطل منها على الرباط، وتحار في أي التوأمين أحب إلى أهله. وإن كان ثمة تفضيل في وقت من الأوقات، فإنما مرجع ذلك، في غالب الحالات، إلى ظروف وأحوال ومزاج شخصي. وإن كان الواحد يسمع شيئاً عن تنافس بين أهل المدينة الواحدة والأخرى، فهذا مما يحدث بين الأشقاء.

٢

رباط الفتح مدينة موحدية في أصلها وفي أكثر ما نشاهده فيها. وقد عملت الدول التي قامت في المغرب بدورها زيادة فيها وتوسيعاً. لكننا نود أن نكتفي بآثار العصر الموحدي لأنها الأوضح دلالة والأكثر أصالة. ولما اتسعت رباط الفتح في عصر الموحدين كان لها سور يبلغ طوله خمسة كيلومترات وربع الكيلومتر، يمتد من نقطة في الشمال على المحيط الأطلسي ويتجه جنوباً في خط يكاد يكون مستقيماً، ثم ينحرف شرقاً في مكان القصر الملكي الآن، حتى ينتهي بوادي بورقراق. والتحصينات والأبراج الكثيرة، والتي كانت تحيط بالأبواب بشكل خاص، كانت تجعل من الرباط مدينة حصينة.

ولم يغفل بناة هذا السور أن يجعلوا من الأبواب التي كانت تؤدي إلى داخل المدينة وخارجها قطعاً فنية. فباب العلو وباب الحد وباب الرواح أمثلة حية على ذلك. ولا شك أن الذي يقف أمام هذه الأبواب اليوم تدهشه روعة الزخرف القائم على التناسب في الأقواس التي يغلب عليها أن تكون بشكل حذاء الفرس، والصخر المحفور حفراً دقيقاً أو الجبس المقولب بشكل لا يترك زيادة لمستزيد. فباب الرواح مثلاً مبني من الحجر، وقطع الحجارة متوسطة الحجم، لكن أهم من حجم القطع هو هذا التناسب والانتظام في اشكالها ومواضعها. وقد كانت أبواب المدن تبنى قبلاً على غرار الأبواب الرومانية أو البزنطية فتتكون من عقدين متقابلين. لكن المرابطين بدأوا ببناء أبواب تنحرف في الداخل على زاوية. وقد أصبح بناء الأبواب المربعة التي تعلوها قبة مضلعة. ثم يتجه يساراً إلى قاعة ثانية مربعة أيضاً مغطاة بقبة شبه كروية. ومن هذه القاعة ينتقل إلى قاعة ثالثة، هي الأخرى مربعة لكنها مكشوفة، بحيث إذا تمكن العدو من اجتياز القاعتين الأوليين أمطره الحراس بوابل من السهام من البرج المتصل بالباب. وثمة قاعة رابعة مسقوفة كالثانية، ومنها ينفذ الداخل إلى المدينة. هذه

الزوايا ذات القوائم الأربع بين المدخل والقاعات والمخرج هي التي كانت تجعل الباب شديد التحصين. وباب الحد كان البرجان المحيطان به مخمسين شكلاً حتى يمكن تنويع البناء وبذلك تصبح التحصينات أجمل شكلاً.

وفي الجهة الشمالية الشرقية من رباط الفتح تقوم قصبة الوداية وهي الحصن الموحدي الأصلي. لها سورها المستقل المحصن من الخارج والجميل من الداخل. كما أن قصبة الوداية لها بابها الضخم المنيع والمزخرف بالحفر والنقش. وباب الوداية، وهو أقدم عهداً من باب الرواح، أقل تعقيداً من هذا، لكنه يخضع للمخطط الموحدي من حيث بناء الأبواب بحيث يحال دون اجتيازها بسهولة. فهو مكون من ثلاث قاعات، يربط بين الأولى والثانية منها درج، كما يقوم درج يصل بين الثانية والثالثة. ويتم الدخول إلى القصبة عبر دهليز. إلا أنه يمكن، عند الحاجة الدخول من القاعة رأساً.

٣

درنا بسور الموحدين في الرباط ووقفنا عند أبوابه ومتعنا الطرف بالتحصين والجمال، وملأت قصبة الوداية، وخصوصاً حديقتها الداخلية، نفوسنا حبوراً وسروراً. لكن لما وصلنا جامع حسان عقدت الدهشة لساننا. وكان ذلك لسببين: أولهما هذه الرقعة الواسعة التي يشغلها الجامع (١٨٠× ١٤٠ متراً)، وهذه المنارة الرابضة في منتصف جداره الشمالي. والثاني هو أن هذا الجامع لم يتم بناؤه، فالذي أقيم منه هو جزء فقط. وتذكرنا ما ذكره المراكشي في ذلك: وهو أن المنصور شرع في بنيان مسجد عظيم في رباط الفتح كبير المساحة واسع الفناء جداً ليس في مساجد المغرب أكبر منه. وعمل له مئذنة في نهاية العلو يصعد فيه بغير درج. تصعد (على المنحدر الداخلي) الدواب بالطين والآجر والجص وما يحتاج إليه إلى أعلاها. ولم يتم هذا المسجد لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف المنصور.

وما كان أشد أسفنا لأن المنصور توفي قبل أن يتمه. وقد عادت بنا الذاكرة إلى جامع الكتبية في مراكش وهو أيضاً من إنشاء الموحدين. جامع ضخم جميل بسيط متسق متناسق المنارة والبناء. وحملتنا الذكرى إلى جامع أشبيليا الذي يشبه جامع الكتبية وجامع حسان من حيث الضخامّة والاتقان. وربطنا بين هذه كلها، وأضفنا إليها أبنية موحدية أخرى. فكان لدينا من ذلك ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الموحدين كانوا يدركون عظمة الإسلام ويشعرون بالمسؤولية التي ندبوا لها من حيث الحفاظ على الإيمان والنجاح الذي أصابوه في افريقيا والأندلس. فاتجهوا إلى التعبير عن ذلك بهذه الأبنية الضخمة التي كانت جماع الشعور بالواجب والنجاح المؤثل والشكر لله على أن تم ذلك على أيديهم.

هذه ناحية من نواحي حياة الموحدين وتاريخهم لا بد أن يتفهمها الواحد منا كي يزداد سروره بالآثار التي لا تزال قائمة، ويدرك دور الموحدين ومكانتهم في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

خطرت لنا هذه الأمور ونحن ندور في أفناء هذا الجامع الذي لم يتم بناءً، وإن كان

قيامه هناك يشعر بالروح التي أملت على المنصور هذا العمل.

والخطة التي يبدو أنها كانت في نفس المنصور هي أن يكون للمسجد صحن أمام المنارة وصحنان أصغر في كل من جهتيه الشرقية والغربية. وصفوف الأعمدة التي لا يزال أكثرها قائماً توضح لنا، بقدر ما أمكن، أن بيت الصلاة كان سيشغل القسم الأكبر من الجامع. ففيه أولاً ثلاثة أروقة موازية لجدار القبلة وبطوله تماماً. ثم تبدأ عند نهاية الرواق الثالث الأروقة المتعامدة عليه وهي واحد وعشرون عدداً، والأوسط منها والرواقان المصاقبان للجدارين الشرقي والغربي أوسع من البقية. ويقوم ستة عشر صفاً من الأعمدة على طول هذه الأروقة الواحد والعشرين إلى الصحن. تضاف إلى ذلك ركيزتان في نهاية كل من هذه الصفوف.

أي ضخامة وأي جمال كان من الممكن أن نحصل عليه لو أن الجامع أتم بناء وسقف؟

والمنارة لم تتم بناء، إذ إن ارتفاع الجزء القائم منها هو أربعة وأربعون متراً. وهي مبنية بالحجر المصقول. ومركز المنارة من الداخل يدور به طريق منحدر عرضه متران. والمركز موزع على ستة طوابق في كل طابق غرفة، وسقوفها مختلفة. كما أن الزخارف والطاقات من الخارج مختلفة.

٤

ولنجتز وادي بو رقراق على الجسر الطويل الذي يصل الرباط بسلا، لنتم زيارتنا لعدوتي الوادي. وأول ما يطالعنا عند وصولنا سور سلا الذي يرجع إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في غالبه وهو مريني. وأسوار المدينة، محصنة، لكنها أقل تحصيناً من أسوار الرباط، إذ إن هذه أصبحت تدريجاً موضع عناية الدول التي قامت في المغرب. إلا أن الجزء الموحدي من أسوار سلا احتفظ مع الزمن بتحصيناته وأبراجه. وفي سلا باب من أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بناه المرينيون للدفاع عن الميناء الداخلي للمدينة واسمه باب المريسي.

ومن آثار الموحدين المهمة في سلا، الجامع الكبير الذي أسسه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٨٤م)، ولكن يد الإصلاح والتوسيع عملت فيه. وبابه الرئيسي يمثل الزخرف المألوف في ذلك العصر، وإن كان أحد أبوابه المغلقة أوضح في التعبير عن ذلك. والمنارة المربعة فيها شبه بمنارة الكتبية وجامع حسان من حيث الشكل والزخرف، لكنها أصغر وأقصر، وأروقة الجامع بسيطة.

إلا أن الأثر الجميل في سلا هو مدرسة أبي الحسن. وأبو الحسن علي (٧٣٢ ـ ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ ـ ١٣٤٨م) يعتبر من كبار البنائين بين المرينيين، وآثاره كثيرة، وأكثر أبنيته مدارس. ومن أجمل هذه المدارس بناء وزخرفاً مدرسة سلا، وهي صغيرة نسبياً. وأنت إذ تهم بالدخول إلى المدرسة من بابها تلفتك الدقة المتناهية في الحفر سواء في الحجر أم الجص أم الخشب، بحيث تكاد تنسى أنك تود الانتقال إلى الداخل. فإذا اجتزت هذا الجمال وجدت نفسك في

مدخل صغير وعلى يمينك درج ينقلك إلى الطابق العلوي من المدرسة. فإذا اجتزت المدخل وقع نظرك على صحن يتوسطه مدخل بيت الصلاة. والصحن والجدر والأعمدة مغطاة كلها بالزليج (القيشاني) الملون الجميل، وتتضح تفاصيل ذلك من الانتباه إلى الأعمدة.

وحيث تنقلت في هذه المدرسة وقعت عينك على نماذج جميلة جداً من الحفر والكتابة إما في الجص (الجبس) أو في الخشب. ويكفيك أن تقف بعض الوقت أمام أحد الجدر هناك لترى بنفسك مبلغ ما وصل إليه الإتقان.

إن عناية المرينيين بالعلم والأدب معروفة، واهتمامهم ببناء المدارس في أنحاء المغرب جمعاء مشهور، وقد رغبوا في أن تكون العناية والاهتمام معبراً عنهما تعبيراً فنياً قوياً. وقد تم لهم ذلك في هذه المدرسة وغيرها.

الرباط وسلا تقعان في نقطة مهمة بالنسبة إلى المغرب: مهمة جغرافياً واستراتيجياً واقتصادياً. والعناية بالأسوار وأبراجها والموانىء وأبوابها إنما هو للإفادة من الموقع. ولأن الموحدين والمرينيين كانوا يحكمون في فترة من الفترات المهمة في تاريخ المغرب، ولأنهم كانوا يشعرون بما يلقى على أكتافهم من مسؤولية وواجب، فقد قاموا بذلك خير قيام. وأجمل ما في ذلك هذا التعبير الفني عن كل ما اختطوه وعملوه وبنوه واحتضنوه وأحاطوه برعايتهم. وزيارة واحدة إلى المغرب تضعنا وجهاً لوجه أمام هذه الحقيقة التاريخية المهمة.

٦ ـ من تاهرت إلى سجلماسة

في أواسط القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، قامت في المغرب دولتان متفقتان أصلاً مختلفتان فرعاً،وكان لكل منهما منفردة، ولهما معاً، دور كبير في تاريخ شمال افريقيا الغربي. أما الأولى فهي الدولة الرستمية (١٦٠ ـ ٢٩٦هـ/ ٧٧٧ ـ ٩٠٩م) التي أنشئت في المغرب الأوسط على ثلاث مراحل من البحر المتوسط، والثانية قامت في جنوب المغرب الأقصى وهي دولة بني مدرار (١٤٠ ـ ٢٩٦هـ١٣٤ ٧٥٧ ـ ٩٠٩م). والدولتان تمثلان حركة الخوارج في الديار المغربية. إنما الفرق بينهما أن الدولة الرستمية كانت إباضيّة، فيما كانت الدولة المدرارية صُفريّة.

المعروف أنه في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أصبح مذهب الخوارج هو الغالب على البربر في الديار الافريقية الشمالية. وكان للاباضية دور كبير في افريقيا (المغرب الأدنى أو تونس) وطرابلس، حتى أنهم احتلوا القيروان بالذات. لكن الولاة العباسيين أخرجوهم وحملوهم على الانتقال إلى المغرب الأوسط (الجزائر) حوالى سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م. وبعد فترة من التنقل وصلوا، بقيادة عبد الرحمن بن رستم، الذي كانوا قد اختاروه مقدماً عليهم، إلى منطقة تاهرت (تيهَيّرت اليوم). وفي السنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م اختير عبد الرحمن إماماً للظهور (أي إمام تكوين دولة) وبدأت به الأسرة الرستمية. وعبد الرحمن فارسي الأصل، وصل إلى المغرب شاباً في مطلع القرن الثاني الهجري، وكان أحد الخمسة الذين أرسلوا إلى البصرة ليتلقوا التعاليم الإباضية الأصيلة. فقضى هناك، مع رفاقه، خمس سنوات، عادوا بعدها (١٤٠هـ/ ٧٥٧م) إلى المغرب وعرفوا باسم «حَمَلَة العلم».

تقع تاهرت على ارتفاع نحو ألف متر عن السهوب الواقعة إلى جنوبها، وعلى كتف منطقة التل الخصبة. وكانت مصيفاً لرعاة السهوب الذين كانوا يقصدون المنطقة إلى المراعي الخصبة. فإذا انتهى الصيف، كانوا يعودون إلى سهوبهم وقد باعوا منتوج أنعامهم ـ من الحليب والصوف والجلود ـ إلى أهل تاهرت، وابتاعوا منهم الحبوب زاداً للشتاء والأقمشة اتقاء لبرده.

وكان ثمة حصن هو بقية لمدينة قديمة، لعلها تعود إلى أيام البزنطيين إن لم تعد إلى العصر الروماني. وكان اختيار المكان نتيجة بحث وتقص إلى أن اتفق عليه. وهو أرض مسطحة فيها غيضة بين ثلاثة أنهار. وهي على الطريق الواصل بين البحر شمالاً والمناطق الداخلية جنوباً. وهي كما وصفت توجه أنظارها نحو الداخل وتولي ظهرها للبحر! وابتعد القوم عن تاهرت القديمة (العليا) وخططوا مدينتهم الجديدة (السفلى) على بعد خمسة كيلومترات من الحصن القديم.

وتخطيط المدينة وبناؤها، في مكان جديد، كان يقتضي إزالة الآجام وحرق الأشجار قبل أي شيء آخر. ثم جاء العمل الأول وهو بناء المسجد الجامع حيث كانوا يصلّون وهم يهيئون الأرض. ووصلت عبد الرحمن هبات مالية من اباضية طرابلس ثم من المركز المشرقي الرئيسي في البصرة، فأعانه ذلك على إقامة الأبنية اللازمة أولاً، ثم تلا ذلك، مع الوقت بناء القصور والبيوت والحمامات والفنادق ويبدو أنه للأندلسيين دور في هذا.

على أن الأهم من إقامة المباني، في رأينا، هو الإفادة من العناصر الطبيعية في المنطقة وتنظيم ذلك. فماء النهرين اللذين كانا يحيطان بها، وماء المطر الذي كان غزيراً نسبياً، شقت له القنوات بحيث يمكن للأرض أن تفيد منه. وأقيمت الطواحين على الأنهار، وزُرع الكتان والسمسم وسائر الحبوب على اختلافها، وغُرست الأشجار وأقيمت البساتين. وزاد من أهميتها كونها منتجعاً لرعاة القبائل المجاورة للإتجار بمواشيهم، بحيث أن تاهرت وصفت بأنها أحد مصادر الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين.

ومع أن الأمراء (أو الأئمة) الرستميين خرجوا فيما بعد عن القواعد الأصلية والأسس التي استنها عبد الرحمن بن رستم للحكم، فاختلفوا فيما بينهم وتحاربوا، فقد ظلت الدولة قائمة إلى أن قضى عليها الفاطميون (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م).

أما دولة بني مدرار فقد قامت في سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى، ولعل الصفريّة، وأعوانهم من مكناسة، أرادوا أن يبتعدوا عن مراكز القوة العباسية بقدر المستطاع، فانتبذوا من دون الناس مكاناً قصياً، واختاروا منطقة تافيلات (تافيللت) بسبب أن المكان محمي طبيعياً من الجهات الأربع. فهو في نهاية العمران جنوباً وغرباً. على أن سجلماسة تقع في وادي ملوية، حيث يلتقي فرعاه. ومعنى هذا أنه ثمة عناصر تصلح للإفادة منها ــ أرضاً وماءً ــ وهذا الذي حدث. فبعد أن أقام الصفرية المسجد الجامع ودار الإمارة والحصن (وسموه العسكر)، وأقبل الناس إليهم من جهات مختلفة، اتسعت المدينة بيوتاً وأسواقاً، وأدير حولها سور في أيام أكبر امرائها اليَسَع بن أبي القاسم الملقب بالمنصور (١٧٤ ــ ٢٠٨هـ/ ٧٩٠ ــ ٨٢٣م). وكما حدث في تاهرت فقد أفاد الحكام، وخصوصاً أولهم، عيسى بن يزيد (١٤٠ ــ ١٥٥هـ/ ٧٥٧ ــ ٧٧٢م)، من الأحوال الطبيعية، فشقت القنوات واستكثر غرس النخيل وأشجار الفاكهة والأعناب. وتنوعت المحاصيل أيضاً من خضار وبقول. ويبدو أن سجلماسة كان للأندلسيين يد في عمارتها. وهناك رواية تقول بأن المدراري الأول كان حداداً ولعله نقل الصناعة من الأندلس!

ودارت خصومات بين أفراد البيت المدراري، على نحو ما رأينا في البيت الرستمي، ووقعت معارك، وأخيراً جاء الفاطميون وقضوا على الأسرة الحاكمة وخربوا المدينة (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م). (قام الصفريون بثورات ضد الحكم الفاطمي بعد هذا الاحتلال، لكن هذه التفاصيل لا تعنينا الآن).

هاتان المدينتان ــ تاهرت وسجلماسة ــ كان لهما دور كبير في تاريخ الديار المغربية،

على أن عمرهما لم يطل. والدور أبعد مدى من الدولتين اللتين قامتا فيهما، على الرغم من أنهما تمثلان ناحية خاصة من الحضارة العربية الإسلامية هناك.

كانت منطقة سجلماسة، في درعة، تتمتع بمناجم الفضة والذهب. ومن هنا كان لها مورد لم يكن له في تاهرت مثيل. إلا أن المدينتين قامت فيهما صناعات متقدمة. فالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية الجيدة عرفت في المنطقة الواسعة، وكان صنّاع المدينة، يجيدون إلى ذلك، صنع أواني الخزف البراقة والتحف المعدنية والعطور. وقد كان في تاهرت عدد من الفرس كبير، ولعل العناية بالصناعة جاءت منهم، كما جاءت مع مهاجرة الأندلس.

كانت سجلماسة أيضاً تصنع الثياب والأزُر الصوفية، بحيث أن الجغرافي البكري روى أن هذه المصنوعات كانت تضارع مثيلاتها المصرية. كما كانت سجلماسة تصنع السكر وتتاجر بالملح.

وحري بالذكر أن المدينتين، بحكم أنهما كانتا منشأتين جديدتين، جذبتا السكان من أماكن مختلفة. فأقبلت القبائل من مختلف الجهات على سكنى سجلماسة ـ من البربر والسودان والأندلسيين ـ وانتقل عدد لا يستهان به من أسر القبائل البدوية إلى حياة الاستقرار زراعة وبعض صناعة وتجارة. لذلك اتسعت ضواحيها وأرباضها. أما تاهرت فإضافة إلى من استوطنها مع عبد الرحمن بن رستم ومن وفد إليها بعد إنشائها، فقد قصدها عدد كبير من الفرس: «بحيث شكلوا قوة اجتماعية لها وزنها حتى كانوا أشبه بدولة داخل الدولة» (محمود إسماعيل عبد الرزاق). وكانت لهم سوق خاصة بزعيم الجالية الفارسية. كما كان ثمة جالية عراقية، لها حيها وأسواقها. وبحكم أن هذه العناصر (ويضاف إليها العنصر الأندلسي) كانت ذات حضارة، فقد أثرت في تطوير المجتمع التاهرتي حضارياً إلى مدى أبعد مما أصاب سجلماسة. فامتلك أثرياء تاهرت القصور والمنازل الكبيرة التي أقيمت خارج المدينة، واقتنوا العبيد والحشم، وانصرف الكثيرون، بمن فيهم الرستميون أنفسهم، إلى حياة الدعة. ولعل النقلة الكبرى في هذه النواحي هي التي انتقلها زعماء البربر. فكانت لهم الأبنية المبهجة والحمامات المتقنة والفرش والستائر المزخرفة والألبسة المزركشة. وهي أمور لعل أثرها كان سلبياً بالنسبة إلى سرعة الانتقال.

ليس من ريب في أن الزراعة والصناعة اللتين ازدهرتا في كل من تاهرت وسجلماسة لم تكونا كافيتين لخلق مثل هاتين المدينتين، وجعل السكان، حتى في سجلماسة، «مياسير»، وتمكين أكبر عدد (ولو على حساب العدد الأكبر) من الثراء. فما الذي يسر لهاتين المدينتين وجماعاتهما هذا الثراء وهذا العيش الخفيض؟

الجواب يأتي من التجارة. فالمدينتان كانتا تقعان في مركزين مهمين تلتقي عند كل منهما طرق تجارية مهمة. فتاهرت تتصل بالبحر شمالاً عبر الأودية التي تخترق التل. ومن الموانىء هناك كانت السفن توصل المتاجر إلى الموانىء الاسبانية وتنقلها منها. وأكثر ما كان

يحمل من الأندلس إلى تاهرت الزجاج والأقمشة والحلي والكتب. وكانت تاهرت بدورها تتصل بالسودان الأوسط (حول كانم وما إليها). وعلى هذه الطرق كانت تحمل سلع من تلك الجهات، وأهمها الرقيق والعاج والأخشاب التي تستعمل في صنع الأشياء الفنية الدقيقة. وكانت تاهرت تنتهي إليها الطرق الآتية من أقصى المشرق من بغداد والبصرة عبر مصر وبرقة. هذه الطرق كانت تحمل قوافلها الآتية أقمشة مصر وحلي العراق. وأكثر ما كانت تاهرت تبعث به، من نتاجها الخاص، الحبوب إلى الأندلس. والطريق الشرقي المذكور كان يمر، في بعض فروعه، بالقيروان. والقيروان عاصمة الأغالبة المعاصرة للرستميين والمدراريين. وكان تجار القيروان يتاجرون (ويقيمون أحياناً) بحرية في تاهرت على ما بين العاصمتين من خلاف عَقدي وسياسي.

وكان الأمراء الرستميون يهتمون بالتجارة من حيث أنهم كانوا يقومون بالأعمال التجارية دون أن يحتكروا التجارة رسمياً.

أما سجلماسة فكانت المركز الرئيسي للطرق الموصلة إلى السودان الغربي (وحريّ بالذكر أن سجلماسة ظلت كذلك إلى حول القرن السابع أو حتى الثامن الهجريين/ الرابع عشر الميلادي، إذ إنها المنفذ إلى الصحراء وما وراء الصحراء. وإلى أسواق سجلماسة كان يحمل الذهب والرقيق من السودان الغربي، فينقل إلى تاهرت والأندلس وحتى مصر (بعد سقوط سجلماسة بأيدي الفاطميين). وكانت الطرق من سجلماسة شمالاً إلى فاس وغرباً إلى البحر حيث تحمل السفن غلال سجلماسة وسكرها إلى موانىء الأندلس كاشبيليا وشاطبة، وتعود بالثياب والطرز القرطبية، على نحو ما كان يتم مع تاهرت.

ولم يكن لتجار سجلماسة غنى عن تاهرت، ولا لتجار هذه غنى عن تلك. وإذاً فإنه من الممكن القول بأن المتاجر الآتية من السودان، أو بعضها على الأقل، كان من الممكن لها أن تنقل إلى أي من الأسواق الكبيرة العربية الإسلامية يومها: قرطبة أو فاس أو القيروان أو طرابلس أو مصر أو بغداد. ومثل ذلك يقال عن مصنوعات هذه الأقطار وسلعها، أو بعضها على الأقل، في أنها كانت تصل إلى مناطق نهر النيجر في مالي وما إليها، في قوس من سجلماسة إلى تاهرت فالقيروان فمصر، مع ما يتفرع من هذه الطرق.

على أن هذه الطرق لم تكن سبيلاً لحمل المتاجر في اتجاه واحد أو أكثر، ولكنها حملت بعض المزروعات إلى المناطق الأفريقية. فالذي نراه هو أن قصب السكر نقل إلى سجلماسة وما إلى الجنوب منها عبر هذه الطرق.

ونتساءل في نهاية المطاف، عن الدور الذي قامت به المدينتان في خدمة الثقافة والفكر في الديار المغربية. والجواب عن هذا هو أن المدينتين، ولكن تاهرت بشكل أخص، كان لهما دور ثقافي. فتاهرت كانت فيها مكتبة تعرف بالمعصوبة، وقد جمعت فيها كتب الفقه الأباضي وغيره وكتب النحو والتوحيد والتفسير والفلك والرياضيات. وهذه الكتب، سواء منها ما فيه تعاليم الخوارج، إباضية وصفرية، أم ما فيه الفقه المالكي، كانت ترد على تاهرت وسجلماسة (وغيرهما من مراكز الخوارج في جبال نفوسة مثلاً) من المشرق. وقد روي أن

أباضية المشرق نسخوا آلاف الكتب وبعثوا بها إلى تاهرت عاصمة الرستميين.

ويبدو أن المناقشات العلمية الإسلامية، في الفقه وما إلى ذلك، كانت تجري، في أوقات مختلفة، بكثير من الحرية. فقد روي أنه جاء وقت كانت فيه حلقات الإباضية والصُفرية تعقد في جامع القيروان. وكان فقهاء المالكية يناقشون الإباضيين في مساجد تاهرت، باستثناء المسجد الجامع.

وكان في المغرب، عدد من المعتزلة (الواصلية) كبير، وفي تاهرت بالذات. وكانت المناقشة تدور بين هؤلاء وبين الإباضية في تاهرت. ومع أن تاهرات تفوقت بسبب اتصالها المباشر، على سجلماسة، فإن هذه كانت أيضاً مركزاً ثقافياً مهماً.

على أننا نرى أن إحدى الخدمات الأولى التي قامت بها المدينتان هي نشر الإسلام في المناطق السودانية. فسجلماسة، تجارها المسلمون الذين كانوا يتوغلون في بلاد التكرور وغانا ومالي، وعلماؤها الذين كانوا يفسرون للناس الإسلام، هم الذين غرسوا البذور الأولى في السودان الغربي. فلما جاء المرابطون وجدوا الغراس الأولى فقووها وشدوا وثاقها. وتجار تاهرت، الذين كانت لهم ارتباطات أقوى بالسودان الأوسط، كانم وما إليها، يرجع إليهم فضل نشر البذور الأولى للإسلام هناك.

لما احتل الفاطميون تاهرت (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، انتهى أمر المدينة التي دمّرت. وقد أحرقت المكتبة الرستمية المعروفة بالمعصومة بعد أن استخلصت منها كتب العلوم الدخيلة ـ أي الفنون والصنائع وما إليها ـ وقد خرج من تاهرت كثير من أهلها إلى سدراته. وكل من المكانين عفا عليه الدهر، وأعمال الحفر في المدينتين لم تبلغ بعد الدرجة الكافية للتحدث عن الفنون والمعمار والأساليب المتبعة. لكن القليل الذي رشح من المصادر ومما قام به بعض رجال الآثار يدل على أن تاهرت ـ وسدراته بعدها ـ كانت تتأثر خطى العراقيين والفرس في البناء المدني والتحصين وبناء الأسوار. إلا أن هذا الأثر ليس الوحيد الذي يمكن تلمسه في تاهرت وسدراته، بل هناك تأثير من الفن المصري. وهكذا، كما اجتمعت سلع مصر والعراق في تاهرت اجتمع فن البلدين في مساجدها وبيوتها وساحاتها وعرصاتها.

أما سجلماسة فكانت أكثر تأثراً بالأندلس. ويبدو كما أشرنا إلى ذلك قبلاً، أن صناع الأندلس، فضلا عن تجارها، وجدوا لهم سوقاً رائجة ومعاشاً طيباً وإقامة مريحة، فنفحوا المدينة بما عندهم لقاء ذلك كله. [مدينتان متعاصرتان لم تعمرا إلا قرناً وجزءاً من القرن، ومع ذلك تركتا أثرهما في السكان والمكان. ولما انتهى أمرهما مراكز دولة، انطبق عليهما ما قيل:

كأن لم يكُن بين الحجون الى الصّفا جليسٌ ولم يَسْمُر بمكَّة سامِرُ

٧ ـ مدينة الجزائر

في البدء

مدينة تعتمد إلى تلال تكلؤها، وتلقي غاباتها عليها ظلالها، وتطل عليها حنواً وعطفاً، فإذا اطمأنت المدينة إلى المتعة والحنو والعطف اتخذت من البحر لها قبلة ووجهة، فاتسعت آفاقها باتساعه، وعمق شعورها بعمقه، وامتدت آمالها بامتداده، وهدأت أحلامها بهدوئه، وثارت ثائرتها بضعفه، وجاشت خواطرها بثورته. ذلك كان شأنها يوم وضع الإنسان الحجر الأول في مدينة الجزائر، ولا يزال شأنها كذلك إلى يوم الناس هذا. عرفناها كذلك ووسط يومها يقيظ، وعرفناها وأمسيتها تنعش، وعرفناها وليلها يقلقك برده.

على أن هذه الحماية من البر، وصعوبة الوصول إليها من البحر عوق الاعتراف بقيمتها. وكان الفينيقيون أول من أدرك الفائدة من اعتمادها مرفأ صغيراً تلجأ إليه سفنهم. ذلك بأنهم لما خاضوا عباب البحر المتوسط، وتعرفوا تدريجاً إلى ثروات الأقطار المختلفة منه، وتقدم تجارهم غرباً للشراء والبيع وتبادل السلع، كانوا بحاجة إلى محطات على شاطىء البحر الجنوبي، يربح فيها البحارة، وتلجأ إليها السفن، على أن لا تكون هذه المحطات متباعدة الواحدة عن الأخرى. والباحثون في تاريخ الانتشار الفينيقي التجاري في تلك الأصقاع، لاحظوا أن هؤلاء البحارة كانوا يختارون ملاجئهم البحرية، بحيث لا يبعد الواحد عن الآخر أكثر من إبحار يوم واحد. فكانت البقعة التي تقوم عليها الجزائر اليوم محطة لهم.

يبدو أن الاسم الذي أطلق عليها هو ايكوسين. وهذا هو الاسم الذي عرفت به في الأساطير اليونانية، ومن هنا نسبتها هذه الأسطورة لنفسها، ولو أن الأسطورة دوّنها صولين الروماني. وتتلخص الحكاية في أن هرقل الإله اليوناني الجبار صحبه في إحدى سفراته بقصد الوصول إلى الغرب ليفصل بين شبه جزيرة ايبيريا والمغرب، وكان القسمان متصلين. ولما وصل هرقل إلى مكان الجزائر للإراحة مع صحبه «العشرين»، أعجب الصحب بالمكان. فانفصلوا عن هرقل وظلوا هناك. أما هو فقد سار غرباً حتى فصل البر عن البر (ومن هنا تسمية مضيق جبل طارق قديماً بأعمدة هرقل). والنفر العشرون الذين انفصلوا عنه أسسوا على البر بلدة سميت مدينة العشرين كي لا يستأثر واحد منهم بإطلاق اسمه على المدينة. وقد كان تعليل صولين لهذه الأسطورة هو أن اسمها القديم «ايكوسين» يعني الجزء الأول منه (ايكوسي) العشرين باليونانية.

ولا شك في أن الأسطورة جميلة، لكنها لا تثبت أمام الحقيقة التاريخية التي أثبتتها الأدلة الأثرية، من تماثيل لبعل حمون وملكارت ضريح فينيقي الأصل ونقود فينيقية رصاصية وبرونزية (عثر على ١٥٨ قطعة نقدية)، والدراسة التاريخية. وقد يكون لليونان فيما بعد في

المكان نصيب، لكنه لم يبلغ حد التأسيس. ولعل تأسيس «محطة» دائمة فينيقية يعود إلى القرن السابع ق.م. إن لم يسبق ذلك بقليل. وهكذا جمعت ايكوسين بين نشاط الفينيقي التاجر وسكان البلاد، فكان تعامل وتزاوج وامتزاج. ونقل الفينيقيون معهم ما كان عندهم من عادات وتقاليد ومتاجر ودين، فقبل السكان الأصليون من ذلك الكثير. وجمع التاجر الفينيقي في ايكوسين وفي غيرها ما استطاع من البضائع المحلية كالصوف والجلود أو المستوردة (ولعل الذهب الإفريقي كان أحدها). والماء في ايكوسين غزير، والسهل المحيط بها يوفر المواد الغذائية اللازمة، والعنصر البشري الأصلي يبتاع من الفينيقيين بعض ما يحملونه معهم من أمشاط وآنية زجاجية للزخرفة كالمكاحل وقماش جميل متين. وظل هؤلاء على الساحل الضيق؛ ذلك بأن العدد لم يزدد بحيث يتسلقون الهضبة إلى الداخل، كما حدث فيما بعد.

ونعم الفينيقيون، كما نعم خلفاؤهم فيما بعد بمناخ الجزائر اللطيف، الذي وصفه الدكتور حليمي عبد القادر علي بقوله:

«إن مناخ مدينة الجزائر وضواحيها بحري بالدرجة الأولى ومعتدل للغاية وأقرب إلى الدفء منه إلى البرودة في فصل الشتاء حيث أن مقياس الحرارة هذا الفصل لا ينزل إلى ما دون الصفر إلا نادراً بل لا ينزل بالمرة على الشاطىء. وفصل الصيف تغلب عليه الحرارة التي يمكن تحملها بارتياح نظراً للرطوبة الجوية المنخفضة وهبوب نسيم البحر الذي يلطف الطقس.

«والرياح تهب في فصل الشتاء في الغالب من الشمال أو الغرب أو الشمال الغربي تجلب السحب والأمطار الغزيرة على عكس الرياح التي تهب في فصل الصيف وتكون في الغالب من الشرق أو الجنوب أو الجنوب الشرقي، وهي رياح جافة تحمل السحب في بعض الأحيان لكنها لا تسبب الأمطار. والضغط معتدل في المدينة وضواحيها إذ يقرب من الضغط العادي في كل فصول السنة.

«والأمطار متوافرة، يبلغ متوسطها السنوي ٧١٨مم وهي كمية يمكن أن يتجاوزها المعدل إلى ١٣٤٢مم أو يقل عنها ولكن دائماً في حدود أكثر من ٤٠٠مم. ويبدأ فصل المطر عادة في أواخر (أيلول) سبتمبر لينتهي في أواخر (أيار) مايو ويشتد في شهر (كانون الأول) ديسمبر وقليلاً ما كانت الأمطار مصحوبة بالرعود، كما تقل الأمطار السيلية التي تحفر الأخاديد وتجرف التربة وتعوق المرور.

«وعدد الأيام الممطرة قليلة بالنسبة لكمية الأمطار التي تتصف بنوع قليل من الشدة ولا تحجب الغيوم إلا جزءاً من سماء المدينة، وإن الغمام يندر فيما بين شهري (أيار) مايو و(تشرين الأول) اكتوبر، وهي فترة الجو النقي الصافي اللماع الذي تكون شفافيته شديدة ومتجانسة ليلاً نهاراً. ويشتد في هذا الفصل السطوع ولا تظهر الأبخرة البيضاء إلا صباحاً فوق البحر بالخصوص لكنها أبخرة زائلة، إذ سرعان ما تبددها الأشعة الشمسية ونسيم البحر، ثم تعود للجو صفاوته وتفاوته ويحس الإنسان وكأنه في فصل الربيع.

«والفصول تتوالى من غير أن يشعر بها الإنسان لكن الطبيعة لا تغفل عن الإخبار بتاوب الفصول وذلك باخضرار الحشائش، وسرور الأطيار كعلامة لدخول فصل الربيع. وعلى العكس فصل الصيف الذي تنام فيه الطبيعة ثم تزيل رداءها في فصل الخريف لتستيقظ في فصل الشتاء مستعدة لاستقبال فصل الربيع بازهاره الباسمة. ما أجمل طبيعة الجزائر وما أطيب مناخها».

وحريٌّ بالذكر هو أنه لما قامت امبراطورية قرطاجة وتوسعت شرقاً وغرباً، حافظت على المحطات هذه، التي كان يفصل بين الواحدة منها والأخرى إبحار يوم. فكانت منها الجزائر وتيباسا وشرشل (يول القديمة) وغيرها.

وجاء يوم فقدت فيه قرطاجة امبراطوريتها سنة ١٤٦ق.م. وحلّت روما مكانها. وبدّل الرومان اسم المكان من ايكوسين إلى ايكوسيوم، أي رومنوه بعد أن كان يونانياً. لكنهم لم تلفتهم المدينة أوالبلدة بشكل خاص. إنما احتفظوا بها «محطة» عسكرية على ما يبدو. وإذا صح هذا، فإنه يوضح لنا تسلقهم أطراف التل. ولا تزال آثار التخطيط المتعامد للمدينة الرومانية ماثلة في الأجزاء الشاطئية من المدينة.

العرب في الجزائر

لما احتل العرب بلاد المغرب، وأقاموا لهم فيها دولة، لم تدخل ايكوسيوم في حسابهم. فهم إلى البر أميل، ومن ثم فقد بنوا القيروان، التي كانت مراحاً للجيوش وعاصمة بأجمعها وسوقاً لما يحمل من الداخل و«عكاظاً» لأهل العلم والقلم، فقهاء كانوا أم رواة أم كتاباً أو شعراء. ولكن قبيلة بني مزغنة، التي اعتنقت الإسلام، أدركت أهمية الاستقرار في الجزائر وضواحيها، فأقامت فيها أول مدينة ثانية وميناء، فكانت أول مستقر في الجزائر. وأصبحت ايكوسيوم تسمى جزائر بني مزغنة. ولم يطل أمر هذه القبيلة، ولكن يبدو أنه حتى في أيامها انتشر بعض المنازل على كعوب التل بالذات.

قامت الخلافة الفاطمية في المهدية (تونس) في السنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م ووضعت بعض المغرب العربي تحت نفوذها. لكن الإمارة الأموية في الأندلس كانت تطمع هي الأخرى في نفوذ في المغرب العربي. وكان بين الفريقين خصومة شديدة. ولما انتقل الفاطميون إلى مصر في أيام المعز، عهد هذا إلى بُلُّقين بن زيري بولاية افريقيا. وتوسع هذا في الولاية غرباً إلى مدينة سبتة، واستقل الزيريون عن الفاطميين بعد مدة، ثم انقسموا زيريين في الشرق وحماديين في الغرب وعاصمتهم قلعة بني حماد. وكانت الجزائر في نطاق هذا القسم.

كان بُلُّقين بن زيري قد حصّن ثلاث مدن وقواها هي: الجزائر ومليانة والميدية. فضمت هذه المدن الطرق البحرية الشمالية عن طريق الجزائر الميناء، وحرست الميدية ومليانة طريقي التل والسهوب. وقامت في الجزائر «القصبة» الأولى. ومدينة بلقين، والذين جاءوا بعده، تخطت المناطق الأولى التي عني بها العرب، وتسلقت الهضبة إلى ارتفاع يتراوح بين ١٠ و٨٠ متراً عن سطح البحر. وكان هذا هو بدء الزمن الذي ازدهرت فيه الجزائر. فقد أصبحت

معقلاً يصعب التغلب عليه حتى أن الحملات المختلفة التي دمرت العديد من المدن المغربية لم تطل الجزائر ـ لقد كانت حصينة وبعيدة عن خط النار ـ والغزوة ـ أو الهجرة ـ او الهلالية (أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) التي دمرت القيروان وغيرها. لم تشعر الجزائر بها إلا لماماً وحتى حملة يوسف بن تاشفين المرابطي (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) لم تستطع الاستيلاء على الجزائر.

وما دمنا نتحدث عن المدينة، فلنذكر أمراً على غاية الأهمية بالنسبة إلى خطط المدينة. فقد كان تطور المدينة اعتباطياً، لا تخطيط فيه. يزداد عدد السكان فتزيد الحاجة إلى المنازل، فتبني هذه كما اتفق. فسارت الشوارع على امتداد بطون الشعاب مرة، والأذرع مرة، و«اتبعت في سيرها... خطوط الأرداف، أولاً، أي أصبحت تتقاطع وخطوط الكونتور (خطوط الارتفاعات المتساوية) بدلاً من سيرها مع خطوط الكونتور». ذلك «أن العشوائية والحاجات الفردية كانت لها اليد العليا في بناء المنازل ومد الشوارع، دون مراعاة للنمو العمراني». فزال المخطط المتعمد الروماني، إلا النادر منه.

وعندنا وصف للجزائر يعود إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بقلم ابن حوقل الجغرافي الرحالة إذ يقول: «وجزائر بني مَزغنّاي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضاً. وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها. ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة. وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال. ولهم من العسل ما يُجهّز عنهم والسمن والتين ما يجهَّز ويجلب إلى القيروان وغيرها. ولها جزيرة في البحر، على رمية سهم منها تحاذيها. فإذا نزل بها عدو لجأوا إليها فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه».

وقد سيطر بنو غانية على الجزائر وأرباضها في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر، وأقاموا لهم إمارة عمادها المدن الثلاث التي اتخذ منها بلقين منطلق حكمه.

لسنا نريد أن نفصّل تاريخ المنطقة، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن دولة الموحدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧هـ/ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩م) التي شملت مدينة الجزائر فيما حكمته، آل أمرها إلى الضعف والانحلال، ثم عرف المغرب في القرن الثالث عشر والقرن الذي تلاه صراعاً في منطقة المغرب العربي انتهى بقيام دولة بني مرين في المغرب (فاس) والزيانيين (أو بني عبد الواد) في المغرب الأوسط (تلمسان) والحفصيين في افريقيا (تونس). وفي فترة ساد توازن سياسي بين هذه الدول ظلت الجزائر بمنأى عن الصراعات.

وفي القرن الرابع عشر كانت الجزائر في وضع تمارس فيه حكماً ذاتياً يقوم على رأسه جماعة التجار. وهذه المدينة كانت تحميها قبيلة الثعالبة العربية، التي أفادت من تجربة بلّقين وبني غانية، فاتخذت المثلث الواقع بين الجزائر ومليانة والميدية قاعدة لها. وظل الأمر على ذلك إلى أن دخل عروج مينة الجزائر سنة ١٥١٦.

نقلنا من قبل وصف ابن حوقل (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) للجزائر، وها

نحن أولاً نضع بين أيدي القراء ما قاله كل من البكري (أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) والإدريسي (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).

كان البكري يتحدث عن الطريق من مدينة اشير (وهي من بناء الزيانيين) إلى الجزائر، فقال: «ومنها إلى مدينة جزاير بني مَزغنّى وهي مدينة جليلة قديمة البنيان: فيها آثار للأُول، وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم. وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء، فيها صور الحيوان، بأحكم عمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون. ولها أسواق ومسجد جامع... ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أهل السفن من افريقيا والأندلس وغيرهما».

ويقول الإدريسي، بعد ذلك بأقل من قرن: «ومدينة الجزائر على ضفة البحر. وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار. وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسوارها قائمة، وصناعاتها نافقة، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر. وزراعتهم الحنطة والشعير، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم. ويتخذون النحل كثيراً، فلذلك العسل والسمن في بلادهم كثير. وربما يُتجهَّز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم. وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة».

ونقف في رحلة البلوي (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) على ما يدل على أن العمران عاد إلى المدينة، وأن تجارتها رائجة.

وقد كانت العلاقات التجارية بين موانىء المغرب العربي والموانىء الأوروبية تخضع لقيود وقوانين نشأت مع الوقت، وكانت لمصلحة التجار جميعهم. مثلاً كان الرسم الجمركي على ما ينقل إلى المغرب هو نحو ١٠ بالمئة يضاف إليه ٥ بالمئة رسوم ميناء. لكن كانت هناك بضائع معفاة من الرسم الجمركي منها المجوهرات والحجارة الكريمة التي كانت تباع في البلاد للحكام. وجميع ما كان يستورد باسم الحاكم كان معفى من الرسم الجمركي، لكنه لم يعفَ من رسم الميناء (أي ٥ بالمئة). وهذه جميعها كان يطبقها أصحاب الأمر في الجزائر. فكانت الواردات من أوروبا (لا إلى مدينة الجزائر وحدها) تشمل طيور (القنص) مثل الصقور والأخشاب الخام والمشغولة، والنحاس والمعادن المستعملة في صنع الحلي والأقمشة الحريرية، والصوفية والقطنية حملت من أوروبا إلى المغرب. وقد كانت الأسر المغربية الثرية تستعمل في المنازل الدنتلا البرغندية والستائر الفرنسية والأقمشة الإيطالية الرقيقة وأقمشة الكتان والمخمل (القطيفة) والحرير والتفتة الإنكليزية. وكانت مدينة الجزائر تستورد أصبغة خاصة من المدن الأوروبية.

أما مدينة الجزائر وجوارها فكانت تُصدِّر الى أوروبا الرقيق الأسود والخيول والسمك المملح والجلود الخام والمصنوعة والملح والشمع (شمع العسل) والأصبغة النباتية والمرجان وزيت الزيتون والعسل المنقول من غرب موريتانيا الحالية.

ويرى الباحثون أن السفن كانت تلقي بمراسيها في ميناء الجزائر بشكل منتظم بسبب

هذه التجارة. فسفن البندقية كانت تفد في تموز/ يوليو، وهكذا. وكانت كل مدينة أوروبية تبعث إلى الجزائر بما يتراوح بين ٤ و٦ سفن في العام الواحد.

كم يحب الباحث في تاريخ مدينة الجزائر أن يتعرف إلى عدد سكانها في هذه الحقبة الطويلة! ولكن ليس في المصادر التي بين أيدينا ما يمكننا من ذلك. أما فيما يتعلق بالفترة السابقة للوجود العربي، فالحصول على أي أرقام ضرب من المستحيل. وقد أخرج الدكتور حليمي عبد القادر علي أن سكان المدينة في مطلع العهود العربية الإسلامية، كان في حدود خمسة آلاف نسمة جلهم من الأهالي الأصليين. ولكن بعد أن تولى الأمر بُلقين ونظم أمر المنطقة وبنى القصبة الأولى في المدينة فقد أصبح عدد السكان، في رأي الدكتور علي، نحو ثلاثين الف نسمة. وقدّر مارمول وكارت، وقبل الدكتور علي ذلك، الجماعات الهلالية التي وصلت إلى المغرب العربي بما يزيد على المليون، وكانت حصة القطر الجزائري من هذا الرقم نحو خُمسه. ولكن هذه تقديرات يصعب قبولها في الواقع.

والثعالبة، وهم من بني معقل، من الجماعات التي وصلت تلك الديار في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وقدر عددهم بنحو ٤٤ الف نسمة، كان نحو ربعهم يقطن مدينة الجزائر، هذا إضافة إلى من كان فيها.

لكننا، ونحن نضع هذه الأرقام أمام القارىء، نعود إلى التذكير بأن هذا التقدير هو من قبيل التخمين.

الأتراك في الجزائر

بين سقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين (١٤٥٣م) واستيلاء عروج على الجزائر (١٥١٦) تبدلت الأحوال في غرب البحر المتوسط إلى درجة كبيرة. فالتساوق التجاري الذي كان الفريقان ـ المغربي والأوروبي ـ يدعمانه اضطرب بسبب استيلاء الإسبان على غرناطة (١٤٩٢)، ونشاط إسبانيا، بدءاً من أوائل القرن السادس عشر، في الاستيلاء على موانىء في شمال المغرب العربي، وإخراج أعداد كبيرة من العرب المسلمين ومن اليهود من اسبانيا، وتوسع أعمال القرصنة في تلك المنطقة.

والمهم، بالنسبة إلى مدينة الجزائر أنها أصبحت منذ ١٥١٦ تابعة لتركيا. ولما تم الاستيلاء على البينون (وهي الجزيرة المقابلة للمدينة التي كانت فيها حصون اسبانية قوية) على يد خير الدين بربروسا (١٥٢٩)، تمت السيطرة التركية على المدينة، وامتد الفتح إلى الساحل الجزائري تدريجاً (ثم تبعت طرابلس سنة ١٥٥١ وتونس ١٥٧٤).

ومما يعنينا في هذه المناسبة أمور ثلاثة على غاية الأهمية وهي: (١) إن المدينة أصبحت لأول مرة في تاريخها، عاصمة للقطر الجزائري. (٢) إن جماعات من المهاجرين الأندلسيين هبطوا الشمال الافريقي واستقر عدد منهم في المدينة، «هؤلاء نقلوا إليها... ما وصلوا إليه من تطور حضاري في العمارة والتنظيم العمراني... ومن الهجرات التي جاءت مدينة الجزائر هجرة اليهود»، وذلك بعد أن قضى عروج على دولة الثعالبة (١٥١٦). (٣) إن

الجزائر، مدينة وموانىء، اتجهت نحو البحر لتنمية ثروتها، إذ إن القرصنة وصلت حدوداً كبيرة.

أصبح من الضروري أن يضاف إلى سكان الجزائر، القدم والجدد، اللفيف الأجنبي والذي يشمل: «أولئك العبيد المسيحيين الذين جمعوا عن طريق القرصنة، وهي حرفة ضرب فيها الأتراك بسهم وافر؛ حيث جمعوا من الاسبان والإيطاليين والانكليز والبرتغاليين والالمان وغيرهم من الدول الأوروبية المسيحية أعداداً كبيرة من البشر، حولوهم إلى عبيد، ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد الفداء من ذويهم أو من المؤسسات المسيحية» التي أنشئت لتحقيق ذلك.

وكان الأثر الأول لهذه التطورات أن ازداد عدد السكان في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد قدر الحسن الوزان (ليون الافريقي) أنه كان في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر (١٥١٦) ٤,٠٠٠ موقد. فإذا قدر لكل موقد (أي بيت) نحو خمسة أشخاص، كان عدد السكان الأصليين، وأكثرهم من الثعالبة والعرب الآخرين، عشرين ألفاً.

إلا أن عروج قضى على عدد كبير من الثعالبة، فتناقص عدد السكان. لكن هجرة الأتراك وهجرة الأندلسيين عوضت عن ذلك.

خلّف هايدو، الذي كان أسيراً بمدينة الجزائر (١٥٧٨ ـ ١٥٨١)، إحصاء يتعلق بالفترة هذه يمكن تلخيصه بأن ديار المدينة كانت ١٢,٢٠٠ دار، ويتخذ من ذلك أساساً للقول بأن السكان الجزائريين أصلاً كانوا نحو ٥٠,٠٠٠ نسمة؛ ثم يضيف هايدو إلى ذلك ٢٥,٠٠ من العبيد والأسارى المسيحيين. وهؤلاء هم الذين ظلوا على دينهم، إذ إن هايدو يقدر أن نحو عشرة آلاف أسير من المسيحيين اعتنقوا الإسلام، وبذلك أصبحوا مع الباقين من سكان أصليين ومهاجرة أندلسيين ويهود جزائريين.

اقتضى ازدياد عدد السكان توسع رقعة المدينة، فأتمت الأبنية تسلق مرتفعات التل، وانتشرت فوقه. وقد أدرك عروج أن المدينة أصبحت بحاجة الى حصون مشرفة، فاتخذ من قمة التل موقعاً لقصبته، ذلك بأن قصبة بلّقين لم تعد صالحة. وفيما كانت المنازل الجديدة تتمتع بالشمس والهواء، ولو نسبياً، فإن الشوارع والطرق الأصلية تحولت إلى ممرات ضيقة.

على أنه مع الزمن، وازدياد التوسع في الجزء الساحلي وفي السفوح، اختلطت الأمور إلى درجة كبيرة. فكان الزائر يجد، داخل أسوار المدينة حمامات جميلة وأبنية متسعة. وقد أجمل الدكتور حليمي عبد القادر علي (مدينة الجزائر ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥) وصف العمران داخل أسوار المدينة في العهد التركي إلى أواسط القرن الثامن عشر بما يلي:

«كانت المباني المتنوعة تزدحم داخل أسوار مدينة الجزائر منها الحمامات الجميلة المبنية بالرخام الأبيض، والمزدانة بالفسيفساء. ومنها الديار المكعبة الشكل الهندسي، أغلبها كانت تتألف من طابقين وسطح أفقي، والطابق الأول يسمى بالسفلي تكثر بداخله السواري الأسطوانية الشكل، والمنحوتة من الرخام أو الحجر الجيري، ويدخل الساكن إلى داره من باب متين مقوس الجزء العلوي ومستطيل الجزء السفلي، ومثبت في رف من رخام بالجدار يعلوه

أفريز أو طنف من القرميد وبالباب فتحة مسيجة بالحديد تساعد على الرؤية نحو الخارج، ومصرع الباب مرصع بالمسامر ليزيدها متانة، وحلقة حديدية لدق الباب، وداخل الباب أقفال ومغاليق ومصدم لتوفيق حركة الباب السريعة، والطابق الأول لاستقبال الضيوف: توجد به السقيفة، وغرف عديدة، تفتح كلها نحو وسط الدار أو ساحة المنزل، تعلو أبوابها الأقواس، وتكثر بها الأروقة. وفي هذه الساحة المفروشة بالبلاط بئر لسقي أصحاب الدار بالمياه اللازمة للشراب والغسل، وفوارة تنبجس منها المياه العذبة لتلطيف حرارة جو الدار في فصل الصيف، وتجميل الساحة في فصل الشتاء وأغلب الديار خالية من الشبابيك الواسعة، وإن وجدت فهي ضيقة للغاية ونادراً ما تعطي للانهج، وغالباً ما تفتح نحو الساحة. والطابق الثاني مخصص للنوم، فيه تستتر النسوة داخل غرف جدرانها مرصعة بالفسيفساء؛ وتوجد بهذه الغرف الخزائن المملوءة بالألبسة والستائر وغرف تعرف بالمقصورة مفروشة بالزرابي وبها الأرائك. والأسرة ولوازم غرف المبيت. ومن الطابق الثاني تتصاعد أدراج سلم من الرخام الأبيض أو من البلاط أو من الحجر الجيري إلى سطح الدار المخصص للمسامرة في ليالي الصيف، ومنه تتصل الجارة بالجارة لمبادلة الحديث والاستماع إلى أخبار بعضهن البعض أو لنشر الألبسة المغسولة. والطابق الثاني أوسع من الطابق الأسفل ويتركز جزء منه على أخشاب من السرو. ونظراً لازدحام الديار ببعضها فكانت سطوحها مماسة إلى درجة أنها تمثل من بعيد سطحاً واحداً، ويمكن التنقل عن طريق هذه السطوح من دار إلى أخرى بدون مشقة بدلاً من الأنهج التي أصبحت بعد ازدحام المباني عبارة عن أنفاق مظلمة وملتوية تحت السطوح أطلق عليها في بعض الأحيان السباط. وجدران الديار مبنية بالآجور أو الحجارة المنحوتة. وكان عدد الديار داخل أسوار المدينة نحو الخمسة آلاف دار سنة ١٧٨٩ كما قدرها فانتيردي برادي. وقدرت قبل الحملة الفرنسية (١٨٢٩) بحوالي ٨٠٠٠ دار. وهي ديار متشابهة مطلية كلها بالجير الأبيض أو الجبس. ولقد اعتنى سكان مدينة الجزائر بتجميل منازلهم داخلياً بالخصوص، أما خارج المنزل فقد اكتفوا بتبييضها في أغلب الأحيان. ولم تكن هناك علاقة بين النهج والمنزل، حيث ترك الاتراك للباني حرية البناء كيف شاء، دون ان تضبط الادارة الحد بين اتساع وارتفاع المنزل واتساع النهج، ولذلك طغت الديار على الأنهج، فكانت بذلك الأنهج ضيقة خالية من الأرصفة والنور، والديار متشابهة بحيث أن الواحدة منها تعطي صورة صادقة وعينة مألوفة لغيرها من حيث الشكل والديكور. وكانت مدينة الجزائر في العهد التركي تنقسم إلى أحياء سكنية، منها حي البحرية الذي تركزت به الطبقة الارستوقراطية من الأتراك بالخصوص والمصالح التجارية البحرية، وحي باب الوادي تركز به اليهود التجار، وحي باب عزون للأجانب وأصحاب التجارة من الأهالي، ثم حي القصبة القديمة للعرب، أما حي القصبة الجديدة أو العليا فللإنكشارية والدايات وأصحاب المناصب العالية في الدولة. وتتخلل معظم هذه الأحياء أسواق متنوعة من أهمها سوق باب عزّون وسوق باب الوادي ورحبة السمن بالقرب من جامع سيدي رمضان، وسوق السردين بالقرب من باب عزّون. وبجانبه سوق

القمح. ثم الفنادق لإيواء المسافرين منها خمسة فنادق كانت توجد في حي باب عزون».

ولنضف إلى هذا الوصف الحديث ما رواه التَمَغروتي الذي زار الجزائر سنة ١٠٠٣ للهجرة/ ١٥٩٥ للميلاد قال:

«الجزائر عامرة كثيرة الأسواق، كثيرة الجند حصينة، لها أبواب ثلاثة وفيها المسجد الجامع واسع إمامه مالكي المذهب. وفيها ثلاث خطب إحداها للترك إمامهم حنفي المذهب ومرساها عامر بالسفن ورياسها (أي رؤساء البحر) موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم. فهم أفضل من رياس القسنطينة بكثير، وأعظم هيئة وأكثر رعباً في قلوب العدو. فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد افريقيا وأعمر وأكثر تجاراً وفضلاً وأنفذ اسواقاً وأوجد سلعة ومتاعاً حتى أنهم ليسمونها «اصطنبول الصغرى». وطلبة العلم فيها لا بأس بهم، إلا أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيراً».

وهذا التعميم الذي أورده التمغروتي عن الأسواق نجد تفصيلاً له عند هايدو الذي كان في الجزائر قبل ذلك بنحو خمس عشرة سنة، إذ يقول:

«إن السفن القادمة من انكلترا تحمل إلى الجزائر الحديد والرصاص والقصدير والنحاس والبارود والأقمشة من كل نوع. والمراكب الواردة من اسبانيا ـ وخاصة من كاتالونيا (قَطلونية) وبلنسية ـ فتحمل الملح والعطور والجواهر والذهب والفضة... ومراكب مرسيليا والموانىء الأخرى لفرنسا فإنها تأتي بجميع أنواع أدوات البزازة والقطن والحديد والفولاذ والمسامير وملح البارود والشبّ والكبريت وحتى الزيت عندما يقل في المغرب... وحتى شحنات من البندق والقسطل. ومن جنوا ونابلي وصقلية تحمل السفن الحرير المنسوج ومن كل لون، ومنسوجات الدمقس، كما تبعث البندقية بالنحاسيات والصناديق والصابون الأبيض، ويستورد التجار الأتراك من القسطنطينية المجاذيف والقماش للعمائم والخناجر والأحزمة والزرابي والمعالق المنقوشة والأواني الفخارية. والصحون والأكواب المرصعة تأتي من الإسكندرية. ويستقدم التجار العرب من جزيرة جربة التوابل والتمر، ومن تونس زيت الزيتون الجيد والصابون الأبيض.

مر بنا من قبل أكثر من إشارة الى الأسرى الأوروبيين الذين كانوا يقعون في أيدي رجال البحر الجزائريين، وقد كانت السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر والسنوات الأولى من القرن الذي يليه هي الفترة التي بلغ فيها عدد هؤلاء الأسرى الذروة. وقد أورد وليام سبنسر جدولاً للهجمات التي شنها القرصان على كالابريا واسبانيا وذكر فيه عدد السفن التي ألقي القبض عليها والأسرى الذين وقعوا في أيدي رؤساء البحر. ومن هذا الجدول (للسنوات ١٦٠٧ ـ ١٦١٨) يتضح لنا أن السفن التي ألقي القبض عليها هو ٢٥١ سفينة كان فيها (وهم الذين أسروا) ٧٠٣٥ شخصاً، يضاف إلى هذا ثلاث هجمات على كالابريا وعدداً من الهجمات على اسبانيا حمل بنتيجتها ٥٢٠٤ أسرى. فيكون مجموع الذين وقعوا بيد القرصان ١٢,٢٣٩

شخصاً.

وهذه الأعداد تمثل أولئك الذين افتدوا ومن ثم أمكن التأكد منها. أما الذين لم يفتدوا، أو لم يرغبوا في العودة إلى بلادهم، فأعدادهم أكبر من ذلك بكثير. وقد مر بنا أن هايدو ذكر بين سكان الجزائر عشرة آلاف أوروبي كانوا قد اعتنقوا الإسلام ونحو ٢٥,٠٠٠ لم يسلموا ولم يُفتدوا، وظلوا يعملون عبيداً في المدينة.

ولسنا نريد أن نتعرض هنا للتاريخ الإداري أو السياسي لمدينة الجزائر في هذه الفترة، فهو جزء من تاريخ القطر الجزائري الذي عرضنا له سابقاً إلا أننا نريد أن نقف: (١) عند تطور عدد السكان في المدينة منذ أواخر القرن السابع عشر إلى سنة الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠). (٢) عند التطور التجاري بشكل عام. (٣) الاهتمام بالمجتمع الجزائري بشكل عام.

وقد قُدِّر عدد سكان المدينة سنة ١٧٢٥ بنحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة، وبنحو ١٥٠,٠٠٠ لسنة ١٧٣١، ويعود التقدير إلى ١٠٠,٠٠٠ في سنة ١٧٥٥.

وحتى لو قبلنا ١٠٠,٠٠٠ فقط، فإن هذا يدل على فترة استقرار في عدد السكان. ولكن هذا العدد يأخذ بالتناقص بسرعة كبيرة منذ منتصف القرن الثامن عشر. فلا يصل الزمن بنا سنة ١٧٨٩ حتى نجد أن عدد السكان يقدر بخمسين ألفاً، أي نصف ما كان عليه قبل أقل من نصف قرن. ومع أن تقدير سنة ١٨٠٨ هو ٦٣,٠٠٠ وهو رقم مشكوك فيه أصلاً، فإن العدد يهبط إلى ٥٠,٠٠٠ سنة ١٨٢٢ وإلى ٣٠,٠٠٠ سنة ١٨٣٠. ويشرد الاحتلال الفرنسي السكان فيظل في المدينة ١٦,٠٠٠ في نهاية سنة ١٨٣٠.

وليس من ريب في أن ضعف الأسطول الجزائري وتحطيم جزء كبير منه في القرن الثامن عشر (من ٦٠٠ سفينة في ١٦٨٩، إلى خمس سفن سنة ١٧٣٦ مثلاً) حد من النشاط الاقتصادي للمدينة، وحال دونها ودون الحصول على أسرى يفتديهم ذووهم أو المؤسسات الخيرية المسيحية بمبالغ كبيرة. يضاف إلى هذا ما كان يقع بين رجال الحكم من خصومات ومنازعات. ولم تترك الأوبئة والأمراض والزلازل الجزائر، فزارتها أكثر من مرة، وأدى ذلك إلى نقص في السكان، وهجرة الآخرين خوفاً منها.

وقد لجأ الحكام إلى احتكار التجارة للحصول على الأموال اللازمة لهم. والاحتكار عطّل العمل والنشاط. ولم تكن الحكومة قد وجهت اهتماماً إلى الأرض أو إلى الصناعة، فلما عجز البحر عن إشباع أطماع هؤلاء الحكام، وقع الحيف على الأهالي.

وباعتبار ما عندنا من المعلومات، فإننا نجد أن الجزائر صدّرت (١٧٥٥) إلى أوروبا: الأصواف والجلود والشمع وريش النعام والنحاس والزرابي والمناديل المطرزة والحزم الحريرية والتمور، واستوردت المنسوجات والتوابل والصفائح المعدنية والكبريت والأفيون والأرز والسكر والفواكه المجففة والعطور والأمشاط والورق والصابون وهذه جميعها، مستوردات ومصدرات، هي على سبيل المثال لا الحصر. لأن الحكم كان يحتكر التجارة الخارجية، فقد كانت مواد كثيرة تستورد عن طريق أوروبا (بواسطة المؤسسات التجارية

الاحتكارية) بدل أن تستورد من مظانها الأصلية.

وقد قُدِّر ما استوردته الجزائر لسنة ١٧٨٩ بما قيمته ٢,١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

وتمثل موازنة مدينة الجزائر التي توصل وليام شالر (سفير الولايات المتحدة في الجزائر ١٨١٥ ـ ١٨٢٦) إلى حسابها للسنة ١٨٢٢ المصروفات بما يقرب من ٨٦٠,٠٠٠ دولار اسباني والواردات بنحو ٤٣٥,٠٠٠ دولار أسباني. ومعنى هذا أن العجز كان قرابة ٤٢٥,٠٠٠ دولار اسباني. فمن أين يأتي سداد هذا المبلغ؟

والجواب: القروض الخارجية. وهذا كان من أسس انهيار الوضع في البلاد.

الحالة الاجتماعية في العهد التركي

يلاحظ الباحثون في الجزائر في العصر التركي أن المجتمع كان يغلب عليه الذكور، وذلك بسبب العناصر المهاجرة إلى مدينة الجزائر. فالأتراك الذين كانت تبعث بهم الدولة العثمانية من الأناضول إلى مدينة الجزائر كانوا من الذكور، وكان الغالب على الأسرى المسيحيين أن يكونوا من الذكور. يضاف إلى هذا أن المهاجرين من الداخل نحو المدينة كانوا من الرجال الذين كانوا يتركون أسرهم في قراهم الأصلية. والأتراك، بشكل خاص، كانوا يحافظون على العزوبية، لأن زواجهم معناه قطع المعونة العينية من الجيش عنهم.

وكانت الحياة في الجزائر في العهد التركي تقوم على أساس طبقي. فالأتراك طبقة الأسياد إذ كانوا أصحاب السيادة في المدينة. ومن ثم فقد كان لهم الحصة الكبرى والأولى في ثروة البلاد. وكانت أكثر الأراضي في سهل متيجة الخصب ملكاً للدايات. ويلي ذلك طبقة المهاجرين الأندلسيين ثم تأتي عائلات الأشراف. وكان اليهود أصحاب ثروة كبيرة. ومع أنهم كمجموع كانوا يلون الأتراك في الثراء، فقد كان بينهم أفراد تفوق ثروتهم ثروة الأتراك أنفسهم. وكان لليهود أمين منهم، يعيّنه الداي، يتولى شؤونهم وهو الذي يجمع الجزية منهم ليوصلها إلى الداي. ومع ذلك فلم يكن اليهود طبقة اجتماعية محترمة.

والمهاجرون من الداخل كانوا يؤلفون طبقة البرّاني، وهم أصحاب دخل محدود. وكان العبيد، سواء في ذلك الزنوج الأفارقة أو البيض الأوروبيون، يكوّنون آخر طبقة في السلّم الاجتماعي.

ويحدثنا الدكتور حليمي عبد القادر علي عن التركيب الحرفي لسكان مدينة الجزائر فيقول: (في ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧)

«كان سكان مدينة الجزائر في العهد التركي ينقسمون حسب حرفهم إلى عدة طوائف، وكان لكل حرفة أمينها الخاص وهو رئيس الطائفة. فالمزابيون حرفتهم الأساسية إدارة المطاحن، وبيدهم أغلب حمامات المدينة ومخابزها. وكانوا يقومون بالتجارة بين تامبوكتو ومدينة الجزائر، وكانوا يسلكون في ذلك طريق غدامس بليبيا، أو تافيلالت بالمغرب. وكانت لهم عقود ومعاهدات أبرموها مع حكومة الدايات لحماية أنفسهم وتجارتهم من الحكم التركي، إذ أن المزابيين كانوا من الجماعات المستقلة عن حكومة الأتراك بالجزائر التي أوكلت إليهم

تصدير بضائع افريقيا الزنجية من تبر، وريش النعام، وتمور، وعبيد وساعدتهم على الإقامة في مدينة الجزائر للقيام بالتجارة داخل المدينة وخارجها. وللبساكرة حرفة حمل المياه ونقلها إلى البيوت، وترويض الحيوانات والقيام بالخدمات العامة ومنهم الخبازون والقصابون، ومنهم من كانت حرفته تفريغ الأوساخ وتنقية المجاري المائية والآبار وحفرها. ومنهم حراس الليل، ومراقبة أبواب المدينة، وإيقاف الذين لا يحملون مصباحاً موقوداً بالليل أو لا يمتثلون لقانون المرور الذي ينص على أن من واجب المسلم حمل مصباح ليلاً وعلى أن من واجب اليهودي حمل شمعة إن أراد التنقل ليلاً. وللزنوج العبيد الخدمات المنزلية. وللأغواطين حرفة استخلاص الزيوت، وللزواوي التجارة في الزيتون والقيام بالخدمات العامة لدى القناصل الأجانب. وللمهاجرين الأندلسيين والأهالي الصناعات المتنوعة للأقمشة والجلود والصباغة. وللعبيد المسيحيين العمل في الحقول أو في المنازل مثل الطهي وحراسة الأطفال أو في ورش صناعة السفن، أو في الحانات. وقد اشتهروا بالأعمال الخبيثة مثل الاختلاس والفساد ما عدا العبيد الانكليز الذين كانوا يترفعون عن ذلك. وللأتراك القرصنة والجيش والإدارة، إذ منهم الداي ورجال الديوان وكل أصحاب المناصب العالية. أما اليهود فلهم احتكار التجارة في الداخل والخارج، ومنهم الصرافون والأمناء. وتركزت حرفتهم الرئيسة حول كل ما كان يدور حول النقود، وما فيه رائحة الذهب. فهم الذين أوكل إليهم الدايات صك النقود وتعييرها، وعليهم اتكل السكان في الأعمال الرديئة، مثل حمل الأوساخ ودفن الذين حكم عليهم بالإعدام من المجرمين. وفي سنوات الجراد يؤمرون بطرده من حدائق البشوات. وبإيجاز، فإن طبقة أبناء يعقوب في الجزائر قد تعودت على الذل وتريضت على الصبر منذ الصغر، لذلك كانوا لا يردون الاستفزازات الشعبية إلا بالمقاومة السلبية والنفاق وسلوك الطرق الملتوية لاختلاس أموال الشعب، والانتقام منه بحبك شبائك الاختلاس وخلق الأزمات الاقتصادية وإثارة الشقاق بين أفراد الحكومة، وتلقين التجار كل أنواع الربا والتدليس والخبث.

«وفي الحديث عن الحرفة تعوزنا الأرقام التي تدل على نسبة المشتغلين في كل حرفة. ويظهر أن الذين كانوا يعملون في حرفة التجارة كانوا يمثلون أكبر نسبة وربما ٧٠ بالمئة. أما حرفة الصناعة فكانت بسيطة للغاية لذلك كانت نسبة المشتغلين فيها منخفضة جداً، وربما كانت تدور حول ١٥ بالمئة. لذلك كانت المدينة تجارية أكثر منها صناعية، وتكثر بها البطالة المقنعة».

يلفت الدكتور أبو القاسم سعد الله، في كتابه القيم «تاريخ الجزائر الثقافي في القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري» إلى العوامل الخارجية التي أثرت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال العهد العثماني، ويعيدها إلى هجرة الأندلسيين ووجود العثمانيين والوجود المسيحي واليهودي:

ويقول عن الأندلسيين وهجرتهم:

«هناك ثلاثة عوامل خارجية أثرت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال

العهد العثماني، الأول هجرة الأندلسيين التي بدأت خلال القرن التاسع وتقوت خلال العاشر. والثاني الوجود العثماني نفسه. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك عاملاً ثالثاً وهو الوجود المسيحي واليهودي. فقد حل بمعظم المدن الساحلية الجزائرية عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين الفارين من اضطهاد الإسبان الذين استولوا على أملاكهم وديارهم وهددوهم في عقيدتهم ولغتهم. وأشهر المدن التي حلوا بها هي: شرشال وتنس ومستغانم ومدينة الجزائر ودلس وبجاية وعنابة. وقد وجد هؤلاء المهاجرون في الجزائر أرضاً كأرضهم وأهلاً كأهلهم فاستوطنوا وأسهموا في الحياة الاجتماعية بإدخال عنصرين رئيسيين، الأول مضاعفة الكفاح ضد الأسبان في البحر والثغور دفاعاً عن النفس، والثاني نشر أنماط حضارتهم بين الجزائريين. وكانت الأندلس إلى آخر عهدها، رغم ضعفها السياسي، هي المرحلة الراقية من تطور الحضارة العربية الإسلامية. فارتقت بوجودهم في الجزائر العمارة وصناعة الطب والموسيقى والزراعة والصنائع والحرف والتجارة والتعليم والخط والوراقة وصناعة الكتاب. وقد كان على الأندلسيين في بادىء الأمر (وقد هاجروا بنسائهم وأطفالهم) أن يواجهوا مشاكل اجتماعية جمة أهمها الفقر. لذلك أنشأوا لهم أحباساً خاصة تعرف بأوقاف الاندلس يستفيد منها فقراؤهم ويأوي اليها مهاجرهم الضعيف والبائس والغريب والعاجز. ورصد أغنياؤهم لهذه الأوقاف كثيراً من أموالهم. وهكذا أصبح الأندلسيون، على مر السنين، يشكلون عنصراً بارزاً مؤثراً من السكان بحركتهم التجارية وذكائهم وعلمهم وصنائعهم ومهارتهم في البحر. وقد طبعوا المدن الجزائرية، وخاصة الساحلية، بطابعهم العمراني الذي لا يزال باقياً إلى اليوم.

«وأثر العثمانيون بدورهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر. وأول هذا التأثير هو ربط المجتمع الجزائري بالمجتمع الشرقي. فقد جاء العثمانيون بوسائل حضارية شرقية إلى الجزائر من مآكل وملابس ومشارب وألقاب وصنائع وتقاليد. ولم تكن نساؤهم تأتي بكثرة (ونحن هنا نتكلم عن كبار المسؤولين وليس عن الجنود الذين كانوا يأتون بالضرورة عزاباً)، ولكن القليل منهن قد نشرن أشياء لا عهد للمجتمع الجزائري بها. كما أن العثمانيين قد أدخلوا المذهب الحنفي إلى الجزائر وجاؤوا معهم بطرق صوفية لم تكن معروفة أو على الأقل لم تكن منتشرة بين السكان. ومن جهة أخرى أثروا في العمارة كالمساجد والأضرحة، وفي الموسيقى والخط، والمنشآت العسكرية والبحرية، وفي اللغة والملابس ونحو ذلك، وقد أنشأوا هم أيضاً الأحباس التي تخدم جميع الأغراض الاجتماعية والعلمية ومن أهمها وأشهرها أوقاف «سبل الخيرات». ومن المعروف أن العثمانيين مدينون حضارياً للحضارات العربية والفارسية والبيزنطية، بالاضافة إلى تراثهم الخاص. لذلك يمكن القول بأن الجزائر العثمانية قد ذاقت من كل هذه الحضارات حلال العهد العثماني وهذا العامل ما زال لم يحظ باهتمام المؤرخين بعد».

كانت بين الجزائريين والأوروبيين حروب طويلة، تعرّف الجزائريون عن طريقها التجارب والمهارات العسكرية كالصنائع البحرية وبناء السفن وطرق البحر وحماية المراسي وتحصينها. لكن الأثر الأوروبي جاء عن طريق الأوروبيين الذين أقاموا في الجزائر تجاراً

وأسرى. وفي ذلك يقول الدكتور سعد الله:

«هناك صنف آخر من الأوروبيين عرفهم المجتمع الجزائري عندئذ، وهم التجار. وكانت لهؤلاء محاكم ومستشفيات وكنائس وفنادق ومخازن وعملات يتعاملون بها وبضائع يتاجرون بها. وملابس يظهرون بها ولغة يتخاطبون بها مع السكان وعمال من الجزائريين يعملون عندهم في بيوتهم وإداراتهم. ونفس الشيء يقال عن القناصل الذين كان لهم أيضاً عمال جزائريون كتراجمة مرافقين أو مقيمين معهم في أماكن العمل. وإلى هؤلاء وأولئك يمكننا أن نضيف الأسرى المسيحيين الذين كانوا أحياناً يقدرون بالآلاف، وفيهم النساء والأطفال وأصحاب المهارات والأدباء. وكان هؤلاء الأسرى يعملون، في انتظار فديتهم في شتى أنواع العمل كالزراعة والبناء والنظافة والطب. وكثير من هؤلاء الأسرى قد اعتنقوا الإسلام وأصبحوا أتراكاً (عثمانيين) لغة وجنسية وارتقوا إلى مراكز النفوذ. وقد سجل هؤلاء الأوروبيون حياتهم بأنفسهم في الجزائر في المذكرات والكتب التي نشروها بعد تحريرهم. ومن كتاباتهم نعرف أنهم لم يكونوا بمعزل عن المجتمع الجزائري، بل كانوا يختلطون بأهله ويعملون معهم، وفيهم من لعب دوراً بارزاً في الحياة اليومية للسكان، وأحياناً في المغامرات السياسية. بل لقد كان فيهم من قربه أهل الحكم والحظوة إلى السلطة نفسها، فأصبح يؤثر فيها كمستشار أو وزير أو قائد أو مدرب عسكري. وكل هؤلاء الأوروبيين (بأصنافهم التي ذكرناها) قد أثروا في الحياة الاجتماعية الجزائرية، كل حسب تغلغله وحسب إمكاناته في التأثير. ويعود تأثير هؤلاء الأوروبيين إلى القرن العاشر. فهذا كاتب أوروبي (جوزيف مورقان) يروي أن حسن باشا بن خير الدين قد ترك سنة ١٥٦٧ عند مغادرته الجزائر عدداً من المسيحيين والعبيد، «من بينهم عدد كبير من الفنانين المجيدين في مختلف الأنواع المفيدة». ومن جهة أخرى نعرف أن قسماً من سكان الغرب الجزائري كان على صلة مستمرة بالإسبان في وهران، كما أن قسماً من سكان الشرق كانوا على صلة بتجار جنوا ثم الفرنسيين نواحي القالة وعنابة».

وقد رُوي أن حسن باشا بن خير الدين (أحد باشاوات الجزائر) غادر الجزائر سنة ١٥٧٦ وترك عدداً من المسيحيين والعبيد من بينهم عدد كبير من الفنانين المجيدين في مختلف الأنواع النافعة.

وكان من الطبيعي أن تنشأ في مجتمع الجزائر عادات ومناسبات للاحتفال بالأعياد وللتسلية، وهنا نستميح القراء العذر إذا نحن نقلنا جزءاً طويلاً عن الدكتور سعد الله، ذلك لأنه قد أتقن الوصف وتحرى الدقة فيه.

«ومن عادات شهر رمضان ختم صحيح البخاري في المساجد وإضاءة الشموع فيها وفي غيرها. وأهم ظاهرة اجتماعية في هذا الشهر هي أن المدينة تسهر خلافاً لسائر الشهور. فقد جرت العادة أن لا يخرج أحد من داره من سقوط الظلام إلى شروق الشمس. وكانت المدينة تغلق أبوابها فلا ترى أحداً يمشي في الشارع ليلاً. أما في رمضان فالجميع يخرجون ويسهرون حتى النساء اللائي كن يخرجن سافرات متخذات من الليل حجاباً. ومن الواضح أن

المرأة لا تخرج وحدها في هذه المناسبة. وهناك ألعاب كانت تجري يوم الجمعة أيضاً. وهي لعبة لم تكن خاصة بمدينة الجزائر بل كان يمارسها الناس، وخصوصاً الأتراك، في معظم مدن القطر. أما في العاصمة فقد كان يحضرها يوم عيد الأضحى الباشا وكبار رجال الدولة في المكان المعد لها وهو خارج باب الواد. وكانت هي الرياضة المفضلة عندهم.

«وخلاصتها أن أشهر اللاعبين يتقدمون زوجين زوجين في حوالي عشرة أزواج ويصعدون على الحلبة المعدة لذلك. ويجلس الباشا وأعوانه على زرابي حلول الحلبة، ثم يشرع اللاعبون في مصارعتهم القائمة على خفة الحركة والمهارة في الغلبة وإظهار القوة، كل اثنين يأخذان فترة من الوقت، وهكذا إلى أن ينتهي مجموع اللاعبين. وبعد ذلك يمنح الباشا بعض النقود لكل واحد منهم.

«وهناك لعبة أخرى تجري في هذه المناسبة أيضاً، وتسمى لعبة العصى، وهي لعبة يشترك فيها الباشا أيضاً. فقد كان الفرسان (الصبايحية) يسيرون الواحد تلو الآخر ويرمون عصيهم التي تشبه الرماح على بعضهم البعض، والفائز هو الذي يصيب صاحبه. وفي نهايتها يركب الباشا أيضاً فرسه ويسير خلف أحد الفرسان ويحاول إصابته بعصاه، والفارس المحظوظ هو الذي يصيبه الباشا بعصاه، لأنه عندئذ ينزل عن فرسه ويتقدم من الباشا الذي يعطيه الدراهم، وهكذا. وقد كانت هذه مناسبة رسمية وشعبية. فالعامة كانوا يكتفون بالتفرج، أما الخاصة فقد كانوا يتراجعون إلى حيث نصبت خيمة الباشا ويقضون بعد ظهر ذلك اليوم في الأكل والشراب واحتساء القهوة وهذا هو ما يشبه اليوم حفلة الاستقبال الرسمية.

«ولم تكن اللعبة البهلوانية أو لعبة المصارعة خاصة بيوم عيد الأضحى بل كانت تجري كل يوم جمعة. غير أن أشهر اللاعبين لا يلعبون إلا في عيد الأضحى. وكان ليوم الجمعة أيضاً مظهره الخاص. ففيه تغلق المدينة أبوابها عند الصلاة كما تغلق جميع الدكاكين نوافذها، ومعظم التجار لا يعودون لفتح الدكاكين بعد الصلاة بل يذهبون في نزهات خاصة مع أهلهم أو يخرجون إلى بساتينهم القريبة أو يزورون بعضهم البعض. أما النساء فقد كن يتوجهن منذ الصباح الباكر إلى المقابر لزيارة موتاهن.

«وقد كانت هناك حفلات أخرى تسلي الناس وتدفع عنهم الضجر مثل مسرح القراقوز (أو خيال الظل) الذي أدخله الأتراك. ومن ذلك أيضاً حلقات إنشاد الشعر الشعبي حيث يقوم المداحون بقص السير والأخبار ومغامرات الأبطال والفرسان. وقد شاع في الجزائر عندئذ شرب القهوة بكثرة ومضغ الدخان وتدخينه في السبسي أو الغليون واستعمال النشوق ونحو ذلك. ولم يكن شرب الخمر شائعاً عند الطبقات العالية ولا ذوي الشأن والعلم لأنه حرام ولأنه لا يليق بالمقام. أما الجنود والشباب الترك بصفة عامة فالوثائق تتحدث على أنهم كانوا يشربون بكثرة حتى يعربدوا. وهم إذا عربدوا فقدوا كل سيطرة على أنفسهم حتى أنه يصبح من الخطر الاقتراب منهم لأنهم قد يقتلون ويعتدون على النساء والصبيان ولا سيما عند توجههم في حملاتهم السنوية (في الربيع، نحو الشرق ونحو الغرب ونحو الجنوب). لذلك يخرج البراح وينادي بابتعاد النساء والصبيان من طريقهم.

«وخلافاً لما كان يشاع من أن المجتمع الجزائري هو مجتمع الرجل، فإن المرأة قد لعبت فيه دوراً أساسياً في الميدان الاقتصادي والاجتماعي وحتى السياسي والثقافي. فالمرأة الريفية كانت تقوم بمعظم الأعمال التي هي غالباً من اختصاص الرجل. ومن ذلك الحرث والسقي وعلف الحيوانات ونحوها. وكانت بالطبع تربي الأولاد وتقوم بأعباء المنزل. كما كانت تنتج ملابس الأسرة من برانيس وقنادير ومناديل، إضافة إلى نسج الزرابي والحياك وغيرها من وسائل التجارة. ومن جهة أخرى كانت المرأة الريفية تشترك في الحروب مثل علجية بنت بوعكاز التي سيأتي الحديث عنها.

«أما المرأة المدنية فقد كانت تتاجر أيضاً بعدة وسائل منها تأجير البحارة الذين يقومون لها بالحصول على غنائم البحر وبيعها في أسواق الجزائر من سلع وأسارى ونحو ذلك».

ويبدو أن التعليم كان منتشراً في المدينة على مستوى الكتّاب، والدروس التي تلقى في الجوامع إما باستمرار أو موسمية (مثل أيام رمضان). ومؤسسة التعليم الابتدائي هذه كانت تخضع في سير العمل فيها لرغبة الواقفين.

ولم يكن هناك تعليم تكرّسه الدولة، بل كانت العملية التعليمية بأجمعها أمراً يتوقف على الهبات والأوقاف. وكانت تعنى، في نهاية المطاف، «بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادىء القراءة والكتابة وأوليات العلوم لأطفال المسلمين الذين تتراوح اعمارهم بين السادسة والرابعة عشرة».

وكانت مدينة الجزائر، على نحو ما نعرف، كثيرة الكتب، وكانت على قول التمغروتي لا يضاهيها بلد من بلدان افريقيا في كثرة الكتب.

أما عندما نبحث عن معهد عال للدراسة، فإننا، على حد قول الدكتور سعد الله، نجد أن الجامع الكبير في العاصمة هو مبتغانا: «ويكاد الجامع الكبير بالعاصمة ومدرسته العليا يشكلان نواة لجامعة في الجزائر. ففي الجامع كانت الدروس كثيرة يقوم بها أبرز العلماء، وكانت حلقات الدروس فيه تصل إلى الاثني عشرة حلقة. وقد ذكرنا من أشهر مدرسيه سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمار ومحمد قدورة وعلي بن الأمين ومحمد بن الشاهد. كما كان ضيوف العلماء المسلمين يلقون فيه الدروس ويتتلمذون فيه على علماء الجزائر. وكانت للجامع الكبير أوقاف ضخمة تمكن بها المفتي سعيد قدورة من إنشاء مدرسة عليا أيضاً تابعة للجامع وكذلك زاوية لسكنى الطلبة وغرباء العلماء. وقد كلف هذا المشروع خمسة عشر ألف دينار جزائري بعملة ذلك الوقت، وكلها قد دفعت من أوقاف الجامع. وكان عدد الأساتذة الذين يلقون الدروس بالجامع والمدرسة تسعة عشر أستاذاً، بالإضافة إلى عدد من المسمعين (أو المساعدين) ونحوهم. وهذا دون الأساتذة الذين يقرأون صحيح البخاري. ورغم القيمة العلمية للمدرسة والزاوية، فإن سلطات الاحتلال الفرتسي قد أعطتهما سنة ١٢٤٩/ ١٨٣٣ إلى أحد الأوروبيين فحولهما إلى خمام فرنسي».

الاحتلال الفرنسي

سنة ١٨٣٠ هي سنة نكبة الجزائر، مدينة وقطراً، إذ احتل الفرنسيون المدينة، وساروا فيما بعد يحتلون البلاد بكاملها. ولسنا نريد أن نتحدث عما أصاب القطر على أيدي الفرنسيين ولا عن صفحات الاستعمار الفرنسي هناك، فقد قلنا ما فيه الكفاية. لكننا نريد أن نتوقف قليلاً عما أصاب مدينة الجزائر بالذات خلال ربع القرن الأول من الاحتلال الفرنسي. ولعل خير ما يمكن أن يفعل، في سبيل ذلك هو أن ننقل بعض ما رواه الرحالون الأوروبيون الذين زاروا المدينة ووصفوا أوضاعها في تلك الفترة. وقد يسر لنا الدكتور أبو العيد دودو ذلك فيما درس أو ترجم لبعض الرحالة الألمان. ونختار من هؤلاء ثلاثة: أولهم فيلهلم شيمبر الذي زار البلاد سنة ١٨٣١، والثاني موريتس فاغنر الذي زارها في سنوات ١٨٣٥ إلى ١٨٣٨، والثالث هاينريش فون مالتسان الذي أقام في الجزائر مدة، وجاءها وكان يحسن العربية، وتعلم هناك اللهجة الجزائرية، والذي ما سننقله عنه كتب سنة ١٨٥٢.

على أننا قبل أن ننتقل إلى الرحالين أنفسهم نود أن ننقل هنا بضع ملاحظات للدكتور دودو تتعلق بالرحالة أنفسهم.

ينبهنا الدكتور دودو إلى أن الرحالة الألمان لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حباً بها أو دفاعاً عن حقوقها، وإنما وضعوا أكثرها، ولا سيما في الفترة الأولى، لتكون دليلاً لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها إقامة دائمة تحت ظل الاحتلال الأجنبي وحماية حكومته.

ينقل الدكتور دودو عن شيمبر ما يلي:

«ويتطرق شيمبر إلى الحديث عن التربية والتعليم فيذكر أن الأطفال يذهبون إلى المدارس، وهي موجودة بكثرة، في السادسة من العمر، يتعلمون فيها القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن. ثم يواصلون تعليمهم عند العلماء والفقهاء. ويسافر الكثير منهم فيما بعد إلى تونس والإسكندرية والقاهرة إما لإتمام دراستهم أو لتعلم الحرف وفنون التجارة. كما يذهب البعض منهم إلى «ليفورنو» لدراسة الطب واكتساب المعارف الأوروبية في مختلف الميادين. وإلى جانب هذا هناك من سافر منهم سابقاً إلى فرنسا وانكلترا. وينوه المؤلف بشاب جزائري عرفه عن قرب، ويقول عنه دون أن يذكر اسمه أنه طاف بأوروبا كلها تقريباً وعرف أحوالها وتقاليدها معرفة جيدة، وشاهد مسارحها وآثارها في كل مكان أتيحت له رؤيته، كما زار عدداً من البلدان الافريقية وأنهى رحلاته بالحج إلى مكة. وكان يتكلم إلى جانب العربية الانكليزية والفرنسية والأسبانية والايطالية واليونانية. ثم يؤكد المؤلف أن الحضر على العموم يقومون بسفرات كثيرة ويجوبون الأقطار المختلفة ويعودون بعد ذلك إلى وطنهم مزودين بمعارف عدة. لكنهم لا يحاولون إتقان أي شيء ولا يتعلمون أي لغة قديمة»!

وبعد ذلك يقرر شيمبر ما يلي: «لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا،

فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب. ومن الإنصاف أن نقول ان الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلا في النادر جداً!».

وفاغنر الذي نشر كتابه سنة ١٨٤٢ بعد زيارات للجزائر في السنوات ١٨٣٥ ـ ١٨٣٨، ينقل عنه الدكتور دودو وصفه للأسواق والمقاهي:

الأسواق

وتوجد في الجزائر بعض الأسواق، يعرض فيها الغرباء عن المدينة بضائعهم وهي لا تشبه تلك الأسواق الضخمة، التي كانت موجودة قديماً في بغداد أو طهران، والتي تحدث عنها المؤرخون العرب. إن اسواق الجزائر لا يمكن أن تقارن حتى بأسواق أزمير أو القسطنطينية، مع أن هذه ليست لها أيضاً تلك الفخامة التي عرفتها الأسواق القديمة والتي تمثلت في المنتوجات الشرقية الرائعة. فأسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الأسواق، وهي عبارة عن دور تشبه الدور العربية، مع فارق واحد وهو أن جانبي الفناء يحتويان على حجرات، الواحدة منها منفصلة عن الأخرى، ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وغرف كثيرة.

والعادة المتبعة منذ القديم هي أن الأجنبي أو الجزائري أو اليهودي يكتري في السوق محلاً أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك، ويعرض في أبوابها بضاعته. ولم يكن يعدم من يزور محله، إلا أن زواره كانوا يكتفون بتقليب البضائع، وقلما يشترون منها. فالتجارة لم تكن في يوم ما بالجزائر مربحة، ولم تزدهر أبداً مثل ازدهارها في بقية العواصم الأخرى بالبلدان المتأخرة، فقد كان الشراء في الجزائر بمثابة الحكم بالإعدام. وكانت للجزائر أسواق تحتوي على اكثر من أربعين محلاً، إلا أن القسم الأكبر منها، بل اجملها وأجدرها بالاعتبار قد هدم، وقامت في مكانها محلات ودكاكين تجار أوروبيين. وتوجد منها الآن دكاكين لا تقل جمالاً عن دكاكين مدن من الدرجة الثانية مثل طولون ونيس.

أما دكاكين التجار من الأهالي، وهي تقع خارج هذه الأسواق، فإنها صغيرة تافهة، فليس فيها تنوع في البضائع، ولا تلفت الأنظار إليها إلا بشكلها الغريب. هذه الدكاكين عبارة عن ثقوب مربعة، تغلق في الليل بباب خشبي مهترىء، ولا تستثنى منها إلا الدكاكين الموجودة في شارع الديوان، لأن بضائعها متنوعة ومنظمة بصورة تدل على ذوق أصحابها، وهم في الغالب من الكراغلة. وبضائعها على العموم من الصناعات المطرزة بالذهب. مثل الخفاف والمحافظ وأدوات الزينة الخاصة بالأسلحة وغيرها، وهي مصنوعة في الغالب من القطيفة الخضراء والحمراء، يغطيها طلاء ذهبي كثيف، تبهر العين بفخامتها أكثر مما تبهره بجمالها.

أما بقية البضائع فتتكون في أغلب الأحيان من الروائح والعطور المستخرجة من الورد والياسمين، ومن المصنوعات القطنية المحلية، التي تدل على ما بذل في نسجها من جهد، وهي باعتبارها مصنوعات يدوية لا تضاهي طبعاً المنسوجات الأوروبية الآلية في جمالها ولا

في أسعارها. وكثير من الأشياء المصنوعة من خيوط الصبر، مثل أكياس الصيد، وزكائب السيدات، وأحذية الأطفال وغيرها تهم الإنسان لغرابة المادة التي صنعت منها. وأصحاب هذه الدكاكين من الكراغلة والحضر أثرياء في أغلب الأحيان، ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطرازين ومن بعض الحضريات. وتجد بضائعهم هذه أسواقاً رائجة في أوروبا، فلم يحدث أبداً أن سافر عسكري فرنسي إلى بلاده دون أن يأخذ لأصدقائه ومعارفه أشياء كثيرة من الصناعات الأهلية، التي تروق العين بروعة أشكالها وألوانها.

المقاهي

وينصح فاغنر المسافرين بزيارة المقاهي العربية، التي يزيد عددها في القسم الأعلى من المدينة فقط على الستين. ويذكر أنه كان يقضي كل أمسية في واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذي قضاه فيها أبداً. ويعتبر المقاهي من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف إلى الشعب، ويتعلم لغته، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتعلمها في المقاهي.

ويشير إلى أن الأهالي لا يتحدثون فيها كثيراً، إلا أن الحضر أكثر استعداداً للحديث منهم في أي مكان آخر، وفي أي وقت آخر من أوقات النهار. ومن هنا يستطيع الإنسان أن يدرس ملامح رواد المقاهي، وهم جالسون فوق الأرض. فيرى الحضري الهادىء جالساً قرب التركي في لباسه الفخم، ويليه زنجي أسود كالقار، يرتدي اللباس نفسه، وبعده عربي من البادية، طويل القامة، جميل المظهر، وقد لوحت الشمس بشرته، يغطي عضلاته الفولاذية برداء طويل أبيض، وفوق رأسه عمامة، يلتف بها حبل من شعر الجمل. وغير بعيد منه قبائلي بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة. ثم ميزابي من الصحراء، وبسكري من بلاد الجريد، وبينهم فرنسي في لباسه الرسمي، وقد تعود على حضور جميع الحفلات، وأخذ يظهر جوانب من مزاجه المرح في كل مكان.

«ويقع أجمل مقهى عربي في شارع البحرية، وبه قاعة مقسمة إلى مقصورات، تستند على أعمدة، وتتسع لعدد كبير من الزوار. ويضيف فاغنر أنه شاهد مقهى من هذا النوع في أواخر سنة ١٨٣٦، ولكنه أضيق، وكانت تقع في شارع لالاهم، وقد أصبح كلاهما أثراً بعد عين. فقد اشتراهما الأوروبيون وأقاموا مكانهما بنايات على الطراز الفرنسي، وقضوا مقابل ذلك على جانب كبير من أصالتهما الشرقية، فليس هناك اليوم مقهى واحد يشبه المقاهي القديمة.

«إن مقاهي اليوم مظلمة مستطيلة الشكل، ولا تحتوي على عرصة واحدة، وبها صفين من المقاعد الحجرية، تغطيها حصائر من سعف النخيل، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية. ويقع المطبخ في منخفض بمؤخرة القبو، وتقدم القهوة في فناجين مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح، ويوضع فيها مسحوق السكر، وهي قوية الطعم إلى حد ما، ولكنها لذيذة، وتكاد رواسب البن تملأ نصف الفنجان. ويقدم للمرء معها غليون أحمر ذو

قصبة طويلة، وتبغ من النوع الممتاز، وثمن ذلك كله سنتيم واحد، ولا يتصور المرء أن هناك متعة أقل ثمناً من هذه.

«ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار، دون أن يهتم بمحله الكبير، ويستقبل الزائر الأوروبي قائلاً: «مساء الخير يا سيدي». وأخاه في الدين: «وعليكم السلام» ثم ينادي في اتجاه القبو: جب قهوة ـ جب سبسي!» والطباخ من السود عادة. أما الندل من أبناء الحضر، ووجوههم شديدة البياض موردة، وفوق رؤوسهم الحليقة قلانس حمر، ألبستهم في الأماكن التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة في بعض الأحيان، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة، وقد تركت الأعمال اليدوية آثارها على ملامح البعض منهم.

«ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الأسبوع. ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ، مما يجعل أعضاءها ينظرون إلى القدور التي يتصاعد منها البخار ويستمدون منه الحماس، وتتكون الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيثارات المختلفة والطر، غير أن الأخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق أكثر مما يستعمل في المقاهي.

«ويقع أكثر المقاهي العربية رواداً في شارع الديوان قرب الكنيسة الكاثوليكية، ويتردد عليه كثير من الأوروبيين. فالقهوة فيه ممتازة، والمجلس شيق، والجوقة كبيرة، وقائد الفرقة عربي عجوز، وهو عازف بارع على الربابة، يشد الأنظار إليه بغرابة تمثيله الصامت، واهتزازات رأسه، وحركاته الرزينة الرتيبة.

«ويعثر المرء بين الحين والآخر في مقهى شارع الديوان على عدد من الفتيات الخليعات أيضاً، وهي يرقصن على نغضمات الموسيقى أو يغنين».

أما مالتسان فقد ترجم الدكتور دودو كتابه «ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا» ونشره في جزأين (١٩٧٦). وهذا الكتاب ممتع في التفاصيل التي يوردها عن المنطقة التي تنقل فيها.

تطوير ميناء الجزائر

قررت فرنسا، بعد تردد، أن تحتل الجزائر بأجمعها، وأن تبقى فيها، فأخذت تعمل كأنها باقية هناك إلى الأبد.

وكان الميناء أول ما اهتمت به، أولاً من حيث تحصينه، وهو الأمر الذي كان الفرنسيون يطورونه حسب تقدم وسائل الهجوم والدفاع من البحر والبر والجو. والأمر الآخر هو جعل الميناء صالحاً لاستقبال السفن التجارية الكبرى. وقد قاموا، أول الأمر، بتوسيعه في الجهة الجنوبية الشرقية. إلا أن التفكير بتوسيعه جذرياً بدأ سنة ١٨٤٠، لكن البرنامج لم يوضع موضع التنفيذ إلا سنة ١٨٤٨. أما «شخصية» ميناء الجزائر كما هي عليه الآن فتعود إلى سنة ١٨٦٠. ولسنا نريد أن نتتبع التطورات بالتفصيل، ولكن ميناء الجزائر وصل سنة ١٩١٣، أي في السنة السابقة لاندلاع نيران الحرب العالمية الأولى، إلى حد أنه استقبل في تلك السنة

١٣,٠٠٠ الف سفينة، وكانت المتاجر التي مرت به في تلك السنة تقدر بنحو ٢٠ مليون طن. وكان ثاني ميناء تحت الراية الفرنسية بعد مرسيليا (٢٢ مليون طن)، أما الميناء الذي كان يليه في تبادل السلع (من الموانئ الواقعة تحت الراية الفرنسية) فهو ميناء الهافر (١١ مليون طن). وبالنسبة إلى الموانئ العالمية (سنة ١٩١٣) فقد جاء ترتيبه الثامن (بعد نيويورك وهامبورغ وانتورب ولندن وليفربول ومرسيليا وهونغ كونغ).

على أن أهمية الميناء كانت ، كما ذكرنا قبلاً، حربية أيضاً. فقد كانت تقيم فيه، بصورة دائمة (سنة ١٩١٣) ستون قطعة حربية، من جميع الأشكال والأصناف. كما أن الميناء، وما حوله، كان مصدراً كبيراً لصيد الأسماك.

وقد تأخرت تجارة ميناء الجزائر أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم أخذت تعود إلى نشاطها بدءاً من سنة ١٩٢٠. واستمر الميناء للتجارة والحرب أثناء وجود الفرنسيين.

مدينة الجزائر، بالأمس القريب

قصة مدينة الجزائر قصة طويلة، حتى لو اقتصرنا على المائة سنة الأخيرة. ولكن لن أطيل على القراء في ذلك.

زرت الجزائر للمرة الأولى سنة ١٩٥١ وقضيت فيها نحو ثلاثة أسابيع. ولأنني أعتقد دوماً أن المشي هو السبيل الوحيد للتعرف إلى المكان فقد سرت فيها كثيراً.

وصلتها مساءً وكنت قادماً في القطار من قسنطينة. وخرجت بعد راحة قصيرة أسير في أقرب شارع إلى الفندق. وكان مثل غيره من شوارع المدينة، عريضاً منظماً (كان اسمه يومها شارع دسلي).

حملت معي إلى المدينة رسالة من المرحوم الأستاذ عامر بن عامر المحامي في بنغازي بليبيا إلى رجلين في مدينة الجزائر الشيخ محمد بن زكري، مدير المدرسة الثعالبية (تغمده الله برحمته) والأستاذ أحمد توفيق المدني (اطال الله عمره).

وقد رافقني الأول بضعة أيام ودلني على الكثير من المدينة (ثم غادر المدينة إلى المصايف). كان مديراً للمدرسة الثعالبية، وهذه المدرسة، كان الفرنسيون يطلقون عليها هذا الاسم تمييزاً لها عن المدرسة الفرنسية المعروفة بالليسه، هي مدرسة رسمية كان الطلاب يتعلمون فيها، إضافة إلى الفرنسية وآدابها وتاريخ فرنسا وجغرافيتها، اللغة العربية وآدابها والدين الإسلامي مع اهتمام بالشريعة. ذلك أن خريجيها كانوا يوظفون في دوائر القضاء الفرنسي ليقوموا بترجمة الأحكام التي تصدر عن القضاة إلى الفرنسية، لأن أحكام القضاة كان يجب أن يوافق عليها الموظف الفرنسي المسؤول قبل تنفيذها.

رأيت في الجزائر ما يسمى بالمدينة الجديدة (فقد كان مقابل كل مدينة مهمة في المغرب العربي أيام الفرنسيين حي أو ضاحية تسمى المدينة الجديدة). والمدينة الجديدة هذه كانت للفرنسيين فقط. حتى الدخول إليها بالنسبة إلى السكان الوطنيين لم يكن مستحباً. أما السكنى فكانت ممنوعة إلا لمن رضي عنه المستعمر.

ورأيت في وسط الجزائر، وفي الميدان الرئيسي، الجامع الكبير وقد أصبح كاتدرائية.

(ولم يكن هذا الوحيد، ولكن هذا كان أكثر إيلاماً للجزائري. فهو الجامع الكبير لعاصمته). وقد عاد هذا جامعاً بعد الاستقلال.

ورأيت على أعلى بقعة في التل الذي تسلقته مدينة الجزائر في تاريخها الطويل، كنيسة كبيرة للسيدة العذراء سميت نوتردام افريقيا. وقد أهمل هذا البناء مؤخراً إهمالاً تاماً.

وسألت عن جامعة الجزائر، فقيل لي إنها أُنشئت سنة ١٨٧٩، وأعيد تنظيمها سنة ١٩٠٩. وقد كان فيها في تلك السنة ٢٨٢ طالباً وطالبة (٢٥١ طالباً ٣١ طالبة) من الجزائريين، أما البقية الباقية التي تبلغ نحو خمسة أضعاف هذا العدد فقد كانوا فرنسيين.

وحملت رسالة التعريف الثانية إلى الأستاذ أحمد توفيق المدني إلى مكتبه. كانت الساعة الرابعة زوالية (وهذا وقت مبكر في الجزائر بالنسبة إلى شهر آب/ اغسطس). لما دخلت المكتب، واعتذر أنه عين موعداً مبكراً، إذ إن اجتماعاً سيعقد في مكتبه في الساعة الخامسة لفئة من العاملين في حقل السياسة الجزائرية. وحدثني الأستاذ بما عرف عنه من علم ومعرفة وإخلاص وأوضح لي حقيقة الاستعمار الفرنسي للجزائر. وأخذ الرجال يتوافدون، وهممت بالخروج إلا أنه قيل لي أن أبقى إلى أن يكتمل الجمع، فبقيت. ولما اكتمل الجمع قيل لي إنه ليس في الذي يفعلونه شيئاً سرياً، فلماذا لا أشاركهم. وهكذا بقيت معهم إلى منتصف الساعة الثامنة. ذكرت هذا لأقول إن هذا الاجتماع كان للبحث في إنشاء الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات الديمقراطية، وهي جبهة ضمت ممثلين عن جميع المنظمات الجزائرية السياسية من أقصى اليمين إلى أبعد اليسار!

على أن الأمر الآخر الذي تم لي ـ عن طريق الأستاذ المدني ـ هو التعرف إلى المرحوم الشيخ الطيب العقبي، أحد رجال الإصلاح الكبار في المغرب العربي، ولولب نادي الترقي في العاصمة. زرته في النادي وزرته في بيته. وكان النادي أصلاً يعنى بالأمور السياسية إضافة إلى الشؤون الثقافية. لكن لما زرت الجزائر (١٩٥١) كانت الحكومة الفرنسية قد حرمت على الأندية والجمعيات العمل السياسي، فاقتصر نادي الترقي على نشاط ثقافي محدود.

ثم تعرفت ـ عن طريق الأستاذ المدني ـ إلى المرحوم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر يومها. وبعد عودتي إلى بيروت كتبت عن الجمعية ومؤسسها ابن باديس وعن الجزائر مقالاً نشر في الأبحاث، (مجلة الجامعة الأميركية في بيروت) في العدد الأول من السنة الخامسة (آذار/ مارس ١٩٥٢) جاء فيه:

في سنة ١٩٢٩ أنشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس، بالمشاركة مع إخوانه وأبنائه من المشتغلين بالحركة العلمية في القطر الجزائري، «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر». والشيخ ابن باديس عربي الأصل صميمه، جزائري النبت كريمه، زيتوني النهج قويمه، كان رحمه الله ثابت الجنان، ناصع البيان، قوي الإيمان. اجتمع له من هذا كله، ومن نظره الثاقب ورأيه الصائب، ما جعله رجل الجزائر تدفع به المصائب، وتجتلي في طلعته جميل المناقب. ما كان أول جزائري فكر بأمر بلاده، ولا كان أول من لبى داعي جهاده، ولكنه يمثل في حياته وعمله،

وعلمه ومثله، خلاصة أماني الأمة الجزائرية وصفوة القائلين بالدعوة الإسلامية، دعا الناس إلى العودة إلى صحيح الإسلام، وحملهم على «سلفية» تلك الأيام. أسر الناس بفضله، وكسبهم برحابة عقله. عمل لأمته، فوحد جهود العاملين معه، وكان لهم نبراسا.

دعا الناس إلى نبذ الخرافات والعودة بالدين إلى جوهره، وأهاب بهم أن يذكروا اللغة العربية بالخير، وكان في صميم هاتين الدعوتين تقوية للشعور بالشخصية الجزائرية. وهذه الدعوة روحية اجتماعية في وسائلها، لكنها في صميم الحياة السياسية هناك. ذلك أنها تتعارض تماماً مع وجهة النظر الرسمية للسياسة الفرنسية. ومن هنا جاءت نقمة السلطات على جمعية العلماء المسلمين. ولكن ابن باديس وصحبه وحملة لوائه من بعده يحاولون أن يكون اتصالهم بالشؤون السياسية اتصالاً فردياً شخصياً، فيصيبهم الأذى في نفوسهم، وتظل المؤسسة قائمة. ومع ذلك فلم تفت القضية السلطات. فما أكثر ما حاولت أن تضع للجمعية حداً. لكن هذه الجمعية التي فرضت نفسها بادىء الأمر على الناس فرضاً لم تلبث أن أصبحت لحركتهم رمزاً، ولحياتهم ركزاً، ولذلك فإنهم لا يسمحون لها أن يقضى عليها.

وكانت «الشهاب» الأسبوعية جريدة ابن باديس والجمعية، تنطق بلسانهم وقلوبهم. وقد نقلنا من قبل عبارة كتبها ابن باديس في سنة ١٩٣٥ مبيناً فيها عقيدة الجمعية التي تعمل من أجلها، ولا تزال هذه عقيدتها.

مرت الجمعية في الجزائر بثلاثة أدوار: الأول قارعت فيه ضعفة المسلمين وأتباع الخرافات الحجة، فبينت خطأهم. وجاء الدور الثاني دور بناء وتشييد فبدأ سنة ١٩٣٩، لكن نكسة الحرب أوقفته حتى جاء الدور الثالث وهو الذي بدأ بعيد الحرب والذي لا تزال الجمعية تسير فيه وتقوم فيه بخدمة جلى، هو دور العودة إلى إنشاء المدارس والعناية بالتعليم. ومع ذلك فليس هذا وحده هو الذي توليه الجمعية اهتمامها، ولكن هذا أبرز نواحي جهادها.

وقد أُتيحت لنا فرصة الاجتماع برئيس الجمعية الفاضل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي خلف المغفور له ابن باديس سنة ١٩٤١، لما لبى الأخير نداء ربه، والتقينا بعدد من رجالها الأبرار في مدينة الجزائر وتلمسان ووهران، فوجدنا فيهم، كبيرهم وصغيرهم، شيخهم وشابهم، غنيّهم وفقيرهم، عالمهم وطالبهم، تفانياً في العمل، وإخلاصاً للمبدأ، وثقة في النفس، ورغبة في الخدمة. وفوق هذا كله تعطشاً للإفادة، وتطلعاً إلى النمو. وهذه خصال ما اجتمعت لمؤسسة إلا ضمنت لها النجاح.

في العدد ١٧٢/ ١٧٣ من السنة الرابعة من «البصائر» (تاريخ ١٥ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥١) تقرير الرئيس عن عمل الجمعية في نواحيه المختلفة في سنوات خمسة. وها نحن أولاء نقتطف منه هذه المعلومات.

(١) للجمعية من المدارس الابتدائية ١٢٥ مدرسة (باستثناء المعطلة إدارياً) فيها من الطلاب ١٦,٢٨٦ طالباً نهارياً و ٢٠,٠٠٠ طالب مسائي. فالأولون يلازمون المدارس بانتظام ويتعلمون فيها اللغة العربية والإسلام ومبادىء الحساب والعلوم. أما الفريق الثاني فهم ممن

يذهبون إلى المدارس الرسمية بانتظام لكنهم يأتون مدارس الجمعية مساءً لتعلم العربية والدين. وهذه المدارس يعمل فيها ٢٧٥ معلماً. وتبلغ ميزانيتها نحو ٤٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

(٢) هذه المدارس ابتدائية. وقد أنشأت الجمعية معهد ابن باديس في قسنطينة، وهو معهد تجهيزي يتناول الطلاب من الخامسة الابتدائية فيعدهم إعداداً ثانوياً تمهيداً للحاقهم بجامع الزيتونة بتونس. وما كاد المعهد الباديسي يقوم حتى احتضنه الشيخ الفاضل الطاهر بين عاشور شيخ الجامع الزيتوني، واعتبره فرعاً من فروع المؤسسة الكبرى.

(٣) هذه المؤسسات كلها تقوم على هبات يقدمها مؤازرو الجمعية، وأكرم بهم من مؤازرين.

(٤) تصدر الجمعية جريدة «البصائر» الأسبوعية، وهي في ثماني صفحات تعنى بالتوجيه الفكري والأدبي، وشرح حقوق الجزائريين وتوضيح العقيدة الإسلامية، وتعنى بالسياسة العالمية والوطنية. ولسنا نريد أن نذكر أسماء الأدباء الذين يساهمون في تحريرها خشية أن نزلّ ولكن لا بد لنا من الإشارة إلى هذه الديباجة المشرقة والأسلوب الحي الرصين الذي ينمق به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس الجمعية مقالاته، وإلى العمق والمعرفة اللذين يعالج بهما الاستاذ أحمد توفيق المدني القضايا السياسية العالمية. ومما توجه الجمعية اهتمامها نحوه، وخصوصاً عن طريق «البصائر»، الجزائريون المقيمون في فرنسا.

(٥) بلغت مالية الجمعية (سنة ١٩٥١) نحو ٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني.

(٦) للجمعية فروع في أكثر مدن القطر الجزائري، وإن كانت أكثر فروعها في عمالة قسنطينة، والفروع تشرف على المدارس، وتقيم حلقات الوعظ والإرشاد، وتعقد الجلسات الأدبية، ويتطارح الحضور فيها الأدب والشعر.

(٧) والجمعية تهيب برجال العالم العربي أن يوطدوا العلاقات معها، وأن يقدموا لها أراءَهم واختباراتهم. فرجالها يعرفون أنهم لا يقفون وحدهم في جهادهم، ويدركون أن قوتهم من قوة إخوانهم.

البصائر هي الجريدة العربية الوحيدة في الجزائر، وهي أسبوعية تصدر في صفات ثمان. وثمة جريدة أخرى نصف أسبوعية، تصدر في قسنطينة في وجهين، إسمها «النجاح». وعدا هذا، فالقارىء إذا أراد الاطلاع على الشوؤن السياسية والقضايا العالمية والأمور العلمية، اضطر إلى الرجوع للصحافة الفرنسية. وبعض هذه تصدرها الأحزاب السياسية العربية، لكن القضية هي قضية لغة وواسطة عقلية.

وفي الجزائر هيئات كثيرة أدبية تعنى بالمحاضرات والجلسات الأدبية، لكنها محدودة النشاط مقيدته. وفي مقدمة هذه نادي الترقي الذي يشرف عليه ويدير حركته الأستاذ الفاضل الشيخ الطيب العقبي.

بعد الاستقلال

زرت الجزائر بعد الاستقلال أكثر من مرة كانت آخرها في شهر تموز١٦٢ يوليو ١٩٧٨.

المدينة التي زرتها لأول مرة سنة ١٩٥١ قد اتسعت كثيراً، لكن اتساعها لم يتناسب مع ازدياد عدد السكان فيها. فالمدينة تضم اليوم أكثر من ثلاثة ملايين نسمة، جاءوا، في الغالب، من الريف سعياً وراء الرزق. لذلك فهي مزدحمة ازدحاماً كبيراً قد لا يعدله في هذه الأيام، بين المدن العربية التي أعرفها سوى القاهرة وبيروت (على اختلاف في عدد السكان بين المدن الثلاث). وهذا الازدحام طبع المدينة بطابع خاص من حيث العنصر السكاني.

والمدينة التي كانت تصدر فيها صحف محدودة، بسبب المضايقة الفرنسية، أصبحت الآن تصدر فيها صحف بالعربية والفرنسية. والمدينة التي لم تعرف يومها مجلة عربية (سوى البصائر) فيها الآن «الأصالة» و«الثقافة» وغيرهما. والمدينة التي لم تطبع كتباً بالعربية تستحق العناية أصبحت الآن تنشر العشرات من الكتب العربية في الشهر الواحد. والمدينة التي كان في جامعتها سنة ١٩٥٠ أقل من ٣٠٠ طالب وطالبة جزائريين، أصبحت جامعة الجزائر الآن تضم ثمانية عشر الف طالب وطالبة جزائريين. هذا إضافة إلى جامعة «أبو مدين العلمية والتكنولوجية» التي تضم نحو تسعة آلاف طالب وطالبة. ويعمل في الجامعتين نحو ٢٥٠٠ أستاذ ومدرس جامعيين. هذا إلى معاهد للدراسة والبحث العلمي مستقلة عن الجامعتين، وفي مقدمتها المعهد الوطني للدراسات التاريخية، والمدينة التي كانت عاصمة لقطر فقير أو على الأصح فُقِّر سكانه لينعم الأجنبي بثروته، أصبحت الآن عاصمة لقطر غني بسبب النفط والغاز الطبيعي.

كانت مدينة الجزائر سنة ١٩٥١ تقارع الاستعمار الفرنسي، ثم قاتلته البلاد بأجمعها (١٩٥٤ ــ ١٩٦٢)، وهي اليوم عاصمة القطر المستقل الذي يقارع مشكلات السكان والعمل والإصلاح الاجتماعي والتعريب والتعليم العالي.

وهكذا فالجزائر، كما قلت في مفتتح هذا الحديث، «عرفت الرفعة والثراء، الضعة والفقر، لكنها، في كل حال، ظلت مرفوعة الرأس منتصبة القامة تؤثر الشرف على الاستكانة».

وستظل على ذلك دوماً!

٨ ـ فون مالتسان في الجزائر(١)

١

عني الرحالة الأوروبيون عناية خاصة بالشمال الافريقي والصحراء الكبرى في القرن التاسع عشر؛ وقد جاء هؤلاء الرحالون من مختلف الدول الأوروبية. فقد كان منهم الإنكليزي والفرنسي والألماني وغيرهم. والباحثون الذين تعقبوا هؤلاء الرحالين، وجدوا في تنقلهم رغبة شديدة للتعرف إلى جميع نواحي البلاد أو المناطق التي حاولوا اكتشافها من حيث جغرافيتها ومواردها وشعوبها. ولعلنا لا نخطىء عندما نقول بأن أكثر هؤلاء الرحالين كانوا يدرسون البلاد من حيث صلاحيتها للاستغلال أو للتجارة أو للاستعمار.

ونحن نقرأ لهؤلاء الرحالين أملاً في أن نعثر فيما كتبوه على ما نحب أن نعرفه عن أجزاء الوطن العربي الواسع. والواقع، فإن هذه القراءة مجدية مجزية في أكثر الحالات. قد تؤلمنا بعض الصور التي يرسمها هؤلاء لبلادنا، ولكن جماع ما نحصل عليه، من المقابلة والمقارنة، يمكن أن يكون مصدراً من مصادر تاريخنا.

ومن هنا، فإننا ندعو المشتغلين بالدراسات الحديثة عن العالم العربي أن ينقلوا إلى العربية ما وسعهم الأمر من هذه الرحلات كي تصبح في متناول عدد كبير من القراء والدارسين. وهنا، فإننا نذكر بالخير الدكتور أبو العيد دودو الذي نقل عدداً من هذه الرحلات إلى العربية. وهذا الرحالة الذي نتحدث عنه الآن هو واحد من الذين ترجم لهم الدكتور دودو إلى العربية.

ولد هاينريش فون مالتسان Heinrieh von Malzahn في مدينة درسدن بالمانيا في خريف ١٨٢٦. تعلم في عدد من المدارس في فيسبادن وهيدلبرغ ومانهايم؛ أما دراسته الجامعية فقد شملت الحقوق واللغات الشرقية في جامعات ميونخ وهيدلبرغ وإرلانفن. وكان قد بدأ العمل في وظيفة (١٨٥٠) لما توفي والده (١٨٥١) وخلّف له ثروة كبيرة، فاهتم بما كان يرغب فيه دوماً، الرحلة والسفر.

أسفار فون مالتسان حملته إلى الأقطار الأوروبية أولاً ثم إلى فلسطين وسوريا والمغرب والجزائر والحبشة ومكة المكرمة (متخفياً) وليبيا وتونس. وفي الفترة الأخيرة من حياته أصيب بمرض الأعصاب الذي اشتدت وطأته عليه، وأدى إلى انتحاره.

والذي نود أن نوجه الأنظار إليه هو ما كتبه فون مالتسان عن الجزائر. فقد زار البلاد عدة مرات (بين ١٨٥٠ و١٨٦٠)، وكان جماع ما قضاه في تلك البلاد نحو ثلاث سنوات. والرجل، فضلاً عن دراسته القانونية واطلاعه على اللغات الشرقية، فقد عمل على تعلم اللهجة الجزائرية. ومما يميز رحلة هذا الكاتب هو أنه اتصل بالناس العاديين في الحوانيت

وفي المقاهي وفي الأفراح، وعاشر الجزائريين ولم يكتف بعشرة الأجانب. وبسبب معرفته للهجة المحلية كان ينفذ إلى نفوسهم، إذ كانت أقوالهم مفهومة لديه.

لذلك أحب الجزائريين وأحب بلادهم، فأخلص لهم في وصفه. وكان أميناً في نقل الصور التي تعرف إليها والجماعة التي عرفها.

زار فون مالتسان مدينة الجزائر ثم زار ولاية الجزائر وولاية وهران في الأجزاء الغربية من البلاد، ثم زار القبائل، وهي المنطقة الممتدة من جبال جَرجر (أو جرجوره) شرق العاصمة إلى آخر الحدود الشرقية للبلاد تقريباً، وأهم مدنها قسنطينة وعنابة.

كان فون مالتسان يتنقل على ظهور الجياد، وهذا كان أكثر ما يمكن الحصول عليه يومها، إلا إذا تذكرنا استعمال العربات في أجزاء محدودة.

والذي فعله المؤلف هو أنه لما عمد إلى كتابة أخبار هذه الرحلات الجزائرية الخمس، كتب كتاباً عن المناطق التي زارها فوصفها جغرافياً وأرخ لها وتحدث عن آثارها ونقل أخبار الناس وقصصهم وأساطيرهم فجاء كتابه أساسه الرحلة والمشاهدة ولحمته المعلومات المنقولة عن العارفين.

هدَف فون مالتسان من وراء تسجيل هذه المذكرات عن رحلاته إلى افريقيا: «إلى شيئين اثنين بوجه خاص. فقد أراد أولاً أن يقدم للقارىء (الالماني) في إخراج متواضع صورة صادقة قدر الإمكان عن طبائع شعوب المغرب. وكانت له ثانياً رغبة في التنبيه إلى ما في المناطق من آثار تاريخية مهمة، يجهلها الجمهور الالماني عامة، ولا سيما آثار الرومان سادة العالم القديم، وبالتالي التعريف بقسم منها. ويطلب مالتسان من قارئه بعد ذلك أن لا يقرأ كتابه لمجرد التسلية، فهو لم يضعه لهذا الغرض وحده، وإنما وضعه ليحقق أيضاً ما قصد إليه من تعريف».

على أننا عندما نرى عدد الرحالين الذين زاروا أقطار المغرب العربي في القرن التاسع عشر، وهو قرن الخروج الأوروبي مستعمراً، لا يسعنا إلا القول بأن عدداً من هؤلاء الرحالين ـ قد لا يكون فون مالتسان واحداً منهم ـ إنما أرادوا أن يتعرفوا إلى ثروات الأرض الزراعية والمعدنية تمهيداً للاستيطان فيها.

ولكتابة فون مالتسان عن الجزائر صفات تميزها عن غيرها. منها أن الرجل أعجب بجمال القطر الجزائري الطبيعي، فهو لا يترك فرصة لإظهار سروره بذلك إلا وقف عندها. وقد بدأ بذلك لمجرد وصوله إلى الشاطىء. فهو يقول مظهراً إعجابه بجمال المنطقة الطبيعي: «وبعد أن تغلبتُ على البؤس الذي مر بي في المقصورة (في السفينة) حياني الشاطىء الضاحك، وقد امتلأ بأشعة سماء صافية عميقة الزرقة، كأنها رؤيا جميلة عند بلد خرافي حلمت به. السهول متلألئة في ذوب ألوان الجنوب، وتلال الشاطىء رائعة، وقمم الأطلس تغطيها الثلوج، وصخور جرجرة، بلاد القبائل الواقعة إلى الشرق (من المدينة) منحدرة رمادية اللون. هذا كله فاق ما كنت أتوقعه فلم أكن في الحق أنتظر أن أجد جمالاً

طبيعياً بالمرة».

ومن ميزات هذه الرحلة صدق الرجل في شعوره نحو الجزائريين الذين أحبهم، ونحو الفرنسيين الذين كان يتضايق منهم ومن تصرفهم. وهو شديد النقد للأعمال الفرنسية غير المسؤولة التي يقوم بها هؤلاء «الضباط» المشرفون على شؤون إدارة الجزائر. وهؤلاء الضباط كان همهم الأكبر حضور الحفلات.

٢

يصف الرحالة مدينة الجزائر بدقة. ونقطة التفرع أو الانطلاق هي ساحة الحكومة حيث نجد الميدان الرئيسي للمدينة، الذي ينطلق منه الشارعان الكبيران ـ شارع باب عزّون وشارع باب الواد ـ وهما شريانا التجارة الرئيسيان في المدينة. وقد أصبح هذان الشارعان (سنة ١٨٥٠) أوروبيين. أما لما أراد الرحالة أن يتعرف إلى القسم العربي من المدينة، فكان عليه أن يصعد التل إلى قرب القصبة (قصر الداي حاكم الجزائر وقلعة المدينة سابقاً). وبعد قرن من زيارة فون مالتسان لمدينة الجزائر، زرتها أنا وكان عليّ أن أصعد التل إلى القصبة. ويقارن الرحالة بين البيوت العربية والبيوت الأوروبية، فيقول: «وبقدر ما يكون المظهر الخارجي للبيوت العربية معتماً وبشعاً في الغالب. يكون داخلها لطيفاً يروق للعين التي تعجب بالجمال المعماري. فكل إنسان له نصيب ضئيل من الذوق لا بد أن يعترف بأن هذه الصورة المعمارية البسيطة المزخرفة أجمل وأكثر تناسقاً من كل تلك البنايات الأوروبية الخرقاء التي تهدم بسببها كل هذه البيوت الصغيرة، وهو الاسم الذي تعوّد الفرنسيون إطلاقه على البيوت العربية».(٢)

ويعدد البيوت العربية التي بقيت في الجزائر سليمة، وهي دار الوالي العام والمكتبة ودار إبراهيم باشا ودار الأخوة بن المرابط. وكانت دار الوالي غنية بالزخارف المرمرية ويُعتبر الفناء وقاعة الأكل مثالين أصليين للفن الوطني. ويقول عن المكتبة إنها كانت جديرة بأن تنسب إلى العصر الذهبي للعرب في اشبيليا أو قرطبة. فالدور الأرضي فيه زخارف مرمرية بديعة، والطابق الأول مبلط بالخزف المطلي أي القيشاني (أو الزليج كما يسمى في المغرب العربي). وغرف الدور الأعلى، حيث توجد المكتبة، عربية مزينة بالخشب المحفور والمرمر والخزف.

وكان المشرف على المكتبة بيربروجير العالم الأثري اللغوي. وقد قال عنه الرحالة إنه لما رآه للمرة الأخيرة (ولم يذكر متى تماماً) كان مهموماً جداً، لأن المهندسين الفرنسيين أخبروه أنه لا بد من هدم المكتبة. وقال هذا العالم الفرنسي: «لقد صدر الحكم على المكتبة. فيجب أن يسقط معبد الفن العربي الجميل بأعمدته المرمرية وزخارفه، لأن السادة المهندسين يريدون أن يقيموا بطارية!».

يتحدث فون مالتسان عن السوق (البازار عند الفرنسيين) وعن الأشياء التي يمكن أن

يبتاعها المرء في هذه الدكاكين أو الحوانيت كبيرها وصغيرها، من ثياب وحلي شرقية وأحذية نسائية جزائرية، المخملية والمطرزة بالذهب، والبوابيج المغربية المشهورة والنارجيلات العربية المرصعة بالجواهر والبرانيس والشالات والصناديق الخشبية التي تقوم مقام الخزانة. ثم يعقب على ذلك بقوله: «إن السائح الذي يلهج بالشرق ويأمل من كل قلبه أن يرى في هذه المنتوجات الفنية والصناعية المعروضة للبيع هنا شيئاً شرقياً أصيلاً، سوف يشعر بخيبة أمل حين يستفسر عن أصل هذه الأعمال الفنية الجزائرية. إن أغلب هذه السلع صنع في باريس. فالبرانيس ذات اللون الفضي والحياك المطرزة بخيوط الذهب والفضة التي تشتريها سيداتنا الأنيقات ويتصورن انهن يملكن حلى شرقية أصلها من باريس أو من معامل ليون... وأفواه الغلايين تأتي من مدينة لعب الأطفال من مدينتنا نورنبرغ، والطرابيش فرنسية الصنع (أو نمساوية). هناك طبعاً طرابيش تونسية والعارف يفضلها على غيرها(٣)».

ويروي قصة مع صاحب حانوت يهودي سأله عن لعبة فقال إن ثمنها عشرة فرنكات، فعرض فون مالتسان عليه ثلاثة فرنكات فقال صاحب الحانوت:«لا أستطيع بيعها بهذا الثمن فهي تكلفني خمسة فرنكات في مصانع أوفنباخ (في المانيا).

كان فون مالتسان يحمل توصية رسمية إلى حاكم الجزائر، الذي كان يومها المارشال ر.، وهو ضابط عجوز. فدعي الرحالة إلى حفلة غداء، حيث قابل العديد من الضباط، إذ لم ير في القصر سوى البزات العسكرية(٤). وقد قال فيما بعد عن ذلك: «إن الجزائر مستعمرة عسكرية بأتم معنى الكلمة. فالعنصر المدني، الذي تعامله الحكومة معاملة قاسية، يعيش هنا في عزلة. وعلى الرغم من وجود والٍ وجيش من الموظفين المدنيين، فإنهم يقومون بدور ثانوي مهين»(٥).

وعرف فون مالتسان فيما بعد مدى سيطرة الضباط على الإدارة الجزائرية لما اطلع على دور «المكتب العربي «فقال عنه: «والمكتب العربي موجود في جميع المناطق العسكرية، وهذا يعني في تسعة أعشار البلاد (فالمناطق المدنية لا تشمل إلا المدن ونواحيها). وهو السلطة العليا الوحيدة. فالقبائل الأهلية كلها خاضعة له أحياناً بصورة مباشرة، وأحياناً أخرى بواسطة آغا وخليفة وقائد (موظفون من درجات متفاوتة لكن طبيعتها عسكرية)، ويمثل الباش آغا (رئيس الاغوات) أعلى منصب يشغله عربي، إذ يخضع له عدد من المناطق يترأسها أغوات. والباش آغا نفسه يترأس دائماً المكان الذي تقيم فيه قبيلته... ويرتبط القواد (وهم يتبعون تقسيماً عربياً قبلياً في أصله) بالمكتب العربي مباشرة، وقد يرتبط حتى الشيخ البسيط بالمكتب بالطريقة نفسها». والمهم كما يقرر الرحالة «ان المكتب العربي هو الحكومة الحقيقية في الجزائر، لأنه يتولى تنظيم شؤون السياسية لأكبر عدد من السكان. فلا يستطيع الأجنبي ولا الفرنسي السفر إلى داخل البلاد إلاّ برخصة منه. وإذا حظي المرء بحماية المكتب المذكور فإنه لا يحصل على رخصة السفر فقط، وإنما يحصل أيضاً على جميع

التسهيلات والتوصيات الممكنة من جانب رعايا المكتب العربي أي الأهالي[٦]».

لست أنوي أن أنقل ما كتبه الرحالة عن الحمام العربي، فإن وصفه معروف بالسماع للجيل الحالي من العرب وبالتجربة للجيل السابق. ولكن لا بأس بإيراد هذه العبارة: «إن الحمامات العربية في مدينة الجزائر، توجد منها تسعة، كلها بأيدي بني مزاب، الذين تقيم قبيلتهم في وادي مزآب (ورقلة وما إليها)... ومتى جمع المزابي مبلغاً من المال، عاد به إلى واحته في الصحراء»، حيث يهتم بنخيله[٧].

أراد الرحالة أن يتعلم اللغة العربية، فبدا له أن هذه أحسن طريقة للتعرف إلى شخصية أو شخصيات جزائرية. وقد عثر على المعلم في شخص الحاج محمد بن أبي نار، الذي كان أشيب اللحية، نحيلاً جداً، لكن مظهره كان يوحي بالاحترام. كان يتكلم قليلاً من الفرنسية. لكنه كان يجيد اللغة الفرنجية. وهذه اللغة هي خليط لغوي من كلمات من اللغة الفرنسية والإيطالية والإسبانية والعربية. والأصل أن ينطق بالألفاظ، الاسبانية خصوصاً، بصورة رديئة. ومفرداتها بسيطة مؤلفة من أسماء وصفات من اللغات المذكورة وفيها فاعل مرفوع وعدد من الحروف والضمائر. ويورد المؤلف نموذجاً من اللغة الفرنجية:

[أنا أراد تعلم العربية] me voular aprendre arabe

[أنا اعطي درس لك] moi donar a toi lecon

[قداش الدرس] kaddace lecon

[ميزو دودو ـ أي نصف دورو] mizzo doro

ولهذه اللغة (!) أصل تاريخي، على ما يظهر. فقد اتخذت في أوائل القرون الوسطى وسيلة للتفاهم بين التجار الإيطاليين والأسبانيين والفرنسيين وبين الجزائريين[٨].

وقد تعلم فون مالتسان ما كان عند الحاج أحمد من ثروة العربية، ذلك أنه لم يكن يعرف القواعد النحوية بالمرة. والرحالة كان قد درس اللغات الشرقية، فهو يعرف ما يريده. ويروي الرحالة عن الحاج أحمد أنه «قضى حياته في تعليم الأطفال الصغار، ثم بدأ في شيخوخته يعطي دروساً خاصة للأوروبيين. كان متعوداً على ضرب العرب الصغار على أصابعهم في أثناء الدرس، وكثيراً ما كان يحدث ذلك. ومن ثم لم يستطع الرجل الفاضل أن يتخلى عن هذه العادة، الأمر الذي أدخل على قلبي سروراً كبيراً، ولو أن اصابعي شعرت في نفس الوقت بآلام شديدة»[٩].

عاشر فون مالتسان عدداً من الجزائريين وصادق بعضهم، وأعجب بالجميع فكتب عنهم: «يمتاز عرب الجزائر الحقيقيون بما فطروا عليه من أدب ولطف وكرامة وحسن ضيافة. وإذا أتيح للأوروبي المهذب أن يحظى بعشرتهم فإنه لن يجد فيهم ما يمكن أن يسمى بسوء الأدب. وفي وسع كل أوروبي... إذا اتسمت تصرفاته بالعقل والرشاد أن يشعر عند معاشرته لهم بالاطمئنان إليهم وعدم الكلفة، بل إنه يحس أنه في بيته الخاص... وأكثر عرب الجزائر (المدينة) عمال أو تجار، ولا يكاد يوجد بينهم ذو الدخل السنوي المنتظم... فالخياط العربي

أو الحذاء أو أي صانع آخر يتصف في أغلب الأحيان بالنبل سواء من ناحية الخلق أو النسب، ذلك أن بعضهم ينحدر من أسرة عريقة ماجدة»[١٠]. ولسنا بصدد التحدث عن جميع الذين تعرف إليهم الرحالة أو عاشرهم، ولكن كي ننقل إلى القارىء صورة عن حياة «الصانع» الجزائري، لا بد لنا من التحدث عن حانوت الخياطة الذي اتخذ منه فون مالتسان مكاناً يقيم فيه أحياناً ليتحدث إلى الموجودين.

كان بين من تعرف إليهم الرحالة الحاج أحمد القادري، الذي كان شغوفاً بالرحلات. كانت حرفته الأصلية الخياطة. لكنه لم يعد يمارس هذه المهنة لأن تهيئة الملابس العربية لم تعد مجدية، بحيث أنها لا توفر القوت للخياط إلا بمشقة كبيرة. فقد كان الأتراك أحسن زبائن الخياطين. لكن هؤلاء انقضى أمرهم. والبدو لا يلبسون السراويل وما إليها. ولم يبق من زبائن سوى أبناء المدينة نفسها. ولكن هؤلاء وصلوا إلى درجة من الفقر أرغمتهم على ارتداء الألبسة الوطنية البالية. ولذلك لم يكن في مدينة الجزائر أيام زارها فون مالتسان سوى ثلاثة «معلمين» من العرب.

والحاج ـ الخياط سابقاً ـ كان يشغل نفسه بنارجيلته ولكن أين يقضي نهاره؛ فهو لا يستطيع أن يأوي إلى «دويرته» أي غرفته، وما يتبعها، نهاراً لأنه يجب عليه أن يغيب عن البيت طيلة النهار. وحفلات السمر عند الحاج مسائية. كان أمامه المقهى الفرنسي وهو محتقر ومرذول، وهناك المقهى العربي إلا أنه أصبح يستقبل جماعات من مختلف الأشكال، بحيث لم يعد يصلح لأن يدخله عربي مهذب. دكان الحلاق كانت تصلح لمثل هذا النوع من التسكع، لكن الحاج أحمد كان يقص شعره مرة في الشهر، فليس ثمة ما يشجعه على الاطمئنان إلى حانوت الحلاق. وكان إخوته الخمسة أصحاب حوانيت، وكان باستطاعته أن «يتكسل» في أي منها. لكن السلع التي كانت تباع في هذه الحوانيت الخمسة لم تكن تروق له.

وبحكم مهنته الأصلية، الخياطة، قرر الحاج أحمد أن يتخذ من دكان أحد المعلمين الثلاثة مكاناً لنارجيلته. وقرر الحاج أن يتخذ من حانوت المعلم سيدي حمود مكاناً لقضاء ساعات النهار. وسيدي حمود كان أصغر المعلمين الخياطين الثلاثة وأمهرهم.

يقول فون مالتسان: «إن الحانوت بالنسبة لعربي المدينة كل شيء في واحد، فهو يجد فيه ما يجده الأوروبي في بيته وفي مكتبته وفي ناديه وفي قهوته وفي قاعة تدخينه... إن معنى الحانوت الحرفي هو الدكان، وهو محل للتاجر وورشة للصانع. ومع أن نصف عرب مدينة الجزائر ليس لهم دكان، كما أنهم لا يعملون فيه، فإن لكل واحد منهم حانوته الخاص، بمعنى أنه في إمكانه أن يستعمل دكان صديقه متى شاء وأراد، فيجلس فيه حسب رغبته ويطلب فيه قهوته من أقرب مقهى، ويدخن نارجيلته، وينام إن كان تعباً، ويتناول طعامه فيه إن لم تكن له رغبة في الذهاب إلى البيت لتناول طعام الغداء. كل عربي أصيل من عرب مدينة الجزائر له... حانوته الخاص يقضي فيه وقتاً من نهاره.

«ولما كانت العادة تقضي بأن تترك الدار للنساء في النهار، فإن العربي المتزوج لا

يمضي إلى بيته إلا ليأكل أو ينام. أما الأعزب فلا يذهب إليه إلا في أوقات النوم... ومن ثم أصبح من الضروري أن يحصل كل رجل على حانوت يكون مفتوحاً له ويرحب به كضيف... وقد تكون الحاجة قوية بحيث أن الرجل قد يتفق مع صديقه على دفع قسم من أجرة الحانوت، وذلك حتى يكون له الحق في أن يجلس فيه باستمرار... والحانوت إلى هذا كله عنوان عرب المدينة، فلا أحد يستلم رسائله في الدار».

كان حانوت المعلم حمود اكتشافاً ثميناً بالنسبة إلى الرحالة. فدرس الحياة العربية، في نواح عديدة منها، وخصوصاً في وجوه الزوار ورؤوسهم، وهم عمال الحانوت وزواره. والجماعة التي لقيها الرحالة في هذا الحانوت كان الممثلون فيها عديدين، وأهمهم سيدي حبيبي رجل في السبعين من عمره، لكن تصرفه كان تصرف ولد في الثانية عشرة من عمره. وكان يقوم بقضاء الحاجة للشباب العاملين في الحانوت. لكنهم كانوا يسخرون منه، ومع أنه كان يدرك تصرفهم فإنه كان يشغل نفسه عنهم بتدخين غليونه. وكان فقيراً جداً، فقد كان يتغدى الخبز الجاف وحده أحياناً. لكن الحاج أحمد كان يعطف عليه فيطلب له القهوة ست مرات في اليوم ويدفع ثمنها من جيبه. وكانت القهوة من دون سكر.

وجار سيدي حبيبي من حيث الجلوس في الحانوت ـ حانوت الخياط ــ الحاج أحمد الطويل، كان مرحاً. وقد حجت أمه قبل ولادته بأشهر فاستحق لقب الحاج دون عناء. وكان الحاج مريداً في جماعة سيدي الطيب. فكان له اجتماعاته مع إخوانه لتلاوة المدائح الدينية المعروفة أو لتناول الطعام مع بعضهم البعض.

وكان من الجولس في حانوت الخياطة هذا بابا حسن. وقد كان مدفعياً في عهد الأتراك، وكان يتمنى من كل قلبه عودة تلك السيادة. فالأتراك كانوا له مثال الخير والنبل. وقد أخذ على نفسه عهداً أن لا يكلم افرنجياً، ولذلك فإنه لم يتبادل مع فون مالتسان كلمة واحدة.

وكان أحد الإخوان من الطريقة العيسوية هو ابن شافور. كان تلميذاً يتعلم الخياطة، أو يحاول على الأقل، لكنه كان يعتمد على الكسكسي (المغربية) التي تقدم في زاوية العيساوية(١١).

هذه المجموعة من الناس بما كانت تمثل وتفكر وتتحدث أعطت فون مالتسان صورة جزئية، لكنها واضحة لناحية من نواحي حياة مدينة الجزائر.

وهل سنظل نتحدث عن مدينة الجزائر؟ من الممكن، لكن لن نتمكن بعدها من مرافقة الرحالة في نواح أخرى من المنطقة.

٣

عندما يخرج فون مالتسان من مدينة الجزائر وييمم شطر المدن الواقعة إلى الغرب منها في ولايتي الجزائر ووهران، يضمّن كتابه معلومات تاريخية وأوصافاً أثرية ذات قيمة. إلا أنه عندما نذكر أنه قد مر قرن وربع القرن منذ أن وضع الرحالة كتابه، وعندما نتذكر أن الدراسات التاريخية والبحوث الأثرية لتلك المناطق قد تقدمت كثيراً عما كانت عليه في أيامه،

أدركنا مدى ما يمكن أن نقع فيه من الخطأ ـ وليس دائماً ـ إذا نحن قبلنا من ما دوّنه على أنه صحيح. لذلك، فإننا عندما ننقل عن رحالتنا ما يهمنا، لن نعتمد تأريخه، بل سنقتصر على الأمور التي كان يعاصرها ويكتب عنها. وفي هذا أكثر من الكفاية.

من الأماكن التي زارها وتحدث عنها بليدة، عبر سلسلة من التلال القريبة من مدينة الجزائر، وامتد أمام بصره سهل متيجة الخصب. وقد نظم الرحالة شعراً في وصف هذا السهل جاء فيه ما ترجمته:

يمتد سهل متيجة بعيداً
من البحر إلى هناك... حيث
تصطف قمم الأطلس الشامخة
وتهتز مراوح النخلات الصغار
وتنشر أزهار الدفلى ثوبها الأرجواني
ويكثر الآس البرّي وأشجار الغار
وتتلاصق المروج المتماوجة
التي تصل من أعطافها نخلات فريدة

وفي هذا السهل تقع بليدة، التي تستلقي بين أحضان الحدائق والبساتين. وقد جاء وصف الرحالة لحدائق بليدة وبساتينها على النحو التالي: «في وسع المرء أن يتصور مساحة قطرها ميلان. وقد قسمت إلى عدد من الحقول والبساتين يمتد بعضها في السهل وبعضها الآخر على سفوح الجبال كأنها شرفات. وهذه الشرفات، هذه البساتين كلها تخضر وتنمو في بحر من ألطف الأزهار وأطيبها شذى. وفوق هذه النباتات المنخفضة ترتفع أشجار البرتقال التي يُلمح بين أغصانها التفاح الذهبي»[١٢].

والبليدة أسست في أواسط القرن السادس عشر، ومؤسسها هو السيد أحمد الكبير وذلك بمساعدة مهاجري الأندلس. ومن هنا كان هذا التقسيم والتنسيق في حقولها وبساتينها. وقد أتيح لي أن أزور البليدة سنة ١٩٥١، فكانت لا تزال تحافظ على هذا الجمال الطبيعي المنسق على يد صناع. وسمعت جماعة هناك يدعون لسيدي بسبب هذا الإنعام الكبير عليهم. ويبدو لي أن السيد أحمد نفسه كان ماهراً في توزيع الماء، لذلك نجح في تقسيم حصص الماء تقسيماً كان ما زال معمولاً به سنة ١٩٥١.

تبعد البليدة عن الجزائر خمسة وأربعين كيلومتراً، وقد قطعها رحالتنا في أربع ساعات. أما نحن فاحتجنا إلى نحو الساعة في سيارة كانت تخص الاستاذ بلغراد من وزارة التربية. لكن سيارة سفير لبنان في الجزائر الصديق عبد الرحمن عدرة قطعتها (سنة ١٩٧٠) ونحن فيها في أقل من نصف ساعة.

تنقل الرحالة من مكان إلى آخر، مزوداً برسائل توصية من المكتب العربي، مستمتعاً بالمناظر الخلابة في طبيعة سمحة كريمة. قضى ليلة في العفرون التي هجّر أهلها الأصليون

منها لتتخذ منها الحكومة الفرنسية مستعمرة لأبنائها. ولكن بعد أن بنيت البيوت اللازمة، ووضعت شروط سخية للمستعمرين لم يقبل الفرنسيون عليها. فجمعت لها الدولة جمعاً وصفه فون مالتسان نقلاً عن حديث صاحب المطعم الذي قضى فيه ليلته، قال الرحالة: «يقال إن الذين اجتمعوا هنا (في العفرون) بدعوة من الحكومة كانوا يشكلون طائفة غريبة متنوعة. إن الفلاح الفرنسي لا يهاجر بسهولة. إلا أن الحكومة قد وجدت عوضاً عنه عدداً كافياً من المفلسين من التجار الصغار وأصحاب المقاهي وصانعي الشعر المستعار والحلاقين وجواسيس الشرطة المتقاعدين والممثلين الفاشلين والمغنين وعمال بنوك القمار السابقة والنصابين والسراق الذين كانوا مشتاقين إلى الراحة... هؤلاء جيء بهم لاستعمار الأرض الافريقية وتمدين البلاد». ولكن بدل إعمار البلدة أتلفها هؤلاء الناس واتخذوا منها مركزاً للدعارة والشر. وعندها أخرجت الحكومة هؤلاء السكان، «وساد الصمت الكبير على هذه القرية»(١٣).

واجتاز الرحالة سهل الشلف متجهاً غرباً فمر بمازونة، وكان مما خبره في طريقه أن قضى ليلة في ضيافة قائد قبيلة صبيح سيدي أحمد، وكان ذلك إلى الغرب من مدينة الأصنام (التي هدمها الزلزال قبل بضع سنوات من وقتنا هذا).

وفي مستغانم، المدينة الساحلية، قضى فون مالتسان وقتاً شعر فيه بأن المدينة حزينة مملة، وعزا ذلك إلى كثرة الجنود بها. أصبح الآن رحالتنا في ولاية وهران، وكان من أول الأماكن التي زارها المقطع ومستنقعاته. في هذه المستنقعات تمكن الأمير عبد القادر الجزائري في حزيران/ يونيو ١٨٣٥، من الانتصار على الفرنسيين انتصاراً ساحقاً، إذ إن تريزيل، القائد الفرنسي، كان قد انتصر على فريق من العرب وقاد معه قطعان الماشية التي نهبها منهم. وكان اجتياز المدفعية والجنود والماشية عبر المستنقع أمراً في غاية الصعوبة: «فاغتنم الأمير عبد القادر هذه اللحظة لمهاجمة الفرنسيين، فلم يحاولوا الصمود في وجهه. فقد استولى الرعب على مؤخرة الجيش الفرنسي وهمَّ الجنود بالفرار، فأعاقهم عن ذلك جنود المقدمة والمدافع والعربات والماشية، ومنعتهم الأرض الرخوة من السير، فتحول الفرار إلى خطى بطيئة نحو القبر. لقد هجم العرب، الذين أحنقتهم على الفرنسيين حملة النهب التي قام بها تريزيل، على هذه الفرقة المتجمدة إلى حد ما، والسيوف بأيديهم، وبدأت المذبحة العامة فقتل الكثير من الفرنسيين ولم يقع في الأسر سوى القليل منهم... فترك تريزيل مدافعه وعربات ذخيرته وعربات النقل وكل ما استولى عليه في غزوته ـ فسقط ذلك كله في يد الأمير عبد القادر»(١٤).

ويضيف فون مالتسان: «ولم ينس الأمير عبد القادر، كما تأكدت بنفسي مرتين، الانتصار الذي أحرزه في المقطع. فعندما زرته سنة ١٨٥٤ في بروسة (في تركيا) وقبل سنتين في دمشق كنت في كل مرة أدير الحديث حول حياته الحربية. وما أن ذكرت المقطع حتى ارتسم المرح على وجه الرجل العجوز الطيب، والتمعت عيناه السوداوان في حماس»(١٥).

بعد ذلك زار رحالتنا وهران وتلمسان (في ولاية وهران). وحديثه عن تلمسان حديث لذيذ، وخلاصة تاريخها جيدة. جاء تلمسان من وهران، فرآها جميلة، وأطللت أنا عليها بالسكة الحديدية من الشرق، فرأيتها ساحرة. وداخلها، في الحالتين، أدعى إلى الاستمتاع ـ تاريخاً وآثاراً وشوارع ومناطق خضراء تكسوها الزهور ـ وتلمسان التي زارها صاحبنا كانت تقوم على أنقاض رومانية وعربية وتركية. ومثل ذلك يقال عن تلمسان التي زرتها كذلك. وتقوم المنصورة على نحو نصف كيلومتر غرب أبواب المدينة. وهذه بناها الملك المريني يوسف المنصور الذي حاصر المدينة نحو عشر سنوات بدءاً من سنة ١٣٠٢، وأثناء حصاره لتلمسان بنى المنصورة. لكنه توفي قبل أن يحتل المدينة. وقد حضر فون مالتسان في تلمسان حفلة ختان لواحد من أحفاد سيدي الموهوب رفيق الرحلة من وهران إلى تلمسان. وقد شاهد رقصة قدمتها زنجية سمينة شابة، ورقصة أخرى قام بها شابان: «وأغرب ما فيهما أنهما كانا يقلدان حركات النساء واهتزازاتهن... وسمع عجوزاً يقرب من الستين أخذ يلقي خطبة بصوت أخن يمثل الغناء»، وعقب هذه التسليات قدمت الهدايا للصبي المراد ختنه. وكان مدير الحفلة يذكر اسم صاحب الهدية (وهي نقود) والمبلغ الذي قدمه.

وزار قبر سيدي بومدين في القرية الصغيرة المسماة باسمه، وفيها المسجد الجميل. وخرج «بعد ذلك من هذا الضريح، ضريح الهدوء والنظام والسلام».

كانت معسكر، التي تبعد عن تلمسان حوالى ١٥٠ كيلو متراً، وهي تركية البناء (في القرن السابع عشر) وقد كانت عاصمة الأمير عبد القادر بدءاً من سنة ١٨٣٢، وظلت كذلك إلى حين سلم نفسه لفرنسا بعد معركة ايسلي (١٨٤٧). وبعد ذلك عاد إلى وهران، ومنها إلى عاصمة الجزائر.

٤

الجزء الأخير من رحلة فون مالتسان في الجزائر كان في الشرق في ولاية قسنطينة. وقد خرج من العاصمة متجهاً نحو دلس الواقعة على الشاطىء على نحو مائة كيلومتر من مدينة الجزائر. وقضى في الطريق ليلة في كوخ للصيادين: «كان ضيقاً وواطئاً وقريباً من البحر بحيث أن الأمواج كانت تبلل عتبته في كل لحظة. كانت الأغصان مربوطة بعضها ببعض فقط، فلو سقطت الأمطار لحملتها إلى البحر». ولكن الرحالة لم يستطع النوم.

وفي طريقه إلى دلس شاهد صورة جزائرية أصيلة، وهو يصفها بقوله: «فقد مرت بنا فجأة فرقة من الصبائحية (الجنود) ببرانسهم الحمراء الفضفاضة وستراتهم المطرزة بالذهب وجزمهم القانية. كانوا شخصيات حربية جميلة. حقاً لقد كانوا في خدمة فرنسا، ولكنهم لم يرتدوا بعد البزة العسكرية المبتذلة. كانوا يقودون بينهم أسيراً، لم يكن من السهل معرفة جنسه عن بعد. وكلما اقترب الصبائحية اتضحت أكثر الظاهرة الغريبة التي كانوا يحرسونها.

«عرفت فيها امرأة، فتاة قبائلية جميلة جداً، وكانت سافرة. فالقبائليات والبدويات لا يستعملن الحجاب. لماذا أسرت هذه الفتاة؟ ولماذا حملت مقيدة إلى الجزائر؟ كانت هذه

الشابة بطلة من بطلات الحرية، متمكنة متحمسة، عذراء أورليانس جزائرية، حرضت شعبها، الذي كان قد وضع اسلحته قبل فترة قصيرة على الثورة ضد الطغاة الغاليين (الفرنسيين). كان اسمها لالا ثريا، وكانت ابنة زعيم قبائلي قوي، حارب الفرنسيين مدة طويلة، ثم خضع لهم في النهاية.

«حنى المحارب العنيد رأسه للمنتصرين، ولكن ابنته، التي لم تبلغ بعد سنها الخامسة عشرة، رفضت أن تحني رأسها الجميل لنير العدو البغيض.

«واتهمت لالا ثريا أباها بالجبن وتركت منزله ومضت مع مجموعة من الشبان الشجعان، وراحت تحدث الناس في الجبال والوهاد عن الحرية وتثير كراهيتهم ضد فرنسا. ولعل جمالها كان له في ذلك تأثير فمها الناعم. فكانت الثورة تندلع في أي مكان حلت فيه. ولم يستطع «المكتب العربي»، ذلك المتجسس الخالد على الأهالي وحارسهم أن يصبر على ذلك بطبيعة الحال. وما إن أخبر المكتب العربي الوالي بشأنها حتى وضع جائزة لمن يحمل إليه الفتاة الثائرة ميتة. ولكن لالا ثريا وقعت أسيرة في يد أعدائها. وذلك فيما يقال بسبب الوشاية. فقد كان هناك شاب يحبها وأراد أن يتزوجها غير أنها لم ترد الزواج، لأنها كانت تحب بلادها وحدها. كانت عروس الحرية الخالدة. وأصبح العاشق الشاب عدواً، وسلمها للفرنسيين.

«وكان من المدهش أن يلاحظ المرء كيف أن سمعة هذه الشابة الجزائرية قد أثرت على حراسها. فالصبحائية العرب الذين كانوا يرافقونها لم يكن يبدو عليهم أنهم يعاملونها معاملة الأسيرة، بل كانوا يعاملونها بمثابة أميرة يسيرون في ركابها. ولعل ثريا كانت ستوضع في مدينة الجزائر في سجن لا يليق بها وكأنها مجرمة شريرة. ولكن البطلة الشابة كانت تحتفل بانتصارها في الطريق. كانت يداها مقيدتين، ومع ذلك كانت تشبه ملكة متوجة. فقد حظيت ببيعة عظيمة قبل أن تختفي عن أنظارنا. كانت هناك جماعة، يقدر عددها بحوالى مائة، عائدة من أحد الأسواق المجاورة، فتوقفت عندما رأت المتكهنة الشابة. ونزل كل واحد من أفرادها عن حصانه أو بغله. واقترب منها ووضع قبلة معبرة على يمناها المقيدة، وكأنه يقوم بمراسيم مقدسة. وحين انتهى الجميع من تقبيل يدها رفعت المتكهنة يمناها محيية، وواصلت سيرها مع حراسها»(١٦).

بعد زيارته لدلس انتقل رحالتنا إلى بجاية، وكان سيره أكثره في الطريق الساحلي. وخرج من بجاية متجهاً جنوباً فزار برج بوعريريج وسطيف وعاد إلى بجاية. وانتقل من بجاية إلى عنابة بحراً. وكانت المنطقة الأخيرة التي زارها تمتد من عنابة إلى تبسَّة عبر غالما وسوق اهراس وتيفاش. وفي تبسة تنتهي زيارته للجزائر.

فون مالتسان كان يقع أسير المنظر الجميل، والرجل شاعر فضلاً عن كونه عالماً، وقد نظم قصائد كثيرة عن شمال غرب افريقيا، وضمن بعضها كتابه هذا. وحتى في نثره نجد نفحة شعرية. فمن ذلك وصفه لخليج بجاية. يقول في ذلك: «عندما وصلت رأس كربون تراءى لي خليج بجاية بكل جماله وروعته، وهو أكبر وأهم خليج في الجزائر. لقد كان منظره بديعاً.

فالحقول الخضراء والمزارع الجميلة تمتد غير بعيد عن الشاطىء، وهي أخصب المناطق الساحلية. كانت مليئة بالورود والأزهار والبراعم والحشائش الخضراء، وقد امتد فوقها ضباب شفاف، وكانت تعلوها تلال تنتصب فيها أشجار الزيتون والبرتقال والليمون تحدها أشجار الصبار (الصبر) والباهرة، وفوقها سلسلة جبال عالية سوداء تتوجها أشجار الزان والبلوط. وهي تنظر إلى الوهاد الضاحكة، وتمثل رزانة الرجل، بينما تمثل التلال المنخفضة الشباب وحقول السهل الأطفال الضاحكين. وفوق ذلك كله تمتد في المؤخرة قمم الجبال الشامخة، وتنظر إلى زرقة السماء في شموخ وعبوس وجرأة، وهي ذات أشكال متنوعة»(١٧).

يصف رحالتنا ليلة قضاها في بيت قبائلي (أي من سكان منطقة القبائل الممتدة إلى الشرق من الجزائر وإلى نهاية حدود البلاد). يقول: «وقضيت ليلتي لأول مرة منذ مجيئي إلى الجزائر في بيت قبائلي. ومنزل الضيافة هذا بني بالحجر، ومغطى بسقف حقيقي، على النقيض من الخيمة (خيمة الضيافة) العربية المعرضة للرياح والأمطار، التي حتم علي أن أبيت فيها أكثر من مرة. ولكني اكتشفت في القبائل شيئاً آخر، يجعل الرحلة في هذه المنطقة صعبة بالنسبة إلى سائح تعوّد على احتياجات الحضارة الأوروبية وضرورياتها. ذلك أن المرء لا يجد المواد الغذائية عند هؤلاء الناس البسطاء. إن هذه القبائل ذات قناعة، تبدو إلى جانبها الشوربة الاسبرطية السوداء إسرافاً في الأكل.

«فالقبائلي لا يأكل غير خبز الشعير المطبوخ بالزيت... أما اللحم فلا يأكله إلا... أو في مأدبة كبيرة، يرى شيخ أنه من صالحه أن يكرم أبناء قبيلته»(١٨).

وينقل الرحالة حديثاً رواه له شيخ قرية عجوز كان بين المسافرين في قبيلة آيت مليكش. شكا الشيخ لفون مالتسان من فقر قبيلته، التي بدأت يومها (١٨٥٧) تتخلص شيئاً فشيئاً من الوضع السيىء الذي وصلت إليه أثناء حربها مع الفرنسيين. قال الرحالة نقلاً عن الشيخ: «لقد مرت بنا أوقات كنا خلالها في حاجة إلى جميع المواد الغذائية، بحيث أننا كثيراً ما كنا نشتري قطعة الخبز، التي لا يزيد ثمنها اليوم على سنتيمين، بخمسة فرنكات. وأصبح الدقيق، نتيجة للحملات الفرنسية التي كانت تدمر محاصيلنا شديد الغلاء، إلى درجة أن عدداً كبيراً من الناس التجأوا إلى وسيلة يائسة، وهي أنهم صاروا يضعون التبن المدقوق في عجين الخبز للإكثار من كميته، لا ليشبعوا وإنما ليخادعوا الجوع على الأقل»(١٩).

وكان فون مالتسان برسمه هاتين الصورتين، وصور أخرى كثيرة مثلهما، كان يقول بأن حرب الاستعمار الفرنسي كانت مسؤولة عن الفقر.

في ليلة قضاها في منطقة آيت مليكش، في جبال جَرجَرة (جرجر) حضر الرحالة حفلة ختان. فقد مر موكب المغنين والطبالين أمام بيت الضيافة حيث كان الرحالة ومن معه يقيمون. وعندها تقدم أحد الأعيان ودعا الشيخ والغرباء وجميع الحاضرين لحضور حفلة ختان ابنه. وهذه الحفلة سيحضرها شيخان من شيوخ القبائل. ويتابع فون مالتسان إخباره عن هذه الحفلة بقوله: «وكنت قد سمعت من قبل أن مثل هذه الحفلات كثيراً ما تكون شيقة عندما

يحضرها كبار الشيوخ، ويتنافسون في تقديم الهدايا للطفل المختون... ودخلنا مكان الحفلة... وكان الأغَوان (أي كبيرا الشيوخ) قد أخذا مجلسيهما... وقد جلس أحدهما قبالة الآخر، في زاويتين مختلفتين فوق الحصيرة... وكأنهما ديكا شجار... وبدأت الحفلة بالرقص كما يحدث دوماً تقريباً... وبعد الرقص راحت الأنظار والأسماع تترقب الحدث الرئيسي، ويتمثل هذا في إهداء المال للصبي المختون بصورة علنية... وكلما دفع واحد شيئاً لصاحب الفوطة كان هذا يعلن المبلغ المتبرع به. وعندئذ تعلو زغردة النساء تحية للرجل الكريم.

«وفي النهاية جاء دور آغا يكوكة، فتبرع بعشر بوجوات (قطعة نقد صغيرة هي جزء من الفرنك)... ولما وصل الدور إلى الآغا الآخر، آغا آيت عباس، تبرع هذا بعشرين بوجو. فعاد الأول وتبرع بخمسين بوجو. لكن الثاني رمى الكيس إلى الذي يجمع النقود في فوطة فكان فيه ثلاثمائة فرنك. وسقط كيس آخر، من الآغا الأول وفيه خمسمائة فرنك. وبعد ذلك سقط كيسان على الفوطة، واحد من كل من الزعيمين، وكان في كل كيس الف فرنك. وعندها لم يعد هناك سبب يدعو الواحد إلى الغيرة من الآخر»[٢٠].

لما اجتاز رحالتنا البيبان الحديدية، امتد أمامه «سهل تظلّه الأشجار وتخترقه الجداول، يختلف كل الاختلاف عن مهاوي البيبان (الحديدية) العارية الجرداء القاتمة. ووصلنا برج بوعْريريج في فترة ما بعد الظهر، وهي قرية صغيرة أصبحت مسكناً لمائتين من الأوروبيين ومثلهم من العرب منذ سنة ١٨٥٠. وكان منظر هذه القرية التي تقع فوق تلين، وترى في وسطها بساتين كثيرة وأشجار عديدة في منتهى الجمال. فهناك اشجار المغث، الذي قلما يمتع نظر السائح في الجنوب، والمروج الخضراء، التي تذهِّب حواشيها الشمس الغاربة وقتامة الغابات القريبة والجداول الفضية الرقراقة، والبساتين المليئة بالورود والأزهار.

«وكان لبرج بوعْريْريج، باعتبارها على خط مواصلات، سوق تبيع فيه القبائل المجاورة مصنوعاتها أكبر مما يتصوره المرء بناء على قلة عدد سكانها. فكانت قبائل تسوق أبقارها السمينة الحلوب، وأخرى تبيع فيها منتوجاتها من الزيت والصناعات الأخرى، وقبيلة ثالثة كانت تزود سوقها بالعسل الذكي الرائحة، وقبيلة رابعة تبيع في سوقها الصوف الذي يُجز من أغنامها الكثيرة. وكانت قبيلة مجاورة أخرى تؤدي ضريبتها بسبب نشاطها التجاري»[٢١].

وفي برج بوعريريج اشترى رفيق فون مالتسان الإنكليزي أسداً. وبذلك نما عدد أفراد القافلة. فهناك الآن الأسد ورجلان للعناية به. ورغب في شراء دب فلم يتيسر ذلك.

زار فون مالتسان سطيف، التي كانت فرنسية تماماً، فيها ألفان من السكان، ورجال الحامية أكثر من السكان، وكان فيها ثكناتها ومستودع (للجنود) للمواد الغذائية والذخيرة والبارود. ولسطيف سوق هو سوق الأحد. وقد وصف الرحالة السحن والأشكال التي رآها في سوق الأحد وصفاً دقيقاً، وربط بين كل سحنة والبرنس الذي ترتديه. وقد قيل له إن بني حوامر منحدرون من الفندال الذين احتلوا الجزائر مائة سنة في القديم. ولكنه لم يجد فرقاً ظاهراً بينهم وبين بقية القبائل. ولكنه استعاض عن هذا بالقلعة الرومانية التي كانت لا تزال

قائمة في المدينة.

لما زرت المنطقة سنة ١٩٥١، مررت بسطيف في القطار. يومها لم يكن أحد، لا عربي ولا فرنسي، يهتم بالقلعة. القصة التي سمعتها مرات هناك وفي قسنطينة وفي الجزائر هي مذبحة سطيف في آيار/ مايو ١٩٤٨، التي قضت فيها الأسلحة الفرنسية النارية على آلاف من السكان، بحجة أنهم عصاة مشاغبون، وذلك لأنهم كانوا يطالبون بحقوقهم.

في منطقة القبائل كانت قبيلة كبيرة تسمى زواوة (وهي لها فروع في تونس وليبيا). وقد قدر عدد أفرادها (في الجزائر) بمائة ألف نسمة. وقد تقسمت زواوة إلى ثلاث مجموعات: زواوة الشرقية وزواوة الغربية وآيت ايراثن. وكل مجموعة تكون نظاماً داخل نظام زواوة الأكبر: «ونظام زواوة نظام جمهوري فليس هناك قبيلة تعترف بقبيلة أخرى غير القبيلة التي اختارتها بنفسها. وكانت القبائل المفردة ترسل في بعض المناسبات النادرة ممثليها للمشاركة في اجتماع سياسي لتنظيم الشؤون العامة؛ إن كان ثمة ما يدعو لذلك. لكن هذا كان قلما يحدث، لأن لكل قبيلة مجالاً سياسياً واسعاً، ولم يكن من المفروض على أي قبيلة أن تخضع لأغلبية القبائل الأخرى. فإذا هي لم ترض عن قضية سياسية ما، فإنها تمتنع عن المشاركة فيها بكل بساطة دون أن تفقد حقها في البقاء ضمن مجموعتها»[٢٢].

نحسب أننا وضعنا أمام القراء خلاصة وافية لما شاهده فون مالتسان في السنوات الثلاث التي قضاها في الجزائر أثناء خمس رحلات قام بها بين ١٨٥٠ و١٨٦٠.

ونود أن نختم هذا الحديث بالقول بأن فون مالتسان يعطي في كتابه نماذج متنوعة للناس من جزائريين وغيرهم، وفي اختياره هذه النماذج لا يوفر الفرنسيين من النقد اللاذع على سياستهم العامة وتصرفاتهم الخاصة، كما أنه لا يبخس الأبطال حقهم من المديح. فهو كتاب يستحق القراءة.

الهوامش

(١) في: كتاب **ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا**، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج أول، (١٩٧٣)؛ ج ٢ (١٩٧٦).

(٢) انظر مقدمة الترجمة للدكتور دودو في: **ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا**، ج ١، ص ١١.

(٣) مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا** (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٣)، ج ١، ص ٣١ ــ ٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٦٩ ــ ١٧٠، و١٩٦.

(٧) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ٨٧ ــ ٨٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ٩٢ ــ ٩٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(١١) المصدر نفسه، ص ١١١ ــ ١٢٠.
(١٢) المصدر نفسه، ص ١٣١ ــ ١٣٥.
(١٣) المصدر نفسه، ص ١٧٤ ــ ١٧٥.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٤.
(١٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩١ ــ ٩٣.
(١٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.
(١٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧.
(١٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥١.
(٢٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٥ ــ ١٥٨.
(٢١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٣ ــ ١٦٤.
(٢٢) المصدر نفسه، ج ٢٢، ص ١٩٥ ــ ١٩٦.

٩ ـ تلمسان

١

وقفت على قمة الهضبة الصخرية التي تحيط بتلمسان من الجنوب، ورأيت شعاب هذه الهضبة الوردية تنحدر نحو المدينة. ومن هناك أشرفت، نحو الشمال، على سهل واسع خصب، يمتد عند قدمي المدينة، يبدو كأنه بساط موشى، تناثرت فيه القرى والقباب. ولاح لي من بعيد خط المرتفعات. وقد تمت النعمة علي، فكان اليوم صحواً صافياً، فرأيت البحر بوضوح عند الأفق. وكنت في واقع الأمر، قد أحسست بالكثير من هذا الذي رأيته وأنا في طريقي من الجزائر (العاصمة) إلى تلمسان. فقد جئتها يومها ــ في زيارتي الأولى ــ بالقطار. وأطل الفجر والقطار يتحرك نحوها، وأشرقت الشمس ونحن نقترب منها. وكان الطريق يحاذي أطراف منطقة التل. وقبل أن نصل تلمسان: «أخذ الطريق يدور بنا ويلف، متجنباً الأودية السحيقة، مجارياً لهذه الجبال السامقة، مستظلاً بين الفينة والفينة بهذه الأشجار الباسقة، مشرفاً بين الحين والحين، على نهيرات عذب ماؤها وصفا لونه حتى كأنه غير الماء. ولم نلبث أن أشرفنا على تلمسان، فإذا بنا في منبسط من الأرض جاد فيه التراب، فأينع الثمر وانتظم الشجر، وفاح من الزهور أريج، وكسا الجبال غاب فنقلني ذلك كله إلى عالم فيه من الجمال ما يعجز الوصف. والماء كثير في ربوع المنطقة حتى يرى البعض إلى أن كلمة تلمسان معناها الماء الغزير. ولما وقفت على الهضبة ورأيت ما رأيت، تذكرت قول شاعرها في وصفها:

في رياض مُنضّدات المجاني — بين تلك الرُّبى وتلك الوهادِ
رقّ فيها النسيم مثل نسيبي — وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهر، والغصون تثنّت — وتغنت عليها ورق شوادِ

ومن الهضبة رأيت بقايا مدينة أغادير القديمة (وكلمة أغادير بربرية معناها القلعة)، وآثار تاغرارات المدينة التي انشأها المرابطون (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م) لما وصل ملكهم إلى المغرب الأوسط. وتلمسان بني عبد الواد (الزيانيين) التي أسسها منشىء الدولة يَغمُراسن (٦٣٣ ـ ٦٨٢هـ/ ١٢٣٥ ـ ١٢٨٣م). والمنصورة التي بناها السلطان المريني أبو يعقوب يوسف وهو على حصار تلمسان ثماني سنوات بدأت سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، هذه إلى قرية العباد الزاهية، تاريخ يشغل سبعة قرون أو يزيد، يمتد امام ناظريك، بعض أبنيته لا يزال قائماً، والبعض الآخر آثار.

وليسمح لنا القارىء بأن نضع بين يديه خلاصة مقتضبة لتاريخ تلمسان، وذلك تسهيلاً لمتابعة الحديث عنها ووصف آثارها.

١ ـ الفصل التاريخي الأول لهذه الرقعة كانت تقوم فيه مدينتان هما «أغادير» و«بوماريا».

وقد كانتا، في أيام الرومان، معسكرين، لحق ثانيهما بالأول زمنياً، لجنود الرومان والبزنطيين (وحتى الفندال بينهما). ويبدو من الآثار القليلة التي لا تزال قائمة أن بوماريا كانت ذات حدائق غناء.

٢ ـ في بدء العصر الإسلامي ارتبط اسم تلمسان بأبي المهاجر، أحد أصحاب النبي (ص) الذي يروى عنه أنه أول من نشر الإسلام في تلك البقعة النائية، كما ارتبط باسم عقبة ابن نافع فاتح المغرب. وكانت المدينة الثالثة ـ أغادير ـ عاصمة لأبي قُرة زعيم بني يفرن الزناتي الذي تزعم ثورة الخوارج في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ولما أنشأ إدريس دولة الأدارسة (١٧٢ ـ ٣١٤هـ/ ٧٨٩ ـ ٩٢٦م) في فاس وصل ملكه إلى اغادير هذه فاحتلها دون صعوبة. واحتفظ بها حصناً قوياً خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كما كانت مركزاً لنشر الإسلام وتفقيه المؤمنين.

٣ ـ وفي سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م احتلها يوسف من تاشفين المرابطي (٤٥٣ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٦١ ـ ١١٠٦م) بعد حصار عانى سكانها خلاله المحن والمصائب. وبعد سقوط المدينة (أغادير) بنى المرابطون تاغرارات (وهي تلمسان الحالية) وذلك حيث نصب مخيمه أثناء الحصار. وكان الجامع العظيم ودار الحاكم أول ما بني فيها. ولا يزال الجامع قائماً، أما القصر فقد عفي أثره.

٤ ـ خلف الموحدون (٥٢٤ ـ٦٦٧هـ/ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩م) المرابطين في الحكم، وكانت دولتهم أوسع، فقد ضموا، إلى الجزائر، تونس وطرابلس. وقد حاصر عبد المؤمن الموحدي (٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٦٣م) تلمسان حصاراً شديداً مدة سنتين قبل أن يدخلها، وعرف السكان الشقاء، إلا أن الموحدين أخذوا، بعد بضع سنوات، بتجديد الأسوار وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها. ويبدو أنها ازدهرت في عهد الموحدين فقد كانت غلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة وخيراتها شاملة ولحومها سمينة. وبالجملة إنها حسنة لرخص اسعارها ونفاق اشغالها ومرابح تجارتها (الإدريسي المعاصر لعبد المؤمن الموحدي).

٥ ـ تعتبر دولة بني عبد الواد الزيانية (٦٣٣ ـ ٩٦١هـ/ ١٢٣٥ ـ ١٥٥٤م) هي الدولة التي اتخذت تلمسان عاصمة لها، وأدارت شؤونها منها. ومؤسس الدولة هو يغمُراَسن بن زيان الذي ازدهرت المدينة في أيامه إلى درجة كبيرة. لكن مملكة بني عبد الواد، وعاصمتها تلمسان، كانت تقع بين حجري الرحى بين الحفصيين في تونس والمرينيين في فاس. وكان مؤسسها يعرف ذلك، وقد حاصرها الحفصيون في عهده. لكن أبا يعقوب يوسف المريني هو الذي أراد أن يقضي عليها. ولأن أسوارها كانت منيعة، فقد ضرب عليها حصاراً استمر ثماني سنوات بدءاً من سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م. وإذ إن الحصار طال أمده، فإن السلطان المريني وخليفته أبا عنان أقاما مدينة خارج تلمسان سميت المنصورة، كان فيها قصره والمسجد الجامع ودور تسكنها الحاشية والجنود وحمامات وفنادق للتجار وأسواق. وكانت تدور بها كلها أسوار قوية.

وقد كانت أسواقها مليئة بالبضائع والسلع وكان التجار يأتونها من كل مكان.

وفي الوقت نفسه كان سكان تلمسان ينالهم من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم حتى أنهم اضطروا، حسب رواية ابن خلدون، إلى أكل الجيف والقطط والفئران. وكادت تلمسان أن تسقط في أيدي المرينيين لولا أن أبا يعقوب هلك (٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م)، واضطر خليفته إلى العودة إلى فاس، فانسحب بعد أن صالح سلطان تلمسان أبا زيان.

إلا أن المرينيين عادوا إلى تلمسان فاحتلها أبو الحسن (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) وبقيت تحت سلطانه وسلطان خليفته أبي عنان إلى سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٩م. وخلال هذه الفترة أعاد المرينيون بناء المنصورة التي كانت قد خربت بعد رحيل المحاصرين عنها. وأخيراً استطاع أبو حمو موسى (٧٥٩ ـ ٧٩١هـ/ ١٣٥٩ ـ ١٣٨٩م) من العودة إلى العاصمة وإخراج المرينيين منها. وقد عرفت تلمسان فترة من الازدهار العجيب خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه.

على أن تلمسان ـ عاصمة الزيانيين ـ لم تعرف الراحة بعد ذلك، فكانت تابعة لتونس أو لفاس أو حتى لإسبانيا لفترة قصيرة إلى أن استولى عليها الأتراك (٩٦١هـ/ ١٥٥٤م).

٢

كانت التجارة هي المصدر الرئيسي لثروة تلمسان، إذ إن القوافل الصحراوية كانت تنقل منها ما كان يصل إليها من متاجر البحر المتوسط (عبر وهران وغيرها) إلى جنوب المغرب، إلى سجلماسة (تفيلالت) ومن هناك تنقل إلى السودان الغربي. كما كانت على الطريق الذي يصل تونس بالمغرب الأقصى.

كانت السفن القادمة من فرنسا وايطاليا وموانىء المشرق تلقي مراسيها في وهران حاملة الأقمشة الصوفية والسلاح والمصنوعات الزجاجية، فيما كانت السفن القادمة من المرَية الأندلسية تحمل بشكل خاص المنسوجات الحريرية الفاخرة. أما السودان الغربي فقد كان يبعث إلى أسواق تلمسان العاج والذهب والرقيق. وكانت تلمسان تضيف إلى ما يصلها من الشمال والجنوب مصنوعاتها النحاسية والجلدية والأقمشة المطرزة والزرابي (البسط) والبرانس. وقد كان تجار تلمسان يتبادلون السلع مع القادمين في «القيصرية». وكانت الصفقات التجارية تخضع لفحص دقيق. وفي حال النزاع كان التجار يلجأون لتحكيم معيار مركب في أحد جُدُر القيصرية (الذي لا يزال محفوظاً في متحف تلمسان). وكانت نزاهة تجار تلمسان مضرب الأمثال، وقد قال عنهم الحسن الوزاني (ليون الافريقي) الذي زار المدينة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إنهم كانوا من أصحاب الثراء الواسع ورؤوس المال الكبيرة، وإنهم كانوا منصفين يتميزون بتواصيهم المنقطع النظير بالأمانة والنزاهة في معاملتهم. وكانوا جد حريصين على أن يحتفظوا بكميات كبيرة من السلع في المدينة.

ولعل من أطرف ما وصل إلينا من أخبار التجار ما رواه المؤرخ المقرّي عن الأموال الطائلة التي اكتسبتها عائلته من الاشتغال بالتجارة. ذلك بأن الأخوة الخمسة جمعوا أموالهم كلها واستخدموها في التجارة. وظل اثنان من الأخوة في تلمسان، وأقام الأخ الأكبر في

سجلماسة، وأنشأ الأخوان الآخران متجراً لبيع السلع في ولاطة (أولاتا) في مالي. وكان الأخوة الخمسة يتبادلون المعلومات التي تضمن لهم أفضل الشروط للنجاح في أعمالهم. وكانت هذه الشركة تتمتع بثقة ملك مالي وبرضا صاحب تلمسان. وكان الجميع، الأخوة التجار وتجار تلمسان وصاحب المدينة، يفيدون من هذه التجارة الواسعة النطاق.

ورغم ما كان يحيط بالمدينة من مصائب، أو تقع فيه من أزمات، فقد كانت سوق التجارة فيها لا تتعطل كثيراً، ولا تلبث أن تستعيد نشاطها وأهميتها.

لكن الذي لم يكن يكفي المملكة، ومن ثم مما أدى إلى زوالها، هو أن الرقعة التي كانت دول بني زيان تقوم فيها أصبحت محدودة في مواردها الزراعية. أرضها خصبة أصلاً، ولكنها صغيرة إذا قورنت بدولة الحفصيين أو المرينيين. يضاف إلى هذا أن حكام تلمسان، رغبة منهم في الحصول على المقاتلة من البدو، عرباً أو بربراً، كانوا يقطعونهم الأرضين. وهؤلاء كانوا يستغلون الأرض لرعاية المواشي، إذ لم يكونوا زراعاً.

ويبدو أن هذا الاعتماد على العرب والبربر للحصول على المقاتلة، كان له أثر كبير بالنسبة إلى سكان المنطقة. فالذي تنبه إليه الدارسون هو أن زناتة، وهي القبيلة البربرية الأولى التي كانت تقطن تلك الجهات، يختفي اسمها تماماً بعد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. فأين انتهى بها المطاف؟ يبدو أن زناتة، بسبب احتكاكها واختلاطها وتمازجها (في رحاب بني عبد الواد) مع العرب الهلاليين (الذين كانوا قد وصلوا المنطقة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وانتشروا في ربوعها)، تعربت. وبذلك أصبح المؤرخون يتحدثون عن العرب ويعنون، طبعاً، زناتة المتعربة والهلاليين العرب أصلاً.

٣

تلمسان متعة للعين، طبيعة وتخطيطاً وآثاراً. فقد حرص كل من كان له يد في البلد أو وجود فيها أن يبني بها ما يخلّد ذكره وما يحبب إلى السكان أمره. ومع أن الكثير من الأبنية، الدينية والمدنية، قد عفى عليه الدهر، فإن ما بقي كاف لأن يسر الناظر ويشغل الخاطر. وشغل الخاطر هذا يتلخص في أنك وأنت في تلمسان تشعر بنفحة أندلسية خاصة. لا أقول إن هذه النفحة الأندلسية لا تجدها في مكان آخر في المغرب العربي، فهي موجودة في تطوان وطنجة وتونس ودرنة وغيرها، لكن النفحة التلمسانية أقوى وأعمق، وذلك لكثرة ما بني فيها من المساجد والمدارس، وكل من هذه تقريباً زُخرِف أندلسياً وإن كان التخطيط يختلف عن ذلك.

فالمرابطون بنوا الجامع الكبير في تاغرارات (تلمسانهم) الذي يشبه، في بنائه وزخرفته، إلى حد كبير، مسجد قرطبة. ومن أجمل زخارفه الداخلية قبة المحراب فيه المعروفة باسم «القبة المعرقة». وقد عملَ يغمُراسن، مؤسس الدولة الزيانية، على بناء منارتين (صومعتين) واحدة لكل من جامعي أغادير وتاغرارات. وجامع أغادير إدريسي الأصل وكانت صومعته ترتفع نحو أربعين متراً. فيما كانت منارة جامع تاغرارات (صومعة) تبلغ نحو أربعة وثلاثين من الأمتار. وقد كانتا (ولا تزالان قائمتين) مربعتي الواجهات. والفن فيهما ينعم بالانسجام

والتناسق. والبرج المربع هذا تحيط جُدُر فيه بالسطح الذي يقف عليه المؤذن. وهذه الجدر تعلوها شرفات مسننة الحواشي، وقد أقيم في وسط ذلك السطح برج مربع كانت تعلوه قبة صغيرة. وكانت جدر المنارتين مزينة مطلية بالجص ومزينة بقطع من الفسيفساء. لكن هذا جميعه مفقود.

ولم يطل يَغمُراسن الإقامة في المدينة المرابطية وأبنيتها، بل إنه أنشأ «المشور» الذي أصبح المقر الرسمي للزيانيين، بقلعته وقصره وجامعه ودور الحاشية والمخازن الرسمية، وقد كان للزيانيين، على غرار ما نعرفه عن كثيرين من حكام المغرب العربي، تقليد الاحتفال بالمولد النبوي الكريم. وقد كانت القاعة الكبرى في القصر المكان الذي يحتفل فيه بذلك، فيتصدر الأمير الحفل، يحيط به رجال الدولة.

وكانت الثياب الأنيقة والأنماط الحريرية المعلقة على الجدر والطنافس الجميلة تلمع تحت شعاع الثريا الضخمة المعلقة في القاعة (هذه موجودة في متحف تلمسان). وفي هذه المناسبات كانت تلقى القصائد والمدائح النبوية وتنصب السماطات. ثم ينتقل القوم إلى الجامع لأداء الصلاة.

ومما خلّفه بنو عبد الواد (الزيانيون). ولا يزال قائماً، هو جامع سيدي بلحسن (أبي الحسن). ومئذنته أيضاً مربعة الشكل. أما سقف المسجد فمصنوع من خشب الأرز على شكل بديع. وأعمدة الجامع وتيجانها من الرخام المجزع ومحرابه رائع الزخرفة.

وعلى مقربة من تلمسان إلى الجنوب الشرقي منها، تقع قرية «العبّاد». وهي تقوم على منحدر هضبة عالية. وقرية العباد تحوي قبور عدد كبير من الأولياء والصالحين، من الزهاد والمتصوفة وغيرهم. وللعظماء منهم مساجد ومدارس بنيت لتخليد ذكرهم. وأما مجموعة الآثار التاريخية المشيّدة بقرية العباد، فهي «جامع أبي مدين» وفيه قبته والمسجد وبقايا قصر ومدرسة. وهناك جامع سيدي الحلوي؛ ونكتفي بذلك على سبيل المثال.

وقد بنيت مجموعة أبي مدين أيام الحكم المريني لتلمسان (٧٣٨ ـ ٧٥٩هـ/ ١٣٣٧ ـ ١٣٥٩م). ويعد مدخل المسجد من أجمل المداخل في الفن المعماري الإسلامي. ببابه البرونزي المتوج بافريز كسيَ بالقرميد الأخضر؛ والمدرسة التي قضى عليها التنظيم الجديد لتلمسان (في العهد الفرنسي) بعد أن أضر بها إهمال الأتراك.

ومسجد سيدي الحلوي هو أيضاً بناء مريني من الفترة نفسها. وهو مثل جامع أبي مدين مزخرف من الداخل ومن الخارج مدخلاً ومئذنة، ولو أنه أصغر من جامع أبي مدين.

هذا الذي أشرنا إليه من أبنية وما اقتضبناه من وصفها، لا يشفي الغليل. ولو أن المجال اتسع لنا وفصلنا الأمور لما روينا عطش القارىء. ذلك بأن الأمر بالنسبة إلى تلمسان، على ما هو الأمر في بعض المدن، أنها لا توصف بالقلم. وقد توصف بالصورة واللوحة، إذ إن المهم في هذه المدينة أنها توحي! فأنت إذ تتنقل بين آثارها وخرائبها، تسمع وترى وتحس وتمس تاريخ قرون ثمانية كانت فيها المدينة تنبض بالحياة تجارة وبناء وعلماً وشعراً وتصوفاً. ليست تلمسان

وحيدة بين المدن العربية الإسلامية في احتوائها هذا التاريخ، بل ثمة من المدن ما هو أغنى منها عطاء. لكن تلمسان تأسر اللب. وعندما يؤسر اللب، يصعب التعبير عن ذلك، ومن هنا فأنا أدعوكم إلى زيارة تلمسان.

٤

يزدهر العلم بفروعه والأدب بأنواعه إذا كانت الدولة تحتضنه، وإذا كانت ثمة مؤسسات تترعرع بين جُدُره. وقد قيض لتلمسان، على نحو ما قيض لعدد كبير من المدن العربية الإسلامية، حكام يرعون العلماء والأدباء، ويبنون المؤسسات ـ المساجد والمدارس ـ حيث يتصل أهل المعرفة بالناس يعلمونهم ويثقفونهم. وإذا عرفنا أن مجتمع تلمسان كان، عبر الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، مجتمعاً يتصف بالإيمان وتعنيه الثقافة، أدركنا مدى ما يمكن أن يتاح لأهل العلم من طلاب وأتباع.

فالأدارسة والمرابطون والموحدون كانوا حريصين على أن تكون تلمسان مركزاً لنشر أرائهم ووجهات نظرهم في المغرب الأوسط. وفي الجوامع التي بنوها والمؤسسات التي أنشأوها كان العلماء يوضحون الاسلام للناس. وبنو مرين، محاصرين، ومحتلين، كانوا يشجعون العلماء والشعراء ويبنون المساجد والمدارس للتعليم والوعظ والارشاد. وفي هذه جميعها كانت علوم التفسير والحديث والقراءات والفقه والتوحيد تدرس بعناية واهتمام.

الا ان تلمسان، بالنسبة الى هذه الدول جميعها، كانت «احدى مدن الدولة». فلما قامت الدولة الزيانية، دولة بني عبد الواد، اصبحت تلمسان العاصمة. والعاصمة تنال دوماً حصة اكبر. وكان يغمراسن، مؤسس الدولة الزيانية، حريصاً على اجتذاب العلماء إلى تلمسان عاصمة ملكه. وعلى سبيل المثال فإنه اجتذب أبا إسحق إبراهيم التِّنِسي، الذي كان الناس يتزاحمون لحضور الدروس التي كان يلقيها في الجامع الأكبر، وفي مقدمتهم السلطان يَغمُراسن نفسه. وبعد الحصار المريني الطويل استقبل أبو حمرو عالمين جليلين (هما ابنا الإمام الرجال) فمارسا التعليم في مدرسة بناها السلطان من أجلهما.

وقد جاء وقت على تلمسان كانت فيها خمس مدارس تلقى فيها الدروس ويقيم فيها الطلاب، وتسهّل لهم سبل المعيشة. هذا إلى الجوامع والمساجد. وكانت المواضيع التي تدرس، إضافة إلى ما ذكرنا من العلوم الإسلامية، المنطق اليوناني والطب والفلك والحساب والهندسة والموسيقى والزراعة. على أننا يجب أن نذكر أن تلمسان لم تعرف مؤسسة خاصة بالطب أو الهندسة أو مرصداً لمراقبة الأفلاك. لذلك، فإن الذي عرف في هذه النواحي لم يكن فيه اكتشاف جديد، ولكن الموضوعات كان يتناولها من يعرف عنها شيئاً، على نحو ما نعرفه عن إبراهيم بن أحمد التغري ومحمد بن يوسف السنوسي. فالأول، الذي كان عالماً وشاعراً، وضع معجماً طبياً صغيراً تناول فيه الأدوية ومنافعها والمواد التي تصنع منها. ومحمد بن يوسف السنوسي، المتخصص بالقصائد، أسهم في الطب أيضاً. والمشدالي، الأزهري الدراسة، فعل

مثل ذلك.

وسلسلة العلماء التلمسانيين طويلة، لذلك فإننا نكتفي بإضافة القلصادي وابن زكري. وحريٌّ بالذكر أن صناعة الكتاب كانت رائجة في تلمسان، مما يدل على إقبال الناس على القراءة.

وقد عاش في تلمسان أخوان هما يحيى بن خلدون وعبد الرحمن بن خلدون (هذا هو المؤرخ المشهور). وكان يحيى مؤرخ بني عبد الواد الزيانيين. وقد قال عن أيام أبو حمو موسى الثاني (النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي): «وبها للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائعة، ما زُخرفت عروشه ونُمقت غروسه، وتناسبت أطواله وعروضه». أما مؤرخنا الكبير، الذي قضى في تلمسان سنوات فقد قال: «فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين، ونزلت بجواره للتخلي والانقطاع للعلم لو تُركت له». وهناك تتلمذ ابن خلدون على الآبلي وغيره.

وأبو حمو موسى الثاني ـ معاصر ابن خلدون ـ كان شاعراً مجيداً. وقد كان لاجئاً في تونس قبل أن يعود إلى تلمسان وينتزع حقه من مغتصبيه. وقد نظم قصيدة يصف فيها سيره وأعماله حتى نال مبتغاه. منها هذه الأبيات.

قطعتُ الفيافي بالقلاص وإنما	تُجاب الفلى بالخف أو بالمناسم
وخضتُ الفيافي فَدْفدا بعد فدفد	لنيل العلى والصبر إذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى	نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
وجئت لأرض الزاب تذرف أدمعي	لتذكر أطلال الربوع الطواسم
وشبّكت عشري فوق رأسي فلم أجد	بها مخبراً غير الربى والمعالم

فلا غرابة في أن يعرف البلاط الزياني شعراء يمتدحون السلطان ويتغنون بما يرون من طبيعة جميلة، ويصفون أيامهم ونزههم وحياتهم.

ومن هؤلاء محمد بن يوسف التغري، وله في وصف تلمسان قصيدة جميلة نجتزىء منها الأبيات التالية:

أيها الحافظون عهد الوداد	جددوا أنسنا بباب الجياد
وصلوها أصائلا بليالٍ	كلآل نظمن في الأجياد
في رياض منضدات المجاني	بين تلك الربا وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المباني	باديات السنى كشهب بوادي
رق فيها النسيم مثل نسيبي	وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهرُ والغصون تثنت	وتغنّت عليها ورق شوادي
وانبرى كل جدول كحسام	عاريَ الغمد سندسيّ النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه	أحرفا سطرت بغير مداد
رقّت الشمس في عشاياه حتى	أحدثت منه رقّةً في الجماد
جدّدت بالغروب شجو غريب	هاجه الشوقُ بعد طول البعاد

وكانت تلمسان من مراكز التصوف الكبرى في المغرب العربي في الفترة التي نتحدث عنها وفيما تلا ذلك من العصر التركي. ففي «العبّاد»، وهي ملجأ المتصوفين، نجد قبة سيدي بومدين وسيدي الحلوي وسيدي بلحسن وسيدي السنوسي. وأبو مدين أندلسي من أهل اشبيليا، ولد سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، ودرس بفاس وأدى فريضة الحج. بدأ تعاليمه الصوفية في بجايه بالجزائر، ثم أخذ يتنقل من مكان إلى آخر. وكان في طريقه إلى مراكش لما أدركه المرض في سفوح تلمسان، فتوفي ودفن في العباد، حسب ما اختار هو بنفسه.

وسيدي الحلوي عاش في اشبيليا حيث تولى منصب القضاء وذلك بسبب تضلعه في الشرع والفقه، وكان ثرياً. ولم يلبث أن وزع ثروته وسار على طريق المتصوفة وانتهى به الأمر إلى تلمسان. وقبره في «العباد». والذي عليه المؤرخون هو أن الحلوي كان من أهل القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

وسيدي «بلحسن» (أبو الحسن) من أهل القرنين السابع والثامن الهجري/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. وكان يهتم بالعلوم. ومع أن «بومدين» هو الاسم الغالب على تلك المنطقة، فإن العالم الكبير بين هؤلاء المتصوفة هو سيدي السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م. فقد كان عالماً في العلوم الإسلامية وكانت له مشاركة في الفلك والطب. وهو واضع كتاب «العقيدة الصغرى»، الذي كان في أيامه أمراً جديداً في الأصول وظل كذلك على مدى العصور.

٥

في أواخر عهد الدولة الزيانية، لما اشتد الضغط الاسباني على تلمسان، أخذت بعض العائلات العلمية والغنية تهاجر من تلمسان. وقد ازداد ذلك بعد الاحتلال التركي للبلاد، إذ إن الدولة الجديدة لم تكن تعنى بالعلم والتعليم وما إلى ذلك. إلا أن ذلك لا يعني أن المعرفة عفيت آثارها في تلمسان. فعندنا على الأقل أسرتان نعرف عنهما أنهما حافظتا على العناية بالعلم وهما أسرة المقري وقدورة. فسعيد قدورة وسعيد المقري كانا من أهل العلم والقضاء والفتيا (وقد أصبح منصب المفتي بعد الفتح العثماني مهماً في الجزائر). وظل هذان، ومن كان في اتجاههما، يقومان بالتدريس والقضاء والوعظ وما إلى ذلك.

يضاف إلى هذا أن أسرة المقري أنتجت أحد كبار مؤرخي العصر العثماني المبكر وهو أحمد المقري صاحب «نفح الطيب» و«أزهار الرياض» وغيرهما. وكان أحمد المقري ممن انتقل من تلمسان إلى فاس متعلماً ومعلماً، ثم رحل إلى المشرق وأقام في مصر وحج وزار القدس ودمشق، ولقي حفاوة كبيرة. وكتابه نفح الطيب وضعه في القاهرة تلبية لطلب الشاميين منه أن يدلهم على تاريخ الأندلس. وتوفي في القاهرة سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٢١م.

ومن أبرز الأمور التي ظلت تلمسان تعنى بها هي التصوف والموسيقى والشعر (الفصيح على التصنع فيه، والعامي على ما فيه من حيوية). ونحن نجد أن التصوف انتشر في غرب القطر الجزائري بشكل واسع. وكان للشاذلية والقادرية، وما تفرع عنهما أو انضم إليهما،

المكان الأول. والقادرية كانت تنال تأييد العثمانيين لأنها هي التي كانت تؤيد الدولة الجديدة.

هذه تلمسان، مدينة التجارة والفن والعلم والتصوف التي ازدهرت، وبشكل عام صعوداً، من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فكونت لها شخصية تميزها عن كثير من المدن العربية الإسلامية. فهي على تجاور السكان فيها من عرب وبربر (وترك فيما بعد) فقد انتهى الأمر إلى نوع من التمازج. أما ما كان يقوم من القتال داخلياً فكان كثيراً ما يؤتى بالعناصر اللازمة لذلك من الخارج. وهي على غلبة التصوف على مظهرها الخارجي وعلى قلبها، فإنها لم تهمل العلم والأدب بالأنواع المختلفة.

وظلت تلمسان مدينة مكشوفة للزائر والرائي، فقد كانت دوماً أوسع من مدى أسوارها.

١٠ـ القيروان

١

لما تم لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية (الأول) في سنة ٢١ هـ/ ٦٤١م، اتجه نحو برقة وطرابلس وصحراء ليبيا الجنوبية. وقاد حملة نحو طرابلس، مستولياً على برقة في طريقه، فاحتلها في السنة التالية. وقاد عقبة بن نافع، على أغلب الروايات، حملة في الصحراء نحو فزان، التي يبدو أنها وقعت في أيدي العرب في الوقت ذاته. وتم للعرب وقتها فتح جزء كبير من البلاد التونسية (افريقيا).

وفي أيام الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م) سيّرت حملات استهدفت فتح ما تبقى من البلاد التونسية. وكانت معركة سبيطلة الثانية (٤٥هـ/ ٦٦٥م) خاتمة للأعمال العسكرية في تلك الجهات، ذلك بأن اضطراب الأمور الداخلية في الدولة العربية الإسلامية كان من شأنه أن يوقف مثل هذه الأمور.

ويسمي سعد زغلول عبد الحميد الفترة الممتدة من ٢٢ ـ ٥٠هـ/ ٦٤٣ ـ ٦٧٠م، بالنسبة إلى فتح افريقيا الشمالية «ما بين الفتح والاستكشاف». فهو يرى أن هذه الحملات أدت إلى تعرف العرب إلى المنطقة، وعقد بعض المعاهدات مع البربر (وقد نقض كثيرها)، وإلى جر مغانم كبيرة.

أما فترة الفتح والاستقرار فتمتد نحو نصف قرن (٥٠ ـ ٩٥هـ/ ٦٧٠ ـ ٧١٣م) وهي التي انتهت لا بفتح بلاد المغرب فحسب، بل والأندلس أيضاً. ولسنا ننوي تتبع أخبار الحملات في هذه الفترة، ولكننا نود أن نضع أمام القارىء جدولاً بأسماء القواد الذين كانت لهم اليد الطولى في هذه العملية الكبيرة وهم: عقبة بن نافع في ولايته الأولى (٥٠ ـ ٥٥هـ/ ٦٧٠ ـ ٦٧٤م) وفي هذه الولاية بنى عقبة مدينة القيروان. ثم ولي عقبة الأمر ثانية (٦٢ ـ ٦٤هـ/ ٦٨١ ـ ٦٨٤م) وفي نهاية هذه الولاية استشهد وهو في الميدان. وهناك حسان بن النعمان (٧٣ ـ ٨٥هـ/ ٦٩٢ ـ ٧٠٤م)، وموسى بن نصير (٨٥ ـ ٩٢هـ/ ٧٠٤ ـ ٧١٣م).

ورغبة منا في تيسير الحديث عن القيروان فلنشر أيضاً إلى الفترات المختلفة التي مرت على المغرب العربي في الفترة التي كانت فيها القيروان ذات شأن سياسي وثقافي وحضاري كبير. فالمؤرخون يذكرون تلك المدة مقسمة على الفترات التالية:

(١) عصر الولاة: ويمتد إلى قيام الدولة الأغلبية سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م.

(٢) عصر الدولة الأغلبية: (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م) وكانت القيروان عاصمتها.

(٣) عصر دولة الفاطميين في المغرب العربي (٢٩٧ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٦٩م) ومع أن المهدية كانت عاصمتهم، فإن القيروان ظلت لها المكانة الأولى في الدولة.

(٤) عصر دولة الزيريين (الصنهاجية) (٣٦١ ـ ٥٤٣هـ/ ٩٧٢ ـ ١١٤٨م). إلا أن هذه الدولة، التي كانت القيروان عاصمتها، انتهت بالنسبة إلى المدينة الكبيرة في سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م لما هاجم الهلاليون المنطقة وقضوا على المدينة، وانتقل من تبقى من الزيريين إلى المهدية.

هناك بضعة أمور يجدر بنا أن نسجلها قبل ان نبدأ الحديث عن القيروان بالذات. وأول هذه هو أن عقبة بن نافع الذي دخل برقة سنة ٢١هـ/ ٦٤١م (أو في السنة التالية) ظل في تلك الجهات إلى أن عينه معاوية والياً على البلاد مع إمارة جيوش الفتح (٥٠هـ/ ٦٧٠م). ومن هنا فإن الرجل اكتسب خبرة جغرافية وطوبوغرافية بالبلاد، وتعرف إلى القبائل التي كانت تسكن المنطقة وما لها وما عليها، واطلع على إمكانات البلاد الاقتصادية (بقطع النظر عما إذا كان قد أسهم في أي من المعارك، وهو الأمر الذي نرجحه).

وثاني هذه الأمور هو أن عقبة كان يدرك أن أي مركز كبير للعرب ـ للإدارة أو الفتح ـ في الجهات التونسية يجب أن يكون بعيداً عن المسالح البحرية، لأن الأسطول العربي الإسلامي لم يكن قد أصبح قادراً على مقاومة الأسطول البزنطي مقاومة فعالة.

والأمر الثالث الحري بانتباهنا هو أن عقبة كان قد أدرك ـ بحكم حملاته الأولى ومراقبته الأمور ـ أنه لا بد من إقامة مركز كبير في البلاد التونسية ليكون مركز تجمع وإراحة للجند وامتياز لهم.

ومن هنا نفهم هذه الخطوة التي اتخذها عقبة بن نافع في بناء القيروان لما عينه الخليفة معاوية (٤١ ـ ٦٠هـ/ ٦٦١ ـ ٦٨٠م). فالقضية لم تكن بالنسبة إليه قضية تحتاج إلى تأمل، بل كانت خطة قد رسمها، ونفذها حين ولي الأمر، وهي تدل على نظرة مستقبلية للمنطقة بأكملها.

والأمر الرابع هو أن القيروان أصبحت المركز الإداري للمغرب العربي بكامله، حتى اسبانيا، وظلت هذه هي القاعدة حتى قامت في المغرب العربي دول متعددة، استأثرت كل منها بجزء من البلاد، واتخذت لها عاصمة (وهذه الدول سنلتقي بها عندما نتحدث عن مدن أخرى في المغرب العربي).

ولم تخل قصة بناء القيروان من بركة أضفاها عليها الرواة، ونقلها ابن عبد الحكم، وهي أن الموقع الذي اختاره عقبة لإقامة القيروان كان وادياً كثير القطف كثير الشجر، وكانت السباع والوحوش والهوام تأوي إليه. فلما وقف عقبة على المكان الذي اختاره دعا الحيات والسباع باسم الرسول (ص) الى ترك المكان لأنه هو وصحبه فيه نازلون: «فنظر الناس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراءها والحيات تحمل أولادها».

٢

أصبحت القيروان مركز الإدارة ومركز التعبئة العسكرية للغزوات. وسكنتها جماعات مختلفة. ولم يكن موضع القيروان ذاته بعيداً عن مظاهر العمران. فقد كانت تقوم بالقرب منها

آثار مدينة قمونية الرومانية. وتحيط بالقيروان مراع خصبة كانت صالحة لرعي الإبل، وهي التي كانت تعين العرب، وخصوصاً بعد فتحهم لتلك المناطق.

وكانت القاعدة المتبعة أن يبنى المسجد، وكان مسجد القيروان الجامع «أول معقل ديني في مباني افريقيا الإسلامية». ثم خُططت أقسام المدينة. ومدينة في مثل هذا الموقع، تخرج منها البعوث للفتح وتهاجمها الحملات في أوقات العصيان البربري وثورات القوم، وتعبث بها خلافات الولاة وأطماعهم وحتى نزاعاتهم، كان لا بد لها أن تتعرض للأذى أكثر من مرة. ولكن ليس المهم ما أصاب القيروان من نكبات، في عصر الولاة وبعيد ذلك، ولكن المهم، في رأينا، هو عنصر الاستمرار في المدينة، التي تحمّلت جميع هذه الصعوبات لكنها صمدت أمامها جمعاء حتى جاءتها الغزوة الهلالية.

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠م) لما أراد أن يثقف سكان تلك الربوع بالإسلام، إذ بلغه أنهم قبلوا من الدين بعض مظاهره، أرسل بعثة العشرة إلى القيروان لتكون لإقامتهم مستقراً ولعملهم منطلقاً. والذي عليه الباحثون هو أن القيروان لم يمض عليها وقت طويل حتى اتسعت فبلغت مساحة مبانيها نحو سبعة آلاف متر مربع.

كان الخلفاء الأمويون، على ما ارتكبوا من أمور في المنطقة المحتلة لم تكن في مصلحة الخلافة ولا في مصلحة البلاد، لا يبخلون على ولاتهم هناك بالدعم. لكن العداء لهم اشتد، إذ وصل الخوارج ـ الإباضية والصفرية ـ إلى المغرب العربي. ثم جاء العباسيون (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، فلم يكن موقفهم من الخوارج يختلف عن موقف سابقيهم. وقام الأدارسة (١٧٢ ـ ٣١٤هـ/ ٧٨٩ ـ ٩٢٦م) في شمال المغرب الأقصى خصوماً للعباسيين، ومن ثم أصبح مركز القروان أكبر أهمية من ذي قبل، سياسياً وعسكرياً. ورأى هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) أن يجعل من القيروان درعاً يقيه من القوم الثائرين، فأعطى إبراهيم بن الأغلب الاستقلال في النفوذ. وبذلك قامت دولة الأغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م)، وحدة مستقلة ودرعاً للخلافة. وقد كانت دولة الأغالبة هذا الدرع المنيع أيام استقر أمرها، ونجحت في ضم صقلية إلى ملكها (٢٦٤هـ/ ٨٧٨م)، وقام امراؤها الأوائل بأعمال بنائية ضخمة في القيروان ذاتها (توسيع الجامع في القيروان وتوسيع الجامع في تونس، وكانت هذه تابعة لتلك)، كما عمل الأغالبة على الاهتمام بالزراعة والري في المنطقة. وأقام الاغالبة الفسقية المشهورة. لكن الأغالبة حادوا عن صراط الآباء، وتنكبوا سبل العدل، واختصموا فيما بينهم بدءاً من أيام إبراهيم (الثاني) بن أحمد (٢٦١ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٠٢م)، فأساءوا الى الرعية، فامتنع القوم عن مساندتهم. ولم تلبث دولتهم ان انتهى امرها على يد الفاطميين (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) وهكذا، فإن التقدم الاقتصادي الذي شهدته المنطقة في أوائل العصر الأغلبي توقف بعض الشيء، ولكنه أخذ يستعيد نشاطه بعد قيام الدولة الفاطمية.

ومما يجدر ذكره أن القيروان شاركت في أمرين مهمين في أيام الأغالبة: الأول إنشاء

بيت الحكمة، وكان ذلك في أوائل عهد إبراهيم الثاني. وكان الذي عُهد إليه بذلك هو أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بالرياضي. وهو بغدادي النشأة، حيث أتيح له أن يلتقي جلة من المحدثين والفقهاء والأدباء واللغويين. وكان قد تنقل في أقطار المشرق قبل انتقاله إلى الأندلس وأخيراً استقر بالقيروان. وهناك أنشأ بيت الحكمة واستمر في العمل فيه إلى أن وافته المنية في عهد زيادة الله الأغلبي آخر أمراء الدولة (٢٩٠ ـ ٢٩٦هـ/ ٩٠٣ ـ ٩٠٩م). وقد كان لبيت الحكمة هذا شأن في الترجمة من اللغة اللاتينية، ولا عجب في ذلك، فإن أبا اليسر كان قد حمل معه فكرة عن بيت الحكمة البغدادي الذي أنشأه المأمون وأحياه المتوكل. وقد جلب الأغالبة إلى بيت الحكمة العلماء والأطباء والفلكيين والموسيقيين من المشرق.

أما الشأن الآخر الذي أسهمت فيه القيروان في عهد الأغالبة، فهو نشر المذهب المالكي في أرجاء الدولة الأغلبية، ومنها انتشر في صقلية والأندلس. وقد تم ذلك على يد الامام سحنون (١٦٠ ـ ٢٤٠هـ) وأقرانه وتلامذته. فهؤلاء كانوا يلتزمون المذهب المالكي، إذ إنهم كانوا يذهبون لأداء فريضة الحج، ثم كانوا يتولون الإمام ملك بن أنس في المدينة المنورة، فتأثروا بفقهه. وقد ولي سحنون قضاء القيروان (٢٣٤ ـ ٢٤٠هـ/ ٨٤٨ ـ ٨٥٤م). فكان صاحب النفوذ الأكبر لا في شؤون القضاء فحسب، بل في جميع شؤون الدولة. ولما عاد سحنون من المدينة المنورة كان قد وضع أسس مدونته (المالكية) التي أصبحت قاعدة التدريس في المغرب الأدنى، ومن هناك انتقلت إلى الأندلس.

إلى هذا كله كان الأغالبة رجال بناء. فهم إضافة إلى ما بنوه من قصور شامخة وما وسعوه، مثل الجامع الكبير، فقد أقاموا «رقّادة» التي كانت منتجع الراحة والنزهة لأهل الحكم وحاشيتهم.

وإلى ذلك كله قربوا العلماء والأدباء والشعراء وأحاطوهم برعايتهم. فهم الذين وضعوا القواعد الأولى لدور القيروان الحضاري الذي ازدهر في عهد الزيريين (الصنهاجيين).

٣

كانت المهدية عاصمة الفاطميين المغربية. لكن القيروان ظلت مركز علم وأدب. والمهم هو أن الفاطميين كانوا منصرفين بكليتهم إلى نشر مذهبهم في جميع المناطق التي احتلوها أو وضعوها تحت حمايتهم وهي المغرب العربي بأكمله تقريباً، وذلك بعد أن قضوا على الدولة الأغلبية (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) والدولة الرستمية في تاهرت (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) ودولة بني مدرار في سجلماسة (٢٩٧هـ/ ٩١٠م) ووضعوا الأدارسة تحت حمايتهم (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) ومن ثم فقد أصبحت مراكز العلم، والقيروان في القمة، مكاناً للجدل الشيعي ـ السني. وضعف مذهب ابن مالك بسبب ذلك.

وقد شُغل الفاطميون في الفترة القصيرة التي أقاموا دولتهم فيها في المغرب (٢٩٧ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٦٩م) بضبط الأمور وتهيئة أنفسهم لنقلتهم الكبرى، إلى مصر. فلما احتل

جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، بدأ بتخطيط القاهرة، عاصمة الفاطميين الدائمة، والتي انتقل إليها الخليفة المعز لدين الله سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م. وقبل أن يغادر الخليفة عاصمته المنصورية (التي خلفت المهدية) استدعى إليه بُلقين بن زيري الصنهاجي وأوكل إليه أمر المغرب. وظل الأمر على ذلك، أي أن يحكم بنو زيري تونس وطرابلس (لأن المغرب الأوسط انفصل عن بني زيري منذ ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م وأنشأ الحماديون دولة خاصة بهم) نيابة عن الفاطميين إلى سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٨م حين أعلن المعز بن باديس (الصنهاجي) (٤٠٦ ـ ٤٥٤هـ/ ١٠١٦ ـ ١٠٦٢م) خلع طاعة الفاطميين والولاء للعباسيين ولبس السواد وألبسه رجال دولته كذلك.

كانت ردة فعل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م) أن أطلق على افريقيا وبقية أنحاء المغرب جماعات كبيرة من بني هلال وبني سليم. وقد كانت هجرات هذه القبائل مستمرة كما كانت مدمرة. فخلال السنوات التي عقبت بدء سير هذه القبائل، خرّب الكثير من المدن وأصاب القيروان نصيباً كبيراً من ذلك. وفي سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م خرج بنو زيري من القيروان مشردين إلى المهدية.

على أن الفترة التي حكم فيها بنو زيري المنطقة من عاصمتهم المنصورية (على مقربة من القيروان) عرفت هذه المدينة عصراً مزدهراً. فالمدينة التي أنشأها عقبة بن نافع معسكراً، واتخذها الولاة عاصمة وتبعهم في ذلك الأغالبة، ثم كانت دار علم للفاطميين (ولو أن عاصمتهم كانت المهدية أولاً ثم المنصورية) تم لها في أيام باديس (٣٨٦ ـ ٤٠٦هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠١٦م) وابنه المعز (٤٠٦ ـ ٤٥٤هـ/ ١٠١٦ ـ ١٠٦٢م) الوصول إلى الغاية في العمران والحضارة. ثم جاءها الهلاليون، وكان ما كان.

٤

عرفت القيروان، والمنصورة جارتها، الأبنية الفخمة والقصور الضخمة، ولا غرابة في ذلك لأن المنطقة التي كان الصنهاجيون (الزيريون) يحكمونها هي منطقة جمعت أضداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم. وهكذا فقد كانت الزراعة متقدمة والري معتنى به والصناعات رائجة، وخصوصاً الجلود والقماش والزرابي (البسط)، وتجاراتها نشيطة. فالقيراون تقع على ملتقى طرق تربطها بالمهدية وتونس والبحر وراءهما، وبمصر شرقاً وبالصحراء وما خلفها جنوباً، وبالمغرب الأوسط وما إليه. ومع أن الزيريين كانوا ينفقون على البناء والعيش الفخم وعلى العلماء والشعراء والأدباء الذين كانوا يرحبون بهم في بلاطهم، فإنهم لم يضطروا إلى ظلم الناس في الضرائب والغرامات، بسبب الثراء الذي كانت تتمتع به مملكتهم.

كان بين شعراء القيروان الكبار ابن رشيق وابن شرف. وكلاهما غادراها لما حلت بها نكبة الهلاليين. فذهبا إلى المهدية أولاً ثم إلى صقلية. وبقي ابن رشيق في الجزيرة إلى حين وفاته (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م). أما ابن شرف فقد ترك الجزيرة إلى الأندلس حيث توفي في اشبيليا

(٤٦٠هـ/ ١٠٧٦م). ولكل منهما رثاء للقيروان. فابن شرف يقول:

... أطفالُها ما سمعت بالفلا قط، فعادت بالفلا دارُها
ولا رأت أبصارها شاطئا ثم جلت باللج أبصارُها
وكانت الأستار آفاقها فعادت الآفاق أستارها
ولم تكن تلحظها مقلة لو كحّلت بالشمس أشفارها
فأصبحت لا تتقي لحظة إلا بأن تُجمع أطمارها

أما ابن رشيق فقد جاء من قصيدة طويلة قوله (نظمها وهو في صقلية)، والإشارة إلى أهل القيروان:

يستصرخون فلا يغاثُ صريخهم حتى إذا سئموا من الأرنانِ
خرجوا حفاةً عائذين بربهم من خوفهم ومصائب الألوانِ
هربوا بكل وليدة وفطيمةٍ وبكل أرملة وبكل حصانِ
وبكل بكر كالمهاة عزيزة تسبي العقول بطرفها الفتانِ
خود مبتّلة الوشاح كأنها قمر يلوح على قضيب البانِ
والمسجد المعمور جامع عقبة خرب المطاعن مظلمُ الأركانِ
قفر فما تغشاه بعد جماعة لصلاة خمس لا ولا لأذانِ
أَعظم بتلك مصيبة ما تنقضي حسراتها أو ينقضي الملوانِ

والقيروان التي رثاها ابناها الباران هي التي كانت من قبل دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم.

وقد عرفت من رجال الفقه أسد بن الفرات قاضي افريقيا في عهد الأغالبة وقائد الحملة إلى صقلية وفاتح الجزيرة، والإمام سحنون (وقد مر بنا ذكره) وابنه محمد وابن أبي زيد القيرواني. وكان فيها من الشعراء، غير من ذكرنا، ابن هانىء (توفي ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) شاعر البلاط الفاطمي في المهدية الذي مدح المعز الفاطمي وسجل الكثير من أعماله ونواحي حياته في شعره. وقد كان الشاعر يعتقد أن المعز الفاطمي مكلف بأن يعيد إلى العالم الإسلامي وحدته وفي هذا يقول عن حالته يومها:

سوام رعاع بين جهل وحيرة وملك مضاع بين ترك وديلم

وكان بين أطبائها ابن الجزار الذي وضع ثلاثين كتاباً في الطب.

وكان الجامع مركز الحركة والحياة، على حد وصف ابن غانم:

ومجلس تقوى يجلس الناس عنده جلوساً صموتا فهو أوقر مجلسِ
قناديله في وحشة الليل داجيا هداية أبصار وإيناس أنفسِ
كأن ثرياه نجوم تآلفت تألق في داج من الليل حندسِ
كأن القناديل المدارة حولها جفونٌ رنت منهن أعين نرجسِ

وكان بين مؤرخيها الرقيق وبين نسابيها أبو العرب التميمي وبين كتّابها ولغوييها عبد

الكريم النهشلي وبين أهل الأدب أبو إسحق (الحصري) القيرواني صاحب زهر الآداب.

٥

من الأدباء والشعراء من يكتب وينظم دون أن يخلّف آثاراً خاصة بحيث يفيد الخلف من آرائه (في غير نثره ونظمه). ولكن القيروان عرفت أدباء وشعراء كانت لهم في الادب والشعر نظرات خاصة أثرت في الأجيال التالية. ولسنا نعتزم أن نتحدث عن هؤلاء جميعاً، فذلك أمر يطول، ولكن لا نرى لنا مندوحة من الوقوف بعض الوقت مع ابن رشيق. ذلك بأن الرجل، فضلاً عن كونه شاعراً صداحاً، فهو من أوائل الذين كتبوا في النقد الأدبي.

لما هبط ابن رشيق القيروان، وكان قد بلغ العشرين من عمره، وقد تثقف عند علماء المحمدي (المسيلة) الجزائرية، بقي في بلاط المعز بن باديس، وقرأ على جماعة من أهل العلم والأدب بينهم القزاز اللغوي العروضي والنَهشلي الناقد الأديب وابن أبي الرجال كاتب المعز. ولما تبين المعز ما لابن رشيق من القدرة أحاطه برعايته، فانصرف الرجل إلى الشعر يتطارحه ويدرسه ويعين له مذاهبه ويبين أساليبه ويوضح قواعد نقده. فوضع في القيروان كتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده».

وقد عرض ابن رشيق في العمدة إلى ما قاله السابقون في الشعر وما له وما عليه. ورأى الناس يقدمون ويؤخرون ويقلّون ويكثرون، فعمق النظر في الأمر، ووضع كتاباً تناول فيه نقد الشعر عموداً ولفظاً وأسلوباً ومعنى ومبنى. وقد وصف المؤلف كتابه بقوله: «فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم (الشعراء) في كتاب ليكون «العمدة في محاسن الشعر وآدابه... وعولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري، خوف التكرار ورجاء الاختصار... بعد أن قرنت كل شكل بشكله ورددت كل فرع إلى أصله، وبينت للناشىء المبتدىء وجه الصواب فيه، وكشفت عنه لبس الارتياب به، حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه».

ولعل رأي المؤلف في اللفظ والمعنى وارتباط الواحد منهما بالآخر من حيث علاقتهما بالشعر حري بأن ينقل على أنه نموذج لتفكير ابن رشيق. فهو يقول: «اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه ويقوى بقوته. فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح. وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح. ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب... فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ وأتى لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع... وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى. لأننا لا نجد روحاً في غير جسم البتة».

وابن رشيق لا يلقي الكلام على عواهنه، ولا يصدر أحكامه جزافاً. إنه يتناول نصوصه ويحللها ويخضعها لقواعد ثابتة، ثم يقيّمها ويبدي رأيه الناضج. وهو لم يقصد إلى تمجيد شعراء أو التنقيص من قدر آخرين. بل إن الذي عُني به هو الشعر من حيث أنه شعر. وتمثل

بما تمثّل ليكون له مجاهل لتوضيح نظراته ووضع نظريته. ولا يهمل ابن رشيق أحكام النقاد الآخرين، بل يوردها وبذلك يتيح لمن أراد أن يفيد من «العمدة» الموازنة بين ما قيل من قبل وما جاء به هو. وقد قيل في العمدة: «يُعتبر أهم كتاب في النقد وضعه النقاد العرب القدماء، لما بلغه المؤلف في هذا الكتاب من كمال في البحث ودقة في عرض الحجة وترتيب الأدلة واستخراج الأفكار والحكم الصحيح».

ولابن رشيق، غير العمدة، من الكتب المهمة «قراضة الذهب» و«أنموذج الزمان في شعراء القيروان». وقد وضعهما في المهدية بعد أن ترك القيروان إذ تغلب عليها الهلالية. والأول نقد لأشعار العرب. والذي نراه أن القراضة هو تتمة للعمدة على هيئة دراسات فردية للشعراء، كان يرمي منه أن يطبّق ما اهتدى إليه من قواعد على الشعر.

أما «أنموذج الزمان» فهو مجوعة تراجم لشعراء المنطقة، وخصوصاً لأولئك الذين كانوا قريبي عهد به. ولعل الرجل خشيء أن تضيع الآثار الأدبية لأسلافه وشيوخه وأصحابه، فدوّنها. إلا أن الكتاب مفقود كمجموعة، ولو أن أجزاء كبيرة منه وردت عند الذين اقتبسوا منه. وكم يحسن أحد الدارسين صنعاً لو أنه تعقب هذه المقتبسات ليخرج لنا هذا الكنز، ولو بعضه.

زيارة القيروان في الوقت الحاضر لا تعطيك الصورة التي حاولنا رسمها في هذه الصفحات. فالأثر الوحيد الباقي صامداً هو الجامع الكبير ـ في أصوله وتوسيعاته المختلفة ـ ولكن حتى الجامع بالذات يحتاج إلى الكثير من العمل حتى يعود له رونقه. وقد عنيت الحكومة التونسية بالجامع وبالقيروان. فهناك مشروع خاص لإحياء القيروان. الخطوات بطيئة، ولكن أي أثر ضخم مثل هذا يمكن أن يعاد بناؤه ليتم له رواؤه، بين عشية وضحاها!

١١ ـ تونس

١

هبطت تونس (الحاضرة) من الطائرة مرات، وجئتها من البر مرات، وفي كل مرة كنت أشعر بارتياح عندما أدلخها. فهي مدينة واسعة الضواحي والأرباض، مفتوحة للرائي والزائر. وإن كانت المدينة (وهي القسم القديم منها) صغيرة المساحة ضيقة الشوارع، فإنها تشرح الصدر وتثير في النفس الإعجاب.

وما قاله عنها العبدري (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) الرحالة المغربي ينطبق عليها اليوم: «ثم وصلنا إلى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق، ومحط الرحال من الغرب والشرق. وملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البرين في سلك. فإن شئت أصحرت في موكب وإن شئت أبحرت في مركب» (واليوم نضيف الطائرة إلى ذلك كله). وقد نظم العبدري أبياتاً في وصف المدينة، تصور فيها أنه يتحدث نيابة عنها، وهي أبيات جميلة، ولذلك فإننا ننقلها هنا:

أنا الغادةُ الحسناء فاق جمالها ... فآلت يميناً لا خُطبت على زوج
إذا الغانيات ارتدن وصل بعولة ... فمالي، ولا فخر، إلى الزوج من حوجِ
أعادي، اذا ما شئت، ظبيا بقفزة ... وأطرق نوء اليمِّ في ظلم الموج
وفيّ لمكدود الحجيج استراحة ... فهم يردوني الدهرَ فوجاً على فوج
وإني إلى البيت العتيق كسلَّمٍ ... به يرتقي من بالحضيض إلى الأوج

وإذا نحن تركنا الأقسام الحديثة من المدينة وبدأنا بزيارة القسم القديم منها، وجدنا أننا أمام قسمين واضحين: الأول، وهو الأقدم عهداً، صغير يتوسط الحاضرة، والثاني الذي يعود إلى أيام الحفصيين (٦٢٥ ـ ٩٨٢هـ/ ١٢٢٨ ـ ١٥٧٤م)، ويدور بالقسم الأقدم.

والجزء الأقدم، وهو المعروف هناك باسم المدينة، يمكن اجتيازه من الشرق (باب البحر) إلى الغرب (باب المنارة) في نصف ساعة. ويحتاج المرء للانتقال من شماله (باب سويقة) إلى جنوبه (باب الجزيرة) إلى ساعة واحدة، هذا على أن يسير الواحد منا الهيونا. على أنني لا أعرف في دنيا العرب، باستثناء مدينة القدس، مدينة تضم في مثل هذه الرقعة الصغيرة من تاريخ العرب والإسلام عمارة وحضارة وثقافة وصناعة ما تضمه تونس. إن التاريخ العربي الإسلامي يتمثل فيها بشكل عمودي من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى القرن الماضي. فجوامعها ومساجدها ومدارسها وقبابها ودورها وسُبلها وحوانيتها، تضع أمام ناظريك صورة واضحة المعالم بيّنة الخطوط للنتاج الحضاري العربي الإسلامي.

ولندخل المدينة من باب البحر، الواقع في شرق المدينة (وحري بالذكر أن أسوار تونس

القديمة قد هدمت بعد الاستقلال، ولم يبق قائماً منها سوى الأبواب. وقد كان من حسن حظي أن رأيت هذه الأسوار قائمة في زيارتي الأوليين لها). وباب البحر هذا يعود في أصله إلى أيام دولة الأغالبة، في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وقد أُدخلت عليه تحسينات كثيرة وإصلاحات متعددة جعلته على شكله الجميل الحالي. ونجوز بعد الباب ساحة صغيرة ثم ندخل نهج (شارع) جامع الزيتونة. وبهذه المناسبة فشوارع «المدينة» جمعاء ضيقة، ولا تدخل فيها السيارات (إلا في الجزء الغربي الأعلى منها). وهذا الشارع يكتظ بالحوانيت التي تعرض فيها منتوجات الصناعة اليدوية التونسية، من صياغة الحلي الفضية، وفخار نابل وزرابي صفاقس. وهذا الشارع، مثل غيره في داخل المدينة، ينتهي إلى جامع الزيتونة. وحول الجامع تقوم سوق العطارين (شمال الجامع) وسوق الكتبية أو الوراقين وسوق الشاشية (الطربوش) وسوق الأقمشة وسوق الشماعين وسوق الصاغة (وكانت سوق الرقيق تقوم في مكان قريب من جامع الزيتونة في الزمن الخالي). وبعض هذه الأسواق يعود إلى أيام الحفصيين.

٢

ويكون دخولنا إلى جامع الزيتونة من الباب الشرقي، متسلقين بذلك بضع درجات، فإذا اجتزنا الباب والرواق الذي يليه اتجهنا نحو الصحن.

وقفنا في الصحن مواجهين بيت الصلاة أو المسجد الذي يقع جداره القبلي في اتجاه جنوبي شرقي. ويتكون هذا القسم من خمسة عشر رواقاً يفصل بينها أربعة عشر عقداً. وطول بيت الصلاة أربعة وخمسون متراً وعرضه ستة وعشرون متراً. والعقود فيه متعامدة على جدار القبلة، إلا أنها لا تتصل به، إذ تظل فسحة عرضها أربعة أمتار قائمة بينها وبين الجدار.

وإذا توسطت الصحن وكان موقفك مقابلاً للمحراب وللرواق الأوسط في بيت الصلاة لاحظت أشياء ثلاثة: أولها أن هذا الرواق بالذات أعلى وأوسع من الأروقة الأخرى، الواقعة عن يمينه وشماله. وثانيها أن المحراب تقوم قبله قبّة لطيفة. وثالثها أن قبة أخرى تكون مقابلة لك وهي قبة البهو.

والعقود القائمة في المسجد ترتكز على أعمدة هي في غالبيتها أعمدة من الرخام الأبيض. أما صفّا الأعمدة القائمان في الرواق الأوسط، فهما من الرخام الأحمر. وثمة مجموعتان من الأعمدة ترتكز على إحداهما القبة القائمة أمام المحراب، وترتكز العقود الأمامية من الرواق الأوسط على الأخرى. هذه الأعمدة رخامية، لكنها مختلفة الألوان. والناظر إلى الأعمدة عامة يسحره زخرفها الأنيق. فتيجانها من الأكانتوس اللطيف. وزخرفة الجبس فيها خالية من التعقيد الزخرفي. وقد قام المرحوم أحمد فكري بدراسة هذه الأعمدة وزخارفها فقال عنها: «لقد أتيحت لي أخيراً فرصة دراسة تيجان السواري [الأعمدة] عن كثب، فتبينت سرعة تطورها، إذ أن جميع السواري التي توجد في مسجد الزيتونة إسلامية نحتاً وشكلاً، ويظهر فيها مدى الابتكار الذي تولدت عنه. جميع هذه التيجان تعبر عن زهرة الأكانتوس. ولكن النحات التونسي وضع وريقات هذه الزهرة على تيجانه بحيث تقف عند

النقط الأساسية من جسد التاج في وسطه وأطرافه. ومع هذا فقد تنوعت اشكال هذه الزهرة الواحدة، فتارة يكون التاج من صف واحد من الورقات وتارة من صفين، وعلى الرغم من تقارب أشكال الورقات واقتصارها على ثلاثة، فإن التنوع ظاهر في امتدادها أو التفافها، وفي انتعاشها وشموخها. هذا الشكل من التيجان الذي نشأ في القيروان، ونما في الزيتونة، تطور تطوراً شمل بلاد المغرب والأندلس».

والقبتان فيهما من الزخرف الكثير. والمحراب قوسه مثل حذاء الفرس الدائري، وهو شكل جميع الأقواس في جامع الزيتونة. والزخرف الجبسي ظاهر في كل من القبتين، كما أن الكتابة الكوفية واضحة كل الوضوح. والمنبر خشبي يحتفظ به في غرفة خاصة، وينقل على عجلات للاستعمال. والمنبر أغلبي الصنع كما يتضح من النظر إلى نقش أخشابه بدقة.

وللجامع ثلاثة عشر باباً: اثنان منها في الجدار القبلي. فالواقع منهما إلى يمين المحراب يقود إلى غرفة المنبر، والآخر هو باب الخطيب. وبقية الأبواب موزعة الجدر كما يلي: ثلاثة في الغرب وثلاثة في الشمال وخمسة في الشرق (أحدها مسدود). وهذه الأبواب تؤدي إلى الأسواق المختلفة المحيطة بالجامع.

ولنعد إلى الصحن. وهناك نجد أن في كل من الجهات الشمالية والشرقية والغربية رواقاً واحداً فقط. وهي زيادات متأخرة.

وفي الزاوية الجنوبية الغربية من الجامع ترتفع مئذنته (صومعته) المربعة الجميلة، وحريٌّ بالذكر أن هذه المئذنة لم تُضف إلا في سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م على طراز مئذنة جامع القصبة. ولنتذكر أن الجوامع الأولى التي بنيت في المغرب كانت دون مآذن ـ باستثناء جامع القيروان ـ وذلك اتباعاً للسنة النبوية، إذ إن مسجد النبي (ص) في المدينة المنورة لم يكن له مئذنة.

جامع الزيتونة بصحنه ومصلاه وأروقته وعقوده وأقواسه ومحرابه ومنبره وقبتيه وأبوابه وأعمدته، يمثل عمل ستة قرون على الأقل. فقد بناه، أول ما بناه، حسان بن النعمان إثر توليه تونس سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م. وكان البناء بسيطاً، القصد منه أن تُيَسَّرَ للناس إقامة الصلاة فيه. ولكن عبد الله بن الحجاب، القائد الأموي، أعاد بناءه سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م. ولما جاء الأغالبة إلى الحكم في ولاية افريقيا (تونس) وانصرفوا إلى البناء والعمران والفن، كان للزيتونة من جهدهم نصيب. وقد بدىء بهذا البناء زمن أحمد وتم العمل في عهد أخيه زيادة الله، وكان ذلك سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، والخليفة العباسي المستعين. والنقش الكوفي يشير إلى ذلك وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله ومرضاته على يد نصير مولاه سنة خمسين ومئتين ـ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ـ صنعه فتح البنا».

وكان أن عُمِّر الجامع وزخرف على يد أبي زكريا الواثق الحفصي، وقد انتهى العمل في شعبان ٦٧٦/ كانون الثاني/ يناير ١٢٧٨.

ولعل من أفضل ما في جامع الزيتونة، بالنسبة الي الباحثين في تاريخه، هو كثرة النقوش على الحجارة التي تشير الى بناء او تجديد او توسيع او زخرفة. فهناك خمسة عشر نقشاً، منها هذا الذي نقلناه عن بناء المئذنة. وثمة أمر آخر حري بالتذكر وهو أن جامع الزيتونة، يعاصر جامع القيروان في العصور الأولى خطوة خطوة وخصوصاً في العصر الأغلبي. إلا أن جامع القيروان أوسع.

وقد بني جامع الزيتونة أصلاً بيت صلاة وصحناً دون أروقة جانبية (أو مُجنَّبات كما تسمى في تونس). والواقع هو أن الجوامع الثلاثة الكبيرة الأولى في المغرب الإسلامي بنيت على هذا النحو، وظلت على هذا في أول أمرها: جامع قرطبة (١٧٠هـ/ ٧٨٦م) والقيروان (٢٢١هـ/ ٨٣٦م) والزيتونة (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م).

٣

المدينة (التونسية) غنية بالآثار الإسلامية. وسنكتفي بالإشارة إلى الأهم منها. وفي مقدمة هذه الآثار جامع القصبة. والقصبة هي القلعة الرئيسة ودار الحكم ومقام الأمير. وجامعها كان موضع عناية الذين أسسوا القصبة والذين استقروا فيها على توالي السنين. والقصبة التونسية حفصية المنشأ (وفكرة القصبة كجزء مستقل عن المدينة بأسواره مع أنه يدور حوله سور المدينة الأصلي، فكرة جاءت تونس من المغرب الأقصى). وقد كان في موضع جامع القصبة جامع بناه الموحدون لما حكموا افريقيا (أو المغرب الأدنى)، وهو الذي عرف بجامع المُوحدين ومن بناء عبد المؤمن بن علي، مؤسس الدولة الموحدية (حكم ٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٦٣م). وبهذه المناسبة، فإن اتخاذ تونس حاضرة للقطر يعود إلى أيام الموحدين، وإلى عبد المؤمن بالذات. إلا أن عمل أبي زكريا (الأمير) الحفصي يمكن اعتباره بناء جديداً للجامع، مع ما تبقى من القصبة. وقد تم ذلك سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م. والأعمدة التي استعملت في بنائه حملت إليه من أبنية قديمة.

وهندسة المئذنة في جامع القصبة هي موحدية في أسلوبها. فالحفصيون هم ورثة الموحدين في تونس. وهي أولى المآذن ذات الأسلوب الموحدي في تونس. وقد اتبعت طريقتها في بناء المآذن فيما بعد. (ومن هنا يتضح لنا الشبه بين المئذنة الموحدية ـ الحفصية في جامع القصبة ومئذنة جامع الكتبية في مراكش).

وفي داخل المدينة مسجد جميل هو جامع يوسف داي (مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي) ومئذنته المزركشة زليجاً (قيشانياً) وجبساً غاية في الأناقة؛ وجامع حمودة باشا المرادي (المعاصر لجامع يوسف داي). ويكمن جمال هذا الجامع، بشكل خاص، بالمحراب والزخرف القائم فوقه والأعمدة المحيطة بالمحراب. وفي القصبة أيضاً دار الباي (بناها المراديون في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي) وهي أندلسية التخطيط، وقد حلت هذه محل دار الإمارة الحفصية القديمة. (ودار الباي هي اليوم قصر الحكومة).

دخلنا من باب البحر، المواجه لبحيرة تونس المتصلة بالبحر المتوسط، وخرجنا من باب المنارة. والأسواق التي زرناها، والجوامع التي أدهشنا بناؤها وزخرفتها، يجب أن يضاف إليها، المدارس التي بناها الحفصيون. والمدرسة في تونس مؤسسة حفصية: فهي من حيث أنها مكان للدرس ومأوى للطلاب تدر عليها أوقاف كثيرة وللدولة عليها إشراف يقوى ويضعف مع رغبة الحاكم. من حيث هذا كله تشبه إلى حد كبير المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك الوزير السلجوقي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في بغداد ونيسابور وغيرهما، والتي انتقلت غرباً، عن طريق بلاد الشام ومصر، حتى وصلت تونس وبعدها غرباً أيضاً. وفي داخل المدينة أنشأ الحفصيون مدارس خمساً هي: الشماعين (قرب جامع الزيتونة) والعنقية والمنتصرية وسيدي محرز وابن تَفْراجين. وهذه المدارس يمكن التعرف إلى ما تبقى منها، باستثناء مدرسة الشماعين القائمة حتى الآن.

هذه هي المدينة (القديمة)، بناها حسان بن النعمان بسيطة ودفع بها عبد الله بن الحجاب قليلاً، وعني بها الأغالبة عناية كبيرة، وشُغل بها الصنهاجيون فانتعشت انتعاشاً كبيراً، اقتصادياً وعمرانياً، واتخذها الموحدون عاصمة للقطر وسار على ذلك الحفصيون. وفي ايام الحفصيين (٦٢٥ ـ ٩٨٢ هـ/ ١٢٢٨ ـ ١٥٧٤م) أصبحت تونس لأول مرة في تاريخها العربي الإسلامي عاصمة دولة وحاضرة ملك. ومن ثم فقد كانت العناية بها أكبر، والاهتمام بها أشد.

٤

ومن الواضح أن المدينة ضاقت بسكانها الذين ازداد عددهم وتنوعت أعمالهم واتسعت تجارتهم، بحراً وبراً، لذلك خرجوا من النواة الأولى إلى الضواحي الحفصية، وأهمها ضاحية باب سويقة وضاحية باب الجزيرة، في الشمال والجنوب على التوالي.

ولعلّه من المناسب أن نلقي هنا بعض الضوء على الدولة الحفصية لأنها هي التي تم في أيامها لتونس تطور سياسي واقتصادي وعلمي على درجة كبيرة من الأهمية.

كان أول حفصي تولى شؤون تونس والياً للموحدين. إلا أن هذا الوالي (أبو زكريا) لم يلبث أن خلع طاعة الموحدين ولقب بالإمارة ودعا لنفسه على المنابر. وفي أيامه (٦٢٥ ـ ٦٤٧هـ/ ١٢٢٨ ـ ١٢٤٩م) عقدت الإمارة الحفصية معاهدات تجارية مع كل من البندقية وبيزا وجنوا، كما تمت في أيامه مراسلات دبلوماسية مع فردرك الثاني ملك صقلية ومع ملك اراغون. وفي أيام خليفته أبي عبد الله (٦٤٧ ـ ٦٧٥هـ٢٠٠ ١٢٤٩ ـ ١٢٧٧م) كانت بينه وبين النروج وكانم وبورنو، في أواسط الصحراء الافريقية، سفارات. وقد أعلن أبو عبد الله نفسه خليفة وتسمَّى بأمير المؤمنين (٦٥٠هـ/ ١٢٥٣م)، وتلقب بالمنتصر. وبعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) اعترف به شريف مكة خليفة ووريثاً للعباسيين (٦٥٦هـ/ ١٢٦٠م) (وذلك قبل إقامة المماليك الخلافة العباسية في القاهرة بسنة واحدة). ومع أن الملك لويس التاسع الفرنسي قاد حملة ضد تونس (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) وهدد المدينة، فإن الحملة باءت بالفشل، إذ إن لويس توفي وهو على الحصار. وبذلك عادت العلاقات التجارية،

في عهد خليفة لويس، مع اراغون وبيزا والبندقية وجنوا.

مر على الحفصيين بعد وفاة المنتصر (٥٧٥هـ/ ١٢٧٧م) فترة امتدت قرناً وبعض القرن كانت شؤونها فيها مضطربة، ولو أنها عرفت نوعاً من الوحدة والهدوء في أيام أبي بكر المتوكل (٧١٨ ـ ٧٤٧هـ/ ١٣١٨ ـ ١٣٤٦م). إلا أن الدولة الحفصية لم تعد لها قوتها وتنظيمها ثانية إلا في أيام ثلاثة من كبار حكامها وهم: أبو العباس المستنصر وأبو فارس المتوكل وأبو عمر عثمان (الذين حكموا من ٧٧٢ إلى ٨٩٣هـ/ ١٣٧٠ ـ إلى ١٤٨٨م). وقد كان للدولة، وفي أيام الأخيرين بشكل خاص، دور كبير في شؤون المغرب العربي.

إلا أن السنوات الأخيرة، التي امتدت من ٨٩٣ إلى ٩٨٢هـ ٢٠١ ١٤٨٨ ـ ١٥٧٤م، كانت سنوات اضطراب داخلي وخارجي. وقد تعاقب على تونس حكام استنجدوا بالخارج ودفعوا ثمن ذلك من البلاد. وأخيراً سقطت الدولة الحفصية نهائياً على أيدي الأتراك (٩٨٢هـ ٢٠١ ١٥٧٤م) الذين ضموا القطر إلى دولتهم الواسعة.

٥

تونس ملتقى الطرق المتجهة من الشرق إلى الغرب، وميناء ترابط بها السفن لتحمل إليها ما معها وتنقل منها ما عندها، وما تحمله القوافل من الجنوب مما وراء الصحراء. ومما هو جدير بالذكر أن ظهور الأتراك في حوض المتوسط الشرقي، وخصوصاً بعد استيلائهم على القسطنطينية (١٤٥٣)، دفع بالمدن التجارية الإيطالية وغيرها إلى تركيز اهتمامهم التجاريّ في شمال افريقيا. وكان لتونس حظ من ذلك كبير، وقد تم عقد معاهدات تجارية بين الحفصيين وبين تلك المدن كما رأينا.

وفي عهد الحفصيين ضاقت المدينة بالسكان فخرجوا إلى الضاحيتين (باب الجزيرة وباب سويقة) حيث قامت أسواق جديدة. وكان ثمة ضاحية إلى الشرق، بين «المدينة، والبحيرة، أي خارج باب البحر. وهذه الضاحية كان فيها مركزان مهمان: دار الصناعة أي مرسى الأسطول الحفصي، و«الفنادق» التي كانت مخصصة للتجار الأوروبيين.

كانت تونس، في العهد الحفصي عموماً، تصدر الحبوب (عندما يجود الموسم) والتمر وزيت الزيتون والشمع والسمك والمملح والقماش والمرجان وبعض الأسلحة، وأهم من ذلك كله الصوف والجلود. كما أنها كانت نقطة يجتمع فيها الرقيق الأفريقي لإرساله إلى المشرق وإلى تركيا. أما ما كانت تستورده فيشمل الحبوب (إذا ساء الموسم واحتاجت ذلك) والخمور وطيور الصيد والأواني الزجاجية والأثاث والمعادن والأسلحة والتوابل والعطور والنباتات الطبية والقنب والكتان والحرير والقطن والأقمشة المتعددة الأنواع والمصنوعات المعدنية والمجوهرات. وكانت تونس تسك الدينار الذهبي والدرهم الفضي، وكان نقدها أكثر رواجاً من النقود الأوروبية.

المهم هو أن تونس، كمركز تجاري، كانت نقطة من نقاط تجارة المرور (الترانزيت) المهمة. ففي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، كانت تجاره الصحراء بين

المغرب الأقصى والسودان الغربي قد ضعف أمرها بعض الشيء بسبب وصول الأوروبيين إلى الموانىء الأطلسية هناك وتحويلهم التجارة إلى موانئهم. أما تونس (ومعها طرابلس) فقد كانت تجارتها مع كانم وبورنو (حول بحيرة تشاد) وقد ظلت الطرق سائرة حتى في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ومن كانم وبورنو كان يُحمل إلى تونس (وطرابلس) من المناطق الأفريقية الجنوبية الرقيق والعاج والذهب والصمغ. وهذه المتاجر كانت مصدر أرباح للذين ينقلونها إلى الموانىء الشمالية والذين يعملون على حملها إلى الأسواق الأخرى.

كانت تونس تتاجر بحراً وبراً مع المشرق، وكان التجار الأوروبيون كثيرين في الميناء ـ ومنهم الجنويون والبيزيون والبنادقة والأراغونيون والفلورنسيون. وقد كان لمؤسستي اشيولي وبيروزي (من فلورنسا) وكالات ثابتة. وكان لإدخال فكرة الضمان البحري ولتنظيم المعاملات التجارية أثر في توسيع نطاق الأعمال التجارية. وكان لكل مدينة (أمة) فندق خاص بها تخزن فيه بضائعها وتلجأ إليه عند الحاجة. وكان لكل أمة (مدينة أو دولة) قنصل تعتمده الدولة الحفصية للاهتمام بمصالح جماعته. والمعاهدات كانت تشمل مثل هذه الشؤون.

إلا أن الأمر اختلف بعد أن قام القرصان، على جانبي المتوسط، الشمالي والجنوبي، فاختلت التجارة. وقد أصاب تونس، في أواخر القرن التاسع وفي القرن العاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ضرٌّ كبير بسبب ذلك.

٦

لئن كان جامع الزيتونة يضم بين جُدُره تاريخ ستة قرون من فن المعمار والزخرف، فإن هذا الصرح يمثل تاريخاً أطول من ذلك بكثير للحياة العلمية في تونس. فقد أخرج حسن حسني عبد الوهاب أن تداول التعليم بالزيتونة يرجع إلى أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وأن أول من سُمع منه هناك هو زيد بن بشر الأزدي. على أننا لا نستطيع أن نتصور تونس وجامع الزيتونة فيها دون قراء ومحدثين وعلماء حتى قبل ذلك. صحيح أن القيروان نالها من شرف خدمة العلم الشيء الكثير في القرون الإسلامية الأربعة الأولى، لكن لا بد أنه كان في الزيتونة من يقرىء الناس ويفسر لهم ويحدثهم ويروي لهم الأدب والتاريخ ويشرح لهم شؤون اللغة وأساليب البلاغة.

ويجب أن نذكر أن الأغالبة أنشأوا معهداً للترجمة سموه بيت الحكمة على نحو ما كان للعباسيين في بغداد. ولعل معنى هذا أن الجوامع، في أيامهم، كانت تقتصر على العلوم الدينية، بينما كان الطب والفلك والحكمة والجغرافيا والرياضيات مما يعني بها بيت الحكمة وما إليه. إلا أن الأمر اختلف مع مرور الزمن، وخصوصاً في عهد الحفصيين، أي بدءاً من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ففي هذا الوقت رحل عدد كبير من أهل العلم في الأندلس إلى تونس، واستقر التعليم العالي في الزيتونة. ولعل أهم من ذلك كله هو أن مواد التعليم ضمت إلى بعضها البعض، وأصبح جامع الزيتونة مقرها ومستقرها. فكان يدرس فيه الدين والآداب والطب والحساب. وقد نقل المؤرخون أن أبا العباس أحمد بن شعيب الفاسي

الجزنائي الذي بعد أن قرأ على كثيرين من شيوخ فاس، انتقل إلى تونس فأخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رحلة وقته في تلك الفنون يعقوب بن أحمد راس. وجدير بالذكر أن أبا زكريا يحيى، أول الحفصيين، ابتنى جامع القصبة في تونس (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) وشاد غيره من المساجد والمدارس. وأنشأ في قصره بالقصبة داراً للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد من أنفس المؤلفات (وقد تلاشت هذه في أواخر عهد الدولة الحفصية).

وإذا كانت مكتبة القصر مقصورة على فئة معينة من القراء والدارسين، فإن العصر الحفصي شهد تقدماً في التعليم. فقد انتشر التعليم بواسطة الكتاتيب والزوايا، وتطور جامع الزيتونة بحيث أصبح أكبر مؤسسة تعليمية إسلامية عرفها المغرب الأدنى والأوسط، وأنبتت علماء أفذاذاً. وأسس الحفصيون نساء ورجالاً، مدارس كثيرة ذكرنا أسماء بعضها من قبل، وجلبوا لها الأساتذة من الأندلس والمهدية، وأسكنوا بها الطلبة. وتقوت مكتبة الزيتونة، التي عرفت باسم المكتبة العبدلية، ووضعت فيها الكتب النفيسة.

وإذا نحن أردنا التخصيص قلنا إن المذهب المالكي عادت إليه مكانته، وخصوصاً على يد ابن عرفة (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، وارتقى الطب وحمل لواءه في ذلك الوقت خريجو المدرسة الصقلية والمدرسة الأندلسية. ولم يكن من قبيل المصادفة أن قسطنطين الافريقي نقل كتباً طبية حصل عليها من تونس (وصقلية) من العربية إلى اللاتينية (القرن الحادي عشر الميلادي).

كان للتصوف في تونس الحفصية مجال واسع. وقد تأثر المتصوفة هناك بتعاليم الشاذلية وعائشة المنوبية (لا لا المنوبية) وأبي مدين. وكا ابن عروس (القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) من كبار المتصوفة التونسيين. ومن هنا نجد زوايا متعددة في تونس تعود إلى تلك الفترة، لعل أهمها زاوية سيدي قاسم الجليزي.

وها نحن نسمح لأنفسنا بأن نتحدث عن التعليم في تونس في القرن الأول من الحكم التركي، المعروف بزمن الولاة العثمانيين والمراديين، باعتباره استمراراً لما كان من قبل. ثمة ثلاثة أمور مهمة أثرت في تطور الحياة العلمية في تونس، وكان لجامع الزيتونة نصيب مهم فيها. وأول هذه الأمور هو ازدياد الهجرة الأندلسية إلى تونس. فقد قدِّر عدد الذين هبطوا البلاد يومها بنحو ستين الفاً. والثاني هو رحلة عدد كبير من الطلاب التونسيين إلى المشرق؛ والأمر الثالث هو ازدياد النتاج الفقهي والعناية بالطب والميقات. وهما الموضوعان الوحيدان اللذان ظلا موضع عناية. أما الفلسفة (الحكمة) والعلوم العقلية الأخرى فقد افتقدت أو كادت.

ولنشر، أخيراً إلى نوع التأليف الذي عرفه العصر الحفصي في تونس. فنحن إذا استثنينا ابن خلدون، باعتباره نوعاً من أهل الفكر لا يجود الزمن بمثله كل يوم، وجدنا أن الأعمال التي تمت هي من النوع الموسوعي مثل لسان العرب لابن منظور، وسرور النفس للتيفاستي وهو موسوعة كاملة في ممالك الطبيعة الثلاث (الجماد والنبات والحيوان). وقد ألف حازم القرطاجني كتاب المناهج الأدبية. وكانت ثمة مؤلفات في التاريخ والتراجم مثل

رحلة التيجاني (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) وفارسية ابن قنفذ وأدلة الهنتاني وتاريخ الدولتين المنسوب للزركشي.

وبهذه المناسبة فإن عصر المماليك، في مصر والشام، عرف مثل هذا التأليف الموسوعي على أيدي القلقشندي (صبح الأعشى)، والنويري (نهاية الأرب)، وابن فضل الله العمري (مسالك الأبصار) وغير ذلك.

في الفترة الممتدة من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي إلى القرن الحادي عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، نظم الكثيرون من الشعراء قصائد طويلة في رثاء المدن الأندلسية والافريقية التي كانت تقع تحت الاحتلال الاسباني أو البرتغالي. وأحسب أن كلا منا قد حفظ، أيام كان الذوق الأدبي في المدرسة يُنَمّى عن طريق حفظ عيون القصائد والخطب، قصيدة رثاء الأندلس لأبي البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرَّ بطيب العيش إنسان

ولذلك نرى أن نورد هنا أبياتاً من قصيدة لمحمد بن عبد السلام العالم التونسي (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) الذي رحل إلى المشرق فحج ودخل الشام واستقر بدمشق. وقد بلغه ما نال تونس على أيدي الاسبان في أواخر العصر الحفصي فقال:

وحيٍّ ربوع الحي من خير بلدة تخيرها قدما أفاضلُ يونان
هي الحضرة العليا مدينة تونس أنيسة إنسان رآها بإنسان
لها الفخر والفضل المبين بما حوت من الأنس والحسن المنوط باحسان
وكان لأهليها المفاخر والعلى وكان بها حصنا أمان وإيمان
وكان لأهل العلم فيها وجاهة وجاه وعز مجده ليس بالفاني
وما برحت فيها محاسن جمة ومن كل نوع أهل حذق وإتقان
إلى أن رمتها الحادثات بأسهُم وسلّت عليها سيف بغي وعدوان
فما لبثت تلك المحاسن أن عفت وأقفر ربع الأنس من بعد سكان
وشتّت ذاك الأنس من بعد جمعه كما انتثرت يوماً قلائد عقيان

ونود أن نسرع إلى القول أن البون بين قصيدة أبي البقاء وقصيدة ابن عبد السلام شاسع. ويبدو التفوق في القصيدة الأولى بشكل خاص لأن ابن عبد السلام «جرّب» أن يضاهي الشاعر الآخر، فبدا الفرق كبيراً.

على أننا نريد أن نقرر واقعاً، وهو أننا لم نعثر على قصائد بليغة لدى «نظّامي» العصر الحفصي في تونس. ولسنا ندري فيما إذا كان انصراف الناس إلى الفقه وعلوم الدين ثم إلى التصوف كان عاملاً في الانصراف عن الشعر. ومما قد يؤيد ما ذهبنا إليه هو أن البعض نظم كثيراً في الوعظ. فقصيدة محرز بن خلف في رثاء قرطاجة ووصف أطلالها نظمت للعبرة. وابن الفمآز له شعر كبير لكنه شعر في الوعظ والتربية.

١٢ ـ رباطا المنستير وسوسة

١

كانت الفتوح العربية من عمل الجيوش العربية الإسلامية، وكان الدفاع عن الحدود البرية المترامية عبر العصور من عمل الجيوش الإسلامية الضخمة الأعداد، كما أن هذه الجيوش كانت تقوم بحفظ الأمن في البلاد. ولما اتسعت الفتوح العربية غرباً في البحر المتوسط، أصبح من الضروري أن يكون للدولة العربية الإسلامية أسطول يوسع رقعة الفتح ويرد الهجوم عند الحاجة. وكان من الضروري أن تقام للجيوش مراكز كثيرة، فمصرت الأمصار لتكون للجنود منتجعاً ومراحاً ولعتادهم مخزناً ولزادهم ومؤنهم سوقاً. كما أن الأسطول احتاج إلى دور الصناعة والموانىء والمراسي.

ولكن إلى هذه الجيوش الكثيرة بقواها النظامية وأحلافها ومرتزقتها، وإلى هذه السفن التي كانت تمخر عباب اليم، كان ثمة نفر من المسلمين، وهم فئة قليلة، عمر الإيمان قلوبهم وتشبعت بالإسلام نفوسهم، نذروا نفوسهم لله وتطوعوا في سبيل حماية الدين والوطن. هؤلاء لم يكونوا جزءاً من الجيش ولا فرقة من رجال البحر، بل كانوا أفراداً يقيمون في حصن منيع في الأماكن التي يشتد فيها الخطر. فكانوا يقاتلون إذا دوهموا، ويشعلون النيران في الأبراج لفتاً للنظر، ويطلقون الحمام الزاجل إخباراً بقدوم عدو. فإذا ضويق أهل الجهة الواقع حصنهم فيها بسبب الهجوم المفاجىء، لجأوا إلى سكان الحصن للحصول على الحماية والقوت إلى أن تنجلي الغمة.

هذا الحصن الذي كان هؤلاء المتطوعة يقيمون فيه هو الرباط وأهل الحصن هم المرابطون. والباحثون يرون أن الرباط والمرابطة ذات صلة قوية بالآية الكريمة: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم. وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ فالرباط هو مؤسسة إسلامية قلباً وقالباً، أصلاً وتطوراً.

والمرابطون الذين يقيمون في الرباط كانوا قلة. وكثيراً ما كان رباط الرجال يردف برباط للنساء اللواتي كن يقدمن العون للمرضى ويرتلن القرآن الكريم ويتلون ما يثير حماسة الرجال عند اشتداد القتال. أما المتطوعة أنفسهم فقد كان بعضهم ينذر إقامة قصيرة والبعض ينذر إقامة طويلة، وثمة من كان يقضي حياته كلها في الرباط. وقد روى ابن حوقل أن رباط أصيلا في المغرب الأقصى على شاطىء المحيط الأطلسي كان يتم فيه التبديل ثلاث مرات في السنة (في المحرم وفي رمضان وفي ذي الحجة). وقد يتنقل المتطوعة من رباط إلى رباط رغبة منهم في أن يسهموا في العمل في مراكز متعددة. ويحدثنا ابن حوقل أن رباط

طرسوس في البحر المتوسط كان فيه متطوعة يأتون من مشارق الدولة الإسلامية ومغربها، ليكون لهم في الدفاع عن بيضة الإسلام نصيب.

٢

ليس غريباً أن يعرف العالم الإسلامي مئات من هذه الرباطات البرية والبحرية، في الشرق والغرب. ولكن السواحل كانت إليها أحوج بسبب وجود الأسطول البزنطي في البحر المتوسط. وكانت المناطق الافريقية أكثر اهتماماً بالرباطات والمحارس، وهذه كانت أبراجاً للنيران أي للإخبار. ويبدو أن الساحل الأفريقي كان منقطعاً بها من ليبيا إلى طنجة ثم على ساحل الأطلسي.

وقد عفا الزمن على الكثير من هذه الرباطات. فاندثر منها ما اندثر، وتهدم منها ما تهدم، وقد نعثر هنا وهناك على بقايا تذكر بما قد كان. ولكن من حسن حظنا أن رباطين صمدا على عوادي الدهر بشكل خاص وهما: رباط المنستير ورباط سوسة الواقعان على الساحل الشرقي لتونس. وهما اللذان نريد أن نجعلهما موضوع حديثنا الآن.

رباط المنستير بناه هرثمة بن أعين حاكم افريقيا (وهي تونس اليوم) من قبل الرشيد. وكانت ولاية افريقيا قد تعرضت لغزوات الأسطول البزنطي، بحيث أن الأمر اقتضى عملاً حاسماً. وهرثمة كانت له خبرة إدارية عسكرية في المشرق. فاختاره الخليفة والياً ليتدبر الأمر بحكمته وينشىء رباطاً يكون نقطة دفاع رئيسة لتلك الجهة. واستشار هرثمة فقهاء القيروان فزكوا العمل.

أُنشىء الرباط سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م، وهو أول رباط بني في ولاية افريقيا. ويبدو أن الإقبال عليه كان شديداً فضاق عن الحاجة، فوسع في السنوات الأولى من تأسيسه. وعمل الولاة والأمراء على توسيعه وتجهيزه. ومن أشهر الأعمال التي أجريت فيه ما قام به الأمير أبو فارس عبد العزيز الحفصي في القرن التاسع للهجرة/ القرن الخامس عشر للميلاد. وحتى العثمانيون أعدوا قلعته وجهزوها بالمدافع، حتى أصبح على ما هو عليه اليوم من اتساع وعظمة.

أما رباط سوسة فقد بناه زيادة الله الأغلبي والي افريقيا سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م، أي بعد نحو عشرين سنة من تأسيس رباط المنستير. ولم يتغير فيه شيء. ولذلك فإننا نريد أن نتحدث عنه أولاً، ثم نعود إلى المنستير.

ولنقترب من الرباط أو قصر الرباط كما يسمى محلياً، لنرى بأنفسنا هذا البناء الشامخ برأسه إلى السماء. وهو بناء مربع طول ضلعه ٣٩ متراً تقريباً دون أخذ أبراجه في القياس. وهذه الأبراج ثمانية: واحد في وسط كل من جوانبه الأربعة وواحد في كل من الزوايا الأربع. وستة من هذه الأبراج نصف دائرية، أما برج الباب والبرج الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية فهما مربعان. وترتفع أسوار الرباط حالياً ثمانية أمتار ونصف المتر عن مستوى الأرض المحيطة بها.

ولندخل القصر من بوابته الوحيدة في البرج الواقع في منتصف جداره الجنوبي، فننحدر قرابة ثلاثة أمتار على درج يؤدي بنا إلى الرباط نفسه عبر باب داخلي ذي قوس نصف دائري. وعندها نجد على اليمين واليسار غرفتين معقودتين مفتوحتين لعلهما كانتا غرفتي الحرس. ونجتاز بعد ذلك صفين من الأروقة المعمدة فنصل إلى الساحة الكبرى، حيث نرى درجين يصعدان بنا إلى الطابق الأعلى، الواحد على اليمين والآخر على اليسار.

والساحة التي نقف فيها الآن، عرضها من الشمال إلى الجنوب، تسعة عشر متراً (دون أجزاء المتر)؛ وطولها، من الشرق إلى الغرب، نحو واحد وعشرين متراً ونصف المتر.

وقد وقفنا في منتصف الساحة ودرنا حولها فوجدنا في كل جهة رواقاً معقوداً ترتكز أقواسه على أكتاف (ركائز) لا على أعمدة، إذ إن ذلك أمتن للبناء وأقوى على تحمل عوادي الزمن؛ ويلي الأروقة، إلى جهة الأسوار، صفوف من الغرف منها عشر في الجهة الشمالية وسبع في الجهة الجنوبية وثمان في كل من الجهتين الشرقية والغربية، ولكل منها باب يفتح إلى الرواق، باستثناء تلك التي في الزوايا، فإن أبوابها تصلها بالغرف المجاورة لها. وهذه الغرف لا نوافذ لها قط.

فإذا ارتقينا إلى الطابق العلوي من البناء وجدنا صفوفاً من الغرف أيضاً في الجهات الشرقية والشمالية والغربية، لكن لا أروقة أمامها. أما في الجهة الشرقية من الطابق العلوي فإننا نجد المسجد، وهو أول مسجد بني في سوسة، بحيث أن من كان يسكنها كان يذهب إليه للصلاة أيام الجمع والأعياد. وسطح الجامع وسطوح الغرف المذكورة آنفاً تقع على ارتفاع واحد، تدور به من الناحية الداخلية أنصاف اقواس للزخرف، ويوجد مثلها في الناحية الخارجية. وفي الزاوية الجنوبية ـ الغربية من البناء درج يؤدي إلى سطح الطابق العلوي.

والذي يلفت النظر في بناء رباط سوسة، وهو أمر تشترك فيه الرباطات على الغالب، هو قلة الزخرف في البناء. فالأصل في الرباط أنه بناء عسكري ديني يرابط فيه أولئك المتطوعة الشديدو الإيمان. فالقوة والمنعة والبساطة صفاته الأساسية. ومع ذلك فلم نتمالك أنفسنا، ونحن ندور بالرباط في زياراتنا له، من الإعجاب بمناره العالي المستدير الأنيق اللطيف. وأدركنا السر في حماسة حسن حسني عبد الوهاب إذ قال فيه: «وأبدع بنية في الرباط هو ذلك المنار العالي الذي أمر زيادة الله برفعه. وهو مستدير الشكل، يقع في الركن القبلي من الطابق العلوي، ويلاصق بيت الصلاة. ويصعد إلى أعلاه بدرج من داخل بنائه. وهذا المرصد هو مفخرة من مفاخر الفن المعماري الأغلبي... ويعود جماله إلى دقة بنائه وخلوه من الدوائر البارزة».

وفي مدخل المنار نقش بالخط الكوفي يدل على تاريخ الفراغ من بناء هذا المنار ونصه (عن سليمان مصطلى زبيس): «بسم الله بركة من الله مما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم أطال الله بقاه على يد مسرور الخادم مولاه في سنة ست ومأتين اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين».

ولم يكن مألوفاً أن تبنى منارات أو صوامع للجوامع في تلك الأيام. فالمسجد الكبير في سوسة لا منارة له. لكن منار الرباط كان للرصد والترقب وإشعال النيران وإطلاق الحمام الزاجل.

ولنعد أدراجنا هبوطاً ـ درجاً فدرجاً ـ حتى نعود إلى الساحة ثم نخرج من بوابة الرباط. ولنلق عندها نظرة خلفنا لنتأمل هذه البوابة والجدار الذي تتوسطه والمنار المقتعد الركن الجنوبي الشرقي من الرباط، كما متعنا أنفسنا برؤية المنار من الداخل.

أما من حيث استعمال هذا الرباط فإنه لم يكن يقيم فيه، في أي وقت من الأوقات، أكثر من مائة مرابط يحتلون الغرف الواقعة في الطابق العلوي. أما غرف الطابق السفلي فكانت مخازن واهراء.

٣

ولنعد الآن إلى رباط المنستير. والواقع أننا لما زرنا هذا الرباط، الذي هو أوسع وأعلى من رباط سوسة، وجدنا أن الأشغال المختلفة التي أدخلت عليه عبر القرون أفقدته شيئاً من شخصيته الأصلية، وهو الأمر الذي حافظ عليه رباط سوسة. فالسور الذي وسع على الأقل مرتين، تزينه أبراج شبه دائرية لعل من أتمها شكلاً حتى الآن البرج الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية. ونحن ندخل الرباط من بوابته الجنوبية إذ إن ذلك متيسر اليوم. وللرباط مدخل آخر في الجهة الغربية، لكن هذا قلما يستعمل إذ إن أعمال الحفر والتنقيب الجارية هناك تحول دون ذلك.

ونصل رأساً إلى الساحة الكبيرة الواسعة التي تحيط بها في جهاتها الشرقية والشمالية والغربية غرف على طابقين أو ثلاثة طوابق، لكن هذه تفتح رأساً على الساحة وليس أمامها أروقة. أما الغرف فتتكون من عقود قوية البناء.

والجهة الجنوبية فيها مسجدان، واحد في كل من الطابقين. وقد صعدنا أدراجاً نقلتنا من طابق إلى آخر. وكما صعدنا منار رباط سوسة في درج داخلي، فقد وجدنا درجاً داخلياً في منار رباط المنستير.

يقع المنار هنا، مثل موقعه في سوسة، في الزاوية الجنوبية الشرقية. وهو مستدير وارتفاعه مثل ارتفاع منار سوسة. إلا أنه يحيط به زناران من الحجارة. ويشرف من الداخل، على الرباط بأجمعه. كما أن منظر المنار من الجهة المقابلة له والبعيدة عنه، وخصوصاً من أعلى البناء، يبدو جميلاً. ولكن بعض الإضافات التي ترجع إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، تحجب بعض الأجزاء من المنار الذي يعود بناؤه، أو على الأقل تجديد بنائه، إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

وعندما نخرج من الرباط يجدر بنا أن نلتفت إلى برج مضلع يختلف عن أكثر الأبراج وهي نصف دائرية.

أما من حيث الوظيفة التي كان يقوم بها رباط المنستير، والدور الذي مثله في تاريخ تلك الديار، فلا يختلف فيهما عن دور رباط سوسة.

على أننا نود أن ننقل في ختام هذا الحديث ما ذكره البكري في مسالكه، وهو من أهل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، عن رباط المنستير، مما يدل على أنه، وغيره من الرباطات، كان لا يزال يسكنه المرابطون المتطوعة ممن نذر نفسه لله. قال البكري: «وبالمنستير (أي رباط المنستير) البيوت والحجر والطواحين الفارسية ومواجل الماء. وهو حصن عالي البناء متقن العمل. وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه. وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشاير». وقال محمد بن يوسف.... «وفي القبلة منه صحن فسيح فيه قباب عالية متقنة ينزل حولها النساء المرابطات... وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزلة».

ولنعد إلى حيث بدأنا. هذا حديث عن أثرين إسلاميين من نوع خاص. فالرباط كان يمثل في التاريخ الإسلامي الذراع الثالثة لأساليب الجهاد والدفاع والتيقظ والحذر. أما الذراعان الآخران فهما الجيش والأسطول.

القسم الثاني

في النواحي الثقافية في المغرب العربي

١ ـ المدرسة الإسلامية في المغرب العربي

١

في تاريخ الإسـلام صفحات مشرقة خالدة كثيرة، ولعل من أكثرها إشراقاً تلك التي سجلها الإسلام في تاريخ التعليم. ذلك ان الاهتمام بالتعليم والعلم ونشرهما بين الصغار والكبار بدأ في أيام الرسول (ص). واستمرت العناية بالمدرسة والمعلم والتلميذ تسير قدماً حتى بلغت في ذلك الدرجة القصوى. فقد كان الفتح العربي الإسلامي، في سيره شرقاً وغرباً، يحمل كتاباً كريماً يلقن النشء آياته البينات، وحديثاً شريفاً يحفظه الطلاب، وديناً يعلمه الجميع. وكل ذلك جاء في لسان عربي مبين. والفتح الذي تم بين الناس بنشر الإسلام واللغة العربية كان، في نهاية الأمر، أكبر أثراً من فتح يتم بالسيف ونصر ينتهي بسقوط العدو في المعركة.

ولذلك، فإننا نجد أن الفتح العربي الإسلامي للمغرب حمل إليه، كما حمل إلى المشرق، المعلم والمدرسة والكتاب، وإن اختلفت أسماء هذه بعض الاختلاف بين قطر وقطر أو بين جهة وجهة.

وكان من الطبيعي أن يكون المسجد أول مكان يعلّم فيه كتاب الله. فالمسجد، وخصوصاً في الفترة الأولى التي تلت الفتح، لم يكن يقتصر على كونه مركزاً للعبادة، وإنما كان مركز الحياة الاجتماعية والإدارية والسياسية. ففيه كانت تتلى الأوامر العامة، وفيه كان يجتمع الناس لتسقُّط الأخبار التي تهم المجتمع، وفيه كانت تتم بيعة الخليفة أو تقبل تعيين الأمير أو الحاكم، وقد تتم فيه اتفاقات من نوع آخر تبركاً بالمكان وإيذاناً بأن الاتفاق تم في مكان عبادة الله. وكذلك كان المسجد المكان الأول للتعليم.

إلا انه لوحظ، بعد مدة قصيرة، أن وجود الصغار في في المسجد قد يؤدي إلى ضجة لا تتفق مع مكان العبادة، فنقلوا إلى مكان آخر سمي الكُتَّاب في المشرق، وسمي المسيد في المغرب، وإن كان هذا على سبيل التعميم لا الحصر. وكان الكتاب والمسيد، بادىء ذي بدء، على مقربة من المسجد نفسه، لكن اتساع الرغبة في التعليم أدى إلى انتشار الكُتَّاب وإقامته في أماكن أخرى، وإن ظل، في غالب الأحيان، قريباً من المسجد، بسبب كثرة المساجد في المدن والقصبات والبلدان.

٢

إضافة إلى الكُتَّاب، عرف العالم الإسلامي الرباط والزاوية والمدرسة والجامعة (أو الجامع) مراكز للتعليم. وكانت لكل من هذه المؤسسات واجبات معينة تضطلع بها وتهتم بالإشراف عليها. وهذا ما نريد أن نوضحه في هذه العجالة.

لنبدأ بالكُتَّاب. كان هذا هو أول مؤسسة تربوية اختصت بتعليم الأطفال. فقد رتب الولاة والأمراء والحكام والخلفاء الفقهاء والقراء وعهدوا إليهم بتعليم الصبية (والبنات) القرآن الكريم حفظاً أصلاً، وتعاليم الإسلام العملية وأسسه الخلقية والأدبية. وقد كانت حواضر المغرب العربي تزخر بالكتاتيب القرآنية. وقد أخرج الأستاذ رضا الله إبراهيم الألفي ان العادة المتبعة كانت أن يقوم أهل الحي على تأسيس الكتاتيب لأولادم والسهر على عمارتها وترتيب المعلمين بها. وقد استمر هذا التقليد في المغرب نفسه حتى أن المولى عبد الرحمن تقدم إلى عماله بالأقاليم أن يلزموا كل «مدشر» بتأسيس كُتَّاب قرآني والقيام بمؤونة المعلمين به.

وفي سنة ١٨١ للهجرة أسس الوالي هرثمة بن أعين رباط طرابلس ورباط المنستير. وبعد ذلك انتشر الرباط في المغرب العربي. فما هو الرباط؟

يقول الاستاذ عثمان الكعاك إن الرباط كان ثكنة فيها جامع كبير، وصومعة للآذان ومراقبة السواحل من الغزو وإقامة العلامات النارية في الليل، ومكان لتربية الحمام الزاجل لحمل الرسائل، ومستشفى للمرضى، ودار للمسافرين، ومدرسة لبث العلم في صدور النساء وصدور الرجال، ودار لاستنساخ المصاحف. والتعليم الرباطي كان يدور حول حفظ القرآن وتفسيره. وهو في ذلك خطوة تلي تعليم الكتاب. وحري بالذكر أن الكُتَّاب والرباط يعود إليهما الفضل في نشر الإسلام في أنحاء مختلفة من الشمال الأفريقي وخصوصاً بين البربر. والجماعة التي جودت التعليم الرباطي وأتقنته هي دولة المرابطين. فقد نشأت في رباط على يد محمد بن ياسين، وتلقى الفكرة يوسف بن تاشفين وابنه علي، فزادا عدد الأربطة في الأماكن النائية من جنوب المغرب وحتى في السودان، فتم لهم نشر الإسلام وتعاليم دولتهم الخاصة.

إلا أن الرباط اختص تدريجاً بالناحية العسكرية والاجتماعية، وانتقلت مهمة التعليم، بشكل عام، إلى الزاوية (وإن كان الرباط لم يتخل عن التعليم بالمرة).

فالزاوية، وإن كانت مركزاً اجتماعياً إلى درجة ما، فقد صارت أصلاً مركز التعليم الذي يلي الكتاب وتتلوه المدرسة التي نشأت فيما بعد. والزوايا في المغرب العربي، تطورت عبر التاريخ، بحيث كانت على ثلاثة أنواع: أولها، الزاوية البسيطة التي كانت «مجموع أبنية متلازمة... وتكون الأراضي التي حولها حبساً عليها في الغالب تعيش منها». والنوع الثاني هو الزاوية التي تقوم حول ضريح ولي. والنوع الثالث من الزوايا هو الزاوية الطرقية وهي فرع من الزاوية الأم التي قامت بقيام طريقة صوفية معينة. والزاوية الطرقية، كانت تعلم، إضافة إلى القرآن الكريم الذي كان أصلاً في جميع أنواع التعليم الإسلامي وفروعه، المبادىء التي تقوم عليها الطريقة الصوفية الخاصة وتقام فيها حلقات الذكر. وهذا النوع من التعليم كان يسمى، بالنسبة إلى تونس على الأقل، التعليم الذوقي، ويشمل الأناشيد العامة المشتركة والأدعية التي تقرأ في حلقات الذكر.

وحريٌّ بالذكر أن الكتاب والرباط والزاوية كانت تقوم في الحواضر وفي الجبال وفي

البوادي. أي أنها كانت سبيل التعليم الإسلامي إلى جميع المسلمين أنَّى كان مسكنهم. ففي الجزائر مثلاً كانت «الشريعة» (وهي مختصر من محل تعليم الشريعة)، على ما أخرجه الأستاذ عثمان الكعاك، مكان تعليم البدو، «وهي خيمة ممتازة وسط خيام الحي البدوي. ففي العشائر الجبلية أو الصحراوية، وحيث لا توجد زاوية، ينشىء رئيس الدوار أو جماعة الدوار خيمة للمؤدب، يعلّم فيها الأحداث من ذكور وإناث. وينتخب المؤدب ممن توافرت فيه شروط المعرفة والمقدرة الصناعية والثقة الأخلاقية لأنه يباشر تعليم البنات. ويتداول بيوت الدوار إطعامه بالتناوب على طول السنة، ويزرعون له معونة من الحبوب، ويضربون له سهماً في قطعان الغنم، ويتحفونه بما جد لهم من ثمار وأطائب، ويدفعون له كسوة في كل عام، وينصبون له خيمة لسكناه، ويزوجونه من بنت من بنات الحي، ويصرفون له أجرة معينة».

٣

إذا كان الكتاب يمثل درجة التعليم الابتدائي، والرباط أو الزاوية يعلو على ذلك درجة، فإن المدرسة تقابل ما يصح ان يسمى التعليم الثانوي. وقد جاء ظهور المدرسة المنظمة متأخراً في العالم الإسلامي. لكنها لم تلبث ان أصبحت قبلة الحكام والأثرياء إنشاء، والمؤدبين والفقهاء توظفاً وعملاً، والطلاب النابهين رغبة في تيسير العمل للحياة.

والمدرسة مشرقية الأصل، وترتيب ظهورها وانتقالها من الشرق إلى الغرب يوضح ذلك. فقد بدأت في نيسابور حوالى سنة ٤٠٠ هـ ثم عرفتها بغداد سنة ٤٥٧ ودمشق ٤٩١ وحلب حول سنة ٥١٤ والإسكندرية سنة ٥٤٦ والقاهرة ٥٦٦. وأنشئت المدرسة في تونس سنة ٦٤٧ أو حوالى ذلك، وبفاس سنة ٦٧٩.

والمدرسة في المغرب، كما كانت في المشرق، مؤسسة حكومية بحتة، كان الغرض منها القيام بإعداد الموظفين للدولة. وكانت تدرس العلوم الدينية، كالتفسير والحديث والفقه، واللغة والأدب وتعنى بالكتابة ليتخرج منها كتاب الدواوين. وكانت المدرسة تعد المعلمين والمؤدبين على مذهب الدولة القائمة، لذلك كان المتخرجون منها يقومون بأعمال متنوعة الغرض الاجتماعي منها تثبيت أقدام الحكم ومقاومة البدع الدينية أو السياسية على ما يراه الحكم القائم ودحض حجج من سبق تلك الدولة. وفي المغرب العربي عامة انتهى أمر المدرسة إلى تثبيت دعائم المذهب المالكي.

على أنه من الضروري ان نفرق بين مدارس ومدارس، لا من حيث المبدأ العام ولكن من حيث التفاصيل. وهنا موضع للتفريق بين المدارس التي أنشأها الموحدون في المغرب والمدرسة التي جاءت المغرب فيما بعد من الشرق. فالمدرسة الموحدية، على ما عرفت في أيام عبد المؤمن، كانت أداة حكومية خاصة. فهي تخرج الموظفين الموحدين ليكونوا الإطار الإداري اللازم للدولة. وبذلك تستأصل الدولة الموحدية آثار من سبقها جميعها. وكانت ثمة مدرسة لتعليم الأمراء الموحدين ومدرسة لتعليم فن الملاحة بالرباط. وقد كان بالمدرسة الإدارية نحو ثلاثة آلاف طالب يدرسون كتب المهدي بن تومرت ويدربون على الفنون العسكرية

ويعلّمون شؤون الإدارة، وكانت نفقاتهم كلها تقوم بها الدولة. وقد يستغرب ان يكون بالمدرسة مثل هذا العدد الكبير. ولكن إذا تذكرنا ان عبد المؤمن أخذ هؤلاء الطلاب، لما أتموا تحصيلهم، فولاهم أعمال الإدارة في دولته الواسعة وأخرج من كان قبلهم، أدركنا السر في هذا العدد الكبير. وهذا العدد لم يكن يوجد في المدرسة سنوياً، ولكن الذي وصلنا عنها في فترة وجيزة جداً.

أما المدرسة التي جاءت من المشرق ووجدت طريقها إلى أقطار المغرب العربي منذ القرن السادس للهجرة، فقد كنت تمتاز بأمور خاصة أهمها: (١) انها من تأسيس ولي الأمر. (٢) أن طلابها يختارون اختياراً إما لذكائهم أو لمنزلتهم الاجتماعية. (٣) أن المدرسة كانت تتوقف في نجاحها على الشيخ المعني بها أصلاً، فترتفع بقوته ومعرفته وعلمه وقد تنحدر إذا كان الشيخ غير أهل للقيام بواجبه. (٤) أن المدرسة المغربية ضمت إلى الفقهاء والقراء والمحدثين جماعة من أهل المعرفة والهندسة والزراعة والفلك. وأكثر هؤلاء جاءوها من الأندلس، إما بدعوة أولي الأمر أو بعد هجرة هؤلاء العلماء في القرن العاشر بعد أن تم احتلال الاسبان للبلاد جميعها. (٥) المدرسة في المغرب العربي كان يغلب على بنائها الزخرف. فالمدارس المرينية في فاس آية من آيات الفن بناء وزخرفاً وتزويقاً وتلويناً. (٦) المدرسة في المغرب العربي، كما كانت في المشرق، حضرية تختص بها المدن. ذلك ان حاجتها إلى المكتبة الضخمة والعلماء والمستقرين والمراقبة والمشاهدة تحول دون إنشاء مدارس متنقلة. لذلك كانت المدرسة تقصد حيث هي لطلب العلم ولا تنتقل إلى الطلاب. فذلك أمر اختصت به الزاوية والرباط والكتاب. (٧) والمدرسة، شرقاً وغرباً، موحدية أو لاحقة، كانت تتميز بأن أكثرها كان فيه أقسام داخلية يقيم فيها الطلبة ويصرف لهم الأكل. وبذلك ينصرف الطالب إلى العلم غير مكلف بحل المشاكل المختلفة التي قد تعرض له. وهذا كان يتيح له فرصة للتفوق إذا كان أهلاً لذلك. وقد تحوي المدرسة سكناً للأساتذة أو بعضهم على الأقل. وكان هذا ييسر على المدرسين العمل وعلى الطلاب الاتصال بأساتذتهم وشيوخهم. (٨) وأخيراً، فإن المدرسة بحكم تنوع المعارف التي تدرس فيها وتنوع المدرسين والأساتذة فيها، كانت، على العموم، أوسع أفقاً من المؤسسات التربوية التي سبقت الإشارة إليها.

على أننا لا نستطيع أن ننكر أنه ثمة الكثير من التشابه بين الغايات والأهداف التي من أجلها أنشأ عبد المؤمن الموحدي مدرسته، وبين الغايات والأهداف التي عملت المدرسة الجديدة من أجلها فيما بعد.

ولنضع بين أيدي القارىء نموذجاً لمنهاج التعليم في واحدة من هذه المدارس وهي المدرسة التي شاعت في ليبيا. وبرنامج التعليم كان مثلث الجوانب. فثمة التعليم اللغوي الأدبي ويقوم على حفظ الألفية والأجرومية وتفسيرهما، والتمكن من الشعر والنثر كاللاميات وخزانة الأدب للبغدادي وشروحها. وهناك التعليم الديني وقوامه مصطلح الحديث والتفسير. ويجمع إلى ذلك التعليم الديني العملي المتعلق بالفرائض والمواقيت والأزمنة.

٤

في الوقت الذي كانت فيه المدرسة تجمع حولها أساتذة وطلاباً تختارهم الدولة ويدربون على حاجاتها العلمية والدينية والكتابية والفنية والمهنية، كانت معاهد أخرى للعلم والدين والدرس يتحلق حولها الطلاب لأنها كانت تجذب إليها، بطريقة خاصة أو بسبب التأييد الرسمي، فئة من كبار العلماء والفقهاء والأساتذة والشيوخ. وأكثر هذه المعاهد في المغرب أقدم عهداً من «المدرسة» كمؤسسة تربوية، وبذلك كانت أرسخ جذوراً. هذه المعاهد هي الجوامع الكبرى التي حافظت على دورها القيادي في غير مناسبة. وقد أصبحت هذه تمثل المعاهد العليا أو الدراسة العالية. وقد يطلق عليها اسم جامعة تجوزاً بالنسبة إلى العصور الحديثة، لكنها تستحق هذا الاسم إذا قورنت بما يماثلها من معاهد الدرس والتعليم في أوروبا في نهاية العصور الوسطى. من هذه المعاهد جامع القرويين في فاس وجامع الزيتونة في تونس وجامع القرمنلي في طرابلس. ونحن إذا نظرنا إلى هذه المعاهد نظرة عامة ألفيناها محط آمال الطلاب النابهين الذين يريدون أن يكون لهم في حياة بلادهم شأن يذكر. ذلك بأن الرجل الذي قرأ العلم في القرويين أو درس على شيوخ الزيتونة أو حضر دروس جامع القرمنلي، يكون موضع احترام الجميع. هذا فضلاً عن أن الشيوخ الأساتذة في بعض هذه المعاهد، أصبح لهم، مع مرور الزمن، حق الاشتراك ببيعة السلطان، على نحو ما نعرف عن شيوخ القرويين في فاس. وهذه منزلة لا يستهان بها.

فهل كان ثمة فرق بين التعليم في المدرسة والتدريس في الجامع؟ من حيث ثبت المواضيع ليس ثمة فرق. ولكن من حيث التفاصيل، فالفرق الرئيسي هو أن التعليم في الجوامع كان أعمق وألصق بالجذور والأصول. فالتفسير في المدرسة، وإن كان قد يصل أحياناً إلى درجة عالية، تبعاً للأستاذ، فإنه في الجامع يكون أبعد مدى وأدق أداء وآصل في تتبع التشعب والمعنى. ومثل ذلك يقال في الحديث والفقه. والعلوم الأخرى، كالطب والفلك والهندسة، كانت تعلم في الجوامع أيضاً لكنها كانت في الغالب تابعة لهواية الشيخ والأستاذ ووجوده، أكثر منها انتظاماً لدراسة طبية علمية سريرية مثلاً. فالمدرسة الطبية كانت بالمستشفى (المارستان أو البيمارستان) ألصق وبه أحفى من الجامع.

لكن الفرق الرئيسي بين الجامع والمدرسة في رأينا هو ان المدرسة كانت للدولة ومع الدولة في الغالب، ولكن الجامع كان مع عالمه ومع نفسه. وقد يختلف مع صاحب الأمر فيظهر ذلك. وعندئذ يكون الجامع، بقدر ما تسمح به ظروفه وشيوخه ومتانتهم، الحافظ لضمير الجماعة والقيّم على شؤون الشريعة وأمورها.

ونحن إذا نظرنا إلى جامع القرويين عبر تاريخه الطويل وجدنا أنه بني سنة ٢٤٥ في أيام الأدارسة، أما الأموال التي أنفقت على بنائه فقد تبرعت بها فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري القيرواني. فقد هاجر أبوها محمد من القيروان واستقر في فاس، وكان ثرياً. فلما

توفي انتقلت أمواله إلى ابنتيه فاطمة ومريم، واختصت كل منهما ببناء جامع جديد لعدوة من عدوتي فاس، فكان جامع القرويين من عمل فاطمة. وجدد البناء ووسع سنة ٣٢٢، ثم أضيف إليه كثيراً سنة ٥٣١ في عهد الموحدين. وهو الوضع الذي لا يزال عليه إلى الآن تقريباً.

وفي عهده الطويل كان جامع القرويين مركزاً للتعليم في المغرب، إلا أنه تدريجاً أصبح المركز الأول للتعليم العالي. وفي عصر ازدهاره، وهي الفترة الممتدة من أواسط القرن السابع إلى أواخر القرن الحادي عشر للهجرة، كانت الموضوعات التي تدرس فيه منوعة. فقد كان ثمة أساتذة للدراسات الدينية كالتفسير والحديث والفقه والدروس المساعدة وهي اللغة والأدب والتاريخ، وأساتذة للحساب والطب والتصوف. وكان شيخ القرويين قاضي فاس. وكانت نفقات الجامع السنوية تبلغ نحو ثمانين ألف دينار في مطلع هذه الفترة. أما الطلاب فكانوا يقيمون في المدارس المختلفة التي بنيت خصيصاً لإيوائهم مثل البوعنانية والصهريج والعطارين. وكان للجامع مكتبة قيّمة فيها الآلاف من المجلدات في الموضوعات المختلفة. وكانت للطلاب عطل أسبوعية هي بعض الخميس والجمعة، وعطل العيدين وأربعون يوماً هي عطلة الصيف، وعطلة شهر رمضان.

ونحن إذا راجعنا سجل الذين تخرجوا من جامع القرويين وجدنا أنهم شغلوا أعلى المناصب في الدولة، لما عرفوا به من سعة العلم ومتانة الخلق والقدرة على تصريف الأمور. فكان منهم الوزراء ومستشارو السلاطين وسفراؤهم إلى الدول الإسلامية والغربية.

ويمكن القول إجمالاً بأن جامع الزيتونة قام بمثل هذا الدور. فقد أنشأ الجامع عبد الله ابن الحبحاب سنة ١١٤، وبدأ التدريس به بسيطاً، ثم قام بدور المعهد المختص بالتعليم العالي خصوصاً من أيام الحفصيين. وقد كان التعليم الزيتوني في أيام الحفصيين موسوعياً في نظرته متكاملاً في موضوعاته. أي أنه شمل التعليم الإسلامي الديني والآداب العربية والفلسفة الكلامية والعلوم الرياضية والفلك والطب. ولو ان الطب قل شأنه فيما بعد على نحو ما حدث في جامع القرويين.

وجامع القرمنلي بطرابلس كان له شأن كشأن الجامعين الآخرين، ولو أنه احدث عهداً منهما. أما المواد التي كانت تدرس فيه فشبيهة بما كان يدرس في الجامعين الآخرين.

٥

لا يمكن التحدث عن معاهد التعليم الإسلامية في المغرب العربي دون الإشارة إلى ما قامت به الحركة الإصلاحية الكبرى التي أقام دعائمها في ليبيا السيد محمد بن علي السنوسي في القرن التاسع عشر. وهي الحركة التي يطلق عليها الكتاب والمؤرخون «السنوسية» نسبة إلى السنوسي الكبير. والعلم التعليمي الذي تم في الفترة الممتدة من إنشاء الزاوية البيضاء إلى الهجوم الإيطالي على ليبيا سنة ١٩١١، وحتى أيام الجهاد الليبي الكبير هو من عمل السيد محمد وابنه السيد المهدي. وقد قام ذلك على مؤسستين: الواحدة الزاوية

وكان منها في ليبيا ما يقارب المائة، وعلى معهد الجغبوب الذي كان معهداً للتعليم العالي السنوسي.

مركز الحياة في السنوسية هو الزاوية. والزاوية، كما تفهم في هذه المناسبة، مركز للحياة الروحية والزراعية والتجارية والسياسية. وهنا نجد القيمة الخاصة للسنوسية. فهي ليست طريقة دينية صوفية روحية فحسب، ولكنها طريقة للحياة بمختلف نواحيها. فعندما كان السنوسي الكبير أو خليفته يبعث بأحد الشيوخ لإنشاء زاوية جديدة، كان ينتظر من ذلك الشيخ أن يجعل من الزاوية وأراضيها وسكانها جالية حية منتجة. وكانت الخطوة الأولى هي ان تفرز قطعة من أرض القبيلة التي تنشأ الزاوية في وطنها، تخصص لمصلحة الزاوية، ثم تقام الأبنية اللازمة للزاوية، على أن يقوم الرجال بأنفسهم بالعمل. وكان المألوف ان تكون ثمة مجموعتان من الأبنية: الأولى يقيم فيها الشيخ وأسرته، والثانية تشمل المسجد والمدرسة والمضافة. وكل هذه يتوقف اتساعها على مدى ما يمكن ان يؤديه المركز من خدمات. أما المضافة فتحوي أماكن فسيحة يستطيع أن يأوي إليها التجار والزوار والمسافرون، فيقيمون فيها ثلاثة أيام، حسب عرف الضيافة عند العرب. على أن التجار كان لهم أن يقيموا مدة أطول، وكانت الزوايا التي ينتظر منها أن تكون مراكز تجارية، تحوي قاعات كبيرة واسعة يضع فيها أولئك التجار بضائعهم ومتاجرهم. وكانت ثمة عرصات تحفظ فيها الإبل التي تنقل هذه المتاجر. وقد اهتم المشرفون على إنشاء الزوايا بتأمين الماء اللازم للسكان، بحفر بئر كبيرة في الزاوية نفسها أو على مقربة منها. وكانت الأبنية جميعها يدور بها سور يحرسها، تعلوه حصون وأبراج يستخدمها السكان لدفع الهجوم عنهم إذا تعرضوا له. وما أكثر ما تعرض أهل الزوايا لهذه الاعتداءات على أيدي الفرنسيين والإيطاليين خصوصاً.

والأرض المحيطة بالزاوية كان يقوم بالعناية بها واستثمارها الإخوان، سواء أكانوا من أهل القبيلة نفسها أم من غيرهم، ولو انها كانت تعتبر ملكاً للقبيلة التي تقوم الزاوية في وطنها. ومن هنا كانت الزاوية مركزاً للوحدة القبلية، وهذه قيمتها السياسية الإدارية. والإخوان الذين لم يكونوا يقيمون في الأراضي التابعة للزاوية مباشرة، كان عليهم أن يعملوا في الأرض أياماً معينة في السنة، في أيام النشاط الزراعي أو في مواسم الحصاد. ومع ان الإخوان كانت تخصص لهم قطع من أراضي الزاوية يستغلونها، فإنهم لم يكن باستطاعتهم التصرف بملكيتها. وبعد ان يفرز قسم من الواردات المختلفة التي تنتج في الزاوية لحاجات المركز نفسه، كان يرسل ما يفضل عن ذلك إلى مركز السنوسية العام لينفق في سبيل الدعوة نفسها. يضاف إلى ذلك الزكاة التي كانت تدفع إلى رئيس السنوسية. وقد يرى الرئيس ان يفرض بعض ضرائب لحاجات خاصة أو مناسبات، فتجمع وترسل إليه.

وكان المعهد العالي للتعليم في الجغبوب. وقد أنشأ الزاوية هناك السيد محمد بن علي السنوسي وأتم العمل ابنه السيد المهدي.

وقد وصف المرحوم محمد الطيب الأشهب هذا المعهد بقوله:

«وقد جلس كبار العلماء الأعلام للتدريس العالي كما كان كبار حفظة القرآن يواصلون تعليمه، وكان حفظه شرطاً أساسياً، وبذلك أعد الجغبوب طبقة ممتازة من العلماء والشعراء والقراء والكتاب. وإلى القارىء الكريم هذا المثل البسيط نسوقه للتدليل على شدة الاهتمام بتحفيظ القرآن. ففي إحدى السنين تخرج ثمانون طالباً من المدرسة القرآنية ينتمون لقبيلة واحدة هي «حسين البراعصة»، ولا شك أن اعداداً أخرى تماثل هذا العدد من مختلف القبائل جاءت لقراءة القرآن عدا القائمين على طلب مختلف العلوم ومتنوعاتها، وإلى جانب كل ذلك فهناك العمال الذين يقومون بمختلف الأعمال التي أخذت هي الأخرى نصيباً وافراً من العناية بها. وتقسم أيام الأسبوع بين طلب العلم والقيام بالعمل فيما عدا يوم واحد يتخلل الأسبوع للراحة وهو يوم الجمعة، أما بقية أيام الأسبوع كانت فيها المواقيت مقسمة. فمثلاً نجد ان العامل الأمي يأخذ بعضاً من الوقت يتفرغ فيه من عمله لحضور مجالس الدرس الشفوي والوعظ لمعرفة الواجبات التي يتطلبها دينه ودنياه، وكل طالب يتلقى العلم عليه أن يؤدي ما أنيط به من عمل مساء يومي الخميس والاثنين، ويستوي في ذلك الصغير والكبير والغني والفقير، إذ ليس هناك نظام الطبقات المفرق عادة بين صفوف الأمة.

«هذا، ولكل فرد من الطلبة الذين يتلقون العلم والقرآن الحق في رغيف واحد من الخبز يومياً تصرفه خزينة الأوقاف السنوسية، كما كانت تقدم بعض المساعدات للمجاورين والفقراء والطلبة الذين لا عائل لهم، ولكل شخص من الضيوف العاديين وعابري السبيل فطوراً يومياً يتكون من التمر والكشك (اللبن المجفف) أو من الزميتة (البسيسة) المعجونة بالزيت. أما وجبة الظهيرة فتكون عادة من الطعام السخن وهو من الخبز المفتوت في شربة من العدس أو الفول أو الحساء الليبي المعروف باسم «الحريرة». وتمتاز وجبة طعام العشاء بتقديم أكواب الشاي الذي يبعث النشاط في نفوس العمال والطلبة على العمل والمطالعة، ويقدم اللحم إلى الجميع في يوم الجمعة وهذا عدا الحالات الطارئة. ويتألف الكساء لكل من يستحقه من قميصين وسروالين وحذاء وطاقيتين سنوياً. وفي كل سنتين يستحق الرجل جرداً (حراماً). ويضاف إلى كل ذلك بعض الهبات والصدقات والهدايا والتبرعات التي تصل من حين إلى آخر باسم الطلبة والعمال والفقراء فتوزع ـ سواء أكانت من الملبوس أم المأكول ـ بالتساوي. وليس على الطالب أن يجلب معه كتباً، إذ ان باب المكتبة مفتوح على مصراعيه للجميع. ويتدرب الطلبة والعمال فيما يتدربون به على الرماية واصابة الهدف».

٦

هذه لمحات عن المدرسة الإسلامية في المغرب العربي والدور الذي قامت به في نشر الإسلام والحفاظ على تعاليمه واللغة العربية. فقد كانت المدرسة ـ كتاباً ورباطاً وزاوية ومدرسة وجامعاً ـ مركزاً يشع منه نور العلم ومكاناً يتخرج منه المعلمون والشيوخ الكتاب والشعراء والوزراء والمستشارون والعلماء والفقهاء. وكل واحد من هؤلاء كان يقوم بواجبه نحو بلده وعلمه ودينه.

٢ ـ ابن خلدون

ولد عبد الرحمن بن خلدون في تونس سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م). وهو متحدر من أسرة من مهاجرة الأندلس هبط جده الأعلى إليها من إشبيليه، وذلك بسبب تفاقم الخطر الإسباني على تلك الديار. ونال ابن خلدون في تونس خير ما كان فيها من علم وثقافة. وقد كان فيها الكثير بسبب كثرة المهاجرة إليها من علماء الأندلس يومها. وقد بدت ألمعيته ومعرفته لأولي الأمر فأُلحق بخدمة وزير تونس وهو في نحو العشرين من عمره.

حياة ابن خلدون تقع في فترة اضطراب سياسي حربي كبير في أقطار المغرب، وقد أسهم في الكثير من الشؤون العامة. هرب من تونس بعد انكسار عسكر الوزير الذي كان في خدمته وسعى إلى لقاء أبي عنان المريني الذي ضمه إلى حاشيته. ولكن الفترة التي قضاها في بلاط فاس شغل فيها ابن خلدون نفسه بالسياسة لا عملاً ورأياً فحسب، بل مؤامرات أيضاً. فانتهى به الأمر إلى قضاء سنتين في السجن. وخرج بعدها من فاس إلى غرناطة ليجرب حظه هناك مع صديقه سلطان غرناطة ووزيره لسان الدين بن الخطيب. لكن ابن خلدون لم يلبث أن تعرض للسعايات والوشاية، فرحل عن غرناطة إلى بجاية ولكنه لم يستقر هناك فانتقل إلى بسكرة في الجزائر، حيث قضى نحو سبع سنين متنقلاً بين المعسكرات المختلفة محرضاً الأعراب على الثورة والقتال. وعاد إلى فاس ثم ذهب إلى تلمسان ومن هناك انتقل إلى قلعة ابن سلامة في مقاطعة وهران حيث قضى أربعة أعوام. هناك عكف على العمل بتاريخه الكبير الذي بدأه بالمقدمة. ولكنه أدرك أنه كان بحاجة إلى مكتبة عامرة ومصادر للتاريخ وافرة، فذهب إلى تونس حيث قضى أربع سنوات في الكتابة والتأليف حتى فرغ من كتابه كاملاً، ورفع نسخة منه إلى أبي العباس سلطان تونس.

خشي ابن خلدون أن يحمل على العودة إلى الحياة السياسية في المغرب فخرج إلى مصر متعللاً بالحج. وفي مصر سعى إلى لقاء سلطانها برقوق الذي ولاه التدريس بمدارسها. ولم يلبث أن ولي قضاء المالكية، وهو المنصب الذي تولاه ست مرات، عزل في خمس منها. وتوفي وهو في الولاية السادسة وكان ذلك سنة ٨٠٨ للهجرة/ ١٤٠٥ للميلاد. وقد رافق السلطان المملوكي الناصر فرج لما ذهب إلى دمشق للدفاع عنها ضد تيمورلنك، واجتمع بهذا خارج المدينة.

فابن خلدون لم يكن فقط ابن بيئته العلمية، ولكنه كان ابن بيئته السياسية بما فيها من تقلبات ومؤامرات وخصومات وتجربة وخبرة. وكان لهذا كله أثره في تفكيره. وقد ضمّن ابن خلدون تجاربه على اختلاف أنواعها كثيراً من الكتب التي وضعها، ولكن أهم مؤلفاته ثلاثة: المقدمة؛ والتاريخ المعروف «بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن

عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»؛ والتعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، وهو ترجمة ذاتية للرجل، ويهمنا في هذا الحديث الكتاب الأول أي المقدمة.

تشمل المقدمة على ديباجة الكتاب أو خطبته، وقد عرض فيها ابن خلدون لما وضعه المؤرخون قبله وما تعرضوا له من النقص في الحديث والتمحيص وما ارتكبوه من أخطاء وسبب ذلك كله بشكل عام. ويلي هذه الديباجة ستة أقسام رئيسة هي: في العمران البشري على الجملة؛ في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل؛ في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية؛ في البلدان والأمصار وسائر العمران؛ في المعاش ووجوه الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله؛ في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرف في ذلك كله من الأحوال.

فالمقدمة، عندما ينظر إليها نظرة إجمالية فاحصة، تبدو كأنها أتم تنظيم فكري للعلوم الإنسانية عرفه العرب. فهي مرتبة ترتيباً منطقياً وتلتزم الصرامة المتناهية في الموضوع من أولها إلى آخرها. تبدأ المقدمة بدرس البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان وتأثيرها في حياته. ثم تتناول الإنسان في منظماته المختلفة، بدوية كانت أم حضرية، وقيمة الزعامة أو القيادة في هذه الأمور. وتعرض بعد ذلك للدولة بأشكالها المختلفة، والحياة الإقتصادية وما يعتمل فيها وما تتأثر به من عوامل وأمور. وكل هذا يتناوله ابن خلدون في مقدمته في إطار من الفكر المنظم والمنطق الآخذ بعضه بأسباب البعض الآخر.

في هذه المقدمة وضع ابن خلدون أسس علم الاجتماع وأسلوب البحث فيه، وهو الذي سماه العمران البشري. فقد قال إن الإنسان هو أصل العمران، وإنه في تكوينه للعمران وقبوله للنظم المختلفة وتطور الظواهر الاجتماعية إنما يعتمد على البيئة، وإن الأمور الربانية تؤثر في الفرد، أما المجتمع فيخضع في تطوره إلى قوانين عامة طبيعية تفعل فعلها في كل مكان وزمان. وحري بالذكر أن النظريات التي استنبطها ابن خلدون كانت مبنية على المشاهدة والعيان وقراءة التاريخ والعمل السياسي بين الحضر والبدو. وقد اقتصرت دراسته أصلاً على الشعوب الإسلامية، لكن القواعد التي توصل إليها تصلح لأحوال كثيرة ومناطق مختلفة في رقاع العالم الواسعة.

وقد انطلق ابن خلدون من ست نقاط أساسية أجملها شارل عيساوي بما يلي:

١ ـ إن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة بحيث تسير الأحداث الاجتماعية في طريق سوي ونظم محددة المناهج والنتائج.

٢ ـ إن هذه القوانين تفعل فعلها في الجماعات، ولا يمكن أن تتأثر بالأفراد، فالمصلح الذي يحاول إصلاح دولة مهترئة لن تنجح محاولته، لأن جهوده تطغى عليها قوى اجتماعية لا سبيل إلى مقاومتها.

٣ ـ إن مثل هذه القوانين لا سبيل إلى الكشف عنها إلا بجمع الحقائق الأساسية الكثيرة، والكشف عن النتائج التي ترتبت عليها. وسبيل الحصول على ذلك هو استقراء

الماضي وملاحظة المجتمعات ومحاولة سبر أغوارها. وهنا يتوجب على الباحث الاطلاع على القضايا النفسية والبيولوجية والاقتصادية وما إلى ذلك.

٤ ـ إن القوانين الاجتماعية تفعل فعلها في المجتمعات التي قد يفصلها عن بعضها البعض الزمان أو المكان.

٥ ـ إن المجتمعات ليست جامدة، أي إن الظواهر الاجتماعية تتبدل وتتطور.

٦ ـ إن هذه القوانين هي اجتماعية وليست انعكاسات لاندفاعات بيولوجية أو عوامل عفوية. فالصناعة والثروة وما إلى ذلك لها الأثر الأول في تطوير المظاهر الاجتماعية.

يكتب ابن خلدون بأسلوب واضح سلس بليغ شأن أولئك الذين حذقوا العربية وامتلأت بها نفوسهم، فلما ندبوا أنفسهم لاستعمالها في التعبير عن خوالج نفوسهم أو بنات أفكارهم كان تعبيرهم واضحاً. ونود أن ننقل هنا نموذجاً لكتابة ابن خلدون، وهي قطعة قصيرة عن ارتباط العمران بنشوء الدول. فابن خلدون يرى أنه إذا قام المجتمع والدولة اللازمة له نشأ العمران. وإذاً فالدول أقدم من المدن والأمصار. ولكن ماذا يحدث بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة؟ في هذا يقول ابن خلدون:

«وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة، فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائماً، فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عملها بعد الدولة، كما تراه بفاس وبجاية من المغرب، وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال. لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتهم من الرفه والكسب، تداعوا إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر. فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون. وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران ترادف الساكن من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً، إلى أن يبذعر سكانها وتخرب، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه. وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك آخر، ودولة ثانية، يتخذها قراراً وكرسياً يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها. فتحفظ تلك الدولة سياجها، وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفعها، وتستجد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد».

هذا هو ابن خلدون العبقري، الذي جمع خبرات الماضي عبر التاريخ وخبرات المجتمع المعاصر له خلال التجربة والعمل في السياسة وغيرها، ولاحظ ما اعتور المجتمعات التي عرف أمورها، وخرج بعمله الجديد، وكأن الرجل يعرف أنه يكتب في علم جديد.

وقد عرف معاصروه والذين جاءوا بعده مباشرة فضله، لكن كان من سوء حظه أن كتابات ابن خلدون لم تلبث حتى أصبحت شيئاً شبه منسي. ومن ثم لم يعرف فضل الرجل على علم الاجتماع خلال نحو أربعة قرون أو يزيد بعد وفاته. وكان أول من عني بالرجل كان ساسة أتراك عثمانيون، منهم: ويسي أفندي وطاشكو بيريزادة وحاج خليفة ونعيم (أو نعيمي) من أهل القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وبلغت العناية التركية بالرجل ان ترجم بيريزادة أفندي خمسة أجزاء من المقدمة إلى اللغة التركية سنة ١٧٣٠.

لكن علماء الغرب لم يعرفوا المقدمة إلا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومن ثم، فإن أمثال ميكيافلي وبودان وفيكو من الباحثين الاجتماعيين المبكرين. ولا كوندورسيه وكومت من المتأخرين لم يطلعوا على أسرار المقدمة وكنوزها.

وهكذا نجد أن ابن خلدون الذي وضع قواعد علم الاجتماع في القرن الرابع عشر لم يؤثر في العلماء الأوروبيين الذين اهتدوا إلى قواعد اجتماعية أساسية بمعزل عن ذلك الكنز الكبير.

٣ ـ المؤسسات الثقافية في الجزائر في العهد العثماني

وصل العثمانيون إلى القطر الجزائري محتلين في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وظلوا حكاماً لذلك القطر إلى أن احتل الفرنسيون البلاد سنة ١٨٣٠. على انه جدير بنا أن نذكر أن الحكم العثماني المباشر للجزائر لم يستمر أكثر من قرن من الزمان، إذ ان السلطات المحلية، تركية وغير تركية، أصبحت هي المشرفة على الشؤون جميعها، وخصوصاً شؤون البحر منها، إشرافاً يكاد يكون تاماً.

وعملية التعليم كانت في هذه الفترة العثمانية استمراراً لما كان عليه الحال في الفترة التي سبقت مجيء العثمانيين، أيام كانت الجزائر، شأنها في ذلك شأن الكثير من أقطار المغرب العربي، تعاني أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى التوقف، نسبياً، في الحركات العلمية والثقافية. وكان المسجد أو الجامع مركز التعليم، كما كان الرباط أو الزاوية مكان التعلم والنشاط الروحي. وذلك بسبب انتشار التنظيمات الصوفية وشيوع الانضمام إليها في المدينة والريف على السواء.

ولم يكن غريباً ان تنتشر المساجد في أنحاء القطر الجزائري في مدنه وقراه. إلا أن كثرتها في تلك الديار كانت تدعو إلى الانتباه. فقد أحصي مائة وست وسبعون مؤسسة دينية، أكثرها من المساجد في مدينة الجزائر وحدها. وعرفت قسنطينة خمسة وسبعين مسجداً، فضلاً عن سبعة أخرى كانت في أرباضها. وقد ورد عند أحد الرحالين أن هذه المدينة كان فيها خمسة جوامع خطبة، أي من الجوامع التي تقام فيها صلوات الجُمع والأعياد. أما تلمسان فقد كان فيها، على حد قول مؤرخ لها، مسجد حول كل دخلة أو كوع في الشارع.

وكانت المساجد، وخصوصاً الكبرى منها، تتمتع بوقفيات كبيرة تمكنها من دفع نفقات القائمين عليها. فجامع خضر باشا كان يتناول خطيبه خمسين ديناراً مرتباً شهرياً. فيما كان كل من المدرّس المالكي وقارىء صحيح البخاري وقارىء مختصر الصحيح ينال ثلاثين ديناراً في الشهر. وكان إمام جامع سوق الغزل في قسنطينة يقبض مائة ريال شهرياً. وكان في وقفية هذا الجامع مبلغ مائة وأربعة وأربعين ريالاً تدفع لاثني عشر طالباً من طلاب المدرسة الملحقة بالجامع. وعندنا اخبار كثيرة عن مرتبات العاملين في المساجد، مما يدل على العناية بها. لكن لم يكن لكل مسجد، أو حتى لكل جامع، مثل هذا الحظ. فهناك مساجد كانت وقفياتها قد تهدمت أو تخربت ولم يعن بها، فضعفت واردات المساجد المعتمدة عليها.

والجامع الكبير في العاصمة كان مقراً للمفتي المالكي وللمجلس الشرعي الأسبوعي، الذي كان ينعقد يوم الخميس. وكان هذا المجلس يضم المفتي المالكي والمفتي الحنفي والقاضيين المالكي والحنفي، وكبار العلماء والقضاة، كما كان يحضر الباشا أو نائبه عند

الحاجة. وكان المجلس يفصل في القضايا الفقهية الشائكة ولا سيما تلك التي يختلف فيها القضاة عند التطبيق والتنفيذ. كما كان المجلس يصدر الفتاوى التي يحتاج إليها الباشا. ولعله من المناسب ان نشير هنا إلى ان المذهب المالكي هو الذي غلب على المغرب العربي بأسره. لكن لما دخل الأتراك العثمانيون الجزائر وتونس وليبيا، في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أدخلوا معهم مذهبهم الحنفي ولو رسمياً. ومن هنا كانت الإشارة التي جئنا بها إلى وجود مفتيين وقاضيين في المجلس الشرعي.

على أن هذا الجامع الكبير كان أيضاً مسرحاً للمناظرات بين العلماء في المسائل الخلافية العامة. هذا فضلاً عن أنه نص في وقفيته على أن يكون فيه تسعة عشر أستاذاً للقيام بمهام التدريس في الموضوعات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية المتنوعة. وحري بالذكر أن السلطات التركية كانت تهتم بأن يكون عدد من المدرسين من أتباع المذهب الحنفي، باعتباره المذهب الرسمي للدولة.

يذكر الرحالة الفرنسي «دي بارادي» de Paradis أن مدينة الجزائر وحدها كان فيها ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي. لكن الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي تخصص في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي، يقول تعليقاً على ذلك: «إن الواقع هو أنه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه. فقد خلت الجزائر العثمانية من مؤسسة للتعليم العالي أو ما يشبهه، بحيث توحّد نظم التعليم وتحافظ على مستواه وتعكس نشاط العلماء واتجاههم، وتحفظ قدراً معيناً من أساليب اللغة والذوق الأدبي العام. ولم يكن للجزائر «جامعة» إسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة، التي عرفتها القاهرة وفاس وتونس».

وبعد تفحص دقيق لمصادره، خلص سعد الله إلى القول بأن دروس الجوامع الكبيرة كانت، في بعض الحالات، تضاهي دروس الجامع الأموي بدمشق، بل قد تفوقها. ويبدو أن مثل هذا الأمر كان يتوقف على تردد الأساتذة على هذه الجوامع من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، الأمر الذي لم يؤد إلى الانتظام التام في مثل هذه التداريس.

ومناطق الجزائر غنية بالزوايا، ولا سيما الريفية منها، والزوايا الريفية كان لها دور مهم في التعليم، أكبر منه في المدينة. ففي المدينة كانت المساجد تزاحمها، وكانت هذه أكبر عدداً وأيسر تناولاً بالنسبة إلى السكان. أما في الريف فقد كانت الزاوية مدرسة «القوم الوحيدة» تقريباً، يؤمها الشبان كما يقصدها الصغار. ونحن معنيون هنا بدور الزاوية التعليمي لا بدورها كملجأ أو ملاذ أو حمى.

والذي يمكن قوله هو أن التعليم الابتدائي في الموضوعات التي كانت مألوفة في منهاج التعليم في الأقطار الإسلامية، كان متوافراً في البلاد بأجمعها تقريباً لمن رغب فيه. وكانت، على ما يبدو، الرغبة في التعلم شديدة عند الناس. ومن هنا نجد أن الرحالة الفرنسيين المنصفين الذين زاروا الجزائر في أعقاب الاحتلال الفرنسي، ذكروا ان التعليم كان شائعاً في البلاد، وان المدارس كانت كثيرة، وان أكثرية سكان المدن والقرى الكبيرة كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

كانت الجزائر خلال العهد العثماني تكثر فيها المكتبات الخاصة والعامة. كانت الكتب تنتج محلياً، تأليفاً أو نسخاً، كما كانت تُحمل من مصر واستانبول والحجاز. ولعل تلمسان كانت أكبر مركز لحركة التأليف والنسخ والجمع، فالتقليد العلمي كان فيها أقدم وأرسخ. وقد كانت ثمة كتب غير تلك المختصة بالدين والأدب. فقد أخرج الدكتور أبو القاسم سعد الله أن إحدى الزوايا في مدينة وهران كانت تضم في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي مجموعة من الكتب العلمية والآلات الجهارية.

اقتضت العناية بالكتب والمكتبات أن يكون في البلاد ورّاقون ونُساخ وسماسرة كتب. وقد وجد هذا كله. فقد روى ابن حمادوش الفقيه عن نفسه أنه كان يشتغل بالكتب بيعاً وتجليداً ونسخاً، وإنه كان يملك دكاناً لهذا الغرض قبالة الجامع الكبير في سوق الوراقين في مدينة الجزائر.

٤ ـ الزاوية الدلائية

للزاوية في الإسلام تاريخ طويل، لا نحسب انه بالإمكان حتى الإلماح إليه في هذه العجالة. فقد عرفها المتعلم مكاناً يتلقى فيه العلم، وعرفها المعلم مكاناً يزكي فيه عن علمه، وعرفها المتعبد مكاناً ينتبذ فيه من دون الناس مكاناً قصياً، يخشع فيه لربه بكرة وأصيلاً، وعرفها المسافر مكاناً يريح فيه نفسه من عناء السفر. فهي في كل مكان وزمان ملاذ مشرع الأبواب، وحمى محترم الجناب.

والزاوية الدلائية واحدة من هذه الزوايا، إلا أنها كانت كبيرة بمؤسسها أبي بكر بن محمد، كبيرة بعلمائها وبتلاميذها وكبيرة بالدور السياسي الذي قامت به في جنوب غرب المغرب، إذ وقف أهلها أمام مطامع البرتغاليين وتسربهم في البلاد.

وكانت الزاوية الدلائية تقوم بناحية أم الربيع على مقربة من قصبة تادلا في جبال الأطلس المتوسط. ومن هنا كان ارتكازها إلى جبل يعصمها، وماء كثير (من وادي أم الربيع ووادي ملوية) يروي أرضها التي كانت تغل وتدر الكثير، والتي كانت الأغنام ترعى فيها. ومن ثم فقد كان باستطاعة أبي بكر بن محمد مؤسسها أن يطعم آلاف الناس، أتباعاً وطلاباً وضيوفاً وأبناء سبيل. فقد قيل إن سبعة آلاف كانوا كثيراً ما يتناولون الطعام على موائده في أيام عديدة من السنة.

ولكن لم يكن الكرم والثراء مصدر أهمية الزاوية الدلائية. فالواقع أن هذه الزاوية ظلت منذ إنشائها ـ في أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي حتى تهديمها سنة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م ـ مدرسة كبرى يتعلم فيها الناس الدين ـ فقهاً وحديثاً وتفسيراً ـ والأدب واللغة على خير ما عرف عن كبريات دور العلم في ديار الإسلام. ولكن لما طمعت في السياسة والرياسة، وزاحمت الملك الجديد، لم يتحملها هذا، فوضع حداً لها ولسيدها محمد الحاج (وهو آخر شيوخها)، فهدمت ونقل الدلائيون إلى فاس وغيرها.

وقد كنا بحاجة إلى بحث وافٍ يشفي الغليل عن هذه الزاوية التي علّم فيها، إضافة إلى الأسرة الدلائية، مثل أحمد القاضي، والتي تتلمذ فيها أمثال اليوسي العالم المغربي الكبير. وقد جاء اليوم محمد حجي، الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالرباط، بكتابه عن الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي[1]، فملأ الفراغ وأشبع النفوس. فالكتاب، والحق يقال دراسة مفصلة وافية. وقد تقصى الأستاذ حجي مصادره المخطوطة والمطبوعة، عربية وغير عربية، ثم خرج علينا بنتيجة جهده الكبير.

الكتاب في سبعة أبواب. فقد خص المؤلف نشأة الزاوية وأطوارها الأولى بالباب الأول، ثم انتقل إلى تعاليم الزاوية الدلائية وطريقتها الشاذلية وعلاقاتها بالزوايا الأخرى في الباب

الثاني. وعالج في الباب الثالث أهمية الزاوية من الناحية العلمية، فترجم لبعض الذين تلقوا العلم فيها كالحسن اليوسي وأحمد المقري والعربي الفاسي. وإذا كانت الأبواب الأربعة قد اقتصرت على الزاوية العالمة، فإن الأبواب الثلاثة الباقية تناولت الزاوية المجاهدة السياسية المحاربة المنافسة. فموقف الدلائيين من الفوضى التي شملت المغرب إثر وفاة المنصور الذهبي، وعلاقتهم بالملوك السعديين المتأخرين وأرباب الزوايا الذين استبدوا بالأقاليم، وقيام مدينة الدلاء وزعامة محمد الحاج السياسية وجهاده ضد الاسبان، وانتشار زعامة الدلائيين شمالاً بحيث شملت الغرب كله، وتقهقر الدلائيين وتغلب الرشيد عليهم، وما قام به الدلائيون خارج الزاوية ـ كل هذه الأمور هي التي تناولتها الأبواب: الخامس والسادس والسابع. وكل هذه النواحي مفصلة موضحة مع الإشارة إلى المصادر والمراجع. يضاف إلى هذا كله خرط وصور.

هذا هو تخطيط الكتاب الجامع المانع. ولا نطمع بتلخيص مثل هذه الدراسة في هذه العجالة. لكننا نود أن ننقل عن المؤلف تقديره للأهمية العلمية للزاوية الدلائية. فقد قال الاستاذ محمد حجي: «عني الشيخ أبو بكر الدلائي بالعلم والعلماء عنايته بالتصوف والمريدين، واهتم بالغ الاهتمام بتعليم أبنائه الستة، فكان منهم من يدرس على العلماء الوافدين على الزاوية الدلائية، ومنهم من ينتقل إلى مدينة فاس ليدرس فيها. ولما اضطربت أحوال المغرب بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي، وانتشرت الفتن بسبب اختلاف أبنائه وتنازعهم على الملك، أخذ الناس يفرون من المدن إلى البادية، وكانت الزاوية الدلائية من أحسن البقاع التي يلتجىء إليها العلماء، حيث يجدون الطمأنينة وراحة البال وينعمون بكرم ضيافة أهلها، فيتفرغون للعلم وتدارسه. وقد حصل أبناء أبي بكر على بضاعة علمية غير مزجاة فتصدوا للتدريس في زاويتهم وأقبل عليهم الطلاب من كل حدب وصوب.

«وتطور أمر الزاوية الدلائية في الثلث الثاني من القرن الحادي عشر الهجري وكثرت فيها المدارس التي ازدحمت بالطلاب، حتى كان يسكن في البيت الواحد طالبان فأكثر، ينفق محمد بن أبي بكر عليهم جميعاً. وكان لطلبة العلم بالمدرسة التي بإزاء جامع الخطبة ألف وأربعمائة مسكن. وتكاثر عدد العلماء المشتغلين بالتدريس في مساجد الزاوية الدلائية سواء من أبناء الزاوية نفسها أم من العلماء الطارئين عليها، وتكونت فيها خزانة كتب عظيمة شبهها بعضهم بخزانة الحكم المستنصر بالأندلس، وجميعها عشرة آلاف سفر».

وقد أجمع كل من تحدث عن الناحية العلمية للزاوية الدلائية على أنها بلغت في هذا المضمار شأواً بعيداً، وبذّت فاساً في تلك الفترة وفاقتها، وقد قال الأستاذ عبد الله كنون في هذا الصدد: «إن الثقافة الأدبية واللغوية كانت في الناحية التي درس فيها اليوسي أقوى منها في فاس، بل إننا نقول، إن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء، حيث درس اليوسي هي التي أحيت دماء الأدب في المغرب بعد عدم».

الهوامش

(١) محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي** (الرباط: المطبعة الوطنية).

٥ ـ اليوسي المغربي

١

طلع القرن الحادي عشر للهجرة/ القرن السابع عشر للميلاد على المغرب ودولة السعديين في تأخر، والبلد في اضطراب سياسي. فالسلطان لا يعترف به إلا في جزء من البلاد، وما تبقى تقسمه كثيرون منهم: أبو حسون السملالي في السوس، ومحمد الحاج، شيخ الزاوية الدلائية في فاس ومكناس والغرب، والشريف بن علي في تافيلالت وما إليها. ورأى الشريف بن علي أن واجبه يقضي عليه بتوحيد المغرب دفعاً للأذى. فكان ذلك بدء عناية الأسرة العلوية بشؤون المغرب السياسية عناية مباشرة: فنحن واجدون أن سيدي محمد بن الشريف، بويع، حتى في حياة أبيه الشريف بن علي، في سجلماسة (سنة ١٠٥٠هـ). فلما «صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سلجمانة ودرعة حدثته نفسه بالاستيلاء على الغرب، اذ هو يومئذٍ مقرالرياسة ومتبوأ الخلافة. فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال، وصاحبه ناسج على غير منوال. وكان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي يومئذ مستولياً على فاس ومكناسة وأعمالهما، وامتدت ولايته بعد مهلك أبي عبد الله العياشي إلى سلا وأعمالها. فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته، خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وعبر إليه نهر ملوية. وكان الدلائي أشد قوة من الشريف وأكثر جمعاً، فضايقه بإقليم الصحراء وقصد سجلماسة مراراً، وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثاني عشر من ربيع النبوي سنة ست وخمسين وألف، فكانت الهزيمة فيها على الشريف، وتقدم الدلائي إلى سجلماسة فافتتحها»(١).

«ثم انبرم الصلح بينهم على أن ما حازت الصحراء إلى جبل بني عياش فهو للمولى محمد، وما دون ذلك إلى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء، ثم استثنى أهل الدلاء خمسة مواضع أخر كانت في ايالة المولى محمد فجلعوها لهم»(٢).

لكن الحرب لم تلبث أن تجددت بين المولى محمد وبين الدلائيين. ومع أن المولى محمد استولى على فاس وبويع له فيها سنة (١٠٦٠هـ)، إلا ان الاستيلاء كان موقتاً. وفي الواقع، فإن الأمر لم يتم للأسرة العلوية إلا على أيدي المولى الرشيد بن الشريف الذي تولى الأمر بعد أن قتل أخوه محمد. والرشيد (١٠٧٥ ـ ١٠٨٢هـ/ ١٦٦٣ ـ ١٦٧٢م) ضم إليه أجناد أخيه ورتبهم، ثم «بعث رسله إلى الآفاق بالإعذار والإنذار والوعيد لأهل الطاعة والعصيان»(٣) ثم سار قاصداً فتح البلاد من جديد. فاحتل تازا وسجلماسة، وانتقل إلى حصار مدينة فاس فاحتلها وكتبت له البيعة فيها، وفتح الزاوية الدلائية ومراكش وايليغ وسائر السوس.

ولما توفي الرشيد خلفه أخوه المظفر بالله المولى إسماعيل بن الشريف الذي حكم

المغرب مدة طويلة (١٠٨٢ ـ ١١٣٩هـ/ ١٦٧٢ ـ ١٧٢٧م) وهو الذي أعاد إلى المغرب وحدته.

٢

لعل أهم الأحداث السياسية التي تمت في أيام المولى الرشيد هو استيلاؤه على الزاوية الدلائية. ولما كانت هذه الزاوية قد قامت بدور كبير في الحياة العلمية والسياسية في المغرب في القرن السابع عشر، وفي حياة اليوسي بالذات، رأينا ان نخصها ببعض العناية في هذا المقال(٤).

أنشأ هذه الزاوية سيد أبو بكر بن محمد الوجادي الزموري من قبيلة صنهاجة، وكان ذلك في أواسط القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ولما كانت هذه الزاوية قد هدمت تهديماً تاماً (سنة ١٦٦٨م)، فإنه لم يبق من أثرها ما يعين على وجه الدقة مكانها. إلا أن التواتر التاريخي والبحث الصبور أدى إلى القول بأن الزاوية الدلائية كانت تقوم على مقربة من قرية معمر في جبال الأطلس الأوسط. أما طريقة مؤسسها فهي الشاذلية الجزولية.

وخلف أبا بكر ابنه محمد في مشيخة الزاوية ثم تلا هذا ابنه محمد الملقب بالحاج. وقد عمر هذا الأخير وتوفي بعد استيلاء المولى الرشيد على الزاوية، وفي أيام الشيخ محمد الحاج خرجت الزاوية من عزلتها العلمية، واهتمت بالسلطة والسياسة بحيث شمل نفوذ الشيخ فاس ومكناس والرباط والغرب. وهذه المناطق مهمة جداً بالنسبة الى من يتولى أمور المغرب. لذلك اهتم بوضع حد لنفوذ أهل الزاوية الدلائية. يقول اليوسي: «كان الرئيس ابو عبد الله محمد الحاج الدلائي قد ملك الغرب سنين عديدة واتسع هو وأولاده وإخوته وبنو عمه في الدنيا، فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقي جموعهم ببطن الرمان ففضها دخلنا على الرئيس أبي عبد الله المذكور، وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ، فدخل عليه أولاده. وإخوته وأظهروا له عجزاً شديداً وضيقاً عظيماً فلما رأى منهم ذلك قال لهم: ما هذا؟ إن قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى»(٥).

ولما دخل المولى الرشيد الزاوية «غير محاسنها وفرق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس»(٦). إلا أن المولى الرشيد، على ما يقول الزياني: «لما خرج أهل الزاوية عفا عنهم ولم يرق دم واحد ولا كشف لهم عورة لحلمه وكرمه. ولما فرغ من أمر الزاوية انقلهم (كذا) عنها لفاس»(٧) وكان ذلك سنة ١٦٦٨م. ويضيف صاحب النزهة: «واستوطنوها مدة ثم أمر بهم أن يذهبوا عنه لتلمسان فذهبوا لها وسكنوها»(٨).

أما هذه الزاوية التي عمرت قرناً ويزيد، فقد كانت مركزاً من مراكز العلم في المغرب، وقد زودته بالعدد الكبير من علماء تلك الفترة. وفي الزاوية يقول مؤرخ الأدب المغربي الأستاذ عبد الله بن كنون: «ولكن كان من الألطاف الخفية أن ظهرت الزاوية الدلائية في ذلك الحين، فكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلوم والآداب الذي كاد ان يضيع فقامت عليه خير قيام، وما هي الا مدة قليلة حتى صارت مركزاً مهماً لنشر الثقافة العربية بين قبائل البربر، ومأزراً حصيناً للعلوم الإسلامية بالمغرب، وقد تخرج فيها عدد لا يحصى من العلماء الفطاحل،

والأدباء الأماثل، يكفي أن نذكر منهم علامة المغرب في هذا العصر أبا علي اليوسي. والواقع أنه لو لم يقض عليها مولاي رشيد ذلك القضاء المبرم، لكان للمعارف اليوم بالمغرب وخصوصاً القبائل شأناً (كذا) غير هذا الشأن»[٩].

وقد تحدث عنها اليفرني صاحب النزهة فقال: «كانت مشرقة إشراق الشمس فمحت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بأبي بكر وبنيه وابتهجت، وفاحت من شذاهم وتأرجت، ارتحل عنها فرسان الأقلام، الذين ينجاب بوجوههم الظلام، وبانت عنها ربات الخدور، وأقامت بها أثافي القدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت آثارهم، وذهبت الليالي بأشخاصهم وأبقت أخبارهم»[١٠].

كما ان اليوسي، وهو الذي كانت تربطه بالزاوية رابطة روحية، رثاها بقصيدة طويلة منها قوله[١١]:

فبينا ليالي الوصل بيض وروضه	بفيض الندى كانت مرابعه خضرا
عدت غدوة أيدي الحوادث فاحتلت	خلاها فعادت بعض نضرتها غبرا
وأبدلن مأنوس الديار وأهلها	بوحش وحولن الأهيل بها قفرا
وبينا جموع الحي كالراح شبتها	بماء فما تخشى جفاء ولا نعرا
وكالفرقدين الطالعين تآلفاً	وصاحبي الملك الذي نادم الشعرى
أصابتهم عين الكمال فغادرت	أكفهم من كل ما جمعت صفرا

٣

خلف المولى إسماعيل أخاه الرشيد على المغرب سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧٢م، وظل عليه إلى ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م. وقد أعاد إلى المغرب وحدته، بعد أن نظم جيشه من الودايا والعبيد والحراتين[١٢]، ورتب شؤون البريد وأمن الطرق وأخضع القبائل الثائرة. وكانت «البلاد في أمن وعافية يخرج الذمي والمرأة من وجدة إلى وادي نون ولا يجدان من يسألهما من أين وإلى أين... ولم يبق بأرض المغرب سارق ولا قاطع الطريق (كذا)»[١٣]. ثم التفت إلى الموانىء المغربية التي كانت خاضعة للاحتلال الأجنبي فاسترجع بعضها، حرباً أو سلماً، وهي طنجة والعرايش والجديدة، وإن كانت مليلة وسبتة ظلتا في أيدي الاسبان. وشجع إسماعيل القرصان المغربي وخصوصاً جماعة سلا، لكن أهم من ذلك كان اهتمامه بالتجارة. وعقد المعاهدات والمحالفات مع الدول الأوروبية.

وإسماعيل هو الذي أعاد بناء مكناس واتخذها قاعدة ملكه. وقد جعل من هذه قبلة الفن والعظمة. وشهادة الزياني في البستان بذلك كافية. قال: «وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الإسلام لرجح بها ما بناه السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال، لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الأمطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني

العظام والهياكل الجسام... ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم، ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج[١٤] ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك إلى وقتنا هذا، وبنيت من انقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما اتوا على نصفها... وأما الجدران فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بنى آدم ولا يقوم به مال»[١٥].

٤

في هذا العصر المضطرب سياسياً في أوله، المنتهي بالوحدة والأمن في آخره والبلاد تتمخض عن أحداث وأحداث، عاش اليوسي[١٦]. وهو أبو علي الحسن بن مسعود من قبيلة آيت يوسي، إحدى القبائل الثلاث الكبرى في الأطلس الأوسط. ولد في جهات ملوية سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م على الأرجح، أي في الوقت الذي كان فيه المغرب يعاني فترة اضطراب كبرى. وقضى شبابه يعب من مناهل العلم ويتصل بأهل التصوف في سجلماسة ودرعة والسوس ومراكش ودكالة. وقد عدد شيوخه في فهرسته فكان منهم أبو بكر التطافي ومحمد ابن عبد الله الحسني وعبد العزيز الفلالي ومحمد التجموعتي وأبو مهدي عيسى السجتاني ومحمد المزوار ومحمد الحشتوكي. ولعل أكبر شيوخه أثراً في نفسه هما الشيخان محمد بن ناصر ومحمد شيخ الزاوية الدلائية. وقد قال اليوسي نفسه عن ابن ناصر: «كان الشيخ رضي الله عنه مشاركاً في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف، عابداً ناسكاً، ورعاً زاهداً، عارفاً قائماً بالطريقة، شارباً من عين الحقيقة، وكان رضي الله عنه مع إكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بعلم الظاهر تدريساً وتأليفاً وتقييداً وضبطاً، فنفع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقاً وغرباً. فانتفع به الخلق، قائماً بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله، والترقية بهمته، عن همة عالية وحالة مرضية وعلم صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ، فكان إذا تكلم انتقش كلامه في القلب، وإذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب»[١٧].

فلما وقعت بالزاوية الدلائية الواقعة (١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م) على ما مر بنا، كان اليوسي ممن انتقل إلى فاس حيث درَّس في القرويين. وكانت دروسه مطمح أنظار الطلاب. ولعل أصالة نظرته كانت العامل الأكبر في لفت النظر إليه، يضاف إلى ذلك ثقافة واسعة منوعة وحيوية كبيرة. وقد قال عنه العياشي:

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

ومما يدل على قيمة الرجل العلمية أنه اشترك في الموافقة على بيعة المولى إسماعيل بفاس سنة ١٦٧٢م، وهو لم يمض عليه في تلك المدينة سوى أربع سنوات. على ان هذا المركز الذي حصل عليه أثار غيرة بعض زملائه، وكان الرجل محباً للتنقل، فرأى ان يخرج من فاس إلى مراكش (١٠٨٤هـ ـ ٢٣٣ ١٦٧٣م). وقد قال في هذا فيما بعد:

مـا أنصـفت فـاس ولا أعـلامـهـا علمي ولا عـرفـوا جـلالة منصـبي
لو انصـفـوا لصـبـوا إلي كـمـا صـبـا راعي سنين إلى الغـمـام الصـيِّب[١٨]

أقام اليوسي إحدى عشرة سنة في مراكش (١٠٨٤ ـ ١٠٩٥هـ/ ١٦٧٣ ـ ١٦٨٤م) حيث كان يقرىء التفسير في جامع الشرفا، مع خروج إلى جنوب المغرب بين حين وآخر. فالرجل، كما قلنا، كان استاذاً متنقلاً، كما كان من قبل طالباً متنقلاً، وظل كذلك طول عمره. وفي شعره يتشوق كثيراً إلى الأماكن التي عرفها. فالغرب ومكناس وحلفون ووادي أم الربيع وملوية وفزاز وغيرها يحن إليها ويذكرها بالخير. وكان الرجل وفياً لا للأمكنة فحسب ولكن للناس الذين صادقهم، كأهل الزاوية الدلائية وشيخ القرويين عبد القادر الفاسي وإبراهيم العطار وتلميذه ابن زاكور.

وفي سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م عاد اليوسي إلى فاس، وعاد إلى القرويين. ولعله، إضافة إلى الإقراء، كان يسهم في الحياة العامة. فقد اشترك في قضية تمليك العبيد المقيدين بالديوان وأيد زملاءه في خلافهم مع السلطان. ثم لما أراد المولى إسماعيل تجريد البربر من سلاحهم، كتب إليه رسالة (يرد بعضها فيما بعد) يبين وجهة نظر الشرع في القضية.

كان بعض الشيوخ يقول عن اليوسي إنه مجدد هذه المائة[١٩]. وفي هذا دليل على احترام الناس لعلمه. وفي سنة ١١٠١ خرج للحج في صحبة المعتصم، ابن السلطان. ومما هو جدير بالذكر ان اليوسي في رحلته هذه لم يحصل على إجازة ما ولم يمنح أحداً إجازة. ولعل ذلك يرجع إلى شعوره بعلمه أو لعله تجنب الناس. فالرجل كان قد سئم الدنيا بعض الشيء. ولم يلبث بعد عودته إلى فاس ان توفي في أواخر ١١٠٢هـ/ خريف ١٦٩١م، وقد بلغ من العمر ستين عاماً. ودفن في ديار قبيلته في تامزيزت على مقربة من صفرو. ولا يزال ضريحه قائماً إلى الآن، وقد أتيحت لنا زيارته أثناء رحلتنا في المغرب. وقد ذكر صاحب الاستقصا وفاته بهذه العبارة: «وفي سنة اثنتين ومائة وألف توفي الشيخ الإمام، علم الأعلام، آخر علماء المغرب على الاطلاق، الذي وقع على علمه وصلاحه الاتفاق، أبو الحسن علي بن مسعود اليوسي... كان رضي الله عنه غزالي وقته علماً وتحقيقاً وزهداً وورعاً»[٢٠].

٥

رجال الفكر يؤثرون في معاصريهم تأثيراً مباشراً، أما أهل القرون التالية فيتأثرون بهم عن طريق مؤلفاتهم وما خلّفوه من ثروة أدبية أو علمية. واليوسي كان من كبار رجال العلم والمعرفة في المغرب في القرن الحادي عشر. فماذا كان أثره في معاصريه؟ وما الذي خلّفه لنا، وما هي قيمة هذا التراث؟

كان اليوسي في نظر معاصريه عالماً كبيراً وفي نظر تلاميذه صاحب رأي وأسلوب وفن. ولكن أكثر من هذا كله، فإن اليوسي يمثل التفاعل بين المفكر وعالمه. ويبدو هذا في «فهرسته»، ويتضح في «قانونه»، ويتجلى في «محاضراته». فانظر إليه يحدثنا عن الشيخ عبد القادر الفاسي، فيقول عنه انه جالسه وتحدث إليه في قضايا مهمة، وكان ان انعقدت بينهما

أواصر الصداقة والأخوة بالله. فاليوسي لم يكن رجلاً يعب العلم ثم يفرغه دون أن يؤثر أو يتأثر. فهو إذن تعلم وتحدث وناقش وحادث وانتهى هذا كله إلى قيام صلة خاصة مع الشيخ الفاسي. هي صلة أخوة بالله. وهذا هو التفاعل بين العالم والعالم الذي يعيش فيه. اننا على حد التعابير الحديثة، نقول إن اليوسي كان يعيش تجربة العلم والمعرفة. ويكفي ان يقول عنه صاحب الاستقصا انه كان «غزالي» زمانه.

أما بالنسبة إلينا، نحن الذين نتعرف إلى هذا التراث لنرى ما فيه، فإن اليوسي خلّف لنا الكثير من المؤلفات. وقد وضع الأستاذ برك، من الكولج دو فرانس، جدولاً وافياً لمؤلفات اليوسي، نجتزىء هنا بعضه تبياناً لفضل اليوسي(٢١):

(أ) كتب في الفقه: «تعليق على شرح الكبرى» للسنوسي؛ «أجوبة» على مسائل وجهت إليه؛ «مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص» (ويسمى منهج الخلاص).

(ب) كتب المنطق: «نفائس الدرر» وهو شرح لشرح المختصر للسنوسي؛ «القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل»، (ويسمى، «الفرق ما بين الذاتي والعرضي»).

(ج) كتب في التصوف: «الرائية في الحكم».

(د) كتب في الشرع: «الكوكب الساطع» وهو تعليق على جامع الجوامع للسبكي.

(هـ) ثمة مجموعة من الرسائل وجهها إلى المولى إسماعيل في أمور مختلفة، وإلى أصدقائه. ومنها رسالة في علم «الهيئة».

(و) لليوسي شعر جاء أكثره في ديوانه، وبعضه ذو موضوع معين مثل «الدالية» التي نظمها في شيخه ابن ناصر. كما انه عالج موضوع البلاغة في شرحه لتلخيص المفتاح للقزويني.

(ز) على ان الكتب الثلاثة المهمة، والتي نود أن نتحدث عنها بشيء من التفصيل هي: «الفهرسة» و«القانون» و«المحاضرات». وهي فريدة في بابها(٢٢).

أما الفهرسة فهي ترجمة ذاتية علمية لليوسي، نسج فيها على عادة علماء المسلمين، والمغاربة خصوصاً، إذ ذكر فيها شيوخه وكبار العلماء الذين اتصل بهم وأخذ عنهم وقرأ عليهم. وقيمة الفهرسة انها حفظت لنا أسماء الكثيرين من علماء المغرب الأوسط والجنوبي الذين عرفهم المؤلف. إلا أن اليوسي، وهو فريد في أمور كثيرة، جعل من الفهرسة مجالاً للتأريخ لتطور تفكيره وحياته الروحية. وقد أشرنا من قبل إلى إشارته للشيخ عبد القادر الفاسي، ونرى أنه من المناسب أن ننقل هنا ما كتبه عن نفسه. قال: «كانت قراءتي كلها أوجلها فتحاً ربانياً، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة فكنت بأدنى سماع ينفعني الله، فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله علي في جميعه فتحاً ظاهراً، وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه، ورب كتاب لم أسمعه أصلاً غير ان سماع البعض من كل فن صار مبدأ للفتح وتتميماً لحكمة الله في سنة الأخذ عن المشايخ، ولا تستوحش مما ذكرناه ظناً منك ان الربح أبداً يكون على قدر رأس المال، كلا، فقد يبلغ الدرهم الواحد ألف مثقال وما ذلك على الله بعزيز»(٢٣).

و«القانون في ابتداء العلوم» وضعه اليوسي في أخريات أيامه. وهو موسوعة في تصنيف العلوم عامة، وإن كان أكثر الكتاب في العلوم الإسلامية.

يعالج المؤلف في مفتتح كتابه معنى العلم وقيمته. ثم يأخذ العلوم نفسها فيقيم كلاً منه ويصنف نواحيه. فهو عندما يتحدث عن التاريخ، مثلاً، يبين مختلف المناهج التي سلكها مؤرخو الإسلام والمواضيع التي طرقوها. ويوضح للقارىء ـ والقارىء عنده هو المتعلم. فالكتاب وضع أصلاً لهؤلاء ـ محتويات كل علم، كما يبين العوامل الاجتماعية في تطور العلوم. والكتاب يحوي الأيام والقصص والتاريخ والمنطق والشريعة. فهو باختصار موسوعة للفكر في القرن السابع عشر الميلادي في المغرب. ويمتاز هذا الكتاب بأسلوبه الممتع. فاليوسي يكتب كما ينظم، دون تكلف أو تصنع، كما ان ترتيبه كله منطقي.

وإذا كانت الفهرسة مرجعاً لمعرفة علماء العصر والقانون سبيلاً لمعرفة القرن، فإن المحاضرات هي شخصية اليوسي عندما يتاح لها ان تنطلق على سجيتها. فقد وضع هذا الكتاب في شتاء سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م، وكان في زيارة لمصمودة في مساكنها في جنوب المغرب. ولعل خير وصف للمحاضرات ان نعتبره تأملات اليوسي. وقد دونت فيه الآراء والروايات والأدب والقصص والعبر والنظرات دون ترتيب معين. ولعل اليوسي لم يرد لها أي ترتيب بدليل أنه لم يعد ترتيب كتابه أو ينقحه فيما بعد. ولو أراد لاستطاع ذلك. فالكتاب فيه خمسة وعشرون فصلاً مختلفة الطول والقصر، وليس فيها ما يدل على التقسيم إلى فصول إلا ورود قوله تعالى ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ ...[٢٤]، بين فصل وآخر. والأول منها فيه بعض أصول للنقد والأدب وما إلى ذلك، ثم يلي ذلك شيء من كل شيء ـ الأخبار والنوادر والشعر والأنساب والمعرفة الصوفية ـ هنا، في هذا الكتاب، يتم التفاعل بين اليوسي العالم وبين العالم الذي يعيش فيه، بين اليوسي والمغرب في القرن السابع عشر.

٦

أورنا من قبل أبياتاً من شعر اليوسي، وأوردنا نماذج من نثره في حديثه عن ابن ناصر وعن نفسه. وها نحن أولاء نختم هذا المقال المقتضب بنماذج أخرى من شعره ونثره. فمن شعره من قصيدة حكمية:

أنا أناس لست تبصرنا	نتحين الطعم التي تزري
يعرى الفتى ويجوع وهو يُرى	متجملاً بالصبر والبشر
والحرة الشماء ربما	جاعت ولم ترضع على أجر
والمورد العذب الفرات إذا	راثتة حمر سيم بالهجر
وإذا ترى طيراً بمزبلة	فالطير غير الباز والصقر
وإذا رأيت المرء محتسياً	كأس الهوان فليس بالحر
والحر ليس حياته بسوى	عز الجناب ورفعة القدر[٢٥]

ومن نثره ما رواه من مناظرة بينه وبين الشيخ المرابط، قال: «ومما اتفق لي اني كنت

قدمت في أعوام الستين وألف من رحلتي في طلب العلم وكنت إذ ذاك شاباً، فدخلت الزاوية البكرية فوجدت شيخنا أبا عبد الله المرابط رحمه الله قد جمع خطباً وعظية وتقدم إلى أهل الوقت في بلده ليكتبوا عليها تقريظاً. فكتب كل ما قدر له من نثر أو نظم، فلما رأيت ذلك كتبت أنا أيضاً فوقع في مكتوبي لفظ القطائف واللطائف فاعترض علي ورام تبكيتي، وقال أنا لا أعرف القطائف إلا هذه المفروشات. فقلت له إن القطائف هنا جمع قطيفة بمعنى مقطوفة، فقال هو صحيح في اللغة ولكن الأدباء لهم الاختيار وعندهم ألفاظ يستعملونها مخصوصة فلا يرتكب عندهم كل ما يقع في اللغة. فقلت حينئذ هذا أبو محمد الحريري يقول في مقاماته:

فلا تعذلوني بعد ما قد شرحته ... على ان منعتم في اقتطاف القطائف

على ان ما زودتم من فكاهة ... ألذ من الحلوى لدى كل عارف

فتلون وجهه رحمه الله وخجل ولم يراجعني بكلمة»(٢٦).

وقد وجه اليوسي إلى السلطان إسماعيل عدداً من الرسائل حول الشؤون العامة، ذلك ان الرجل لم يعش في برجه العاجي. وها نحن ننقل جزءاً من رسالة فيها نموذج جيد من أسلوب اليوسي الرائق. قال: «الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأزره، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأجل الأفخم، مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف لا زالت اعلامه منصورة، وأيامه على العز واليمن مقصورة، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والاجلال، والدعاء لسيدنا بصالح الأحوال، وذلك بعض ما أوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والإحسان، والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والانعام والاكرام، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية، ومثابته الطوقية الفاطمية، فكتبنا هذه البطاقة، وهي في الوقت منتهى الطاقة، وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوق إلى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح، فأردنا أن نرسل إلى سيدنا ما أن وفق إلى النهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة، ورجونا وان لم نكن أهلاً لأن نعظ، أن يكون سيدنا أهلاً لأن يتعظ، وان يحتمي من جميع المذام ويحتفظ، فليعلم سيدنا ان الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس عبيد لله سبحانه واماء له، وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحاناً، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير اذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه، ثم نقول: إن على السلطان حقوقاً كثيرة لا تفي بها الطاقة، ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها،

الأول: جمع المال من حق وتفريقه في حق. الثاني: إقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة. الثالث: الانتصاف من الظالم للمظلوم، وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة، فإن تنبه وفعل فقد فاز، وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد ادينا الذي علينا»(٢٧).

هذا هو اليوسي العالم الأديب المؤرخ الصوفي الشاعر، خلاصة العلم والمعرفة في المغرب في القرن السابع عشر.

الهوامش

(١) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ٩ ج (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤ ــ ١٩٥٦)، انظر ج ٧، ص ١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦ ــ ١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٤) راجع: محمد الصغير الافراني، **نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي**، فاس: [على الحجر]، ص ٣٤٥ وما بعدها؛ الناصري، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٦ ــ ٤٩، ١٥٠ ــ ١٠٨، ١٠٩، وكذلك:
Georges Spillmann, *Esquise d'histoire religieuse du Maroc. Confreries et Zaouias* par Georges Drague (Paris, Peyronnet, 1951) PP. 127 - 139

(٥) الناصري، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٦ نقلاً عن **الفهرسة** لليوسي. راجع أيضاً: اليفرني، المصدر نفسه، ص ٢٥٠، وأبو القاسم الزياني، **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، تحقيق هودا (باريس، ١٨٨٦)، ص ٩ ـ ١٠. (النص العربي).

(٦) الناصري، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٧.

(٧) الزياني، المصدر نفسه، ص ٧، (النص العربي).

(٨) الافراني، **نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي**، ص ٢٥١.

(٩) عبد الله بن كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ٢ج، تطوان: (د.ن)، ١٣٥٧هـ، ج ١، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(١٠) الافراني، المصدر نفسه، ص ٢٥٠، وراجع الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٧. ص ٣٧.

(١١) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي، **الأدب المغربي** (بيروت، ١٩٦٠) ص ٣١١.

(١٢) الوادايا والعبيد والحراتين: جمع السلطان إسماعيل جنوده من مصادر ثلاثة، وقد احتفظ كل منها باسمه. فأما الودايا فهم جنود من القبائل العربية وأكثرهم من المغافرة، الذين كانوا يحاربون للسعديين ثم أهمل شأنهم. فجمعهم ورتبهم خارج مدينتي فاس ومكناس. وأما العبيد فهم جيش من السود الذين كان أجدادهم في خدمة المنصور السعدي، ثم تفرقوا في البلاد حتى أمر السلطان إسماعيل بجمعهم، سواء في ذلك الأحرار منهم والعبيد. واتخذ منهم جيشاً وزعه على الموانىء وبعض المدن الأخرى. ويقال ان عددهم بلغ ١٥,٠٠٠ جندي. والحراتين كانوا عبيداً أعتق أباؤهم أو اعتقوا هم، فاختار إسماعيل منهم جماعة صغيرة كانت حرسه الخاص تنتقل معه وتحط رحالها حيث يحط رحاله.

(١٣) الزياني، **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، ص ٢٨.

(١٤) الزليج هو القاشاني.

(١٥) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. ج ٧، ص ٥٥ ــ ٥٦ نقلاً عن **البستان** للزياني.

(١٦) راجع: عن اليوسي، **الاستقصا** ج ٧ في مواضع مختلفة، الإفراني، **نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي**، ص ٢٤٥ وما بعدها، والكتب التالية التي تعطي المصادر الرئيسية لدراسة اليوسي وعصره.

Evariste Levi Provençal, *Les Historiens des Chorfa* (Paris, 1922), pp. 269-272,Spilmann, *Esquise d'histoire religieuse du Maroc,* et jacques Berque, *Al-Yousl, problèmes de la culture marocaine au XVIIeme siecle* (paris: Mouton, 1958).

(١٧) الناصري، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٥ نقلاً عن فهرسة اليوسي.

(١٨) Levi-Provencal, *Les Historiens des Choraf,* p. 271.

(١٩) الناصري، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٢١) Berque, *Al-Yousi: Problèmes de la culture morocaine au XVIIeme siecle,* PP. 138-140.

(٢٢) Levi- Provencal, *Les Historiens des Choraf,* et Berque, Ibid.

(٢٣) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.** ج ٧، ص ١٠٨ ـ ١٠٩. نقلاً عن **الفهرسة.**

(٢٤) **القرآن الكريم،** «سورة الروم»، الآية ٤.

(٢٥) بن تاويت وعفيفي، **الأدب المغربي،** ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٢٦) ابن كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي،** ج ٢، ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٢٧) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،** ج ٧، ص ٨٢ ـ ٨٣.

٦ ـ قراءة في مذكرات أحمد باي حاكم ولاية قسنطينة[١]

١

كان حاكم الجزائر. في أيام العثمانيين المتأخرين، يحمل لقب داي، وكان آخر دايات الجزائر الداي حسين الذي ولي الأمر سنة ١٨١٨، والذي احتل الفرنسيون في أيامه مدينة الجزائر.

لسنا معنيين، في هذه العجالة، بالتحدث عن الإدارة العثمانية في ذلك القطر، كما أننا لا ننوي التحدث عن أسباب احتلال فرنسا للجزائر. ولكننا لا بد لنا من القول بأن القطر الجزائري كان مقسوماً، إدارياً إلى ثلاثة أقسام: الجزائر العاصمة ومنطقتها، ووهران ومنطقتها في الغرب، وقسنطينة وما يتبعها في الشرق.

والولاية الشرقية، قسنطينة، كانت أوسع الأقسام الثلاثة وأغناها، حبوباً على الخصوص، وكان يقيم فيها خُمسا سكان القطر. أما أقسامها الطبيعية العامة فهي الجبال الشمالية (جبال القبائل) والمنطقة الغربية الزراعية الغنية، وتقع الصحراء في الجنوب.

وحريّ بالذكر أنه بعد أن استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر (١٨٣٠) تحولت تجارة القوافل إلى عُنابة، ميناء المنطقة الشرقية، وبذلك زادت موارد المنطقة عما كانت عليه.

كان حاكم قسنطينة يحمل لقب باي. وفي سنة ١٨٢٦ ولِّي الحاج أحمد باياً على قسنطينة (بعد أن كان في منصب الخليفة أي الوكيل هناك منذ سنة ١٨١٨). وكان الرجل ذكياً طموحاً، وكان يعرف، بعيد توليه الحكم هناك، عن طريق جماعة له في تونس، أن فرنسا كانت تنظر إلى قسنطينة نظرة الطامع فيها، كما كانت تطمع في بقية القطر. لذلك عمد أحمد باي إلى تنظيم المنطقة بدءاً بجمع الضرائب، التي لم تكن تدفع قبلاً، بعد أن ألغى منها ما كان غير مقبول شرعاً، واتخذ لنفسه جيشاً نظامياً من نحو ألفين من الجنود، بعد أن ألغى الانكشارية هناك؛ كما أنه كان يضمن تأييد المواطنين له إذا ألمت بالمدينة مصيبة. وقد روي أنه كان يستطيع أن يطمئن إلى انضمام نحو ثلاثين ألفاً من المدنيين[٢].

وأحمد باي، المولود سنة ١٧٨٢ من أب جزائري موطناً، (فهو فيه دم تركي)، وأم جزائرية بنت أحد كبار مشائخ الصحراء يسمى بن قانة الشريف. وإذا نحن أخذنا بحياة الحاج أحمد باي كما دوّنها أحمد بو ضربة[٣]، يتضح أنه كان منقاداً للمجون والفجور في شبابه، إلى أن أرسل إلى مكة المكرمة فمكث هناك بضع سنوات. ولعلّ هذا النشاط الذي كان ينفقه في مجونه نقله إلى طموحه وتنظيمه وعنايته بالإدارة والجند. إلا أنه ظل على شيء كثير من القسوة والبطش والشدة وشيء من الغدر أيضاً.

لما أطبقت الجيوش الفرنسية على مدينة الجزائر كان الحاج أحمد، باي قسنطينة في

المدينة وقد جاءها ليدفع الدنوش، وكان معه حوالى أربعمائة من فرسانة. وبعد أن سقطت العاصمة أتجه هو شرقاً إلى قسنطينة. وأمام قسنطينة أعلن للسكان انه ينوي أن يعين نفسه داياً (بعد أن زال حكم الداي حسين بسقوط عاصمته في أيدي الفرنسيين). وقد تم له ذلك، لكن يبدو أن الحاج أحمد، الذي كان يعتبر سلطان تركيا سيده (وكان السلطان يومها محمود الثاني ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩)، كتب إلى السلطان يطلب موافقته، فلم يتلق جواباً. ومن اليسير أن يرى المرء في تصرف السلطان تصرفاً منطقياً يليق برجل مثل محمود الثاني. إذ إن موافقة السلطان على جعل الحاج أحمد داياً هو اعتراف بأن الجزائر أصبحت مجزأة ـ فجزء منها قد احتلته فرنسا ـ ولذلك فإن السلطان قد تنازل عن حقه فيه.

٢

تشغل مذكرات الحاج أحمد باي قسنطينة، على ما مر بنا، الصفحات ٢٢٢ ـ ٢٢٩ من الكتاب الذي هو بين أيدينا. ونحن لا ننوي هنا أن نؤرخ لأحمد باي من خلال مذكراته، ولا أن نصور أخلاقه أو طبيعته مما ذكره هو عن نفسه، ولا أن نحلل هذه المذكرات. إننا نود أن نقف عند بضع «محطات» منها آملين أن يلقي ذلك بعض الضوء على مجريات الأمور في هذه السنوات التي قاوم بها أحمد باي الفرنسيين في الشرق، كما قاومهم الأمير عبد القادر الجزائري في الغرب. وقد كانت الرقعة التي عمل فيها الأمير أوسع، وأنشأ هناك إدارة، ودارت بينه وبين الفرنسيين معارك كبيرة وعقدت بين الفريقين اتفاقات ومعاهدات، لذلك خطف الأمير الأضواء.

تبدأ مذكرات الحاج أحمد باي بقوله: «في سنة ١٨٣٠ ذهبت إلى مدينة الجزائر لاداء «الدُّنوش» أو الزيارة الإجبارية التي يؤديها إلى الباشا (الداي) جميع البايات مرة كل ثلاث سنوات. كنت باياً لقسنطينة منذ أربعة أعوام، وكانت تلك هي المرة الثانية التي أقوم بهذا الواجب. فلم أكن إذاً مستعداً أي استعدادٍ لمحاربة الفرنسيين، ومع ذلك كان الداي (الباشا) حسين قدّ أخبرني بمشاريعهم في رسالة ذكر فيها أنه يجب أن أهتم بعنابة (ميناء قسنطينة) فقط»(٤).

وبعد أحاديث متنوعة، عُقد، خارج العاصمة، مجلس حربيّ حضره فيمن حضر، صهر الداي. واقترح هذا رأياً عبر عنه بقوله: «يجب بناء حصون على شاطىء البحر وتزويدها بمدافع قوية حتى نمنع الفرنسيين من النزول». عارض أحمد باي هذا الرأي. فالمكان الذي اعتزم الفرنسيون النزول فيه، سيدي فرج، ليس فيه سوى قلعة قديمة مخرّبة. وهي على رأي أحمد باي: «يحتاج إصلاحها إلى شهور كاملة. لقد استيقظتم متأخرين... إذا وضعنا كل أملنا في إقامة التراسين والحصون، فإنكم لن تنتصروا، لأن نيران المراكب الفرنسية ستقضي على هذه المنجزات المقامة بسرعة وتكون أعمالكم قد ذهبت سدى». وأضاف قولاً طويلاً محاولاً توضيح الفرق بين العمل السريع، الاحتماء بالعاصمة وترك الجنود الفرنسيين ينزلون ثم يرهقون في فصل الصيف. لكن كما يقول أحمد باي: «... أجاب صهر الباشا بحمية جاهليّة

وثقة مزهوَّة بنجاح الخطة بأن عدم مجابهة العدو ليس من عمل الرجال الشّهام. وأن الله لن يغفل عن مساعدة من سيهاجمون الكفرة عند نزولهم، وهم به واثقون».

ويضيف أحمد باي: «وأثّر هذا اللجوء إلى الله تأثيراً كبيراً على عقول الحاضرين، واستعملتُ نفس الوسيلة وأردت حملهم على أن يتركوا مدينة الجزائر تحت رعاية الله، يفعل بها ما يشاء، ولكنهم عارضوني، وتقرر أن يسيروا لمجابهة الفرنسيين»[٥].

والمهم أن الفرنسيين استولوا على العاصمة، لأن ما بني من الحصون لم يكن ذا قيمة. وانسحب أحمد باي بعد سقوط المدينة، واتجه نحو قسنطينة. وفي الطريق تسلم رسالة من الجنرال بورمون Bourmont يقول فيها: «إن الفرنسيين قد خلفوا حسين باشا في الحكم، وانني احتفظ بمرتبة باي قسنطينة إذا رضيت أن أدفع لفرنسا «اللازمة» التي كنت أدفعها للداي، وباختصار إذا قبلت الاستسلام». وكان جواب أحمد باي: «بأن السلطة تسلمتها من حسين برضا جميع سكان قسنطينة ومقاطعتها وإنني راجع إلى مركز قيادتي. وإذا كانت إرادة قادة قسنطينة تتفق مع رغبة الجنرال الفرنسي فإنني أخضع لها بكل سرور»[٦]. وكانت هذه المحاولة الأولى للتفاوض مع أحمد باي، يقوم به جنرال فرنسي.

ولما رجع أحمد باي إلى الحكم في قسنطينة، بعد محاولات من خصومه لمنعه من ذلك، تسلم رسالة من الجنرال كلوزال Clauzel وفيها عرض بالاعتراف بأحمد باياً على قسنطينة على أن يدفع «اللازمة»، وعندما يستسلم، يعطى قفطان الشرف باسم ملك الفرنسيين.

هنا يتصرف أحمد باي تصرفاً حكيماً من الناحية السياسية يقول: «في الحين جمعت الديوان وقرأت عليه رسالة الجنرال. فكان رد الأعضاء أن قسنطينة كانت في الحقيقة تابعة لباشا الجزائر، وتمتثل لأوامره، ولكن الجزائر بدورها كانت تابعةً لسلطان استمبول. ولقبول الصّلح المقترح عليّ يجب أولاً أن أحصل على موافقته والإجابة الوحيدة هي أن نخبر الفرنسيّين بأنّنا نستشير السلطان ثم نرفع الإرادة السنية بكل سرعة إلى الجنرال». ويضيف أحمد باي: «ولم يكن الغرض من الإجابة التي نُصِحتُ بتقديمها سوى تمديدِ المفاوضات وإطالتها. وأجبت كما أشار عليّ الديوان».

وكتب أحمد باي رسالة طويلة مفصلة إلى السلطان، ختمها بقوله: «إنك الآن تعرف كل شيء وأنت صاحب الأمر، فإنني انتظر قرارك». وحمل الرسالة رجلان من أصدقاء الباي، وعادا بعد أربعة أشهر. كانت قد حدثت خلالها أمور في الجزائر، لعل أهمها احتلال عنابة[٧].

وكان جواب السلطان كالآتي:

«إن سلوككم إزاء الفرنسيين والإجابة التي تفضلتم بها عن اقتراحهم ليتفقان في نظري كل الاتفاق مع العدالة. فاثبتوا على هذه السيرة. إنها الوحيدة التي يمكن أن تساهم في خير الإسلام والمسلمين. ومما لا شك فيه أنني أريد نجدتكم، وفي هذه الظروف إنني في حالة سلم مع جميع البلدان المسيحية، ولا يمكن أن اقطع العلاقات إلا إذا وجدت أسباباً (كذا) جدّية للغاية. وإذا قُدِّمت لكم اقتراحات جديدة، فأجيبوا عنها كذلك بتملص، وأوضحوا بأنكم من

رعايا القسطنطينية (استانبول) وبأنه لا يمكن أن تتفاوضوا إلا عن طريقي، وأوصيكم خاصة أن تحيطوني علماً بجميع الاقتراحات التي تعرض عليكم، وأبقوا في طاعتي، ولا تبرموا السلم إلا إذا أمرتكم بذلك. ولا تقلقوا فانني مهتم بكم».

يقول أحمد باي: «وبدا لي أن إجابة السلطان لم تكن مرضية، فقررت أن أرسل من جديد أحد أعواني إلى القسطنطينية، وانتهيت إلى اختيار بلهوان وتكليفه بالذهاب إلى الوزير رؤوف يحمل إليه الرسالة التالية:

«انظروا أيها السلطان كيف أصبحت اليوم ملاصقاً للفرنسيين. لقد استقروا في عنابة وصاروا، في كل يوم يتقدمون ويتحصنون، ومن الممكن أن أُهاجم من لحظة إلى أخرى. وأنا مستعد لأن أضحي في سبيل ديننا الحنيف،. ولأن أهلك دون أن استسلم، إذا كانت هذه إرادتكم. ولكن إذا أردتم أن نقاوم فابعثوا لنا النجدات وعززونا بنصحائكم وجيوشكم. وإذا رأيتم من المستحسن أن نستسلم إلى الفرنسيين، فأمروا بذلك، وإنا سنفعل في الحين. ومن سوء الحظ فإن الوضع الذي نحن فيه لا يشير إلى شيء آخر غير الطريقة الأخيرة. ولكن، بالله عليكم، خلصونا من هذه الحيرة».

ويعلق أحمد باي على وصول بلهوان إلى العاصمة بقوله: «واستقبل الوزير رؤوف بلهوان بشيء من الحذر. وكانت الإجابة تأمرنا بالصبر، وتذكر أن رسولاً سيأتي إلى قسنطينة للاطلاع على حقيقة الأمور»(٨).

وجاء الجزائر حاكم فرنسي جديد هو دو رفيغو De Rovigo فأرسل مع حمدان بن عثمان خوجة إلى الباي أحمد يعرض عليه الاستسلام، مع شروط تشبه الشروط السابقة. وكان الجواب قراراً من جميع الأعيان في المقاطعة إلى حاكم مدينة الجزائر يفنّدون فيه طلبات الجنرال وينهون الرسالة بقولهم: « ... بيد أننا ننذركم بأننا لا نستطيع إبرام أي اتفاق نهائي دون إعلام السلطان محمود الذي هو سيدنا. ولقد أخبرناه بجميع المقترحات التي عُرضت علينا. وإن التفاوض اليوم، دون رضاه، يعتبر عملاً صبيانياً يفنّد كتاباتنا. وعليه يجب أن نكاتب القسطنطينية»(٩).

ووصل إلى قسنطينة كامل باي، المبعوث الذي أرسله السلطان ليطلع على أحوال البلاد. وأمر أحمد باي باستدعاء جميع الأعيان. فخاطبهم كامل قائلاً:

«لقد أرسلني السلطان أعزه الله لأدعم شجاعتكم وأطلب منكم الالتزام بالإيمان والصبر، لأن السلطان محمود قد تفضل بالتفاتة إلى بلدكم، وهو لا يريد أن يتألم مدة أطول؛ ويقوم الآن بإبرام صلح يرمي إلى إبقاء المقاطعة في حوزته بصفة نهائية. وعليه فلا تقبلوا أي شرط دون الرجوع إلى عاهلكم الشرعي. ثم أوصيكم بالاتحاد، وسينصركم الله»(١٠).

وقوبل الخطاب بالتصفيق. وقضى كامل بعض الوقت في ضيافة أحمد باي. وبعد أن عاد أرسل إلى مضيفه رسالة هذا نصها: «بمجرد ما وصلت إلى مقام مولانا الملك، فضحتُ لجلالته جميع الاتهامات المغرضة التي وجهها ضدكم مصطفى حاكم تونس. وإن السلطان

يطلب منكم أن تتسلحوا دائماً بالصبر. وعما قريب سيُبرم صلحاً لفائدتكم، وإذا لم يكن النجاح كما يتمناه، فإنه سيقرر، عندها، نجدتكم بقوات معتبرة. فلا تخفوا عنه شيئاً من أمركم، وإن كنتم تريدون إبلاغه معلومات مهمة، فافعلوا ذلك بواسطة سي الطاهر باشا الموجود في طرابلس، والذي يجب أن تبعث جميع مراسلاتك عن طريقه»[١١].

وقد حارب أحمد باي الفرنسيين كما حارب خصومه من أهل البلاد أحد عشر عاماً بعد سقوط قسنطينة بيد الفرنسيين (١٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٧)، لقي خلالها الكثير من الصعوبات. وأثناء تجوله في الجهات المختلفة، مقاتلاً ومحارباً شجاعاً، وصل إلى مكان آمن نسبياً، فكتب إلى السلطان محمود رسالة فيها عتب شديد على السلطان. قال أحمد باي: «انظروا! إنني رفضت التفاوض مع الفرنسيين وظللت انتظر النجدات التي وعدتموني بها. إنني لم أفعل شيئاً دون استشارتكم والعمل بنصائحكم، وها أنا الآن طردت من قسنطينة وأصبحت أتجول بين الأعراب. هل هذا هو جزاء ثقتي بكم؟ وهل نفّذتم ما وعدتموني به منذ سبع سنوات؟ أليست طاعتي إليكم هي التي قادتني إلى هذا الوضع المؤلم، وهل تتركونني على ما أنا عليه؟ إنني أخبرتكم، وعليكم أن تفعلوا ما تريدون!»[١٢].

ولم يتلق أي جواب عن هذه الرسالة!

٣

وأخيراً استسلم أحمد باي بعد أن أقعده المرض حتى عن ركوب فرسه. استسلم في ٥ حزيران/ يونيو ١٨٤٨. يقول أحمد باي عن تلك اللحظة وماتلاها: «وبالفعل لقد وجدته (الرائد دوسان جرمان)، وبمجرد ما وصلت أسرع إليّ واستقبلني بحفاوة. ثم كرر الوعود التي كانت قد أعطيت لي والتي دفعتني إلى الاستسلام وهي استرجاع أملاكي ومكتسباتي الخاصة، والسماح لي بالذهاب، تحت رعاية فرنسا، إلى أرض إسلامية.

«ولو انني لم أثق كل الثقة في تنفيذه هذه الاتفاقات لهربت، وقد كان في وسعي أن أفعل ذلك بكل سهولة. وعليه فإنني جئت إلى الفرنسيين راضياً تحدوني إرادة «صادقة»، في وضع حد للحرب الطويلة التي ظلت قائمة بيني وبينهم، وذلك بإبرام اتفاق متين وأمان مشرف.

«ولم تدم المقابلة الأولى مع قائد باتِنَة (الذي استسلم له) إلا فترة وجيزة، توجهنا بعدها إلى بسكرة حيث استقبلت بحفاوة وامتياز محاطاً بالاحترام والتبجيل. وأقمت هناك ثلاثة أيام أتمتع بنفس الاستقبال، ثم ذهبنا إلى باتنة. وقد اجتهد القائد بأن يسعد أوقاتي التي أقضيها معه. ووعدني باسم فرنسا، الصدق والأمان وتحقيق ما أصبو إليه. لقد أمضينا يومين معه وفي اليوم الثالث أخذنا الطريق إلى قسنطينة.

«وفي أثناء الطريق استحوذت علي أفكار متعددة «إنني أذهب بلا أملاك ولا قوة إلى المدينة التي رأتني سيداً في أوج عزتي، وحيث مارست سلطة السيادة. ولكن الله كيّف نفسي وتجلّت إرادته. وأي إنسان يستطيع الإفلات من أيدي القدر؛ فسبحان الله وجل جلاله.

«وعندما اقتربنا من قسنطينة خرج أكابر المقاطعة لاستقبالي. ومما لا شك فيه أنهم

أحسوا بالشعور الذي كان يغمرني فأسرعوا للتخفيف مما كان يثقل كاهلي. وذلك عندما جاءوا بعدد من الفرسان توسطتهم ودخلت إلى المدينة.

«وهناك أيضاً حظيت باستقبال رائع، وإن سكان قسنطينة لم ينسوا أبداً «بايهم» القديم؛ ومن الواجب عليّ أن أذكر هنا، وكلي عرفان بالجميل، أنني أثناء الفترة التي قضيتها في المنفى، اتصلت (وصلني) من جميع السكان! فقراء كانوا أم أغنياء ـ بتذكار خالد: فبعضهم أرسل لي الملابس والأغذية والعسل والزبد والفواكه، والبعض الآخر بعث لي، وفقاً لثروته، عدداً من منتوجات مصانعهم كالأحذية والجزامي والتلاليس وغيرها... وقد قام الجميع بإنجاز ما كانوا يعتبرونه واجباً عليهم نحو ملكهم، وإن عدداً منهم كان يرسل إلي ما احتاج إليه.

«لم نبق في قسنطينة الا ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أخذنا طريقنا إلى سكيكدة حيث استقبلتُ بحفاوة بالغة. وانتظرنا فيها يومين قدوم المركب التجاري الذي أقلني إلى مدينة الجزائر. وقد أولانا قائد هذه الباخرة ـ أنا وجميع أفراد أسرتي الذين اصطحبوني ـ كل عناية ورعاية. وبعد إبحار دام يومين وصلنا إلى ميناء الجزائر، وكان ذلك يوم الثلاثاء ١٧ رجب سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨). وفي هذه المدينة أيضاً استقبلت بامتياز»[١٣].

٤

اخترت محطات خاصة من مذكرات أحمد باي، واحدة منها محاولة الفرنسيين التفاوض معه، لكن الواقع لم تكن هناك مفاوضة بالمعنى الصحيح. كانت الرسائل حول «الاستسلام» مقابل مكافأة، ان يظل باي قسنطينة أو ان يضاف إلى المنصب ثوب التشريف الفرنسي.

والمحطة الثانية هي الرسائل التي بعث بها إلى السلطان محمود الثاني والأجوبة التي تلقاها ـ بما في ذلك زيارة كامل بك (باي!) ـ وآخر رسالة فيها العتب الشديد، ولكنه مؤدب.

والمحطة الثالثة هي الرحلة الأخيرة. خصوصاً دخوله قسنطينة ـ وما كان يدور بخلده، وهو في طريقه إليها، والاستقبال الذي لقيه ـ أنا واثق من أن عيني أحمد باي امتلأت بدموع الفرح لما خرجت فرقة الفرسان ليتوسطها كي يدخل المدينة على نحو ما كان يدخلها باياً.

وهناك أمور أخرى يمكن أن ينقب عنها في مذكرات أحمد باي. ولعل من أهمها التأكد لا من صحة الحوادث، ولكن من صحة الرواية. فأنا لم أشعر أن أحمد باي كان يعتذر عن أعماله. في المذكرات نفحة من صدق وإخلاص. لكن الأمر يحتاج إلى بحث وبحش، وتنقيب ونكش. وإلى ذلك فلينصرف أصحاب النظر.

وأخيراً، فلأنقل للقراء الكلمات الأخيرة من مذكرات الحاج أحمد باي، باي قسنطينة. قال، إنه بعد أن وصل إلى الجزائر واستقبل بامتياز: «وخصصوا لي داراً استطعت أن أسكن فيها مع أسرتي وخدمي، ثم قُدِّمت إلى الوالي العام الذي أسمعني، باسم فرنسا، عبارات في مستوى أمته. وإني الآن انتظر إنجاز الوعود التي أعطيت لي، وكلي ثقة في الله وخضوع لإرادته.

ويضيف محمد العربي الزبيري، محقق هذه المذكرات، تعليقين: الأول أنه خصصت للباي أحمد منحة سنوية قدرها ١٢,٠٠٠ فرنك. وإنه مات في الجزائر سنة ١٨٥٠ ويوجد

ضريحه داخل زاوية سيدي عبد الرحمن (وقد زرت ضريحه في إحدى زياراتي العديدة للجزائر ـ المؤلف). وهكذا، فإن فرنسا لم تنجز وعودها وأرغمته على البقاء في مدينة الجزائر تحت رقابتها. والثاني قول الباي: «أحمد الله أن سلط عليّ عدواً في مثل هذه القوة». وقال عنها الزبيري إنها جملة أخيرة في نسخة أخرى من المذكرات (طبعاً النسخة بالفرنسية، لأن الأصل العربي مفقود)(١٤).

الهوامش

(١) محمد العربي الزبيري، **مذكرات أحمد باي**، ط ٢ (الجزائر، ١٩٨١) مذكرات أحمد باي، الذي كان باياً لقسنطينة في الجزائر (١٨٢٦ ـ ١٨٣٧)، نشرت بالفرنسية في المجلة الافريقية (Revue Africaine) سنة ١٩٤٩، ولم يعثر على النص العربي الأصلي لها. لذلك نقلها محمد العربي الزبيري عن واحدة من النسختين الفرنسيتين اللتين تحويان ترجمتين مختلفتين للنص الأصلي. وفي الكتاب المذكور هنا توجد مقدمة للزبيري (ص ٥ ـ ٨) ثم تأتي المذكرات ص ١١ ـ ١٠٢ وأضاف الزبيري برقية من الوالي العام الفرنسي إلى وزير الخارجية ملحق ١ ص ١٠٣ ـ ١١١ وترجمة لأحمد باي وضعها أحمد بوضربة (ملحق ٢ ص ١١٥ ـ ١٢٥). ومقالاً عن حمدان بن عثمان خوجه الذي كان أحد رجال تلك الفترة، (ص ١٢٩ ـ ١٤٤). ونص مذكرة رفعها حمدان خوجة إلى اللجنة الأفريقية سنة ١٨٣٣ تتعلق بالحالة في الجزائر (ص ١٤٧ ـ ١٦٨)، ومذكرة رفعها أحمد بوضربة إلى اللجنة الافريقية (ص ١٧١ ـ ٢٠١).

(٢) راجع حول هذه الأمور:

Charles-André Julien, *Histoire de L'Algerle Contemporatine* (Paris. Presses Universitaires de France. 1964), pp. 54 -163, Magali Morsy, *North Africa 1800-1900* (London, 1984), pp.135 - 138.

وأديب حرب، **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري**، ٢ ج، (الجزائر، ١٩٨٢)، ص ٤٧ ـ ٦٤. في الهوامش الواردة في الصفحات المذكورة مصادر ومراجع كثيرة لمن رغب في الحصول على تفاصيل أكثر.

(٣) الزبيري، **مذكرات أحمد باي**. ص ١١٥ ـ ١٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١. جميع الإشارات الواردة في الهوامش ٤ الى ١٤ تشير إلى الصفحات في المذكرات.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢ ـ ١٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢٨.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٣٢.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(١١) المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(١٣) المصدر نفسه، ٩٩ ـ ١٠٢.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

٧ ـ الشيخ محمود قبادو وديوانه

١

تمتد حياة الشيخ محمود قبادو عبر الجزء الأكبر من القرن الماضي، وتتفق أيام نتاجه الخصب مع فترة النهضة التونسية التي عرفتها تلك الديار أيام ثلاثة من البايات هم: أحمد المشير (١٢٥٢ ـ ١٢٧١هـ/ ١٨٣٧ ـ ١٨٥٤م)، ومحمد (١٢٧١ ـ ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٤ ـ ١٨٥٩م)، ومحمد الصادق (١٢٧٥ ـ ١٢٩٩هـ/ ١٨٥٩ ـ ١٨٨٢م).

وقبادو الشاعر كان واحداً من رجال النهضة التونسية في القرن الماضي، لا من حيث انه شاعر فحسب، ولكن من حيث انه مفكر كبير، على ما سيتضح لنا من هذا الحديث الذي نسوقه عنه الآن.

وليسمح لنا القراء في أن نعود قرنين وبعض القرن زمنياً، لنشير إلى ما أصاب تونس في الفترة العثمانية التي بدأت سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م. ورغبة منا في تجنب التفصيل حول هذه القضية، فإننا نقسم هذه الفترة إلى قسمين: الأول هو عهد الحكم المباشر الدايات والبايات (٩٨١ ـ ١١١٧هـ/ ١٥٧٤ ـ ١٧٠٥م)، والثاني هو العهد الحسيني.

فالحكم المباشر هو الذي استنه سنان باشا لما احتل تونس. فقد ألحقها بالولايات العثمانية وكان يتولى أمرها وال له تصرف مطلق في شؤونها. ووضع تحت تصرفه أربعة آلاف من الانكشارية كان رئيسهم يسمى الآغا، وخصص موظفاً يعرف بالباي لجباية الأموال الأميرية. كما كان القبودان هو المشرف على الشؤون البحرية. وجُمع هؤلاء جميعاً في ديوان مقره الحاضرة، وقد ينضم إليه بعض الأعيان للمشاورة. لكن الموظفين جمعوا السلطة والفائدة والمنافع في أيديهم ولحسابهم. فثار الجند واختاروا أحد الدايات (وهو رئيس فرقة من الانكشارية) للقيام بالإشراف على الجند وتأمين النظام في البلاد. وقد دامت هذه الفترة قرابة نصف قرن من الزمان، تمتعت فيه البلاد بحكم قوي. وقد هبطها الآلاف من مهاجرة الأندلس، الذين وزعوا على الريف والمدينة، فأحيوا الأرض وأنعشوا الصناعة في الحاضرة وسواها من المدن التونسية. كما أدخلوا صناعات جديدة مثل الشاشية (الطرابيش) ونسج الحرير ونقش الرخام وصب الجبس وصنع الزليج (القيشاني). ونشطت القرصنة التونسية يومها أيضاً. وحري بالذكر أن القرصنة لم تكن تعتبر يومها سوى صناعة من صناعات الحرب، يمارسها جميع السكان على شواطىء البحر المتوسط. وبنيت بعض الحصون وأصلحت الحنايا (أقنية المياه) الحفصية.

دالت دولة الدايات وجاءت بعدها دولة البايات. وقد اختلف البايات فيما بينهم وتنافسوا

على نحو ما اختلف الديات من قبل وتنافسوا، وكان أن أصيبت البلاد بالنكبات الكثيرة، بحيث تخلفت الزراعة وتأخرت الصناعة وسادت الفوضى.

وفي سنة ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م تولى حسين بن علي شؤون تونس بعد أن نودي به، ووافقت الدولة العثمانية على ولايته. وكان هذا بدء الأسرة الحسينية (١١١٧هـ/ ١٧٠٥م ـ التي دامت في الحكم إلى سنة ١٩٥٧).

وهنا يجدر بنا أن نلقي نظرة على ما كان يحمل من تونس إلى الدولة العثمانية. فقد «تقرر من الحقوق التي رسمتها الدولة لتونس عند فتحها هو إعانة الدولة العثمانية بالسفن الحربية وما يلزمها في الحروب؛ وهدايا ترسل من الوالي إلى دار الخلافة عند ولايته أو عند ولاية سلطان جديد أو عندما توجد مناسبة للإهداء. والأغلب في هذه الهدايا أن تكون من إنتاج البلاد كالخيل والحيوانات الغريبة من الصحراء، والمنسوجات الحريرية والصوفية، ومنها راية متقنة تصنع عند ولاية السلطان فقط، ويكتب فيها آيات قرآنية كريمة وأبيات من البردة وتزركش بالفضة. ومنها أيضاً السروج المحلّاة وسبح المرجان والعنبر والطيب والأسلحة المرصعة بالمرجان. ومنها التمر والزيتون والسمن والشمع». إلا أن هذه الهدية توسع نطاقها مع الوقت فأصبحت «من المال والمجوهرات، ولذلك أصبحت عبئاً على أهل البلاد». وقد كانت الهدية أصلاً برسم السلطان فأصبح الآن الذين تصلهم الهدايا، فضلاً عن الذات السلطانية، الصدر الأعظم وخواص الوكلاء مثل قبطان باشا والسر عسكر وأمثالهم. ففيما استن سنان باشا الأمور على قدر ما يستطيعه البلد، ضاعفها أصحاب الأمر مرات.

وفي العصر الحسيني الأول الذي يمتد حتى سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٧م، بليت البلاد بحروب داخلية كثيرة، كما تعرضت لهجوم من الجزائر، وتنمّرت فرنسا بسبب ترخيص لفرنسيين بصيد المرجان، لكن الأمر سوِّي. وأسهمت تونس في الحرب العثمانية الروسية (١٧٧١) بسفن (كان عددها خمساً أو ستاً) محملة بالذخيرة والميرة والجنود.

وقوي النفوذ الفرنسي تدريجاً، وخصوصاً بعد احتلال فرنسا للجزائر (١٨٣٠)، كما أن انكسار الأسطول العثماني قبل ذلك في معركة نفارينو (نفارين) سنة ١٨٢٧ كان ذا أثر بالغ في تمييع العلاقة بين تونس والدولة العثمانية.

٢

يقول الدكتور الهادي حمودة الغزي في كتابه الأدب التونسي في العهد الحسيني: «وكانت تونس في مطلع القرن الثامن عشر وأول العصر الحسيني لا تختلف عن سائر الولايات العثمانية في الجمود والركود الفكري والكساد الأدبي. وما يوجد فيها من المعارف قديم تطور الزمن وبقي على حاله. وهو لا يتعدى الدراسات الفقهية واللغوية وحواشي الكتب القديمة وما عليها من الشروح. وكانت الدروس غير مضبوطة ولا منظمة. وغاية ما يحصل عليه التلميذ في المرحلة الابتدائية القرآن الكريم وحفظ المتون ويكون هذا في الكتاتيب. ثم يدخل المرحلة الثانوية وهذه كان مجالها الزوايا والمدارس... أما العلوم التي تدرس فعلوم نظرية مقصورة

على الفقه والأصول والتفسير البلاغة واللغة والتاريخ. ولم نر في العصر الحسيني أثراً للدراسات التطبيقية كالرياضيات أو الطب مما نتج عنه ركود فكري عام».

على انه كان لا بد لتونس، وقد أخذت بأساليب تقدم الدولة العثمانية ومصر وبلاد الشام، من ان يصيبها من النهضة والتقدم حظها. وقد عمل البايات الثلاثة المشير أحمد باي ومحمد باي ومحمد الصادق باي في سبيل ذلك الكثير.

فالمشير أحمد كان يخطط وينظم، وقد أنشأ المدرسة الحربية في باردو (١٢٥٥هـ/ ١٨٤٠م). وكانت هذه المؤسسة، على قصر عمرها، نقطة التقاء للشيوخ المدرسين فيها وللتلاميذ الذين انضموا إليها مع الأساتذة الأوروبيين الذين درّسوا فيها. كما عني المشير أحمد بالإدارة العامة وبالجيش والأسطول واهتم بجامع الزيتونة. وفي أيام محمد باي نشر «عهد الأمان» وأنشىء المجلس الشرعي والمجلس البلدي وأدخلت الطباعة العربية الحرفية. وشهدت أيام محمد الصادق باي، خصوصاً بعد أن تخلص من الوزير مصطفى خزندار، إنشاء الرائد التونسي والمدرسة الصادقية. هذا فضلاً عن إصلاحات ثورية إدارية وقضائية واقتصادية وتعليمية، وهي شؤون لا نستطيع تفصيلها هنا، والتي يرجع الفضل فيها لخير الدين لولب الإصلاح، خصوصاً لما تولى الوزارة (١٢٩٠ ـ ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧م). لكن خصوم خير الدين نجحوا في زحزحته عن رئاسة الوزارة، فغادر تونس إلى الاستانة (١٨٧٨). وهناك ولاه السلطان العثماني رئاسة الوزارة في العاصمة.

في هذه الفترة المهمة من تاريخ تونس عاش الشيخ محمود قبادو. ويتحتم علينا، قبل أن نتحدث عن دوره في الحركة الإصلاحية، ان نورد هنا خلاصة لترجمته في الأدوار الأولى من حياته.

ولد أبو الثناء محمود قبادو في تونس (١٢٢٨هـ/ ١٨١٢م) وتلقى تعليمه الأول في مدارسها المعروفة. لكن محمود قبادو كان ينكب على قراءة كتب التصوف. وخرج من تونس إلى طرابلس حيث التقى بمحمد ظافر المدني، صاحب الطريقة الصوفية المشهورة، فلازمه في زاويته. ولما عاد إلى تونس، بعد ثلاث سنوات (١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م)، كان مُعداً إعداداً تاماً للتدريس، ومع ذلك فقد حضر دروس أئمة الجامع الأكبر، جامع الزيتونة؛ فلما تم له ما أراد تفرغ للتدريس.

لكن قبادو لم يلبث أن ذهب إلى روما، ومنها انتقل إلى الاستانة. وعاد إلى تونس (١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م). وقد كان لهذه الرحلة أثر مهم في تفكيره. فقد انصرف في تركيا إلى العلوم الرياضية، ويبدو انه اطلع على نواح من التاريخ لم تكن ميسرة في تونس. وصقلت الاتصالات هناك والمناقشات قدرته البيانية ودربته على المقارعة والمحاجة فكراً وكتابة وشعراً.

في سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م أنشأ المشير أحمد باي مكتب العلوم الحربية (أو مكتب المهندسين) في المحمدية، على نحو عشرة أميال من الحاضرة. كانت الغاية من إنشاء هذه

المؤسسة إعداد الضباط التونسيين للخدمة في الجيش. كان مدير المدرسة إيطالياً، أما الأساتذة فكانوا ايطاليين وفرنسيين وبريطانيين. وكان الإشراف على المدرسة لخير الدين. وجاءت عودة قبادو من الاستانة قريبة من افتتاح مكتب العلوم الحربية، فعُين فيها أستاذاً للعربية ومدرساً للعلم الرياضي ومشرفاً على الشؤون الدينية للطلاب: «وعهد إليه، بالإشتراك مع المدير الإيطالي، ونخبة من طلبة المؤسسة في تحرير خلاصة دروس الأساتذة الأجانب وترجمة كتب أوروبية في الفنون الحربية. وقد بلغ عدد الكتب التي ترجمت على هذه الطريقة أربعين كتاباً». وما زال ثمة آثار من هذه الكراريس في تونس هي بحاجة إلى الكشف عنها، لتوضيح دور الجماعة التي عملت فيها، على الأقل.

وقد أدى وجود هذه المؤسسة، على ما يرى زين العابدين السنوسي (محمود قبادو، تونس ١٩٥١) إلى «امتزاج أفراد من أساتذة الغرب، بأستاذ عظيم من علماء الزيتونة، الذي هو مركز الحياة العلمية الإسلامية بتونس في ظل القصر الملكي وبتأييد الملك وتشجيعه، ورعاية وزيره وشيخ دولته، ومباشرة نابغ من صفوة حاشيته، لجدير بأن يحدث احتكاكاً بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية، تتقدح منه شعلة مذهب فكري حقيقي، له نظرياته الأصلية وقواعده الأساسية، واتجاهاته المجردة التي تصور الأشياء على ما هي عليه حقيقتها وذاتها».

ولما أقفل المكتب الحربي بعد وفاة المشير أحمد باي، انتقل قبادو إلى الزيتونة شيخاً من شيوخ الطبقة الأولى. وفي أيام محمد الصادق باي ولي قضاء باردو ثم الفتوى على المذهب المالكي. وكان أيضاً متولي تحرير الرائد التونسي. وظل في ذلك إلى حين وفاته سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، أي قبل أن تحتل فرنسا القطر التونسي بعشر سنوات.

٣

يعتبر محمود قبادو من سادة القلم في تونس في أواسط القرن التاسع عشر، وهذا ينطبق على نثره كما ينطبق على شعره. ودوره في تونس أنه واحد من قادة الحركة الإصلاحية النابهين. فهو وخير الدين هما اللذان دفعا بفكرة الاصلاح بعيداً. ولا يمكننا في مثل هذه العجالة ان نفي محمد قبادو حقه، لذلك فإننا سنكتفي بأن نضع بين يدي القراء ما يمكن ان يعتبر صُوىً على الطريق.

تكمن أهمية محمود قبادو المصلح الخاصة في أنه أدرك العلة في التأخر الذي منيت به الأمة، وخلص باجتهاده وتفكيره، إلى وصف العلاج. وهناك أمران يتضح فيهما موقفه من الأمة بشكل خاص. أما الأول فهو رأيه في الحكومة، وأما الثاني فرأيه فيما يتعلق بالعلوم اللازمة للعالم الإسلامي، كما كان يرى القضية.

أما رأيه في نوع الحكم فقد ذكره في رسالة نشرت سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، وها نحن ننقلها بنصها راجين من القراء تحمل هذا السجع الذي لم يكن قبادو يتخلى عنه، لكنه سجع ليس بالثقيل، قال: «.... ولما كان العدل نظاماً لعقد العمران. وعهداً لخلافة الإنسان، وجب أن يُتحرى في تحصين سياجه عن تطرق الظنن، وترصين معلقه بتظاهر المنن؛ ووزع نوازع

الاهواء عن استباحته، والأخذ بحجز الآراء إلى حماية ساحته. ولغلبة سلطان الهوى بما له من الأصالة، على وزعة الدين والمروءة والحياء المعبِّر عن مجموعها بالعدالة؛ تعسّر ان يستعصم غير المعصوم عن داعية هواه، الا بالانقياد لسواه. فالرئيس مفتقر في شد أزره، إلى الإشراك في أمره؛ والمرؤوس مكلف بانشراح صدره، للإذعان في المنشِّط والمكره. ومن ثم كانت يد الله مع الجماعة، وعصم الإجماع إلى يوم الساعة. ولم تزل الشورى في كل ملمة، ديدن السلف الصالح في هذه الأمة؛ حتى أثنى عليهم الكتاب المجيد، إشارة إلى انها من سننهم التي تنكبها ضلال بعيد، ومثّل في الإنجيل ما لهم من المؤازرة بزرع أخرج شطاه فآزره. ومن سبر بمسبار الروية أغوار السير، وجس بأنامل الألمعية نوابض البدو والحضر؛ واستشرف على استشراء الممالك الأورباوية وتغطرفها، واستئسادها وتصلفها؛ بما فوّقته من ابراد الحضارة، وما أورفته من ظلال العمارة؛ لا تخامره ريبة في انها نتائج متناسقة الكعوب ومفارس متضامنة الجنوب. سنخها (أي رسّخها) تضافر العزائم والألباب وانعطاف بنات اللباب، على إطراح الأغراض الشخصية للمصالح الكلية. ثم إذا عطف أعنة النظر إلى الممالك الإسلامية وتقراها، وجاس خلال مدنها وقراها؛ وتبيّن ما منيت به من تزايد الغمرات، وتناقص الأموال والأنفس والثمرات؛ لا يتمارى في ان حَورها بعد الكَور، وارتدادها عن النجد في حافرة الغور، ليس إلا لعدم رعاية الحقوق العامة حق الرعاية، وفشل الحمية بالتنازع المفضي إلى ذهاب ريح الحماية. فكأنها مسارح جياد ركبت أرسانها، وألفت مرحها واستنانها، لا تكاد تسمح لرعاتها، بالتخلي عن مألوفاتها. فهي مفتقرة إلى تدبير سياسي، في تأليف ايناسي، يلهب حميتها إلى مساعفة الراضة ويهب اريحيتها إلى مساهمة الأمة المرتاضة».

أما دعوته إلى الاهتمام بالعلوم الرياضية فقد جاءت في مقدمة طويلة لترجمته لكتابين في الحرب وتعبئة الجيوش. كلف قبادو بالقيام بذلك أيام كان في المكتب الحربي. وقد تمت الترجمة، ونقحها قبادو إذ وضعها في قالب عربي مبين. إلا انه كتب مقدمة لذلك (منشورة في ديوان قبادو، تونس ١٢٩٥هـ/ الجزء الثاني، ص ٣٢ ـ ٥٨). وفي هذه المقدمة بين رأيه بالتفصيل في أهمية العلم. وها نحن ننقل هنا قطعة صغيرة من تلك المقدمة. قال: «.... فإن الدولة الإسلامية لما نُشرت لها راية الرعب، وخفقت في كل قلب، لم تزل الكفرة في طلاب المنجاة منها تمشي تحت كل كوكب، وفي ارتياد المفازه عنها تنتشق كل كوكب... إلى ان قضى القدر المتيح والجد المريح بأن يكون إقبال المراد وابقال المراد في هذا العصر الحديث غب ذلك السعي الحثيث... فاستحدثوا (أي الفرنج) تلك الطاقة الكبرى التي هي إحدى الكبر، وذات الودقين التي لا يعفو لها اثر، لواحة البشر لا تبقي ولا تذر: الصواعق الصناعية، الصادرة عن الأسلحة النارية؛ فاداروا بها دائرة البوار، على اليلب المدار... ولما طبقوا بها من أمنيتهم المفصل، وأصموا من رميتهم المقتل... عطفوا أعنة أفكارهم إلى مقدمة جنودهم وساقتها، وصرفوا وجوه أنظارهم إلى قلبها وبحبوحتها، وعادلوا في كفتي التمييز بين ميامنها ومياسرها، وشنوا غارات التنقير بين جحافلها ومناسرها؛ فوجدوا الهيئة التي أفرغ القدماء

الكتائب في قالبها، ونظموا الجنود في سلك مراتبها؛ ليس بينها وبين سلاحهم الناري موافقة... فرغبوا عنها إلى التعابي التي راضوا بالعلوم الرياضية صعابها، وفتحوا بأقاليد التجربة أبوابها. ولم يزالوا كل آونة يزيدون نغمة في طنبورها، وبلبلاً في صنبورها: يوزعون لها كافة أوزاعهم، ويجتابون بها أودية افزاعهم. وصدقت فيهم كلمة الله العليا، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. فقل لا قوام عن سنن عوائد الله يعمهون، وفي تيه إطراح الأسباب يهيمون؛ قد برح الخفاء ولكن لا تفهمون، أم هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. أولئك قوم أتوا البيوت من أبوابها وادمنوا ولن يجيب سبحانه سائلاً بلسان القابلية بمنع. وإنما الحرمان ان تُتنكب السبل عن ضلّة أو يأس، وقد قال سبحانه وتلك الأيام نداولها بين الناس... على أني أقول كم للعلوم الرياضية والطبيعية في الصحائف الإسلامية من خيرات حسان...».

ويعود قبادو فيتحدث عن النقص القائم في عالمه فيقول: «وحسبك جلاء لعدم ارتياضهم بالرياضية وانطباعهم بالطبيعية، ان ليس بين أظهرهم بالمرايا المحرقة خبير، ولا يعرف منها قبيلاً من دبير. بل ربما عدها من رانت على قلبه الكثافة، من خُزعبلات خرافة، مع ما لها من الجدوى والمزية، مربياً على أسلحتهم النارية».

(ولا شك في أن القراء يعرفون أن خير الدين له كتاب اسمه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» عرض فيه أراءه الإصلاحية. وقد كنا نود أن نعقد مقارنة بين الرجلين وآرائهما، لكن ذلك أمر يطول).

ولما عاد قبادو إلى الزيتونة بعد إقفال مكتب العلوم الحربية، نشط في نشر آرائه بين جماعة من الزيتونيين، كان في مقدمة الذين اعتنقوا الأفكار وساروا يبسطونها بعد وفاته، سالم بوحاجب ومحمد بيرم، كما تميز من طلابه في المكتب الحربي الوزيران حسين ورستم.

٤

وهناك بطبيعة الحال محمود قبادو الشاعر.

لما قرأت ديوان قبادو (جمع وإشراف: محمد السنوسي، تونس، ١٢٩٥هـ) لأول مرة اتعبني. لكن إعادة قراءته، أو قراءة أجزاء منه فيما بعد، أظهرت لي شاعراً فحلاً (لنترك جانباً مقطوعاته الصغيرة العادية، التي لا يخلو منها شاعر عموماً). في شعره عذوبة وجزالة وفكر. فالرجل صاحب أسفار، وابن معرفة، وخدين تجربة. وهذه متى أتيح لصاحبها الملكة اللغوية تفتقت عن أمور جديرة بالعناية. ومحمود قبادو، فيما أستطيع القول، كان من خير من عَنت له العربية في العصر الحديث.

وقد لخص الدكتور الهادي حمودة الغزي دور قبادو كشاعر اجتماعي بقوله: «.... فالشعر الاجتماعي بشر به الشاعر الحسيني من فجر القرن الثامن عشر، وأفاض فيه في القرن التاسع عشر. وحين جاء قبادو وجده فناً فنهجه ووضحت على يده معالمه. فهو تابع لا متبوع، ومقلد لا مبتكر»، وأضاف: «.... ومهما يكن من أمر فإن قبادو أول شاعر حسيني يعير الجانب الاجتماعي اهتماماً كبيراً في ثنايا قصائده».

لست أشك في أن القراء يحبون ان نضع بين أيديهم نماذج لشعر قبادو. وسنفعل ذلك، لكننا سنقتصر على مقطوعات قصيرة، فقد طال المقال.

قبادو كان، من حيث موضوعات الشعر، على غرار معاصريه. فقد نظم مهنئاً ومادحاً وراثياً ومتأملاً في الحياة وفي الإصلاح. ونفحته الشعرية، التي تثير القارىء، موجودة في الكثير من شعره.

وأود أن اختار مقطوعتين في الرثاء، الواحدة من قصيدة طويلة له في رثاء محمد بيرم الرابع شيخ الإسلام. جاء فيها:

فـــالقلب بين تلهّف وتلهّب — وتحسر وتأسف متوزع
والعين بين تأرق وتدفق — وتقلب وتشوف تترجع
والجسم في رحضائه مستغرق — فكأن سائره عيون تدمع
تبكي لمصباح طوت مشكاته — نوراً به تُجلى القلوب السفّع
كيف العزاء وماله من خالف — ومصاب من عدم الخليفة أفجع
لله أفئدة هنالك أضرمت — وجدا، وأكباد هناك تقطع
مما يسلّي أهل ودك علمهم — ان الممات سبيل دار تجمع
ويقينهم ان الممات ولادة — وجميع من في الأرض حمل يوضع

والثانية من قصيدة رثى فيها مصطفى البلهوان جاء فيها:

سائل النفس قبل فوت الأوان — ما أعدت لمثل هذا المكان
يا خليلي خبراني بحق — هل أهذي نهاية الإنسان
هو والله ما علمنا ولكن — رب وهم غطى على برهان
ان ريب المنون ليس بريب — لا على سوقة ولا سلطان

أما المقطوعة الثالثة فهي من شعره الديني. فقبادو كان يلقب بالشريف، ومعناه انه ينتمي لآل البيت. فقصيدته المسماة «عقد اللآل في التوسل بالنبي والآل».

بجاهكم أحتمي من حسّد أكلوا — لحمي وأوهوا بناء مجدي بما رجموا
لكنني صنت عن نفسي مواردهم — وقلت حسبي فيهم من هو الحكم
ولا استجيز لأهل الفضل منقصة — ولا أحاربهم سوءاً وان ظلموا
هذه نفثة المصدور قد قذفت — من مقولي الصدمة الأولى وتنفصم

وهذه أبيات ثلاثة تحتوي على بعض ما ورد في رسالته عن نوع الحكم. يقول:

العدل عهد خلافة الإنسان — ومداد ظل الأمن والعمران
وتمدن البشر اقتضى ايلافهم — بتعاضد من دائن ومدان
وتطامح الخلطاء لاستبدادهم — بالقتل داعيهم إلى العدوان

لما طبع الجزء الأول من ديوان قبادو أرسل محرره محمد السنوسي نسخاً منه هدايا إلى عدد من أهل العلم والفضل في تونس ومصر والحجاز وبلاد الشام. وقد وصلت من هؤلاء

تقاريظ للكتاب، منها الشعري ومنها النثري.

والظاهرة التي تلفت في هذا الأمر، هذا التواصل الذي كان قائماً بين أهل الفكر على تباعد الديار، وصعوبة التواصل والاتصال. فمن المدينة المنورة كتب الشيخ علي الوتري وإبراهيم سراج. وكتب من مكة المشرفة (كما سماها السنوسي في الديوان) أحمد أديب القرشي. وجاءت من مصر رسائل من الشيخ محمد أحمد النجار (من الأزهر) ومن تادرس وهبي معلم اللغات بمدرسة حارة السقايين. وكتب من بيروت كل من إبراهيم الأحدب محرر ثمرات الفنون ورئيس كتاب المحكمة الشرعية والسيد حسين بيهم. وثمة أسماء أخرى كثيرة.

هذا نموذج من تواصل العلماء في القرن التاسع عشر.

٨ ـ أبو القاسم الزياني وكتابه الترجمانة الكبرى

١

من المألوف، عندما نود أن نتحدث عن كتاب ومؤلفه، أن نعرض لحياة المؤلف أولاً، ثم ننتقل إلى الحديث عن الكتاب. لكننا نود في هذه المناسبة، أن نعكس الترتيب، فنتحدث عن الكتاب أولاً، ثم ننتقل للحديث عن المؤلف.

«الترجمانة الكبرى في اخبار المعمور براً وبحراً» كتاب طريف،إن لم نقل إنه فريد، من نوعه. فهو كتاب يحوي، كما قال عنه مؤلفه في خاتمة كتابه: «هذه الرحلة المسماة الترجمانة الكبرى التي جمعت مدن المعمور كله براً وبحراً، لم تقتصر على ما جمعه ابن عبد المنعم في «الروض المعطار»، وما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار والقفار، وما في «خريدة العجائب» من الجزر والعيون والآبار والأنهار، وما في عجائب المقدور من نفائس الأخبار، وما كان بعدهم من الحوادث والآثار. وأبرزت ما أغفلوه أو لم يكن لهم به شعور وإنذار. وحليتها بحوادث ونوادر وحكايات، جلبها المؤرخون الكبار كالإمام ابن قتيبة والمسعودي والطبري والذهبي وابن عساكر والبكري والبلاذري وابن كثير وابن خلدون... قيدنا من عذر كلهم أوفر نصيب، وما يناسب ذلك من البراهين القاطعة، من التفسير والفقه والحديث، شواهد العرب قديمهم والحديث، للرد على اليهود والمجوس وأهل التثليث، وأهل البدعة والاعتقاد الخبيث... وكان الفراغ من تخريجها في ثاني عشر المولد الشريف من عام ١٢٣٣ على يد أفقر العبيد وأحوجهم لرحمة الله ومغفرته بلقاسم بن أحمد الزياني، غفر الله ذنبه وستر عيبه، آمين».

فالترجمانة الكبرى، التي هي بين أيدينا الآن، والتي حررها ونشرها عبد الكريم الفيلالي في الرباط ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، هي على ما يصفها مؤلفها، فضلاً عما تحتويه مما نقل عن أصحاب كتب الجغرافية والرحلة والتاريخ، تضم أنواعاً من المعارف حصل عليها الزياني نفسه أثناء تنقله ورحلاته.

فقد كان أبو القاسم الزياني عندما يزور مكاناً يصفه جغرافياً كما عرفه شخصياً، وينقل عن الأوائل ما رووه وصفاً له وتاريخاً لأحداثه. وفي الكتاب معلومات أثرية هي طبعاً وصفية أكثر منها كشفية أو تنقيبية. وكان الزياني يتنقل في البلاد مفتح الذهن والعين والأذن، كان مستعداً ان يعرف وأن يتعلم. ولكن الزياني أدرك أيضاً أنه ثمة مناطق لم يزرها، وأراد لقرائه ان يعرفوها، فنقل أخبارها ـ الوصف الجغرافي أولاً، والحدث التاريخي ثانياً ـ عن أهل العلم الماضين.

وقد زار الرجل مصر وبلاد الشام وبلاد الأتراك، فكان ما كتبه جماع المعرفة الشخصية والمادة المدونة. لكنه لما تناول الصين والهند وأقاليم العالم وأنواع الأحجار ـ ونحن نكتفي

هنا بالأمثلة ـ فقد نقل ما جاء في الترجمانة عن مصادر قديمة (أو لعل بعضها كان حديثاً نسبياً) ولكنه نقل ورتب ودوّن، دون أن تكون له معرفة مباشرة بأي من تلك الجهات أو المناطق. وقد يحدث أنه شافهَ بعض من لقيه فحصل منه على قصة أو حديث أو وصف لمكان ما ـ قد يكون شاهده وقد لا يكون زاره ـ فيضمه إلى ما رواه أو نقله.

إلا أن هذا الجزء من الترجمانة، هو الجزء الأقل أهمية في رأينا. ذلك أن الأصل في هذا الكتاب أنه يدور حول مؤلفه. فهو أساساً ترجمة ذاتية، ولو أنها ليست تامة، وتسجيل دقيق لما شاهده وزاره ورآه من الأماكن، وتوثيق لما دار من الحديث مع أولئك الذين اجتمع بهم في الديار المقدسة ومصر واستانبول وشمال افريقيا. فالمحور الذي تدور الترجمانة الكبرى حوله هو أبو القاسم الزياني.

ومن الأمور المستملحة في «الترجمانة»، هو ان مؤلفها لم يقتصر على التدوين، بل انها تحوي الرأي الخاص. فالأفراد الذين يلقاهم أبو القاسم، والأحداث التي يدونها، كثيراً ما يضيف إليها حكمه أو رأيه أو انطباعه.

وثمة أمر آخر حري بالاهتمام في الترجمانة، وهي انها كتاب يقرأ بكثير من المتعة. فأسلوبها طلي، والسرد فيها جلي، واللغة سلسة مطواعة. وقد يشعر القارىء انه يمكن ان يمر بالأقاليم وذكرها لماماً، لكنه لا يمكنه أن يفعل ذلك عندما يكون «أبو القاسم» محور الحديث.

والترجمانة موثقة بالنسبة الى المنقول. فهي كما يقول مؤلفها عنها، المروي والمأخوذ والمقتبس والمنقول عن الآخرين باد للعيان واضح للقارىء لا لبس فيه ولا إبهام.

والترجمانة تروي أخبار رحلات ثلاث قام بها المؤلف: «الأولى إلى الحجاز ومصر (١١٦٩ ـ ١١٧٢هـ/ ١٧٥٥ ـ ١٧٥٨م)، والثانية كانت إلى الآستانة سفيراً لملك المغرب (١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م، والثالثة كانت زيارة للمشرق (١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م)، ولست أكتم القراء أن هذه هي أطرف أقسام الترجمانة، وأكثرها إمتاعاً.

٢

ولد أبو القاسم الزياني، مؤلف الترجمانة الكبرى، في فاس سنة ١١٤٧هـ٢٥٦ ١٧٣٥م. وكان جده يؤم الصلاة في عهد المولى إسماعيل، سلطان المغرب (١٠٨٢ ـ ١١٣٩هـ/ ١٦٧٢ ـ ١٧٢٧م). وقد مر المغرب، بعد وفاة إسماعيل، بفترة كانت غاية في الاضطراب. لذلك اعتزم عمر، والد أبي القاسم، الرحيل عن المغرب والاستقرار مجاوراً في المدينة المنورة. فحزم أمره وخرج سنة ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م، بعد أن باع دارين كان يملكهما بفاس، وكتباً كان والده قد خلّفها، وجمع من ذلك ما يبلغه مراده.

كان أبو القاسم في الثالثة والعشرين من سنه لما رحل مع والديه عن المغرب. وكان قد تلقى العلم عن أبيه وأصدقاء أبيه، وهم في الطبقة الأولى من أهل المعرفة في فاس. فنال حظه من الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق. وكان ثمة كناش لجده، فضلاً عن كناشات العائلة الأخرى، هو الذي نبهه للتاريخ والأنساب. ويرى الأستاذ عبد الله كنون ان هذا الكناش كانت فيه بعض أسرار الحرف والجدول وغيرهما.

بلغت الأسرة مصر، وأشار بعضهم على والد أبي القاسم بركوب البحر الأحمر، واشترى له سلعة بقصد التجارة. فلما كانوا في مرسى الينبع تكسر المركب وضاعت السلعة وتلفت الأسباب. عندها أخرجت والدته من خرامها ٣٠٠ دينار، اكترت الأسرة منها لجدة ومكة، وحصلت الحج، وعادت بعد ذلك إلى مصر تمهيداً للعودة إلى المغرب. فالمجاورة لم تعد ممكنة. ومن مصر أبحرت الأسرة إلى إيطاليا، ثم إلى مرسيليا ومنها إلى برشلونة ثم إلى تطوان وفاس. وكانت مدة الرحلة ثلاث سنوات، كانت فيها تجربة طيبة للشاب أبي القاسم.

وقبل وصول الأسرة إلى فاس بعام كان محمد بن عبد الله قد تولى سلطاناً للمغرب (١١٧١ ـ ١٢٠٤هـ/ ١٧٥٧ ـ ١٧٩٠م). وفي عهده بدأت البلاد تنتعش من جديد. وفي الواقع فقد مرت فترة كانت فيها للحكم سطوة، وللنظام مكانة وللحياة الاقتصادية تقدم. هذه الفترة التي شغلتها حياة أبي القاسم الزياني، والتي امتدت عبر السلاطين (بعد محمد بن عبد الله) يزيد بن محمد (١٢٠٤ ـ ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٠ ـ ١٧٩٢م)، وهشام بن محمد (١٢٠٦ ـ ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢ ـ ١٧٩٣م)، وسليمان بن محمد (١٢٠٧ ـ ١٢٣٨هـ/ ١٧٩٣ ـ ١٨٢٢م)، وعبد الرحمن (١٢٣٨ ـ ١٢٧٦هـ/ ١٨٢٢ ـ ١٨٥٩م).

يقول أبو القاسم: «ولما استرحنا من السفر (بعد العودة إلى فاس) عدت للقراءة كما كنت، ولما سألنا عمن كنا نألفه من الطلبة في القراءة والأنس، وجدنا أكثرهم تعلق بخدمة السلطان سيدي محمد لما بويع... فلما بلغني خبر رفيقي سعيد الجزولي وغيره شرهت نفسي للحاق بهم وتعلقت همتي بخدمة السلطان». وكان والده معارضاً لذلك، لأنه كان يخشى ان يصيب ابنه ما يصيب الناس في بلاطات الملوك، إذ يرتفعون ويهبطون ويسرون ويتألمون ويفرحون ويترحون ويسجنون وتصادر أملاكهم. لكن أبا القاسم لم يقبل نصيحة والده، وأصبح كاتباً في بلاط محمد بن عبد الله. وقد أصابه ما خشي منه والده. فبعد عشر سنوات طرد من الخدمة وظل مهدداً بالقتل. لكن السلطان عرضت له مشكلة فيما بعد، فلم يجد من يحلها له سوى الزياني، فأعاده إلى ما كان عليه، وزاد في إكرامه. وكلفه القيام بمهمات كبيرة، أداها جميعها بنجاح كبير.

وفي سنة ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م وجهه سلطان المغرب سفيراً عنه إلى الخليفة العثماني عبد الحميد الأول (١١٨٧ ـ ١٢٠٣هـ/ ١٧٧٤ ـ ١٧٨٩م)، فكان خير سفير يمكن أن يكلف بمثل هذه المهمة.

كانت رحلة أبي القاسم الأولى رحلة والده. ولذلك فإن المؤلف لم يدوّن الكثير عنها في الترجمانة الكبرى. أما في هذه المرة فقد كانت رحلته هو ومن ثم فإنه يفصّل أموراً كثيرة. وتشغل رحلته هذه مساحة جيدة من الترجمانة.

ولم يكد أبو القاسم يستقر في البلاط بعد عودته من الأصطنبول (كما يرسم الاسم) حتى يتوفى محمد بن عبد الله (١٢٠٤هـ/ ١٧٩٠م) ويتولى الحكم ابنه اليزيد، الذي كان يمقت الزياني، فزجه في السجن وصادر أملاكه ورضي عنه ثم أعاده إلى السجن وعذبه. فلما توفي

اليزيد أخرجه أهل الرباط من سجنه، فقصد فاس وحضر بيعة سليمان (١٢٠٧هـ/ ١٧٩٣م) الذي كان يعرف للزياني مقامه وخبرته وتجاربه ومقدرته. فأرغمه على أن يتولى العمل في «أوجدة»، في شرق المغرب. وخرج إلى مقر عمله مرغماً، ومعه ركب التجار الذي كان محصوراً بفاس، فخرج عليهم العرب فقتلوا من قتلوا ونهبوا الأموال والمتاع. فانسل أبو القاسم «فاراً بجلده سائماً من الخدمة السلطانية»، وتوجه إلى وهران ثم إلى تلمسان، فأقام «في العباد سنة ونصف السنة مشتغلاً بالمطالعة والتقييد والتأليف، واطلع هناك على غرائب كتب التاريخ التي تعد اليوم في حكم المفقودة».

وفي سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤م زار الآستانة والمشرق (بما في ذلك اداء فريضة الحج) وعاد إلى فاس، فاستقبله السلطان سليمان وولاه تفتيش مراسي المغرب ومراقبة عمالها. ثم اتخذه كاتباً ووزيراً وحاجباً. وبعد أحد عشر عاماً نكبه السلطان نفسه وأنزله عن ولاياته. وانصرف بعد ذلك إلى الكتابة والتأليف حتى وفاته سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م.

٣

اكتفينا بالترجمة الموجزة لأبي القاسم، لأننا نريد أن نسير معه في رحلاته، خصوصاً الثانية والثالثة، لنطلع على ملاحظاته عن الأشخاص الذين قابلهم والأشياء التي شاهدها والأراء التي يبثها في تضاعيف رواياته.

لما سفر الزياني لملك المغرب محمد بن عبد الله إلى الخليفة العثماني عبد الحميد الأول، لقي الكثير من العناية والتقدير والاحترام، لأنه كان رسول سلطان إلى سلطان. وقد أكرمه كبار الموظفين واحداً واحداً، وهذا كان تدبير الأمور في استانبول.

لكن الذي ترك في نفس الزياني أثراً كبيراً هو الزيارة التي خُصَّ بها. يقول الزياني: «ومن جملة إكرامه (أي السلطان) لنا أمر الآغا الذي نزلنا عنده، وهو المكلف بأمرنا، والقائم بضرورياتنا، ان يتوجه بنا للوقوف على جميع الأماكن المعتبرة عندهم بالأصطنبول، كبيت المال ودار الضرب التي تُخدم فيها سكة الذهب والفضة؛ ودار الصنعة التي تُفرّغ فيها المدافع والمهاريز؛ ودار القز التي يخدم فيها الوشي والديباج والطُرز والألوية والستور دار المملكة. ودار الزجاج التي يخدم فيها الزجاج والبلور؛ والطرسانة التي تنشأ فيها المراكب القرصانية السلطانية ومرسى مراكب السلطان الجهادية؛ ودار الهندسة التي يتعلم فيها علم الهندسة والحساب والتنجيم، ودار الكاغد التي يُصنع بها أجناس الورق وأنواعه؛ وأوقفونا بها على دار مصنوعة كلها من الكاغد، حيطانها وسقفها وقرمودها وزليجها ودفقها (أي أبوابها) وفرشها وجميع آلاتها حتى آلات الطبخ الا الماء. ودار العدة زرناها، وهي التي تصنع بها آلة الحرب؛ ودار النيشان التي يتعلمون بها رماية المدافع والمهاريز، ويرمون على الشارة. وكل من صادفها يقبض عدداً معيناً... وفي كل يوم نركب ويتوجه بنا لمحل من هذه الأماكن».

ومما اهتم به الزياني في استانبول هو مراتب ومرتبات العلماء. ويقول إنه يقوم على رأس العلماء «شيخ الإسلام»، وهو بمنزلة الوزير، وتوليته وعزله بيد السلطان. ولشيخ الإسلام

في كل سنة من بيت المال، هذا فضلاً عن معاشه المقرر له ألفان وسبعمائة، سواء أكان مولى أم معزولاً. ويلي شيخ الإسلام في الرتبة والمرتبة قاضي عسكر الأناضول ومرتبه ألفان من القروش. وهكذا تتوالى المناصب تدرجاً نحو الأقل أهمية منها، بحيث يصل إلى قاض في واحد من البلدان التالية: اسكدار وسلطان أيوب (منطقة جامع أبي أيوب الأنصاري) والقدس الشريف وحلب الشهباء ويكي (بني شهر) وسلانيك وغلطة (في استانبول) وأزمير. ولم يذكر أبو القاسم مرتبات هؤلاء الموظفين، ولكن لا بد انها كانت تقارب ٤٠٠ أو ٣٠٠ قرش. لأن قضاة بعض المدن العثمانية، والتي يأتي ذكرها قبل هذه مباشرة، كان مرتبها ٤٠٠ قرش.

وينقل الزياني انه «لا يكون أحد مدرساً حتى يلازم القراءة بهذه المراتب كلها من أدناها إلى أعلاها، يقطعها في سبعة أعوام. فإذا كان من المبرزين يسرِّح له شيخ الإسلام في إحدى المدارس الصغرى، بعد أن يكون قد حصل على علم وطلب الامتحان ودخل التمييز واختبره المميزون من جملة من يختبرون. وفي كل سنة ينتقل لمدرسة فوقها، إلى تمام سبع مراتب هي المنتهى».

كانت المراسم تقضي بأن يستقبل السلطان الوفود والممثلين إما يوم الديوان أو يوم العيد. إلا أن الأمر تبدل بالنسبة إلى الزياني. فقد أعلنت الروسيا الحرب على تركيا. وكانت تركيا بحاجة إلى مال. وبهذه المناسبة اجتمع الزياني بالوزير لكي يتعرف إلى احتمال ان يقرض سلطان المغرب مالاً للسلطان التركي. وانتهى الأمر بأن بدل السلطان المراسم، واستقبل السفير المغربي خارج المواعيد الرسمية. يصف الزياني الترتيبات خطوة خطوة، إلى أن وقف الزياني، بالثياب الرسمية لمثل هذه المناسبة، وعرض على السلطان ان سلطان المغرب لا يقرض استانبول ولكن يتبرع، لأنه يرى ذلك من واجبه. ولولا بعد الشقة لقاد جيشاً بنفسه لقتال «الموسكو».

هذه بعض ما شاهده الزياني بوصفه سفير السلطان المغربي. لكن زيارة الزياني الثانية لاستانبول (١٢٠٦هـ ـ ٢٥٩ ١٧٩٢م) فقد كانت خاصة. لكنها جاءت بعد الزيارة الرسمية بمدة قصيرة، فلم يكد الزياني يُنسى. فمثلاً لما عرف المسؤولون برغبة الزياني في الحج، قيل له انه سيكون ضيف السلطان ولن يتكلف شيئاً.

وهذا هو رد الفعل عند الزياني. قال: «ولما سمعت منه (أي المسؤول عن الرحلة إلى الحجاز) ما قال في شأن السفر ان لا تتكلف بشيء وأكون معه، يدي بيده، لم استحسن ذلك. وتكلمت ليلاً مع الآغا (المسؤول عن راحة الزياني) وذكرت له مقالته وما سمعته منه، واني لا استعمل ذلك. لأني بخدامي وعبيدي ومضاربي، فلا أكلفه إلا بالإحسان والمباشرة فيما أتوقف عليه، وأكون في محلي وحدي، ولا يمكنني الكون معه. ولا يلتئم طبع العرب مع الترك في كل أمر. لأننا أهل المغرب أهل بادية وقسوة وجفوة، ولا نأكل ما يأكله الأتراك من الرقيق واللين. ولا بد لنا من الكسكس واللحم وما تعودناه من الخشين. ولعلّ ما معنا من الكسكس والخليع والسمن يكفينا الطريق؛ والسفر تتبدل فيه الطباع. فنحب أن يكون نظره علينا في

أماكن الزحام على الماء، وفي المخاوف، والإعانة بالدواب للحمل والركوب، لأننا لا نعرف قوانين الكراء ولا الشراء».

وأدى الزياني فريضة الحج، وزار مصر. وهذه الزيارة كانت زيارته لا زيارة أبيه. وكان إلى جانب بيته بيت الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، الذي اجتمع به أكثر من مرة. والجبرتي هو مؤرخ مصر في العقد الأخير من القرن الثامن عشر والعقود الأول من القرن التاسع عشر. ويقول الزياني: «وكنت أدخل مع الشيخ عبد الرحمن إلى خزانة الكتب بمسجد محمد باي أبو الذهب، بما فيها من غريب الكتب، وخصوصاً كتب التاريخ، وكنت أطالع بها أولاً، ثم تمكنت الصحبة مع قيّمها، فكان يعيرني ما أطلب من الكتب. فطالعت تاريخ الكرماني وتاريخ النووي وتاريخ الخلفاء للسيوطي والورقات له والخطط للمقريزي وبحر الأنساب للشيخ المرتضى (الزبيدي).

واجتمع الزياني بالشيخ إسماعيل العباسي. وهو من نسل بني العباس خلفاء مصر (بعد فقد دولتهم سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م). وقد كان الشيخ إسماعيل من شيوخ الطب في مصر «وقد تقبلني في مقعده من المارستان الكبير» يقول الزياني. والمارستان الكبير هو المارستان المنصوري الذي ظل العمل مستمراً فيه منذ أيام المنصور قلاوون. وذكر الزياني أنه استمر على الاجتماع بالشيخ العباسي والإفادة من معرفته والتبرك من تقواه.

ويصف الزياني خروج المحمل استعداداً للسفر لقضاء الحج. وهناك خروجان: الأول في منتصف شوال، وهو للإعلان والإعداد، ويليه الاستعداد التام من شراء الإبل أو اكترائها وشراء المؤن من الفول وما إليه. ثم يأتي الخروج الثاني وهو في الأسبوع الأخير من شهر شوال. وهنا يبدأ فعلاً سير المحمل في اتجاه الحجاز.

وأدى الزياني فريضة الحج، وذكر طريق الحجاج ومراحله واحدة واحدة مع الوصف الدقيق. وكان ممن لقيه في مكة أحمد باشا الجزار والي عكا. وقد حاول هذا اجتذاب الزياني وأخذه إلى عكا. لكن الزياني أفلت منه.

وزار الزياني القدس ووصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ثم انتهى به الأمر إلى دمشق. وبعد أن ذكر طرفة من تاريخ دمشق، ذكر من لقيهم فيها من العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ سعيد الحنفي وهو حفيد الشيخ عبد الغني النابلسي الصوفي الدمشقي المشهور، ولقي بدمشق الغزي. وكان له بيت كبير (أي غرفة) بالمسجد يقعد فيه بقصد المطالعة والإفتاء.

وذهب بعد ذلك إلى انطاكية. والزياني حريص على تدوين أحداث طفيفة هي في الوقاع مما يجعل كتابه طريفاً. وها نحن أولاء ننقل واحدة منها قال:

«وتوجهنا لمدينة انطاكيا. ولما بلغتها قدم للسلام علي الفقيه النبيه المؤرخ الوجيه مفتي الحنفية الشيخ إسماعيل الجزاعي... وكان أعجوبة في الأدب والتاريخ يحسن اللسان العربي. فدخل في إثره رجل من أهل بلده فكلمه بالتركي، والمفتي يضحك. والتفت إلي وقال «يا شيخ هذا رجل اختل من عقله. جاءني أشفع له في حق واجب عليه لقاضي البلد. وذلك أن

رجلاً كان يتنازع وسجنه القاضي إلى أن دفع له ما وجب له في الإرث. ولما تمكن من حقه طالبه القاضي بالعشر فلم يقبل. وهذا شيء لازم مُتعيِّن لا يترك لأحد، إلا من كان له يد أو شفيع مجبر. ولما رأى ذلك أراد أن نأخذ بيده، ربما يستحيي منك القاضي. فقلت له ومن أين أنا ومن أين أعرف القاضي حتى أشفع عنده! فقال لي لما نزلت ها هنا بلغه خبرك وأثنى عليك خيراً. وقال إن خدام مولاي محمد ملك المغرب كلهم أولياء. فقلت له لا سبيل لهذا ولا أسعى فيه». ويعلق الزياني على القصة بقوله: «فانظر لهذا العجب! وهذه عادة قضاة المشرق كلهم، نسأل الله السلامة والعافية من هذه الورطة التي وقعوا فيها. فقد عمت البلوى هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية (استانبول) وبلاد الترك كلها ومصر والشام والعراق!»

ودخل أزمير ومعه غرائر طعام أي كسكس وقد دفنت فيها أكياس فيها نقود ذهبية، لكن صاحب الجمرك لم يطلب منه دفع أي غرامة، لما عرف انه من خدام ملك المغرب.

ولعل من أطرف ما مر بالزياني في رحلته هذه وصوله مع المسافرين والحجاج إلى تونس بحراً (إذ كان قادماً من تركيا). ولما وصلوا فرضت عليهم «الكرنطينة» التي يصفها الزياني بقوله «الكرنطينة الشنعا الممنوعة عرفاً وشرعاً». ذلك بأن المركب الذي جاءوا فيها كان قد جاء من بلد موبوء. ونحن نرى أن ترتيب الحجر الصحي في ذلك الوقت كان تدبيراً مهماً. لكن الزياني يقول: «.... ومن المقدر المحتوم والسابق المرسوم كانت لنا جارية انتخبناها على المراد والوفق، عزمت على الوضع. فجاءها الطلق في الليلة القابلة (للوصول) فكنت أنا القابلة. وسهل الله أمرها عن قريب، وأن الله مع كل غريب، فوضعت ولداً ذكراً، ليلة الاثنين سحراً فسميته عبد السلام، وزال ما كنا فيه من الغم والسآم.

وعاد الزياني إلى بلده، وأراده عبد الرحمن على العمل معه، فاعتذر، وانصرف إلى التأليف، وللزياني خمسة عشر كتاباً في التاريخ أصلاً والفقه والجغرافيا. لكن أطرف كتبه الترجمانة الكبرى، التي هي موسوعة مفيدة طريفة. معلومات كثيرة فيها، كما قلنا قبلاً، منقولة. لكن الترجمانة تدور حول محور واحد هو أبو القاسم الزياني. رحمه الله.

٩ ـ السنوسية

١

عرف العالم الإسلامي، في القرن التاسع عشر عدداً من الدعوات الإصلاحية التي انتشرت فيه من شرقه إلى غربه. ذلك بأن الجمود الذي استحوذ على المسلمين فترة طويلة، أخذ في ذلك الوقت بالانحسار عنهم. فإن الأحداث التي مرت بهم، والتجارب التي خبروها، حفزتهم إلى العلم في سبيل إصلاح هذا المجتمع وإنعاشه ليعود إليه مجده ويرجع إليه نشاطه، ليسهم في العمل الحضاري البناء على نحو ما فعل من قبل.

ونحن إذا تذكرنا أن الدولة العثمانية، التي خفقت راياتها مدة طويلة من الزمن، أخذت العوامل المختلفة تنخر في جسمها في القرن الثامن عشر وما بعده، أدركنا السبب في أن الكثيرين من دعاة الإصلاح الإسلامي لم يعودوا ينظرون إلى تلك الدولة وخلفائها نظرة المؤمل بالإصلاح يتم على يدها وأيديهم. لكن الأمر الحري بالتأمل، هو أن الكثيرين من دعاة الإصلاح لم يعلنوا على تلك الدولة حرباً قط، لأنهم كانوا يأملون أن تنجح الحركات الإصلاحية حتى في إعادة النشاط إلى الامبراطورية المتراخية، فتعود إليها مكانتها حامية الإسلام ودرءاً للمسلمين المقيمين في ديارها والقريبين منها.

ونحن إذا عرضنا للدعوات الإصلاحية المختلفة التي عرفها الجزء العربي من العالم الإسلامي، وجدنا أن سبلها كانت متباينة وطرقها مختلفة، وإن كانت الغاية منها واحدة. ولا شك أن التباين والاختلاف كانا ينبعان أصلاً من الفلسفة التي يقبلها الدعاة أنفسهم والمواقف التي كانوا يتخذونها من هذه القضية. فالبعض كان سبيله السيف والآخر لجأ إلى القلم. وثمة من أراد جامعة إسلامية، وهناك من أراد إصلاح الأفراد المسلمين الذين يتكون منهم المجتمع الإسلامي.

ولا شك في أن الدعوة الإصلاحية الكبرى التي بدأها السيد محمد بن علي السنوسي، والتي عرفت فيما بعد باسمه ـ السنوسية ـ كانت من أفضل المحاولات التي تمت، وإن تاريخها يعد صفحة ناصعة من صفحات التفكير الإسلامي الحديث. وهذا ما يدعونا إلى الكتابة عنها الآن.

نعتقد أن التقسيم المنطقي لمعالجة هذا الموضوع يقتضينا أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام: الأول نعرض لتراجم زعيمي السنوسية الأولين السيد محمد علي وابنه السيد المهدي، والثاني نتحدث فيه عن تعاليم السنوسية، ونخص الثالث بالزاوية السنوسية وتنظيم العلم الذي تم على أيدي هؤلاء الزعماء.

وعندما نبحث عن أولئك الذين طبعوا مجتمعهم بشخصيتهم وأسهموا في نفخ العزيمة

في النفوس وغرس الإيمان في القلوب وشحذ الهمم وإزالة الغشاوة عن العيون، وجدنا في مقدمتهم السيد محمد بن علي السنوسي.

ولد السيد سنة ١٢٠٢هـ. في جهات مستغانم بالجزائر في أسرة جمعت شرف النسب بتحدرها من الحسن بن علي بن أبي طالب، وكرامة العلم. توفي والده وهو بعد في المهد، فتولت والدته العناية به. وأقبل، وهو بعد صبي، على العلم يرتشف منه ما يسرته له مستغانم، ثم انتقل إلى جامع القرويين في فاس حيث قضى سبع سنوات طالباً للعلم ثم مدرساً. فأقبل عليه الطلاب ينهلون من معين علمه. واتجه إلى المشرق فأقام بعض الوقت بالقاهرة، فاكتسب صداقة الكثيرين. روى الرحالة التونسي محمد عثمان الحشائشي أنه:

«عندما مر السيد السنوسي بالأزهر نظر إليه أحد المدرسين وقام من حينه قائلاً: أنصتوا أيها العلماء لقد حل بين أظهركم إمام الأمة المحمدية، ونبراس الشريعة المطهرة وشمس سماء المعارف الإلهية، ألا وهو الشيخ الكامل محمد بن علي السنوسي».

وانتقل إلى الحجاز، فالتقى بالمسلمين وزاد اقتناعه بأن العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي بحاجة إلى إصلاح. وكان رأيه يتلخص في أن سبيل الإصلاح هو أن يصلح الفرد المسلم، وعندها تنهض الجماعة.

وعاد من المشرق، ولكنه لم يرجع إلى الجزائر، فما كانت فرنسا لتسهل له العمل الإصلاحي. فاختار برقة، وأنشأ الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر عام ١٨٤٣، ومنها نشر دعوته بين الليبيين وجيرانهم، كما أنه أخذ ينشر الإسلام بين سكان أواسط افريقيا. ونقل مركزه من البيضاء إلى الجغبوب ليكون اتصاله بهؤلاء القوم أيسر. وفي الجغبوب التي أحبها وطورها انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة ١٨٥٩. وقد خلّف السيد، إضافة إلى طيب الأعمال، عدداً كبيراً من الكتب، طبع بعضها ولكن لا يزال الكثير منها محفوظاً. لعل أهمها «ايقاظ الوسنان».

يقول المرحوم محمد الطيب الأشهب في انتقال السيد السنوسي إلى الجغبوب:

«اختار الإمام أن يكون لهذه المراكز الإصلاحية مركزاً رئيسياً ترتبط به، وكانت زوايا ليبيا مرتبطة بالزاوية البيضاء، ثم استبدل هذا المركز الرئيسي بزاوية الجغبوب التي تم به إنشاء معهد علمي ينتسب إليه الطلاب، وأصبح هذا المعهد كما أراده الإمام، على غرار الأزهر الشريف بمصر والقرويين بفاس والزيتونة بتونس، وأخذت المراكز الإصلاحية تقوم بمهمات اجتماعية كبيرة وعظيمة الفائدة، منها إطعام الفقير وإيواء الغريب، وفضّ المشاكل والخصومات الفردية والجماعية، والنظر في الأحوال والمعاملات الشخصية وإرشاد الخلق إلى الحق، وتعليم الصغار كتاب الله ومبادىء العلوم الدينية والدنيوية، وتهذيب النفوس بنشر الآداب الإسلامية ومعالجة الأمراض الاجتماعية».

وقال مؤرخ محدث عن الجغبوب العالمة:

وأقام السيد في الجغبوب مركزاً كبيراً له ولأتباعه ومريديه، وجعل منها جنة بعد أن

كانت واحة صغيرة، وأنشأ فيها مدرسة دينية كبيرة قوامها مكتبة من ثمانية آلاف مجلد فيها كتب الفقه والشرع والحديث والتاريخ والتفسير والفلك والتنجيم والتصوف، وعمادها أولئك التلاميذ المخلصون الذين رافقوا السيد في دراسته وأسفاره، فصاروا ممن يعتمد عليهم في التدريس. وكان فيها ثلاثمائة طالب، يعدون الإعداد الصحيح ليكونوا دعاة هداية وحملة نور الإسلام إلى المناطق التي أراد السنوسي الكبير أن ينشر فيها هدى الإسلام. وكان السيد يشرف على كل هذه الأمور إشرافاً شخصياً مباشراً ليتأكد من أن كل رجل أعد على خير سبيل، قبل أن يوكل إليه القيام بمهمته. وقد كانت الجغبوب أكبر مركز علمي في شمال افريقيا.

وبعد، فإن السيد قد أوضح في رسائل متعددة بعث بها إلى حكام ليبيا العثمانيين عمل الزوايا التي أقيمت في جهات البلاد بقوله:

«رتبنا لكل واحدة من الزوايا خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة وتعليم القرآن ودرس العلم ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم. وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة. والزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده. وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا. فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة، ونفوس سكانها مستقرة».

لما توفي الإمام الأكبر رثاه السيد عبد الرحيم المحبوب، وجاء في رثائه قوله عن الجغبوب:

وادي الجغابيب كم تاهت رباك على	خضر الرياض وكم قد حفا جذل
وعطرت بشذاها الجو باسمة	أزهارها وجناها العلم والعمل
وأشرقت بسنى الأنوار مائدة	طوع النسيم حكاها الشارب الثمل
وجدت العيس والنجب الجياد غدت	إليك شاحبة ما شابها ملل
وكم دعى الشوق أشواقاً وهاجهم	شجوا لذكرك لم ترقا لهم مقل
يا للوفود وللزوار قد بلغوا	منك المنى بعد ما حلوا وقد رحلوا

ولعل العبارات التالية الواردة في كتاب بعث به السنوسي إلى إخوانه، مما ييسر لنا التعرف إلى روح هذا المجاهد الكبير. قال السيد محمد بن علي:

«والذي أوصي به نفسي وإخواني هو تقوى الله ـ وصية الله في الذين خلوا من قبل ـ ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده بإعمار الظواهر بالمجاهدات، وإعمار البواطن بالمشاهدات، فعليكم إخواني باتباع السنة على سنن رسول خير أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، وبه يحيون وعليه يموتون، فإن مراتب السلوك غالباً يمكن رقيها بأنواع المجاهدات وارتكاب مشاق المعانات، إلا أن أعلاها وأكملها وأنهاها، وهو تجلي الذات فلا طمع لطامع فيه إلا بمتابعة الرسول (ص) في الجليل والحقير والكبير والصغير بوقوع القدم على القدم والحافر على الحافر، فشدوا إخواني حيازمكم عليها صابرين، والمرجو من ذي الفضل الكريم أن يسلك بنا

وإياكم سننها على الصراط المستقيم إنه بر رحيم عفو كريم».

وقد بعث الإمام السنوسي الكبير برسالة إلى ابنه السيد محمد المهدي، توضح ما كان يعتمل في نفسه وقلبه وفكره، قال فيها:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه وبعد، فعليك ببذل الوسع في تمام التوجه إلى الله، والانحياش إليه بالكلية قلباً وقالباً حتى لا ترى ولا تسمع ولا تشهد سواه، وافن عنك فيه، وافن عن فنائك في إبقائه، معطياً كل ذي حق حقه جليله وذقه، على حجاب منهاجه الأعظم ورسوله الأكرم، مكسياً ظاهرك بمجاهدته، محلياً باطنك بمشاهدته، ممحواً في حقيقته، ذاباً عن شريعته، مستعيناً به على طاعته، جعلك الله هادياً مهدياً، ووارثاً كلياً إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير».

كان بين أولئك الذين عرفوا مغزى العمل الذي قام به السنوسي الكبير المرحوم الأمير شكيب أرسلان. وما أكثر ما كتب عن هذه الحركة الإصلاحية والتي دفع بها الإمام إلى الأمام. ومما قاله أمير البيان قصيدة جاءت بها الأبيات التالية:

لا يرى العلم في سوى العمل الصا ... لح فالعلم آلة ووعاء
فلهذا نرى الطريق السنوسي ... على الفعل قام منه البناء
بات فعلا هدى مريد السـ ... نوسي وأن ليس بالكلام اكتفاء
كلهم عالم لذلك فيهم ... تتبارى العقول والأعضاء
كم تولى بالكف سكة حرث ... حبر علم حظت به القراء
حققوا سنة المعلم للـ ... خير الرسول الذي به الاقتداء
بث ما بين مطلع الشمس والغـ ... رب رشدا ضاءت به الأرجاء
«وزوايا» في كل غور ونجد ... ليس يستطيع حصرها الأحصاء
وبدأ بالبناء في الجبل الأخضر ... حيث البنية (البيضاء)

توفي السيد محمد علي السنوسي في سنة ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م، وكانت السنوسية قد استقرت في برقة ووادي وطرابلس وغيرها، وكانت الدعوة إلى الإسلام قد أخذت تنتشر على أيدي الدعاة السنوسيين جنوباً في أواسط افريقيا. وخلف السنوسي الكبير ابنه السيد المهدي.

ولد السيد المهدي عام ١٨٤٤ (في الزاوية البيضاء)، وولد أخوه السيد محمد الشريف بعده بعامين. فلما توفي السنوسي الكبير كان الابن الأكبر بعد حدثاً، فأقيم مجلس وصاية من عشرة من الشيوخ، ليعنى بأمر السنوسية إلى أن يبلغ السيد المهدي رشده. فلما تم ذلك اعتنى هو بإدارة السنوسية وتوجيهها، وانصرف السيد محمد الشريف إلى الشؤون التعليمية.

وفي زعامة السيد المهدي (١٨٥٩ ـ ١٩٠٢) وصلت السنوسية إلى ذروة قوتها وانتشارها. ومما عمله السيد المهدي، في سبيل التمكن من الاشراف المباشر على هذه الامبراطورية الواسعة، نقل مركز السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة (١٨٩٥)، التي أصبحت «المركز التجاري

الرئيس، الذي تلتقي فيه القوافل من جميع أنحاء افريقيا الوسطى والشمالية». وكان هؤلاء التجار وقوافلهم سبيلاً لنشر الإسلام في الجهات النائية. ومركز الإدارة السنوسية كان في «التاج»، ومنها وصلت الدعوة السنوسية، حاملة الإسلام إلى بلاد كور وتبستي وبركو واندي ودارفور ووادّاي وكانم وتشاد وأزقر وبغرمي.

خُطب ود السيد المهدي غير مرة. فقد رغب المهدي السوداني في محالفته، وطلب العرابيون مساعدته ١٨٨٢ وتقدمت إليه إيطاليا راغبة في الاتفاق معه على مقاومة التقدم الفرنسي في تونس (١٨٨١) وحتى السلطان العثماني طلب منه العون في حربه ضد الروسيا (١٨٧٦ ـ ١٨٨٨)، وجرب الالمان أن يحصلوا منه على عون ضد فرنسا في افريقيا (١٨٧٢)، لكن السيد المهدي رفض جميع هذه العروض والطلبات، وفضل أن يظل بمنأى عن النزاع الدولي، ليتم له نشر الإسلام وإصلاح أحوال المجتمع المسلم الذي نذر نفسه له، شأن أبيه من قبل. لكنه اضطر هو وخلفه إلى محاربة الفرنسيين، لما تقدم هؤلاء إلى أواسط افريقيا، رغبة منهم في سبق السنوسية إلى السيطرة على تلك الأصقاع، كما اضطر خلفه، السيد أحمد الشريف، إلى محاربة ايطاليا لما همت بليبيا (١٩١١).

وفي الوقت الذي توفي فيه السيد المهدي (١٩٠٢)، كانت السنوسية قد بلغت الذروة في الانتشار. والباحثون متفقون على أنه كان لها آنئذ ١٤٦ زاوية.

٢

خلف السيد محمد بن علي السنوسي عدداً من الكتب ضمنها ما يصح أن يسمى قواعد الحركة الإصلاحية الكبرى. من هذه الكتب نختار ثلاثة للتحدث عنها قليلاً وهي: «السلسبيل المعين في طرائق الأربعين» و«بغية المقاصد في خلاصة المراصد» و«إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن». والسلسبيل كتاب عن طرق الصوفية وسبلها إلى التعرف على الخالق، وهي المعروفة بطريقة الأقطاب، أي التوصل إلى الله عن سبيل المعرفة. وإيقاظ الوسنان بيّن فيه سبيل أهل العلم إلى معرفة الخالق. فالسيد محمد بن علي السنوسي، الذي عرف التصوف والمتصوفة وطرقهم معرفة دقيقة عملية واقعية، والذي أحاط بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف إحاطة وثيقة، وجد أن المسلم لا بأس عليه إن هو زاوج بين طريقة العلم وطريقة المعرفة. وإن هو فعل ذلك فقد سبقه الغزالي إلى هذا من قبل. وفي بغية المقاصد عالج السنوسي الكبير مسائل مهمة تتعلق بالصلاة والصحابة والاجتهاد.

فالسنوسي الكبير كان في فلسفته الإصلاحية يرى العودة إلى منابع الإسلام الأصلية. وقد كتبنا قبل سنوات عن الدعوة السنوسية، وأبدينا رأينا فيها، وها نحن أولاء ننقله هنا لأنه لا يزال يمثل حقيقة السنوسية في نظرنا.

كانت دعوة السيد السنوسي الكبير أساسها الإسلام الصحيح، لا الإسلام الذي داخلته البدع. ومن ثم كانت الدعوة السنوسية أساسها العودة بالإسلام إلى ما كان عليه في عهد الرسول الكريم (ص) وخلفائه الأقربين، ولذلك كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

الاصلين اللذين يصبح الاعتماد عليهما في فهم الإسلام، دون الإجماع والقياس المتأخرين. وكان السنوسي الكبير يعتبر أن باب الاجتهاد لم يقفل، وبذلك يجوز الاجتهاد، على أن يقتصر الاجتهاد في الإسلام على الأسين الأوليين والوحيدين وهما الكتاب الكريم والسنة المحمدية.

ومن حيث أن الدعوة السنوسية كانت عوداً إلى الإسلام في أصله وجوهره، فقد كانت دعوة لم تقتصر على العبادة والتصوف، ولكنها أرادت المسلمين على أن يكونوا عباداً عاملين منتجين يعيشون من كد أيمانهم. ويبدو هذا واضحاً في الزوايا التي كانت تحوي المساجد والمدارس والمزارع والمتاجر، ويقوم الإخوان فيها بالعمل دون توان أو تواكل أو كسل. ولعل خير ما يمثل هذه الروح التي أرادها السيد السنوسي الكبير أن تكون روح الجميع، هو أن بناء الزاوية نفسه كان يجب أن يقوم به أهلها. فالزاوية، إذاً، منذ وضع حجرها الأساسي كانت رمزاً للنشاط والإنتاج.

وقد اهتم الكثيرون من الباحثين في درس الصلات المختلفة بين السنوسية والطرق الصوفية الأخرى، وخصوصاً التي نشأت في شمال افريقيا. والذي لفت النظر في ذلك أن السنوسي الكبير نفسه درس عدداً كبيراً من هذه الطرق الصوفية وتتلمذ على شيوخها، مثل التيجانية والشاذلية والإدريسية. والمهم هو ما ذكرناه قبلاً من أن السيد محمد بن علي السنوسي كان يقبل رأي المتصوفة في السبيل إلى معرفة الله.

والذي وصل إليه الباحثون المنصفون، والذي يتفق مع الواقع والحقيقة والتاريخ، هو أن السنوسية كانت من أول الأمر دعوة دينية مدنية. فالحقيقة هي أنه إذا كانت السنوسية دعوة إلى الناس أن يعودوا إلى الإسلام الصحيح كما عرفه المسلمون في أول عهده، فالإسلام مبدئياً، لم يفرق بين الدين والدولة، ولم يعتبر نفسه أنه جاء ليضمن للناس الحياة الأخرى دون العناية بالحياة الدنيا الصالحة. وإذاً، فمن الطبيعي أن تكون دعوة الداعي إلى مبادىء الإسلام قوامها الإيمان الصحيح والعمل الصالح والإنتاج والتنظيم السياسي، داخل هذا الإطار العام الذي عرفه الإسلام وقبل به المسلمون الصالحون في جميع أطوار تاريخه.

وإذا كان السنوسي الكبير وخلفاؤه، دعوا الناس لأن يتخذوا من حياة الرسول الكريم (ص) مثلاً أعلى يحتذونه ونموذجاً أسمى يحاولون الوصول إليه، فجدير بهم أن يدعوا الناس إلى كل ما اهتم به الرسول الكريم (ص). وحياته كانت خير ما يصح أن يقتدى به في النظر إلى الحياتين نظرة مثلى. ولذلك فقد كانت الدعوة السنوسية هي العمل للآخرة كأن المرء مائت غداً، والعمل للدنيا كأنه عائش أبداً.

وإذا كان السنوسي يدعو الناس إلى تنقية الإسلام مما علق به من البدع والضلالات، فلا شك أنه ما كان ليرضى، لمن يقبل دعوته أن يسمح لشيء من هذه البدع في أن تساور حياته، أو تمازجها. وهذه السنوسية تخلو أذكارها من كثير مما تسمح به بعض الطرق الصوفية، كالغناء والرقص.

فإذا كان أولئك المغرضون يريدون أن يضعوا السنوسية في مصاف بعض هذه الطرق

الصوفية التي يعيش أتباعها عيشة الزهد المغرق والكسل والخمول، وصرف الوقت في العبادة فقط والعيش على ما يتصدق به الناس، فليتقوا الله في هذا الأمر. فالسنوسية دعوة بريئة صادقة قوية عنيفة للسير على سبل الإسلام القويمة، والاغتراف من منابعه الأصلية، وفهم روحه وحقيقته والعيش بموجب هذه القواعد الإلهية والسنن النبوية التي تكفي لهدي الناس إن هم وعوها. وقد وجد السنوسي الكبير أن الناس تركوها وأغمضوا عيونهم عنها، فجاء إليهم ينفخ فيهم من روحه، ويشرح لهم الإسلام ويقوي ما خار من عزائمهم ويزيل الغشاوة عن بصائرهم، فكان النار التي تأكل الهشيم وتنقي الذهب، فخرج الناس الذين اتصلوا به وقد صفت منهم النفوس وصقلت منهم الضمائر، وصدقت منهم العزائم، وشحذت منهم الهمم، وصاروا أمة يدعون إلى الخير، وكانوا من قبل أعوان شر.

٣

الحركة السنوسية كانت تتمتع بتنظيم كبير. فقد عمل الإمامان ـ السيد محمد بن علي والسيد المهدي ابنه ـ على وضع الأسس الثابتة للتنظيم الداخلي (أي الزاوية)، والخارجي، أي الاتصال بين الزوايا. فقد كانت الزاوية مركز الحياة في السنوسية. والزاوية كما تفهم في هذه المناسبة مركز للحياة الروحية والزراعية والتجارية والسياسية، وهنا نجد القيمة الخاصة للسنوسية. فهي ليست طريقة دينية صوفية روحية فحسب، ولكنها طريقة للحياة بمختلف نواحيها. فعندما كان السنوسي الكبير أو خليفته يبعث بأحد الشيوخ لإنشاء زاوية جديدة، كان ينتظر من ذلك الشيخ أن يجعل من الزاوية وأراضيها وسكانها جالية حية منتجة. وكانت الخطوة الأولى هي أن تفرز قطعة من أرض القبيلة التي تنشأ الزاوية في وطنها، تخصص لمصلحة الزاوية، ثم تقام الأبنية اللازمة للزاوية، على أن يقوم الرجال بأنفسهم بالعمل. وكان المألوف أن تكون ثمة مجموعتان من الأبنية: الأولى يقيم فيها الشيخ وأسرته، والثانية تشمل المسجد والمدرسة والمضافة. وكل هذه يتوقف اتساعها على مدى ما يمكن أن يؤديه المركز من خدمات. فجامع زاوية الجغبوب مثلاً كان يتسع لنحو ستمائة من المصلين، والمدرسة كانت فيها قاعات للتعليم وغرف يقطنها الطلاب الذين يأتون الزاوية من مسافات بعيدة لتلقي العلم. وقد مر بنا أن الجغبوب مثلاً، باعتبارها المركز الأول للحياة العلمية السنوسية، كان يتردد عليها نحو ٣٠٠ طالب. أما المضافة فتحوي أماكن فسيحة يستطيع أن يأوي إليها التجار والزوار والمسافرون، فيقيمون فيها ثلاثة أيام، حسب عرف الضيافة عند العرب. على أن التجار كان لهم أن يقيموا مدة أطول. وكانت الزوايا التي ينتظر منها أن تكون مراكز تجارية، تحوي قاعات كبيرة واسعة يضع فيها أولئك التجار بضائعهم ومتاجرهم. وكانت ثمة عرصات تحفظ فيها الإبل التي تنقل هذه المتاجر. وقد اهتم المشرفون على إنشاء الزوايا بتأمين الماء اللازم للسكان، بحفر بئر كبيرة في الزاوية نفسها أو على مقربة منها، وكانت الأبنية جميعها يدور بها سور يحرسها، تعلوه حصون وأبراج يستخدمها السكان لدفع الهجوم عنهم إذا تعرضوا له.

والأرض المحيطة بالزاوية كان يقوم بالعناية بها واستثمارها الإخوان، سواء أكانوا من أهل القبيلة أم من غيرها. وهذه قيمتها السياسية الإدارية. والإخوان الذين لم يكونوا يقيمون في الأراضي التابعة للزاوية مباشرة كان عليهم أن يعملوا في الأرض أياماً معينة في السنة، في أيام النشاط الزراعي أو في مواسم الحصاد. ومع أن الإخوان كانت تخصص لهم قطع من أراض يستغلونها، فإنهم لم يكن باستطاعتهم التصرف بملكيتها، وبعد أن يفرز قسم من الواردات المختلفة التي تنتج في الزاوية لحاجات المركز نفسه، كان يرسل ما يفضل عن ذلك إلى مركز السنوسية العام لينفق في سبيل الدعوة نفسها.

وشيخ الزاوية كان يعينه رئيس السنوسية، وكان يراعى في اختياره، في غالب الأحيان، رغبات أهل القبيلة نفسها، على أن لا يتعارض ذلك مع الحصول على أفضل رجل يمكن الحصول عليه للقيام بهذه المهمة، لأن شيخ الزاوية هو صاحب الحل والعقد فيها. فهو الذي يعلم أو يشرف على التعليم، وهو الذي يحل الخصومات، وهو الذي يحفظ النظام، وهو الذي يعنى بالقوافل. وقد يطلب منه تنظيم الدفاع عن الزاوية في حال الاعتداء. لذلك كان مركزه مهماً، وكان يجب أن يتمتع باحترام الجميع، ليتمكن من القيام بهذه المهمات، ويضطلع بأعباء المسؤوليات الجسام.

وقد وصف المرحوم محمد الطيب الأشهب، في كتابه «السنوسي الكبير» الزاوية السنوسية عامة وبيّن واجبات الشيخ، وقد آثرنا أن نلخص ما جاء في كتابه:

أ ـ تتكون الزاوية من بيت خاص لإسكان شيخها وهو المسؤول الأول، وبيوت خاصة بالضيوف (المضيفة) وبوكيل الزاوية ومعلم الأطفال، والمسجد، والمدرسة القرآنية، ومساكن الخدم ومخزن أو مخازن لحفظ المؤن، واصطبل، وبستان، ومتجر على الأقل، وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم. (وفرن) لسد حاجة السكان بالخبز.

ب ـ تتألف سلطة الزاوية من شيخها ـ المسؤول الأول ـ ومن مجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة أو القبائل المرتبطة بالزاوية، ووجهاء المجاورين. ومهمة هذا المجلس هي النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات إما بما يقتضيه الشرع الشريف الذي يمثله شيخ الزاوية، أو بما جرت به العادة والتقاليد التي لا تتنافى مع متطلبات القضاء الشرعي.

ج ـ تقوم حول الزاوية مبان أخرى يقوم بإنشائها أغنياء الأهالي ليأووا إليها في موسم الصيف، ويحفظوا بها أثقالهم في حال ضعفهم. كما يقوم المهاجرون إلى الزاوية بإنشاء مساكن لهم على أن لا يحق لهم بيعها. ومن يغادر الزاوية منهم فلشيخ الزاوية إسكان غيره بالمحل المذكور وله حق الأولوية في استعماله متى عاد. ولولا ظروف الحرب الليبية الإيطالية والأحداث التي طرأت من جرائها، لكان هذا النظام مدعاة للاستقرار، ولأصبح البدو الرحل يميلون إلى التوطن تدريجاً ودون إرغام عليه. وهكذا، فإن الزاوية بمثابة وحدة مجمعة لها جميع مقوماتها.

د ـ تسند إمامة المسجد في سائر الأوقات لمعلم الأطفال، أما إمامة الجمعة فهي من

واجبات شيخ الزاوية إلى جانب ما يقوم به من الوعظ وإلقاء الدروس. ومن الشروط التي يخضع لها المجاورون هي أن يتقدموا بأبنائهم إلى المدرسة القرآنية ولا حق لهم في سحبهم منها إلا إذا غادروا الزاوية، وعليهم أيضاً حضور صلوات الأوقات الخمسة بالمسجد.

هـ - يكون للزاوية حرم آمن يلتجأ إليه، ويكون لها متسع من الأرض الزراعية والآبار الجوفية والصهاريج لحفظ ماء المطر. ولجميع مجاوري الزاوية الحق في قطعة أرض زراعية من ممتلكات الزاوية لاستعمالها للزراعة على أن لا تنتقل ملكيتها من الوقف. وان للفقراء المجاورين بعض المساعدات من الوقف.

أما من حيث التنظيم الخارجي، فحري بنا أن نتذكر أن الزوايا بنيت في المواقع الخاصة، وفي برقة بالذات. ذلك أن السيد محمد بن علي والسيد المهدي اهتما بأن تكون الزوايا في أماكن ذات قيمة تجارية وإدارية وحربية. ومن هنا ترى أن هذه الزوايا تقوم عند ملتقى الطرق، وفي أماكن يسهل الدفاع عنها طبيعياً، ويمكن منها الإشراف على رقعة من الأرض تجاورها. وقد أقيمت الزوايا بحيث تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة نحو ست ساعات سيراً على الأقدام، وخصوصاً في الأجزاء الشمالية من برقة.

وبحكم هذا الوضع، وبسبب النظام الدقيق الذي وضع للإشراف على هذه الزوايا إشرافاً فردياً، أصبحت الزوايا محكمة في ارتباطها ببعضها، وفي اتصالها بالمركز العام للسنوسية، ومن الطبيعي أن تحسب السنوسية، في هذه الحالة دولة، لا طريقة دينية فحسب. والذين وصفوها بقولهم إنها كانت أمبراطورية ضمن الأمبراطورية العثمانية لم يخطئوا.

ولعله من الحق أن نشير هنا إلى أن السنوسي الكبير ومن خلفه مباشرة، لم يكونوا يرمون إلى غايات عسكرية حربية، ولكن التنظيم الدقيق للاتباع مكّنهم من الصمود أمام الاعتداء الإيطالي أعواماً طويلة، لما أرغموا على امتشاق الحسام لمقاومة الاستعمار الذي غزاهم في عقر دورهم دون مبرر. والأتباع السنوسيون يمكن أن يقسموا، على وجه العموم، إلى «المنتسبين» وهم الأكثرية الساحقة من السنوسيين، و«الإخوان» أو «المريدين» وهم يعيشون أو على الأقل كانوا يعيشون في الزوايا نفسها، قبل أن تهدم إيطاليا القسم الأكبر من الزوايا في ليبيا. ويأتي بعد ذلك «شيوخ الزوايا» وهم الذين تلقوا العلم، وتبحروا فيه، فعهد إليهم، بعد تخرجهم في مدرسة الجغبوب، الإشراف على الزوايا، على نحو ما ذكرنا.

وقد كان ثمة جماعة صغيرة يسمون «الخواص»، ويكوّنون «المجلس السنوسي» إذا جاز لنا استعمال التعبير. وفي أيام السنوسي الكبير وخليفتيه كان عددهم أربعة، وكلهم ليسوا من الأسرة السنوسية، ولكنهم ممن بلغ من العلم درجة رفيعة. لكن هذا المجلس غير موجود اليوم، وما كانت الأحداث التي عصفت بالسنوسية في السنوات الأخيرة لتسمح بالاحتفاظ بمثل هذا التنظيم.

وفي نهاية كل سنة يتقدم شيخ الزاوية بتقرير مفصل إلى السلطات العليا عن جميع أعماله ومقترحاته وما قام أو ينوي القيام به، كما يقوم شيخ الزاوية من فترة إلى أخرى بزيارة

المركز الرئيسي، وهذه الزيارة تكون سنوية أو على الأكثر لا تتأخر بعد سنتين عدا الحالات الطارئة، ويصحبه الكثير من أعيان وشيوخ القبيلة. وهكذا، فإن الزوايا السنوسية كانت بمثابة المراكز الحكومية المنظمة. فهي مهابة الجانب وتتمتع بجميع السلطات الإدارية والقضائية والسياسية. وهي همزة الوصل بين السكان الذين وحدتهم هذه السلطة الروحية المقدسة، الأمر الذي أثبت أن الزوايا جاءت بفوائد عظيمة يندر وجودها ويصعب إيجادها في ذلك الزمن.

ولعله من الخير لتاريخ الحركة السنوسية في القرن التاسع عشر أن ننوه بعلاقتها بالدولة العثمانية، فذلك أمر حري بالعناية. فقد اتفقت عودة ليبيا إلى الحكم العثماني، في أوائل القرن التاسع عشر، مع قيام الدعوة السنوسية بين البدو في البلاد، وأصبح رجالها صلة الوصل بين السكان وبين الحكومة العثمانية. فالسكان قبلوا زعيم السنوسية ممثلاً لهم وناطقاً بلسانهم، والحكومة العثمانية اعترفت بالأمر الواقع، وتقربت منه.

وأول اعتراف رسمي بالسنوسية جاء في فرمان أصدره السلطان عبد الحميد الأول (١٨٥٦)، أعفيت بموجبه أملاك الزوايا من الضرائب، وسمح للسنوسية بجمع ضريبة دينية من أتباعها. وفي أيام السلطان عبد العزيز، أخي السلطان عبد المجيد، أرسل فرمان ثان إلى حاكم طرابلس ـ الذي كانت برقة في أيالته ـ ثبتت فيه امتيازات السنوسية، وأضيف إليها أن اعتبرت الزوايا السنوسية «حمى» يمكن أن يلجأ الناس إليه.

والواقع أن المسألة كلها يمكن تلخيصها في أن الحكومة العثمانية لم تهتم بوضع السنوسية الدستوري والقانوني في البلاد. ذلك أن الامبراطورية العثمانية كانت تحوي عشرات من الطرق الدينية المختلفة، وبرقة بالذات لم تكن تهم تركيا لأنها ولاية فقيرة. وما دامت الدعوة للخليفة العثماني تقام على منابر المساجد يوم الجمعة، والسنوسيون يعترفون بالخلافة والخليفة، فالعثمانيون يقبلون بها.

كان عمل الموظفين العثمانيين الحصول على الضرائب، وهذا أمر كانت تؤمنه السنوسية للدولة. ولذلك اقتصرت مراقبة الموظفين على المدن وما إليها، وتركت شؤون الأجزاء الداخلية للسنوسية تديرها، وتهتم بالأمن والقضاء والتعليم وجمع الضرائب.

والاتصال بين الخليفة وشيخ السنوسية كان يتم بين آن وآخر بوساطة رسل يأتون الجغبوب أو الكفرة من استانبول، أو يزورون استانبول نيابة عن الشيخ.

ويجب أن يظل قائماً في ذهن القارىء أن جمع الضرائب في الأجزاء النائية الداخلية إنما كان يتم، لأن السنوسية كانت تؤيد الإدارة العثمانية، وكان ذلك في مصلحة البلاد. فتأمين الضرائب كان يحول دون الحكومة ومحاولة فرض سلطانها، الأمر الذي كان من الممكن أن يؤدي إلى ثورات كثيرة مسلحة، واصطدام بين الحكم والمحكوم، كانت البلاد في غنى عنه. وحفظ النظام كان في مصلحة السنوسية لتقوم بواجبها في الإحياء الديني، وفي تأمين سير القوافل في البلاد، ليظل شريان التجارة حياً، فيفيد منه الجميع. وهكذا استمتعت برقة بخير

ما يمكن أن يؤمن لشعبها وما يتطلع إليه.

ومع ذلك، فقد كان ثمة شيء من النفور بين الدولة العثمانية والسيادة السنوسية. كان رجال الحكومة العثمانية المركزية يحبون أن يكون خضوع السنوسية لهم أوفى وأتم. ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة جربت مرتين (١٩٠٤ ـ ١٩٠٨) أن تفرض ضريبة على ما تنتجه أراضي الزوايا، لكن السنوسيين قاوموا ذلك بالقوة، حتى اضطرت السلطات الرسمية إلى ترك مثل هذه المحاولة.

ولم تتأثر الحالة السياسية في ليبيا كثيراً بالثورة التركية (١٩٠٨) التي انتهت بخلع السلطان عبد الحميد (١٩٠٩). ذلك أن السنوسية لم تكن ترضي بما كانت ترمي إليه جمعية «تركيا الفتاة» من محاولة «تتريك» العرب، أو إمكان إلغاء الخلافة. ومما هو جدير بالذكر أن «جمعية الاتحاد والترقي»، التي كانت المنظمة السياسية للروح العثمانية الجديدة، لم تلق تأييداً في بنغازي لما أنشئت. بل إن الأمر تعدى ذلك إلى قيام ما يصح أن يسمى الحزب العربي، ولو أنه لم يتخذ تنظيماً سياسياً تاماً. ومما يؤيد ما ذهبنا إليه هو أن النائبين اللذين انتخبا لمجلس المبعوثان العثماني في ذلك الوقت كانا من الجماعة المناوئة لجمعية الاتحاد والترقي.

ومع ذلك، فإن السنوسية لم تكن تتمتع بوضع دولي يمكنها من الاحتجاج إلى الدول الغربية ضد تقدم الفرنسيين في أواسط افريقيا، واحتمال اعتداء ايطاليا على الشواطىء البرقاوية نفسها. ولذلك رأت، بسبب بعد نظر زعيمها السيد أحمد الشريف، أن تمكن للدولة العثمانية من أن تقيم «قائمقاماً» لها في الكفرة و«مديراً» في الجغبوب. فإن رفع العلم التركي في ذينك المكانين يجعل تركيا صاحبة الحق الشرعي في الاحتجاج والدفاع.

ولا شك أن هذا الوضع، أي نفوذ السنوسية وموقف العثمانيين منها، أساء الايطاليون فهمه، فحسبوا أنهم إن جاءوا فسيهب السكان لنصرتهم ليتخلصوا من نير الحكم التركي. وفات الايطاليين أن يدركوا «الولاء» الذي كان البدوي يكنه لهذه الدولة. فالبدوي العربي يشعر بالولاء «للبيت» ضد «البيت» الآخر، لكنه متى تعرضت قبيلته لخطر انتقل ولاؤه لها ضد القبيلة المعادية. ولما كانت القبائل كلها تنظر إلى الدولة العثمانية بشيء من العداء، أصبح ولاؤه لهذه القبائل مجتمعة ضد العثمانيين. على أن البدوي السنوسي والدولة العثمانية بينهما رابطة ولاء أخرى مصدرها الإسلام. فإذا ما تعرضت الدولة للخطر وهبها ولاءه ونصرته ضد من يعتدي عليها من الدول الأوروبية. وهكذا لما اعتدت ايطاليا على ليبيا، توحّد الشعور وقوي الولاء بين عرب ليبيا والدولة العثمانية.

١٠ ـ الحشائشي ورحلته في ليبيا

الكتاب (أو الرحلة) الذي نتناوله في هذه الصفحات معروف باسمين: الأول «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب»، والثاني «النفحات المسكية في اخبار المملكة الطرابلسية». والمادة الواردة فيه أصلها أخبار رحلة قام بها محمد بن عثمان الحشائشي التونسي إلى ليبيا سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م.

محمد بن عثمان الحشائشي تونسي من مواليد الحاضرة في ٢٦ رمضان سنة ١٢٧١هـ الموافق ١٢ حزيران/ يونيو ١٨٥٥م. وأسرته على ما أورده محقق الكتاب علي مصطفى المصراتي، كانت من البيوتات التي تنتمي إلى الأشراف. وكانت كلمة الشريف تضاف إلى إمضائه ولقبه. وقد شغل والده، عثمان الحشائشي منصباً كبيراً، إذ كان عمدة التوثيق، وكان موظفاً في الإدارة التشريعية، كما إنه كان من شيوخ جامع الزيتونة. وقد كان هذا غاية ما يصل إليه أهل العلم في ذلك الوقت.

كان من الطبيعي أن يعنى الأب بتربية ابنه وتأديبه. فبعد أن حفظ محمد القرآن الكريم «انخرط في سلك طلاب جامع الزيتونة للدراسة، واغترف من ذلك الينبوع الذي كان يتدفق بألوان الثقافة الإسلامية العربية، وتلقى دروس التوحيد والتفسير واللغة والأدب وغيرها على المنهج الذي كان يسير عليه الأساتذة والطلاب في تلك الحقب»(١).

وكان بين شيوخ الزيتونة وأساتذته يومها فئة من كبار أهل العلم والفكر في تونس أمثال: سالم بوحاجب ومحمود بن الخوجة (بلخوجة) وعمر بن الشيخ ومحمد بيرم وأحمد الورتتاني. وبحكم منزلة والده وموقع أسرته كان يلتقي آخرين ممن كانت تضمهم مجالس العلم والأدب والفضل. وكانت هذه جميعها المجال الذي تكونت عبره شخصية محمد بن عثمان الحشائشي. وكان هذا الشاب أكثر التصاقاً بأحمد الورتتاني منه بغيره. لكن محمد بن عثمان كان محباً للتجوال والرحلة، فكان على ما يرى المصراتي، يتنقل من مكان إلى آخر ليشاهد المدن والقرى في الشواطىء والسواحل وفي البادية في الداخل. ولسنا ندري هل كانت قراءته لأخبار الرحالين الحافز له على الرحلة، أم أن الرحلة هي التي حملته على قراءة أخبار الرحالين، والأدب العربي غني بذلك.

بعد رحلات قصيرة في بلده قام محمد بن عثمان برحلته الطويلة إلى ليبيا. كان ذلك، كما ذكر قبلاً، سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م. وقد خلص المصراتي إلى القول بأن محمد بن عثمان الحشائشي كان مكثه في ليبيا أقل من عام(٢).

قام محمد الحشائشي برحلته، وقد عاد بعد ذلك إلى تونس، وهناك شغل مركز متفقد خزائن الكتب بجامع الزيتونة، فقام بتنسيقها والمحافظة عليها(٣).

وجرياً على عادة الكثيرين ممن دونوا اخبار رحلاتهم أو حتى محصّل دراساتهم، يعزو المؤلف وضع أخبار هذه الرحلة إلى أن الأمر كان تلبية لرغبة ملحة تفضل بها عليه الكثيرون. فهو يقول في ذلك: «أما بعد، فقد سألني بعض الأحباء والأصدقاء النجباء الألباء، من أهل العلم والأدب، أن أحرر له كتابة مفيدة فيما يتعلق بتاريخ طرابلس الغرب، علماً منه أني أُحسن صنع هذا المطلوب، حيث اشتهرت سياحتي في تلك المسالك والدروب، ومكثي بين تلك القبائل والشعوب. فبت أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى، أتردد في الإقدام والاحجام، لا أدري أيهما أحرى. ولما وقع الالحاح في المسألة، وتواردت علي في هذا الغرض عدة اسئلة، استخرت الله في الموضوع وطلبت منه فيض مدده الرباني للاستعانة على المشروع، راغباً من ذوي الاحسان وأهل الفضل والشأن، غض الطرف عن الخطأ والنسيان. فأني معترف بقصور الباع، وعدم الاستطاعة والاطلاع»(٤).

وبعد أن يذكر بعض من اعتمد عليهم ممن سبقه من أهل الرحلة، ويشير إلى أنه لم يظفر بتاريخ يخص طرابلس الغرب»(٥) يضع هذا الكتاب الذي نعتقد أنه أسماه أولاً: «النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية» وذلك لما وضعه في أعقاب عودته من الرحلة. وكان ذلك قبل أن تتعرض طرابلس للغزو الإيطالي بمدة. ولكن بعد هذا الغزو (١٩١١) أضاف محمد بن عثمان الحشائشي أموراً أخرى وأشعاراً. ويبدو لنا أنه عندها أعاد تسمية مؤلفه «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب»، وكان مثل هذا طبيعياً ما دام الكتاب يحمل اسمين كلٌّ منهما منفرد بطبيعته عن الآخر.

ولما قرر الكتابة وانتهى من وضع كتابه، ذكر في مقدمته ما جاء في الكتاب فقال: «تتضمن (النفحات المسكية) ذكر ما يتعلق بمدينة طرابلس في القديم والحديث وذكر أول فاتح لها من الصحابة ثم من ملكها من أمراء الإسلام والنصارى والبربر من لدن الفتح إلى الآن، وذكر أعمالها وبلدانها وقراها، ووصف أراضيها وجبالها وعامرها وغامرها، وما يتميز به كل بلد منها من الآثار والحرف والصنائع، وذكر شعوبها وقبائلها وصحاريها، وأثمارها وبقاع الماء العذب فيها؛ ومسافات طرقها العامة والخاصة، وأصناف التجارة الداخلية والخارجية، وقوانين الدولة ومتصرفياتها، ومن اشتهر بالتجارة من رجالها وقبائلها وكيفية تجارتها مع السودان؛ وأخلاق أهلها وطبائعهم ومعارفهم الدنيوية، وبعض من اشتهر من أعلامها الفقهاء والمحدثين والشعراء وأرباب الأقلام، مع بعض من أشعارهم ورسائلهم ونحو من مقاطعهم وأخبارهم. وذكرت الصالحين وبعض من دفن في ترابها من الصحابة رضي الله عنهم وأعيان أكابر السلف... وما اشتهر من مساجدها وزواياها ومدارسها؛ ثم ما يوجد بأعمالها من الطرق الصوفية ورجالها وخصوصاً الطريقة السنوسية»(٦).

يبدو من هذا القول كأن الكتاب صمم وخطط له، ثم تناول المؤلف الفصول ترتيباً وكتابة. والواقع أن محمد الحشائشي إنما يكتب عن رحلته، ويدعم ما يرى، أو يسمع، أحياناً بمقتطفات من كتب السابقين. فهو رحالة يدوّن أخبار رحلته بعد عودته، وقد لفتنا المصراتي

إلى ذلك بقوله: «والملاحظ في فصول الكتاب وترتيبه أن المؤلف لم ير فيه على نظام وترتيب، بل هو يتنقل من (وصف) بلد إلى وصف بلد آخر، ثم بعد فترة يعود إليه. وقد يتحدث عن بلد في ساحل طرابلس ثم يقفز إلى صحراء فزان وغات وغدامس، ثم يعود إلى الشاطىء والساحل... وهذا إن دل على شيء فيدل على أن الكتاب لم يسجله على نمط المشاهدات واليوميات، بل جلس بعد فترة ليكتب ويتذكر. ولعله في مسودته لم يعد إلى ترتيبه ولم يعكف على تنسيقه»[٧].

ويذكرنا المصراتي بأن ترجمة فرنسية للكتاب ظهرت بعد تأليفه بسنوات قليلة، ولذلك فإنها لم تكن تحوي ما أضافه الحشائشي فيما بعد عن الهجوم الإيطالي على ليبيا.

وحري بالذكر أن الحشائشي زار معرض باريس سنة ١٩٠٠ ووضع كتاباً في وصفه. ولعل زيارة هذا المعرض كانت نتيجة لترجمة النفحات المسكية. وعلى كل فإن المصراتي يقول عن الحشائشي إن كثيرين من أهل الاستشراق أفادوا من معرفته واستغلوا مواهبه ومعلوماته. فكان «يقوم بكتابة الدراسات والبحوث العلمية ويقدمها لبعضهم بالسفارة الفرنسية أو دار المعتمد الفرنسي كما كانت تعرف بهذا الاسم آنذاك»[٨].

ويمكن القول اجمالاً إن محمد بن عثمان الحشائشي كان زيتونياً طالباً وشيخاً، عمل في حقل الشريعة ومارس الكتابة ونظم الشعر على منهاج التقليديين. وقد أنهى المؤلف كتابه (المنقح أو المضاف إليه) بعبارة: «حرره الفقير لربه محمد بن عثمان الحشائشي الشريف المكلف بتفقد خزائن الكتب العلمية بالجامع الأعظم جامع الزيتونة أدام الله عماره بتاريخ يوم ١٤ السبت من جمادى الأولى عام ١٣٣٠ الموافق ١٩١٢ (٢٧ نيسان/ ابريل)[٩]».

وبعد التدقيق في مطابقة التواريخ وجد المصراتي أن ١٤ جمادى الأولى ١٣٣٠ يوافق أول أيار/ مايو ١٩١٢ (لا ٢٧ نيسان/ابريل)،[١٠].

وقد انتقل الحشائشي إلى رحمة ربه بعد الفراغ من هذه الإضافات ببضعة شهور في ٣ ذي الحجة ١٣٣٠ (١٩١٢). هذه الرواية المصراتية يبدو فيها شيء من التناقض. لكن سنة ١٩١٢ هي الصحيحة. وللحشائشي كتب أخرى، أوردها المصراتي وهي: رحلة الشتاء، وصف معرض باريس ١٩٠٠، كتاب في العادات والتقاليد (مخطوط)، ديوان شعر. إلا أن النفحات (أوجلاء الكرب) هو أفضل ما كتب.

مختارات من الرحلة

هذا هو محمد بن عثمان الحشائشي ورحلته في ليبيا. ولننقل الآن صفحات من هذه الرحلة ليفيد منها القراء ويستمتعوا بها. وقد أخذناها من طبعة المصراتي والأرقام في آخر كل مختارة تشير إلى صفحات ذلك الكتاب. والحشائشي كان أحياناً يتساهل في الأمور اللغوية. ولذلك تركه المصراتي على حاله، وفعلنا نحن الشيء نفسه طبعاً.

فصل في أهل بلد طرابلس

اعلم أن غالبهم من البرابرة وطباعهم تميل إلى البداوة أكثر من الحضارة. وهم على

كمال بشري في أنفسهم، وغالبهم يميلون إلى التجار خصوصاً في هاته السنين الأخيرة. فلهم متجر عظيم مع أهل السودان من برنو وواداي والتشاد وغات وغير ذلك. ولا يميلون إلى الغرباء في أول الأمر، وقد ذكرت هذا في رحلتي، لكن تحققت بعد ذلك أنهم إذا عاشروا الغريب أكرموه واعتبروه كأنفسهم، وصدق الله تحقيقي هذا ببيتين من الشعر وجدتهما ببعض التقارير للفقيه أبي الحسن:

لأهل طرابلسَ عادةٌ ... من البرِّ تنسي الغريبَ الحميما
حلَلْتُ بها مُكْرَها، ثم إذ ... أقمتُ بها أبدلوا الهاءَ ميما

وقول التجاني (أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي):

سقى ربوعَك يا مغنى طرابلسِ ... حياً يحيِّيكِ عني كل منبجسِ
فكم يدٍ لك في تأنيس مغتربٍ ... شطَّت به الدارُ عن أنس وعن أَنَسِ
أقمتُ فيك على حُكم النوى زمناً ... كأنني فيه للسلوانِ في عُرُسِ[١١].

أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشمون لها رائحة، كما لا توجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الإسلام، على أن هاته المدينة اشتهرت بأكابر من علماء الأمة المحمدية كالفقيه أبي علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي...

وفي رمضان سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) دخلت جامع السوق داخل البلد، وهو جامع بهيج عليه رونق عظيم. فوجدت كثيراً من أعيان الترك من ضباط وغيرهم، كل منهم جالس على ركبتيه بخشوع وتؤدة ووقار، يسمعون في كلام ربِّ العالمين، من مجوّد عالم بالتلاوة مصري له صوت حسن. وفي أحد أركان الجامع من الجهة القبلية وجدت العالم الفاضل النحرير المنعم الشيخ محمد[١٢] بن مصطفى باشا مفتي السادة الحنفية يقرىء الحديث الشريف «متن الشفا للقاضي عياض»، وعليه حلقة عظيمة من أعيان البلاد وغيرهم، وهو على اسطبل من اللوح عال على الأرض بمقدار يسير تراه أعلى من جميع من دار به من السامعين. وهاته عادة جلوس المدرسين عندهم إلا أن الكراسة لا تنقطع من يده، وهو أول مشهور بالعلم هناك، إلى أن تم درسه قبيل المغرب بساعة. وفي مدة اقامتي بهاته المدينة رأيت أوباش البلد لهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون معه باللغة الطليانية. وأكثر الأوروبيين طليان[١٣].

والبلد القديم بناؤه على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس إلا أماكن الإفرنج فإنها على الشكل الأورباوي. والبلد الجديد المعروف بالمنشية على الشكل الجيد مثل (تونس). أما هواء البلد فهو معتدل ليس برديء. وتوجد به الحمى في زمن الصيف[١٤].

أما لحوم البلد وفواكهها وغلاتها فجميعها طيبة. وفيها من كل ما خلق الله لعباده من أصناف النعم، بثمن متهاود. ويعظم فيها الدلاع (البطيخ الأخضر) إلى أمر عظيم بحيث أن الجمل لا يمكنه حمل دلاعتين إلا بمشقة. وهو في غاية الحلاوة مع لذاذة الطعم[١٥].

ويأتيها من أوروبا غالب السلع التي تأتي إلى بلد تونس، ويخرج منها القمح والشعير

والبقر والغنم والصوف والتمر وبعض الغلال كالبردقان والليمون الحامض والحلو والفلفل الأحمر الشايح والجنّا وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وغير ذلك. وهاته السلع الخارجة ليس عليها ضرائب دولية إلا شيء قليل وجميع ما يأتيها من السلع براً مع القوافل السودانية وغيرها لا يؤدي شيء من الضرائب.

وغالب تجارها من أهل البلد وبعض من المالطيين واليهود، ولا يوجد فيها بانكه مالية (مصرف) في وقت حلولي بها، ولا طرق من الحديد ولا معامل أوروبية نارية ولا قهاوي منظمة على الشكل الأوروبي[١٦].

أما الفلاحة في هذا البلد فتنقسم على قسمين: القسم الأول أصحاب البساتين الكبيرة والأراضي المجاورة إلى البلد يعني أحواز طرابلس الآبار والمياه. فإن هؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الأرض جيداً، وأما العرب والعروش البعيدة عن البلد وهم القسم الثاني فليسوا بأصحاب حزم وكد. لا يخدمون الفلاحة على أصلها مع أن أراضيهم جيدة في غاية الخصب، لكن يميلون إلى المتاجر أكثر مما يميلون للفلاحة، على عكس أهل بنغازي كما سنعرف (إن شاء الله) في هذا التاريخ[١٧].

الحالة العسكرية بهاته المدينة (سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م): ينقسم حال الجيش إلى قسمين: أما ما كان منه رتبة شاويش إلى رتبة أمير أمراء فإنهم على أكمل حال وأتم منوال. يأكلون الطيبات ويسكنون الغرف الرفيعة، وفيهم ذوات العيال بكثرة ومرتباتهم جارية. يميلون إلى التنزه كالأوروبيين، ويلبسون اللباس الفاخر، وحريمهم في غاية التستر: لا ترى من جسم المرأة أنملة، مع العفة والديانة. وغالبهم يحسنون التكلم باللغة الإفرنسية. أما العساكر فحالتهم دون ذلك ومرتباتهم ليس جارية على أصلها في ذلك الوقت.

وفيها من العساكر في ذلك التاريخ سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م ما ينيف على الثمانية آلاف جندي تامة العدد والعدة. وقيل لي أن جميع مرساها كلها محصنة بالألغام البحرية، بحيث لا تجوز سفينة كبيرة إلا بدليل. وما أبهج نظام تلك العساكر العثمانية خصوصاً عندما تكون الموسيقى السلطانية تصدح بنغماتها الشجية في أدواح المنشية (الحي الجديد)، والضّحى ينشر نسيمه العليل على أفنان الشعاب ذوات الظل الظليل؛ وثغر طرابلس في ابتسام، والربيع ضارب أطنانه بأريافها وعلى الدنيا السلام.

خرجت يوماً إلى نواحي المنشية فوجدت طائفة من الجيش التركي والموسيقى معه تصدح بتلك النغمات السالبة للعقول، وكان معي بعض من له المام بالأدب فاقترح علي بعض أبيات في ذلك المنظر البهيج الحافل فأنشدته ما خطر، بعد أن تمتع بتلك الهيئة الحسنة كل من السمع والبصر:

جيوشُ التركِ قد صدَحَتْ نهاراً	بألحان تروقُ بها شجيّة
وثغرٌ طرابلس يزهو ابتساماً	بطلعَةِ حُسن هيئته البَهيَّة
دَعَتْ بالنصرِ للسلطانِ فَوراً	وللإسلامِ طُرّاً في البريّة
وأنّ النصرَ معقودٌ لواهُ	برايَةِ فخرِ دولتِهِ العليّة[١٨]

ومرسى البلد ليس بمرسى صناعي بل تقف فيه السفن قريبة من البر، وإن اشتد البحر يصعب النزول من السفن على الركاب. ولما كنت هناك وجدت بمرساها مدرعة واحدة للعثمانيين، وبابورين للبوسطة: أحدهما فرنساوي والآخر طلياني، وكان الطلياني متوجهاً إلى تونس وهو الذي حملني إلى مسقط رأسي.

أما أحكام هاته المدينة (أي طرابلس) فهي جارية على مقتضى قانون المجلة التركية[١٩] على مذهب الأمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأرضاه. وفي بلدانها الكبار نجد حاكماً سياسياً هو «المتصرف» وقاضياً شرعياً يأتي في الغالب من الاستانة.

قد عرفتَ آنفاً أن أمراء الترك وحكامها يتكلمون باللغة الفرنسية جيداً إلا النزر القليل، ولنذكر لك حكاية تدعم هذا القول وهي: أنني لما كنت ببلاد «مُرزق» بأقصى «فزان» أرسلت يوماً تابعي السيد رمضان الشامي.... إلى بيت الدواء المعدة للعسكر المقيمين بمُرزُق نطلب من السيد أحمد اليوزباشي المكلف بالخستخانة الطبية، وهو الطبيب العسكري بمزرق، شيئاً من الدواء الصالح لجرح بركبتي اليسرى، والوقت حال حر شديدة فأرسل لي قارورة ماء نتن الرائحة قائلاً لي إن ثمنها عشرين قرشاً (خمسة فرنك تونسي)، متعللاً أن الدواء محسوباً عليه من الحكومة فلا يمكن اعطاءه من دون ثمن ولا يباع إلا للوجهاء من الغرباء. فأرسلت له مع الحامل عشرين قرشاً واستكثرت خيره. ثم لما بلغته أرسل لي في الحين توصيلاً منه مختوماً بطابعه مكتوباً ذلك التوصيل باللغة الأفرنسية في القدر المذكور. وبعد يومين أتاني اليوزباشي المذكور يزورني. فكشف عن ركبتي وبشرني بالشفاء عن قريب ووقعت بيني وبينه محادثة لطيفة، فحكى لي أن أصله من بلد السودان غير أنه لا يعلم مسقط رأسه. وقد اشتراه بعض الأتراك من طرابلس الغرب وذهب به إلى الأستانة ثم اعتقه سيده. وهناك تعاطى القراءة والكتابة بالتركية والعربية، ودخل مكتب الحرب وتعلم ما يلزم تعليمه إلى أن أتى في نوبته إلى طرابلس ثم منها إلى مرزق وهو في غاية السواد الفاحم، مع رقة البشرة وظرف المحادثة. ثم سألته: لم كتبت إلي التوصيل المذكور باللغة الافرنسية، والحال انك تحسن اللغة العربية والتركية وأنا عربي؟ فقال لي: «إن جميع ما يتعلق بدواء العساكر العثمانية في جميع مملكتها يكون حسابه باللغة الافرنسية. وعندنا أشياء كثيرة نستعملها باللغة الافرنسية لا بلغتنا التركية[٢٠].

وأعلم أن لمدينة طرابلس أعمال كبار ثلاثة: أولها فزان وهو في الحقيقة أكبر الأعمال مساحة؛ والثاني عمل سرت، وهو أخصب الأعمال وأجودها تربة؛ والثالث عمل الجبل. وبلغني في هاته المدة أن الأعمال صارت أكثر من الثلاثة ولكن مبنى كلامي على ما كتبته في حق طرابلس سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م سواء كان في هذا الموضوع أو في غيره فلتعرفه حتى لا تنسب إلي وهماً إذا عرفت حالها سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م.

ولكلِّ عملٍ حاكم سياسي يسمونه متصرفاً نظره ومتصرفيته على ذلك العمل. وكل عمل

به عدة بلدان وفي كل بلد حاكم يسمونه القائم مقام، من غير رتبة عسكرية، ونظره تحت متصرف ذلك العمل. ونظر المتصرف للباشا العام حاكم ولاية طرابلس، والباشا نظره لوزير الخارجية بالدولة العثمانية[٢١].

اقليم فزان

يحتوي هذا الصقع على ثلاثمائة قرية بناؤها من الطوب إذا أضابها الغيث الوابل تتهدم سريعاً. وماؤهم من الآبار والعيون وبكل قرية من النخيل ما لم يعلم علمه إلا الله تعالى، إذا لم يحصَ عدده. والصحراء والتوارك (الطوارق) يمتارون منه. وغالب أراضيه ليست بصالحة للفلاحة ولا وجود للبقر بأراضيهم إلا بقر الوحش البري. وأغلبها (أي الأرض)، إن لم نقل كلها، رمال وجبال من الرمال رحَّالة وجبال من الحجر لونها أكحل لا نبات فيها. وتبلغ الحرارة هناك إلى درجة عالية، ويقع عندهم الجمود في المياه فكثرته من أكتوبر (تشرين الأول) إلى فبراير (شباط) إن هبت عليهم الرياح الغربية. والرقيق في بلدانهم كثير يباع ويشترى من غير إشهار. ويمكن أن الثلاثة أيام أو أربعة تمشي في أراضي لونها كالقار أو أشد سواداً، وجبالها وأراضيها صلدة لا نبات بها، وأياماً تمشي في رمال متصلة بعضها ببعض، وبها جبال شامخة من الرمل رحالة، وأياماً في بساط متسع ممتد الأطراف، ومجاهل تمكث فيها القوافل العديدة. وأهلها لا خدمة لهم إلا حركة النخيل، وفيهم التجار الذين يذهبون إلى السودان وبلدانه، وكثير منهم يقصد بنغازي وطرابلس وتونس لأجل الخدمة والتمعّش. ولهم محبة عظيمة في خوض تونس على غيرها لكثرة أرباحهم بها. ومن مكث مدة في تونس ثم رجع إلى بلده يحسب غنياً في عرفهم، ويتفاخرون بالذهاب إلى تونس.

وطباع أهلها التأني والرزانة وغالبهم على طريقة الشيخ السنوسي إلا القليل، ولا توجد بلدة من بلدانهم المشهورة لم تكن به زاوية من زوايا السنوسيين[٢٢].

أما بلدانهم الكبيرة المشهورة فأولها مُرزُق: هي قاعدة فزان الكبيرة التي بها المتصرف والعسكر، تبعد على طرابلس بمسير ثلاثين يوماً تقريباً للقوافل.

السلع الداخلية لطرابلس: القماش الأبيض بأنواع كالحمودي والعنبر فني وغيره. القماش المصبوغ من المالطي وغيره أنواع السكر خصوصاً السكر القالب. التاي بأنواعه الأبيض والأسود. اللفة بأنواعها. الملف بأنواعه. الجرود يعني الحوالي بأنواعها وغالبها تأتيهم من جربة والجريد من عمل تونس. البرانس. الكساوى المحروجة والجبايب. أنواع الشاشية التونسية. القرمسود بأنواعه. جميع الروائح الطيبة من أعطار ومسك. أبزرة بأنواعها. أنواع الأسلحة. الحلي من المجوهرات وأنواع الساعات ومن الذهب والفضة والعقيق بأصنافه وألوانه ومن المرجان. محارم من الخيط والقطن والحرير. أنواع الأقمشة المديانية وغيرها. قوالب صابون أوروباوي ممسك. الأرز. أنواع الكولونية من جميع الروائح الطيبة. أنواع أقمشة بالفضة. وغير ذلك مما يطول بنا ذكره تفصيلاً. جميع هاته السلع تأتي إلى طرابلس من أوربا وتونس والاسكندرية ومنه يرفعونها التجار إلى غات وغدامس وفزان

والأقطار السودانية يذهبون بها تجاراً من أهل طرابلس وغدامس فتباع بأثمان باهظة.

السلع الخارجية من طرابلس إلى أوروبا: ريش النعام بأنواعه. ناب الفيل. الزبد. طيور من النعام. وأنواع الببغاء. وكل ما يأتيها من السلع السودانية. ويحزم منها القمح والشعير والسمن. والزيت. والفحم والطرونة. والملح. والبقر. والغنم. والماعز. والدجاج. والبيض والتمر. والفلفل. والحنا والفول والعدس والحمص والزيت. ويباع بثمن عال في وطن فزان والعسل وغير ذلك(٢٣).

إن عمل فزان كان مستبِّداً، ليس داخل تحت طرابلس، وله حاكم خصوصي من قبيلة أولاد محمد، ومحل ملكه مدينة مرزق، ولا زالت طائفة منهم ببلد مرزق إلى يومنا هذا، ومكث فزان بأيديهم إلى أن أخذه منهم يوسف باشا سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م في مدة ولايته على طرابلس.

من بلدانهم المشهورة غير مرزق القاطرون ثم سُوكَنه ثم هُون ثم ودَّان ثم الزّيغن ثم سمنو ثم القُرضة ثم سبهة ثم ديلم ثم الشاطي(٢٤). (قد أصبحت سبهة منذ أيام الحكم الإيطالي ثم بعد الاستقلال عاصمة اقليم فزان).

تنبيهات مفيدة في وصف مرزق

بلد كثير العيون والنخيل، وماؤه في غاية العذوبة، وتكثر به أمراض السخانة بالصيف، دخلت هاته البلاد في مدة سياحتي الصحراوية سنة ١٨٩٥م/ ١٣١٣هـ في يوم ٢٧ من شهر ربيع الأنور قبل الزوال، فتوجهت في الحين إلى زاوية الشيخ أحمد مختار شيخ مشايخ السنوسيين بعمل فزان، وقد بلّغته قدومي قبل أن نأتيه بأيام، مع حسن الوصاية عني ورد البال مني. وقد وجدته يقرىء في «كفاية الطلاب» للشيخ الصالح المشهور عبد الله بن أبي زيد القيرواني بالزاوية. فلما تم درسه أقبل علي بشراشر قواده هو وجميع كبار الطريقة السنوسية، وبت تلك الليلة بالزاوية مكرماً مبرراً. ومن غد اكتروا لي محلاً لنزولي، وهي دار ذات طابقين على ملك محمد باشالي أحد التجار الطرابلسيين فاسترحت بها(٢٥).

وصادف بعد قدومي بيومين، قدوم المتصرف الجديد وهو في رتبة باشا. وكان قدومه البلد صباحاً فنزل بقصر الحكومة، وفي اليوم نفسه بعد أن صلى صلاة العصر بالجامع الكبير بإمامة الشيخ أحمد مختار المذكور أمام الجامع المذكور، خرج الباشا في جمع عظيم من أمراء العساكر ومدير البلد وقاضيه والجمِّ الغفير من الأعيان والأهالي وساقة الناس. ووقف الجميع عند باب القشلة الكبرى، والعساكر مصطفة والموسيقى التركية تصدح بتلك النغمات المطربة، وكان موكب عليه من المهابة وحسن الرونق أمر عظيم. ثم بعد أن تُلي الفرمان باللغة التركية تقدم قاضي البلد وتلا خطبة باللغة العربية يدعو فيها بالخير لمولانا السلطان عز نصره وللمتصرف الجديد وسائر الأمة.

ومن هناك توجه الباشا للزاوية السنوسية وكنت أنا بالزاوية فكلفني الشيخ أحمد مختار وبعض الأعيان من الاخوان بنظم أبيات تهنئة للباشا، والحق أن هذا الباشا ممن يستحق الهناء،

رجل خير من أهل البر والتقوى والعبادة يناهز الستين من عمره وعليه مهابة ووقار ولطف اسمه «أحمد أنور» كان حاكم بغداد قبل هاته النوبة، فنظمت تلك التهنئة في الحين بما جادت به القريحة، وسردها الشيخ أحمد مختار على حضرة الباشا ودعوا له بالخير، ومن الأبيات:

أدارَ من الهنا كأسَ السرور ــــ قدومُك للبلاد بكلِّ خيرِ
قدومٌ في ربيع كالربيع ــــ ونورٌ لاحَ في نَوْرِ الشُهورِ
تبسّمتِ البلادُ بكُمْ وأَمْسَتْ ــــ تَجرُّ ذُيولَ أبواب الحُبورِ
ولاحَ البِشْرُ عن طرر الأهالي ــــ ونارَ القطرُ بالمولى الوزيرِ
قدومٌ بارك الرحمنُ فيه ــــ يليه السعدُ بالخير الغزيرِ
وندعو الله أن يبقيك كهفا ــــ ويحفظ ذاتكم من كلِّ ضيرِ
ويبقي لنا أميرَ المؤمنين ــــ وسيّدنا على أمدِ الدهورِ
ففيضُ الخير من عبدِ الحميدِ ــــ وعمدتُنا على أمدِ الدهورِ(٢٦).

فوقعت عند الباشا موقع الاستحسان.

ثم إن القاضي كتب هذه القصيدة بخط يده وكان من أبرع الناس في الكتابة بخطه الثلثيِّ الجميل. وأُرسلت القصيدة مع جواب من الأهالي يتضمن الثناء على الباشا إلى الحضرة السلطانية. والقاضي هو رجل من أبناء أكابر دار الخلافة شاب لطيف جميل المنظر يلبس الثياب الرفيعة ويتزيا تارةً بعمامةٍ خضراء لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، متحنك ومتفنن وله محبة عظيمة في اللغة العربية والعلوم العصرية. يميل كثيراً إلى الشعر العربي! وكم من ليالي أحييناها في السمر والتحميض بمحلّه. وكان يصنع لي الطعام الفاخر اللذيذ، وتظهر عليه آثار الرفاهية من لباسه ورياشه. ويبدي الضجر من المكث بمرزق. طلب مني أن أقريه شيئاً من هذا العلم، أعني علم الأصول وأعرفه بحقيقته، فأقرأته شيئاً من الحطّاب على الورقات جزاه الله عني خيراً. وكان منور الذّات والفكر بحيث لا تشبع العيون عن رؤياه(٢٧).

[ومرزق] كانت محط رحال القوافل السودانية والصحراوية وهي منتصف الطريق لمن قدم من طرابلس قاصداً مدينة برنو يعني كوكة. يقصدونها من وادّاي ومصر وجالو وتوات. وكان يأتيها الركب التّواتي قاصداً حج بيت الله الحرام، يتألف من آلاف من البشر. فيقيم هناك مقدار خمسة أيام وعشرين يوماً: يبيع ويشتري ثم يسافر. ونمت بها التجارة إلى أن بلغت حداً عظيماً من الرفاهية. لكن لما وقع المنع من أحد متصرفي فزان بعدم تجارة الرقيق، وأعتق جميع من في البلد منهم، ومنع دخول العبيد الأرقاء إليها، تقهقرت تجارتها ولم تأتها القوافل وصار محل التجارة بلد غات إلى هذا اليوم(٢٨).

وبمرزق وجدت من العسكر النظاميين ما يقرب من المائتين.

ودخلُها السنوي ما يقرب من ثلاثمائة ألف قرش، هي وأعمالها تستخلص على النخيل وبعض الرقاب، وبعض الأملاك بغير قوانين منظمة. وجميع بناءات البلد مبنيّة بالطين والتراب والجير. وبها قِشلة للعسكر. وبها قصر كبير يسكنه متصرف البلد في الغالب، وهو محل إدارة

الحكومة. به أربعة مدافع من الطراز القديم. وبه مجلس بلدي رئيسه المتصرف به عشرة أعضاء من أهالي البلد، يجتمع يوم الخميس ويوم الأثنين من كل أسبوع ينظر في مصالح البلد بلا راتب شهري. وكان بالبلد قنصل انكليزي ثم أبطلته الدولة الإنكليزية ولم أدر ما هو السبب. وليس هناك علماء إلا أن غالب أهل البلد يحفظون القرآن العظيم كما هو عادة بلدان الصحراء(٢٩).

أما الأعيان والتجار فغالبهم من غير هذا البلد، ونسمي لك من تعرفت من سادتهم: عبد الرحمن تنيتيو والسيد الشريف السنوسي والحاج الكيلاني الهوني وعبد الحميد اليزباشي، وسي الحاج محمد بن علوة وأخوه سي الحاج عبد الله وبالحسن الأمين وموسي بن عثمان والشيخ أحمد مختار شيخ السنوسيين والإمام الأكبر بالجامع الكبير.

لم يوجد بهذا البلد شيء من الغلال والثمار والفواكه إلا بعض البقول كاللفت والقثّاء والسلق والمعدنوس (البقدونس) والطماطم والفلفل. أما الزيت والسمن فيجلب لها من الخارج. ولا تسأل عن رخص التمر بها، فهو قوت البلد المعتاد، أما الفقر فمفقود. أما من يتعاطى بيع المعاش من الخبز والتمر والخضر وغير ذلك فهم النساء، وذلك بسوقه المعتاد أمام المبنى البلدي الكبير داخل المدينة. وفيهنّ خصال حميدة منها حبهم للغرباء، ولهم رأفة وحنانة عليهم جبر خاطر. وهم في غاية الحسن واللطافة، ولا يوجد فيهن الجمال، ولهم ثغور كالجوهر النضير ينطبق عليها قول ابن سهل الأشبيلي:

وإذا تبسم عن لؤلؤة ثغره	سلب العقول إذا بدا مبتسما

أو قول الحريري:

نفسي الفداء لثغر راق مبسمه	وزانه شنب ناهيك من شنب
يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد	وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

ولهم عيون صحاح كأنما عناها من قال:

عيون عن السحر المبين تبين	تسالمها العشاق وهي تخون
مراض صحاح فناعسات يواقظ	لها عند تحريك الجفون سكون

ومن أراد أن يتزوج بهاته المدينة فإن صداق المرأة الحسنة الشرعي لا يتجاوز المأتين فرنك في الغالب، وهن متغلّبين على رجالهن.

وبهاته البلدة البيض والدجاج بكثرة مع رخص الثمن. ومرزق ملآنة بالتوارك (الطوارق) وهم الذين يبيعون الحطب والفحم(٣٠).

وبالبلد سوق عام به حوانيت التجار وكل شيء من أنواع السلع يباع فيه بالمزايدة. ويفترق السوق باقي ساعتان إلى الزوال، فلا ترى بعد أحداً به إلا حوانيت التجار تمكث مفتوحة إلى المغرب وبعده. ولا توجد عندهم تجار أغنياء فإن أول غني عندهم من التجار يسمى المهدي العامري. مات أبوه فخلّف له مقدار الستين ألف قرش وهي اثنا عشر ألف فرنك، وهذا المقدار له بال عظيم بهذا البلد، لأن القرش يفعل ما يفعله الفرنك بهذا البلد.

وأسعار الأشياء رخيصة جداً، الحمل من الحطب الغليظ يباع بقرش، وحمل الفحم مثله بثلاثة قروش. وأجرة البنّاء في اليوم قرش ونصف ومثله خدام البساتين. وبالجملة أن كل شيء ينسب إلى البلد رخيص إلا القمح والزيت والشعير ويجلبونه التجار من الخارج، أما الزيت فيمسحون به رؤوسهم فهو عندهم كالعطر وأدمهم شحم البعير إلا المثري فيستعمل الزيت أحياناً أو السمن.

ولا يوجد بالبلاد طبيب إلا طبيب العساكر، ويوجد ساعاتي تركي الأصل منفي هناك.

وأحواز البلد عن قريب بها بعض الأراضي الصالحة تعظم بها المقاثي خصوصاً الدلاع.

وماؤها على غاية من الحلاوة يجلبونه من الآبار في قلال كبار على شكل صنوبري على ظهور نسائهم أو عبيدهم للشرب. وفي جميع وطن فزان وغات يخرجون الماء من الآبار بواسطة أحمرة في الغالب ظريفة الجرم. وغالب كسبهم النخيل. ولا ينزل المطر في هذه البلاد إلا قليلاً في المدة الطويلة. وعن عدم نزول المطر في هاته البلاد إلا قليلاً في المدة الطويلة، حكي لي السيد عبد الله بن علوة أن المطر لا ينزل عن بلادهم إلا بعد أحقاب، قال: والآن أربعين سنة لم تَجُد السماء بقطرة وذلك من فضل الله عليهم لأن المطر يضر بالتمر الذي هو قوت البلاد، ويهدم دورها(٣١).

بنغازي والجبل الأخضر

هاته المدينة كانت في القديم تحت حكم باشة طرابلس والآن يأتيها باشا خصوصي مثل طرابلس من الاستانة نظره تحت وزير الخارجية يدير شؤونها وهي في الحقيقة من أعمال طرابلس اعتباراً.

كان قدومي لبنغازي من مالطة عن طريق طرابلس وفي اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة الحرام على متن البابور المسمى بالعُصملّي لشركة من اليونان، فبلغناها قبل الزوال بساعتين سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م، ولما نزلنا من البابور إذا برجلين واقفين على الرصيف فلما وضعت رجلي بالبر طلبا مني تذكرة السفر من بلادي فناولتهما إياها، ولم يرداها إلي إلا بعد ثلاثة أيام حتى ضمَّنها شيخ البلد بدفتره الرسمي.

ومن عوائد أهل البلد إذا قدم عليها بابور، يخرج غالب تجار البلد ورئيس البلدية ومدير الجمرك ولفيف الخلق فيصطفون على جوانب رصيف المرسى الذي ينزل فيه المسافرون حتى أن المسافر لما يصل إلى البلد يكون معروفاً بالذات عند جميع أهاليه والحكومة(٣٢).

وجرى العمل أن بعد خمسة عشر يوماً يأتيهم بابور اسمه «سعد الله» لإنسان من تجار الإسكندرية، كما يأتيهم بابور آخر وهو الذي حملني اسمه «العصملّي» بعد خمسة عشر يوماً إليها. والحاصل أن في تلك المدة لم تكن مواصلة السفن بثغر بني غازي كثيرة. وموقع المرسى في الناحية الغربية من البلد، والبحر يحف بالبلد من الجهة الغربية والجوفية بحيث أن الشمس إذا غربت تسقط بالبحر، ولها منظر عجيب عند غروبها فيه، لأنني لم أشاهده قبل ذلك وإن شاهدته بعد أثناء سفري لأوروبا(٣٣).

يوجد في بنغازي اثنا عشر رجلاً من الجرابة (أي سكان جربة) وبعض من الصفاقسيين وبعض من الطرابلسيين دون العشرة وجانب عظيم من اليهود. أما أهالي البلد فلا يتعاطون هاته الصناعة. وليست لهم إلا صناعة الفلاحة. وأهل هاته المدينة لهم همم عالية وسيرة مرضية متولعين بحب الاطلاع على أحوال غيرهم من أمم المشرق والمغرب. فرأيت لهم عزماً عظيماً وتولعاً بحب قراءة الصحف، والحق أن الطريقة السنوسية هي التي هذبتهم.

ولا تدخل السلع الأوروبية في ذلك الوقت إلى بنغازي إلا بعض من الفخار كالقدور والأواني، يأتون بها بعض الطليانيين. أما السلع الداخلية فهي الجرود وهي عبارة عن الأحرمة الجريدية والجربية واللفة بتمامها والقماش بأنواعه؛ والسكر بأنواعه والعطرية والأبزار والملف بأنواعه ومحارم حرير وخيط قطني وبشاكر صفاقس؛ وماعون جيد ونحاس وسكاكين وأمواس ومناجل وأصحنة وصناديق لوح (خشب) مدهونة ووورباع من صنعة تونس؛ والكاغد بأصنافه والزبد أنواع والروائح الطيبة والأعطار كماء الياسمين والزهر وأعطارها والمسك، وأنواع الشاشية التونسية ولا يلبسون غيرها، وغير ذلك. وهاته البلدة يباع بها كل ما يأتيها من السلع بثمن عال خصوصاً السلع الردية فإن بها يربح الأرباح الباهظة. فكثيراً ما يشترون من عند من لا يخاف الله عطر الفتنة ويظنونه عطر ورد من العال بثمن عطر الورد الحقيقي. وهكذا في كل الأشياء. فالتاجر تتوافر أرباحه إذا كان عنده السلع الردية، وربما أتى بعض التجار بالسلع الغالية فلا تخرج لوفرة سعرها لأن البلد بلد بواد وأعراب، وغالبهم من أهل طرابلس ومصراتة، أما أهل البلد فليست لهم حرفة إلا صناعة الفلاحة[٣٤]. ومع أنهم مختصون بها (بالفلاحة) لا يتقنونها، ولو إنهم معتنون باتقانها لكانوا أثرى بلاد في افريقة، لخصوبة أراضيهم. والعام الذي لم تنتج لهم فيه الفلاحة تتعسر أحوالهم فتمدهم الدولة العلية بما يتزودونه تلك السنة القاحطة، والغالب عندهم الخصب الذي لم يوجد له نظيره في كثير من بقاع أرض الله الواسعة. فقفيز القمح بالأرض ينتج العام المتوسط من الأربعين إلى الخمسين قفيزا، وفي العام الصابة (السنة الماطرة) يبلغ المائة ومثل ذلك الشعير. وفي زمن الصيف تأتي لها السفن من أوروبا إذا كان العام خصباً فتشتري منها القمح، والشعير يأخذ منه الإنكليز الكثير لصنع البيرة وهو أحسن من غيره.

حكى لي يوماً السيد محمد المهدوي شيخ البلدية أنه أخذ من بنغازي إلى أوروبا في سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م ستين ألف قفيز ونيف ما بين قمح وشعير.

أما أنواع الحيوانات بهاته البلدة وكثرة وجود أصنافها فحدث عن البحر ولا حرج. كفاك أن الكثير من لحوم مصر والشام تأتيهم من بلد بنغازي من بقر وضأن ومعز، طعمه في غاية اللذة. واللحوم لا تتجاوز الوقة نصف فرنك عبارة عن رطلين ونصف، والدجاج والبيض بها رخيص جداً، والحمام كذلك الأربعة بنصف فرنك، والخضر والبقول والغلال فلا قيمة لها بهاته البلد وجميع ما فيها من الطعام رخيص، والسمن والزيت والعسل كذلك. والحاصل أنني لم أر مكاناً فيما وطئته رجلي أرخص أسعاراً من هذا البلد.

أما هواء البلد ففي غاية الاعتدال والنعومة فلا تحلها الأمراض العادية[٣٥].

وجميع أراضي أحواز البلد الخارجة عنها مسافة ستة كيلومتر يملكونها الأهالي وفيها بساتينهم. ثم بعدها تجد أراضي شاسعة ممتدة الأطراف ليس على ملك أحد إلا الله، خصبة ناعمة يحرث بها من شاء من أهل البلد أو عرب الجبل الأخضر بلا أجر ولا يؤدون شيئاً للدولة. وكلما بعدت عن البلد اتسعت الأرض مع الخصب والجودة بحيث تراها كأنها محترثة، والحال أنها من عهد آدم لم تحرث فمهزول الأحمرة يثيرها. فحز ما شئت واحرث ما شئت، وما عليك من الأداء إلا ما أوجبه الله على عباده من الزكاة الشرعية. ومن أراد أن يملك أرضاً بوطن بنغازي بعيدة عن البلد بمقدار الخمسين أو الستين كيلومتر فإن ثمن ألف أكتار لا يتجاوز الخمسة آلاف فرنك. وكل ما بعدت عن البلد أخفضت أسعار الأرض وانعدم بيعها وشراؤها من مسافة السبعين كيلومتر تقريباً[٣٦].

أرض برقة وغلالها: وبعض أرض برقة من جهة الجبل الأخضر على مسافة عشرة أميال من بنغازي بها غابات كثيرة من الخروب والمشمش والليمون والتفاح والإجاص والرمان وغير ذلك.

وأهلها عرب بادية ينسبون أنفسهم إلى عرب المحاميد بوطن طرابلس، وكانوا على عهد الدولة الحفصية يرتحلون في بعض السنين الجدبة إلى باجة القمح بأرض تونس يتزودون منها القمح والشعير ثم يرتجعون إلى بلدهم[٣٧].

ومن أعمال بنغازي الجبل الأخضر، وبه المياه العذبة وجميع الفواكه المتقدمة الذكر. ويخرج من هذا الجبل العود المعروف عندنا بالسرداوي لسقوف البيوت ويخرج منه لحاء بعض الشجر يعني قشوره لصبغ بعض الأقمشة يرفعونه لكل من مصر والشام والإسكندرية. ويوجد بأطراف الجبل الملح الجيد فقد رأيت جبلاً من الملح بمرسي بنغازي ترفعها السفن العظيمة من مرساها[٣٨].

اعلم ان سكّة هاته البلد كسكة طرابلس وأعمالها، وأنواعها: ليرة عثمانية، قطعة من الذهب صرفها مائة وتسعة وعشرون قرشاً، المجيدي عبارة عن قطعة من الفضة صرفها أربعة وعشرون قرشاً، البوشليك قطعة من الفضة عبارة عن فرنك تقريباً. والبارة عن قطعة صغيرة الحجم من الفضة صرفها ثماني زلطات. الزلطة قطعة نحاس مقدار الصولدي التونسي في الجرم صرفه سانتيم تقريباً ولكن له اعتبار في البيع والشراء[٣٩].

شكل البلدة: وجميع البلد على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس إلا حومة (حي) الافرنج التي بها محل قناصل الدول، فعلى الشكل الأوروبي وبعض بناءات للوجهاء والحكومة كذلك.

وفيها مساجد كثيرة نخص بالذكر منها الجامع الكبير الذي بالسوق وبه منارة عظيمة. ومسجد الحنفية وهو مسجد عظيم في غاية الاتقان والنظافة والاتساع. ومسجد زاوية شيخ الطريقة المدنية وغير ذلك. وبها زاوية عظيمة للشيخ السنوسي، وزاوية لشيخ الطريقة المدنية، وبها أسواق منتظمة تشبه أسواق تونس وأعظمها سوق اللفة [القماش].

ولباس أهلها شاشية من عمل تونس تحتها عراقيّة بيضاء يظهر من تحتها شيء قليل، وسراويل إلى الكعبين كسراويل عساكرنا التونسية، وسورية (قميص) فوق السراويل إلى نصف الرجل، وفرملة [مثل الصديري] إسكندرانية أو تونسية، يُلتف فوق ذلك بحرام تونسي. ولم تجد من يلبس برنساً من أهل البلاد، وأنعلتهم شبه البلغة التونسية، وبعضهم يلبس في زمن الشتاء أنعلة تونسية، وكذلك لباس أهل مصراتة ودرنة والخمس والساحل وطرابلس.

وفي هاته السنين الأخيرة يخرج من بنغازي ركب عظيم يتألف من خمسمائة جمل فما فوق في مبادىء شهر أكتوبر (تشرين الأول) من كل سنة يتألف من بعض تجار أهل طرابلس ومسراطة ويبلغ إلى وادّاي في ظرف ثمانين يوماً. فيحمل من بنغازي جميع أصناف السلع خصوصاً أنواع القماش واللفة والسكر والشاي، ويقيم في الطريق أياماً قليلة، منها أيام ثلاثة في الكفرة القاطن بها الشيخ سيد محمد المهدي يزورون ذاته الشريفة ويتزودون منه الدعاء ذهاباً وإياباً. ثم يأتي هذا الركب بسلع من واداي منها العبيد والريش وناب الفيل والجلد، ولا يمكث الركب أزيد من سنة إلا لحادث. والذي كان سبباً في هذا الركب وفتح هذا الطريق هو سيد محمد المهدي شيخ الطريقة السنوسية وأمنه من اللصوص بحيث أنك تسير من بنغازي إلى واداي لن ترى بالطريق ما ينكد عيشك ولم تسمع بأحد من التجار اختلس له عقال بعير، خصوصاً وأن الطريق يأتي على واحات الكفرة التي بها الشيخ السنوسي.

وبنغازي منعدم من جهة دخله المالي(٤٠).

وفي شرقي البلاد على ثلاث مراحل من (بنغازي) تجد مدينة هائلة ذات بناءات وأسوار وقصور شاهقة... وتسمى شحات... بها آثار عجيبة من بناءات (اليونان) والرومان حكى لي السيد الحاج أحمد المهدوي شيخ البلدية ببنغازي حكاية نصها أنه في سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م كانت الدولة الإنكليزية طلبت من مولانا السلطان عبد العزيز نعمه الله أن ترسل سفينتين إلى عمل ينغازي لأخذ شيء من النشاف (الاسفنج) لأن هذا الشط يوجد به النشاف بكثرة ولأنه صار غنيمة باردة لليونان. فأذن بذلك، فلما وصلت السفينتان كان دأب الإنكليز الحفر في تلك الأطلال البالية واستخراج الآثار العتيقة من مدينة شحات كأوان من الفضة والنحاس والمواعين والخواتم المنقوش عليها صور عجيبة والتماثيل المرمرية والرخامية وغير ذلك. حتى أنهم عثروا على تمثال شحات الذي تسمت باسمه فأخذوا الجميع. وكان ما حملوه وقر سفينتين فأخذوا الجميع وأقلعت السفينة قاصدة مدينة لندن(٤١).

مدينة مصراتة

هذا بلد عظيم من أعمال طرابلس يقال له مسراطة (مصراته) بينه وبين البحر اثني عشر كيلومتر. وهواؤه جيد للغاية وماؤه طيب وأراضيه خصبة، به النخل الكثير. فلكل واحد من أهل البلاد بستان يخصه، وهم يخدمون الأرض حتى يصيّروها كالحرير الناعم على نمط أهل صفاقس وضد أهل بنغازي. وفيها من جميع الغلال والفواكه ما لم يعلم علمه إلا الله لأن المياه بها كثيرة جداً. وأهلها عالمون بالفلاحة وخدمتها، يخرج منها القمح والشعير لأوروبا

بكثرة في سنين الخصب، وكذلك الزيت لأن زيتونها على غاية من حسن الاتقان. وهو كثير عندهم متولعون به. ويخرج منها السمن الطيب بأنواعه، وهو بلد كبير بناؤه متفرق عن بعضه بعضاً في الغالب كبساتين صفاقس وأرضها أجود من أرض صفاقس وأخصب وأكثر مياهاً.

أما أهلها ففي غاية الحسن والجمال والرفاهية وحسن المعيشة ورخيصة الأسعار مثل بنغازي وأرخص، وكلهم تجار أصحاب جد واجتهاد[٤٢].

وبها ثلاثة أسواق، سوق الأحد وهو السوق الكبير، تأتي لهم العرب من جميع أنحاء طرابلس من كل حدب، ينسلون على مسافة خمسة أيام أو أكثر فتتجمع به ألوف من العرب، خصوصاً في فصل الربيع، كعَروش ورَفلة والسعادة وترهونة وعرب ابن وليد والجبل وأهل طرابلس نفسها. وأهل بلد زليطن والخُمس والساحل وغير ذلك، وتعظم أسواقها. ويباع بهاته الأسواق جميع أنواع الحيوانات من البغال والخيل والحمير والجمال والبقر والغنم والمعز. وترى ألوفاً من هاته الأصناف. ويباع بها السمن الجيد الصافي عديم النظير، والعسل المصفى والزيت الحلو الطيب والدجاج والبيض، ويخرج منه إلى طرابلس ألوف من الصناديق اللوح (الخشب). وبه أنواع الطيور من الحمام والوز والجرمان، يعني البط، بثمن زهيد. ويجلب لسوقها من أنواع الصيد البري ما لم يعلم علمه إلا الله، كلحم الغزال وبقر الوحش والأرانب والحجل والقطا والدرج والحمام البرّي وغير ذلك. والتجارة رابحة بهذا البلد ويختص بصناعة المرقوم الجيد المختص بهذا البلد مثل اختصاص القيروان بصناعة الزرابي. ومثل السوق المذكور سوق الخميس وسوق الثلاثاء إلا أن سوق الأحد يعظم أكثر منهما.

وبعد صلاة الجمعة من كل أسبوع تخرج قافلة كبيرة في مقدار مائتي جمل وأكثر ذاهبة إلى طرابلس فتبلغ إليها صبيحة يوم الثلاثاء، لكنها تسير ليلاً ونهاراً سيراً مجداً بحيث يمنع النوم إلا وقت الاستراحة القليلة وهي مقدار الثلاث سوايع في الليل ومثلها بالنهار[٤٣].

وغالب تجار مصراتة من اليهود[٤٤] وهم كثيرون في غاية الرفاهية يتمتعون بحرية تامة في كسبهم وارتزاقهم ودياناتهم. ولا توجد في البلد قناصل للدول الأوروبية. وبها كثير من اليهود التونسيين والجزائريين ولم يوجد بها من الجرابة إلا نفراً واحداً ولم يوجد بها أحد من الصفاقسيين.

ويوجد بالبلد خمسة وعشرون عسكرياً ومعهم ضابط من رتبة يوزباشي وحاكم تركي إلا أن عَسَّة البلد في مدة إقامتي فيه غير كافية للأمن.

ويوجد بمصراتة رجل من رعايا اليونان لكنه شهر على نفسه أنه من رعايا الإنكليز يتجر هذا الرجل في القمح والشعير وله دكان في غاية النظافة يبيع فيه أنواع المملحات والمقرونة (المعكرونة) والجبن. ويتعاطى رهن الرباع والعقار بفايظ (فائدة) معلوم. ورأيت الكثير من أعيان٢٨٦ البلد يجلس بدكانه حتى حاكم البلد نفسه. وسكة نقودها مثل طرابلس وبنغازي[٤٥].

خزانة الكتب في الجغبوب

أما الكتب الموجودة بخزائنها فقد نيفت على الثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك. ولا يطبع كتاب في العالم باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به. فيوجد عندهم ديوان العلامة الشاعر المفلق الشيخ سيدي محمود قبادو الشريف التونسي، وتاريخ الشاعر الأديب الشيخ سيد محمد الباجي المسعودي التونسي.

ومن أدباء هذا البلد من يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر الرقيق، ومن علمائه البحر الزاخر العلامة سيدي أحمد الريفيّ كبيرهم وقدوتهم، وهو تلميذ الشيخ الأكبر الشيخ محمد السنوسي وهو شيخ أبنائه سيدي محمد المهدي وسيدي الشريف. يقال إن الرجل يحفظ ما يقرب من عشرين ألف حديث ومنهم سيدي الفالح أديب زمانه وعالم عصره وأوانه. وهذا الرجل كان في حدود سنة ١٣١٢هـ الموافق ١٨٩٤م ضيفاً كريماً عند أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد. ومنهم الشيخ سيدي هاشم مؤدب سيدي المهدي وسيدي الشريف في القرآن العظيم، أصله من بلدة صفاقس. ومنهم سيدي أحمد السُني عالم جليل أرسله سيدي محمد المهدي في هاته السنين الأخيرة إلى السودان وأصله من الغرب يقصد الراحة في بعض القبائل وبيت الطريقة هنالك سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م وكان رابح المتسلط على بُرنو في خوف منه. ومنهم سيدي محمد البسكري أصلُه من بسكرة الجزائر وهو بمثابة وزير سيدي محمد المهدي شيخ الزاوية وصاحب مشورته. ومنهم الشيخ سيدي محمد التُواتي. أصله من توات على يده جميع الصادرات والواردات من الأجوبة. وهؤلاء كلهم أطواد في سائر العلوم النقلية والعقلية خصوصاً في التفسير. ومن أكابر تلاميذ الشيخ الأكبر العلامة النحرير الأديب الشيخ سيدي محمد حيدرة الهوني، أصله من بلد هون وشيخ زاويتها وله باع عظيم في المحاضرات، ويحفظ آلافاً من الشعر الرقيق. اجتمعت بحضرته الشريفة بزاوية «الطليمون» عندما كنت راجعاً من الجغبوب إلى بلد بنغازي متوجهاً إلى هون فقضينا ليلة كاملة في المحاضرات والتاريخ وختمنا بمساجلة شعرية دامت بيننا ساعة كاملة. وهو في غاية الفصاحة واللطافة ووفور الأدب وحفظ الشعر الرقيق على عادة السنوسيين إلا أن سنه إذ ذاك يناهز السبعين(٤٦).

الاخوان

«فصل في معنى الإخوان وبيان حالتهم في سيرتهم الدنيوية ومتعلقات هاته الطريقة وذكر بعض أعيانهم وطبقاتهم فنقول: الإخوان. هاته لفظة تطلق على كل إنسان أخذ الطريقة السنوسية وتمسك بوردها وتسمى هاته الطريقة بالطريقة المحمدية كما عرفها بذلك الشيخ نفسه في تأليفه المسمى (بالسلسبيل المعين في ذكر الطرائق الأربعين)، فيقال فيما بينهم فلان من الإخوان يعني سنوسي الطريقة، هكذا في عرفهم، وهؤلاء الإخوان تنقسم إلى أربعة

أقسام منهم من هو في درجة عالية من العلم كالشيخ سيدي محمد الريفي، يقال إن هذا العالم يحفظ أربعين ألف حديث وقيل عشرين ألفاً وهو رجل كبير السن ولا أدري هل هو بقيد الحياة في يومنا هذا أم لا. والعلامة سيدي الفالح وهذا الرجل مع علمه الدافق وأدبه الغض قلما يوجد من يحسن قراءة كتاب الله مثله، حتى أن السلطان عبد الحميد كان أرسل لجناب الشيخ المهدي بأن يرسل له الشيخ الفالح للآستانة ليقرأ القرآن العظيم على مسامع حضرة عبد الحميد(٤٧)».

«فامتثل الشيخ سيدي المهدي وأرسل من حينه الشيخ الفالح. ولما بلغ إلى الآستانة أكرم السلطان نزله فاحضر له مكاناً فسيحاً مزخرفاً وأهدى له جارية جميلة ووقعت له مكانة عالية عند السلطان. ولما كان البرد مشتداً بالآستانة تعب الشيخ الفالح من ذلك ولم يوافق بدنه حيث كان بأرض حارة ثم طلب من السلطان السفر لبيت الله الحرام لأداء الفرض. فسمح السلطان بذلك فتوجه إلى مكة المشرفة ولا علم لي بعد ذلك. والظاهر أنه رجع بجغبوب بعد اداء الفريضة والله أعلم. الطبقة الثانية مثل العلامة الأديب سيدي بوسيف. هذا الرجل عظيم الاعتبار له شجة بجبينه بسبب حجر سقط عليه حين كان الشيخ الأكبر يبني في زاويته الجغبوبية من أعلى القبة وكان من ألطاف الله وكرامات الشيخ سلامة سيدي بوسيف من ذلك وبرؤه سريعاً. وكالشيخ سيدي هاشم مؤدب الشيخ المهدي وسيدي مدين. وهؤلاء الأعلام كلهم من أرض الجزائر وتونس والمغرب. والطبقة الثالثة كالشيخ سيدي محمد التواتي وسيدي محمد البسكري وغيره. والطبقة الرابعة عموم الناس من العرب وغيرهم وغالبهم يحفظون القرآن الجيد عالمون بمبادىء العلوم من فقه ونحو وصرف وغيره والجميع متحدون قلباً وقالباً على حب شيخهم يرونه هو عمدتهم في الطريق الموصل إلى الله ورسوله. ولهم مزايا عظيمة مع بعضهم بعضاً فإنهم يعينون بعضهم بعضاً في السراء والضراء ولست ترى فيهم متكففاً، وحرفة اعيانهم المتجر وكسب النخيل وغالبهم من الأغنياء الذين انعم الله عليهم ولهم حظ عظيم من التمتع بعيش الدنيا ولذائذها الحلال من حسن الأكل والمشرب واللباس ويرونها الطيبات التي أحلها الله لبني آدم فليسوا على مشارب المتصوفين المتقشفين يأكلون الأرز مطبوخاً بلحم البعير والسمن وهذا ألذ طعامهم المتقرب للأضياف. والتمر الجيد مع خبز الشعير. أما سكان القرى فيأكلون ما شاء الله من الأطعمة الفاخرة إلا أنها لا توجد بالبلدان الصحراوية. وغالبهم أنه بعد الأكل يستعمل الشاي ويقولون له الشاهي في عرفهم(٤٨)»، يتنافسون فيه بحيث أن كل واحد منهم يشرب ثلاث زجاجات بعد الغداء ومثلها أو أكثر بعد العشاء، وبعض المترفين يشربه بالعنبر ولهم عدة قصائد ومقاطيع ينشدونها تفكهاً وتحميضاً في وقت شربه.

لباس السنوسيين وزيهم

«أما لبسهم وزيهم فإنهم يلبسون الثياب الرفيعة كالحرام الجريدي الطيب وأنواع الملف المعبر عنه عندهم بالملف التونسي القرمسود الهندي والشاشية التونسية ويستعملون العطر

حتى أنه إذا مر أحد منهم تغشاك رائحته الطيبة عْلى بعد. وأحب الأعطار إليهم عطر الورد يقولون له العطر الوردي مع ذلك يبخرون اثوابهم بالعنبر. وفي هاته الأيام الأخيرة أتتهم مع بعض التجار «الكولونية» لكن توقفوا في استعمالها، وسألني بعض عنها هل هي مستعملة عند علماء تونس أم لا فأجبتهم بأن بعض العلماء يرى طهارتها والبعض يمنع ذلك تورعاً. والحاصل أن الروائح الطيبة لها مكانة عظيمة عندهم. كان عندي قالب من الصابون السوسي الممسك هدية للعلامة الشيخ سيدي محمد حيدرة فوقع عنده موقع الاستحسان وأعجب به. ولهم في مدح الشاهي عدة مقاطيع وقصائد وأراجيز يطول بنا ذكرها ويقولون إن الشيخ الأكبر أوصاهم بشربه لأنه يعين على السهر لاقتناص العلوم وفيه منافع كثيرة. ولنورد هنا أرجوزة للشيخ أحمد بن الأمين أحد مشائخ زوايا بنغازي لما فيها من الفائدة العامة لمن يحب الشاهي، تتضمن تعريف الشاهي وشهرته وسبب حدوثه ومزاج الأخضر والأسود منه وبيان منافعه ومضاره وبيان طبخه وطريق استعماله وطريق شربه».

الشايُ قسمانِ أخضرٌ وأسودُ ... والأحسنُ الأسودُ فيما أيَّدوا
وبعضهم مال وقال الأخضرُ ... هو اللطيفُ الأحسنُ المفتخرُ
وليس عندي لازماً إذ قد أتى ... في النظم والنثر الصّحيح المثبتا
فخذْ منافعاً أتت في الشاهي ... مقويَّ الإنعاظِ ثم الباهي
يمنع أيضاً سرعةَ الإنزال ... مهضِّماً لأكلِنا في الحال
مقويَّ الدماغ ثم القلب ... مفرحٌ لهُ مُزيلُ الوَصَب
وينفعَنَّ النزلةَ القديمةَ ... وينفي البلاغمَ العظيمة
وإن أردت طبخه يا صاح ... في الليلِ إن شئتَ أو في الصباح
فخذ من الماءِ القراح الجيِّدِ ... وصبَّه في السَمَوارِ فوراً وقِدِ
واغليه غلياً جيّداً على الولا ... كما أتى في بعض قولِ الفضلا
لا تغترر بصوته إذا علا ... حتى ترى البخارَ في الجوّ علا
ونظّف البرادَ إن فيه دَرَنْ ... وضع من الشاي فيه واغسِلَنْ
واسكبْ عليه الماءَ إن كان غلا ... واجعل له السكرَ حتى حلا
وغطِّه وضعْ عليه منشفةْ ... واصبر عليه ساعةً واستفْرِفَه

الهوامش

(١) محمد بن عثمان الحشائشي، **جلاء الكرب عن طرابلس الغرب**، تحقيق علي مصطفى المصراتي (مخطوطة، مكتبة الاسكندرية)، ص ١٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨.
(٥) هذه قضية ناقشه فيها محقق الكتاب علي مصطفى المصراتي في ص ١٢ ـ ١٤.
(٦) الحشائشي، المصدر نفسه، ص ٣١.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٥.
(٨) المصدر نفسه، ص ٢٠.
(٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.
(١١) المصدر نفسه، ص ٦٦ ــ ٦٧.
(١٢) توفي ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م.
(١٣) الحشائشي، المصدر نفسه، ص ٦٧ ــ ٦٨.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(١٥) المصدر نفسه، ص ٦٨ ــ ٦٩.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٧٠ ــ ٧١.
(١٩) مجلة **الأحكام العدلية**. وقد أشار إلى المذهب الحنفي لأنه كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية.
(٢٠) الحشائشي، المصدر نفسه، ص ٧١ ــ ٧٢.
(٢١) المصدر نفسه، ص ٧٢ ــ ٧٣.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٧٧ ــ ٧٨.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٩٢ ــ ١٩٣.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٧٩.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٥.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨١.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ٨١ ــ ٨٢.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٨٢.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٨٢ ــ ٨٣.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٨٣ ــ ٨٤.
(٣١) المصدر نفسه، ص ٨٥ ــ ٨٦.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ٨٨.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ٨٩.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ٩٠ ــ ٩١.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩١.
(٣٧) المصدر نفسه، ص ٩٢.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ٩٣.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ٩٣.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ٩٤ ــ ٩٥.
(٤١) المصدر نفسه، ص ٨٧ ــ ٩٦.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٠١ ــ ١٠٢.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢.
(٤٤) لا يوجد الآن يهود في دواخل ليبيا.
(٤٥) الحشائشي، المصدر نفسه، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٥١ ــ ١٥٣.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٧٤.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

١١ ـ الحياة الفكرية والأدبية الحديثة في المغرب العربي

١

يسعدني أن تتاح لي الفرصة لأن أتحدث إليكم والموضوع الذي اخترته موضوع شائك شائق، ولن أتحدث عن الشوك فيه، ولكنني إن وفقت إلى أن أشوقكم إلى الاستزادة منه فقد بلغت أمنيتي.

أقطار المغرب العربي، التي أود أن أتناول الحديث عنها هي ليبيا والجزائر والمغرب. واسمحوا لي، قبل كل شيء، أن أذكركم ببعض أحداث التاريخ التي مرّت على تلك الأقطار في الحقبة الأخيرة، لأن ذلك يضع حديثي في الإطار الصحيح. فالمغرب العربي المستقل الآن كان، إلى أمد قصير، يرزح تحت نير أجنبي. فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ واحتلت تونس سنة ١٨٨١ ودخلت المغرب، مع اسبانيا، سنة ١٩١٢، ووقعت ليبيا فريسة الاحتلال الإيطالي سنة ١٩١١.

وثمة معنى خاص للاحتلال الفرنسي للجزائر في ذلك الوقت المبكر، أي قبل أن يتعرف العالم العربي، إلا في جزء صغير منه، إلى الحضارة الغربية، ويأخذ بأسباب التقدم، وتقوم النهضة الحديثة في أجزائه. لم تكن الجزائر تخلو من دور للعلم وبيوت للمعرفة، لكن المعرفة الجديدة والعلم الحديث لم يكونا قد وصلاها يوم جاءت فرنسا وأطبقت عليها، فحالت دونها والتجربة الفكرية والأدبية والسياسية التي مرت بها شقيقاتها من الأقطار العربية. وعزلت الجزائر، فما عرفت بعد ذلك، وإلى عقود طويلة من السنين، إلا ما سمحت فرنسا بالتعرف إليه، ولا وصل الجزائر من نتاج الفكر، إلا ما أقرته فرنسا، ولا امتصت الجزائر من الأدب إلا ما أرادته فرنسا. وتم كل ذلك بلغتها وأسلوبها، وعلى حساب اللغة العربية. وهذه الجزائر لم تعرف في العهد الفرنسي مدرسة رسمية أو معهداً حكومياً يدرس اللغة العربية على أنها لغة البلد! عفواً، أيها القوم، كان في الجزائر ثلاث مدارس في تلمسان ومدينة الجزائر وقسنطينة تدرس العربية والإسلام. هذه المدارس كانت تعد تراجمة للإدارة، وكان فيها كلها، سنة زرتها في ١٩٥١، مائتان وستون من الطلاب، لبلاد فيها آنذاك نحو عشرة ملايين من السكان!

مر على تونس نصف قرن قبل أن التهمتها فرنسا. وهذه الفترة كانت خيراً وبركة على البلاد وأهلها. فقد أخذت تونس فيها تتعرف إلى أوروبا ـ زيارة وقراءة ومدارس ـ وهبّت على تونس بعض الرياح الآتية من الشرق ـ من مصر ولبنان والقسطنطينية ـ ويكفي أن أشير إلى أربعة أمور كان لها في التجربة الحضارية في تلك البلاد أثر لا ينكر. والأمور الأربعة هي: المكتب العسكري وعهد الأمان والرائد التونسي والمدرسة الصادقية.

ففي سنة ١٨٤٠ افتتح أحمد باي مكتباً عسكرياً في تونس لإعداد الضباط المتعلمين للجيش التونسي. ذلك بأن تلك الفترة فرضت على المصلحين في دنيا الأمبراطورية العثمانية أن يقووا جيوشهم. هذه هي الفترة التي قام بها السلطان العثماني محمود الثاني بإصلاح الجيش، واهتم محمد علي باشا بتقوية الجيش في مصر. وفكر أحمد باي بتنظيم الجيش في تونس. وانتهى أحمد باي إلى ما انتهى إليه معاصروه: يجب أن يعد الضابط المتعلم للقيام بتنظيم الجيش وتدريب الجنود. وكان أساتذة المكتب العسكري أجانب من فرنسا وايطاليا وبريطانيا. كانوا يحاضرون للطلاب التونسيين، الذين لا يعرفون إلا اللغة العربية، في التاريخ والجغرافيا والرياضيات والحركات العسكرية والتعبئة. وكان لكل أستاذ ترجمان ينقل محاضراته إلى الطلاب. وفي هذا المكتب العسكري كان الشيخ محمد قبادو يعنى بشؤون الطلاب الخلقية ويعلمهم أصول الدين والأدب العربي. لكن قبادو ومعاونيه قاموا بعمل آخر. جمعوا المحاضرات وتأكدوا من صحة ترجمتها وترتيبها ووضعوها بين أيدي الطلاب كتباً يقرأونها بلغ عددها الأربعين كتاباً، لكنها لم تطبع.

وفي أثناء هذا الإعداد، كان قبادو وصحبه يتعرفون شخصياً إلى هؤلاء المدرسين الأجانب ويتبادلون وإياهم الآراء. وهكذا ففي هذا المعهد، الذي دام بضع سنوات، وضعت اللبنات الأولى للاتصال التونسي بالحضارة الغربية الحديثة. والذين قرأوا مقدمة ديوان قبادو، التي كتبها هو بنفسه، يرون مدى تأثر هذا الرجل العالم بهذه الاتصالات الأولى بالفكر الغربي، هذا التأثر الذي نجده ينمو ويتسع ويُعمق فيما بعد على يد محمد بيرم وخير الدين باشا والشيخ الطاهر بن عاشور، الذين يمثلون أجيالاً من المفكرين المصلحين.

التجربة الثانية هي تجربة عهد الأمان، الذي نشر سنة ١٨٥٧. وعهد الأمان هو، باختصار، شرعة دستورية تبين حقوق المواطنين وواجبات الحكام، وضعتها تونس قبل أي قطر آخر في الامبراطورية العثمانية، بما في ذلك عاصمة الدولة. وقد ختم عهد الأمان بأن الشعب له الحق أن يخلع الحاكم إن هو تنكب عن الطريق المرسوم له في هذا العهد. وعهد الأمان يمثل مزجاً موفقاً لفضائل الشرع الإسلامي والتجارب السياسية الأوروبية. ويمكن اعتبار مثل هذا الأمر غاية من غايات المصلحين المسلمين في القرن الماضي.

والرائد التونسي، التي أنشئت سنة ١٨٦١، كانت جريدة الدولة الرسمية، وكانت بادىء ذي بدء، تقتصر على نشر بيانات الحكومة وأوامرها وتشريعاتها وتعليماتها، لكنها لم تلبث أن أصبحت مدرسة متنقلة تنشر فيها المقالات الأدبية والتاريخية والعلمية وحتى السياسية العامة. وليس بالقليل مثل هذا الأمر، في وقت عزّت فيه المطابع في أكثر ديار العرب، بله الصحف والمجلات والكتب.

وأخيراً فثمة المدرسة الصادقية التي أنشئت سنة ١٨٧٦، وكانت تعلم فيها العلوم العصرية واللغات الأوروبية. وكان الغرض من إنشائها إعداد طلاب أخذوا بالحديث من مجالي الفكر، واطلعوا على غير ما تيسره لهم المدرسة الدينية فقط، فإذا انضموا إلى

الزيتونة يتفقهون أو يتأدبون أو يدرسون التاريخ وما إليه، جمعوا بين الحسنيين، وضموا إلى الخير خيراً.

هذه الأمور الأربعة ترينا مدى ما أفادته تونس، لأن احتلال فرنسا لها تأخر هذه المدة. وقد ترتب على ذلك أمران: أولهما أن اللغة العربية أتيح لها أن تمتص أشياء جديدة وتعبر عنها، وبذلك تجدد ثوبها وترسخ أمرها؛ والثاني أن الصلة مع ديار المشرق التي بدأت في هذه الفترة، لم يكن من السهل أن تقطع، فاستمرت بعد الاحتلالين الفرنسي لتونس والبريطاني لمصر، على ما نعرف من علاقة الشيخ محمد عبده وصحبه برجال الإصلاح في تونس فيما بعد.

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن هو: ماذا أفاد كل من ليبيا والمغرب بتأخر احتلال الأجنبي لهما؟ أما فيما يتعلق بالاتصال بالحضارة الأوروبية الحديثة فإن الذي تم كان قليلاً للغاية. ذلك بأن الأحوال السياسية في البلدين كانت تحول دون ذلك. فالمغرب شهد نوعاً من التفكك السياسي والثورات المتعددة التي شغلت الحكم عن الإصلاح، على الرغم من الرغبة التي كانت عند الكثيرين من رجال البلاد. وكانت ليبيا قد أهملتها الدولة العثمانية إلا من حيث الاهتمام بإدارة المدن، كما أن طرق القوافل التجارية كانت قد أخذت بالتحول عنها بعض الشيء، فضعفت مواردها الاقتصادية.

إن المغرب تأخر نصف قرن أو يزيد عن المشرق في أخذه بمقومات الحضارة الحديثة، ولذلك لا نجد تفاعلاً بين ذلك القطر الشقيق وبين أقطارنا هنا، أو بينه وبين أوروبا إلا في مطلع القرن العشرين. ويعزى هذا إلى العزلة التي وقع فيها المغرب في القرن التاسع عشر. فقد كان بعيداً عما يجري في الدولة العثمانية، وجاء احتلال فرنسا للجزائر (١٨٣٠) ثم لتونس (١٨٨١) يلقي حجاباً كثيفاً بين أقصى المغرب وبلاد المشرق. كما أن السياسة الاستعمارية التي اتبعها الغرب في الجزائر وفي تونس «جعلت المغرب يقدم الحذر في علاقاته به ويبتعد عن طريق اللقاء معه ما أمكن».

وهكذا فقد كان المغرب منعزلاً عن جيرانه في الغرب وأصدقائه في الشرق. وصحيح أن الأحابيل الاستعمارية أخذت تحاك له، مما أضعف همته عن السير، ولكن نود أن نضيف أن المغرب كان يعاني في القرن التاسع عشر فترة من فترات الفوضى والتحارب، التي كان من شأنها أن تمتص عصارته وتقعد به عن اللحاق في مضمار العلم الحديث.

على أنه من الواجب أن نذكر أن المغرب تعرف، مع ذلك، إلى بصيص من هذا النور، إذ وفد طلاب مغاربة إلى مصر في أيام الخديوي إسماعيل (منهم عبد السلام العلمي وأحمد شهبون)، كما اجتاز البعض الآخر البحر إلى أوروبا، مثل محمد الجياص. ومما يجب أن يذكر حقاً أن أول مطبعة عربية دخلت المغرب في أيام السلطان محمد الرابع، وعليها طبعت مجموعة من الكتب القديمة في فاس. وحري بالذكر أنه في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي ظهرت الصحف الأولى في المغرب. وفي هذا يقول الأستاذ عبد الله كنون:

«وأهم ما يلفت الأنظار في نتاجها هو ظهور أول جريدة عربية تحمل اسم المغرب، وكان ذلك في طنجة سنة ١٨٨٩، وهي جريدة أسبوعية حرة أصدرها بعض اللبنانيين ولم تعمر طويلاً. ثم صدرت بعدها في طنجة أيضاً جريدة المغرب الأقصى سنة ١٩٠٠، فجريدة السعادة سنة ١٩٠٥، فمجلة الصباح سنة ١٩٠٦، فجريدة لسان المغرب سنة ١٩٠٧، وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا إلى المغرب في هذا العهد ولم يبق منها إلا السعادة التي أصبحت فيما بعد لسان الحكومة المحلية.

«وقد بقيت الحياة الفكرية والأدبية على حالها من تمثل الماضي واحتذاء حذوه، سواء في المادة أو القالب، في المعنى أو الأسلوب، المؤلفون يضعون تآليفهم على غرار الذين من قبلهم، والأدباء يصوغون أدبهم الصياغة نفسها التي توارثوها عمن تقدمهم، والإنتاج في الواقع كثير، والمطبعة تخرج من الآثار القديمة والجديدة في العلم والأدب ما يدل على نفاق سوق المعرفة، ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الأعمال، فميزانها بالنسبة إلى النهضة الفكرية الحديثة ميزان خفيف وإن كانت في حد ذاتها ذات قيمة لا تنكر... نعم كان هناك مؤلفون وأدباء ولكن صلتهم بأهل العصور الخالية أقوى من صلتهم بأهل العصر الذي يعيشون فيه، فنتاجهم يعد من صميم النتاج القديم لا فرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون. وإن كان منه ما وضع في أواخر العهد الذي نحن بصدده، ولا نقول إنه لا يمثل عهده هذا، فالواقع أنه أصدق ممثل له، لأنه يوقفنا على مناحي التفكير ومناهج التثقيف التي كانت سائدة إذ ذاك، وهي كما نعلم منحصرة في ضروب المعارف الإسلامية وعلوم العربية وآثاره من فلسفة وحساب وفلك، أي ما كان يدرس في جامعة القرويين بفاس وفروعها المنتشرة في أنحاء المغرب، ولا زائدة، من غير أن تمسه يد إصلاح أو تدخل عليه مادة تلقيح».

لكن ما خسره البلدان من الاتصال بالغرب والحضارة الحديثة عوضا عنه في الحركات الإصلاحية الدينية الداخلية. ويكفي ان يقال هنا أن ليبيا مَن الله عليها بالسنوسي وابنيه وحفيده ليرشدوا الناس إلى سواء السبيل ويعودوا بهم وحدة بعد فرقة، وسلماً بعد حرب، واتفاقاً بعد اختلاف. هذا إلى اهتمام بنشر العلم الديني وما يحتاجه ذلك من عناية باللغة على أيدي أولئك الذين دربوا في الجغبوب وفي غير الجغبوب. أما المغرب فقد وصلت إليه دعوة السلفية من المشرق في أواخر القرن الماضي، ومن ثم شهد حركة إصلاح في الدين وتفقه فيه واهتمام بالأدب وعناية بالكتابة بالعربية. فالدعوة السلفية تركزت حول أبي شعيب الدكالي: «ذلك العالم المصلح الذي قيضه الله للمغرب في هذه الفترة، فجدد سنة العلم، وأقام للسلفية مناراً عالياً بما أوتي من التبحر في علوم الكتاب والسنة، وما كان له من الفصاحة والمعرفة بطرق الإقناع، فضلاً عن خبرته بأحوال العالم الإسلامي التي اكتسبها في جولاته بالمشرق، وكان يلي وزارة العدل فزاده الجاه هيبة في النفوس، وتأثيراً على الخاص والعام. ووجدت هذه الدعوة قبولاً لدى الشباب المتعلم، فناصرها، وتطور أمرها عنده إلى الوقوف في وجه أصحاب الطرق الصوفية ولا سيما المزيفون منهم. ونشأت معركة

عنيفة بين الطرفين كانت تجد لها متنفساً في صحافة تونس والجزائر، إذ كانت الصحافة بالمغرب قليلة وغير مكفولة الحرية».

٢

هذه الأحداث التاريخية التي أتينا على ذكرها، والاتصالات والحركات الإصلاحية التي ألمحنا إليها، وما نجم عنها من اختبارات واسعة أو ضيقة، عميقة أو سطحية، جاءت في مطلع القرن العشرين لتمتزج بآثار الاستعمار والاحتلال وسياساتهما التعليمية والأدبية والفكرية والسياسية والاقتصادية.

والحياة الفكرية والأدبية، وهي التي تعنينا الآن، يمكن أن ينظر إليها من زوايا متعددة، ويمكن أن تبحث من اتجاهات متباينة. ونود قبل كل شيء أن نعرض إلى المؤثرات والسبل، أو إلى الروافد والطرق.

وحريٌّ بالذكر أن وجود الأوروبيين ـ فرنسيين وايطاليين ـ في شمال افريقيا، مكن لهم من أن ينشروا ثقافتهم بالقوة وبحكم القانون. فهم الذين خططوا مناهج التعليم، وهم الذين عينوا المدرسين، وهم الذين اختاروا الكتب، وهم الذين طبّقوا كل هذه الأمور. فالمنهج والكتاب فرنسيان والمعلم كذلك. ومن ثم فتعلم الأدب الفرنسي وقبول الثقافة الفرنسية (أو الايطالية) لم يكن أمراً مستغرباً.

هذه الحضارة دخلت البلاد المغربية بكل ما فيها من زخم وقوة. دخلت بعلمها البحت والتطبيقي، ودخلت بلغتها الحية المنعشة، ودخلت بأدبها النابض بخلجات القلوب ونتاج العقول، ودخلت باقتصادها المنظم المنتج، ولكن هذا الدخول كان أكثره في مصلحة المعمر الأوروبي وأقله لمنفعة المواطن الأصلي. يضاف إلى ذلك أنها بسبب هذه القوة والزخم اللذين كانا لها أحدثت في النفوس ردة فعل ضدها، على ما سنرى بعد حين.

إلى جانب هذا الرفد الغربي الأوروبي كان ثمة رفد قوامه فكر أوروبي غربي معرب، استقي من المصدر وصيغ بقالب عربي. فيه العلم وفيه الأدب البحت وفيه الفلسفة، تحملها كتب ومجلات من مشرق العالم العربي إلى مغربه من مصر ولبنان.

على أن الرافد الشرقي لم يقتصر على هذا العلم الغربي المعرب، والنظريات الأوروبية وقد صاغها كتاب ناطقون بالضاد، بل كان ثمة فكر إسلامي بحت. إسلامي من حيث إنه كان يعالج القضايا الإسلامية من حيث تجديد نظرتها وتطوير اسلوبها وتفحص موقفها من التطورات الأخيرة والتعرف إلى ماذا يجب أن يكون أثرها في حياة المسلمين. وأهم هذه القضايا هي قضية إصلاح المجتمع الإسلامي وتطويره في إطار الدين الإسلامي الروحي والفكري دون تجاهل ما كان العالم الآخر قد توصل إليه. هذه الاتجاهات المشرقية الإسلامية كانت قد وصلت من قبل سلفية بحتة، ثم وصلت المغرب العربي، وتونس على الخصوص، على النحو الذي اختطه محمد عبده من وجوب التوفيق بين الإسلام والعلم

الحديث الصحيح.

وفي العقد الثالث من القرن العشرين تسرب إلى بعض أنحاء المغرب أثر الأدباء المهجريين. أولئك الذين حملوا معهم إلى ديار الهجرة قلوباً عربية وعتها تجارب عقول غربية، فجاء أدبهم وفيه من الجديد كثير، وإن ازورّ لذلك كثيرون. هذا الأدب المهجري كان باعثاً على التجديد على ما يبدو لنا، التجديد في المحتوى والتجديد في الصورة والتجديد في الأسلوب.

على أنه ثمة أمر آخر كان له أثر كبير في رفد الحياة الفكرية الحديثة في المغرب العربي. ولست أدري ماذا أسميه، عامل أو باعث أو حافز. ولكن الذي يهمني منه وجوده وأثره. أما وجوده فكان طبيعياً، وهل من الغريب أن يكون في المغرب العربي في القرن العشرين توتر داخلي (إضافة إلى التوتر السياسي) الناشىء عن هبوب هذه التيارات كلها؟ تيار غربي وتيار إسلامي، وكل هذه التيارات تجري في ظل قوة أجنبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأول منها، ولعلها لم تكن راضية تمام الرضى عن التيارين الآخرين وغيرهما؟ ألم يكن كافياً أن يثير أحد الناس مشكلة تتعلق بالأخلاق أو العقائد أو التصرف حتى يشعر المسؤولون عن ضمير الأمة الواعي أنهم في دوامة؟ وإن هذه الدولة تحدث في نفوسهم توتراً يريدون التعبير عنه فلا تسعفهم الأحوال أو الأقلام أو مجرد القدرة على التعبير.

هذه بعض المؤثرات أو الروافد التي سالت في مجالات الحياة الفكرية في المغرب العربي خلال العقود الأخيرة. فأي سبل اتبعت هذه الروافد في مسيرها؟

أما الرافد العربي الحضاري الحديث، وهو الذي أخذه أهل المشرق عن أوروبا ثم صفوه باللغة العربية وعبروا عنه في الكتب والصحف والمجلات، فقد انتقل إلى المغرب العربي في هذه المجلات التي وصلت مدن تلك الرقعة من طرابلس الغرب إلى مراكش. فأنت واجد عدداً كبيراً من القراء هناك ممن كانت تصلهم أعداد الهلال والمقتطف بانتظام، فكانوا يطالعون عن طريقهما وطريق غيرهما نتاج الأفكار وجميل المقالات ومختار الشعر والأبحاث التاريخية والعلمية. يضاف إلى ذلك فئة من شباب المغرب العربي شردوا عن بلادهم على أيدي المغتصبين، واتخذوا من ديار المشرق: مصر وفلسطين ولبنان وسوريا مواطن هجرة، وهناك اتصلوا بالحركة العلمية فيها، ودرسوا في جامعاتها، فلما عادوا إلى الوطن حملوا معهم علماً ومعرفة.

وأما الرافد الإسلامي الإصلاحي فقد انتقل إلى تلك الديار عبر العروة الوثقى التي كان يحررها الأفغاني ومحمد عبده في باريس، ومع مجلة المنار، التي كان يصدرها السيد رشيد رضا في القاهرة. على أن وسائل أخرى كان لها من التأثير قدر هذا وأكثر. فمنها أولئك الذين طلبوا العلم في القرويين والزيتونة والأزهر، وخصوصاً المعهدين الأخيرين، إذ كان طلبة العلم فيهما يعرفون المحاولات التي كانت تقوم لإصلاح الأمور شكلاً وجوهراً. فكانوا إذا عادوا إلى بلادهم حملوا معهم هذه البذور، فإما أن تنمو وإما أن تقع على الصخور

فتجف. ولكن الغالب أنها كانت تقع في أرض خصبة فتنمو وتؤتي أكلها. والسلفية المغربية، مع تأثرها بحركات أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فقد وصلت طلائعها الأولى في واقع الأمر في أوائل القرن التاسع عشر، إذ نقلها الحجاج والرسل والعلماء من الحجاز إلى المغرب، إثر ظهور الدعوة الوهابية وامتدادها إلى الحجاز.

وليس من شك في أنه من الصعب أن يفرق الباحث بين الرافدين العربي والإسلامي، فكلاهما استعمل اللغة العربية، وكلاهما قام في ديار العرب المشارقة، وكلاهما يمثل ناحية من نواحي اليقظة الحديثة في العالم العربي. وإنما تحدثنا عنهما منفردين لأننا أردنا أن نمهد بذلك للإشارة إلى رد الفعل فيما بعد.

يبقى الرافد الغربي. وهذا كانت الأبواب مفتحة له على مصراعيها، فضلاً عن أن السلطات الحاكمة كانت تدعمه في بعض الأحيان وتفرضه في غالب الأحوال. هذا الرافد جاء المغرب العربي عن طريق المدرسة الفرنسية والإيطالية، والكتاب الفرنسي والإيطالي والمجلة والاذاعة الفرنسية والايطالية والمعلم الفرنسي والايطالي والجامعة الفرنسية والايطالية.

ويجب أن نذكر الفرق بين العمل الفرنسي والعمل الايطالي. فالمدرسة الفرنسية كانت ، من وجهة النظر الفرنسية، ايجابية. فقد علّمت أبناء المغرب والجزائر وتونس اللغة الفرنسية، وحببت إليهم الأدب الفرنسي، وأدخلت عقولهم إلى حرم الثقافة الفرنسية. فصاروا يفكرون فرنسياً ويعبرون عن آرائهم وشعورهم وعواطفهم فرنسياً. وبطبيعة الحال كان لها أثر سلبي لأنها لم تعلم العربية ولم تعن بالثقافة العربية أو الفكر الإسلامي. وكان الأثران، الايجابي والسلبي، أقوى في الجزائر منه في القطرين الآخرين.

على أننا يجب أن نذكر أيضاً أن المدرسة الفرنسية في تلك الأقطار، الابتدائية منها والثانوية، لم تشمل جميع الجهات على التساوي، ولم تفتح أبوابها للأولاد جميعاً دون تمييز. لقد عملت الحكومة الفرنسية بمبدأين كان لهما أثر كبير في نشر التعليم في دوائر ضيقة. وأول المبدأين هو أن تكون المدارس أكبر عدداً وأوسع انتشاراً حيث يكثر الفرنسيون خصوصاً والأوروبيون عموماً. والمبدأ الثاني هو أن تكون المدارس لأبناء الفرنسيين والأوروبيين وبناتهم أولاً، ثم لأبناء البلاد وبناتها ثانياً. وإذا نحن مزجنا المبدأين أدركنا لماذا كان معدل من تتسع لهم المدارس الرسمية من أبناء البلاد ـ المغرب والجزائر وتونس ـ لا يتجاوز ١٢ بالمئة وإن كان يبلغ نحو ٣ بالمئة في بعض الحالات.

فالمدرسة الفرنسية لم تصل إلى الجميع، ولذلك فالأمية ظلت واسعة الانتشار بين فئات كبيرة من السكان بعد سنوات طويلة من الحكم الأجنبي.

أما المدرسة الايطالية فقد كانت أقل أثراً من شقيقتها الفرنسية. لقد عملت من الايطالية لغة تصلح للتخاطب، ولكن لم تفعل المدرسة أكثر من ذلك. فلا هي حببت الناس إلى الأدب الإيطالي، ولا هي فتحت أمام القوم آفاق الفكر الغربي، ولا هي أوجدت طبقة

مثقفة ثقافة ايطالية رفيعة. وقد يكون ذلك راجعاً إلى الفترة التي سيطرت فيها ايطاليا على ليبيا وهي العهد الفاشي، فلم تكن ايطاليا نفسها تنعم بأدبها وثقافتها كما تحب. لكن هذا لا يعنينا، فنحن لا نحاول أن نتعرف إلى أسباب ما تم من الجهة الأوروبية وإنما يعنينا أن نتقصى الآثار بالنسبة إلى المغرب العربي.

المنتهي من المدرسية الثانوية كان أمامه، في بعض الأحيان، وعلى شيء من التضييق، مجال الذهاب إلى جامعة ـ والجامعة كانت إما فرنسية (في فرنسا أو في الجزائر) أو إيطالية. ومما هو جدير بالذكر أن فرنسا أتاحت لعدد لا يستهان به من أبناء البلاد التي وقعت تحت نفوذها المجال لأن يتابعوا دراستهم العالية في جامعاتها. ومع أن بعض هؤلاء انتقلوا إلى الجو الفرنسي بالكلية، فإن أكثرهم أفاد من هذه التجارب الواسعة النطاق وجو الحرية العملي الذي عاش فيه، فعاد إلى بلاده يحاول أن يحررها لتتعم جماعة بما نعم هو به فرداً. ونحن إذا استعرضنا أسماء المجاهدين في سبيل الاستقلال، الأحياء منهم والأموات، لوجدنا الكثيرين منهم ممن تعلموا في فرنسا.

أما ايطاليا فلم تتح هذه الفرص للشعب الليبي. إن الذين تابعوا دراستهم العالية في جامعات ايطاليا يعدون على الأصابع.

وقد أشرنا من قبل إلى أولئك الذين تلقوا العلم في الجامعات المشرقية، في مصر وغيرها، فلا حاجة بنا إلى التكرار.

٣

ما دمنا في سبيل التحدث عن السبل التي انتقلت فيها الآراء الجديدة، بقطع النظر عن مصدرها، إلى المغرب العربي، فحري بنا أن نشير إلى ثلاثة أمور محلية كان لها في العقد الأخير أهمية كبيرة، وهي جمعية العلماء المسلمين بالجزائر والصحافة والتطور التعليمي الجامعي هناك.

في سنة ١٩٢٩ أنشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس، بالمشاركة مع إخوانه وأبنائه من المشتغلين بالحركة العلمية في القطر الجزائري «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر». والشيخ ابن باديس عربي الأصل صميمه، جزائري النبت كريمه، زيتوني النهج قويمه، يمثل في حياته وعمله، وعلمه ومثله، خلاصة أماني الأمة الجزائرية وصفوة القائلين بالدعوة الإسلامية. دعا الناس إلى العودة إلى صحيح الإسلام، وحملهم على «سلفية» تلك الأيام.

دعا إلى نبذ الخرافات والعودة بالدين إلى جوهره، وأهاب بالناس أن يذكروا اللغة العربية بالخير، وكان في صميم هاتين الدعوتين تقوية للشعور بالشخصية الجزائرية. وهذه الدعوة روحية اجتماعية في وسائلها، لكنها في صميم الحياة السياسية هناك. ذلك أنها تتعارض تماماً مع وجهة النظر الرسمية للسياسة الفرنسية. ومن هنا جاءت نقمة السلطات على جمعية العلماء المسلمين. لكن هذه الجمعية التي فرضت نفسها بادىء الأمر على الناس فرضاً، لم تلبث أن أصبحت لحركتهم رمزاً، ولحياتهم ركزاً، ولذلك فإنهم لم يسمحوا لها أن

يقضى عليها. وكانت «الشهاب» الأسبوعية جريدة ابن باديس والجمعية، تنطق بلسانهم.

مرت الجمعية في الجزائر بثلاثة أدوار: الأول قارعت فيه ضعف المسلمين وأتباع الخرافات الحجة، فبينت خطأهم. وجاء الدور الثاني دور بناء وتشييد فبدأ سنة ١٩٣٩، لكن نكسة الحرب أوقفته، حتى جاء الدور الثالث وهو دور العودة إلى إنشاء المدارس والعناية بالتعليم. ومع ذلك فليس هذا وحده هو الذي توليه الجمعية اهتمامها، ولكن هذا أبرز نواحي جهادها.

ويمكن إجمال ما قامت به الجمعية في الفترة التي سبقت الثورة الجزائرية فيما يلي:

(١) كان للجمعية من المدارس الابتدائية ١٢٥ مدرسة فيها من الطلاب ١٦,٢٨٦ طالباً نهارياً و٢٠,٠٠٠ طالب مسائي. فالأولون يلازمون المدارس بانتظام ويتعلمون فيها اللغة العربية والإسلام ومبادىء الحساب والعلوم. أما الفريق الثاني فهم ممن يذهبون إلى المدارس الرسمية بانتظام لكنهم يأتون مدارس الجمعية مساء لتعلم العربية والدين.

(٢) هذه المدارس ابتدائية. وقد أنشأت الجمعية معهد ابن باديس في قسنطينة، وهو معهد تجهيزي يتناول الطلاب من الخامسة الابتدائية فيعدهم إعداداً ثانوياً تمهيداً للحاقهم بجامع الزيتونة بتونس.

(٣) هذه المؤسسات كلها تقوم على هبات كان يقدمها مؤازرو الجمعية.

(٤) كانت الجمعية تصدر جريدة «البصائر» الأسبوعية، وهي في ثماني صفحات تعنى بالتوجيه الفكري والأدبي، وشرح حقوق الجزائريين وتوضيح العقيدة الإسلامية، وتعنى بالسياسة العالمية والوطنية.

(٥) كان للجمعية فروع في أكثر مدن القطر الجزائري، وإن كانت أكثر فروعها في عمالة قسنطينة. والفروع تشرف على المدارس، وتقيم حلقات الوعظ والإرشاد، وتعقد الجلسات الأدبية، ويتطارح الحضور. فيها الأدب والشعر.

كانت «البصائر» هي الجريدة العربية الوحيدة في الجزائر. وثمة جريدة أخرى، نصف أسبوعية، تصدر في قسنطينة في وجهين، اسمها «النجاح»، وعدا هذا فالقارىء إذا أراد الاطلاع على الشؤون السياسية والقضايا العالمية والأمور العلمية، اضطر للرجوع إلى الصحافة الفرنسية.

ونحن عندما ندير وجوهنا باحثين عن مظان النشاط الفكري والأدبي في المغرب العربي في السنوات الأخيرة، لا بد لنا من أن نذكر مجلات أدبية كان يجد فيها الواحد منا مقالات ودراسات وشعراً يصلنا بأهل القلم في تلك الديار، ثم لم نلبث أن افتقدناها فلم نجدها، وفي مقدمة هذه «البصائر»، ومجلة عمر المختار، وليبيا المصورة، والمجلة الزيتونية. إن غروب هذه الكواكب كان خسارة كبرى لنا نحن المعنيين بتتبع ما تجود به الأقلام المغربية.

على أن هذا يعوض عنه ظهور مجلات لا تزال مستمرة، ونأمل لها أن تستمر في

العمل. ولسنا ننكر على الصحف اليومية أو الأسبوعية العربية والفرنسية، اهتمامها بالأدب والفكر، لكن ما يخصص لهذه الأمور فيها قليل، حتى ليخيل إلينا أنه من الأفضل أن نتركها وشأنها لأمور السياسة والأخبار، فهي تكاد لا تفي بمثل هذه الحاجة.

على أن المجال الذي كان فيه نشاط الفكر والأدب في المغرب العربي كبيراً هو المجال التعليمي، والظاهرة الأولى لهذا النشاط هو التوسع في التعليم في مرحلتيه الابتدائية والثانوية، خصوصاً في ليبيا أول أقطار المغرب العربي نيلاً للاستقلال. فالذي يتابع هذا التطور العددي يتمكن من إدراك مدى اهتمام الدولة، من جهة، وتحسس الشعب الليبي، من جهة أخرى، لأهمية هذه القضية. والأمر واضح أيضاً بالنسبة إلى المغرب وتونس. أما الجزائر فهي على عتبة النهوض بأعباء هذه المهمة.

ومع أن نشر التعليم وانتشاره في المرحلتين الابتدائية والثانوية ضروري ومهم، فإن الحياة الفكرية، لبلد ما، لا تنضجها المدرسة الثانوية، بل هي بحاجة إلى المعاهد العليا. هناك يقدح زناد الفكر، ويتحاك أهل النتاج الأدبي، ويتناقش الطالب واستاذه، ويبحث المدرس وينقب فما الذي تم في المغرب العربي في هذه الناحية؟

أنشأت ليبيا الجامعة الليبية المكونة من كلية الآداب والتربية وكلية التجارة في بنغازي وكلية العلوم والكلية التطبيقية في طرابلس الغرب (وقد اصبحتا جامعتين لاحقاً) ورفعت مستوى دور المعلمين والمعلمات بحيث أصبحت هذه على مستوى عال يعد اللازم من المعلمين للمدارس الليبية العلمية والمهنية والزراعية. ولم تبخل الحكومة الليبية على هذه المعاهد العليا قط، فجاءت بخيرة الأساتذة من البلاد العربية وغيرها، وأغرتهم بالمعاملة الطيبة والمرتب الوفير. وقد أعطت الجامعة ثمارها فإذا بخريجيها يشغلون المناصب الكبيرة في التعليم وغيره من نواحي الحياة وإذا بهم يكوّنون خميرة الفكر في تلك الديار التي حرمت الكثير من الخير قبل الحرب العالمية الثانية.

ولا يغيبن عن البال أن ليبيا قامت بعمل جليل آخر في ميدان التعليم العالي هو إنشاء «جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية في «البيضاء». وهذا المعهد، الذي هو تتويج لسلسة من العمل العلمي الإسلامي عبر العصور في ليبيا، وهو الذي كان سيرقى بالدراسات الإسلامية إلى المستوى الحري به ببلد له في الحركات الإسلامية الإصلاحية في القرن التاسع عشر يد طولى (أقفل هذا المعهد لاحقاً).

وفي تونس قامت الجامعة التونسية بهمة البلاد وبعناية الحكومة، وبذلك ندرك أن صرحاً من صروح الفكر آخذ في النمو في تلك الأصقاع. ولعلك تسأل أيها القارىء عن الزيتونة أين انتهى أمره؟ لم ينته أمره، ولكنه أصبح كلية الشريعة في الجامعة التونسية. وهذا هو المكان اللائق به. فهذا المعهد مرجو في أن يقوم في الأيام هذه بتطوير التراث الإسلامي الشرعي، بحيث يؤدي للمجتمع الخدمة التي قام بها جامع الزيتونة خلال العصور.

والمغرب آخذ في تنظيم جامعاته بحيث تقوم بسد النقص الذي عانته تلك البلاد أثناء

انتصاب الحماية عليها. وهذه جامعة محمد الخامس في الرباط ـ وهي أولى جامعات المغرب التي تم لها حظ العمل المنظم ـ تسير في الطليعة. وقد لحقت بها جامعة فاس وجامعة بن يوسف في مراكش وجامعة أوحدة وغيرها في مدن المغرب الكبرى. والقرويين يحتل في هذا الركب الجامعي مكانته، بحيث يقوم، كالزيتونة، بواجبه في تمكين المغرب من اللحاق السريع بالركب العالمي الحضاري.

كان للجزائر جامعة من قبل، ولكنها تعطلت أيام الثورة، ثم أشعلت النار بمكتبتها في تلك الأثناء تعطيلاً لعملها ونكاية بأهل البلاد. وها هي الآن ـ الجامعة ومكتبتها ـ موضع اهتمام رجال التربية، وقد عادت الجامعة سيرتها الأولى، ولكن في خدمة الجزائريين ولمصلحتهم لا لمصلحة الأقلية الفرنسية التي كانت هناك. كما قامت في القطر الجزائري جامعات في وهران وعنابة وتيزي أوزو وقسنطينة وغيرها.

٤

بعد أن تناولنا الأحداث التاريخية من حيث اتصالها بتطور الحياة الفكرية والأدبية في المغرب العربي، وعرضنا للروافد ومجاريها والينابيع ومسايلها، يجدر بنا أن نتعرف إلى ما كان من استجابة أو رد فعل لهذا التحدي الذي جاء المغرب العربي من الشمال والشرق. ويمكن تحسس رد الفعل وتلمس وجوده في أقطار المغرب العربي في أمور عامة، يمكن إجمالها فيما يلي:

(١) يمكن القول إجمالاً بأن تونس والجزائر تأثرتا بالرافد الغربي تأثراً أكثر من كل من المغرب وليبيا. فالثقافة الغربية نقلت معها إلى تلك الديار العلم والتزود منه، وقبول الآراء والتفاسير العلمية لأحداث الكون وأمور الحياة، وطرحت التفسير الأسطوري جانباً، وكانت نظرتها إلى المجتمع نظرة مدنية بدل النظرة الدينية التي كانت تسيطر على مجتمعات العصور الوسطى. يضاف إلى ذلك، أن المجتمع الغربي يقوم على احترام الحرية الفردية وكرامة الإنسان. هذه كلها أمور حملتها الحضارة الغربية إلى المغرب العربي كما حملتها من قبل إلى الشرق العربي. وكان تقبل تونس والجزائر لها أكثر من تقبل المغرب وليبيا. وقد كتبنا قبل سنوات في هذا الموضوع فقلنا عن الجزائر: «جاءت الثقافة الغربية فرنسية الثوب تواكب الاستعمار وتجاريه، ويسخرها أهلها للقضاء على الشخصية الجزائرية. فكان من ذلك نفور من كل ما هو غربي ـ حتى ولو جاء معه الخير ـ وقد يكون في هذا القول بعض المبالغة، ولكن الخير الذي يريد أن يمحق الشخصية لا يستمرئه الناس كثيراً. ولما آذن الوقت بانتعاش الحركات الفكرية والروحية بين المسلمين في الجزائر، اتخذت هذه الحركات صفة سلفية قوية، ومحافظة على كل شيء في الإسلام وإحيائه. فإذا كانت السياسة ترمي إلى القضاء على اللغة العربية والإسلام، فمقاومتها تقضي بالتشدد في الحفاظ على العروبة والإسلام. ولعل هذا ما يوضح المحافظة القوية التي تتسم بها الحركة في الجزائر. ولعل خير ما يوضح هذه المسألة، عبارة قالها لنا رئيس جمعية العلماء المفضال الشيخ

الإبراهيمي وهي: لقد نجحت الجمعية في أمرين: توجيه الأمة نحو العروبة ونحو الشرق. والتوجيه نحو الشرق قصد به الشيخ استمداد نور الإصلاح الديني والتوجيه الإسلامي من الحركة السلفية التي بدأت من قبل في القاهرة.

«ونشرت المدارس الفرنسية والمعاهد الأخرى العلوم الطبيعية والرياضية باللغة الفرنسية، وحرمت العرب من أن يتعلموا هذه الموضوعات بلغتهم، على نحو ما أتيح لنا في المشرق العربي. فنشأ الناس على أنه ثمة عالمان منفصلان: الواحد عالم الفكر الغربي ولا يعبر عنه إلا بالفرنسية، والثاني عالم الفكر الإسلامي العربي، وهذا تقتصر العربية عليه. وقد التقينا بجماعة من الجزائريين تخرجوا في الجامعة، يقومون بتدريس العلوم والرياضيات باللغة الفرنسية، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحدثوا باللغة العربية في خارج حدود الأمور اليومية العادية، من مأكل ومشرب. وهذا الفصل الفكري زاد في النقمة على الغرب وفكره. وقد اتضح لنا أن هذا الفصل الفكري موجود حتى في المعاهد التي تعلم الثقافتين العربية والفرنسية، وحتى في الذين يعلمون في تلك المعاهد. فقد وقر في نفوسهم أن الثقافتين منفصلتان متباعدتان متنافرتان متناقضتان، وأنهما تمتان إلى عالمين لا سبيل إلى التوفيق بينهما».

(٢) مع أن ليبيا والمغرب كان تقبلهما للثقافة الغربية أقل نسبياً، بسبب قصر المدة، فإن التفاعل الداخلي فيهما كان أقوى. فالسنوسية في الأولى والحركة السلفية في الثانية، حملتا الناس على التفكير في أمور دينهم ودنياهم، وإعداد أنفسهم لنواح في الإصلاح الإسلامي فيها الكثير من المحافظة والإحياء. وليس المقصود من هذا أن تونس والجزائر لم تعرفا حركات إصلاحية إسلامية، أو أن القطرين الآخرين لم يهتما بالعلم والتطور الفكري العلمي، ولكن القضية، إلى قبل نحو عقدين من السنين أو أكثر قليلاً، كانت قضية ترجيح الناحية الواحدة دون الأخرى. وحري بنا أن نضيف هنا إلى أن الفكر العلمي ارتبط، رضي الناس أو كرهوا، باللغة الأجنبية ـ الفرنسية في هذه الحال ـ حتى لكأن الحياة الفكرية ـ كما ألمعنا قبلاً ـ انقسمت قسمين: غربية وعربية. فتباعد ما بينهما بدل أن يكون الاقتباس عاملاً من عوامل التقريب.

(٣) ونحن إذا نظرنا إلى الأدب من حيث هو سبيل للتعبير عن التفاعل الذاتي والقومي وثوران العاطفة وخفقات النفس وخلجات الضمير، لوجدنا أن الصفة الغالبة، إلى وقت قريب، هي صفة التقليد والمحافظة. فالشعر ظل محتفظاً بعموده، والنثر، على إشراق ديباجته في كثير من الأحيان، ظل يرسف في شيء من قيد السجع.

(٤) وقبل أن نختم هذه الملاحظات نود أن نشير إلى أمرين كانا بعيدي الأثر في التطور الأدبي الذي عرفه المغرب العربي حديثاً: أولهما أن اللغة العربية، رغم المحاولات لعرقلة نموها، ظلت حية، وكانت في المغرب وتونس أنشط منها في الجزائر، بفضل القرويين والزيتونة. وفي ليبيا ظل منها قبس في هذه الزوايا التي أقامتها السنوسية في نواح مختلفة

من البلاد، فكانت معاقل للتعليم واللغة. ولذلك لما اتيح للقلم أن ينطلق من عقاله، مهما كانت الأحوال التي تحكمت في الانطلاق، وجد لغة حية، تستطيع أن تحمل المعنى وتتضمن الفكرة وتعبر عن الخلجة؛ وثاني هذين الأمرين هو أن الأدباء في المغرب العربي أفادوا من تجربة المشارقة، فاتبعوا خطواتهم في سيرهم، وقرأوا ما كتبوا وما نظموا وما ترجموا، ونقلوا عنهم تعابير جديدة واقتبسوا عنهم أساليب فيها من التحرر الكثير. ولذلك فقد وفروا بعض الوقت والجهد.

وهذا الأدب الذي دفع به أدباء المغرب العربي في القرن العشرين، وفي الفترة الأخيرة بشكل خاص، ما هي موضوعاته وما هي خصائصه؟

في هذا الأدب عناية بالماضي ورغبة في إحيائه. وليس هذا غريباً على بلاد كانت تخشى أن تطغى الأراء الغربية على حياتها وتفكيرها وطرق تعبيرها. فكان من الطبيعي أن يكون تمسكها بالماضي والحفاظ عليه في عقلها الواعي واللاواعي، فيصبح أملاً وحلماً وحقيقة. ترى هذا في الشعر الذي نظمه العربي الكبادي وأحمد المهدوي وسليمان الباروني وعلال الفاسي ومحمد العيد، كما تجده في كتابات الطيب الأشهب والشاذلي النيفر والإبراهيمي البشير والكتاني وعبد الله كنون والفاضل بن عاشور وغيرهم. دأبهم الغوص في أعماق الماضي، بحثاً عن خيره، إحياء لقيمه، وإظهاراً لآثاره. يكتبون وينظمون ليبصروا الخلف بمآثر السلف، وليحيوا التراث العربي والإسلامي وليثيروا حمية الناس في الدفاع عنه، والتمثل بما فيه من قوة وقيم.

والحياة الفكرية والأدبية في المغرب العربي، مثلها في المشرق، مستقرة في الحواضر، لم تنتشر بعد في الريف والبوادي (أو لعلها، بالنسبة إلى بعض أنحاء المغرب، انحسرت عن البوادي والريف). وقد لا يبدو في الأمر غرابة أن تقتصر الحركة الأدبية على مدينة أو اثنتين في قطر صغير، ولكن عندما يحدث هذا في بلاد كالمغرب أو الجزائر، يكون في الأمر مدعاة للقلق، أو على الأقل للاهتمام.

والأدب الحديث في المغرب العربي أدب ثورة وجهاد. لقد تفاعل الأدب مع الجهاد في سبيل الاستقلال، وهيأ للثورة وعبر عن أهدافها ومفاهيمها العامة. لكن الأدب في تلك الاصقاع لم يصنع الثورة. فقد كانت الثورة، على اختلاف ظروفها وتباين حركاتها، رد فعل للضغط الأجنبي والسلب الاستعماري. وكانت الثورة وعياً لما يراد بالشعوب هناك. فلما جاءت عبّر الأدب عنها. ولسنا نقصد ثورة معينة. فالمغرب العربي في ثورات مستمرة منذ أن احتلت أول أجزائه.

الأدب هناك فيه طعم الجهاد في سبيل الاستقلال، ورائحة النقمة على الأوضاع التي كانت سائدة هناك والتي خلّفها الاستعمار. لكن الأدب الأحدث عهداً هو أدب فترة الاستقلال: فيه محاولة الأدباء للتعرف إلى الذات المستقلة الحرة. وهذا التعرف إلى الذات المستقلة أو المنتفضة والتعبير عنها أمعن في الصعوبة، بحثاً وأداء. وهذا ما يحاوله الكتّاب اليوم.

فالذات المغربية ـ من المغرب إلى ليبيا ـ مقسّمة بين القيم العربية الإسلامية ومعطيات الحضارة الأجنبية الأوروبية، فيما يتعلق بالإيمان والإنسان على سبيل المثال، ولم تتضح لها بعد الخطوط الرئيسية التي يجب أن تتبعها. وهي في تفكيرها السياسي تتجه إلى اختبارات التاريخ السابق حيناً، وتتجه نحو الغرب حيناً آخر. ومثل ذلك يقال في تفكيرها الاجتماعي وتخطيطها الاقتصادي. وهي لا يتاح لها اليوم الحرية الكافية للقول والبحث. ولذلك فستظل في وضع رجراج بعض الوقت.

وتعاني الشخصية الأدبية والفكرية ازدواجية التعبير، بالعربية والفرنسية. ولكن المهم هو أن المحتوى والهدف بعد غير واضحين. فالثورة والجهاد في سبيل الاستقلال كانا قد ملكا على الناس كل شيء، وشغلا الناس عن كل شيء، فلما استقلت تلك الأقطار وجدت نفسها أمام مشاكل كثيرة، منها تعيين الأهداف وتعبيد الطرق لتحقيقها، وتقسّمتها، في بعض الأحيان، أهواء فردية ونزوات شخصية لم تمكن للفكر أن يتقصى بحرية، ففرضت على الشعوب شعارات وخططاً فيها الكثير من الغرابة والغربة.

والشعر ديوان العرب، هكذا كان الناس وهكذا هم اليوم، وأحسب أنهم سيظلون على هذا. والشعر في المغرب العربي يدور حول أمرين: أولهما في الثورة والرغبة في الحرية والتغني بالاستقلال. وأما الثاني فهو قضية عرفها المشرق من قبل، وعرفتها آداب الأمم الأخرى، وهي قضية القديم والجديد أو المحافظة والتجديد. ولذلك فبينما نجد الشعراء ينشدون قصائدهم دفاعاً عن الوطن وتمجيداً للثورة والاستقلال، نجدهم يقومون بمعارك جانبية مخاصمين بعضهم بعضاً، متهمين بعضهم بعضاً بالجمود أو بالجحود. فالشاعر أو الأديب المحافظ يرى في الصورة الجديدة، التي بعدت عن عمود الشعر، خرقاً لحرمة التراث القديم المجيد، كما يرى الشاعر المحدث في القصيدة المحافظة على قوانين الشعر، حتى ولو كانت القصيدة سائغة، ردة فكرية عاطفية لا يغتفرها التقدم الحديث والتطور المعاصر.

والشعر في المغرب وفي الجزائر ألصق بالصيغة القديمة وأبعد عن أساليب التجديد العنيفة منه في تونس. ولعل المغرب والجزائر كانا أعلق بذلك، بسبب حركات الإحياء التي قامت في القطر الأول، والخشية على النفس التي أثرت في أهل القطر الثاني.

على اننا نتلمس هنا وهناك محاولات للتجديد. فهناك تجديد من حيث المحتوى أي المعنى. ولعل أبو القاسم الشابي ومحمد العيد وأحمد رفيق المهدوي في طليعة هؤلاء الذين غنوا على أوتار الماضي انغاماً جديدة وألحاناً حديثة، وظهر من محاولاتهم أن تلك الأوتار القديمة قادرة على تقبل الألحان الجديدة. أما من حيث تجديد المبنى، أي التلاعب بالأوزان وتبديل القوافي أو حتى التهرب من التفاعيل، فعندنا محسن بن حميدة ومصطفى الحبيب بحري والشاذلي زوكار ومحمد الغربي صمادح ومصطفى بن زكري. على أن التجربة الشعرية، عند هذا النفر، لا تزال، كما يقول محدثو نعمة الشعر من المشارقة، فجة ينقصها العمق والاتساع. وقد يكون في بعض هذا الذي يقولونه صحة، ولكن عندما نفتش يمنة ويسرة في

شعر المحدثين في المشرق نستطيع أن ننكر عليهم ما أنكروه على أندادهم هناك. ذلك بأن الشعر الحديث كله لا يعدو أن يكون تجربة من حق أصحابها أن يقوموا بها.

والمقالة تعبر عن العمل الذي انصرف إليه الكثيرون، لكنها لم تتخذ بعد شكل العمل الفني، بحيث تنقد أو تقيّم كذلك. ومن هنا كانت المقالة السياسية أقوى وأنفذ من غيرها، لأنها عولجت مدة أطول، وعبرت عن مجالات أوسع وألصق بالناس. وثمة فئة من كتاب المغرب العربي حذقوا كتابة المقال السياسي نذكر منهم على سبيل المثال: علال الفاسي والشيخ الإبراهيمي البشير وأحمد توفيق المدني. وبين كتاب المقالات من ينتقلون من نوع إلى نوع آخر فيجيدون في الاثنين. فأحمد توفيق المدني كان يجيد كتابة المقال التاريخي، كما يجيد كتابة المقال السياسي. ومنهم من لا يلتفت إلى المقال السياسي، فيقصر همه على ناحية أخرى. فمحجوب بن ميلاد يكتب المقالة العلمية الجيدة، وكان المرحوم محمد فريد غازي يعنى بالمقالة التاريخية، وعبد الله كنون يكتب مقالاته الأدبية محتفلاً. وليس المقصود أن نعد الكتاب كلهم، ولكن قدمنا نماذج فقط.

ولا تزال القصة والأقصوصة في أول السلم في ديار المغرب العربي، ولم يبلغ كتابهما هناك ما بلغه كتابهما هنا عداً أو كماً أو كيفاً. ومع ذلك فنحن بعد على مفترق الطرق. ولمحمود المسعدي قصة كتبت قبل سنوات أسمها السد، هي واحدة من هذه القصص الرمزية القوية، التي تعبر عن شخصية موغلة في التعمق، مالكة لناصية اللغة، مغرمة بتقصي خلجات النفس البشرية، قادرة على رسم الصورة القلمية الجيدة، ماهرة في التلاعب بالأسلوب ليتفق مع الفكرة، فيغمض أما غمضت، ويتضح حينما تتضح. وأمامنا ثلاث قصص أخرى، نذكرها على سبيل المثال وهي: برق الليل للبشير خريف، ووزير غرناطة للهادي أبو طالب، وغومة بطل الصحراء لعلي مصطفى المصراتي. وهذه قصص تنتزع موضوعها من تاريخ البلاد نفسها، وفيها تشوق إلى التعرف إلى هذا التاريخ وتشويق للتمثل بالذين صنعوه.

والأقصوصة آخذة في احتلال المكان اللائق بها على ما نجد فيما تنشره مجلة الفكر التونسية، وفي المجموعة التي ألحقها الصادق عفيفي بدراسته عن تطور القصة القصيرة في الأدب المغربي، وفي أقاصيص أحمد رضا حوحو في مجموعته المسماة نماذج بشرية.

٥

لا يمكن للباحث في تطور الأدب الحديث في المغرب العربي أن يتجاوز عن النتاج الأدبي باللغة الفرنسية، فقد ظهر في الفترة المتأخرة عدد من الادباء وخصوصاً في الجزائر،كتبوا باللغة الفرنسية، وقبلتهم المحافل الأدبية الفرنسية لإجادتهم التعبير وتفوقهم في عرض الموضوع، ورحب بهم النقاد، ونالوا جوائز أدبية متعددة. وهذا ولا شك أثر من آثار نشر اللغة الفرنسية في تلك البلاد ثلاثة أجيال كاملة.

ولسنا نريد أن نفصل دور هؤلاء الكتاب، فذلك أمر لا تتسع له هذه العجالة، لكن لا بد لنا من الإشارة إلى بعض آثارهم، والإلماع الى ما تحتويه من فكر أو صور أو معالجات أو

دراسات منتزعة من صميم الحياة التي عاشوها، أو معبرة عن مثل إنسانية وقيم رفيعة.

فادريس الشرايبي أحزنه ما كان عليه الجزائريون الذين هجروا بلادهم إلى فرنسا. فقد أغروا بكل وسائل الاغراء، حتى إذا وصلوا وجدوا العمل يدوياً والأجر محدوداً ومكان العيش مزعجاً قذراً. عاشوا جماعات يخشى الواحد منهم أن يسرق متاعه القليل أو يدوسه أحد الجيران إذا جاء المكان للنوم والمكان في ظلام. اكلوا القليل ليوفروا بعض الشيء للأهل الذين خلّفوا ورءاهم. هذه الأمور كلها، وما يرافقها من مرارة وألم وحرقة وتشوق وحقد ومرض وفترات من الابتسامة أو حتى السرور، عالجها إدريس الشرايبي في قصته «التيوس»، وقد عاش الكثير منها ولذلك فهو يكتب عن تجربة واختبار.

ويعتبر محمد ديب في طليعة الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية. وأَذيَع مؤلفاته صيتاً ثلاثيه البيت الكبير والحريق والنول (أو الغزالة كما يسميها أصدقاؤنا في المغرب العربي). في هذه القصص الثلاث يعرض محمد ديب للحياة الجزائرية كما عرفها وخبرها. يصف بؤس الفقراء، وقد كانوا أكثرية السكان في تلك البلاد، ويصف آلامهم وشقاءهم. محمد ديب لا يترك صغيرة ولا كبيرة مما يجول بخاطر الفقير المحروم إلا ويسجلها. يتغلغل في نفوس هؤلاء الناس ويطل على أحاسيسهم فيصفها بواقعية صريحة لا تترك زيادة لمستزيد. ومن كتبه الصيف الافريقي الذي تنبأ فيه بوقوع الثورة الجزائرية، إذ إن القارىء لهذا الكتاب يشعر كأن المؤلف يصرح بأن قد بلغ السيل الزبى.

وعمد مولود فرعون إلى قصة عامر الفتى الجزائري الذي تزوج فتاة فرنسية النشأة وإن كان أبوها جزائرياً (أمها كانت فرنسية) ثم حملها لتعيش في بلده بين نساء قريته. وهذه القصة اسمها الأرض والدماء. وله قصة أخرى هي ابن الفقير. مولود فرعون رمى إلى دراسة اجتماعية لفئة من الشعب الجزائري، وأراد من كتابته إيقاظ الوعي، على الأقل عند الذين يقرأون كتبه، آملاً في أن يحس الناس بوجوب القيام بعمل حاسم.

وثمة كاتب رمزي وضع «الجثة المطوقة» و«نجمة» وهو كاتب ياسين. والجثة المطوقة بأوزار حملتها هي الجزائر. أما نجمة فأنت تقرأها وتحاول أن تفهم ما يريد أن يقوله المؤلف، فتلتوي بك الدروب، ويتعذر عليك الفهم حتى لتكاد تحس بالدوار، ثم يطل عليك النور، فتتكشف الغمة عن عينيك، وترى السبيل واضحاً. إن نجمة هي الجزائر، بتعقيد نفسيتها ومشاكلها التي خلفتها السنون الطوال في شخصية مزدوجة أو من شخصيتين: واحدة أصيلة من حيث عناصرها، والثانية مجلوبة مستوردة. وكأن كاتب ياسين رمى من وراء ذلك كله أن يعبر عن حبه لوطنه، هذا الحب الذي أراد أن يكنه كل مواطن جزائري لبلاده. فتمثلت له بلاده، أو أرادها أن تتمثل له، بشراً سوياً اسمه نجمة.

و«التل المنسي» و«نوم الرجل العادل» من وضع مولود معمري قصتان ترميان إلى تحليل الشخصية الجزائرية لتوضيحها إلى غير أبناء البلاد بشكل خاص. الأصول التي تقوم عليها، العناصر التي تكونها، ارتباطها بالماضي الإسلامي العربي، وحتى ما قبل ذلك، وجذورها

المتصلة بتربة البلاد واستقلال هذه الشخصية عن العناصر الطارئة عليها وامتناعها عن الاندماج بها، ولو أنها لا تمانع في الإفادة من اختبارات الغير وتجاربه. وأخيراً فإن مولد معمري يلمح إلى القلق الذي يشعر به الجزائري. لكن القلق هذا يظهر بشكل أوضح في قصة «رصيف الزهور» التي وضعها مالك حداد. إن ابطال هذه القصة ـ الجزائريين منهم ـ تتمزقهم نزعات مختلفة وتتقاسمهم أهواء متباينة تأتت بسبب تعرضهم ـ جهلة ومتعلمون ـ إلى تيارات متناقضة فيها القديم المتشرد في المحافظة أو حتى المتزمت، وفيها الحديث المغرق في التجدد. والشاب والشابة يحار في الاتجاه الذي يجب أن يلحق به. وتأتي الثورة لتزيد قلقهم قلقاً واضطرابهم اضطراباً. ومالك حداد تعنو له اللغة فيعبرّ عن كل هذا بيسر وبساطة. إلى هذا فمالك شاعر له غير ديوان مطبوع.

قبيل قيام الثورة الجزائرية الكبرى نشر هنري كريا مسرحية الزلزال. وهي قصة مدينة من الأصنام كانت قائمة بحيث لا يشك أحد في أنها ستظل كذلك. ولكن زلزالاً يثور بها فيدكها دكاً جاعلاً عاليها سافلها. فما هي مدينة الأصنام هذه؟ يرى الكثيرون أن هذه المدينة هي رمز للحكم الفرنسي في الجزائر، وأن الزلزال الذي يدمرها هو ما كانت تعتمل به نفوس الجزائريين من حنق على أولئك الذين استبدوا بهم. فلذا، كانت قصة الصيف الافريقي (لمحمد ديب) تنبؤ بوقوع الثورة، فإن الزلزال شعور بأن الثورة آتية، وإحساس بما سيترتب على مجيئها من أثر في هدم هذا الكيان السياسي.

ونود أخيراً أن نشير، بالنسبة إلى أهل القلم في الجزائر، إلى آسيا جبار صاحبة قصة «العالم الجديد» الذي صورت فيها دخول المرأة عالم العمل الجدي إلى جانب الرجل.

إلى جانب كتّاب القصة والشعراء أنتجت الجزائر كتاباً باللغة الفرنسية عالجوا قضايا الفلسفة وبحثوا شؤون الاجتماع. ومن الفريق الأول مالك بننبي صاحب كتاب مستقبل الإسلام، الذي نعتقد أنه من خير ما وضع في سبيل توضيح الدور الذي يجب أن يقوم به المسلمون لفهم الإسلام.

ولم تقتصر الكتابة بالفرنسية على أهل الجزائر، ففي تونس نجد البرممي وعبد المجيد الثلاثلي، كما نجد في المغرب محمد الحبابي، عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية، الذي كتب بالفرنسية، من ذلك ديوان بؤس وضياء الذي وضعه بالفرنسية ونقل إلى العربية.

ومن حسن حظ القارىء العربي أن الكتب التي وضعت باللغة الفرنسية أخذت تجد طريقها إليه في ترجمات جميلة صحيحة.

٦

ها نحن قد عرضنا بقدر ما يسمح به المجال، الحركة الأدبية والفكرية المعاصرة في المغرب العربي، ونود الآن أن نخلص إلى تركيز الكلام على بعض سمات هذه الحركة، وإن كنا نشعر أننا قد نكرر بعض ما قلناه قبلاً.

وأول ما يمكن أن نشير إليه هو أن الأدب المعاصر، في تلك الرقعة من العالم العربي،

فيه الكثير من الواقعية، وخصوصاً الفرنسي (لغة) منه. إن هؤلاء الكتّاب تناولوا الحياة كما هي فوصفوها سابرين اغوارها، مشرفين على تفاصيلها، غائصين على دقائقها، مشاركين أهلها سراءهم وضراءهم، مبينين عللهم، مفصلين مشاكلهم. وإلى جانب واقعيتهم فكثير منهم آمنوا بالأدب الملتزم، لذلك حاولوا إصلاح الفساد، وجربوا توجيه القوم، ونذروا أنفسهم للخدمة العامة.

والسمة الثانية التي نلحظها في كتابات أهل المغرب العربي، وخصوصاً عند الذين يكتبون بالعربية، هي دعوتهم إلى المثالية والحفاظ على الأخلاق الإسلامية الفاضلة والاهتمام بالتراث العربي الإسلامي وإحياء هذا التراث على ما يبدو من الكتب التي ظهرت خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

وثمة أمر ثالث يتخلل الحياة الأدبية في تلك الديار وهو الازدواجية. إن الازدواجية قائمة هناك في الشخصية والتعبير. هذه الازدواجية سببها وجود فئتين من السكان ـ خصوصاً في الجزائر والمغرب ـ هما عرب وبربر وقيام حضارة غربية إلى جانب ثقافة إسلامية عربية كانت، إلى قبل نصف قرن أو يزيد، فيها حفاظ أكثر من اللازم، وإن كنا لا نستطيع أن ننعته بالرجعية. وهذه الازدواجية توجد، في بعض الأحيان، في الأفراد لا في المجتمعات فحسب، وإلى جانب ذلك ثمة ازدواجية في التعبير، أي استعمال اللغة العربية واللغة الفرنسية لغة للكتابة والبحث والنقاش. وثمة من يجيد اللغتين، لكن الغالب أن يلجأ الواحد من الكتّاب إلى لغة دون الأخرى.

إلا أن هذه الازدواجية مرحلة عابرة، وإن كانت ستظل وقتاً أطول مما يجب. فليس من السهل القضاء على هذا الذي بني في أجيال بين عشية وضحاها.

وآخر ما نود أن نذكر أن المرأة كانت بعيدة عن ميادين الأدب إلى نحو ثلاثين سنة. وقد تحسن الوضع كثيراً خلال العقد الرابع وأوائل العقد الخامس من القرن العشرين. لكن منذ الحرب العالمية الثانية ومنذ أن اشتركت المرأة في الثورات، خرجت إلى سوق الأدب، كما خرجت إلى سوق العمل في النواحي، الأخرى، بزخم قوي.

عمان ١٩٦٣

١٢ ـ المحافظة والتقليد في أدب المغرب العربي

١

في أيام ازدهار الحضارة العربية وإيناعها تساوى جناحا العالم العربي في الإسلام بذلك. فقد احتضنها المغرب العربي علماً وأضاف إلى النتاج، ودرسها فقهاً وشريعة وصفى هذين العلمين كثيراً، وحللها فلسفة ورفع هذه فوق ما كانت، ودونها تاريخاً ونظمها شعراً. ومن ثم فالجذوة كانت هناك مثلها في ديار المشرق.

أما في العصور الحديثة فقد اختلفت الأمور بين مشرق العالم العربي ومغربه، وخصوصاً في القرن التاسع عشر. فالأحوال التي اجتازها المغرب لم يمر بها المشرق، وتأخرت النهضة هناك بعض الوقت. لذلك فإننا نلمح في مآتي الفكر الحديث من آثار التقليد الأصيل ما هو حري بالتحدث عنه. ونحن عندما نشير إلى التقليد وعناصره، لا بد لنا من التعرض، بادىء ذي بدء، إلى مراكز الحياة الفكرية التي طبعتها بطابعها إلى أمد ليس بالبعيد، بل ولا تزال تؤثر فيها إلى حد كبير.

هذه الحياة الفكرية والأدبية استمدت عناصرها ومقوماتها من المعاهد التي قرىء العلم بها، والعلماء الذين أورثوه طلابهم. والمعاهد هذه في المغرب العربي كثيرة، ولكنها يتوجها معهدان هما جامع القرويين في فاس وجامع الزيتونة في تونس. وهذان المركزان يتساويان مع الأزهر عمراً، ويتسامقان وإياه ذروة وقمة، ويتعادلان معه أثراً وعمقاً ورقعة. ذلك أنهما غذيا الأقطار المتاخمة للمغرب العربي بالعلماء والعلم والفقهاء والفقه والأدب والأدباء، فكان من آثارهما مراكز في شنقيط ونيجيريا وتمبكتو وبعض أنحاء الكونغو.

في هذين المعهدين حفظت جذوة العلم مشتعلة أيام طغى الجهل على تلك البقاع. ولما آن للمغرب العربي أن يستيقظ من سباته، ويعود النور إلى جنباته، كان أول من حمل المشاعل متخرجو القرويين والزيتونة. فكان منهم الوزراء الحكماء، والمستشارون الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم. ومن هذين المعهدين خرج المؤرخون الذين دونوا أحداث البلاد القريبة والبعيدة على نحو ما فعل القشتالي المغربي في مناهله وصنوه الزياني في بستانه، وعرمرمة، وابن ابي الضياف التونسي في اتحافه ومعاصره محمد بيرم الخامس في مستودعه. ومن هاتين المؤسستين جاء الرحالون الذين خلّفوا لنا أخبار تنقلهم كالعياشي والناصري وصاحب الرحلة الحجازية. هذا إلى عدد من الفقهاء وأهل الشريعة، الذين شرحوا المتون ولخصوا الشروح أملاً في أن يتيحوا للناشئة السبل اللازمة للوصول إلى ما يبتغون.

ونحن إذ نذكر جامعي القرويين والزيتونة نود أن نتذكر عشرات من المدارس لعلها أصغر حجماً أو دون ذلك سناً. ومع ذلك كان لها أثر، أيما أثر، مثل المعهد الأسمري في زليطن بليبيا

ومدرسة سيدي يوسف بمراكش ومدرسة تلمسان وغيرها. على أننا نود أن نلفت إلى معهد خاص كان، على حداثة سنه، قبلة المتعلمين والمعلمين مدة طويلة، هو معهد الجغبوب. ولكن قبل ذلك يجب أن نقول كلمة عن السنوسية، لارتباط الأمرين واحدهما بالآخر.

السنوسية هي الحركة الإسلامية الإصلاحية الكبرى التي شغلت المسلمين في الشمال الإفريقي وفي الحجاز في القرن التاسع عشر. مؤسس الحركة هو السيد محمد بن علي السنوسي الذي أنشأ أول زاوية لها في البيضا في برقة سنة ١٨٤٣، وإن كان قد نشر دعوته من قبل في الحجاز. والسيد محمد بن علي جزائري المولد، ثقفته أسرته وأساتذة القرويين ونبوغه. وكان يرمي إلى إصلاح المجتمع الإسلامي عن طريق توضيح الإسلام الحق ليهتدي الناس بهديه. وسبيله الذي اختار إلى ذلك هو أن يصلح الفرد المسلم أولاً، فيترتب على ذلك صلاح المجتمع. ومن ثم فقد كان السيد محمد وابنه السيد المهدي، حريصين على سلوك السبل السلمية لإقناع الناس بدعوتهم. فانتشرت في أيامهما الزوايا في برقة وغيرها من جهات ليبيا ثم في أواسط أفريقيا. وكانت هذه الزوايا مراكز تعليم واتجار وعمل. وقد شددت الزعامة السنوسية من أول الأمر على العمل. فلم يكن في الزوايا مكان لكسول. وكان التعليم والهدى الديني بحاجة إلى رجال من أهل المعرفة والكفاية والدراية والخبرة لمعالجة مشاكل القبائل وقضايا الساعة الدينية وغيرها. لذلك أنشأ السيد محمد بن علي السنوسي معهد الجغبوب ليكون دار علم وحكمة ومركز تدريب وإرشاد. وكان يشرف على التعليم فيه الزعماء الكبار ويعمل في التدريس فئة من أجل المعارف الشرعية والعلوم الفقهية والمشاركات الأدبية. وقد تحدث الحشائشي الرحالة التونسي عن الجغبوب في أواخر القرن الماضي فقال: «أما العلوم فقد حطت رحالها هناك، فيوجد بها من العلماء والفحول من يقرأ التفسير وكتب الحديث العالية، وبها من الطلبة المزاولين للعلوم ما ينيف على الثلمائة، وبها من فحول الأدب من تزري أشعاره بأشعار العراقيين، أما الكتب الموجودة بخزائنها فقد نيفت على الثمانية آلاف مجلد، من تفسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك».

ولم يكن وجود المكتبة مقتصراً على معهد الجغبوب فحسب، بل إن كل معهد كانت تجاوره مكتبة ينتفع الناس بها. وقد كانت ثمة مكتبات وخزانات خاصة موزعة في بوادي المغرب وواحات الجزائر ودواشر تونس ودساكر ليبيا.

٢

هذه هي سبل هذه الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة التي تكوِّن الأسس التقليدية للحياة الفكرية ورجال الثقافة، كما قلنا قبلاً، خلفوا لنا الكثير من كتب التاريخ والحديث والأصول والفقه والأجرومية واللغة مؤلفين معلقين شارحين ملخصين. وفي كل ذلك كانوا خدمة للعلم وسدنة لتراثه.

ونحسب أن ملاحظة الأستاذ عبد الله كنون، أحد المفكرين الكبار في المغرب، حول هذه الناحية توضح الشيء الكثير. يقول الأستاذ:

«فلا ننتظر أن نجد عند الأدباء غير ما وجدناه عند العلماء من تغلغل روح المحافظة على الماضي والاتباع لآثار القدماء، فالأعمال الأدبية تتمثل في الرسالة والمقامة والخطبة. والتأليف بطريقة الكتابة الفنية نثراً، وفي موضوعات الشعر العربي المعروفة نظماً، والمعاني والأفكار هي ما يوحي به التراث الأدبي المشاع بين العرب كلهم، لأنه الرصيد الذي ينفق منه الجميع. فلا عنصر جديد في الشكل ولا في المضمون. وإن كان هناك من ميزة تسجل لأدب هذا العهد فهي أنه أدب متين الأسلوب قوي التعبير، بريء من التكلف، بعيد عن الضعف الذي يشيع في عهود الانحطاط. ولكن هذا الأدب بكل اعتبار لا يعدو أن يكون صفحة متممة لتاريخ الأدب القديم».

والعربي يستعذب النثر المرسل الجميل في ميادين العلم، لكنه عندما يريد أن يتعرف إلى دخائل النفس البشرية وتجربتها الضيقة والواسعة، فإنه يفتش عن ذلك في الشعر، ويبحث عنه في قصيدة. ولم يكن مصادفة أن قيل الشعر ديوان العرب. لقد قبل العرب الشعر أوزاناً وقافية، وارتضوا به موسيقى وغناء، وأعجبوا به أسلوباً، وصاغوا في إطاره العام، خبرتهم وتجاربهم. فبه تقربوا إلى الله العظيم ومدحوا الرسول الكريم (ص)، وتغنوا بشجاعتهم وتفاخروا بمكارمهم ووصفوا مباذلهم وأحبوا وكرهوا وصالحوا وقاتلوا. كان ذلك شأنهم قديماً، وظل كذلك إلى قبل حقبة قصيرة من الزمن. ولذلك فنحن عندما نحاول أن نتعرف إلى العناصر التقليدية في أدبهم الحديث، فإنه يتحتم علينا أن نحول وجهنا نحو الشعر. ذلك أنهم لم يكونوا قد جودوا القصة أو الرواية أو عجموا عود الشعر الجديد. وإن كان لفن من فنونهم الأدبية حظ أن يقترب من الشعر إتقاناً، فالمقالة هي الفن الآخر.

بين أيدينا أبيات رثى فيها المحبوب السيد السنوسي الكبير قال:

ما بال عينك لا بالنوم تكتحل	ودمعها لا يزال اليوم ينهمل
كأنما سملت بالشوك أو كحلت	من الغضا بشواظ كان يشتعل
تخالها مزنة قد لاح بارقها	فاخضل الأرض منها صيب هطل
والوجه أسفع، والأعضاء ناحلة	والقلب في شرك الأحزان محتبل
والجنب ان تدعه يوماً لمضطجع	كان الوطاء له السعدان والأسل

وهذه الصورة، مثل المعاني التي تتضمنها، تعكس صلة بالأدب العربي القديم. ومثل هذه الأبيات في جزالتها وأصالتها التقليدية أبيات من قصيدة طويلة للشاعر الليبي البرعصي يصف فيها الجغبوب. والمناسبة كانت تحول السيد المهدي عنها إلى الكفرة. وكان الشاعر غير مقر لذلك، فجاءت الأبيات وكأنها دعوة لاعتماد المقر الأصلي للمجد السنوسي.

ولعبد الله السني، وهو أحد المجاهدين الليبيين الأوائل، مديح للسيد المهدي السنوسي فيه، على ما يبدو من الأبيات التالية، نغمة جهاد واضحة:

وفقت بالنصر، فالأعداء من فرق	منكم على بعد أعياهم الحذر
الله أكبر! آن القوم في قلق	تكاد أوصالهم بالخوف تنبتر

مـخـايل الحق لاحت، وهي تخـبـرنا ظهـور مـوعـد صـدق كـان ينتظر
قـد آن للبـيض أن ينهل وابلهـا وعن سناها ظلام الكفـر ينحـسـر
تغـدو الصـوارم في أيدي الضـراغم من آل الرسـول، لهـا في الكفـر مـعـتـبـر
تدعى «نزال» فـتـحكي في تزاحـمـهـا وقع الصـواعق في الظلمـاء تسـتـعـر

وعلى بعد الشقة بين الكفرة في ليبيا وسوس في المغرب، فإننا نسمع نغماً مشابهاً لأن العوامل التي أثارت الشجون ودفعت الشاعر إلى القول متشابهة. وشاهدنا على ذلك أبيات لطاهر الايفراني يشير إلى حال بلده في مطلع القرن الحالي:

شـجـاه الأسى من فـقـد حـر يهـمـه فكاك ذمـاه من يد المـتـمـرد
يقـود إليـه كل أصـيـد قـارم للحم العـدا مـخـشـوشن مـتـمـعـدد
يجـاهـد في الله العظيم عـدوه باقـدام ليث في الكريهـة مـحـرد
ينسب لظى الهـيـجـا بقلب مـشـبـع وكف بصـيـر بالطعـان مـعـود
وإطراق ثعـبـان وكـيـد ثعـالة وتصـمـيم فـهـد في الجـرأة فـرهد
ويخـتـال مـا بين الصـفـوف كـأنه عـروس تهـادى بين خـود وخـرد

ولنذكر التشابه بين صور الحرب والقتال هذه وما عرفنا من مثل هذه الصور في القرون الخوالي. ومع أن المقطوعة التالية ليست فيها دعوة إلى الجهاد، ففيها نفحة قدسية مستمدة من روح الإسلام. وهي لمحمد العيد آل خليفة، أحد شعراء الجزائر:

اسـتـقـبلوا وجـه الحـجـاز وسـيـمـا واسـتنشـقـوا روح الإله نسـيـمـا
البـحـر رهو كـالخـمـيلة منظرا والجـو صـحـو كـالزجـاج أديمـا
والمـسلمـون يودعـون بأنفس مـشـتـاقـة ركـبـا أبر كـريمـا
والروح تحت العـرش يسـأل ربه للركب حـفظاً أو يؤوب سليـمـا
والبـيت يرتقب الحـجـيج مـرحـبـا ويعـد نزلاً للحـجـيج عظيـمـا
الحج مـدرسـة التـعـارف شـادها رب الورى وأدارها تعليـمـا
اللـه بـالإسـلام ألـف بـيـنـنـا قـدمـاً ووحـد أرضنا اقليـمـا

٣

في الوصف يتجلى الكثير من الصور الشعرية، كما يتضح في بعض الأحيان الاقتباس أو الأثر أو التأثر. وهذه قطعة نثرية شعرية، تروي القصة وتعطي الوصف وتظهر، على الأقل، ناحية من نواحي الشعر التقليدي في تونس وهي لأبي عبد الله محمد الباجي قال:

«كنت عشية عند، سيدي محمد بيرم شيخ الإسلام، الذي لا تأتي بمثله الأيام، ولو في الأحلام، بسانيته في العبدلية، وتجاذبنا أطراف الحديث، ما بين قديم وحديث. وتطارحنا من الأخبار، ما يفوق نسمات الأسحار، على صفحات النوار، وكان من جملة ما أورده الشيخ لعلي ابن الجهم يصف فوارة في قصر جعفر المتوكل فكلنا عجب منه، واعترف بالتقصير عنه. ولما رجعت إلى منزلي بالعبدلية، وكانت ليلة مقمرة مضيئة، جلست حول فوارة، تشبه الهالة ضياء

واستدارة. والنسيم عليل، وثوب الليل بليل. فتذكرت ما كنا فيه من وصف الفوارة. فنظمت بديهة بقدر ما تنساب دارة:

وفوارة في روضة مثل هالة ... على غصن مثل اللجين قد اعتلى
سمرنا عليها والنجوم كأنها ... أقاح رياض راق في أعين الملا
ولما تدانى الفجر خافت ذبوله ... فساقت له السلسال طلا ووابلا

ويشبه هذا الشعر مقطوعة لإدريس السناني يصف فيها روضاً:

روض يروق الناظرين بهيج ... سيان فيه الزهر والزليج
فكلاهما في بهجة وتنوع ... يحي النفوس بحسنه ويهيج
إن جئته تبغي انتشاق أريجه ... وافاك دون الباب منه أريج
قد عربدت أشجاره بمدامة ... شبه اللجين يديرها الصهريج
والطير تشدو في الغصون بنغمة ... في شدوها التفريح والتفريج
نلنا به عند الصباح مسرة ... والغصن غض والخليج يموج
أبقاه ربي زاهراً في نضرة ... ما يمم الحرم الشريف حجيج

وحتى ابن زكري الليبي المتفنن نظم كثيراً من الشعر التقليدي. من مثل ذلك الأبيات الثلاثة التالية:

قالوا: له خال بصفحة خده ... وتفننوا في كنهه وصفاته
واراه عبداً جاء يسرق من جنى ... خديه مغتراً بفعل سناته
فرماه ناظره بسهم صائب ... وانظر إلى دمه على وجناته

وقد كثر في القرن الماضي نظم الشعر لمناسبة ختم كتاب من الكتب العلمية الفقهية أو اللغوية. وقد نظم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور قصيدة يهنىء بها أخاه بختم الأشموني على الألفية جاء فيها ما يلي:

هو العلم ضاءت من سناه المحافل ... وشاعت له بين الأنام فضائل
مزايا تجلت بالمحاسن والبها، ... تقاعد عن إدراكهن المحاول
رقى لسماء القوم حتى غدوا بها ... بدورا، ضياهم للبرية شامل
مشارقهم تهدي السراة إلى المنى ... إذا عاقهم ليل من الجهل سادل
كرام رأوا في المجد أنمى تجارة ... فكل إلى سمت المفاخر مائل
ولا غرو أن سادوا البرايا فإنما ... تروم العلى من كان فيها يحاول
ومن يخطب الحسناء نال وصالها ... وبالجد تسبى الطيبات الحوافل
كحمد الذي لاحت منارة سعده ... فقامت له بالرحب تلك الشمائل
امام دعا ركب النجابة فانثنى ... إليه وجاءت بالكمال المحامل
هو البحر إلا ان لامع دره ... غدا وله نظم من المثل عاطل
إذا قام للاقراء فاسمع جواهرا ... على حسنها قامت لدينا دلائل

٤

الشعر المغربي غني بالغزل، وإن كان بعضه تغزل الحالمين، وها نحن أولاء ننقل نموذجين فقط. أما الأول فأبيات لمحمد العيد الجزائري بعنوان صدود:

أرى دنياك تعفو كل عين ... بها وتجر للأثر العفاء
فلا تطلب صفاء العيش فيها ... أفي الكدرات تلتمس الصفاء
ولا يغررك حلف من بنيها ... فلست أرى لأكثرهم وفاء
قد اختاروا الظهور بها ولولا ... فساد الرأي لاختاروا الخفاء
وبين حشاي بر بي رفيق ... صددت عن الرفاق به اكتفاء
وليس الصد من شيمي ولكن ... جفاء الدهر علمني الجفاء

والمثل الثاني من قصيدة ماء العينين وهو شنقيطي، تردد على المغرب كثيراً. قال في قصيدة غزلية:

لو كلمت ميتاً لأحياه الهوى ... واستبدل الأحيا من المقابر!
ولو بدت لراهب في ديره ... لصد عنها بفؤاد حائر
وقد مضت لي أعصر في وصلها ... ما أن مضت في سالف الأعاصر
أيام كان السعد جاراً مسعداً ... وكان صرف الدهر غير جائر
وكم ليال بتها في جنة الـ ... هوى بأمثال الدمى السوامر
في خلقها وخلقها ما تشتهي ... نفسي، وما يلذ كل ناظر!
أمسى فؤادي من هواها مدنفا ... وفاض دمع العين كالمواطر
أروم كتمان الهوى وأدمعي ... تبوح بالمكنون في الضمائر
وكيف اخفائي الغرام بعدما ... أبديت من مستودع السرائر

٥

ولعل قصيدة من قصائد محمد مختار السنوسي أبلغ في دلالتها على المحافظة من كثير من القصائد. فالرجل كان يتابع الفحول من شعراء العصور الكلاسيكية في أساليبهم، وكثيراً ما كانت موضوعاته تدل على ما في نفسه من إكبار للتراث الزاخر القوي الذي كان يتقنه ونجيد تفهمه. والقصيدة التالية بعنوان «كأنك من كل القلوب مكون». ولما كان لهذه القصيدة قصة، فإننا آثرنا أن ننقل الكلمات التي قدمت بها مجلة «دعوة الحق» القصيدة العصماء. قالت:

يعاب على الأدب المغربي المعاصر أنه «أدب أبراج»، وأن الأديب المغربي يكتفي بالتغني بخوالجه وإحساساته الفردية وكأنه لا يعيش الكفاح الوطني المجيد الذي خاضه شعبه ووطنه منذ نحو أربعين سنة! ولكن ذلك ليس صحيحاً كل الصحة، فقد خاض الأدب في المغرب معركة التحرير والمقاومة بجميع ألوانها، إما مواكباً لها، أو متقدماً عليها يمهد لها الطريق ويفسح لها المجال.

وهذه القصيدة التي نعيد نشرها اليوم قالها صاحبها منذ أزيد من ثلاثين سنة في رثاء

شاب وطني من «سلا» لم يكن يحمل مسدساً أو رشاشاً، لأن أسلوب الكفاح لم يكن قد عرف بعد المسدسات والرشاشات، وإنما كان يحمل قلباً عامراً بالإيمان والغيرة الوطنية.

وكانت حركة المقاومة إذ ذاك تكتسي صبغة الإصلاح الديني والخلقي. بقدر ما كان الاستعمار يستهدف القضاء على روح الدين ونشر الميع والانحلال بين الشبان المغاربة، وذلك ما حدا بالشاب المذكور إلى اقتحام الحانات وإتلاف ما بها من خمر، تحدياً لإرادة الاستعمار، ووقوفاً في وجه أغراضه الدينية. وكان من الطبيعي أن يعرف الفقيد السجن، وأن يذوق ألواناً من الأذى والاضطهاد، إلى أن غادره وهو يحمل بين جنبيه داءه الذي أودى بحياته، فبكاه المغرب كله لما كان معروفاً به من غيرة وطنية وخلق جميل.

والقصيدة التي نقدمها اليوم. وكانت قد نشرت في حينها بجريدة «المغرب» بالعنوان نفسه ودون إمضاء، تصور كفاح الفقيد ومرضه وموته تصويراً صادقاً يبعث على الإعجاب.

وقد قدمت جريدة «المغرب» إذ ذاك للقصيدة بمقدمة نقتطف منها ما يلي: «صاحب هذه القصيدة شاعر كبير، معروف بفيض العاطفة وصدق الشعور، وهو ضنين بشعره فلا ينشره بين الناس ولا يريد أن تكون له أبواق تذيعه، وإنما يكتفي بطائفة خاصة من مريديه يتلو عليهم أشجى ألحانه وصدى نفسه، ثم يطوي ذلك ويدسه بين الأوراق».

ذلك ما قالته جريدة «المغرب» منذ أكثر من ثلاثين سنة، وهو ما لا يزال حقاً واقعاً حتى اليوم. ونكتفي هنا بالأبيات الأولى من القصيدة، فهي تشغل من هذه الصفحات ست:

حييت وإن أرمست يا طيب الذكر ... وخلدت خلداً باقياً أمد الدهر

طفرت ـ كما قد كنت تظفر دائماً ... بأحدوثة ما ان تزال إلى الحشر

وهل كنت إلا زهرة طاب نشرها ... فزاد لها التقطير نشراً إلى نشر

وقد كنت ريحان القلوب جميعها ... فها أنت فيها الآن، لا في حشا القبر

كأنك من كل القلوب مكون! ... فأي فؤاد لم يضمك في الصدر؟

عزفت عزوفاً لا تسف إلى الثرى ... فبوئت ما بين الترائب والنحر

فهل كان حصاراً سوى نفسه التي ... تجول كما جال الأثير على القطر؟

تمازج احساس النفوس فتغتدي ... لآلامها المذياع يصدع بالأمر

وتدرك ما ينتاب أموال أمة ... ذخائرها نهب المقاصف والخمر

وتبصر اخلاد الشباب لراحة ... تخدر منهم منبض العز والفخر

على حين أن المغرب ارتد زورقاً ... تقاذفه الأرياح عبرا إلى عبر

وقد أسلس الربان فيه إلى الونى ... وقال: دع الأقدار في سيرها تجري

نظرة أربعة مؤرخين جزائريين إلى تاريخ الجزائر الحديث(١)

أولاً: مقدمة

في موضوع كالذي ننوي معالجته لا سبيل إلى الدخول في تفاصيل ما مر بالجزائر خلال الفترة التي سيطرت فيها فرنسا على مقدرات القطر الشقيق، ولكن لا بد من الإشارة إلى الناحية الثقافية من سياسة فرنسا في تلك الديار، وذلك لارتباط هذا الأمر بالموضوع الحالي.

وقد سمحت لنفسي أن أنقل، عن بعض ما جاء في مقال لي نشر في مجلة «الأبحاث» (الجامعة الأميركية في بيروت) في السنة الخامسة العدد الأول (آذار/ مارس ١٩٥٢)، ما ورد فيه عن التعليم والثقافة(٢).

(١) التعليم

وما دمنا بصدد المجتمع الجزائري فلنتحدث عن التعليم. كان في الجزائر نوعان: الرسمي والحر. ولنتاول الرسمي أولاً. وتاريخه يعود إلى بعيد الاحتلال بسنوات، إذ قررت الحكومة فتح مدارس في الجزائر وقسنطينة ووهران وعنابة والبليدة ومستغانم (سنة ١٨٥٠). لكن هذا القرار ظل يعرج العمل فيه حتى أن القطر لم يكن فيه في سنة ١٨٧٠ سوى ٣٦ مدرسة فيها ١٣,٠٠٠ طالب. لكن الحرب البروسية ـ الفرنسية والثورة التي اندلع لهيبها آنذاك في الجزائر أخرت البرنامج، وأدت إلى إقفال بعض المدارس. بحيث أنه في عام ١٨٨٠ لم يكن في القطر سوى ١٦ مدرسة. وفي عام ١٨٩٨ كان عدد الأطفال في سن التعليم ٦٨٠,٠٠٠ في القطر كله، كما أن التعليم كان مقصوراً على البنين. والأرقام التالية، المأخوذة عن الإحصاءات الرسمية التي نشرتها الولاية العامة مؤخراً، توضح أمر التعليم في الخمسين سنة الأخيرة:

السنة	الطلاب						
	الجزائريون		الفرنسيون		الأجانب		المجموع
	البنون	البنات	البنون	البنات	البنون	البنات	
١٩٠٠ ـ ١٩٠١	٢٣,١٩٦	١,٧٧٩	٣٧,٦٦٦	٣٧,٤٤٢	٢٠,٥٠٦	١٩,٩٦٢	١٤٠,٥٥١
١٩١٠ ـ ١٩١١	٣٧,٢٥١	٣,٥٢٧	٤٦,٤٥٠	٤٥,٨٤١	٢٣,٠٨٩	٢١,٥٩٩	١٧٧,٧٥٧
١٩٢٠ ـ ١٩٢١	٣٨,٧٧٣	٤,١٣١	٤٤,٢٢٣	٤٢,٨٠٦	١٢,٥١٣	١٢,٧٨١	١٥٥,١٢٧
١٩٣٠ ـ ١٩٣١	٥٩,٣٢٨	٨,٤١٠	٥٣,٣٧٦	٥١,٣٢٦	٩,٦٨٢	٩,٧٣١	١٩١,٧٥٣
١٩٤٠ ـ ١٩٤١	٩٤,١٧٩	٢٢,٩٧٦	٦٧,١٦٥	٦٧,١٦٥	٥,٨٣٤	٥,٩٢٤	٢٦٦,١٩٠
١٩٥٠	١٥٩,٤٦	٥٣,١٠٣	٦٩,٠٣٦	٦٩,٣٤٦	١,٨٦١	١,٧٤١	٣٥٤,٥٥٦

ونود قبل تحليل هذه الأرقام، أن ندون الملاحظات التالية:

(١) هذه الأرقام تشمل الابتدائي وما يسبقه من بساتين الأطفال ودور الحضانة.

(٢) نقص الأرقام في عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ يرجع سببه إلى النكسة التي أصابت التعليم في الجزائر بعيد الحرب العالمية الأولى.

(٣) هذه الأرقام يدخل في عدادها طلاب يتلقون علومهم في مدارس حرة، عربية أوروبية.

والآن نتناول الأرقام نفسها بالتحليل مقتصرين على آخر سنة.

(١) إن الطلاب الجزائريين، بنين وبنات، يبلغ عددهم ٢١٢,٥٧٢ والفرنسيين ١٣٨,٣٨٢ ومعنى هذا ان كل ثلاثة طلاب جزائريين في المدارس يقابلهم طالبان فرنسيان. مع أن عدد السكان هو بنسبة ٨ إلى ١.

(٢) إن نسبة البنات الجزائريات في المدارس إلى البنين هي ١ إلى ٣. أما في حالة الفرنسيين فهي ١ إلى ١.

(٣) قدر عدد البنين والبنات (من الجزائريين) في سن التعليم الابتدائي لسنة ١٩٥٠ بنحو مليون. ومعنى هذا أن واحداً من كل خمسة يجدون مكاناً للتعليم. بينما الفرنسيون جميعهم يجدون في المدارس متسعاً لأولادهم.

(٤) يمكن أن يضاف إلى هذا كله أن المدارس نفسها ليست موزعة في أنحاء القطر الجزائري توزيعاً عادلاً. فهي تكثر حيث يزداد الفرنسيون، وتقل حيث يتغلب الجزائريون، فضلاً عن ذلك فهي في بلاد زواوة أكثر منها في جهات أخرى.

فإذا انتقلنا من التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي والمهني والعالي، وجدنا أن للحكومة ٤٤ مدرسة ثانوية (ليسيه) كان فيها في عام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ المدرسي:

١٤٩٠٠	طالب	بينهم	١٢٤٦٧	طالباً فرنسياً واجنبياً
٨,٤٩٢	طالبة	بينهم	٨١٩١	طالبة فرنسية واجنبية

ويتضح من هذا:

(١) أن الجزائريين كان لهم نحو ٩ بالمئة من مجموع الطلاب في المدارس الثانوية.

(٢) أن نسبة البنين من الجزائريين إلى مجموع البنين هي نحو السبع.

(٣) وأن نسبة البنات الجزائريات إلى مجموع البنات هي ١ إلى ٢٨.

وقد كان في المدارس المهنية ٨,١٤٥ تلميذاً منهم ١,٨١٦ جزائريون أي بنسبة ١ إلى ٤,٥.

أما جامعة الجزائر فقد أمها في عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ من الطلاب ٤,٦٣٩ منهم ٢٨٢ جزائرياً (٢٥١ طالباً و٣١ طالبة)، أي أن الجزائريين حصلوا على ١ من ١٦,٥ من الأماكن في الجامعة.

على أن الغبن اللاحق بالجزائريين لا يقتصر على هذه المسائل العددية فقط. لكنه

يشمل البرامج، المبنية على سياسة خاصة يمكن إجمال خطوطها الرئيسية في الأمور التالية:

(١) المدارس تسير على النهج الفرنسي، ومعنى هذا أن اللغة العربية إما إن يحرم منها الطلاب بالمرة، وإذا أعطيت لهم، فهي عربية عامية في الثانويات. «وماذا يهمهم (أي القائمين على شؤون الجزائر) من لغة لم يعترف بها كلغة رسمية بجنب اللغة الفرنسية، ولم يخصص لها معها إلا نحو ثلاث ساعات في الأسبوع، تزاحمها اللغة العامية التي اشتقت منها ثم اعتبرت لغة مستقلة عنها... وقد عهد بالتأليف في اللغتين إلى طائفة من الأساتذة فألفوا في اللغة العامية كتباً مختلفة ملئت بالحكايات المكذوبة تقرأ للتسلية... كما ألفوا في هذه اللغة الأخيرة (الفصحى) كتبا أخرى على طريقتهم المعروفة من مزج الشرح والبيان باللغة الفرنسية، فابتكروا لكل منهما أساليب خاصة، وأحدثوا لهما نحواً خاصاً لا يعتمد في التطبيق إلا على جمل ركبت تركيباً ليس من العربية في شيء». وهذا الذي ذكر لا ينطبق على المدارس الرسمية الإسلامية الثلاث.

(٢) ليس في هذه المدارس دروس تتناول التاريخ العربي والإسلام، بينما يحمل الطلاب على تعلم التاريخ الفرنسي بدقة وتفصيل. ومثل ذلك يقال عن الجغرافية.

(٣) الأصل في هذه المدارس عامة هو أنها للفرنسيين، فإذا ظل فيها متسع دخلها الجزائريون.

(٤) قلما يشجع الجزائريون على دخول الجامعة مع أنه ينفق عليها من أموال الحكومة. وهذا هو توزيع الطلاب الجزائريين على فروع الجامعة المختلفة:

	القانون	العلوم	الآداب	الطب	الصيدلة	المجموع
طلاب	١٠٢	٣٣	٥٧	٤٣	١٦	٢٥١
طالبات	-	١	٥	٢١	٤	٣١
المجموع	١٠٢	٣٤	٦٢	٦٤	٢٠	٢٨٢

توجد في الجزائر مدارس حرة، ويعنينا منها المدارس العربية. وهي على نوعين الواحد يتلقى إعانات مالية من الحكومة، وفي هذه الحالة يطلب من هذه المدارس أن تخصص ثلث ساعات التدريس فيها للغة الفرنسية. أما النوع الثاني فهو الحر الذي يعتمد على نفسه وتأييد القوم له في حياته وعمله، وهذا هو الذي ينصرف لتدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية. وإذا استثنينا بضع مدارس (كتاتيب) هنا وهناك، فإن المدارس الحرية بالاهتمام من هذا النوع هي مدارس «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر».

(٢) سياسة فرنسا الثقافية

جاء احتلال فرنسا للجزائر مبكراً في القرن التاسع عشر، قبل أن تلفح البلاد نيران النهضة الحديثة التي أتيح لها أن تصيب ديار الشام ومصر وتونس والمغرب الأقصى حتى قبل أن تحتل الدول الأوروبية هذه البلاد. وجاء الاحتلال للجزائر بعد فترة جهل وخمول شملت

العالم العربي من شرقه إلى غربه. وجاء الاحتلال قوياً، فأعمل السيف، ولجأ إلى الضغط والخنق. فلما أفاقت الأمة هناك على نفسها وجدت القيود تحيط بها من كل جانب، والسلاسل ترهقها من كل صوب. وفضلاً عن ذلك فقد كان الاحتلال في شكله وروحه انتقاماً من الجزائريين لمضايقتهم للدول الأوروبية في غربي البحر المتوسط. ومن ثم كان رد الفعل الجزائري أيضاً عنيفاً قوياً فيه روح الانتقام. ولذلك تأصلت في نفوس الفريقين روح الكراهية التي تستطيع أن تلمسها في المدن الجزائرية في كل ناحية من نواحي الحياة ـ في الترام وفي المقهى وفي الشارع، دع عنك المحافل السياسية والمعترك الاقتصادي.

وجاءت الثقافة الغربية فرنسية الثوب تواكب الاستعمار وتجاريه، ويسخرها أهلها للقضاء على الشخصية الجزائرية. فكان من ذلك نفور من كل ما هو غربي ـ حتى ولو جاء معه الخير. وقد يكون في هذا القول بعض المبالغة، ولكن الخير الذي يريد أن يمحق الشخصية لا يستمرئه الناس كثيراً. وما آذن الوقت، بانتعاش الحركات الفكرية والروحية بين المسلمين في الجزائر، اتخذت هذه الحركات صفة سلفية قوية، ومحافظة على كل شيء في الإسلام وإحيائه. فإذا كانت السياسة ترمي إلى القضاء على اللغة العربية والإسلام، فمقاومتها تقضي بالتشديد في الحفاظ على العروبة والإسلام. ولعل هذا ما يوضح المحافظة القوية التي تتسم بها الحركة في الجزائر.

ونشرت المدارس الفرنسية والمعاهد الأخرى العلوم الطبيعية والرياضية باللغة الفرنسية، وحرمت العرب من أن يتعلموا هذه الموضوعات بلغتهم، على نحو ما أتيح لنا نحن ابناء الشرق العربي. فنشأ الناس على أنه ثمة عالمان منفصلان ـ الواحد عالم الفكر الغربي ولا يعبر عنه إلا بالفرنسية، والثاني عالم الفكر الإسلامي العربي، وهذا تقتصر العربية عليه. وهذا الفصل الفكري زاد في النقمة على الغرب وفكره. وقد اتضح لنا أن هذا الفصل الفكري موجود حتى في المعاهد التي تعلم الثقافتين ـ العربية والفرنسية، وحتى في الذين يعلمون في تلك المعاهد. فقد وقر في نفوسهم أن الثقافتين منفصلتان متباعدتان متنافرتان متناقضتان، وأنهما تمتان إلى عالمين لا سبيل إلى التوفيق بينهما.

يضاف إلى هذا أن السياسة الفرنسية تصر على اعتبار الجزائريين مكونين من جماعتين مختلفتين أصلاً وتاريخاً وعاطفة وفكراً: الواحدة عربية والثانية بربرية. ويقول الباحثون الفرنسيون بأن الفروق كبيرة بين الجماعتين لأن البربر لم يتعربوا وإن إسلامهم كان سطحياً، ولذلك عمل الحكام الفرنسيون على تدوين القانون الخاص بالبربر باللغة الفرنسية، واعتبروه أصلاً لحياتهم. وهذا الذي دون هو مجموعة من العرف والعادة بعضه حري بأن يتلف، لولا أن السياسة أرادت استغلاله.

والذي يتضح من هذا أن سياسة فرنسا كانت ترمي إلى القضاء على الشخصية الجزائرية، وذلك في سبيل فرنسة البلاد وشعبها. ومن هنا فقد عمدت فرنسا إلى إهمال تدريس التاريخ الجزائري، وبخاصة منذ الفتح العربي، واللغة العربية، وهما عنصران اساسيان

في تنمية شخصية أي شعب أو قطر. كما أن الكتّاب الفرنسيين روّجوا لأمر آخر، وهو قولهم بأن الجزائر، شأنها في ذلك شأن تونس والمغرب، مرتبطة بأوروبا ارتباطاً عضوياً ـــ تاريخياً وحضارياً واقتصادياً وثقافياً ـ وإن هذا الارتباط هو الأمر المهم في فهم تاريخ تلك الأقطار. ومعنى هذا عزل الجزائر، وبقية أقطار المغرب العربي، عن الشرق العربي والعالم الإسلامي.

ومن هنا كان تمسك الجزائريين «بشخصيتهم» من أبرز نواحي المقاومة والجهاد والنضال ضد الحكم الفرنسي.

ثانياً: أربعة مؤرخين محدثين

اخترنا أربعة من المؤرخين المحدثين الجزائريين الذين دونوا تاريخ الجزائر في العقود الأخيرة بقصد دراسة موقفهم من تاريخ بلادهم، وبخاصة فيما يتعلق بالشخصية الجزائرية ومقوماتها.

والمؤرخون الأربعة هم: مبارك بن محمد الهلالي الميلي وكتابه هو: «تاريخ الجزائر القديم والحديث»؛ وعبد الرحمن محمد الجيلالي صاحب: «تاريخ الجزائر العام»؛ ومحمد علي دبوز في كتابيه: «تاريخ المغرب الكبير» و «نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة»؛ وأبو القاسم سعد الله «تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال».

ولا بد لنا، بادىء ذي بدء، من التعريف بالكتب التي ذكرناها ومؤلفيها، على قدر الإمكان، قبل الغوص في مضمونها.

مبارك بن محمد الميلي، يقول عن نفسه إنه من المتعلمين بالمساجد، وإنه اشتغل أيام الدراسة بما به يشتغلون، ولذلك كان بعيداً عن التاريخ حتى أخذ نفسه بقراءة تراجم الفقهاء والنحاة، ثم انتقل إلى قراءة التاريخ. ويقول إنه لم تحدثه نفسه ولا يوماً واحداً بالكتابة في التاريخ حتى دعاه بعض الأصدقاء إلى وضع كتاب في تاريخ الجزائر، وعندها تحركت عزيمته ووجه اهتمامه إلى البحث في تاريخ «الوطن العزيز».

نُشر الجزء الأول من كتاب الميلي لأول مرة قبل سنة ١٣٤٧هـ (الطبعة الجديدة، بيروت ١٩٦٣). فنحن نجد في الصفحة السابعة من الطبعة الجديدة للجزء الثاني (بيروت ١٩٦٣) رسالة من المغفور له عبد الحميد بن باديس مؤرخة في ١٣٤٧/١/١٥ موجهة إلى الميلي يمتدح فيها عمل المؤلف. أما الجزء الثاني فقد وضع سنة ١٣٥٠هـ [٣]. ومعنى هذا أن الميلي بدأ كتابة تاريخ الجزائر قبل قرابة نصف قرن. وكتابه، على ما يقول ابن باديس، هو: «أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية».

والجزء الأول من الكتاب يبدأ منذ العصر الحجري وينتهي بدولة الروم (البزنطيين). والجزء الثاني يتناول الفترة العربية منذ الفتح إلى سقوط دولة بني زيان. أما الجزء الثالث (بيروت ١٩٦٤) فموضوعه العصر التركي في تاريخ الجزائر. وهذا الجزء هو من وضع محمد إبراهيمي الميلي، ابن الميلي المؤلف. ذلك أن الوالد توفي ولما يتم من هذا الجزء سوى عشرين صفحة، وقد شعر الإبن بوجوب أداء دين عليه، لكن الموضوع استهواه فاكتشف فيه

آفاقاً جديدة.

أما كتاب الجيلالي، في حلته الحالية، فقد ظهر الجزء الأول منه سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٥) والثاني سنة ١٣٨٥ (١٩٦٥)، هو طبعة ثانية جديدة منقحة ومزيدة. والجزء الأول (نشر الجزء الأول للمرة الأولى سنة ١٩٥٤) يتناول الفترة الممتدة من أقدم العصور إلى الدولة المرابطية، فيما يشمل الجزء الثاني تاريخ الفترة الممتدة من الدولة الحفصية إلى دخول الأتراك، وفيه فصل أخير عن الدولة الموحدية.

محمد علي دبوز بدأ كتابه في تاريخ المغرب الكبير ووضع منه ثلاثة أجزاء انتهى في الثالث (١٩٦٤) منها في العصر العباسي. ثم انتقل الى الفترة الحديثة فوضع ثلاثة اجزاء في نهضة الجزائر الحديثة وثورتها (١٩٦٥ ـ ١٩٧١). على انه بسبيل اتمام الحلقات الوسطى من السلسلة. اما سبب انتقال المؤلف الى الفترة الحديثة والمعاصرة فإنه اراد ان يحصل على المادة من اولئك العلماء الذين شاركوا في النهضة الحديثة قبل ان ينتقلوا الى دار الخلود. وفي مقدمة الجزء الاول يذكر المؤلف اسماء هؤلاء المصلحين الذين جلس اليهم ونقل عنهم اخبار النهضة الجزائرية الحديثة[٤].

ثالثاً: الشخصية الجزائرية

إذا نحن حاولنا التعرف إلى وجهات النظر التي نعثر عليها في الكتب المار ذكرها، لأمكننا أن نلخصها فيما يلي:

(١) يعنى الميلي بالشخصية الجزائرية عناية خاصة، ويؤكد وجودها باستمرار أي منذ العصور القديمة. وكأنه يرد هنا، ضمناً، على أولئك الذين ربطوا تاريخ المغرب بعامة في العصور القديمة بتطور الأمبراطورية الرومانية. فكتاب الميلي الأب، في جزأيه، يمكن اعتباره توضيحاً لتاريخ الجزائر وهو التاريخ الذي يبرز هذه الشخصية.

(٢) يقول الميلي[٥]: «في القرن الخامس الهجري انقطع سلطان العرب على الجزائر. وقد كاد جنسهم ينقطع تبعاً لسلطانهم لولا نزوح الهلاليين. وأبى الله إلا أن يستوطن العرب شمال افريقيا، ويبقوا جيراناً للبربر إخوانهم في الدين. والدين أمتن رابطة. هذا الدور (إلى القرن الخامس) نطلق عليه اسم العصر العربي، وإن كان أكثره عربياً بربرياً، نظراً إلى أن الإدارة العليا بيد العرب في جميعه ما عدا الدولة الرستمية. فهو عصر عربي حقيقة في أوله وتغلبياً في باقيه». وفي الجزء نفسه[٦] يبدأ القسم الثاني ويسميه العصر البربري ويقول تقديماً لهذا القسم: «عرف البربر في العرب أساتذة ماهرين مخلصين لا فاتحين غالبين يسوسُونهم بالعسف ويسومونهم سوء العذاب، ثم يمنون عليهم بأنهم تعبوا في تمدينهم، أو يملكون عليهم أراضيهم ثم يسبونهم بأنهم لا يحسنون تعميرها. ترقى البربر في ظل الحكومة العربية. ولكنهم أسرعوا في طلب الاستقلال قبل قدرتهم عليه. وإنما بعثهم على ذلك ما بقي فيهم من عروق الفوضى ومنافسة قبائلهم بعضها لبعض. حتى إذا جاء الدور العبيدي أتموا دروسهم العملية في الحياة النظامية فأصبحوا قادرين على الاستقلال. وفي القرن الخامس

استقل البربر في وطنهم من غير كفران لفضل العرب. فكانت حكومة صنهاجة معترفة بالسيادة للفاطميين أو العباسيين... كان مبتدأ العصر البربري في القرن الخامس ومنتهاه في القرن العاشر، وحكم أثناء هذه المدة ست دول كبرى هي: دول بني حماد والمرابطين والموحدين والحفصيين وبني مرين وبني زيان... وكان عصر الموحدين هو شباب العصر البربري.... وقد شاء الله أن يكون للعرب وجود جنسي في عصر البربر السياسي، كما كان للبربر وجود جنسي في عصر العرب السياسي. غير أن بين الوجودين فرقاً. فإن العرب مؤثرون في البربر في العصر العربي سياسياً ودينياً، وفي العصر البربري اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً أيضاً».

يرى الميلي استمراراً للشخصية الجزائرية، وإن كان ثمة تغلب لعنصر دون الآخر في فترة من التاريخ دون أخرى.

(٣) في التوطئة التي وضعها الميلي الإبن للجزء الثالث، وهو الذي يتناول الفترة التركية، يؤكد على: «أن تفهم كثير من الوقائع والأحداث في العهد التركي يتطلب فهماً عميقاً للخصائص المميزة للشخصية الجزائرية، والخصائص المميزة التي تشكل منها الشخصية الجزائرية تتطلب دراسات تتناول حتى العهود التي سبقت دخول العرب واستقرار الإسلام بالجزائر... وفعلاً، فإن الذي يبحث كل العهود التاريخية الماضية يجد أن هناك وقائع لا تفسرها إلا خطوط مستمرة تمثل المعالم المميزة للشخصية الجزائرية نجدها دائماً واحدة لا تتغير سواء في العهد الفينيقي أو فيما تلاه من العهود، وهذا لا يعني أننا نريد التقليل من أهمية العنصر العربي الإسلامي ومبلغ تأثيره في تركيب الشخصية الجزائرية، ولكنه يعني أن الشخصية الجزائرية سابقة في تكوينها لظهور الإسلام والحضارة التي انبثقت عنه».

(٤) يضيف الميلي الإبن، على نحو من التوضيح للشخصية الجزائرية، بأن النزعة الاستقلالية للجزائر تؤكدها الثورات العديدة التي قامت في العهد التركي، وأن هذه الحركات والثورات تدل على حيوية الشعب الجزائري.

(٥) بالنسبة إلى الجيلالي، فإنه قد وضع كتابه لتوضيح تاريخ الوطن الجزائري الكريم، مقتصراً فيه على الأهم فالأهم من حوادث التاريخ. ويضيف[٧]: «وتعمدت الإيجاز في القسم الأول الخاص بما قبل الإسلام لعدم تعلق الغرض الشديد به اليوم، وأسهبت مشبعاً البحث في العصور الإسلامية إسهاباً يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلاده وتمجيد تاريخه اللامع العظيم والثقة بمستقبله الزاهر النير، مع نفخ روح القومية فيه، وإعداده لوصل حاضره بماضيه حتى تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة: المحافظة على شخصيته وميزته، وتقديس أسلافه الأمجاد، والتمسك بدينه، والعمل على الإشادة بوطنه. وأعتقد أنني بذلك خلصت تاريخنا الماجد من أن يبقى مكتوباً عرضاً ضمن تاريخ الأمم والشعوب والأقطار المستعمرة، أو أن يكون كفصل ملحق بكتاب مبعثر مشوه العرض، أرجو ذلك إن شاء الله».

يكاد الجيلالي يقول بأن الشخصية الجزائرية تكونت بعد وصول الإسلام إلى تلك

البلاد، ولو انه لا ينكر ما سبق. والكتاب، في أكثره، فيه إصرار على هذه الناحية[٨].

ويرى الجيلالي أن قدوم الأتراك إلى الجزائر أنقذ البلاد من هجوم نصراني، وبذلك حافظ لها على شخصيتها الإسلامية.

(٦) يأمل محمد علي دبوز، وكتابه أول كتاب عربي عن تاريخ الجزائر طبع في عهد الاستقلال، أن يرى إخوانه في الشرق العربي في كتابه: «محيا الجزائر العربية وتاريخ المغرب صافياً نقياً من دعايات السياسة القديمة، ومن أكاذيب المستعمرين الذين لم يألوا جهداً في استغلال تلك الدعاية التي بثها الملوك المستبدون قديماً ضد المغرب ليشوهوا صفحته، وينفروا الناس عنه لكي لا يسلكوا طريق المغرب الذي ثار على الملوك المستبدين، فأنشأ دولته الإسلامية العادلة، والجمهورية الإسلامية الصحيحة. وترى أولئك المستعمرين يستغلون كل الاستغلال تلك الأكاذيب الملكية ليسودوا صفحة مغربنا المشرقة، فيبعدوا ناشئتنا عن تاريخ أجدادهم، فيسهل صبغهم بما يريدون وتجريدهم من شخصيتهم الإسلامية والعربية كما يشاؤون».

وقد أوضح المؤلف أن الأمويين والعباسيين هم الذين شوهوا تاريخ المغرب الإسلامي، وأن المستعمرين أفادوا من هذا التشويه لأغراضهم الخاصة. والمؤلف يهمه الشخصية المغربية كاملة.

(٧) يتخذ دبوز من القرن الخامس حداً بين فترتين في تاريخ المغرب الكبير، ويشيد بقيام دولتي المرابطين والموحدين، لكنه ينظر إلى الأمر من ناحيته الإسلامية فقط[٩].

ويذكرنا دبوز بأن البربر في المغرب ثاروا على روما وامبراطوريتها، ثم يضيف[١٠] إن هذا تم: «وليس للمغرب دين في ذلك الزمان كالدين الإسلامي العظيم فيورثه القوة والحياة، ويأبى عليه أن يخضع ويستكين. فكيف يستطيع الفرنسيون أن يقضوا على الجزائر ويبتلعوها، فتصير قطعة من بلادهم، وأجدادنا ينطوون على العقيدة الإسلامية، ووراثة الإسلام الزكية...».

(٨) أبو القاسم سعد الله، في كتابه «تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال» (القاهرة ١٩٧٠) يتحدث عن الحملة الفرنسية وموقف الجزائريين منها، والتبديلات التي أدخلت على إدارة الجزائر بسببها، وإذا نحن أردنا أن نتعرف إلى رأي سعد الله في الشخصية الجزائرية في فترة قصيرة لا تصل إلى عقود ثلاثة، فإننا لن نجده مجملاً، ولكنه محلل تحليلاً علمياً. ذلك أن الحملة الفرنسية على الجزائر أخذت الجميع على حين غرة. ويبدو أن الدعوى العريضة التي حملها الفرنسيون إلى الجزائر، من أنهم جاؤوا لمحاربة الداي وما إلى ذلك، قبلها حضر الجزائر، ولعل غيرهم أخذ بها. فلما تبين للناس الواقع انتقلوا إلى المقاومة. لكن لأن المؤلف يكتب عن فترة قصيرة، فهو يحلل العناصر التي قاومت ويوضح طرق مقاومتها. فالشخصية التي يتعرض لرسم صورتها محصورة بزمن معين. فطبقة الحضر «اكتشفت أنها كانت مخطئة في اعتقادها من أن فرنسا ستعوض حكم الأتراك بحكم محلي تكون هي (طبقة

الحضر) على رأسه. فقد عرف أعضاء هذه الطبقة بعد فترة قليلة من الاحتلال، أن فرنسا جاءت لتبقى، وأن أموالهم وأراضيهم صودرت وأصبحت ملكاً للدولة الجديدة، وأن مساجدهم وزواياهم ومساكنهم قد احتلت من الجيش الفرنسي أو هدمت لتفسح الطريق أمام ساحات عمومية، ومسارح، ومستشفيات عسكرية، أو تحولت إلى كنائس. بل إن «أملاك مكة والمدينة» التي كانت مؤسسات خيرية للفقراء والطلبة قد استولى عليها الفرنسيون وأصبح ريعها يذهب مباشرة إلى خزينة الدولة المحتلة. ومما فتح أعينهم أكثر على الخطأ الذي وقعوا فيه، أن السلطات الفرنسية كشفت لهم عن نواياها بعزل وطرد ونفي أولئك الذين قبلوا التعاون معها بدعوى عدم القيام بالواجب، أو التآمر لاستعادة الحكم الإسلامي، أو الانضمام إلى الثائرين ضدها. بل لقد كانت هذه السلطات تعطي عهد الأمان وتنقضه، وتذبح قبائل بريئة كاملة، وتأسر المرابطين كرهائن، وتطالب بخمسين شاباً من أكابر العائلات في المدينة لحملهم إلى باريس كرهائن أيضاً».

وقد كان هؤلاء تجاراً لكنهم افتقروا، وقد أضعفتهم الهجرة والمحاكمات والنفي فلجأوا إلى «الشكوى والتذمر وكتابة العرائض والرسائل، ومخاطبة الرأي العام باسم الانسانية والكشف عن سوءات الحكم الفرنسي في الجزائر[١١]. وكان لهم زعماؤهم والمتصرفون باسمهم.

أما الشعب، الذي أخذ نفسه بالمقاومة بعد أن انتهت المقاومة الرسمية، فقد كانت مقاومته «مقاومة شعبية دينية قام بها مرابطون ورؤساء قبائل تحت راية الجهاد في سبيل الله والأرض والشرف والوطن وتولاها... أيضاً مرابطون وزعماء أمثال ابن زعمون والحاج شيدي السعدي والآغا محيي الدين ثم الأمير عبد القادر»[١٢].

وثمة فئة ثالثة قاومت الفرنسيين وهي تشمل ممثلي «الإدارة العثمانية»، بعد سقوط الحكومة المركزية، دفاعاً عن المصالح الشخصية والألقاب العثمانية وجهاداً في سبيل الإسلام وذوداً عن التقاليد والأراضي الإسلامية»[١٣].

لكن سعد الله لا يضم شتات عناصره ليكوّن لنا صورة للشخصية الجزائرية، بل يترك لنا ذلك. ويمكن القول إجمالاً إنها كانت أقرب إلى المقاومة والدفاع منها إلى التسليم للفرنسيين.

رابعاً: خاتمة

نود أن نشير هنا إلى الأمور التالية في ختام هذا الحديث المقتضب:

(١) نحن لم نقرأ كل ما وضعه الكتاب الجزائريون في تاريخ الجزائر في السنوات الأخيرة.

(٢) لذلك، فإن ما ذكرناه، ينجر، بطبيعة الحال، على الكتب المذكورة، لا على جميع الكتب التي وضعها حتى المؤلفون المذكورون.

(٣) واضح من حديثنا أننا لم نعمد إلى نقد الكتب أو تقييمها، وإنما اعتبرنا وجهة نظر

المؤلف أساساً لحديثنا.

(٤) بما أن محمد علي دبوز كتب عن النهضة الحديثة وتناول العلماء والمؤسسات التي كان لها يد فيها، فقد كان من الطبيعي أن يتعرض للعمل الفرنسي الاستعماري الأخير أكثر من غيره، وأن تبدو في كتابته مرارة من ذلك العمل، وتظهر كذلك آثار الفرح والسرور بنيل الاستقلال.

إن الذي قرأناه من الأدب المغاربي الحديث، وهذا ينطبق على الأدب الجزائري، هو أن الأدب، شعره ونثره، لم يفجر الثورة. ولكن الذي فعله الأدب هو أنه عبّر عن الثورة. وقد كانت الثورة هناك ضد أنواع مختلفة من الظلم. وإذا أخذنا الجزائر بخاصة بعين الاعتبار، وجدنا أن أشد أنواع الظلم هناك كانت محاولة فرنسا فرنَسَة الجزائر وشعبها. ولذلك فقد كانت أقوى أنواع التعبير الأدبي في مجال النضال والثورة والجهاد، هو الذي ركز على شخصية جزائرية لا تقبل بالذوبان. أما عناصر هذه الشخصية فقد يختلف الكتاب بشأن أيها يجب أن يبرز: الأرض أم التاريخ بكامله أم الإسلام أم العروبة. وإبراز أي من هذه العناصر بشكل أقوى من الآخر يعود، من الناحية الأدبية والتعبيرية، إلى التكوين الفكري والروحي والثقافي للكاتب أو الشاعر.

الهوامش

(١) مقدم إلى ندوة جامعة قسنطينة أيار/ مايو ١٩٧٤.
(٢) المقال المذكور جاء نتيجة رحلة إلى الجزائر في صيف ١٩٥١، حيث أتيح للكاتب التنقل في الأنحاء الشمالية من البلاد.، والاتصال بجماعة من أهل الحل والعقد فيها. (وهذا منشور في المدخل في الكتاب الحالي).
(٣) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر العام** (بيروت، ١٩٦٣)، ج ٢، ص ٨.
(٤) محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ٣ ج، (القاهرة: المطبعة التعاونية، ١٩٦٥ ــ ١٩٧١)، انظر ص ح ــ ك من مقدمة الجزء الأول.
(٥) الميلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٦٧.
(٧) عبد الرحمن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ٢ ج (الجزائر: المطبعة العربية، ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥)، أنظر ج ١، ص ٨ ــ ٩.
(٨) المصدر نفسه، راجع ج ١، ص ٢١٠، وج ٢، ص ٢٢١.
(٩) دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**. ج ١، ص ٢ ــ ٣.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(١١) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الحديث**: بداية الاحتلال (القاهرة: جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠)، ص ٦٣.
(١٢) المصدر نفسه، ص ١٢٩.
(١٣) المصدر نفسه.

القسم الثالث
في السودان الغربي

١ ـ حدود الاسلام في افريقيا

أ ـ البيئة الجغرافية

١

تم انتشار الإسلام في افريقيا على مراحل ثلاث وبوسائل مختلفة. وكانت المراحل متعاصرة في حالات كثيرة. فالمرحلة الأولى، وتختص بالشمال الافريقي، أي بلاد المغرب الكبير، كانت متصلة، إلى حد كبير، بالفتوح العربية الإسلامية التي تمت في القرنين الأولين للهجرة (أي القرنين السابع والثامن للميلاد). والمرحلة الثانية تم بعضها على أيدي المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م)، والموحدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧ هـ/ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩م). أما المرحلة الثالثة فقد كان العامل الرئيسي فيها التاجر المسلم الذي جاز الصحراء إلى بلاد السودان الغربي بشكل خاص، وحمل الناس هناك، بسبب تصرفه الأمين وحكمته المتناهية، على اعتناق الدين الجديد. على أن الانتشار المتصل بالفتوح الأولى لم يكن سهلاً. كما أنه لم يؤد إلى قبول جميع السكان من البر بالإسلام، لأسباب سنعرض إلى بعضها باقتضاب فيما يلي من هذا المقال. فنحن معنيون بشكل خاص بانتشار الإسلام في السودان، لا في الشمال الإفريقي.

على أننا، قبل أن نتحدث عن هذا الموضوع بالذات، نرى لزاماً علينا أن نلقي نظرة على قارة افريقيا إلى شمال خط الاستواء، رغبة منا في وضع القارىء في البيئة الجغرافية التي انتشر فيها الإسلام، ونضيف إلى ذلك لمحة خاطفة عن المجتمعات التي أخذ الإسلام ينتشر بينها وفيها في تلك القرون الأولى.

إن الصحراء الكبرى، التي تخترق القارة الافريقية من سواحل المحيط الأطلسي إلى شواطىء البحر الأحمر، أخذت تظهر بشكلها الحالي قبل ستة آلاف من السنين أو ما إلى ذلك. أما من قبل فقد كانت أرضاً فيها أنهار كثيرة تصب في النيل شرقاً وفي النيجر غرباً، وكانت فيها بحيرات كثيرة، هذا فضلاً عن تجمعات للمياه صغيرة كانت تنتشر في أنحائها. وهذه كلها ثابتة من الدراسة التي قام بها العلماء لقيعان البحيرات ومجاري الأنهار الجافة. وبحيرة تشاد، وهي الوحيدة التي ثبتت على عوادي الدهر، تقلص حجمها عما كانت عليه في العصور الخوالي، وقد عثر العلماء على كثير من العصور المرسومة على جدران الكهوف وصخور أخرى، والتي جمعت مئات منها من العقود الأخيرة، مما يدل على أن المنطقة كانت مأهولة، وكان سكانها يتنقلون فيها من مكان إلى مكان. وخير مثل عليها ما عثر عليه في تَسِيلي.

فلما زالت البحيرات وجفت الأنهار وأخذ الجفاف والقحولة يغزوانها، هجرها أهلها منحدرين نحو الشمال والجنوب، فكان أن استقرت هذه الشعوب في الشمال الافريقي من جهة،

وفي المناطق المدارية من القارة في الجهة المقابلة. وكان لسكان الشمال، بطبيعة موقعهم، مجال للاتصال بشعوب حوض البحر المتوسط باستمرار، فنقلوا عن المشرق عناصر حضارية تبعاً لمجيء تجار من الفينيقيين واليونان مثلاً، فأخذوا عنهم، كما أخذوا عمن سبقهم الزراعة وشيئاً من الصناعة. أما سكان الجنوب ـ أي جنوب الصحراء ـ فقد تأخروا طويلاً حتى وصلتهم هذه الأمور. وقد كان الخط الطبيعي الوحيد الذي وصل بعض مناطق الجنوب بأجزاء من الشمال هو نهر النيل. وعن هذا الطريق جاءت هذه الموجات من الشعوب التي انحدرت من السودان (الشرقي)، أو حتى من منطقة البحيرات الاستوائية، إلى مصر. كما أنه من المرجح أن انتقال استعمال الحديد، أدوات وأسلحة بسيطة، إلى المناطق الجنوبية تم عن طريق هذا الوادي.

وحريٌّ بنا أن نذكر أن السكان في الشمال، مثل مصر مثلاً، تكاثر عددهم، فواجهوا التحدي الطبيعي الذي تعرضوا له، بأن عملوا على استغلال الأرض، وريها من النيل، بطرق منظمة، وأدى ذلك إلى إنشاء حضارة في مطلع الألف الرابع ق.م. أما في المناطق الجنوبية فقد ظل عدد السكان قليلاً، وكانت الأرض خصبة كريمة. فإذا قل الرزق في مكان انتقلوا إلى غيره، حيث يجدون حاجتهم. وترتب على هذا أن ظلت حالهم إلى البداوة أقرب، ومن ثم فإنهم لم يقيموا حضارة.

وافريقيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أوروبا، ومع مجاورتها لأوروبا وآسيا اللتين عرفتا في عصور متوغلة في القدم، فإن افريقيا ظلت مجهولة، هذا باستثناء معرفتنا عن وادي النيل وحضارته وشرق افريقيا حتى بربرة وسُفالا، وجزء من ساحل الأطلسي، يبدو أن الفينيقيين وصلوا إلى بعض النقاط عليه. أما القلب الأفريقي فلم يتعرف إليه العالم إلا في القرن التاسع عشر. ولما جاءت هذه المعرفة كانت مرتبطة بدخول الأوروبيين حلبة المنافسة على استغلال افريقيا واستعمارها.

والذي عليه أكثر الباحثين اليوم هو أن افريقيا هي مهد الإنسان. صحيح أن العلماء لم يتفقوا بعد على الوقت الذي أصبح فيه الإنسان على ما نعرفه، لكنهم يحسبون أن ذلك قد تم قبل نحو ستين ألفاً من السنين. وقد كان للشعوب الافريقية عصورها الحجرية التي يبدو أنها امتدت إلى زمن متأخر، إذ انها انتقلت إلى استعمال الحديد، استعمالاً محدوداً، في حدود المائة الخامسة قبل الميلاد أو حتى بعد ذلك. وهذه الشعوب، على ما يبدو إلى الآن، لم تتعرف، شأن شعوب الشرق القديم أو شمال افريقيا، إلى استعمال النحاس أو البرونز.

٢

يبدو أن العالم القديم أخذته موجات من انسياح الشعوب بين ١٢٥٠ و٩٠٠ق.م. (ولعلها لم تكن الموجات الأولى من هذا النوع). ومع أن فئات من سكان العالم الإيجي وصلت إلى شمال افريقيا، فإن أثرها في السكان كان قليلاً. فالبربر، سكان الشمال الأفريقي، بدأت مشاركتهم في تاريخ تلك الديار، لما أنشأ الفينيقيون واليونان مستوطناتهم في المغرب العربي (أي بين

١١٠٠ و٧٠٠ق.م). ولماكان الفينيقيون تجار البحر المتوسط دون منازع، فقد كانوا يحملون إلى موانىء الشمال الافريقي وسكانه من البربر مصنوعاتهم الزجاجية والعاجية وأدوات الزينة والحلي والأقمشة، في مقابل المواد الغذائية والجلود والعاج (الخام). وازدادت العلاقات التجارية لما أنشئت قرطاجة حول سنة ٨٠٠ق.م. ثم زاد النشاط التجاري بمجيء اليونان.

والمواد التي كانت القبائل البربرية في افريقيا تبيعها لهؤلاء التجار الطارئين أولاً، ثم المقيمين فيما بعد، كانت تأتي من السودان، عبر الصحراء. وكان يدخل في عدادها الذهب والرقيق والعاج، وبها كان التجار البربر، الذين يتولون نقلها عبر الصحراء، يحملون إلى السودان القماش وأدوات من النحاس وغيره والملح. ومع أن هذه التجارة لم تكن على جانب كبير من الأهمية بذاتها، فقد تأخرت كثيراً في أيام الامبراطورية الرومانية، التي كانت وجهتها البحر المتوسط دوماً. ويرى الباحثون أن نقل المتاجر الفينيقية إلى المناطق الصحراوية أو حتى الواقعة جنوب الصحراء، لم يؤد إلى تطور حضاري هناك. ذلك بأن نقل البضائع الاستهلاكية لا يعني بالضرورة نقل أسلوب صناعتها، وإذاً فلن يؤدي ذلك إلى تبديل «تقني»، تنشأ عنه صناعة محلية هي، بطبيعتها، الطريقة التي تنتهي بقيام حضارة.

ومع أن اليهودية عرفت في الشمال الافريقي منذ أن أخرج الرومان اليهود من فلسطين، ومع أنهم انتشروا حتى في بعض الواحات الصحراوية، فإن تأثيرهم كان ضئيلاً جداً. أما المسيحية فقد تمركزت في المدن والقرى في الشمال، ولم تصل إلى السودان.

ونحن إذا نظرنا إلى خارطة افريقيا الاجتماعية والحضارية في الفترة السابقة للفتح العربي ودخول الإسلام، لوجدنا عليها ما يأتي:

أولاً: إن نوعاً من الحضارة كان قد بدأ يظهر في منطقة الفزان. وحضارة أخرى كانت معروفة في منطقة «الساحل». ومنطقة الساحل هذه تطلق على البلاد الواقعة بين النهاية الجنوبية للصحراء الكبرى والمنطقة المدارية الافريقية. وتسميتها بالساحل هي تسمية مجازية باعتبار أن الصحراء تشبه البحر. وأبرز ما كانت تتمثل هذه الحضارة في هذه المنطقة حيث ظهرت دولة غانا القديمة فيما بعد (ونحن نستعمل هنا حضارة عمداً، فهي سابقة للمدينة).

ثانياً: إن السودان الغربي قد اتضحت معالم مناطقه من ناحية ثقافية، بحيث إننا إذا اتجهنا من الغرب إلى الشرق، وجدنا الجماعات على الترتيب المكاني التالي: السنغاليون والسونينكيون والغورما وصنفاي والحوسا (أو الحوصا) وأهل كانم وبورنو وسكان وداي ـ دارفور. وهذه كانت تتجه إما نحو المغرب الأقصى أو نحو طرابلس أو نحو مصر، تبعاً لكثافة الاتصال بين البعض منها والمناطق المقابلة لها شمالاً.

ثالثاً: في العهد البزنطي بدأ الجمل يصل إلى الشمال الافريقي (مع أنه وصل مصر لأول مرة مع الفتح الفارسي القديم سنة ٥٢٥ق.م). ولذلك لما وصل العرب البلاد كان الجمل هناك. ودخول الجمل إلى الصحراء الكبرى، وخصوصاً بسبب معرفة العرب لطباعه، كان له أثر كبير في تبديل الحياة في تلك الرقعة الواسعة الشاسعة. فالبربر أصبح تنقلهم أيسر، ومن ثم كان شعبهم أقوى، والتجار أصبحت لهم سفينة للصحراء، تنقل متاجرهم كما يريدون.

ب ـ المجتمعات الإسلامية في السودان الغربي

٣

لسنا ننوي، في هذا الحديث، أن نعمد إلى المجتمعات الإسلامية في السودان الغربي فندرسها بتفصيل. وإنما نرمي الساعة إلى التحدث عن مجتمعات إسلامية قامت في بلاد السودان الغربي في القرون الأربعة الأولى للهجرة وما إلى ذلك. والأصل في ذلك هو أن يطلع القراء على هذه الصور التي هي أصلاً تتمة للحديث السابق ونقطة انطلاق إلى الأحاديث التالية، وهي التي سنتحدث فيها عن الدول الإسلامية التي قامت في افريقيا. وارتباط هذه الدول ومجتمعاتها بالإسلام والمسلمين في افريقيا اليوم.

أول من خلّف لنا من الجغرافيين العرب صورة عن بعض المجتمعات الإسلامية الافريقية هو ابن حوقل، من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. فقد زار مناطق هناك، وأقام في بعض المدن وقتاً مكنه من التعرف إلى أمور كثيرة. ولننقل، قبل كل شيء، وصف ابن حوقل لمدينة سجلماسة. صحيح أن سجلماسة لم تكن من مدن السودان، لكنها كانت منطلق التجار والتجارة إلى تلك الأصقاع عبر الصحراء الكبرى. قال ابن حوقل:

«ويقارب القيروان سجلماسة في صحة الهواء ومجاورة البيداء، مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان، وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة... وتقدم في أفعال الخير شهير... دخلتها في سنة أربعين (وثلاثمائة) فلم أرَ بالمغرب أكثر مشايخ في حسن سمت وممازجة للعلم وأهله... وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار... ولقد رأيت بأودغشت صكاً فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغشت، وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار».

وكتب ابن حوقل عن أودغشت قال:

«وملك أودَغُشت هذا يخالط ملك غانة؛ وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال والمدخر من التبر المشار إليه على قديم الأيام.... وحاجتهم (أي صاحب كوغة وصاحب غانة وغيرهما) إلى ملوك أودغشت من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام. فإنه لا قوام لهم إلا به، وربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمئة دينار».

وجاءنا بعد ذلك البكري الذي نقل أخباره عن التجار والرحالة ودوّنها في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. يحدثنا البكري عن بلاد السنغال وما اليها فيقول:

«المصاقبون لبلارد السودان بنو جُدَّالة هم آخر الإسلام خطة وأقرب بلاد السودان منهم صنغانة (السنغال؟)؛ بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام. ومدينة صنغانة مدينتان على ضفتي النيل (المقصود نهر النيجر) وعمارتها متصلة إلى البحر المحيط. ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل (النيجر) مدينة تكرور، وأهلها سودان. وكانوا على ما ساير السودان من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدَّكُور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس

فأسلم وأقام عندهم شرايع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصايرهم فيها.... فأهل تكرور اليوم مسلمون. وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سلي وهي مدينتان على شاطىء النيل أيضاً، وأهلها مسلمون، أسلموا على يد وارجابي رحمه الله».

٤

ومما يجب أن يذكر هو أن ذكر المدينتين، الذي يكثر عند البكري، وغيره، معناه أن العاصمة أو المدينة الرئيسة تقسم قسمين: الواحد للملك وحاشيته والثاني لتجار المسلمين. ويتضح هذا بشكل خاص عندما يتحدث البكري عن غانا. إذ يقول عنها:

«وغانة اسم لملوكهم واسم البلد أَوْكار، واسم ملكهم اليوم، وهي سنة ستين وأربعماية، تنكامين، وولي سنة خمس وخمسين (وأربعماية). وكان اسم ملكهم قبله بسي.... وبسي هذا خال تنكامين. وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته.... وتنكامين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان. ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجمعون فيه، ولها الأيمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم. وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة. والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حايط كالسور، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك. وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم. وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله، وأكثر وزرائه.... ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في حالة إدخاله البلد وديناران في إخراجه. وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل...».

ملك غانا لم يكن مسلماً لما كتب البكري أخباره، ومع ذلك فقد كان يعرف أهمية التجار المسلمين وأثرهم في اقتصاد بلاده. لذلك فقد كانت لهم مدينتهم ومساجدهم. وإذ كان الملك يفد عليه تجار من المسلمين لمصالح تتعلق بأعمالهم، فقد بنى لهم مسجداً على مقربة من مجلس الحكم، كي يؤدوا الصلاة فيه.

بعد أن وضع البكري مؤلفه بمدة قصيرة أغار المرابطون على غانا، وأرغموا ملكها على اعتناق الإسلام. لذلك لما كتب الإدريسي، «نزهة المشتاق»، في أواسط القرن السادي الهجري/ الثاني عشر الميلادي، قال عن غانا ما يلي:

«وغانة (الحاضرة) مدينتان على ضفة النيل (نهر النيجر). وهي أكبر بلاد السودان طراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون... وملكها... أعدل الناس فيما يحكى عنه... وإذا اجتمع إليه جميع قواده ركب وسار يتقدمهم ويمشي في أزقة المدينة ودوائر البلد. فمن كان له مظلمة تصدى له، فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره ويتفرق قواده».

٥

دولة مالي، التي سنتحدث عنها لاحقاً، يعود قيامها إلى مطلع القرن السابع الهجري٣٣٤ الثالث عشر الميلادي. وكان ملك مالي قد اعتنق الإسلام، لكن شعبه لم يقبل بالدين الجديد. وقد أدى ثلاثة من ملوك مالي فريضة الحج إلى بيت الله الحرام هم: بارَمَنْدنا (في منتصف القرن الخامس الهجري٣٣٤ الحادي عشر الميلادي)، ومنسى أول (أو علي) الذي أدى الفريضة أيام الملك الظاهر (حكم ٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م، ومنسى موسى الذي حج عام ٧٢٤هـ٣٣٤ ١٣٢٤م.

وتعتبر قافلة الحج التي صحبت منسى موسى (أي السلطان موسى) مظهراً من أروع مظاهر الثراء الذي كانت تتمتع به مالي، بلاد الذهب يومها. وقد قدّر عدد الذين رافقوا السلطان من حاشية وجند وحجاج وتجار بنحو ١٢,٠٠٠. وقد اتجهت القافلة من مالي مروراً بولاتة وتوات وسِرت في ليبيا (لعله مرَّ بواحة ورغلة بطريقه). ومن سرت سار مع الساحل إلى القاهرة ـ مركز الحياة الإسلامية الفكرية، ومركز الحياة التجارية والفنية ـ وقد انتدب الملك الناصر محمد بن قلاوون (حكم للمرة الثالثة ٧٠٩ ـ ٧٤١هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م) المهمندار الأمير أبا العباس أحمد بن الحاكي ليشرف على ضيافة السلطان المالي. فاستقبله المهمندار (ابن الحاكي)، واستقبله الأهالي بمظاهر الحفاوة التي تليق بمقام الضيف الثري، الذي قدّم للناصر هدايا منها حمل من الذهب، والذي أهدى كل أمير أو رب وظيفة هدية تتناسب مع مقامه.

ويروي المؤرخون أن منسى موسى تردد في زيارة سلطان مصر المملوكي، وهو يمر بالقاهرة قاصداً الديار المقدسة، ثم اقتنع بوجوب الزيارة. ولكن لما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له «قبِّل الأرض». فتوقف وأبى إباء ظاهراً وقال: «كيف يجوز هذا؟» فأسرَّ إليه رجل كان إلى جانبه كلاماً فقال أنا أسجد للذي خلقني وفطرني، ثم سجد، وتقدم إلى السلطان فقام له بعض القيام وأجلسه إلى جانبه وتحدثا طويلاً.

وقد نقل القلقشندي أخبار هذه الزيارة نقلاً عن المهمندار المذكور قال:

«قال لي المهمندار خرجت الملتقى القادم من جهة السلطان فأكرمني إكراماً عظيماً، وعاملني بأجمل الآداب، ولكنه كان لا يحدثني إلا بترجمان مع إجادته اللسان العربي.... ولما جاء قدم للخزانة حملاً من التبر، ولم يترك أميراً ولا رب وظيفة سلطانية إلا وبعث إليه بالذهب... وبعد حادثة تقبيل الأرض ذهب السلطان موسى إلى مقره، فأرسل له السلطان ابن قلاوون بالخلع الكاملة... ولما آن أوان الخروج إلى الحج بعث إليه بمبلغ كبير من الدراهم وهجن جليلة كاملة العدة لمركبه وهجن لأصحابه وأزواد جمة. وركّن له العليق في الطرق وأمر أمير الركب بإكرامه واحترامه.

«ولما عاد بعث الى السلطان من هدية الحجاز تبركاً، فبعث اليه بالخلع الكاملة ولأصحابه والتحف والألطاف من البز السكندري والامتعة الاخرى، وعاد الى بلاده».

وقد ذُكر أنه كان معه مائة حمل ذهباً أنفقها في سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز ذهاباً وإياباً، حتى انه احتاج إلى القرض. فاستدان على ذمته من تجار مصر، بما لهم عليه من المكاسب الكبيرة بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً. وبعث إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده.

وكان مما ابتاعه من مصر الكثير من الكتب الدينية ليوفر لجماعته التعرف إلى شؤون دنياهم. ولما عاد منسى موسى إلى بلاده اصطحب معه الساحلي الشاعر الأندلسي المهندس الأديب، حيث طلب منه السلطان أن يبني له مسجداً في عاصمته.

وفي أيام منسى موسى انتعشت التجارة والعلوم في تمبكتو (وكانت من أملاكه) وقد شيد فيها الساحلي مسجداً وقصراً للملك، وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربي.

٦

وفي أيام منسى سليمان (١٣٥٢ ـ ١٣٥٩) زار مالي الرحالة الكبير ابن بطوطة. وقد ذكر الكثير عن مالي. لكننا نكتفي بنقل وصفه للاحتفال بصلاة العيد وأيامه. يقول ابن بطوطة:

«حضرت بمالي عيدي الأضحى والفطر. فخرج الناس إلى المصلى، وهو قريب من قصر السلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان. والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا في أيام العيد، ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء، فإنهم يلبسونه في سائر الأيام. وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان، وهم يهللون ويكبرون، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير. ونُصب عند المصلى خباء فدخله السلطان وأصلح من شأنه، ثم خرج إلى المصلى، فقضيت الصلاة والخطبة، ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي السلطان، وتكلم بكلام كثير، وهناك رجل بيده رمح، يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب. وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان، وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه».

وقد صور لنا ابن بطوطة ونقل القلقشندي عن الرواة، مجالس للسلطان في العيد والأحوال العادية، ويمكن القول إجمالاً إن بعض العادات التي كانت تظهر احتفالاً بالعيد، بعد العصر، إنما هي عادات محلية، فولكلورية إذا جاز التعبير، المقصود منها إدخال السرور إلى قلب الجماعة؛ وإنما اشتراك الملك فيها هو من نوع المحافظة على العلاقة بالشعب.

هذه نماذج مما وصل إلينا عن المجتمعات الإسلامية في السودان الغربي في القرون الأولى للهجرة. وهي صور مأخوذة من غانا قبل إسلامها وكيف كان ملوكها يهتمون بشؤون التجار المسلمين؛ ومن غانا بعد أن أسلم ملوكها، وكيف ظل ملوكها يهتمون برعاياهم غير المسلمين؛ وهناك صور من مالي وحج منسى موسى وصلاة العيدين هناك.

والذي نريد أن نقوله، هو أن انتشار الإسلام في السودان الغربي (باستثناء حادثة أو اثنتين) كان من عمل التاجر والمعلم والفقيه، الذين يلقون الكثير من العناية من الملوك المسلمين، والتسامح من غير المسلمين بسبب ارتباط المصالح.

٢ ـ سكان الصحراء الكبرى والسودان الغربي

١

تمتد الصحراء الكبرى من سواحل المحيط الأطلسي حتى شواطىء البحر الأحمر. وهذه الصحراء حديثة العهد، من الناحية الجيولوجية، إذ أن تطورها من أرض صالحة للرعي والزراعة إلى أرض جرداء بدأ قبل فترة لا تتجاوز ثمانية آلاف سنة من أيامنا هذه، وقد كانت تعمرها البحيرات (التي لم يبق منها سوى بحيرة تشاد) وتخترق الأنهار ربوعها، في مجموعتين، الواحدة تصب في النيجر والثانية تفرغ ماءها في النيل. ولما بدأت الصحراء بالظهور وانكمشت الأجزاء الصالحة للاستغلال والسكن، تبدل المظهر الديمغرافي للمنطقة الممتدة من البحر المتوسط (شمالاً) إلى المناطق المدارية (جنوباً). فقد انحدر سكان المناطق الآيلة إلى الجفاف شمالاً وجنوباً، واختلفت الجماعات المنفصلة، واحدتها عن الأخرى، وتباين تطورها. فالشمالية أفادت من تطور الجوار القريب والبعيد، أما الجنوبية فقد ظلت في العصر الحجري حتى القرن الثالث قبل الميلاد[١].

ونحن معنيون، في هذا البحث، بالمنطقة الغربية من الصحراء الكبرى. ولما كان جغرافيو العرب القدامى قد اعتبروا الصحراء «بحراً رملياً»، فقد أطلقوا على الشريط العريض المصاحب لهذه المنطقة الصحراوية اسم «الساحل». ويلي الساحل جنوباً منطقة الغابات المدارية الكثيفة التي تصل المحيط الأطلسي في خليج غينيا.

ومما يجب أن يذكر، بادىء الأمر، هو أن المناطق المدارية في غرب افريقيا كانت غنية بالذهب، الذي كان يحمل إلى «الساحل» حيث كان يُقايض بالملح، الذي كان يحمل من أوّليل (على الساحل) وتغازى (في الجزء الشمالي من الصحراء الكبرى) ومن غيرهما .... وكان أهل الصحراء، الذي يشار إليهم بالبربر، هم حملة السلع بين الشمال والجنوب. والسلع كان يدخل في تعدادها، فضلاً عن الملح (من الشمال) والذهب (من الجنوب)، الأدوات والآلات والعطور والأقمشة (من الشمال)، والعاج والرقيق والريش (من الجنوب). ويجب أن نسرع إلى القول بأن هذه المتاجر لم تنقل في جميع العصور، بل كان ذلك يتوقف على الحاجة إليها.

يبدو أن البربر كانوا يشاركون في نقل هذه السلع، أي في التجارة الفعلية، منذ الألف الأول قبل الميلاد، أي أيام كان الفينيقيون يسيطرون على موانىء الشمال الافريقي بزعامة قرطاجة. ومع ان الاتصال التجاري بين الشمال الافريقي و«الساحل» قد تعثّر في أيام الرومان، فإنه عاد إلى نشاطه في القرنين السادس والسابع للميلاد ... ثم قوي لما فتح العرب تلك الرقعة، ودفعوا بالجمل إلى قلب الصحراء[٢].

وتيسيراً لتتبع الأمور فيما بعد، نضع بين يدي القراء وصفاً مقتضباً للطرق التي كانت

تصل الشمال الافريقي بالسودان الغربي عبر الصحراء الكبرى. كان ثمة ثلاثة طرق: أولاً الطريق الغربي بين المغرب الاقصى وغرب افريقيا عبر نهر السنغال ومجاري نهر النيجر العليا. والطريق الثاني كان يربط الجزائر بغرب افريقيا عبر أواسط الصحراء. والطريق الثالث كان يتبعه تجار تونس والفزان (جنوب ليبيا) إلى كانم وبورنو. وكان لكل من هذه الطرق تفرعات، كما كانت الطرق ذاتها يقلّ استعمالها أو يزيد تبعاً للأحوال السياسية السائدة في الأطراف[٣].

لما وصل العرب المسلمون إلى الشمال الافريقي، واستقروا هناك في القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد)، كانت التجمعات التي نشأت عن ذلك موجودة في المناطق الساحلية والمدن القريبة منها. وهذه الجماعات هي التي كانت سبيل انتشار الإسلام بين سكان تلك المناطق من أهل البلاد الأصليين. أما سكان المناطق الجبلية والصحراوية فلم يتركوا منازلهم، وكان اعتناقهم للإسلام أبطأ قليلاً. فضلاً عن ذلك، فإنهم في غالبيتهم قبلوا مذهب الخوارج (الاباضية)، وكانوا، إلى درجة معيّنة، حرباً على الحكم العربي الإسلامي.

وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، جاء بنو هلال وبنو سليم إلى الشمال الافريقي، وهؤلاء زحموا البربر الذين كانوا في الجبال والسهول (السهوب والصحراء على السواء) فخرجت جماعات من البربر إلى الصحراء الكبرى وموريتانيا، وهؤلاء بدورهم ضغطوا على سكان «الساحل» (جنوب الصحراء). وقد ترتب على هذه الضغوط المختلفة قيام دول للدفاع عن المصالح التجارية في الصحراء والطرق التي تخترقها، وأخرى في السودان للغاية نفسها. وأهم ما كان يعنى به سكان السودان الغربي هو منع التجار الصحراويين من الوصول إلى المصدر الأصلي للذهب. وقد نجحوا في ذلك.

وإذا نحن أمعنا النظر في الخارطة الديمغرافية الحضارية للمنطقة الواقعة جنوب الصحراء، لاستطعنا أن نضع اصبعنا على الأمور التالية التي اتضحت معالمها قبل دخول العرب افريقيا:

١ ـ كانت جماعات متحضرة مستقرة قد أخذت تظهر في «الساحل»، وكان محور حياتها في الزراعة والتعدين والصناعة. في هذه المنطقة قامت دولة غانا القديمة.

٢ ـ إذا نحن اتجهنا في السودان الغربي من الغرب إلى الشرق وقعنا على جماعات ذات معالم عنصرية بينة وصفات اجتماعية واضحة نسبياً وهي: التَكْرور (في حوض السنغال) وتجمعات السونينكين والفورما وسنغاي (صُنغاي).

٣ ـ كان من الطبيعي أن تقوم مدن صغيرة حول المراكز التجارة الرئيسة. ذلك بأن تمركز التجار والقوافل كان يقتضي أن يتجمع العمال اللازمون للعناية بالناس ودوابهم، كما كان من الضروري أن يظهر في هذه المراكز سماسرة ووكلاء تجاريون[٤].

٢

إن أكبر التجمعات البربرية (عنصرياً) في غرب الصحراء الكبرى كانت لَواتَة وصنهاجة

وزَناتَة، وكانت كل من هذه تتبعها جماعات وعشائر متعددة. وقد كان لصنهاجة وفروعها الرئيسية (لمَتّونة ومَسّوفة وغُدالة) في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نفوذ كبير، لأنها كانت تسيطر، ولو إلى درجة محدودة، على الطرق التجارية الغربية في الصحراء. لكن زَناتة حالفت أمويّي الأندليس الأقوياء يومها، فتقوى نفوذها. وكانت غانا السودانية (الغربية) قد برزت على المسرح السياسي والتجاري، فوجدت لمتونة نفسها محشورة بين زناتة في الشمال وغانا في الجنوب، لذلك هاجمت مدينة أوداغشت (في القرن نفسه)، واحتلتها. وبذلك ضمنت لنفسها حصة في الاتجار مع الشمال عن الطريق الأوسط. وظلت لمتونة تسيطر على هذه المدينة المهمة إلى أواخر القرن التالي، إذ هاجمتها غانا واستولت عليها.

كانت ثمة تنظيمات أو دول في حوض نهر السنغال هي التكرور وسيلاً وصنغانة وقلنبو. وهذه الدول اعتنقت الإسلام تدريجاً (على ما سنرى): فالتكرور أسلموا على يد سلطانهم وارجابي (توفي ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م). ويبدو أن نفوذ هذا السلطان أو نفوذ التكرور هو الذي حمل الإسلام إلى أهل سيلاً (سِلى). ولكن هذا النفوذ لم يؤثر على أهل قلنبو الذين ظلوا، حتى ذلك الوقت، على الوثنية.

والمنطقة التي كان يسكنها التكرور والسليون هي المنطقة التي ظهرت فيها دولة المرابطين، لما اتخذ عبد الله بن ياسين لنفسه «رباطاً» قرب مصب نهر السنغال، حيث درّب جماعته، ثم خرج من رباطه (٤٣٤هـ ٣٣٨ ١٠٤٢م) وبدأ العمل، وكان أن أنشأ دولة المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م). وقد احتل المرابطون أوداغشت (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) وعاصمة غانا (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) وحملوا سكانهما على الإسلام. (أما دولة المرابطين واتجاهها شمالاً وإلى الأندلس، فأمر، على أهميته، غير مرتبط بموضوعنا هذا)[٥].

وقد قامت في السودان الغربي دول (يسميها مؤرخو غرب افريقيا احياناً امبراطوريات) هي غانا ومالي وسنغاي (صنغاي) وكانم ـ بورنو.

قامت دولة غانا في الساحل في المنطقة الواقعة بين حوض السنغال الأعلى ومجاري النيجر العليا. يبدو أن نشاطها أصلاً يعود إلى القرن الخامس للميلاد، وقد كان لموقعها على الطريق التجاري الذي يصل الشمال الافريقي بمصادر الذهب، أثر في ثرائها وقوتها؛ ففرض ملوكها (حوالى سنة ٨٠٠م) سلطانهم على رقعة واسعة من الأرض شمالاً. واتخذت غانا (وعاصمتها «كومبي صالح[٦]») من مدينة أوداغشت مركزاً تجارياً كبيراً[٧].

ومالي (مليل) بدأت دويلة اسمها كانغابة (كابا) قامت في حوض النيجر الأعلى. وكانت هذه تقع إلى الجنوب من غانا، التي خلفتها. فقد اعتنق أحد ملوك مالي الإسلام في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ وفي القرن السابع الهجري٣٣٨ الثالث عشر الميلادي تغلبت مالي على غانا نهائياً، وقامت هناك دولة قوية غنية بتجارتها واستمرت على ذلك إلى حوالى ٨٠٠هـ/ ١٤٠٠م، ثم بدأت تضعف حتى قضي عليها في ١٤٧٠م[٨].

وكانت قبيلة سنغاي تسكن حوض النيجر على مقربة من الغابات الاستوائية، وانتشرت

في القرن السابع للميلاد في حوض النيجر الأوسط وكانت تعنى بزراعة الدخن وصيد الأسماك. وتوحدت تحت إمرة جماعة غونغيا، وكانت مدينة كاوكاو (ولعلها هي غونغيا نفسها) تتسع تجارتها واتصالاتها. وكانت الفئة النافذة هنا مسلمة، وهي فئة التجار (مثل غانا ومالي أصلاً). ويبدو أن اعتناق هذه الجماعة للإسلام تم حوالى ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م.

ولما اعتنق ملك سنغاي «زا كوسى» الإسلام نقل العاصمة إلى غاو (على النيجر). وفي أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تولت أمور سنغاي أسرة سني (سنّ)، ووسعت حدودها على حساب مملكة مالي، وأخيراً قامت امبراطورية سنغاي التي استولت على المنطقة الغانية ــ المالية وغيرها (١٤٦٤) وظلت قائمة إلى أن أرسل المنصور السعدي ملك المغرب (٩٨٦ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م) حملة إلى السودان الغربي فقضت على مملكة سنغاي[٩].

مملكة كانم ـ بورنو قامت حول بحيرة تشاد، وكانت التجارة مصدر ثروتها وقوتها. ومع أن دويلة قامت في القرن الثالث الهجري٣٣٩ التاسع الميلادي، فإن الدولة المهمة بدأت في أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وتوسعت وقويت في القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجرية/ الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادية. وفي هذا القرن فرضت الشريعة الإسلامية على الامبراطورية الواسعة (في زمن إدريس)[١٠].

٣

يحدثنا المقدسي، من أهل القرن الرابع الهجري٣٣٩ العاشر الميلادي، عن إقليم المغرب، الذي يشمل عنده المنطقة الصحراوية من الجهات التي هي موضوع بحثنا، فيقول عنه: «إنه بعيد الأطراف، كثير المفارز صعب المسالك كثير المهالك. في زاوية الإسلام موضوع، وبعضه خلف البحر مقطوع، فلا فيه راغب ولا له ذاهب»[١١]. ويقول بن حوقل: «وما أوغل في براري سجلماسة وأوداغشت ونواحي لمطة وتادمكة إلى الجنوب ونواحي فزان، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام و لا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب. والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم»[١٢].

ولعل خير ما يوضح للقارىء اتساع هذه المنطقة التي نتحدث عنها هو ذكر المسافات بين مكان وآخر على سبيل التمثيل. فإذا أخذنا سجلماسة، وهي نقطة الانطلاق من جنوب المغرب الأقصى نحو الصحراء، وجدنا أنها تبعد عن أوداغشت سير شهرين، ومن هذه إلى غانا بضعة عشر يوماً، ومن غانا إلى كوغه شهر ثم إلى سامة نحو شهر ومنها إلى كوكو شهران. ومن أوداغشت إلى أوليل شهر ومنها إلى سجلماسة شهر[١٣]. وحتى مع هذا، فنحن لم نجتز الصحراء من أولها تماماً إلى نهايتها، وإنما هو تنقل في داخلها. ومع ذلك فقد كان بين سكان هذه المدن، على تباعد الديار، اتصال، سلماً وحرباً:

«فملك أوداغشت يخالط ملك غانة، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال والمدّخرة من التبر... ويهادي (أي ملك أوداغشت) صاحب كوغة، وليس كوغة

بقريب من صاحب غانة في اليسار وحسن الحال، ويهادونه». ولكن لماذا يحرص هؤلاء الحكام على الحفاظ على الصلة الطيبة بملك أوداغشت؟ الجواب عند ابن حوقل إذ يقول: «وحاجتهم (أي مختلف أصحاب المناطق والحكام) إلى ملوك أوداغشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام. فإنه لا قوام لهم إلا به. وربما بلغ الحمل (كذا) الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمئة دينار»[١٤].

وتوزُّع القبائل البربرية في الصحراء والجزء الغربي منها خصوصاً، وهو الذي يعنينا الآن، تحدّث عنه ابن حوقل في غير موضع من كتابه صورة الأرض. فقد قال: «والبربر السكان بالمغرب فقبائل لا يُلحق عددهم، ولا يوقف على آخرهم، لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البراري وتبددهم في الصحاري..... ومن المعتزّ الموغلين في البراري صنهاجة أوداغشت... وقد يكونون نحو ثلاثمائة ألف بيت من بين نَوالة وخُص... وبين أوداغشت وسجلماسة غير قبيلة من قبائل البربر، متعزبون لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية العازبة، فمن ذلك بنو مسُّوفا، قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة، لا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمع بهما (كذا) إلا بالمثل. وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم. وفيهم من الجَلد والقوة ما ليس لغيرهم[١٥].

إلى جانب هؤلاء البربر الذين لا يعرفون القمح ولا الشعير، نجد أن الصحراء، بسبب اتساعها، فيها بربر من نوع آخر: «ومن بأداني سجلماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفون الشعير ويزرعونه والتمور والطيبات.... وفي كثير منهم ألوان حسنة ومحاسن فائقة في خلقهم، وأبدان نقيّة، حتى يأخذوا في جهة الجنوب فتستحيل أبشارهم وألوانهم»[١٦].

وقد ذكر بعض المؤلفين أموراً عن البربر من حيث عادتهم، وسيرى القارىء أنه حتى القليل الذي ننقله فيه خلاف في الرأي، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى جماعات شغلت هذه الرقعة الواسعة من الأرض وتعرضت للاختلاط بعناصر بشرية مختلفة، جاءت المنطقة من حوض البحر المتوسط ومن أواسط القارة الإفريقية ومن المشرق، واختلطت فيما بينها على مدى قرون وقرون.

فقد ذكر المقدسي أن البربر لهم برانس سود وأهل الرساتيق (القصبات) باكسية[١٧]. وروى ابن حوقل عن بربر المغرب ما يأتي: «وأكثر بربر المغرب الذين من سجلماسة إلى السوس... يضيفون المارة ويطعمون الطعام. ويتخلق قوم منهم بخلق ذميم من بذل أنفسهم لأضيافهم في سبيل الإكرام ولا يحتشمون من ذلك». ويقول عن البربر الذين يقيمون بين أوداغشت وسجلماسة أنهم يملكون «البسالة والجرأة والفروسية على الإبل والخفة في الجري، والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه، والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة... ولهم خلق تام وحول وجلد عام في نسائهم وفي رجالهم. ولم يُر لأحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم، وذلك لأنهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك، ويزعمون أن الفم سوءة «تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه. إذ ما يخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من

العورة»[١٨].

ابن حوقل والمقدسي كانا من كبار الجغرافيين العرب، وهما من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وقد زار ابن حوقل أوداغشت سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م،، أما المقدسي فقد نقل عن الرواة الذين وثق بهم، لكنه لم يزر المناطق الصحراوية في افريقيا. وأما البكري، فقد ذكر في كتابه المعروف بالمسالك والممالك، وذلك في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أموراً كثيرة عن البربر. وهي في غالبيتها تدل على أن الصفات الأساسية لتلك الجماعات لم تتبدل خلال المائة سنة التي مرت بين ابن حوقل والبكري.... إلا أننا نعثر على تفاصيل أوفى فيما أورده البكري. فهو يحدثنا عن بني مَسّوفة، وهم قبيل من صنهاجة فيقول:

«.... قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمطونة (لمتونة) ظواعن رحالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام[أي المغرب] ويّصيفون في موضع يسمى أَمَطلوس وآخر يسمى تاليُويَن. وهم إلى بلاد السودان أقرب، بينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل. وليس يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً إنما أموالهم الانعام وعيشهم من اللحم واللبن. ينعقد عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله، إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق»[١٩].

ويقول البكري في موضع آخر: «وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولا يميز رجل منهم وليّه ولا حميمه إلا إذا تنقّب. وكذلك في المعارك إذا قُتل منهم القتيل وزال قناعه لم يُعلم من هو حتى يعاد عليه القناع. وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم. وهم يسمون من خالف من جميع الناس «أفواه الذبّان» بلغتهم. وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحوناً يصب عليه الشحم المذاب أو السمن. وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء. يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماءً»[٢٠].

وقد نقل البكري عن أهل تَادْمكّة، وهي مركز تجاري كبير على الطريق بين حوض النيجر وشمال الصحراء، أن أهل هذه المدينة هم من قبيلة مداسَه في غالبهم. ويضيف: «وتادمكة... مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكوا. وأهل تادمكة بربر مسلمون، وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن، ومن حب تنبتُه الأرض من غير اعتمال. ويجلب اليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان. ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولي وغير ذلك. وملكهم يلبس عمامة حمراء، وقميصاً أصفر وسراويل زرقاء. ودنانيرهم تسمى «الصلع» لأنها ذهب محض غير مختومة. ونساؤهم فايقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسناً. والزنا عندهم مباح. وهنّ يبادرن التجار أيتهن تحمله إلى منزلها»[٢١].

ننتقل الآن مع ابن حوقل والبكري إلى بلاد السودان، وما يرد عند الأول منهما قليل، لكن

الثاني يزودنا بمعلومات كثيرة عن بلاد السودان وأهلها. وحري بنا أن نتذكر أن ما يرد عند هذين الكاتبين من أوصاف عامة قد لا تنطبق على كل قبيلة أو جماعة، لكنها تضع أمامنا صورة قد تكون جامعة ولو أنها مجزأة.

فابن حوقل يقول عن السودان، وهو يقصد أهل السودان الغربي في هذا: «... ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفُره والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص. فأما أسعارهم، على تنائي مدنهم وديارهم، فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللحمان والأدهان، ولهم من جيد الفواكه والتمور والأرطاب وسائر الأغذية. وعندهم من الجمال الكثير في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب.

«هذا إلى طاعتهم لملكهم... وليس في بلدانهم من الفواحش الظاهرة وتعاطي الأمور المنكرة كالعيدان والطنابير والمعازف والنوائح والقيان والمخنثين والفسق الشنيع ما بكثير من المواضع. وقد يعرض في بعض نواحيهم من التهور الشديد والجنون العتيد وبذل السيف وبزار الطيش»(٢٢).

أما البكري فمعلوماته عن السودان وأخباره عن دوله وملوكه أوفى وأوفر. فهو ينبئنا أن بني غُدالة (جدالة) هم آخر الإسلام خطة وأقرب إلى بلاد السودان. فالمسافة بين المدينتين اللتين تخصان الفريق الواحد أو الآخر تقطع في ستة أيام فقط. فمدينة تكرور أهلها سودان: «وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدَّكاكير (الأصنام)، حتى ولي أمرهم وارجابي.... فأسلم وأقام عندهم شرايع الإسلام...» وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سلى [سيلا] (وأهلها مسلمون. «وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوماً في عمارة السودان القبيلة بعد القبيلة... والبقر عندهم كثير وليس عندهم ضان ولا معز. وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون... (ثم نصل) مدينة قلنبو... وأهلها مشركون... (وفي) بلد زافقو صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم»(٢٣).

٤

نضع هنا ثبتاً تاريخياً مختصراً يتعلق بالمناطق السودانية التي سنمر بها مع ابن بطوطة بشكل خاص.

١ ـ إنتشار الإسلام في إطار الدول السودانية.

إسلام تكرور وسيلاّ (سِلّى):

أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي

إسلام أوداغشت (على أيدي المرابطين)، لما احتلوها

سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م

إسلام غانا (عاصمة الدولة)، على أيدي المرابطين لما احتلوها

سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م.

إسلام مالي (وهي بعد دولة في أول أمرها ولم تصبح واسعة الملك:

أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على يد برمندانا.

إسلام سنغاي على يد «زا كوسى»:

حوالى سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م.

٢ ـ أحداث غانا المهمة

إنشاء الدولة	٨٠٠م
احتلال أوداغشت	٣٨٠هـ/ ٩٩٠م.
عصر الازدهار	القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي
بدء الضعف	بعد احتلال المرابطين للعاصمة غانا ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م
القضاء على غانا	٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م على يد مالي

(هجرة التجار إلى ولاطة)

٣ ـ أحداث مالي

أسرة كياتا تقوي الدولة	القرن الثالث الهجري٣٤٣ التاسع الميلادي
دولة ذات شأن	القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي
دولة مالي الكبيرة:	تأسيسها على يد سانديانا (٦٢٨ ـ ٦٥٣هـ/ ١٢٣٠ ـ ١٢٥٥م).
عصر الازدهار	القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي
بدأ الضعف	حوالى ٨٠٠هـ/ ١٤٠٠م

انتهاء الدولة ـ احتلال سن علي (ملك سنغاي) تمبكتو وجني ١٤٦٨ و١٤٧٠م(٢٤).

وابن بطوطة، وهو الآن دليلنا في الأصقاع السودانية (بعد أن اجتاز الصحراء الكبرى) قام بهذه الرحلة في سنتي ٧٥٣ ـ ٧٥٤هـ/ ١٣٥٢ ـ ١٣٥٣م. وكان شيخ رحالي العصور الوسطى وإمام الرحالين العرب إطلاقاً، قد قام برحلة إلى مشارق الأرض (حتى الصين واندونوسيا) بين ٧٢٥ و٧٥٠هـ/ ١٣٢٥ و١٣٤٩م. ثم بعد أن هبط فاس في أيام بني مرين قام برحلتين واحدة إلى الأندلس والثانية كانت رحلة سفارة إلى السودان نيابة عن السلطان أبي عنان المريني (٧٤٩ ـ ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ـ ١٣٥٩م) إلى ملك مالي (مليل، ملي) منسى سليمان (٧٤٢ ـ ٧٦١هـ/ ١٣٤١ ـ ١٣٦٠م).

خرج ابن بطوطة من فاس إلى سجلماسة، حيث بدأت سفرته وانتقل بعد ذلك إلى تغازى فايوالاتن (ولاّطة) فمالي. وعاد من مالي بطريق تمبكتو فتُوات فسجلماسة. وقد خلّف لنا وصفاً دقيقاً لرحلته، خصوصاً وأنها كانت لا تزال حديثة العهد بالنسبة إلى رحلاته السابقة في بلاد المشرق البعيد. والذي نود أن نفعله الآن هو أن نتناول المدن التي عرفت في الصحراء وبلاد السودان لدى كل من ابن حوقل والبكري وابن بطوطة، لنرى التطور الذي أصابها من حيث أنها مجتمعات بشرية لا من حيث هي مدن ذات أسوار وأسواق وأكواخ وقصور فقط.

سِجِلْماسة

ينعتها المقدسي بالمختارة الفريدة(٢٥)، ثم يقول عنها: «قصبة جليلة... وهي طولانية

نحو القبلة، عليها سور من طين. وسطها حصن يسمى «العسكر» فيه الجامع ودار الإمارة. شديدة الحر والبرد جميعاً، صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرّمان والخيرات. كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد... برستاقها (المناطق التابعة لها ادارياً أو اقتصادياً) معادن الذهب والفضة. وهم أهل سنّة وقوم جهاد، بها علماء وعقلاء[٢٦]. وهذه رواية سماع لكن ينقلها رجل معروف عنه أنه كان يدقق فيما ينقل.

أما ابن حوقل فقد زارها حوالى الوقت الذي زار فيه أوداغشت (٣٤٠هـ/ ٩٥١م)، وهو يعطينا وصفاً فيه معلومات أوفى. يقول: «وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل، على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل... فيُزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة. وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه، وتواترت السنون بالمياه. فكلما أغدقت الأرض سنة في عقب سنة أخرى حصدوه إلى سبع سنين، بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير، بحبٍّ صلب المكسر لذيذ المطعم... ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنَّة، ولهم رطب أخضر من السلق في غاية الحلاوة. وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة»[٢٧].

ويعود إلى التحدث عن سجلماسة فيقول: «... (لها) تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان، وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة، وسيادة في الأفعال وحسن كمال في الأخلاق والأعمال. ويخرجون برسوفهم عن دقة أهل المغرب في معاملاتهم وعاداتهم إلى عمل بالظاهر كثير، وتقدم في أفعال الخير شهير، وحنو بعض على بعض من جهة المروءة والفتوة. وإن كانت بينهم الحِنّات والتُراث القديمة تواضعوها عند الحاجة واطرحوها رياسة وسماحة وكرم سجية تختصهم، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسفارهم وطول تغربهم عن ديارهم وتغرُّبهم من أوطانهم. ودخلتها سنة أربعين (وثلاثمائة) فلم أرَ بالمغرب أكثر مشايخ في حسن سمت وممازجة للعلم وأهله إلى سعة نفوس عالية وهمم سامقة سامية، وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال. وتتقارب بالعصبية أوصافهم، وتتشاكل أحوالهم... وأميرها يجتبيها من قوافل خارجة إلى بلد في السودان وعشر وخراج وقوانين قديم على ما يباع فيها ويشتري من إبل وغنم وبقر إلى ما يخرج عنها، ويدخلها من نواحي افريقيا وفاس والأندلس والسوس وأغمات (من القوافل) إلى غير ذلك مما على دار الضرب والسكة زهاء أربع مائة ألف دينار تختص بها وبعملها»[٢٨].

وسجلماسة خُطِّط لها، وبدىء العمل في بنائها سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م لما اختار بنو مِدْرار عيسى بن يزيد إماماً لهم، وبذلك قامت الدولة المدرارية. واتخذت سجلماسة مقراً للإمارة. وقد أقام بنو مدرار العاصمة في مكان حصين كثير الماء. وكان الحصن، وفيه المسجد الجامع ودار الإمارة نواة المدينة وتحصيناتها. وقد أتم العمل في سجلماسة إليسع الملقب بأبي المنصور (١٧٤ ـ ٢٠٨هـ/ ٧٩٠ ـ ٨٢٣م). وقد أخرج محمود اسمعيل عبد الرزاق أن الحروب الكثيرة والخلافات الداخلية أحدثت أضراراً بسجلماسة قبل إليسع وفي سنواته الأولى. لذلك

أقدم إليسع (أبو المنصور) «على إخلاء المدينة وإعادة تخطيطها. فروي أنه أمر القبائل بمبارحة سجلماسة وسكنى الصحراء ثم أعاد بناء مسجدها الجامع واختط بها المصانع والقصور حتى استردت بهاءها وزينتها، وشرع في تحصينها ببناء سور جديد... وقد بنى أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب... ولما انتهى من إتمام تعميرها أعاد تقسيم خططها على القبائل بما يكفل له الهيمنة على سائر أجزائها والسيادة على كافة سكانها»(٢٩).

وبسبب موقعها على أكثر من طريق تجاري وخصوصاً لارتباط تجارة الأندلس بها اتسعت وقويت وأثرت. وهذا وصف ابن حوقل لها (لما زارها ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) يؤيد ذلك؛ مع أن الفاطميين قضوا على إمارة بني مدرار، واحتلوا سجلماسة (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م). فالظاهر أن هذا لم يؤد إلى ضعضعتها. وحتى البكري يحدثنا عنها حديث المدينة الغنية (وقد كتب في أواسط القرن الخامس الهجري٣٤٥ الحادي عشر الميلادي). على أن الخلاف استحكم بين سجلماسة والفاطميين، فأرسل هؤلاء حملة ضدها بقيادة جوهر (٣٤٧هـ/ ٩٦٠م). ومع أن الخليفة الفاطمي المعز (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م). عفا عن زعماء المدينة، فقد ظلت الأحقاد تعمل في الصدور. وفي سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٥م زال نفوذ الفاطميين عن سجلماسة، لكن هذه لم تستطع الوقوف وحدها، فتبعت أمويي الأندلس(٣٠).

ولنعد الآن إلى ما رواه البكري عن سجلماسة. فقد قال: «ومن الغرايب عندهم أن الذهب جزاف. عدد بلا وزن والكراث يتبايعونه وزناً لا عدداً. ويزرع بأرض سجلماسة عاماً ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام، لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد، وأرضهم متشققة، فيرتفع ما تناثر منه في تلك الشقوق، فإذا كان في العام الثاني حرث بلا بذر وكذلك في العام الثالث»(٣١).

أما أوداغشت فقد وصفها البكري بقوله: «وهي مدينة كبيرة... بها جامع ومساجد كثيرة آهلة، وفي جميعها المعلمون للقرآن. وحولها بساتين النخل ويزرع فيها القمح بالفوس (الفؤوس) ويسقى بالدلاء، ويأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم. وسائر أهلها يأكلون الذرة. والمقاثي تجود عندهم. وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضاً، وبها جنان حنّاء لها غلة كبيرة... والغنم والبقر أكثر شيء عندهم... وعسلها أيضاً كثير يأتيها من بلاد السودان. وهم أرباب نعم جزلة وأنوال جليلة. وسوقها عامرة الدهر كله... وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة. وفيها مبان حسنة ومنازل رفيعة... (لكن) أمراض أهلها الحميات والطحال. ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام... ويُتجهز إلى أوداغشت بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة... وذهب أوداغشت أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه». وبعد أن يحدثنا حديث التاجر، ينتقل ليخبرنا عن النساء في أوداغشت، فيقول: «وبها سودانيات طبّاخات محسنات تباع الواحدة منهن بمئة مثقال وأكثر...». وبعد ذلك يوجه همه إلى حسناوات المدينة فيقول: «وبها جوار حسان الوجوه بيض الألوان منثنيات القدود، لا تتكسر لهن نهود. لطاف الخصور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف... ترقد (المرأة منهن) على جنبها إشفاقاً من الجلوس على أردافهن»(٣٢).

ولما وصل ابن بطوطة سجلماسة قال عنها: «فوصلت إلى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب... واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر ثم سافرت في غرة شهر المحرم سنة ثلاث وخمسين (وسبعمائة)».

٥

مر ابن بطوطة بتَغازَى، وهي مدينة الملح ثم بأيوالاتِن وهي أول عمالة السودان التي وصلها بعد شهرين من مغادرته سجلماسة قال: «ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفَّل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفَرْبا حسين (نائب السلطان) وهو جالس على بساط في سقيفة وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسيّ، وكبراء مسوفة من ورائه. ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم. فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض»(٣٣).

وما دمنا قد دخلنا بلاد السودان فإنه يترتب علينا أن نعود إلى البكري، جغرافي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الذي يزودنا بمعلومات كثيرة عن تلك المناطق النائية. يقول عن غانا: «وغانة سمة لملوكهم واسم بلد أوكار [إن غانة هي صفة الملك واسم المدينة والمملكة، وكانت أوكار عاصمتها الأولى] وملكهم اليوم، وهي سنة ستين وأربعمئة، (هو) تنكامين، وهو ابن أخت الملك السابق (بسي). وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه، ولا يقطع على صحة اتصاله به. وتنكامين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان.

«ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يُجمعون فيه، ولها الأيمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم. وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة، والمساكن بينهما متصلة. ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصور وقباب، وقد أحاط بذلك كله حايط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك. وحول مدينة الملك قباب وغابات وشَعْراء (الغابة وقد تكون من شجر الحمض) يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم (أصنامهم) وقبور ملوكهم. ولتلك الغابات حرس لا يمكن أحد من دخولها ولا معرفة ما فيها. وهناك سجون الملك فإذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره.

«وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه. ولا يلبس المخيطَ من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده وهو ابن أخته. ويلبس ساير الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم. وهم أجمع يحلقون لحاهم، ونساؤهم يحلقن رؤوسهن، وملكهم يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين، ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمايم القطن الرفيعة.

«وهو يجلس للناس والمظالم في قبة ويكون حوالى القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة،

ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده... ووالي المدينة بين يدي الملك... وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض. وعلى باب القبة كلاب.... تحرسه.

«وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطا، فأدخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته... وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالاً ممن كان يخدم طعامه وشرابه، وأغلقوا عليهم باب القبة، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب»(٣٤).

ويؤخذ مما نقله البكري عن بعض المدن الواقعة في حدود مملكة غانا، أن أهل كوغة (وتسمى أيضاً كاكاو وغُوا)، وهي على بعد خمس عشرة مرحلة من غانا، أهلها مسلمون وحواليها المشركون. وأكثر ما يُتجهز إليها بالملح والودع والنحاس و(معدن) الغربيون، والودع والغربيون أنفق شيء عندهم. وحواليها من معادن التبر كثير، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً(٣٥).

وقد أورد البكري أموراً ثلاثة عن أهل الصحراء وعن مملكة غانا فيها طرق خاصة لاكتشاف المجرم ـ المتهم أو الشخص الذي له الحق في العرش... أما فيما يتعلق بهذا الأمر فقد قال عن أهل زافقو الذين يعبدون حية كالثعبان العظيم: «فإذا هلك وال من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم إليها، وتكلموا بكلام يعلمونه. فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمّهم رجلاً رجلاً حتى تنكز أحدهم بأنفها. فإذا نكزته ولّت إلى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز ليجذب من ذنبها أو عرفها بأشد ما يقدر عليها شعرات، فتكون مدة ملكه بعدد تلك الشعرات لكل سنة شعرة»(٣٦).

«من سير أهل الصحراء في المتهم بسرقة أن يعمدوا إلى عود (من شجر معين) فيشق باثنين ويشد على صدغيه في مقدم رأسه ومؤخره، فلا يتمالك أن يقر ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدته»(٣٧).

ويقول عن بلاد غانا، بالنسبة إلى إثبات التهمة، ما يلي: «وببلاد غانة حكم الماء. وذلك أنه من ادُّعي عليه بمال أو دم أو غير ذلك، عمد أمينهم إلى عود (من صنف معروف) فيه حرافة ومرارة وزُقة، وصب عليه من الماء قدراً ما وسقاه المدعى عليه. فإن رماه من جوفه عُلم أنه بري وهنّي بذلك، وإن لم يرمه وبقي في جوفه صحت الدعوى عليه»(٣٨).

وقد كانت مالي، أيام وضع البكريُّ كتابه المعروف بالمسالك والممالك، بلدة كبيرة فقط. لذلك فإنه لا يتحدث عنها بكثير من التفصيل، فقد كانت غانا المملكة. وأهم ما يورده هو أن ملكاً من ملوكها أسلم بتأثير ضيف من المسلمين كان عنده. وقد صح إسلام الملك فأمر بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده. ولكن أهل مملكته ظلوا مشركين فوسموا ملوكهم بالمسلماني(٣٩).

٦

كانت ايوالاتن (ولاطة) أول مدينة سودانية وصلها ابن بطوطة. وقد مر بنا وصفه لملكها في مجلسه، وينتقل الرحالة إلى التحدث عن أيامه في تلك المدينة فيقول:

«ثم إن مشرف ايوالاتن ويسمى مَنشاجو استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته، فأبيتُ من حضور ذلك. فعزم الأصحاب عليّ أشد العزم فتوجهت فيمن توجه. ثم أتى بالضيافة وهو جريش إنلي مخلوطاً بيسير عسل ولبن، قد وضعوه في نصف قرعة صيّروه شبه الجفنة، فشرب الحاضرون وانصرفوا... وأردت أن أسافر مع حجاج ايوالاتن ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم. وكانت إقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوماً... وبلدة إيوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها. ولحم الضأن كثير بها، وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائهم الجمال الفائق وهن أعظم شأناً من الرجال...»(٤٠).

ومن ايوالاتن سافر ابن بطوطة إلى مالي، وذلك لمقابلة سلطانها في مهمة لأبي عنان سلطان المغرب، والمهمة أو السفارة هي استكمال لسفارة جاءت مالي من المغرب أيام سلفي الملكي المتعاصرين. وملك مالي، يوم زارها ابن بطوطة هو منسى سليمان (٧٤٢ ـ ٧٦٢ ـ ١٣٤١ ـ ١٣٦٠م).

يقول ابن بطوطة عن سفره: «ولما عزمت السفر إلى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمجدّ، اكتريت دليلاً من مسوفة إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة إلا من تلك الطريق، وخرجت في ثلاثة من أصحابي. وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان. وبعض تلك الأشجار قد استأسَن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر، ويشرب الناس من الماء الذي فيها. ويكون في بعضها النحل والعسل، فيشتاره الناس منها. ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب بها مرمّته وهو ينسج فعجبت منه.. وفي أشجار هذه الغابة التي بين ايوالاتن ومالي ما يشبه ثمرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليس بها. وفيها أشجار تثمر شبه الفقّوص فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأسواق. ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغَرتي، وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة... ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع: فمنها أنهم يطبخون به ويُسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير. وهو عندهم كثير متيسر، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلّة ببلادنا. والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان، يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشاً حسناً. وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها

وهي من القرع.

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً، ولا ديناراً ولا درهماً، إنما يحمل قطع الملح وحليّ الزجاج الذي يسميه الناس النَظْم، وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسرغنت وهو بخورهم. فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بأنْلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني، وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة، ودقيق اللوبياء فيشتري منهن من أحب من ذلك... وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاتن وصلنا إلى قرية زاغري، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسكن معهم جماعة من البيضان(٤١)».

٧

وأخيراً وصل ابن بطوطة إلى مكان يبعد، حسب تقديره، عشرة أميال من مالي. ويتحدث عما جرى له بقوله: «وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها (مالي) إلا بالاذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيض ليكتروا لي داراً. فلما وصلت النهر (الذي يجتاز للوصول إليها) جزت في المعديّة ولم يمنعني أحد، فوصلت إلى مدينة مالي، حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها». وبعد أن دخل الدار التي اكتُريت له، وتلقى زيارات من الفقيه وابن الفقيه والقاضي، وبعث إليه أصدقاؤه بقرة وثوراً وغرارتين من الفوني وقرعة من الغرتي والأرز وغيره بحيث اطمأن الرحالة إلى حاجته، يعود إلى القول: «وكان ابن الفقيه متزوجاً ببنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام، فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا ستة. فمات أحدنا وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشي عليّ فيها. وطلبت من بعض المصريين دواءً مسهلاً... فشربته وتقيأت ما أكلته، مع صفراء كثيرة. وعافاني الله من الهلاك، ولكنني مرضت شهرين»(٤٢).

ولم يعجبّ السلطان منسى سليمان ابن بطوطة لأنه كان بخيلاً «لا يرجى منه كبير عطاء». فقد أقام ابن بطوطة في جوار السلطان بضعة أشهر، لكنه لم يره بسبب مرضه. ثم صنع السلطان طعام غراء، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب وحضر ابن بطوطة معهم. ولما فرغ القوم من ختم القرآن الكريم، دعوا للسلطان منسى سليمان. وعندها تقدم ابن بطوطة فسلم عليه، وأعلمه القاضي والفقيه وابن الفقيه بحال الرحالة، فطلب منه السلطان (بالترجمة) أن يشكر الله؛ فقام بذلك. ثم يصف رحالتنا الوضع بقوله:

«ولما انصرفت بعث إليّ الضيافة، فوجِّهت إلى دار القاضي، وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافي القدمين فدخل عليّ وقال: قم، قد جاءك قماش السلطان وهديته. فقمت وظننت أنه الخلع والأموال؛ فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقريّ مقلوة بالغرتي وقرعة فيها لبن رائب. فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي من تعظيمهم للشيء الحقير».

والواقع أن عبارة ابن بطوطة تنم عن خيبة أمل كبيرة. فالرجل قد اعتاد، في رحلاته

السابقة على تكريم وتلقي هدايا كبيرة. إلا أن الرحالة لم يخف ما في نفسه. فإن الأمر طال ولم يصل إليه شيء. وكان يتردد في شهر رمضان إلى المشْوَر ويسلم على السلطان، فتكلم الرحالة إلى دوغا، وهو ترجمان السلطان، في الأمر فقال له هذا: «تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب. فجلس (السلطان) في أوائل رمضان، وقمت بين يديه وقلت له: «إني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها، ولي ببلادك أربعة أشهر، ولم تتصفني ولا أعطيتني شيئاً. فماذا أقول عنك عند السلاطين»؟. فقال: «إني لم أرك ولا علمت بك». فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه، وقالا: «إنه قد سلم عليك وبعثت إليه الطعام. فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجري عليّ. ثم أعطى القاضي والخطيب والفقهاء مالاً ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة، وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثا، وأحسن إليّ عند سفري بمئة مثقال»[٤٣].

يصف ابن بطوطة جلوس سلطان مالي بالقبة فيقول: «وله (للسلطان) قبة مرتفعة، بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات، ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مُغشاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب، وعليها ستور ملف (نسيج يشبه الجوخ). فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رفعت الستور، فعلم أنه يجلس. فإذا جلس أخرج من شباك أحد الطيقان شرابة حرير، قد ربط فيها منديل مصري مرقوم. فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، في أيدي بعضهم القسي وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدرق». وبعد ذلك ينتظم المجلس بوجود نائبه والفراريَّة وهم الأمراء والخطيب والفقهاء والسلحداريّة ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة. ويجلس الأجناد والولاة الفتيان وغيرهم في شارع خارج المشور فيه أشجار. فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا، ثم ينقل الكلام إلى السلطان[٤٤].

ويجلس السلطان أحياناً بالمشور، وتكاد الثياب تكون مثل يوم جلوسه بالقبة، لكن السلطان يخرج من باب القصر وعلى رأسه شاشية (طاقية) من ذهب، وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة (أي ذات وبر) من الثياب الرومية، أي الأوروبية، ويصعد المنبر متأنياً كما يفعل الخطيب[٤٥].

وقد حضر ابن بطوطة عيدي الأضحى والفطر، فرأى الناس يخرجون إلى المصلى القريب من قصر السلطان، يلبسون الثياب البيض الحسان. أما السلطان فعليه الطيلسان. ويؤكد ابن بطوطة أن السودان لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد، ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه سائر الأيام. وقد نصب عند المصلى خباء، يدخله السلطان ليصلح من شأنه، ثم يخرج إلى المصلى، حيث تُقضى الصلاة والخطبة. ويقول الرحالة: «ثم نزل الخطيب، وقعد بين يدي السلطان وتكلم بكلام كثير. وهناك رجل بيده رمح، يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب: وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه»[٤٦].

ومن ألطف ما رواه ابن بطوطة هو مجلس إنشاد الشعراء للسلطان قال: «وإذا كان يوم العيد وقد أتم دوغا لعبه [هذا كان يتم بعد العصر في أيام الأعياد] جاء الشعراء. وقد دخل كل

واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش، تشبه الشقشاق (لعل ابن بطوطة قصد الشِّقراق، وهو طائر مرقط بحمرة وخضرة وبياض) وجعل لها رأس من الخشب ومنقار أحمر، كأنه رأس ذلك الطائر. ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم. وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ»(٤٧).

وقد لخّص ابن بطوطة رأيه في أفعال السودان في فصل قصير سماه «ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها»، قال: «فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه. ومنها مواظبتهم على الصلوات، وملازمتهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته، فيبسطها له بموضع يستحقه به، حتى يذهب إلى المسجد. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة. ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خَلِق غسله ونظفه وشهد به الجمعة.

«ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. وقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجليه قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم الشاب عني وضحك، وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن.

«ومن مساوىء أفعالهم أن الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا. ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة. فإن عادة الفراريّة (الأمراء) أن يفطروا بدار السلطان، ويأتي كل واحد بطعامه تحمله العشرون منهن فمن فوقهن من جواريه، وهن عرايا. ومنها جعلهم التراب والرماد على رأسهم تأدباً. ومنها أن كثيرين منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير»(٤٨).

ووجد ابن بطوطة تذلل السودان لملكهم أمراً غريباً، فقال في ذلك: «والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم وأشدهم تذللاً له. ويحلفون باسمه. فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها، نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً أخلاقاً، ونزع عمامته وجعل شاشية (طاقية) وسخة (مكانها) ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، وتقدم بذلة ومسكنة، وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً، ووقف كالراكع يسمع كلامه.

«وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره، ورمى بالتراب على رأسه وظهره، كما يفعل المغتسل بالماء... وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام»(٤٩).

وكان مما لفت ابن بطوطة ودوّنه في رحلته قوله عن سودان مالي: «وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب. فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينسب أحدهم إلى أبيه، بل ينسب إلى خاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه. وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد الملبار من الهنود، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن. وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهن على الصلوات. ومن أراد التزوج منهن تزوج، لكنهن لا يسافرن مع الزوج، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها. والنساء هناك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب. وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات. ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك»(٥٠) وروى ابن بطوطة حوادث معينة تأييداً لملاحظته هذه(٥١).

٨

عاد ابن بطوطة إلى المغرب عن طريق تمبكتو وكوكو (كاوكاو) وهاتان تقعان على نهر النيجر، لكن ابن بطوطة يسميه النيل. فقد كان يظن يومها (وحتى إلى زمن طويل بعد ذلك) أن نهر النيجر هو نهر النيل، لذلك يجب أن نقرأ كلمة النيجر كل مرة تمر هنا كلمة النيل بالنسبة إلى السودان الغربي.

«ثم رحلت إلى مَيمَة فنزلنا على آبار بخارجها. ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو وبينها وبين النيل أربعة أميال، وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام، وحاكمها يسمى فربا موسى... ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة. وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن والملح، بالعطريات وبحلي الزجاج. ثم وصلت إلى بلد أُنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان، مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطى أحد النزع في قوسه، ولم أرَ في السودان أطول منه ولا أضخم جسماً. واحتجت بهذه البلدة إلى شيء من الذرة فجئت إليه، وذلك يوم مولد رسول الله (ص)، فسلمت عليه وسألني عن مقدمي. وكان فقيه يكتب له فأخذت لوحاً كان بين يديه وكتبت فيه سراً ويكلّم الأمير في ذلك بلسانه. فقرأه جهراً وفهمه الأمير فأخذ بيدي وأدخلني إلى مَشْوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح. ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي، فجعلت أقرأ فيه. ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدَقْو وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن، وهم يشربونه عوض الماء، لأنهم إن شربوا الماء خالصاً أضر بهم، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن. ثم أتي ببطيخ أخضر فأكلنا منه. ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فأخذته وأردت الانصراف. فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية فكلمتني بالعربي... وودعته وانصرفت. ولم أرَ في السودان أكرم منه ولا أفضل. والغلام الذي أعطانيه هو باق عندي إلى الآن.

«ثم سرت إلى مدينة كوكو (كاوكاو) وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها. فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك، وبها الفقوص العناني الذي لا

نظير له. وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع وكذلك أهل مالي. وأقمت بها نحو شهر وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة، وكان ظريفاً مزّاحاً فاضلاً وتوفي بها بعد خروجي عنها. وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن، والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان، ثم سافرت منها برسم تَكِدّا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجّين ومعناه الذئب بلسان السودان. وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد فلما رحلنا أول مرحلة نفقت الناقة فأخذ الحاج وُجّين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله...

«ثم وصلنا إلى بلاد برَدامة وهي قبيلة من البربر، لا تسير القوافل إلا في خفارتهم، والمرأة عندهم في ذلك أعظم شأناً من الرجل. وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن... وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء. واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدّا. ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد علي الجزولي وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتي وهو من الأفاضل، وأضافني جعفر بن محمد المسّوفي. وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك. ولا زرع بها إلا يسيرٌ من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مداً من أمدادهم بمثقال ذهب، ومدهم ثلث المد ببلادنا. وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مداً بمثقال ذهب... ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة. يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها. ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم، وكذلك أهل مالي وايوالاتن. ولا يبيعون المعلّمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكبير...

«ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد فيسبكونه في دورهم. يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم. فإذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربع ماية قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستماية وسبع ماية بمثقال، وهي صرفُهم يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح. ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاي وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدّا وأهلها مسلمون، لهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب. ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب المجسدة.

«ولما عدت إلى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول إلى حضرته العلية. فقبّلته وأمتثلته على الفور. واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث. وقصدت السفر إلى تَوات، ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، إنما يوجد اللحم واللبن والسمن، يشترى بالأثواب. وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع

وخمسين في رفقة كبيرة، فيهم جعفر التُواتي، وهو من الفضلاء، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدا، وفي الرفقة نحو ستماية خادم، فوصلنا إلى كاهِر من بلاد السلطان الكركري، وهي أرض كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقدّدون لحمها، ويحمله أهل توات إلى بلادهم. ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة أيام. ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة بها إلا أن بها الماء. ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق تُوات (وهناك احساء ماء يجري على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه). وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكار، وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم. ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غَرموا له أثواباً وسواها. وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان. وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد سرّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر، وسرنا في بلاد هكّار شهراً وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فأخبرونا بأخبار بلادنا.

«ثم وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ. وتمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة. ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب، وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر، ويقتاتون به ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنه لا يطير إذا ذاك لأجل البرد. وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في أواسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة»(٥٢).

وهكذا عاد ابن بطوطة إلى سجلماسة وهي المدينة التي انطلق منها في رحلته الصحراوية ـ السودانية.

٩

جربنا، في هذه الصفحات التي مرت، أن نجمع المادة الأساسية عن سكان الجزء الغربي من الصحراء الكبرى والسودان الغربي من المظان الأصلية الأربعة: ابن حوقل والمقدسي والبكري وابن بطوطة. وهي مصادر معاصرة للفترة الممتدة من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. ولم نلجأ إلى المؤرخين أو الجغرافيين الذين نقلوا من هنا لأننا لم نقصد، في هذه المناسبة، أن نؤرخ.

والمادة التي نقلناها تتعلق بالأقوام ونماذج حياتهم ومعتقداتهم، لا تفصيلياً ولكن بشكل عام، لأننا أردنا أن نحاول التوصل إلى أمر واحد: هو هل يمكن أن نفهم الحياة البشرية لتلك الجماعات؟

وأول ما يترتب علينا أن نسأله هو: ما نوع المادة التي حصلنا عليها؟ والجواب واضح لمن قرأ هذا الذي وضعناه أمام القارىء. لكن لا بأس من إبداء ملاحظة مهمة وهي: إن المادة التي جمعناها هي التي تصف حياة هؤلاء الناس. وعلينا، إذاً، في سبيل الإفادة منها، أن نحاول تفسير هذه المادة. ورغبة منا في أن لا نطيل الحديث، فإننا ننتقل إلى إبداء رأينا، آملين أن يكون فيه فائدة تدريبية لنا أولاً ولقراء الفكر العربي ثانياً.

١ ـ من الواضح أن هناك نوعين من أساليب العيش سادا المنطقة، وهما نوعان متباينان. الأول تحضنه الصحراء التي فيها مسافات تقطع في ايام وأسابيع دون عشب أو شجر أو حيوان أو حتى ماء. الحياة هنا تتمركز في بقاع محدودة عدداً وضيقة مساحة. إذ يقيم الناس حول ماء (ولو كان زعافاً) وقد يزرعون، ولكن في أغلب الحالات لا يزرعون، وإنما يأكلون اللحم واللبن، وإذا جاءهم التجار بحبوب أو أشياء أخرى أُطعموها. فمن ذلك الجماعات التي قد يعيش الفرد فيها حياته دون أن يرى الخبز أو يعرف الحب. وإذاً: لماذا يقيم الناس هناك؟ إما أن يكون لهم مورد رزق محلي يبيعونه للناس البعيدين: تَفازى معدن الملح، تادمكة معدن النحاس، هذان مثلان، وإلا فإن الجماعات التي تقيم في مستقر وسط الصحراء، تكون واسطة لنقل الحاجات (السلع) من مكان إلى آخر. فنحاس تادمكّة وملح تفازى وأوليل تنقله القوافل ـ قوافل الشمال تحت حماية الملثمين أو قوافل الملثمين أنفسهم ـ وهذه المراكز التجارية ـ من سجلماسة في الشمال إلى تمبكتو على النيجر ـ تضم إلى الذهب والملح سلعاً أخرى يحتاجها الناس في الشمال (العاج والرقيق وريش النعام) وفي الجنوب (حلي النساء والودع والأدوات النحاسية وآلات الحرب والقتال).

٢ ـ في الساحل (السهوب الغنية) وفي المنطقة الواقعة جنوبه أي السودان الغربي، تقوم القرى والمدن أصلاً على زراعة متنوعة الإنتاج. فالحبوب والخضراوات والفواكه موجودة مستعملة. وفيما نجد أن القمح لا يأكله في بعض المراكز الصحراوية الا الحكام وأهل اليسار، نجد أنه في السودان معروف لدى الجميع، ولعل الجميع يأكلونه إن لم يكن يومياً، ففي مناسبات كثيرة.

٣ ـ لكن الذي نحصل عليه من مصادرنا هو أن سكان الصحراء وسكان السودان يقوم النظام الاجتماعي عندهم على القبيلة. الكلمة تتردد عند البكري وابن بطوطة، وهما اللذان تحدثا عن السودان بتفصيل. لكن الذي نستطيع أن نقوله إن الرابطة القبلية هي في الصحراء أوضح وأقوى منها في السودان. إنها في الأولى تظل رابطة دم وعنصر، أما في السودان فترتبط بعض الشيء بالمكان فتكسب بعض صفات الاستقرار.

٤ ـ وهناك مجموعة من الأشياء يمكن إجمالها هنا باختصار. منها أن أسلوب الإتجار كان أقرب شيء إلى المقايضة، وأن الملح والذهب كانا أقوى أسس المقايضة منطقة بمنطقة لا سلعة بسلعة دائماً. وفي جهات تادمكة يضاف النحاس المسبوك أساساً لتصريف الأعمال التجارية. ولا نقرأ إلا فيما ندر شيئاً عن تسعير محدد وهو عندما يقال إن كذا من القمح يباع بمثقال من الذهب. وما دمنا نتحدث عن نواح شبه تجارية فلنذكر أن الجمل كان سيد الصحراء للنقل، والحصان كان موجوداً للأبّهة، فيما كانت الخيل توجد عند حكام المدن السودانية، وكانت تظهر في الاحتفالات الكبرى. لكن الذي يجب أن لا يغيب عن البال هو أن المنطقة السودانية كانت تعتمد على الخيول التي تنقل إليها من الشمال.

٥ ـ لعلّ التغير الرئيسي الذي أصاب المنطقتين الصحراوية والسودانية في الفترة التي

نعالجها هو انتشار الإسلام. هناك مناسبتان فرض فيهما الإسلام على مكانين ـــ مدينتين ـــ أوداغشت وغانا لما احتلهما المرابطون. وكان ذلك على أولي الأمر فيهما. أما عدا ذلك، فإن الإسلام انتشر في تلك الربوع على أيدي التجار المسلمين الشماليين. فقد كان تصرفهم وأمانتهم ومحافظتهم على أمور دينهم هي التي حببت الجماعات في الإسلام وشجعتهم على اعتناقه. لذلك لا نجد (حتى أيام ابن بطوطة في أواسط القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) أن الإسلام شمل الجميع. فنحن نجد (عند البكري) أن كوغة أهلها مسلمون وحولها السكان مشركون. ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى جماعتين (مدينتين) سلّى كانت مسلمة فيما كانت قلنبو «إلى جانب الكفر». وحتى في الذي نقلناه عن ابن بطوطة نجد شيئاً من ذلك. وإذا أردنا أن نعمم بعض الشيء قلنا إنه إلى ذلك الوقت كان المسلمون سكان المدن في السودان، مثل غانا التي كانت فيها مدينة مسلمة (تجارية) ومدينة مشركة هي عاصمة الملك وتقوم في الغابة.

٦ ـ فضلاً عن هذا الذي ذكرناه فقد لاحظنا وجود أمور، حتى بين المسلمين، فيها بقية من العادات القديمة. وقد أوضح ذلك كل من البكري وابن بطوطة. والذي يمكن أن يستخلص من المادة التي بين أيدينا هو أن الفئات المختلفة قبلت الإسلام عملاً وقبلت به أسلوباً طيباً، لكنها لم تكن تعرف عنه ما يكفي. ومع أننا نقف على وصف لمكان أنه كان فيه مساجد كثيرة، وحتى عندما نقرأ عن مكان أنه كان فيه معلمون مسلمون، يجب أن نذكر أن هذا لم يكن يشمل كل مكان. إن الأمر يختلف عندما تقوم دولة سنغاي في تلك المنطقة. تكون عندها الجماعات أصبحت شديدة العناية بالمعلم والمقرىء والتعلم، لذلك تسعى إليه. ونجد عندها رحلة المعلمين من الشمال، ونجد أن السلع التجارية أضيف إليها الكتاب والورق، للقراء والتعلم.

ولأن الناس كانوا يجهلون تعاليم الإسلام الدقيقة، لم يجدوا بأساً في تصرفهم على الأسلوب القديم، ما دموا يحافظون على الصلوات ويؤمنون بما يطلب منهم كمسلمين. فهم فهموا الإسلام وأحكامه سطحياً.

وقد نقل إبراهيم علي طرخان تقليداً اشتهر في مالي بعد أن علّق عليه بقوله: «على أن الغريب حقاً هو سطحية الفهم للدين الإسلامي وأحكامه، بدليل ما رواه العمري والقلقشندي عن تقليد اشتهر في مالي وهو أنه من عادة أهل مملكته (مالي) أنه إذا نشأ لأحد بنت حسناء، قدمها له أمة موطوءة، فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمن. وقد سأل ابن أمير حاجب السلطان موسى (منسى) في ذلك وقال له: إن هذا لا يحل لمسلم شرعاً. فقال موسى: ولا للملوك؟ أجابه، ولا للملوك واسأل العلماء. فقال الملك: والله ما كنت أعلم ذلك»[٥٣].

الهوامش

(١) راجع: E, B, *Microp.Africa*, and L.C. Briggs, *The Tribes of the Sahara* (Cambridge, Mass, 1960) Passim.

(٢) أبو القاسم محمد بن حوقل، **صورة الأرض** (ليدن، ١٩٣٨)، ص ١٠٠؛ أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، **وصف افريقية واسبانيا**، ترجمة فرنسية لهذا الجزء من **جزيرة العرب نزهة المشتاق وملحق به ما جاء في روض الفرج وأنس المهج**، عمل دوزي ودي خويه (امستردام، ١٩٦٩)، ص ٣١.

(٣) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٩٦ وما بعدها؛ Maurice Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur* (Paris: Flammarion, 1971), pp. 67-76; B. Davidson, *A History of West Africa 1000-1800,* new revised ed. (London, 1977) p. 33; and N. Levtzion, *Ancient Ghana and Mali,* (London, 1973), pp. 136- 152.

(٤) عبد الله بن عبد العزيز البكري، **المغرب في بلاد افريقيا والمغرب**: جزء من كتاب المسالك والممالك (باريس، ١٩٦٥)، ص ١٧٢ وما بعدها؛ H.T. Norris, *The Arab conquest of the Western Sahara* (London, 1986), pp. 2-16;

John Spencer Trimingham, *History of Islam in West Africa* (London: oxford University Press, 1962), pp. 34ff, Levtzion, Ibid, pp. 153-170, and Davidson, Ibid, pp. 9-11, 20-22 and 28-29.

(٥) البكري، المصدر نفسه، ص ١٦٣، وما بعدها؛

Trimingham, Ibid, pp. 16-33, Davidson, Ibid, pp, 136-138

حسن ابراهيم حسن، **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرق القارة الافريقية وغربها** (القاهرة، ١٩٥٧)، ص ٣ ـ ٩، ٤١ ـ ٥١، وعبد الرحمن زكي، **تاريخ الدول الإسلامية السودانية** (القاهرة، ١٩٦١)، ص ٢٩ ـ ٣٥.

(٦) Davidson, Ibid, pp. 36- 38

(٧) البكري، المصدر نفسه، ص ١٧٤ ـ ١٨٠، حسن، المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٩؛ «زكي، المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٩٣؛

Trimingham, Ibid, pp. 40-60, Levtzion, *Ancient Ghana and Mali,* Passi, Davidson, Ibid, pp. 34-45. j.Suret- Canale, *Afrique noire occidentale* (Paris, 1961), pp. 147-153, and D.T.*Fage, Introduction of the History of West Africa,* 4th ed. C.U.P. pp. 18-24.

(٨) Levitzion, Ibid.,pp. 63-83.

(٩) عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ١٤٩٣ ـ ١٥٩١** (الجزائر، ١٩٧١)، في مجمله؛ حسن، **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرق القارة الإفريقية وغربها**، ص ٦٦ ـ ٧١؛ زكي، **تاريخ الدول الإسلامية السودانية**، ص ١٣٣، ١٤٧ نقولا زيادة، «المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي» في كتاب العيد (بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٧)، ص ٢٩ ـ ٩٨؛ محمد الغزي، الحكم المغربي في السودان الغربي (رسالة دكتوراه في التاريخ، بيروت، الجامعة اليسوعية، ١٩٨٠).

(١٠) زكي، المصد نفسه، ص ١٧٣ ـ ١٨١، وحسن، المصدر نفسه، ص ٨٣ ـ ٨٦؛ Trimingham, Ibid.p.p. 110 -126,

(١١) شمس الدين المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (ليدن،. ١٩٠٦)، ص ٢١٦.

(١٢) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٨٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٩١.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(١٦) المصدر نفسه ص ١٠٠. يذكر ابن حوقل أسماء عدد كبير من قبائل البربر (الصحراوية (ص ١٠١ ـ ١٠٣)

فليرجع إليه.

(١٧) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ٢٣٩.

(١٨) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٩٨ ــ ٩٩.

(١٩) البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب**، ص ١٦٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٨١ ــ ١٨٢.

(٢٢) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٩٥.

(٢٣) البكري، المصدر نفسه، ص ١٧٢ ــ ١٧٣.

(٢٤) راجع: محمود اسمعيل عبد الرازق، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري** (القاهرة، د.ت)، في مجمله؛ إبراهيم علي طرخان، دولة مالي الإسلامية (القاهرة، ١٩٧٣) في مجمله.

(٢٥) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ٢١٥.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٢٧) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٩٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٩٦ ــ ٩٧.

(٢٩) عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ص ١٢٤ ــ ١٢٥.

(٣٠) عبد الرازق، المصدر نفسه، ص ٢١٠ ــ ٢٢٨.

(٣١) البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب**، ص ١٢١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨ ــ ١٦٨.

(٣٣) محمد بن عبد الله بن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (باريس: المطبعة الوطنية، ١٨٧٤ ــ ١٨٧٩)، ج ٤، ص ٣٧٦.

(٣٤) البكري، المصدر نفسه، ص ١٧٤ ــ ١٧٦.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٧٣ ــ ١٧٤.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٧٨.

(٤٠) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ج ٤، ص ٣٧٥.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٤٠٣ وما بعدها.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٥ وما بعدها.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٣ ــ ٤٠٥.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٤١٣ ــ ٤١٤.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٤٢١ ــ ٤٢٢.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٠٧ ــ ٤٠٨.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٣٨٧ ــ ٣٨٩.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٩ وما بعدها.

(٥٣). طرخان، **دولة مالي الإسلامية**، ص ١٦٢ ــ ١٦٣، وقد أورد مصدره في ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** (مصر، ١٩٢٤)، ج ٢، ق ٣، ورقة ٥٠٢، وأحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، ١٤ مج (القاهرة، ١٩١٤ ــ ١٩٢١م/ ١٣٣١ ــ ١٣٣٨هـــ)، ج ٥، ص ٢٩٦.

٣ ـ مع ابن بطوطة في الصحراء الكبرى

ابن بطوطة الطنجي هو شيخ رحالي العصور الوسطى وكبير رحالي العرب من حيث المسافة التي قطعها والمدة التي صرفها متنقلاً من بلده، في غرب العالم يومها، إلى الصين وأندونيسيا في شرقه.

خرج ابن بطوطة من طنجة سنة ٧٢٣/ للهجرة (أي ١٣٢٢ للميلاد) وهو ابن عشرين حولاً. وبعد أن طوح في الآفاق شرقاً عاد إلى طنجة، ثم حط رحاله في بلاط السلطان المريني أبي عنان في فاس سنة ٧٥٠هـ/ ١٧٤٩م. وقام بعد ذلك برحلة إلى الأندلس وأخرى إلى السودان الغربي. كانت هذه سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م. وتوفي الرحالة في المغرب سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م.

رحلة ابن بطوطة إلى السودان الغربي وإلى مالي بالذات هي التي اجتاز خلالها الصحراء الكبرى ذهاباً وإياباً. ويقول ابن بطوطة إنه رحل إلى السودان إشباعاً لرغبته كي يرى تلك الديار. لكننا نكاد نجزم بأن الرجل سافر إلى مالي سفيراً غير رسمي لسلطان المغرب ليطلع على مصدر التبر والذهب الذي كان ينقل إلى المغرب وجواره بكثرة. والمهم أن لا ابن بطوطة ولا من جاء قبله ومن لحقه اهتدى إلى مصدر هذا الذهب. وظل الأمر سراً تجارياً للأفارقة إلى مطلع القرن التاسع عشر.

كانت نقطة انطلاق الرحالة في اجتيازه الصحراء مدينة سجلماسة في أقصى جنوب المغرب، حيث قضى أربعة شهور يعلف الجمال التي ابتاعها هناك استعداداً للرحلة. وجاءت المحطة التالية في تغازا (تغازى) وهي موضع يستخرج فيه الملح وبه يتصارف الناس. وفي هذا المكان «الذي لا خير فيه»، كما يقول ابن بطوطة، تبنى البيوت والمسجد من حجارة الملح، وتسقف بجلود الجمال. ومع ذلك «يُتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر» ثمناً للملح.

من تغازا يرفع الماء لدخول صحراء لا ماء فيها لعشرة أيام. وبعد هذه الأيام العشرة يريح الناس في تاسرَهْلا ويرتوون من مائها. ويذكر ابن بطوطة أن الناس «يصلحون أسقيتهم (الجلدية) ويملأونها بالماء، ويخيطون عليها التلاليس، وهي أوعية من الخوص، خوف الريح».

ومن الأمور التي كان أهل القافلة يعنون بها في اجتيازهم الصحراء التكشيف. و«التكشيف اسم لكل رجل يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيوالاتن (أي ولاطة) بكتب المسافرين إلى اصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور، ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع (قبل ولاطة). ومن لم يكن له صاحب في تلك المدينة، كتب إلى من شهر بالفضل من تجارها، فيشاركه في ذلك. وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل ولاطة بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم... والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكي. ورأيت من العجائب أن الدليل الذي

كان لنا كان أعور العين الواحدة مريض الثانية. وهو أعرف الناس بالطريق».

كان حظ قافلة ابن بطوطة جيداً. لقد دفعوا للتكشيف مائة مثقال من الذهب، لكنهم كوفئوا إذ إنهم في ليلة اليوم السابع رأوا نيران الذين خرجوا من ولّاطة للقائهم. ويقول ابن بطوطة إن هذه الصحراء كثيرة البقر الوحشية والحيات. وقد قضت القافلة شهرين بين سجلماسة وولاطة.

وكان أمام القافلة، قبل ولاطة، صحراء شديدة الحر، فكان على الناس أن يعدلوا طريقة سيرهم. يقول الرحالة: «كنا نرحل بعد صلاة العصر، ونسري الليل كله، وننزل عند الصباح، وتأتي الرجال من الجهات بأحمال الماء للبيع».

قضى ابن بطوطة خمسين يوماً في ولاطة. وقد كانت ردة الفعل عنده مختلفة بالنسبة إلى ما ناله أو رآه. فقد أطرى تكفّل السودان بحفظ أمتعة التجار التي وضعوها في رحبة. ولم يعجبه نائب السلطان في تصرفه مع التجار، ولا في الضيافة التي قدمها لهم وهي «جريش مخلوط بيسير عسل ولبن». إلا أن أهل المدينة أكرموه وأضافوه. وأعجبته ثياب أهلها المصرية، كما قال عن نسائها إن لهن الجمال الفائق، وإنهن أعظم شأناً من الرجال.

بعد ولاطة كان سير ابن بطوطة في طريق غابات وأشجار. «والمسافر في هذه البلاد»، يقول رحالتنا، «لا يحمل زاداً ولا أداماً ولا ديناراً ولا درهماً، وإنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج وبعض السلع العطرية. وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكا. فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج، ودقيق النبق والأرز ودقيق اللوبياء، فيشتري منهن ما أحب من ذلك».

ووصل ابن بطوطة إلى مالي، وقد وصف أحوال سلطانها وضيافته التافهة، وعاتبه على أنه لم يكرمه، ففعل السلطان ذلك. ومن طريف ما أورده الرحالة عن الهدايا التي تلقاها، وهي المواد المستعملة، في الأطعمة، البطيخ وبقرة وثوراً وأرزاً وغَرْتياً والغرتي ثمر كالإجاص شديد الحلاوة، يدق عظمه فيستخرج منه زيت يطبخ به وتسرج به السُرج ويقلى به اليام يام وهو الذي أكلناه في نيجيريا. بل إن أهل مالي يخلطون هذا الزيت بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير.

انحدر ابن بطوطة، مع نهر النيجر، وهو يسميه النيل خطأ، إلى تمبكتو وكَوكو في طريقه إلى مالي. وعاد رحالتنا من مالي عن طريق آخر إلى الشرق من الطريق الأول عن طريق تكدّا. وهذه تقع في منطقة معدن النحاس.

وطريق ابن بطوطة في عودته لا يختلف عن طريقه الأول في الذهاب. إنها صحار في صحار قليلة النبات قليلة المياه أو نادرتها. ومن ثم، فإنه لم يحدثنا عن دليل أو مقيل أو منتجع أو ما إلى ذلك.

هذه الصور التي نقلنا عن ابن بطوطة جميلة من حيث وصفها، دقيقة من حيث ألوانها. وأحسب أننا جميعاً يسرنا أننا لن نحتاج إلى اجتيازها على طريقته.

٤ ـ معاهد العلم الإسلامية في السودان الغربي في العصور الوسطى

١

تخترق الصحراء الكبرى القارة الافريقية من سواحل المحيط الأطلسي إلى شواطىء البحر الأحمر، (إذ إن صحراء مصر الغربية هي جزء من الصحراء الكبرى). ويبدو أن هذه الصحراء حديثة العهد نسبياً، إذ إن بدء وجودها يعود إلى قبل نحو ثمانية آلاف سنة أو يزيد قليلاً. وقد كانت إلى ذلك الوقت تصلح للرعي في أكثرها، وللزراعة في مناطق كثيرة كانت تجتازها الأنهار وتعمرها البحيرات (التي لم يبق منها سوى بحيرة تشاد). وبسبب نشوء الصحراء وجفاف الأرضين انحدر سكانها إما إلى المغرب العربي أو إلى المناطق المدارية والاستوائية وانفصل الفريقان واحدهما عن الآخر عنصرياً ولغوياً وحضارياً، فظلت المناطق الواقعة الى الجنوب من الصحراء ظلت في العصر الحجري إلى حول القرن الثالث ق.م. لما وصل الحديد إلى بعض أجزائها[1].

إلى الجنوب من الصحراء تقع المناطق السودانية وهي قسمان: الشرقي والغربي، ويفصل بينهما، على وجه التقريب، منطقة بحيرة تشاد. والسودان الغربي، وهو الذي سنعنى به في هذا البحث، يسمي الجغرافيون العرب جزأه الغربي الساحل؛ والاستعمال مجازي بالطبع. فالصحراء هي البحر الرملي الواسع، والمنطقة الممتدة من نيجيريا إلى المحيط، وهي مناطق سهوب ومراع، اعتبرت ساحلاً للبحر الرملي. أما المنطقة التي تقع إلى الجنوب من الساحل، بأوسع معاني الكلمة، فهي منطقة الغابات المدارية الكثيفة، والتي تصل إلى شواطىء المحيط الأطلسي في خليج غينيا.

كان الذهب كثيراً في المناطق المدارية من غرب افريقيا. وهذا كان يُحمل إلى «الساحل»، حيث كان نقلته يجدون الملح، وهو قليل في بلادهم، وحاجتهم إليه كبيرة. فكانوا يقايضون الملح بالذهب. والملح كان يأتي من مناطق أوّليل (على الساحل) وتغازى (في الجزء الشمالي من الصحراء) ومن غيرهما. أما الذين كانوا ينقلون الملح من هذه الأماكن إلى حيث يقايض بالذهب، فهم أهل الصحراء. وهم الذين كانوا ينقلون الذهب إلى شمال افريقيا حيث يتبادلون مع سكان موانىء تلك المناطق بالذهب حاجاتهم من الأدوات والآلات والعطور والأقمشة وما إلى ذلك. والغالب على سكان الصحراء العنصر البربري، الذي كان ينقل البضائع ويحافظ على الطرق. ويبدو أن المشاركة الأولى للبربر في هذه التجارة تعود إلى الألف الأول ق.م. ومع الزمن دخلت سلع أخرى إلى جانب الذهب كانت تُحمل من المناطق المدارية كالعاج والرقيق، كما تنوعت المتاجر التي كانت تحمل من الشمال.

ومع أن هذه التجارة ضعف أمرها بعض الشيء أيام الرومان، فإنها عادت إلى الظهور

في القرنين السادس والسابع للميلاد. ولما جاء العرب إلى الشمال الافريقي، وكان الجمل حديث عهد في تلك الديار، دفعوا به إلى الصحراء. فعادت التجارة إلى نشاطها الأول، ثم قويت واتسعت نواحيها، بحيث إنها كانت العامل الأول في قيام التكتلات السياسية في الصحراء والسودان الغربي[٢].

ويمكن إجمال الطرق التي كانت تصل بين الشمال الافريقي والسودان الغربي في مجموعات ثلاث[٣]: أولاها، الغربية، كانت المجموعة التي تربط المغرب الأقصى بافريقيا الغربية عبر نهر السنغال ومجاري نهر النيجر العليا. وثانيتها، الطرق التي كانت تصل بين الجزائر وغرب افريقيا عبر أواسط الصحراء. أما المجموعة الثالثة فهي التي كان يتبعها التجار من تونس والفزان إلى أسواق كانم وبورنو. وإنما سمينا هذه مجموعات طرق لا طرقاً، لأن كلاً منها كانت لها تفرعات وتبدلات تتوقف على الأحوال السياسية والقبلية التي كانت تقوم في مكان دون آخر، وبين وقت ووقت آخر.

وإذا نحن أمعنا النظر في خارطة افريقيا جنوب الصحراء، في الفترة السابقة لدخول العرب افريقيا، لاستطعنا أن نتقرى بضعة أمور حرية باهتمامنا وعنايتنا.

أولاً: كان ثمة نوع من الحضارة، المبنية على التعدين والصناعة والزراعة، قد أخذت بالظهور في «الساحل» (أي جنوب الصحراء مباشرة). وفي هذه المنطقة قامت دولة غانا القديمة فيما بعد.

ثانياً: إن السودان الغربي اتضحت معالمه الاجتماعية والعنصرية (القبلية). فنحن إذا اتجهنا من الغرب إلى الشرق وجدنا أهل السنغال وأهمهم التكرور وجماعة السونِنْكيين والفورما وشعب صنغاي (سنغاي) والحوسا (الخوصا) وشعوب كانم ـ بورنو ثم شعب وداي ـ دارفور.

ثالثاً: أخذت مدن صغيرة بالظهور حول المراكز التجارية، التي كانت بدورها نقاطاً على طرق التجارة الرئيسية. ونمت هذه تدريجاً فأصبحت مدناً يقيم فيها الزراع والصناع والتجار. ولما انتظمت شؤون هذه المدن وقامت فيها حكومات تدافع عن مصالحها وتجارتها، بشكل خاص، أخذت الأقوى منها توسع رقعة نفوذها على حساب الاضعف، فنشأت دول كبيرة، ثم انتهى الأمر بها أن أصبحت امبراطوريات[٤].

٢

نتناول هنا موضوع معاهد العلم الإسلامية في السودان الغربي في العصور الوسطى. ومعاهد العلم هذه قامت في مدن ارتبط قيامها وزوالها بدول نشأت في تلك المناطق. ولذلك لا بد لنا من عرض مقتضب لهذه الدول ـ الإسلامية منها وغيرها ـ تمهيداً للبحث الذي نتناوله.

ولعله من المفيد، إن لم يكن من اللازم، أن نتحدث عن انتشار الإسلام حتى بين البربر، كي نرى الدور الذي قام به هؤلاء فيما بعد في نشر الإسلام في تلك المناطق الافريقية.

لما وصل العرب إلى الشمال الافريقي، واستقروا هناك، وأقاموا لهم كيانهم السياسي، طرأت على تلك المناطق تبدلات، أهمها: أن سكان المناطق الساحلية من الشمال الافريقي أقبلوا على اعتناق الإسلام. وقد ساعد على ذلك أن أكثر العرب الذين يمموا شطر تلك الجهات استقروا في المدن الساحلية، وتزوجوا من نساء البلاد المفتوحة. والذين جاءوا فيما بعد مع أسرهم سكنوا في جوار السابقين منهم. أما سكان الجبال والصحراء الشمالية من البربر، الذين لم يغيّروا مساكنهم لأن أحداً لم يزحمهم، فقد كانوا أبطأ في اعتناق الإسلام. والذين أسلموا من البربر في الجبال والصحاري أخذ أكثرهم بمذهب الخوارج (والاباضية)، وكانوا، إلى مدة طويلة، حرباً على الحكم العربي الإسلامي.

ولما جاء بنو هلال وبنو سليم وأحلافهم إلى شمال افريقيا (أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، وكانوا بدواً، زحموا البربر في الجبال والسهول، فخرجت جماعات من هؤلاء إلى موريتانيا والصحراء الكبرى. وهذه الجماعات اشتد ضغطها على سكان الساحل (جنوب الصحراء) ـ وهو ضغط كان قائماً من قبل بسبب التجارة الصحراوية وطرقها ـ فترتب على ذلك قيام دول قوية أو تقوي دول كانت قائمة في تلك المناطق، للدفاع عن مصالحها. وقد كانت المصلحة الرئيسية لسكان السودان الغربي منع التجار الصحراويين، أياً كانوا، من الوصول الى المصادر الأصلية للذهب، إذ إنهم رغبوا في أن يظل هذا لهم وفي أيديهم. وقد نجحوا في ذلك.

إن أكبر التجمعات البربرية (عنصرياً) كانت لَوَاتة وصَنْهاجة وزَناتة، وكانت كل من هذه تضم جماعات أو عشائر صغيرة متعددة. أما صنهاجة وفروعها الرئيسية (لَمْتونة ومَسوفة وغُدالة) فقد كان لها نفوذ كبير في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) بسبب سيطرتها، ولو سيطرة جزئية، على الطرق التجارية الغربية في الصحراء الكبرى. إلا أن زناتة تقوّى نفوذها بسبب محالفتها لأمويي الأندلس. وكانت دولة غانا السودانية قد قوي نفوذها أيضاً. ومن ثم فإن لمتونة انحشرت بين زناتة في الشمال وغانا في الجنوب. لذلك فقد هاجمت لمتونة مدينة أوداغشت في القرن نفسه، لتتخذ من هذه المدينة منفذاً للتجارة مع الشمال، وتقطع على منافسيها الاتصال مع المغرب الأقصى. واستمرت سيطرة لمتونة (الصنهاجيّة) على هذه المدينة المهمة إلى أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، إذ استولت غانا عليها. وجدير بالذكر أن زعماء صنهاجة اعتنقوا الإسلام في القرن المذكور، ولعلهم أرادوا من وراء ذلك تأييد الدول الإسلامية في شمال افريقيا لهم في مشاريعهم التجارية الصحراوية.

ونحن إذا أخذنا بلاد السودان الغربي، بدءاً من حوض نهر السنغال، وجدنا أنه كان في حوض هذا النهر، دويلات عرفت أسماؤها وهي: التكرور وسيلاّ وصنغانة وقلنبوة، وإذا اخذنا برواية البكري، فإن قبيلة التكرور أسلمت في زمن وارجابي (توفي ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م). وعبارة الكبري هي: «... مدينة تكرور وأهلها سودان، وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير [الأصنام]... حتى وليهم وارجابي... فأسلم وأقام عندهم شرايع الإسلام

وحملهم عليها وحقق بصايرهم فيها. وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربع ماية. فأهل تكرور اليوم [أيام البكري حول ٤٦٠/١٠٦٧] مسلمون» ويقول البكري إن أهل سِلّى (سيلاّ) هم مسلمون أيضاً، وإنهم اسلموا على يد وارجابي نفسه. أما أهل قلنبو فهم مشركون، ومثلهم سكان زافقو.

ويهمنا بشكل خاص إسلام تكرور وسِلَّي (سيلاّ). ذلك أن دولة المرابطين قامت أصلاً في تلك المنطقة. ذلك أن عبد الله بن ياسين اتخذ لنفسه «رباطاً» في مصب نهر السنغال حيث درّب الفئات الأولى من مقاتلي المرابطين. وقد خرج من رباطه سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م وبدأ العمل، وكانت ثمرة جهده دولة المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م) والمرابطون احتلوا أُوداغُشْت (٦٤٤هـ/١٠٥٤م) وغانا العاصمة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م). لكن الدولة المرابطية الكبرى، التي كانت مدينة مراكش عاصمة لها، هي التي حكمت المغرب (الأقصى) وبعض الجزائر والأندلس.

وإنما ذكرنا المرابطين هنا لأن أبا بكر بن عمر اللمتوني (الصنهاجي) لما فتح غانا حمل حكامها على قبول الإسلام. وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عندما نتحدث عن غانا[٥].

٣

إن الدول الكبرى، والتي يسميها مؤرخو غرب افريقيا أحياناً امبراطوريات، التي قامت في السودان الغربي ـ في الرقعة الممتدة من منطقة بحيرة تشاد الى المحيط الأطلسي، وهي التي نعنى بها في هذه الدراسة، هي: غانا ومالي وسُنْغاي (صُنْغاي) وكانم ـ بورنو والحَوْصا (الحَوْسا). ذلك أن هذه الدول أو الامبراطوريات هي التي قامت فيها مجتمعات إسلامية أو ان بعضها اعتنق الإسلام رسمياً. وفي هذه المجتمعات الإسلامية قامت معاهد العلم التي نريد أن نعرض لها في هذا البحث.

غانا[٦]

قامت امبراطورية غانا في «الساحل» في منطقة تقع بين الحوض الأعلى لنهر السنغال ومجاري النيجر العليا. وكان اسمها القديم واغنده. ويبدو أن هذه الدولة الأولى أو النواة بدأ نشاطها في القرن الرابع أو الخامس للميلاد. وبسبب وقوعها على طريق تجاري كبير مهم يصل الشمال الافريقي بمناجم الذهب، فقد قويت وأثرت ومن ثم توسعت. وحول سنة ٨٠٠م كانت قد قامت فيها أسرة ملكية قوية، فرض ملوكها سلطانهم على رقعة واسعة امتدت تدريجياً إلى تيشت شمالاً، أي أنها شملت منطقة صحراوية متسعة. وفي أواخر القرن الرابع الهجري٣٦٤ العاشر الميلادي، اتخذت من أوداغشت مركزاً تجارياً مهماً. وقد ورد ذكر غانا عند عدد من جغرافيي العرب الأوائل. فالفزاري أشار إليها في كتاب السند هند الكبير الذي أعده للخليفة العباسي المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م)، وقال عنها إنها برد الذهب (وضع الفزاري هذا الزيج سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٥م). وورد ذكرها في زيج الخوارزمي، الذي ألّف بين عامي ٢٢١ و٢٣٢هـ/٨٣٦ و٨٤٧م[٨]. كما ان اليعقوبي الذي وضع تاريخه وبلدانه في أواخر

القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد). يذكر غانا على أن ملكها هو أيضاً صاحب نفوذ[٩]. وعندنا نص نقله ياقوت في معجم البلدان عن المهلبي (يعود إلى حول سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) يشير فيه إلى غانا على انها مدينة تقع الى الجنوب من المغرب (الأقصى) مصاقبة لبلاد السودان[١٠]. وأخيراً فهناك شهادة ابن حوقل الذي زار أُوْداغُشْت سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م وقال عنها إنها تبعد عن سجلماسة، متجر جنوب المغرب الأقصى، شهرين وهي: «مدينة لطيفة... ومن أُوْداغُشْت إلى غانة بضعة عشر يوماً بالمفردة... وملك أُوْداغُشْت يخالط ملك غانة، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها، بما لديه من الأموال المدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم وله... وحاجتهم إلى ملك أُوْداغُشْت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام. فإنه لا قوام لهم إلا به. وربما بلغ الحمل الملح في دواخل بلاد السودان واقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمئة دينار[١١]». والإشارتان الى الذهب والملح في غانا توضحان الدور الذي كانت تقوم به. فقد كانت الامبراطورية تجمع في مدنها المختلفة. وفي أسواقها، الذهب والرقيق والعاج وخشب الأبنوس المحمولة من بلاد السودان، ليتبادلها التجار الشماليون بما يحملون من الملح والنحاس واللؤلؤ الأزرق والجلود والتمر والأقمشة[١٢]. ولما أحس ملكغانا بالحاجة إلى السيطرة على أُوْداغُشْت احتلها (سنة ٩٩٠م)، وأقام عليها حاكماً من جماعته. وليس غريباً أن يهتم ملك غانا بأوداغشت مثل هذا الاهتمام، فإن ثروات تجارها كانت كبيرة. وقد روى ابن حوقل انه لما دخل أُوْداغُشْت رأى فيها «صكاً فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجارها وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار».

وفي سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م احتل المرابطون أُوْداغُشْت وبذلك بدأت دولة غانا تضعف. وفي سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، احتل المرابطون عاصمة غانا، وفرض المرابطون الإسلام على ملوكها.

ولعلها كانت كومبي صالح، وهذا الاحتلال كان في الواقع بدء اضطراب شؤون غانا. ومع أن غانا استردت استقلالها بعد ذلك بمدة يسيرة، فإنها لم تستطع أن تقف أمام القوى الجديدة التي أخذت تنتزع منها الأجزاء الواحد بعد الآخر. وأصابتها ثلاثة أمور قضت عليها كدولة وهي: احتلال زعيم من البولة (الفولاني) للعاصمة كومبي صالح سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م ورحيل التجار المسلمين عنها إلى ولاتة سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م،لا واحتلال مالي، وهي الدولة الجديدة التي خلفتها، لغانا سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، وتلك كانت نهايتها كدولة، ولو أن العمري يذكرها ويقول عنها إن صاحبها كان ملكاً، وذلك في سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م. ويضيف: «وأما غانة فإنه (ملك مالي) عليها إتاوة كبيرة مقررة، تحمل إليه في كل سنة»[١٣]. إلا أن غانا هنا لا تعني قط ما كانت تحكمه الدولة الغانية قبلاً، بل إنها لم تكن تزيد على رقعة محدودة تضم المدينة وما يتبعها.

وعندنا وصف لمجتمع غانا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من قلم الجغرافي البكري، سنعود إليه في وقت لاحق.

مالي (مليل)

نواة الدولة التي توسعت فيما بعد بحيث أصبحت امبراطورية قوية هي امبراطورية مالي، كانت دويلة كانغابة (اوكابا) في حوض النيجر الأعلى. وفي نهاية المطاف فإن دولة مالي هي التي خلفت دولة غانا؛ إلا أن الأخيرة كانت تقع أصلاً شمال الأولى، ومعنى هذا أن مركز السلطة انتقل جنوباً. ولعل السبب أن مناطق جمع الذهب تبدلت؛ فأصبح التبر والذهب يحملان من بوره، كما ان ما كان يمر بغانا قد تناقص كمية.

والذي عليه الباحثون هو أن أسرة كياتا، وهي الأسرة الحاكمة الأولى في طريق قيام امبراطورية مالي، يعود تاريخ ابتداء أمرها إلى القرن التاسع للميلاد. وقد أخذت سلطة الملوك تتسع، بحيث إنه في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كانت دولة ذات شأن.

وتؤكد رواية البكري أن ملكاً من مليل (مالي) اعتنق الإسلام في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ويرى دارسو تاريخ مالي أن هذا الملك هو بَرَمَندانا. وهو الذي يذكر اسمه بمناسبة ادائه فريضة الحج. (ولعله أول ملك افريقي سوداني يؤدي هذه الفريضة). على أن الإسلام لم يقبل به الشعب.

وعلى كل، فإن قيام الامبراطورية المالية وتوسعها كانا مرتبطين بتقسم امبراطورية غانا وتشرذمها. ويمكن أن نلاحظ ثلاث فترات رئيسة في تاريخ امبراطورية مالي: الدور الأول هو دور التأسيس ويمتد من ١٢٣٥الى ١٢٦٠. والشخصية الرئيسة فيه ساندِيانا (٦٢٨ ـ ٦٥٣هـ/ ١٢٣٠ ـ ١٢٥٥م)، وإليه يعود الفضل في تثبيت الحكم. أما الدور الثاني فيمتد نحو عشر سنوات عند منقلب القرن الثالث عشر الميلادي. وهو دور توسع الامبراطورية. كان ملك مالي يومها منسى سكورو وقد أصبحت مالي في أيامه عنوان القوة والسلطان، بحيث أن جميع دول السودان كانت ترهب جانبها، كما أن تجار المغرب العربي كانوا يترددون على أسواق مالي بالذات. والدور الثالث يمثله منسى موسى ومنسى سليمان. ويشغلان الفترة من أوائل القرن الرابع عشر إلى أواسطه (كان بين الرجلين لمدة ثلاث سنوات لم يكن له شأن كبير). ومنسى موسى وسع الامبراطورية أيضاً. وقد حج سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م، وزار القاهرة وترك في نفوس حكامها المماليك وسكانها أثراً كبيراً، كما أنه لفت الناس في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وفي أيام منسى سليمان زار مالي الرحالة ابن بطوطة. ولنا إلى حج منسى موسى ووصف ابن بطوطة لمالي عودة.

فتح منسى موسى أبواب مالي أمام التجار، كما أنه وثق اتصاله، عن طريق سفرائه، بالمغرب ومصر وغيرهما. وقد اصطحب، في عودته من القاهرة، جماعة من العلماء الذين استقروا في غاو وتمبكتو (وكانتا تابعتين له)، والذين يعود إليهم فضل كبير، مع العلماء المغاربة، في إحداث نهضة ثقافية في تلك الديار.

وقد ظلت مالي امبراطورية قوية إلى حول سنة ٨٠٠هـ/ ١٤٠٠م، وبعد ذلك التاريخ

أخذت الامبراطورية الواسعة تعاني من ضعف الملوك وتخاذلهم، وثورة الدويلات الخاضعة لها، وهجمات البربر من الصحراء. ومع أن تجار مالي كانوا يتنقلون من نياني (العاصمة) وولاته وتمبكتو وجني إلى الأسواق القريبة والبعيدة، فإن نفوذ مالي السياسي وقوتها العسكرية فقدا قيمتهما. وجاءت الضربة القاضية لهذه الدولة على يد سني (سن) علي الكبير منشىء امبراطورية صنغاي، الذي احتل تمبكتو وجني (١٤٦٨ و١٤٧٠ م). وبذلك زالت الامبراطورية الكبيرة.

سنغاي (صنغاي)(١٤)

كانت قبيلة سنغاي تسكن حوض النيجر على مقربة من الغابات الاستوائية. وفي القرن السابع للميلاد كانت قد امتدت مساكنها حول النيجر الأوسط، وكانت جماعات زراعية تعنى بزراعة الدخن وصيد الأسماك. ويبدو أنها أخذت في ذلك الوقت تتوحد تحت إمرة واحدة، اتخذت من غونغيا قاعدة لها. وقد ورد ذكر هذه البلدة عند الخوارزمي (في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد) كما أن اليعقوبي قال إن كاوكاو هي أكبر ممالك السودان (في القرن نفسه). وكاوكاو هذه مدينة ـ سوق قامت على مقربة من غونغيا (أو لعل الاثنتين شيء واحد) وكانت لها صلات تجارية وثيقة عبر الطرق التي كانت تربطها إلى الشمال الافريقي ومصر وكانم. ويقول المهلبي، على رواية ياقوت، إن الفئة النافذة في كاوكاو كانت مسلمة. وهذا أمر يشبه ما حدث في غانا ومالي من قبل، لأن هذه الطبقة كانت فئة التجار الآتين من الأصقاع المذكورة، وقد كانوا مسلمين. وحول سنة ١٠٠٠ للميلاد كانت أسرة «زا» صاحبة النفوذ في كاوكاو. ويبدو أن اعتناق الأسرة الحاكمة للإسلام جاء بين سنتي ٤٧١ و٤٧٥ للهجرة (١٠٧٨ و١٠٨٢ للميلاد).

وقد عثر مؤخراً على شواهد قبور قديمة في قرية سانه، على مقربة من مدينة غاو تعود إلى أواخر القرن الخامس للهجرة (القرن الحادي عشر للميلاد) مما يؤكد أن الإسلام كان قد قبله الكثيرون إضافة إلى رجال الحكم من أسرة «زا» حول سنة ١١٠٠م.

وغاو هذه كانت مدينة تجارية كبرى لها أسواقها وحكومتها منذ قبل سنة ١٠٠٠م. ومع اعتناق «زا» كوسى للإسلام، نقل العاصمة إلى غاو. وقد ظلت أسرة «زا» تتحكم في أمور سنغاي والعاصمة غاو إلى أوائل القرن الثامن للهجرة (القرن الرابع للميلاد) حين خلفتها أسرة سني (أو سن)، وهذه استمر حكمها قرناً ونصف القرن تقريباً. وفي القرن الخامس عشر أخذت أسرة سني توسع حدود أملاكها وذلك على حساب دولة مالي.

إلا أن إقامة امبراطورية سنغاي هو عمل سني علي الكبير (١٤٦٤ ــ ١٤٩٢م). فقد احتل كَمبكتو وجني، وبذلك أصبحت الدولة تسيطر على حوض النيجر الأوسط عند انحنائه الكبير، ومعنى هذا استقطابها التجار، أو أكثرهم على الأقل. فلما تولى الحكم محمد اسقيا (الكبير) سنة ١٤٩٣، كان ذلك إيذاناً بقيام أسرة جديدة هي سودانية الأصل، في الوقت الذي كانت فيه الأسرة السابقة متحدرة من جماعات الشمال، ولعلها كانت ليبية أصلاً. وامتد حكم

محمد اسقيا خمساً وثلاثين سنة وسع فيها الامبراطورية بحيث امتدت إلى المحيط الأطلسي غرباً، وإلى اغادس وكانو شرقاً، وإلى مناطق متوغلة في الصحراء شمالاً. وما لم يفتحه محمد اسقيا الكبير من مناطق التجارة احتله اسقيا داود في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

واسقيا محمد أدى فريضة الحج سنة ٩٠٢ ـ ٩٠٣ للهجرة (١٤٩٥ ـ ١٤٩٦م). وقد كان لزيارته الحجاز ومصر صدى كبير في الشرق الإسلامي.

وفي سنة ١٠٠٠٠هـ/ ١٥٩١ للميلاد أرسل المنصور السعدي، سلطان المغرب (٩٨٦ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م)، حملة إلى السودان الغربي قضت على دولة سنغاي(١٥).

وقد كان لامبراطورية سنغاي دور حضاري كبير، خصوصاً فيما يتعلق بالتعليم ومعاهده؛ وهذا سنعود إلى الحديث عنه فيما بعد.

كانم ـ بورنو(١٦)

إن مملكة أو امبراطورية، كانم ـ بورنو كانت ، بالنسبة إلى المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد، لا تقل أهمية عن امبراطوريتي غانا ومالي اللتين قامتا حول حوضي النيجر والسنغال. ويبدو أن تلك الامبراطورية التشادية بدأت معالمها تظهر حول سنة ٨٠٠م، وكانت وقتها تتخذ شكل دويلات أربع أو خمس. وقد كانت التجارة بين غرب افريقيا وشمالها ذات أهمية كبيرة، على ما كانت عليه الأمور في غانا. فحول بحيرة تشاد كانت تقوم المراكز التجارية (الأسواق الكبرى) الجنوبية للطرق الصحراوية الآتية من تونس وليبيا والآتية من أواسط حوض النيل ومصر. كما أن هذه الأسواق كانت تصلها المتاجر الآتية من جنوب نيجيريا الحالية. وقد بدأت دولة كانم المبكرة تحت سيطرة الأسرة السيفية، في أواسط القرن التاسع للميلاد. وفي أواسط القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) اعتنق الملك السيفي الإسلام. ومنذ ذلك التاريخ كان جميع ملوك السيفيين وأباطرتهم، الذين حكموا كانم ـ بورنو نحواً من ثمانية قرون، مسلمين.

أما ما يطلق عليه اسم امبراطورية كانم ـ بورنو فقد تميز تاريخها السياسي بفترتين: الأولى، بدأت قبل منتصف القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد). ذلك بأن ملوكها كانوا قد وسعوا نفوذ الامبراطورية إلى الفزان (جنوب ليبيا) واستولوا على بورنو وكانو (في نيجيريا الحالية) وإقليم ودّاي، شرق بحيرة تشاد. ومن ثم أصبح للامبراطورية ذكر مهم في أنحاء العالم الإسلامي. والملوك الذين حكموا هذه الامبراطورية فيما تبقى من القرن السابع والقسم الأكبر من القرن الثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) زادوا في رقعتها. ومع أن فترة من الاضطراب تلت ذلك، فإن الفترة الثانية، التي تبدأ في أواخر القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)، شهدت استيلاء الأباطرة على بعض ولايات الحوّصا غرباً، وتوسعاً في الشرق.

وفي العقود الأخيرة من القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر للهجرة (السادس عشر والسابع عشر للميلاد) تولى شؤون امبراطورية كانم ـ بورنو ادريس. وفي أيامه فرضت

الشريعة الإسلامية على الامبراطورية وجعلت أساساً للمعاملات والسلوك. وانتعشت الامبراطورية في أيامه. وكانت له صلات مع الدولة العثمانية بحيث إن السلطان العثماني أرسل إليه بعثة دبلوماسية رفيعة الشأن. أما تاريخ كانم ـ بورنو بعد أيام إدريس فلا يعنينا في هذا الكتاب.

دول الحَوْصا(١٧)

ظلت دول الحوصا، التي قامت في شمال نيجيريا الحالية، مستقلة واحدتها عن الأخرى، فلم تنشىء ملكاً موحداً أو امبراطورية. فقد احتفظت كل مدينة كبيرة، وكانت كانو وزاريا وكسيتنا من أكبر هذه المدن بسيطرتها على المناطق المجاورة لها. فكانت كل مدينة لها ملكها أو أميرها وسوقها للمنطقة المحيطة بها، وأسواقها التي يصلها التجار من البلاد القاصية. فكانت متاجر شمال افريقيا ومصر والسودان وغينيا تصلها ويتبادلها نقلتها في أسواقها. على انه كان بين مدن الحوصا هذه تعاون في أكثر الأوقات. وفي أسواق مدن الحوصا كان يجمع جوز الكولا من الجنوب ومنها ينقل إلى شمال افريقيا. كما أن تجار الشمال الافريقي كانوا يحملون متاجرهم إلى أسواق مدن الحوصا. فهذه المدن لم يكن خلفها مناجم ذهب، على نحو ما كان الحال في غانا ومالي وسنغاي.

وقد قامت في دلتا النيجر ومناطق الغابات الواقعة إلى الشمال والشرق والغرب منها، مجموعات من الدويلات القبلية، بلغت أشدها في القرن الخامس عشر للميلاد، وكان مصدر ثروتها التجارة البحرية التي أخذت تنمو في ذلك القرن على أيدي الأوروبيين، وبخاصة البرتغاليون، نتيجة للكشوف الجغرافية الساحلية.

يترتب علينا الآن أن نلقي نظرة عامة على السودان الغربي والدول التي قامت فيه، تمهيداً للانتقال إلى البحث في معاهد العلم الإسلامية في مدنه الكبرى.

وأول ما يجب أن نذكره هو أن الإسلام أخذ يشق طريقة إلى السودان الغربي قبل سنة ١٠٠٠ للميلاد. وبعد ذلك اعتنق عدد كبير من الملوك والأباطرة الإسلام، فأصبح دين الحاكمين، ولو أنهم لم يفرضوه على رعاياهم، وذلك باستثناء كانم ـ بورنو ومناطق معينة من بلاد الحوصا. ويمكن القول إجمالاً بأن الإسلام ظل، إلى أواخر القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد)، دين سكان المدن. أما الريف فقد احتفظ بوثنيته على وجه عام.

وبسبب انتشار الإسلام في مدن السودان الغربي قامت فيه أماكن لتعليم القرآن الكريم. وعلى سبيل المثال فقد تم ذلك في نياني (عاصمة مالي) أواخر القرن السابع للهجرة (القرن الثالث عشر للميلاد)؛ وفي تمبكتو أواخر القرن التالي. واستتبع تدريس القرآن الكريم تدريس التفسير والحديث.

وقد أمدت الشريعة الكثيرين من الحكام والملوك بالمبادىء النافعة للحكم، سواء في ذلك الامبراطورية الواسعة أو الأسواق التجارية. واعتناق تجار المدن السودانية الإسلام يسّر لهم الاتصال مع التجار المسلمين في الشمال الافريقي ومصر. وبذلك نشطت التجارة مع البلاد النائية.

وقد قامت في كثير من مدن السودان التجارية الكبرى مدينتان: الواحدة هي عاصمة الملك والثانية يقيم فيها التجار المسلمون. وقد خلّف لنا البكري أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أكثر من وصف لهذه المدن. فهو يقول عن سلّي في حوض السنغال): «وهي مدينتان على شاطىء النيل (النيجر) أيضاً[١٨]». ويقول عن غانا: «ومدينة غانة مدينتان سهليتان احداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً احدها يُجمعون فيه، ولها الأيمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة... وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين[١٩].

وقد قام أربعة من ملوك السودان الغربي بأداء فريضة الحج. كان الأول بارمندنا، سلطان مالي، الذي فعل ذلك في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد). وكان الثاني منسى أول (أو علي) الذي قام بأداء الفريضة في أيام الملك الظاهر بيبرس (حكم ٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م). وكان الثالث من الحجاج الملوك منسى موسى الذي حج في عام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م وذلك في أيام الناصر محمد بن قلاوون (حكم للمرة الثالثة ٧٠٩ ـ ٧٤١هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م). وهؤلاء كلهم من ملوك مالي. ثم جاءت حجة محمد اسقيا (الأول) امبراطور سنغاي (حكم ١٤٩٣ ـ ١٥٢٨م) التي تمت سنة ٩٠٢ ـ ٩٠٣هـ/ ١٤٩٥ ـ ١٤٩٦م. وقد كان لرحلة منسى موسى صدى كبير في العالم الإسلامي، بسبب ما حمل معه من الذهب إلى مصر والحجاز. ومع أن اسقيا محمد أخذ معه الكثير من الذهب والهدايا، فإنه لم يبلغ من الشهرة ما بلغه منسى موسى[٢٠].

وقبل أن نتابع الحديث عن دولة غانا يتوجب علينا أن نضع بين يدي القارىء ملحوظة تتعلق بعاصمتها. فالمتعارف عليه أن أول عاصمة لغانا كانت في أوكار. ولكننا لا نعرف أين تقع هذه المدينة. ثم يشير البكري إلى غانا على أنها مدينة، وقد تكون هي العاصمة. إلا أن أعمال الحفر التي تمت في كومبي صالح[٢١] أظهرت أن هذه قد تكون العاصمة. ولعل ما يقرب من الصواب هو القول بأن عاصمة دولة غانا تنقلت، على نحو ما كان يحدث في كثير من الدول في العصور الوسطى في افريقيا وغيرها، من أوكار إلى غانا إلى كومبي صالح. ولعل المدينتين الاخيرتين كانتا واحدة أو كانتا على مقربة الواحدة من الأخرى. ويرى دافدسون أن كومبي صالح كانت قد أصبحت عاصمة غانا في العقود الوسطى من القرن الحادي عشر الميلادي. وبهذه المناسبة فإن غانا كانت لقب ملوك تلك الدولة، ثم اطلق الاسم على العاصمة والدولة.

على أنه لا يجب أن يخطر على البال أن هؤلاء الأربعة وحدهم كانوا حجاج بيت الله الحرام. إننا ذكرناهم على أنهم من الملوك. أما عدد الرؤساء والزعماء والعلماء والتجار والأثرياء الذين أدوا الفريضة من أهل السودان الغربي فكبير جداً. وقد كان أثرهم في نقل الثقافة العربية الإسلامية إلى تلك الاصقاع كبيراً جداً أيضاً.

حريّ بنا، ونحن ننتقل الآن لنتحدث عن العلوم الإسلامية ومعاهدها وأصحابها في السودان الغربي، أن نذكر أنفسنا بأهمية المراكز التجارية وطرق التجارة في حفظ العلوم وإيواء العلماء، على اختلاف درجاتهم، وإتاحة المجال للطلاب أن يأخذوا العلم عنهم. ومن المهم أن نتذكر أيضاً أن الدور الأول في نشر العلم كان أمراً شخصياً، إذ كان يقوم به «المعلم» حباً بطلابه ورغبة في تعليم القوم شؤون الدين الإسلامي؛ وبخاصة بين أفراد الجوالي الإسلامية التي كانت تقيم في المدن النائية سعياً وراء الرزق. هذا كله تم، في مدن مختلفة، وفي أماكن متعددة، قبل أن يأخذ الحاكم على نفسه الإشراف على المعاهد المنتظمة.

وإذا نحن أخذنا الطريقين، الغربي والأوسط، اللذين كانا يربطان الشمال الافريقي بالمناطق الجنوبية وجدنا أن الأول، وهو المعروف بالطريق اللمتوني من المغرب الأقصى إلى حوض السنغال، كان سبيل انتقال المعلمين والمثقفين من المغرب ومن إسبانيا عبر وادي نون وأدرار، وأن الطريق الثاني قام بالدور نفسه عبر سجلماسة فالحوض فالنيجر. صحيح أن انتقال العلماء كان ينقطع أحياناً بسبب ما كان يصيب التجارة من ركود، أو طرقها من تبدل، ولكن الأمر كان يعود إلى طبيعته متى نشطت التجارة والطرق. وقد كان لولاطة دور مهم على أنها مركز للحياة العلمية الإسلامية استمر عهداً طويلاً.

ويحدثنا البكري عن أوداغشت وتجارتها وثروتها ومتاجرها ويقول: «بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون للقرآن[٢٢]»، كما يقول عن غانا (العاصمة): «المدينة التي يسكنها المسلمون... كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجمعون فيه، ولها الأيمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم[٢٣]».

وفي امبراطورية مالي كانت ثمة مراكز متعددة للعمل، وكان السودان أنفسهم يعملون أئمة في المساجد ويعلمون فيها. فديًا، في أرض ماسنّة كانت «بلد الفقهاء» ومثلها «بلد يقال له كنجور[٢٤]». وقد كانت كابر أيضاً مركزاً للعلم[٢٥]. وجدير بالذكر أن أكثر المدن أو البلدان التي اشتهرت بالعلم والعلماء والفقهاء في عصر دولة مالي، استمرت فيها بعد أيام دولة سنغاي. أما فيما يتعلق بغانا، فإن الكثير من مدنها اندثر وزال أثره، حتى أن غانا القديمة كلها اليوم جزء من الصحراء أو شبه الصحراء. وقد عُرفت نَياني، عاصمة امبراطورية مالي، بعلمائها بدءاً من أواخر القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد). وقد زارها الحسن الوزان (ليون الافريقي) في مطلع القرن السادس عشر للميلاد، وقال عنها إنها كانت فيها مساجد كثيرة ورجال دين يعنون بها ومعلمون يعلمون فيها. ولما أدى منسى موسى سلطان مالي فريضة الحج، اصطحب معه في عودته أبا إسحق الساحلي الأندلسي الأصل، وقد كان شاعراً وأديباً ومهندساً. وقد بنى قصراً ومسجداً للسلطان في عاصمة ملكه، ثم استقر في تمبكتو، وحيث استضاف ابن بطوطة في زيارته لها سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م[٢٦]. وكان السلطان منسى موسى يبعث بطلاب العلم من السودان إلى فاس ليتفقهوا هناك. وعبارة السعدي[٢٧] هي: «وهو (الفقيه القاضي كاتب موسى) من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلم العلم في دولة

أهل ملّي (مالي) بأمر السلطان العدل الحاج موسى». وكان هذا العالم من السودان، وآخر إمام منهم لجامع تمبكتو. وكان خليفته سيدي عبد الله البلبالي، من توات، وهو أول إمام من البيض، وهم الذين توالوا على إمامة الجامع، سواء في أن يكونوا من بربر الصحراء أم عرب المغرب.

اشتهرت أربع مدن على أنها مراكز الحركة العلمية في السودان الغربي. ثلاث منها كانت في حوض النيجر وهي؛ غاو وجني وتمبكتو والرابعة في نيجيريا الحالية وهي كانو.

ومع أن غاو[٢٨] يرجع تأسيسها إلى القرن الثامن للميلاد، فإنها أصبحت مركزاً مهماً لما اتخذها آل ضيا العاصمة الأولى لدولة سنغاي. وبلغت ازدهارها في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد).

وقد قال عنها حسن الوزان إنها مدينة عظيمة. وفي سنة ١٥٨٥ للميلاد أجري إحصاء لغاو فكان فيها ٧٦٢٦ داراً مبنية[٢٩]. وقدر عدد سكانها في عهد الأسقيين بنحو خمسة وسبعين ألفاً. لكن غاو، مع وجود المساجد والعلماء فيها، فإنها لم تكن دار ثقافة بالمعنى التام للكلمة[٣٠]. وجنّى التي بدأ نجمها يتألق في أواسط القرن الخامس للهجرة (القرن الحادي عشر للميلاد)، فإنها بلغت في المجال الثقافي شأواً لم يسبقها فيه سوى تمبكتو. فكان بها كثير من العلماء وطلاب العلم. ومن علماء جنّي موري ماغا، وكان يباشر التعليم بمسجدها.

بعد أن غزا المرابطون غانا في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) ضعف مركز ولاطة، وأصبحت تمبكتو «مركز الالتقاء والتبادل التجاري الأول في السودان الغربي كله». وقد تكاثر سكانها... وبنيت فيها المساجد وقصدها كثير من العلماء وتحلق حولهم العديد من طلاب العلم. فأصبحت... مركزاً ثقافياً إلى جانب كونها مركزاً تجارياً[٣١]».

أمَّ تمبكتو عدد من كبار العلماء، لا سبيل إلى ذكرهم، لذلك فإننا نحيل القارىء على السعدي في كتابه تاريخ السودان[٣٢]. ومع أن سن علي لما احتل تمبكتو وأنشأ دولة الأسكيين نكب علماءها[٣٣]، فإن ذلك كان قضية سياسية. إذ إن بعض هؤلاء العلماء كانوا من قبيلة صنهاجة أو ضالعين معها، ولم يسرهم أن يستولي اسكيا محمد على المدينة. ألا أن الأمر عاد فانتظم: «وعرفت سنغاي في أيام الاسيقيين كل المعارف التي توصل إليها العالم الإسلامي، سواء عن طريق الكتب التي كانت ترد أسواقها (وبخاصة أسواق تمبكتو) بكميات كبيرة، أم عن طريق الفقهاء التجار الذين كانوا يذهبون للتجارة، وفي الوقت نفسه يدرّسون ويعلّمون، أم عن طريق الطلاب السودانيين الذين عرفت عنهم في هذا الوقت حركة دائبة باتجاه شمال افريقيا ومصر للدراسة، وكانوا يعودون بعد انتهاء دراستهم، فيشيعون ما تلقوه من معارف في البلدان التي كانوا قصدوها للدراسة والتعلم. كما أنه أنجز الكثير في هذا الميدان عن طريق العلماء الذين كان ملوك الأسيقيين يعملون على جلبهم من مناطق العالم الإسلامي المختلفة للتدريس، ويبذلون لهم من ضروب المساعدة ما يحملهم في كثير من الأحيان على الإقامة لمدة طويلة، كما فعلوا مع المغيلي والجلال السيوطي ومع عدد آخر من علماء فاس ومراكش[٣٤]».

حفلت مدن السودان الغربي وبلدانه بالمعلمين الذين كانوا يعلمون القرآن الكريم

للمبتدئين. ومراكز التعليم كان يشرف عليها القضاة، كما أن المعلمين كانوا يلقون الاحترام والتكريم اللائقين بهم[٣٥]. هذا كان في أيام دولة الاسكيين. ولما جاءت الحملة المغربية إلى ديار النيجر، وقضت على دولة سنغاي، نكب العلماء، فقد أنزل الحكم المغربي ضربة مؤلمة بفئة محصورة ومحدودة من علماء تمبكتو شملت فقط عائلة أقيت (أكيت) الصنهاجية التي كان لرجالها سطوة ونفوذ في المجتمع السوداني، والتي اتهمت بخلق المتاعب للجيش المغربي عن طريق مداخلة قواد الأساكي وزعماء السونغاي ورؤساء عائلة الصقلي الحسنية. وقد أعدم بعض العلماء والشرفاء مع أتباعهم، ونقل أقل من مائة منهم إلى مراكش مصفدين بالسلاسل. وجمعت الكتب والتحف والودائع التي كانت تحويها دور أولئك العلماء ووجهت إلى المغرب أيضاً[٣٦].

ألا أن الحركة العلمية والثقافية عاد إليها نشاطها بعد ذلك بمدة قصيرة، «وتجدد الوجه الثقافي للسودان بعد ظهور عوامل جديدة من بينها مجيء مدرسين وعلماء من المغرب وانتقال الكتب والورق... وتوالي عودة العلماء المهجرين إلى مدينتهم بعد إخلاء سبيلهم (بعد وفاة المنصور السعدي (١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م) وكانوا قد اطلعوا على فنون جديدة وصقلت مواهبهم الأدبية والدينية[٣٧]».

ومن ثم فإن التراتيب التعليمية التي كانت معروفة أيام سنغاي عادت، وأعيد تنظيمها.

فقد كان التعليم الابتدائي أيام سنغاي يتم في المساجد والكتّاب. وإذا أخذنا تمبكتو مثلاً وجدنا أن الطالب الذي ينهي الدراسة الأولية كان ينتقل إلى جامع الونكريين حيث يمكن اعتبار الدراسة فيه من النوع الثانوي. أما في جامع السنكري فكان الطلاب يتلقون التعليم العالي: «حيث تدرس المواد في شكل اختصاص وتتناول بتفصيلات واسعة، وتناقش المسائل فيها على مستوى امهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون حتى ذلك العهد. وكان لا يجلس للتعليم في هذا النوع إلا أساتذة متضلعون قد أحاطوا بكل جزئيات المواضيع التي يدرسونها، وكان بينهم كثير من المغاربة. ومما يدل على تضلعهم، أولاً، أن أمهات الكتب التي كانت تدرس في المشرق والمغرب العربيين كانت تدرس في السودان خلال هذه الفترة أيضاً[٣٨]. وثانياً، أن الفقيه عبد الرحمن التميمي ورد من الحجاز على السودان (مع منسى موسى) وجلس في الجامع للتدريس، ولكنه ما لبث أن أدرك أن المدرسين حواليه أكثر تضلعاً منه، فرحل إلى فاس ليزداد تخصصاً، حتى يمكن أن يتصدر للتدريس بالسودان[٣٩].

وكان نظام الشهادات، أي الإجازات، معروفاً في السودان على عهد الأسكيين.

وبعد مجيء المغاربة إلى السودان، «حظي التعليم بنوع من التنظيم والعناية لم يكن يعرفهما من قبل، ولم تعد المدارس وقفاً على أبناء العلماء أنفسهم، وعلى عدد قليل من الطلبة ينفق القاضي عليهم من الوقف أو من مداخليه المحدودة؛ بل أصبح التعليم بجميع أطواره مفتوحاً أمام كل راغب في تحصيله والجلوس له. وتكفلت الإدارة المغربية بأمكنة التعليم ورجاله وبالطلبة الأغراب[٤٠]». وكانت تمبكتو، على ما رواه السعدي، تعج بالطلبة في أوائل

العهد المغربي أي في القرن العاشر للهجرة (القرن السابع عشر للميلاد)[٤١]. وأعطيت أول إجازات علمية في العهد المغربي. ويمكن إجمال نظام التعليم في السودان الغربي في تلك الأيام بما يلي:

١ ـ عند سن السابعة يدفع بالطفل إلى السيد ليعلمه القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة. وكانت الألواح الخشبية تستعمل لذلك. وكان المعلم يتلقى من طلابه «حق الأربعاء» الذي كانوا يأتون به بعد ظهر الأربعاء، وهو ودع. وقد ذكر أن المعلم تكريا حصل على ١٧٢٥ ودعة من طلابه. وهذا[٤٢] المعلم كان يعلم في الكتاب. والكتاتيب أخذت بالظهور في أواخر عهد سنغاي.

٢ ـ ظل التعليم العالي يتم في الجوامع. وكانت مساجد المدن السودانية جمعاء أماكن للتدريس على مستوى التخصص، إذا تيسر لها الأساتذة. لكن جامع سنكوري في تمبكتو أصبح، بالنسبة إلى السودان الغربي، مثل الأزهر والزيتونة والقرويين في مصر وتونس وفاس. وكان يلي جامع سنكوري جامع سيدي يحيى (وهو عالم مغربي من سوس)، ثم جامع خالد. وكان يغلب على هذا الأخير أنه للتعليم المتوسط إذا جاز التعبير.

٣ ـ وعاد العمل بالإجازات الخاصة والعامة. وقد أورد السعدي أن محمد بابا أجازه عبد الله بن أحمد بري، وهو فقيه سوداني، بالشفا للقاضي عياض السبتي والبخاري[٤٣].

٤ ـ وحري بالذكر أن الكتب أصبحت، في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، تلاقي رواجاً كبيراً. وكانت الكتب المغربية مرتفعة الأثمان. وكانت ثمة مكتبات خاصة مثل مكتبة آل أكيت (أقيت). فقد اقتنوا معظم كتبهم من الكتب التي حملها التجار أو الحجاج(٤٤). وقد قدر أحمد باب مؤلفات مكتبته الخاصة بألف وستمائة مجلد.

٥ ـ أشرنا من قبل إلى كانو على أنها مركز من مراكز العلم في تلك الديار. والواقع أن بلاد الحوصا، وكانو من أكبر مدنها، وصلتها التيارات الإسلامية مع الحجاج والتجار من شمال افريقيا والسودان الغربي وسنغاي وبورنو. وكانت كتسينا وكانو، وبخاصة الثانية، مركز العلم والتعليم. وقد نقل ترمنغهام[٤٥]، عن حوليات كانو، أنه في أيام حكم يعقوب (٨٥٦ ـ ٨٦٨هـ/ ١٤٥٢ ـ ١٤٦٣م) جاء جماعة من مالي بتعاليم التوحيد وبالنحو، أما قبل ذلك فقد كان العلم يقتصر على تعلم القرآن والفقه والحديث. وفي أيام خليفته محمد رِمفه (٨٦٨ ـ ٩٠٥/ ١٤٦٣ ـ ١٤٩٩م) ثبتت مؤسسات التعليم في كانو. وكان بين الذين جاءوا كانو المغيلي، الذي انتقل فيما بعد إلى غاو. وتلقت كانو في القرن التالي عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء، الذين علّموا ودرسوا في معاهدها. وكان الشفاء للقاضي عياض والجامع الصغير للسيوطي مما يدرس فيها.

٦ ـ بما أن الإسلام انتشر في السودان الغربي بتأثير المغرب العربي أصلاً، فإن المذهب الذي قبله السودان هو المذهب المالكي. وقد ظلوا عليه. إلا أنه في القرون الأربعة الأخيرة دخلت السودان الغربي الطريقة القادرية ثم الطريقة التجانية. وليس معنى هذا أن التصوف لم يصل تلك الديار من قبل؛ لكن التصوف المنظم هو، نسبياً، حديث العهد، إلا أنه قوي الأثر.

الهوامش

(١) راجع: E, Microp, *Africa,* and L.C. Briggs, *The Tribes of the Sahara* (Cambridge, Mass, 1960) Passim.

(٢) أبو القاسم محمد بن حوقل، **صورة الأرض** (ليدن، ١٩٣٨)، ص ١٠٠؛ أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، **وصف افريقية واسبانيا،** ترجمة فرنسية لهذا الجزء من جزيرة العرب **نزهة المشتاق** وملحق به ما جاء في **روض الفرج وأنس المهج،** عمل دوزي ودي خويه (امستردام، ١٩٦٩)، ص ٣١.

(٣) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٩٦ وما بعدها؛ Maurice Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur* (Paris: Flammarion, 1971), pp. 67-76, B; Davidson, *A History of West Africa 1000-1800,* new revised ed. (London, 1977) p. 33, and N. Levtzion, *Ancient Ghana and Mali,* (London, 1973), pp. 136- 152.

(٤) عبد الله بن عبد العزيز البكري، **كتاب المغرب في بلاد افريقيا والمغرب:** جزء من كتاب المسالك والممالك (باريس، ١٩٦٥)، ص ١٧٢ وما بعدها؛ John Spencer Trimingham, *History of Islam in West Africa* (London: oxford University Press, 1962), pp. 34ff, Levtzion, Ibid, pp. 153-170, and Davidson, Ibid, pp. 9-11, 20-22 and 28-29.

(٥) البكري، المصدر نفسه، ص١٦٣، وما بعدها: Trimingham, Ibid, pp. 16-33, Davidson, Ibid, pp, 136-138

حسن ابراهيم حسن، **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرق القارة الافريقية وغربها** (القاهرة، ١٩٥٧)، ص ٣ ــ ٩، ٤١ ــ ٥١، وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية (القاهرة، ١٩٦١)، ص ٢٩ ــ ٣٥.

(٦) البكري، المصدر نفسه، ص ١٧٤ ــ ١٨٠، حسن، المصدر نفسه، ص ٥٢ ــ ٥٩؛ «زكي، المصدر نفسه، ص ٧١ ــ ٩٣؛

Trimingham, Ibid, pp. 47-60, Levtzion, *Ancient Ghana and Mali,* Passi, Davidson, Ibid, pp. 34-45. j.Suret- Canale, *Afrique noire occidentale* (Paris, 1961), pp. 147-153, and D.T.Fage, *Introduction of the History of West Africa,* 4th ed. C.U.P. pp. 1824.

(٧) Trimingham, Ibid, p. 48

(٨) محمد بن موسى الخوارزمي، ***صورة الأرض من المدن والجبال،*** تحقيق مزك (فيينا، ١٩٢٦)، ص ٦ (رقم ٤٥).

(٩) أحمد بن اسحق اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي،** ٢ ج. (النجف، ١٣٥٨هـ)، ج ١. ص ٢١٩.

(١٠) ياقوت الحموي، **معجم البلدان،** ٨ ج (وستنفلد)، ج ٣، ص ٧٧٠.

(١١) ابن حوقل، **صورة الأرض،** ص ٩٨.

(١٢) Levtzion, Ancient Ghana and Mali, pp. 124-136, and 171-183, and Trimingham, *History of Islam in West Africa,* p. 50.

(١٣) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف** (القاهرة، ١٣١٢هـ)، ص ٢٦.

(١٤) عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين** ١٤٩٣ ــ ١٥٩١. (الجزائر، ١٩٧١)؛ حسن انتشار **الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى وشرق القارة الافريقية وغربها،** ص ٦٦ ــ ٧١؛ زكي، **تاريخ الدول الإسلامية السودانية،** ص ١٣٣ ــ ١٤٧؛

Trimingham, Ibid, pp. 83-103. Levtzion, Ibid, pp. 84-93, Suret- Canale, *Afrique noire occidentale,* pp. 27-31, and Davidson, *A History of West Africa* 1000- 1800, pp. 68-81.

(١٥) نقولا زيادة، «المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي»، في: **كتاب العيد** (بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٧)، ص ٢٩ ــ ٩٨، ومحمد الغربي، الحكم المغربي في السودان الغربي (رسالة دكتوراه دولة في التاريخ، بيروت، الجامعة اليسوعية، ١٩٨٠). مخطوطة.

(١٦) حسن، المصدر نفسه، ص ٨٣ ــ ٨٦، وزكي، المصدر نفسه، ص ١٧٣ ــ ١٨١. Trimingham, Ibid, pp. 110-126
Davidson, Ibid, pp. 97-105.

(١٧) حسن المصدر نفسه، ص ٧١ ــ ٧٤، وزكي المصدر نفسه، ص ١٩١ ــ ١٩٤. Trimingham, Ibid, pp. 126-136
Davidson, Ibid, pp. 105-112.

(١٨) البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب:** جزء من كتاب **المسالك والممالك**، ص ١٧٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٢٠) Davidson, *A History of West Africa* 1000- 1800, pp. 36-38

(٢١) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، ١٤ مج (القاهرة، ١٩١٤ ــ ١٩٢١م/ ١٣٣١ ــ ١٣٣٨هـ)، مج ٥، ص ٢٨٩ وما بعدها.

(٢٢) البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب:** جزء من كتاب المسالك والممالك، ص ١٥٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٢٤) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، تحقيق هوداس ودلافوس (باريس: المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، ١٩٦٤)، ص ١٧٩.

(٢٥) عبد الرحمن بن عمر السعدي، **تاريخ السودان**، تحقيق هوداس وبنوة (باريس: المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، ١٩٦٤)، ص ١٧.

(٢٦) محمد بن عبد الله بن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (باريس: المطبعة الوطنية، ١٨٧٤ ــ ١٨٧٩)، ج ٤، ص ٤٣٠ ــ ٤٣٢.

(٢٧) السعدي، المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٢٨) البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب:** جزء من كتاب **المسالك والممالك**، ص ١٧٩؛ الإدريسي، وصف افريقية واسبانيا، ص ١٠، وراجع عن غاو:
Levtzion, *Anceint Ghana and Mali*, pp. 120-121, 151-152, 184 ff.

(٢٩) كعت، **تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، ص ١٤٦.

(٣٠) زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين** ١٤٩٣ ــ ١٥٩١، ص ١٠٩.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٠ ــ ١٠١، كذلك انظر عن جني وتمبكتو:
Levtzion, *Ancient Ghana and Mali*, pp. 156-170.

(٣٢) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢٣ وما بعدها.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٣٤) زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين** ١٤٩٣ ــ ١٥٩١، ص ١٣٧، وبخاصة الهوامش من أجل المصادر.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٣٦) الغربي، **الحكم المغربي في السودان الغربي**، ص ٤٤٤.

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين** ١٤٩٣ ــ ١٥٩١، ص ١٤٤ (مراجع مصادره).

(٣٩) السعدي، تاريخ السودان، ص ٥١.

(٤٠) الغربي، **الحكم المغربي في السودان الغربي**، ص ٤٤٥.

(٤١) السعدي، المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٤٢) كعت، تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ص ١٨٠.

(٤٣) السعدي، المصدر نفسه، ص ٢١٧ ــ ٢١٨.

(٤٤) الغربي، **الحكم المغربي في السودان الغربي**، ص ٤٧٧، يتناول الغربي الحياة الفكرية والأدبية ونظام التعليم في السودان والمؤلفات والمؤلفين والكتب والمكتبات بتفصيل واف في الصفحات ٤٣٤ ــ ٤٧٨، كذلك راجع:
H.T. Norris, *Sanhaja Scholars of Timbucto* (BBOAS) (1967), vol, XXX, Part 3, pp. 634-640.

(٤٥) Trimingham, *History of Isiam in West Africa*, pp. 126 ff.

القسم الرابع
المغرب والسودان الغربي
في أيام المنصور الذهبي

المغرب والسودان الغربي

١ - امبراطورية سنغي

المنطقة التي تعنينا من السودان الأوسط في هذه الدراسة هي المنطقة الوسطى من حوض نهر النيجر، والتي تحيط به حول منعطفه إذ يغير اتجاهه نحو الجنوب، بعد أن يكون جريانه شمالاً. وتمتد هذه المنطقة قرابة ألف وخمسمائة من الكيلومترات يكون النهر فيها صالحاً للملاحة، وتحيط بضفتيه أماكن غنية خصبة تصلح للرعي من جهة، ويمكن أن يزرع فيها الأرز والقطن إضافة إلى حبوب منوعة من جهة أخرى. يضاف إلى ذلك أن النهر غني، في مجراه كله، بالأسماك. على أنه يجب أن نذكر أن المنطقة تنقصها الأخشاب الصالحة لصنع السفن، ومن ثم فقد كان اعتماد السكان، في استخدامهم للنهر، على قوارب صغيرة، تصنع من شجر من أنواع النخيل. في هذه المنطقة قامت، عبر العصور التاريخية، دول تعتمد القبائل المختلفة، وتتمركز نشاطاتها السياسية والاقتصادية وما إليها حول مدن أشهرها، عبر التاريخ، جنِّي وتمبكتو (أو تمبكت) وغوا ودندي.

ولسنا نعتزم أن نستعرض تاريخ المنطقة القديم، ولكننا نود أن نركز اهتمامنا حول الفترة الممتدة من أواخر القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن السادس عشر للميلاد، تمهيداً لتفهم العوامل التي حملت المنصور الذهبي، سلطان المغرب، على إرسال حملة إلى تلك الديار. على انه حري بنا أن نلفت القراء إلى بضعة أمور تمت قبل هذه الفترة، لارتباطها بما نود أن نعرضه فيما بعد.

أول هذه الأمور هو أن الكلمة سنغي (أو سونغي) استعملت للمنطقة وللقبائل التي سكنتها وللغة أو اللهجات المستعملة هناك. ومع أن المنطقة كانت أصلاً محدودة بمنعطف النيجر أو حتى بجزء منه فقط، فقد اتسع استعمالها مع اتساع الدولة بالفتح والضم[١].

وثاني ما يجب أن يذكر هو أن دولة سنغي يعود قيامها، فيما عليه الباحثون، إلى القرن السابع للميلاد. وقد تم ذلك على يد زعيم بربري هو الذي جعل كوكيا (أو كوكو) عاصمته، ثم توسعت الدولة شمالاً فصارت غوا العاصمة. وكان ذلك في أواخر القرن الرابع الهجري٣٧٩ العاشر الميلادي[٢]. والظاهر أن الإسلام كان قد وصل إلى تلك الأصقاع في وقت مبكر، ومن المؤكد أن ذلك كان قبل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[٣].

والأمر الثالث هو أن المدن التي كانت تعمر مملكة سنغي كانت، منذ القديم مراكز تجارية مهمة، يتبادل فيها سكان الشمال والجنوب والشرق والغرب متاجرهم. ولنا عودة إلى هذا الموضوع.

على أن الذي يعنينا هو التوسع الذي تم في القرن الخامس عشر والذي انتهى بقيام ما

قد يسمى امبراطورية سنغي. وقد تم ذلك أيام حكم سُنّ علي (أو شيء علي) الذي حكم البلاد من ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م إلى ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. وقد جاء حكمه وامبراطورية مالي تجتاز مرحلة انحلال وتفسخ، وقد انتزع الطوارق الملثمون منها تمبكتو. فرأى سن علي أنه باستطاعته أن يوسع رقعة حكمه، فلم يتوان. فقاد جيوشه في أكثر من معركة وغزوة، وكان النصر حليفه في الغالب. وكانت تمبكتو الهدف الأول، فاحتلها سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م. وقد وصفه محمود كعت في كتابه تاريخ الفتاش بقوله:

«وكان منصوراً وما قابل أرضاً قصده إلا خربه وما كسر له جيش كان فيه قط غالباً غير مغلوب. لم يترك بلداً ولا مدينة ولا قرية من أرض كَنت إلى شبردَك إلا وقد جرى خيله فيه وحارب أهله وغار عليهم»(٤).

ويبدو ان سنّ علي كان حانقاً على أهل تمبكتو بسبب ضلوعهم مع الطوارق أولاً، فصب عليهم جام غضبه. يقول السعدي في تاريخ السودان إنه لما احتل المدينة «عمل فيها فساداً عظيماً جسيماً كبيراً فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقاً كثيراً... فاشتغل الظالم الفاسق بقتل من بقي منهم (الفقهاء) في تمبكت وإهانتهم وزعم انهم أحباء التوارق وخاصتهم فأبغضهم لذلك»(٥).

وكانت جني الهدف الثاني. وكانت سوقاً عظيمة ومركزاً كبيراً من مراكز تجارة الصحراء. وقد دفعت عنها الكثيرين من الغزاة والفاتحين حتى جاءها سنّ علي فحاصرها طويلاً وسقطت في يده سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م. ورواية السعدي عن الفتح حرية بأن تنقل هنا. قال:

«ما غلب أحد أهلها (جني) من الملوك الا شن (سن) علي وهو الذي طوعهم وملكهم بعدما حاصرهم في تلك المدينة سبع سنين وسبعت أشهر وسبعة أيام على ما قاله أهلها، ومحلته في زبر يقاتلونهم كل يوم، حتى يدور بهم البحر فيرتحل بجيشه إلى موضع يقال له نكبة شن... فيمكثون هناك ويحرثون إلى أن ييبس الماء فيرجعون إلى زبر للمقاتلة... حتى وقعت المجاعة في أهلها ونقصت قوتهم ومع ذلك يكابرون، بحيث لم يعلم شن عن أحوالهم شيئاً. فعمل وعزم على الرجوع إلى سغي (سنغي)... فتصبر وزاد في الحرص. ثم شاور السلطان قياده وكبراء جيشه على التسليم لسن علي فوافقوه على ذلك فبعث المرسول إليه بذلك فأنعم وقبل. ثم خرج إليه مع كبراء جيشه(٦)». وترك سنّ علي سلطان جني الشاب للإشراف على المدينة، ولم يفعل بأهلها ما فعله بأهل تمبكتو.

وكان سنّ علي يشعر بالخطر الجاثم على حدوده الغربية بسبب وجود موش، وكل ما استطاع سنّ علي أن يفعله هو أن يهاجم تلك الأصقاع ويوقع بأهلها أو يدخل عاصمة الملك وينهبها (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) لكنه لم يستطع أن يضع البلاد تحت حكمه(٧).

يتضح من هذا أن سنّ علي، على اتساع فتوحه، لم يتمكن من إقامة دولة موحدة، ولا اتخذ عاصمة واحدة لهذه الامبراطورية. فقد كان يتنقل من مدينة إلى أخرى ومن بقعة إلى

أخرى مقاتلاً محارباً مغاضباً فاتحاً معاقباً أو مكافئاً. وكان يعرف أن الخطر الرئيسي على قومه هو تسرب الفلن إلى مدنه وقراه. لذلك «كل من رآه بعينه من الفلانيين إلا قتله لا عالم ولا جاهل لا رجال ولا نساء. لا يقبل للعالم منهم صرف ولا عدل. قتل قبيلة سنقر حتى ما أبقى منهم إلا طائفة يسيرة اجتمعوا كلهم في ظل شجرة واحدة[٨].

كان سنّ علي مسلماً بالاسم فقط. فلم يكن الإسلام موضع اهتمامه. ولعل تحفظه نحو الفلانيين كان يرجع إلى أن منهم علماء وفقهاء ومبشرين بالإسلام. كان العلماء في تلك الأصقاع في أيام سنّ علي بعيدين عن شؤون الدولة، وكانوا جماعة وحدهم وكثيراً ما سلقوا الحكام بألسنة حداد لتقاعسهم عن نشر الإسلام والحفاظ عليه وإكرام أهله. أما سن علي فكان يريد أن يقيم دولة بالسيف، ويريد أن يحتفظ بها على شفاره[٩]. ولعل كره سن علي للعلماء هو الذي حمل بعضهم على وصفه بشر النعوت والألقاب. لكن لا شك أن الرجل كان، في غالب تصرفاته، بطاشاً فيه من عناصر الظلم والشر الشيء الكثير.

يقول السعدي عن سن علي في مستهل الفصل الذي يؤرخ له فيه: «اما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سنّ علي برفع السين المهملة وكسر النون المشددة... فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة، ظالماً فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء. قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال[١٠]». وقال في مكان آخر: «ومن أخلاق هذا الظالم الفاسق المتلاعب بدينه... ومن أخلاقه أن يأمر بقتل إنسان ولو كان أعز الناس عنده بلا سبب ولا موجب[١١]».

توفي سن علي غرقاً على ما رواه البعض[١٢] سنة ٨٩٨هـ ـ ٣٨١ ١٤٩٣م، فتولى ابنه السلطنة. إلا أن محمد بن أبي بكر الطوري، من كبار قواد سن علي، لم يلبث أن تولى الأمر، بعد قتال شديد، وذلك في السنة نفسها (٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م)، واتخذ لنفسه سكية(أو أسكية) لقباً. وقد عدد القاضي محمود كعت في الفتاش مناقب أسكية محمد فقال:

«وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده، وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل، وكان من عقلاء الناس ودهائهم، والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته. وأبطل جميع ما عليه شي (سنّ علي) من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء. وأقام الدين أتم قيام وأطلق كل من ادعى الحرية من استرقاقهم ورد كل مال غصبه شي إلى مواليهم. وجدد الدين وأقام القضاة والأئمة. جازاه الله عن الإسلام خيراً[١٣]».

حكم أسكية الحاج محمد منذ سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م إلى سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، لما ثار عليه ابنه موسى وانتزع الحكم منه. وظل الحاج في دار السلطنة، وقد أصيب بالعمى، حتى مات موسى وجاء بعده محمد بنكان فنفى الأب إلى جزيرة في النيجر، ثم أطلق سراحه. وكانت وفاته سنة ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م.

دامت سلطنة أسكية الحاج محمد ستاً وثلاثين سنة وبعض السنة، انصرف فيها إلى تنظيم مملكته إدارياً وسياسياً وإقامتها على سنن الشريعة واتخاذ الإسلام أساساً لها والاعتماد على الفقهاء ورجال العلم. على أن السلطان لم يكتف بما آل إليه من سن علي، بل عمد هو نفسه إلى توسيع رقعة الدولة. فقد كانت له غزوات متعددة شرقاً وغرباً وجنوباً. أما في الغرب فقد فتح جملة من البلاد كانت تابعة لمالي، فتم له الاستيلاء عليها ووضعها تحت نفوذ الدولة الجديدة (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م). ثم قام بفتوح أخرى بحيث أصبحت سلطنته تمتد إلى ساحل الأطلسي تقريباً[١٤]. واهتم في حملاته شرقاً بضم أير (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠ — ١٥٠١م) والاستيلاء على أكدر (أغادز) وانتزاعها من سلطانها (٩٢١هـ/ ١٥١٥ — ١٥١٦م). وكان زميله في هذه الغزوة كنت ثم خالف عليه لأنه لم يحصل على سهمه من الغزوة، فثار واتجه جنوباً وأسس مملكة كبي المستقلة[١٥]. على أن الجنوب ظل عاصياً على أسكية الحاج محمد، ذلك بأن حملاته هناك كانت خائبة أو أنها آلت إلى فشل ذريع.

ففي سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م غزا أسكية الحاج محمد نعسَر سلطان موش ومشى معه مور صالح جور، الذي بيَّن جميع أحكام الجهاد، وطلب من الأمير أن يجعل هذه الغزوة غزوة جهاد في سبيل الله. ذلك لأن نعسر كان على الوثنية فطلب أسكية أن يكون مور صالح جور رسوله إلى نعسر يعرض عليه الدخول في الإسلام. فقبل السيد ذلك وذهب إلى سلطان موش وبلّغه الرسالة، فاستشار هذا أرواح أجداده، الذين حذروه من قبول الدعوة، فتم الاستعداد للحرب. وغزا أسكية موش «فقاتلهم وقتل رجالهم وخرب أرضهم وديارهم وسبا ذراريهم... ولم يكن في هذا الإقليم جهاد في سبيل الله إلا هذه الغزوة وحدها»[١٦]. على أن هذه الحملة لم تنته إلى احتلال للمنطقة. والحملة التي آلت إلى فشل ذريع هي الحملة على بَرك (٩١١هـ_٣٨٢ ١٥٠٥م): «فقد مات كثير من خيار الرجال وعفاريتهم حتى بكا عمر كمزاغ» أخو أسكية الحاج محمد، لكثرة من فني من سنغي[١٧].

هذا إلى غزوات أخرى كانت تنتهي بسلب أو نهب أو قتل أو تدمير، لكن لم يكن لها أثر ثابت في احتلال أو سلطان.

هذه الرقعة الواسعة نظمها أسكية الحاج محمد تنظيماً قويماً، إذ أعاد إلى الدولة، التي أصابها بعض العطب أيام سنّ علي، نظامها الإداري والمالي والحربي. وهو النظام الإداري الذي استمر حتى أواخر القرن السادس عشر. فقد كانت منطقة غوا (غاو) خاضعة لأسكية الحاج مباشرة، حيث كان غالب السكان في حال الاقنان. أما الجهات الأخرى فقد كانت إدارتها إدارة لا مركزية، تنتظم الولايات المختلفة شعوباً، يقوم على كل ولاية منها قريب لأسكية الحاج محمد أو مقرب إليه. هذا، إلى أنه احتفظ لبعض الملوك بالتبعية في ولايات أخرى. وكانت أهم الولايات دندي في أقصى الجنوب جارة سلطنة كبّي المستقلة، وبال شمال النهر، حول تمبكتو، التي كانت تسيطر على طريق القوافل الآتية من تغازى، وبنك جنوب تمبكتو، وكرمينا التي كانت اهراء الدولة بسبب خصب أرضها. يضاف إلى هذا كله عشرات

من صغار الحكام الذين قد يتبعون أصحاب النفوذ، أو يكونون مستقلين. وقد كانت العلاقات بين الموظفين متباينة إلى درجة كبيرة. أما كبار المشرفين على شؤون الدولة فكان منهم ناظر الخزانة وصاحب الجيش والمشرف على الزراعة وجامع الضرائب وناظر الغابات وصاحب الأسطول والناظر في شؤون البيض وصاحب شرطة النهر وناظر الأملاك.

كان حكم أسكية فيه من الاستبداد بالسلطة أكثر مما هو مألوف في حكومات السودان. فلم يكن حكام الولايات يتوارثون الحكم بل كان السلطان يختارهم. ومع أنه لم يكن لهم دور في الشؤون الداخلية المباشرة للحكم، فإنهم بحكم تسلطهم على وحدات من الجند قوية، كانوا عنصر اضطراب وشغب. ولم يكن في الدولة مجلس يختار السلطان عند وفاة صاحب الأمر، ومن ثم فقد كانت الاضطرابات تعقب وفاة كل أسكية[١٨].

عرضنا لغزوات أسكية الحاج محمد وإدارته لبلاده، وقد آن لنا أن نعود إلى الحاج محمد الملك المسلم لنرى ما الذي تم على يديه في هذه الناحية. وأول ما يجب أن يذكر هو أن أسكية الحاج محمد قام بفريضة الحج في عام ٩٠٢ ـ ٩٠٣هـ/ ١٤٩٦ ـ ١٤٩٨م. وقد زودنا السعدي بأخبار هذه الزيارة المباركة قال:

«وفي السنة الثانية من القرن العاشر مشى إلى الحج في شهر الصفر والله أعلم فحج بيت الله الحرام مع جماعة من أعيان كل قبيلة وفيهم ولي الله تعالى مور صالح جور رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته في الدارين.... والجند الذين ذهب بهم معه ألف وخمسمائة رجال خمسمائة فرساناً وألف رجلي منهم ابنه أسكيا موسى... وأما المال فثلاثمائة ألف ذهباً الذي أخذه عند الخطيب عمر من مال سنّ علي الذي تحت يده، وأما الذي في داره هو فقد غبر ولم ير منه شيئاً. فحج وزار وحج معه من كتب الله له ذلك من أولئك الجماعة في آخر تلك السنة وبالغ السيد المبارك مور صالح جور في الدعاء لأخيه عمر كمزاغ الذي خلفه على ملكه غاية ونهاية لأنه يحبه وينفعه ويكرمه غاية الإكرام. فتصدق الأمير في الحرمين من ذلك المال بمائة ألف ذهباً واشترى جناناً في المدينة المشرفة وحبسها على أهل التكرور وهي معروفة هنالك. وانفق بمائة ألف واشترى السلع وجميع ما يحتاج إليه بمائة ألف، ولقي في ذلك الأرض المبارك الشريف العباسي فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سنغي فرضي له بذلك وأمره أن يسلم في أمرته التي هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه في اليوم الرابع، ففعل وجعله خليفته وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحاً في الإسلام، ثم لقي كثيراً من العلماء والصالحين منهم الجلال السيوطي رحمه الله تعالى وسألهم عن أشياء من أموره فافتوه فيها وطلب منهم الدعاء فنال بركاتهم كثيراً ورجع في السنة الثالثة[١٩]».

والشريف العباسي الذي لقيه أسكية الحاج محمد في مصر هو المتوكل على الله بن المستعين الذي ولي الخلافة العباسية (في مصر) من ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م إلى ٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م والبس المتوكل أسكية الحاج محمد القلنسوة والعمامة ومنحه لقب خليفة بلاد التكرور فجعل ذلك له بين المسلمين من قومه منزلة خاصة، كما أنه كان داعياً لاندفاعه في سبيل نصرة

الإسلام. إلا أن هذا الأمر كان، على ما سنرى، سبب نقمة المنصور الذهبي على أحد خلفاء السلطان أسكية اسحق فيما بعد.

وترتب على هذا الحج أن اتصل أسكية الحاج محمد بثلاثة رجال كان لاثنين منهم أثر كبير في نفس السلطان وتصرفاته. أما الأول فهو الصقلي قريب الخليفة (ابن أخيه) الذي زار أسكية الحاج محمد في تمبكتو بعد عودته من الحج بسنوات. ولكن الرجلين الذين أثرا في الحاج نفسه فهما السيوطي العالم المصري الكبير الذي فقّه أسكية الحاج محمد في الكثير من شؤون الدين والحلال والحرام، والمغيلي. ومحمد بن عبد الكريم المغيلي تلمساني الأصل، كان فقيهاً عالماً كثير الأسفار والتنقل واعظاً خطيباً فصيحاً. وقد تراسل الحاج محمد مع المغيلي مستفسراً عن شؤون الشرع وأحكامه. على أن المغيلي رحل إلى بلاد سنغي وزار أسكية الحاج محمد سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م[٢٠].

جعل أسكية الحاج محمد الإسلام دين الدولة قاطبة، وإن لم يعرف عنه أنه اضطهد غير المسلمين في دولته أو حتى في العاصمة. وإليه يرجع الفضل في جعل تمبكتو دار علم في الإسلام. فبنى فيها جامعاً عظيماً، ثم بنى جامع سنكري في عهد أسكية داود. وكان في تمبكتو مائة وخمسون كتاباً يتعلم فيها الصغار القرآن الكريم[٢١]. وقد حفلت بالفقهاء الذين ترجم السعدي للكثيرين منهم إما نقلاً عن تكملة الديباج أو رواية عن مصادر أخرى أو اجتهاداً منه[٢٢].

على أنه يجب أن نذكر أن جنّي كانت تفوق تمبكتو كمركز علم إسلامي في بلاد التكرور، وظلت كذلك حتى خربت في أواخر القرن السادس عشر للميلاد. ويلفت ترمنغهام إلى ان أئمة الجامع الرئيسي في تمبكتو كانوا أيام سلطنة مالي من الفقهاء السودانيين ثم أخذ البيضان يحلون محلهم[٢٣].

خلف أسكية موسى أباه (٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م) لكنه لم يلبث أن دخل «في قتل اخوته فهرب كثير منهم إلى تندرم»[٢٤]. واستمرت الحروب الأهلية إلى أن قضى المنصور الذهبي سلطان المغرب على ذلك. وقد تولى السلطنة عدد من أولاد أسكية محمد وأحفاده. على أن الذين نعنى بهم في هذه الدراسة ثلاثة هم: أسكية اسحق (الأول). وهو ابن أسكية الحاج محمد، وقد حكم من ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م إلى ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م، وأسكية داود بن الحاج محمد الذي حكم من ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩مم ـ ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م، وأسكية اسحق (الثاني) بن داود الذي ولي الأمر من ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م إلى ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م[٢٥].

والذي يعنينا من أمر هؤلاء الثلاثة هو ما كان بينهم وبين ملوك السعديين المعاصرين لهم. على أننا قبل أن نفعل ذلك يترتب علينا أن نتحدث عن أمرين مهمين مرتبطين بالسياسة السعدية نحو السودان. أما أولهما فهو تجارة الصحراء، وأما ثانيهما فهو قيام الدولة السعدية في المغرب.

٢ ـ تجارة الصحراء

الحديث عن تجارة الصحراء يحملنا على بحث الموضوع من ناحيتين: أما أولاهما فمراكز الاتجار المتفرقة وطرق التجارة، واما الثانية فهي المتاجر التي كانت تحمل إلى تلك الأقطار النائية ذات العلاقة المباشرة بالموضوع.

ونحن إذا بدأنا من الشمال وجدنا أن سجلماسة كانت نقطة الانطلاق لتجارة المغرب مع بلاد السودان ـ الغربي والأوسط ـ وقد نقل أبو الفدا عن ابن سعيد أن «سجلماسة شرقي درعة وهي قاعدة ولاية مشهورة... وعليه (نهرها) البساتين الكثيرة... وعلى جميع بساتينها ونخيلها حائط يمنع غارة العرب مساحته أربعون ميلاً. وهي مدينة تلي الصحراء الفاصلة بين بلاد المغرب والسودان في جنوبيها ولا غربيها عمارة[٢٦]».

والصحراء المغربية التي تلي سجلماسة ووادي درع، والتي تمتد بين المغرب والسودان الغربي، فيها جبال ترتفع إلى نحو ٢,٠٠٠ متر، كما انها تكثر فيها الفيافي والقفار، واجتيازها صعب منهك لقوى التجار والإبل التي تجتازها، ولا شك أنه من حسن حظنا أننا نملك وثيقتين ثمينتين عن عدد من تلك المراكز التجارية التي كانت القوافل تقصدها وتستقر فيها للراحة أو لتبادل المتاجر. والوثيقة الأولى هي التي خلّفها لنا ابن بطوطة (القرن الرابع عشر)، والثانية تركها لنا ليون الافريقي (الحسن الوزان) وقد دونها في القرن السادس عشر.

والذي نلاحظه من دراسة ابن بطوطة هو أن التجارة بين المغرب والسودان كانت نشيطة وأن القوافل كانت كثيرة التنقل في تلك الأصقاع الصحراوية. كما أن قوافل الحجاج كانت تزيد هذه التجارة نشاطاً في مواسم الحج. وكانت تكدا واحداً من هذه المراكز المهمة التي كان التجار يقصدونها بحيث كانت القوافل التي تجتازها تبلغ إبلها الآلاف[٢٧]. وثمة مركز آخر هو تغازى إلى الشمال من تكدا. ولنترك الآن لابن بطوطة رسم الصورة التي رآها في تلك الأماكن.

خرج ابن بطوطة من المغرب موفداً من قبل السلطان أبي عنان المريني في زيارة ودية لملك مالي سليمان، وكان ذلك سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م. يقول ابن بطوطة:

«ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان فوصلت إلى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب... واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم، فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تغازى، وضبط اسمها بفتح التاء المثناة والغين المعجم وألف وزاي مفتوح أيضاً، وهي قرية لا خير فيها ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها، إنما هي رمل فيها معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة، الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن

انلي المجلوب من بلاد السودان، ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بأيوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً، وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به. وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر واقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذباباً ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشر لا ماء فيها إلا في النادر، ووجدنا نحن بها ماء كثيراً في غدران ابقاها المطر، ولقد وجدنا في بعض الأيام غديراً بين تلين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا والكماة بتلك الصحرا كثير... وكنا في تلك الأيام نتقدم امام القافلة فإذا وجدنا مكاناً يصلح للرعي رعينا الدواب به... وصلنا إلى تاسرهلا بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون اسقيتهم ويملؤنها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ومن هنالك يبعث التكشيف.

«والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى ايوالاتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائم بالماء مسيرة أربع، ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك، وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم، وتلك الصحراء... لا طريق يظهر بها ولا أثر إنما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالاً من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه، والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكي، ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية وهو أعرف الناس بالطريق، واكترينا التكشيف في هذه السفرة بماية مثقال من الذهب وهو من مسوفة، وفي ليلة اليوم السابع رأينا الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك. وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهي أمنة من السراق، والبقر الوحشية بها كثير يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب، لكن لحمها يولد أكله العطش فيتحاماه كثير من الناس لذلك، ومن العجائب أن هذه البقر إذا قتلت وجد في كروشها الماء، ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الذي فيه والحيات أيضاً بهذه الصحراء كثيرة... ولما وصل إلينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدنا، وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع، ثم وصلنا إلى مدينة ايوالاتن في غرة شهر ربيع الأول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسنين، وفربا بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الباء الموحدة ومعناه النائب، ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفربا وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه، بأيديهم الرماح والقسي وكبراء مسوفة من

ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم يترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم، فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض وقصدت دار ابن بدّاء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت له أن يكتري لي داراً ففعل ذلك، ثم إن مشرف ايوالاتن ويسمى منشاجو، بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم وألف وجيم مضموم وواو، استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته فأبيت من حضور ذلك فعزم الأصحاب علي أشد العزم فتوجهت فيمن توجه، ثم أتى بالضيافة وهي جريش انلي مخلوطاً بيسير عسل ولبن قد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا... وأردت أن أسافر مع حجاج ايوالاتن ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم وكانت إقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوماً... وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية، وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائهم الجمال الفائق وهن أعظم شأناً من الرجال... ولما عزمت السفر إلى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمجدّ، اكتريت دليلاً من مسوفة إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة إلا من تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من أصحابي، وتلك الطريق كثيرة الأشجار وأشجارها عارية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان، وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعض النحل والعسل فيشتاره الناس منها، ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه... وفي أشجار هذه الغابة التي بين ايوالاتن ومالي ما يشبه ثمرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها وفيها اشجار تثمر شبه الفقوص، فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأسواق، ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتي، والغرتي بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة... إذا أكلوه ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم كثير متيسر، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا، والقَرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفاف يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشاً حسناً، وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع، والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهماً إنما يحمل قطع الملح وحليّ الزجاج الذي يسميه الناس النَظْم وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بانلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفونى وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبياء

فيشتري منهن ما أحب من ذلك... وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن وصلنا إلى قرية زاغرى، وضبطها بفتح الزاي والغين المعجم وكسر الراء، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمّون ونجراتة بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والراء وألف وتاء مثناة وتاء تأنيث ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج[٢٨]».

من هناك استمر ابن بطوطة إلى مالي حيث لقي ملكها منسى سليمان. وقد أقام هناك حوالى ثمانية أشهر، ثم غادر مالي في أوائل سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م متجهاً إلى تمبكتو ماراً بزاغرى وميمة وكان له جمل يركبه لأن الخيل غالية الأثمان يساوي أحدها مائة مثقال. ووصل الرحالة إلى نهر النيجر (وهو يسميه النيل لأن هذا هو كان الرأي الشائع عن ذلك النهر) وأخيراً وصل تمبكتو.

ولنرافق الرحالة الكبير ثانية في هذه السفرة العجيبة. يقول ابن بطوطة:

«ثم رحلت إلى ميمة بكسر الميم الأول وفتح الثاني فنزلنا على آبار بخارجها ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة الثانية وواو وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكمها يسمى فربا موسى... ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن والملح وبالعطريات وبحلى الزجاج، ثم وصلت إلى بلد أنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطى أحد النزع في قوسه ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسماً، واحتجت بهذه البلدة إلى شيء من الذرة فجئت إليه وذلك يوم مولد رسول الله (ص) فسلمت عليه وسألني عن مقدمي وكان فقيه يكتب له، فأخذت لوحاً كان بين يديه وكتبت فيه يا فقيه قل لهذا الأمير أنّا نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد والسلام وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سراً ويكلم الأمير في ذلك بلسانه فقرأه جهراً وفهمه الأمير، فأخذ بيدي وأدخلني إلى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت أقرأ فيه، ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدقنو بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن وهم يشربونه عوض الماء لأنهم إن شربوا الماء خالصاً أضر بهم وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه، ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فأخذته وأردت الانصراف فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية فكلمتني بالعربي... ووادعته وانصرفت ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل والغلام الذي اعطانيه باق عندي إلى الآن، ثم سرت إلى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها واخصبها فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك بها الفقوس العناني الذي لا نظير له وتعامل اهلها في البيع والشراء بالودع وكذلك اهل مالي، واقمت بها نحو شهر واضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفاً مزّاحاً فاضلاً

وتوفي بها بعد خروجي عنها، وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان، ثم سافرت منها برسم تكدّا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجّين بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة ومعناه الذئب بلسان السودان، وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد، فلما رحلنا أول مرحلة نفقت الناقة فأخذ الحاج وجّين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله... ثم وصلنا إلى بلاد بردامة وهي قبيلة من البربر وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل وألف وميم مفتوح وتاء تأنيث، ولا تسير القوافل إلا في خفارتهم، والمرأة عندهم في ذلك أعظم شأناً من الرجل وهم رحالة لا يقيمون، وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن... وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء، واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدّا وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد على الجزولي، واضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتي وهو من الأفاضل، وأضافني جعفر بن محمد المسوفي وديار تكدّا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك، ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مداً من امدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا، وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مداً بمثقال ذهب... ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالي وايوالاتن ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكبير... ذكر معدن النحاس ومعدن النحاس بخارج تكدّا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد فيسبكونه في دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، فإذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربع ماية قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستماية وسبع ماية بمثقال وهي صرفهم يشرتون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح، ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاي وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدّا، وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب، ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب المجسدة، ويحمل النحاس أيضاً منها إلى جوجوة وبلاد المورتبين وسواها[٢٩]».

ومن تكدّا عاد ابن بطوطة إلى المغرب، وروايته عن هذا الجزء من رحلته هي:

«ولما عدت إلى تكدّا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول إلى حضرته العلية فقبّلته وامتثلته على الفور، واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث وقصدت السفر إلى توات ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدّا وتوات إنما يوجد اللحم واللبن

والسمن يشترى بالأثواب، وخرجت من تكدّا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدّا وفي الرفقة نحو ستماية خادم، فوصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركريّ وهي أرض كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحمله أهل توات إلى بلادهم، ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة أيام، ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة بها إلا أن بها الماء ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجري على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه، وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكّار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها، وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه، ولا يعترضون القوافل وإذا وجد سرّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر، وسرنا في بلاد هكّار شهراً وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فأخبرونا بأخبار بلادنا، وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات فخاف أهل القافلة من ذلك، ثم وصلنا إلى بودا بضم الباء الموحدة وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سلجمانة ولازرع بها ولا سمن ولا زيت وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب، واكل اهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ويقتاتون به ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد، وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في أواسط القعدة إلى مدينة سجلماسة وخرجت منها في ثاني ذي الحجة وذلك أوان البرد الشديد، ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة، ووصلنا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطمع فأقمت هنالك يوم الأضحى ثم خرجت فوصلت إلى حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبّلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك[٣٠]».

ونحن إذا أنعمنا النظر في هذا الذي رواه ابن بطوطة استطعنا أن نخلص إلى النتائج التالية:

١ ـ يتضح أن تكدّا كانت مركزاً كبيراً للتجارة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. ومع أن المكان نفسه لم يتفق الجغرافيون والمستكشفون والمؤرخون على مكانه، فيبدو أنه كان بين غوا واير، وانه كان على الطريق الموصل بين مصر وغرب افريقيا. فالإشارة إلى الثياب المصرية واضحة عند ابن بطوطة.

٢ ـ على أن تكّدا لم تكن تعتمد على قيمتها التجارية فحسب، بل كانت ثروتها ترتكز على مناجم النحاس أيضاً. ويتضح من إشارة ابن بطوطة ومن أمور أخرى أن نحاسها كان ينقل إلى

المغرب ومصر ومالي وبورنو.

٣ ـ المركز التجاري الآخر الذي زاره ابن بطوطة وأقام فيه وجهز نفسه قبل الخروج منه هو ايوالاتن (ولاطة). وأهمية ولاطة ترجع أصلاً إلى أنها كانت على الطريق الرئيسي بين سجلماسة ومالي، والسفر من سجلماسة إلى ولاطة، على رواية ابن بطوطة، كان يحتاج إلى شهرين. وكان التجار الآتون من المغرب متى وصلوا ولاطة شعروا أنهم اجتازوا الصحراء ووصلوا إلى ديار فيها نبات واشجار. وقد لقي ابن بطوطة تاجراً مغربياً من سلا كان قد كلفه إعداد منزل له ففعل.

٤ ـ يذكر ابن بطوطة تجاراً مغاربة كثراً في مالي، مما يدل على اتساع نطاق التجارة بين البلدين من جهة، وعلى استقرار هذه العلاقات التجارية بحيث أن التجار المغاربة استوطنوا مالي. وكان ثمة طبيب مصري في مالي[٣١].

٥ ـ يذكر أن سكان ولاطة وتغازى من قبيلة مسُّوفة. ومسوفة في الواقع كانت عشائرها تستوطن المنطقة الواسعة الممتدة من تغازى إلى ولاطة إلى غوا ثم إلى الشرق.

٦ ـ بقدر ما كانت تكدّا تعتمد على النحاس، كانت تغازى تعتمد على الملح، مع فرق كبير، وهو أن تكدا كانت مركزاً تجارياً، أما تغازى فلم تكن كذلك، وإنما كانت تعتمد على الملح فقط، وتغازى كانت المصدر الوحيد للملح في الأجزاء الداخلية وفي السودان حتى ان التبر كان فيها قناطير مقنطرة، كما يقول ابن بطوطة. وثمة فرق آخر بين تكدّا وتغازى وهو أن هذه كان استخراج الملح فيها لسكانها من بني مسوفة يقوم به العبيد، أما تكدّا فكان الخدم يقومون باستخراج النحاس مع العبيد. يضاف إلى ذلك كله ان تغازى لم يكن لها تاريخ سياسي فقد كانت بعيدة عن الأحداث العامة، حتى غيَّر لها السعديون وضعها.

٧ ـ يذكر ابن بطوطة أكثر من مرة أن قطع الملح وحلي الزجاج والسلع العطرية كانت سبل التعامل مع سكان كثير من الجهات. فكان شراء المآكل والحاجيات يدفع ثمنه من هذه الأشياء. ويشير أيضاً إلى استعمال الودع. والودع لا يزال يستعمل نقداً في بعض تلك الاصقاع. وقد كانت كل ٣٠٠ ودعة تساوي مثقالاً من الذهب في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[٣٢].

٨ ـ وسيلة النقل الرئيسة في تلك الاصقاع هو الجمل. فالخيل قليلة ولذلك فأثمانها مرتفعة.

٩ ـ لم تستَرعِ تمبكتو نظر ابن بطوطة، لا من حيث اتساعها ولا من حيث بناؤها. وليس ذلك بغريب. ذلك بأنها لم تكن قد أصبحت من المراكز الكبرى، إذ إن مالي كانت يومها صاحبة السلطان في تلك الجهات. وتمبكتو أصبحت ذات شأن بعد أن قامت امبراطورية سنغي، أي بعد القضاء على مالي. على أن ابن بطوطة لم يغفل ذكر الشاعر أبي اسحق الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن والمدفون هناك. وهو اندلسي الأصل لقيه منسى موسى في الحج فاصطحبه إلى بلاده. وقد بنى له «القبة العجيبة الصنعة البديعة النقش والتخريم التي اجازه

عليها باثني عشر ألف مثقال من التبر[٣٣]». والطويجن مدفون في تمبكتو.

١٠ ـ مع ما كانت عليه التجارة من نشاط ومع ما كان عليه التجار من التنقل من مكان إلى آخر، فإن تجارتي الملح والتبر كانتا حكراً على جماعات معينة. فأهل تغازى يحمل إليهم التبر ليحمل الملح من عندهم مقابله، وأهل مالي وما إليها يحملون تبرهم دون أن يطلعوا أحداً على مصدره. وهاتان البضاعتان تمثلان إلى درجة كبيرة المقايضة أكثر مما تمثلان بيعاً وشراء بالنقد والعملة، وارتباط هاتين السلعتين واحدتهما بالأخرى كبير. ذلك بأن تجار الذهب (في ونغره مثلاً) ما كانوا يقبلون سوى الملح بديلاً عن ذهبهم. ولما كان تجار سجلماسة ذوي علاقة تجارية كبيرة مع أهل الذهب، فقد كان ملح تغازى سلعة مهمة في نظر هؤلاء التجار. فسجلماسة كانت واحدة من هذه الحلقات التجارية في سلسلة التبادل التجاري بين التبر والملح.

وقبل أن ننتقل إلى ليو الافريقي لنرى ما آل إليه الأمر من أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أي بعد قرابة قرنين من زيارة ابن بطوطة لتلك الديار. نود أن نشير إلى المراكز التجارية الأخرى، الصحراوية والسودانية، محاولة لإكمال الصورة. فهناك تدمكا التي كانت تقع في منطقة ادرار، والتي كانت مهمة إلى حد أن أطلق عليها اسم السوق، وآثارها اليوم تعرف بهذه الاسم[٣٤]. وهناك غوا التي أعجبت ابن بطوطة حيث استضافه تاجر مكناسي وآخر تازي وفقيه فيلالي[٣٥].

على أنه إضافة إلى المراكز التجارية التي ذكرها ابن بطوطة، يجب أن نشير إلى المدن التي كانت واقعة على نهر النيجر جنوب تمبكتو وجنوبها الشرقي وهي جنّي التي كانت تفيد من نحاس تكدا وملح تغازى[٣٦]، وغوا وكانو إلى الشرق.

في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي زار ليو الافريقي ـ الحسن الوزاني الفاسي ـ مناطق السودان المحيطة بانحناءة النيجر، وترك لنا، في كتابه «تاريخ افريقيا ووصفها»، فصولاً قيمة عن تلك الأصقاع. وجدير بالذكر أنه لما وصل ليو إلى تلك البلاد كان تاريخها السياسي قد تبدل كثيراً. فمملكة مالي، التي كانت أقوى سلطنات السودان الغربي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، كانت قد زالت، وكانت السيادة والنفوذ قد انتقلا إلى امبراطورية سنغي بعد فتوحات أسكية، وأصبحت تمبكتو عاصمة ملكه. وبذلك تحول مركز الثقل التجاري والاقتصادي إلى انحناءة النيجر، وإلى تمبكتو على التخصيص.

ولنعد الآن إلى ليو الافريقي وإلى ما أورده عن مراكز التجارة المختلفة لنرى التطور الذي اصاب الطرق والمتاجر بين أيام ابن بطوطة وأيامه. وقد ذهب ليو [ليون] إلى تلك الجهات في رفقة عمه الذي انتبده مولاي محمد القايم ليتولى رئاسة بعثة إلى سنغي. وليس ثمة من شك في أن ليون وعمه سلكا طريق سجلماسة وتغازى إلى تمبكتو، لكن طريق العودة ليست واضحة، وإن كان هناك ما يرجح أن الرحالتين عادا بطريق أغادز وتوات. بل ثمة ما قد

يحمل على الظن بأن ليون زار السودان مرتين[٣٧].

انطلقت البعثة من سجلماسة، التي كانت لا تزال نقطة البدء في طرق القوافل، إلا أن هذه المدينة كانت قد تهدمت وتأخرت خلال الفترة التي فصلت ابن بطوطة عن ليون، لذلك يقول عنها إنها كانت من قبل غنية وتجارتها مع بلاد السودان، رائجة، على ما يبدو من آثار العمران فيها، الا انها عادت القهقرى[٣٨].

ومن سجلماسة انتقلت الجماعة إلى تغازى التي كانت في أيامه، كما كانت أيام ابن بطوطة، مركزاً لاستخراج الملح، وكان قطع الملح يقوم به عبيد غرباء عن المنطقة لمصلحة جماعة من مسفيوه (مسُوفة) وتحمله القوافل الى تمبكتو وغيرها من مراكز الاتجار، وليس في تغازى من المآكل الا ما يحمله اليها التجار من أماكن نائية قد تحتاج القوافل إلى عشرين يوماً لقطعها. وقد تتأخر الحاجيات على القوم الساكنين في تغازى فيقضي بعضهم جوعاً[٣٩]. ولذلك لم يكن غريباً أن يسر ليون ومرافقوه لأنهم غادروا ذلك المكان إلى ايوالاتن (ولاطة) التي يسميها غوالاطة. ويلاحظ الرحالة ان التجار أخذوا يتنكبون الطرق القديمة ويتجهون إلى تمبكتو وغوا أكبر مدينتين في مملكة سنغي[٤٠]. فإذا وصل ليو تمبكتو أخذ يحدثنا عن بساطة المنازل فيها واتضاع مبانيها باستثناء المسجد الذي بناه الساحلي الطويجن لمنسى موسى. وفي تمبكتو نجد الحوانيت التي تباع فيها الأقمشة الكتانية والقطنية التي يحملها التجار المغاربة من أوروبا[٤١]. ويذكرنا بأن التجار الغرباء كانوا على جانب كبير من الثراء، حتى أن السلطان لم يمتنع أن يزوج ابنتيه من تاجرين ثريين[٤٢]. والبلد كثير الماشية والحليب والزبد والحبوب، لكن الملح نادر فيه، إذ إنه يحمل إليه من تغازى. وقد شاهد ليو بنفسه حملاً من الملح يباع بما يساوي ثمانين دوقة[٤٣]. وكانت تمبكتو في أيامه تزخر بالعلماء والفقهاء والمحدثين، وكانت الكتب تحمل إليها من الشمال وتباع بأسعار مرتفعة[٤٤]. ويتعامل أهل تمبكتو، على ما يخبرنا ليون، بقطع الذهب غير المدموغة وبالودع الذي كانت كل أربعمائة منها تساوي دوقة واحدة[٤٥].

في كبرا ركب ليو [ليون] ورفاقه القوارب مصعدين في النيجر إلى جني ونياني. وقد لفته ثراء التجار في جنّي حيث يتجمع السودان لابتياع حاجتهم من القماش والأوعية النحاسية والسلاح، المحمولة كلها من المغرب وأوروبا وذلك مقايضة بالقطن الذي ينمو هناك أو يقبضون الثمن ذهباً غير مدموغ. وتستعمل النقود الحديدية في المعاملات البسيطة، والبلد غني بالشعير والأرز والماشية والسمك والقطن، لكنه خال من الفواكه باستثناء التمر الذي ينقله التجار إليه من ولاطة[٤٦]. وقد لقي ليو بجني الكثيرين من أهل العلم والمعرفة[٤٧].

ومن جني اتجه شرقاً مع نهر النيجر إلى غوا عاصمة مملكة سنغي. ويقول ان تجار السودان كانوا يذهبون إلى هذه المدينة ليمتاروا ما يحتاجون إليه من الأقمشة الأوروبية التي كان يحملها إليها التجار المغاربة. والمدينة كانت غنية بالحبوب واللحوم، لكن الأشجار والخمور والفواكه فيها معدومة، باستثناء البطيخ والليمون الحامض، والقطن كثير[٤٨]. ويشير ليو إلى

سوق الرقيق في غوا ويقدر ثمن الولد من سن الخامسة عشر بنحو ست دوقات[٤٩]. وما أكثر المتاجر الغالية التي تصل هذه المدينة كالخيل؛ والحصان الذي يباع في أوروبا بعشر دوقات ويبلغ ثمنه هناك أربعين دوقة وقد يصل إلى الخمسين. والقماش الأوروبي الخشن يباع الذراع منه بأربع دوقات، لكن القوم لا يمتنعون عن دفع خمس عشرة دوقة للذراع الواحد إذا كان من القماش الناعم. أما القماش البندقي القرمزي فإن ثمن الذراع الواحد منه يبلغ نحو ثلاثين دوقة، ومثله القماش التركي. وفي أسواق غوا يجد الواحد السيوف والمهامير والأرسان والبهارات. ولكن أغلى أنواع المتاجر هو الملح[٥٠]. وينقل بوفيل عن الترجمة الفرنسية لكتاب ليو قوله: إن الذهب كان كثيراً في غوا إلى حد أنه لم يكن ثمة من يشتريه دوماً[٥١]. ومن غوا اتجه ليون شرقاً فزار زمفرا وكتسينا وكانو وزاريه وبرنو ثم عاد إلى الشمال بطريق توات.

حري بنا أن ندون بعض الملاحظات عن تجارة تلك الأصقاع في الوقت الذي زارها فيه ليو الافريقي:

١ ـ يبدو أن تجارة السودان كانت ذات أثر كبير في تجارة المغرب العربي، وأن المدن الساحلية كلها من المحيط الأطلسي إلى طرابلس الغرب كانت مراكز لتجارة واسعة النطاق تصل بين أوروبا والسودان.

٢ ـ على أن الاتصال التجاري المباشر مع السودان لم يكن يتم عن طريق هذه الموانىء. ذلك بأن أهل المدن الداخلية كانوا يحولون دون أهل السواحل والتغلغل إلى الداخل. ومن ثم فإن المبادرة التجارية كانت بأيدي تجار فاس وسجلماسة وتلمسان وورغلة وغامس وما إليها. فتجار الساحل كانوا يحملون المتاجر الأوروبية من الموانىء إلى هذه المركز التي كانت تكوّن الخط الداخلي للاتجار.

٣ ـ يظهر أن البضائع التي كانت تصل إلى السودان من الشمال هي الأقمشة المستوردة من أوروبا والثياب والأوعية النحاسية والخيول والكتب والسكر.

٤ ـ كان السودان يقدم متاجره إلى زواره من الشمال وفي مقدمتها الذهب والغالية وقط الغالية والرقيق والقطن.

٥ ـ كان التعامل التجاري بالودع والتبر والذهب غير المدموغ.

٦ ـ يظل الملح أهم المتاجر بالنسبة إلى جميع السكان.

وجدير بنا أن نشير هنا إلى تغازى إشارة خاصة لأنها كانت أحد العوامل التي أثارت الحرب بين السعديين وملوك سنغي. فقد مر بنا أن تغازى كانت المصدر الأولي للملح، ولم تكن تدخل في ملك أحد حتى ضمها أسكية محمد إلى ملكه الذي أصبح يمتد، على حد تعبير السعدي «من أرض كنت إلى البحر المالح في المغرب واحوازهما، ومن حد أرض بندك إلى تغاز واحوازها». وبذلك أصبحت تجارة الملح تحت نفوذ سنغي مباشرة. ولم يرق هذا لمحمد الشيخ السعدي؛ إلا أن انشغاله بالحروب الداخلية أخره عن العمل هناك. فلما استتب له أمر المغرب الأوسط بعث إلى أسكية اسحق يطلب منه التخلي عن تغازى على اعتبار انها أقرب إلى المغرب

منها إلى السودان. فكان جواب أسكية الحاج أن بعث بنحو ألفين من المقاتلة «التوارق وأمرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة إلى جهة مراكش بلا إخراج روح أحد فيرجعون على أثرهم. فغاروا على سوق بني أصبح... فأكلوا جميع ما وجدوا في ذلك السوق من الأموال، فرجعوا كما أمرهم وما قتلوا أحداً. وما ذلك إلا ليرى السلطان... المذكور قوته»(٥٢). فانتقم محمد الشيخ بأن أوعز إلى الفلالي الزبيري أن يقتل خديم أسكية داود، خليفة أسكية اسحق، في تغازى، فقتله مع الطوارق الذين كانوا يرفدون الملح له(٥٣).

وترتب على ذلك أن صرف النظر عن استخراج الملح من تغازى، لكن أولئك الذين كانوا يمتارون الملح من ذلك المصدر استأذنوا السلطان السنغي في أن يرفدوا الملح من مكان آخر وهو تغازى الغزلان فأذن لهم(٥٤). وتغازى الغزلان هذه تقع على نحو ١٥٠ كيلومتراً جنوب تغازى الأولى، وهي التي عرفت فيما بعد باسم تاوديني(٥٥). وقد لخص الفشتالي هذه القضية بقوله: «إعلم أن تغازى هي بلد تتوسط القفر بين المغرب وبلاد السودان. كانت في القديم من ممالك سكية وأعماله وبها معدن الملح الذي تمتاز منه سائر بلاد السودان. ثم لما أجلب الإمام محمد الشيخ على تغازى انتزعها من يد سكية واستضافها للمغرب وعقد عليها لرجاله. ثم رأى أن يتجافى عن بعض خراجها لسكية فكان سكية يبعث من يحمل له نصابه من الخراج دون أن يكون له قبض ولا بسط في أحكام البلد والمدن»(٥٦).

٣ـ قيام الدولة السعدية(٥٧)

كانت الدولة الوطاسية قد ضعف أمرها في المغرب في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ففي الجنوب فوضى لا ضابط لها، وفي بعض مدن المغرب الشمالي والأوسط من الوطاسيين أمراء، والساحل أكثر مدنه كانت بأيدي البرتغاليين الذين تمكنوا في سبتة وطنجة وأصيلا وانفه ومزاغان وآسفي، وكانوا قد أقاموا في فونتي (أغادير) ميناء وحصناً لهم. ويبدو أن السوس وأهله نالهم من الفوضى ومن تقدم البرتغاليين شر كثير. لذلك تنادى بعض من له كلمة مسموعة منهم إلى وجوب القيام بعمل يدفع عنهم الأذى. فعرضوا على الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الآفاوي أن يتولى أمرهم فيعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه. فامتنع لأنه لم يرد أن يخلط السياسة بأمور دينه، ودلهم على رجل فاضل من الأشراف هو محمد بن عبد الرحمن. فلما طلبوا ذلك منه قبل، وتولى أمرهم سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠ ـ ١٥١١م. فكان محمد الذي تلقب بالقائم، أول السعديين وظلت إمارته فيهم إلى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وهكذا نرى أن هذه الدولة قامت، من أول الأمر، بتأييد من زعيم صوفي كبير. فابن المبارك كان جزولياً. وهذه ظاهرة حرية بالاهتمام لمن يدرس تاريخ المغرب.

استقر القائم في تيدسي، وأخذ يجمع الشمل وينظم الأمور، ويقارع البرتغاليين، يساعده في ذلك ولداه أحمد الأعرج ومحمد الشيخ. فلما توفي القائم خلفه أحمد، وكان أبوه قد جعله ولي عهده. واتخذ أحمد من أخيه محمد مشيراً ووزيراً. وكانت للاثنين همة وقوة ونشاط، وكان اجتماع الرأي عندهما خيراً وبركة على البلاد. فاحتل الأعرج الجنوب المغربي وضم مراكش

الحمراء، عاصمته، إليه (٩٣٩هـ/ ١٥٣٢ ـ ١٥٣٣م).

لكن لم تلبث أن دخلت النفرة قلوب الأخوين. وفرق بينهما الوشاة، وانتهى الأمر بينهما إلى المصافة والمقاتلة، وانقسم الجند حزبين. واستفحل أمر محمد الشيخ بمساعدة أهل السوس، وانتصر على أخيه، فوضعه تحت الحراسة البيتية، وأصبح محمد الشيخ ملكاً مستقلاً (٩٤٨هـ/ ١٥٤١م ـ ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م).

انصرف السلطان الجديد إلى مقارعة البرتغاليين من جديد، فاحتل حصني فونتي وآزمور وأقصى العدو عن تلك الجهات. وكان البرتغاليون قد أخذ اهتمامهم بتلك المنطقة يتناقص بعد أن صرفوا همهم إلى الهند والبرازيل، لذلك تخلوا عن بعض الموانىء المغربية الأخرى مثل آسفي واصيلا. فاعتبر ذلك «من سعد محمد الشيخ وبخته»، على ما يقول ابن القاضي. وخطط محمد الشيخ حصن أغادير، حيث كان حصن فونتي البرتغالي، وكان في نظرته إلى ذلك موفقاً.

ثم اهتم محمد الشيخ بفلول الوطاسيين ومؤيديهم. وكانت فاس مركز الثقل في حياتهم، حيث كان يقيم بو حسون الوطاسي. فقصدها السلطان محمد وحاصرها واحتلها. لكن الوطاسي فر إلى الجزائر، وظل هناك حتى حصل على نجدة تركية جاءت معه إلى فاس وأعانته على احتلالها. إلا أن محمد الشيخ كان أقدر على الحصول على العون المحلي، فاسترد فاس من الوطاسيين نهائياً سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م.

ومع أن محمد الشيخ احتل فاس، فقد احتفظ بمراكش عاصمة لدولته. ولعل السبب الأصلي في ذلك هو هذه الصلات الوثيقة التي أقامها محمد الشيخ مع أهل الجنوب المغربي طوال حياته، مع أن فاس كانت تعجبه حضارتها وتسره بما فيها من خفض عيش. فقد نقل الناصري عن قدامى المؤرخين قولهم: «ولم يزل السلطان أبو عبد الله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الاقامة بفاس».

هذه الخصومة بين السعديين والأتراك استمرت مدة طويلة. وحريٌّ بالذكر أن الشاذلية كانت تؤيد السعديين في هذه الخصومة، كما كان العسكر الوطاسي التركي يضمن تأييد القادرية.

وإذاً فقد تولى شؤون المغرب من الدولة السعدية إلى نهاية حكم محمد الشيخ ثلاثة: القائم وأحمد الأعرج ومحمد الشيخ. وخلف الأخير ثلاثة إلى أن ولي الأمر المنصور الذهبي. ويمكن إجمال الأحداث والتطورات في عهد هؤلاء الثلاثة بما يلي:

(١) ظلت شواطىء المغرب الشمالية والشمالية الغربية موضع نزاع ومنافسة بين الاسبان والعثمانيين. كما كان للبرتغال، وقد تولى أمرهم سبستيان (٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م ـ ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، رغبة في استعادة نفوذهم هناك، إذ إن آمالهم في الهند والبرازيل قد خابت. وكان الغالب بالله يخشى الترك كثيراً، بعد استيلائهم على الجزائر وتدخلهم في شؤون المغرب الداخلية. وعملاً بسنَّة السياسة التي قد تجيز كل شيء، فقد استعدى الغالب الاسبان على الأتراك.

(٢) اهتم الغالب بالله بتقوية التجارة الخارجية، خصوصاً مع انكلترا. فشجع ذلك تجار تلك البلاد على زيارة الموانىء المغربية.

(٣) حاول إخراج البرتغال من البريغة (الجديدة)، لكن الحصار لم ينته إلى شيء.

(٤) احتل الغالب بالله شفشاون في الشمال، وبذلك تقدم خطوة أخرى في سبيل توحيد المغرب.

(٥) زين مراكش العاصمة فبنى فيها جامع المواسين والمارستان الجديد وجدد بعض مدارسها. كما انه بنى قنطرتين الواحدة على نهر سبو والثانية على وادي الربيع.

(٦) سار الغالب بالله على خطة أبيه في مقاومة القادرية، مع انه كان يعظم العلماء ويحترم الصلحاء. لكن المقاومة كان أساسها سياسياً، لأن القادرية كانوا يؤيدون الدولة العثمانية. وقد ظهرت في أيامه فئة الشرّاقة، وهم فرع من اليوسفية، إلا أنهم أساءوا التصرف، وأحدثوا فتنة في البلاد، فقاومهم حفاظاً على الأمن.

اما خليفته فقد كان ابنه محمد بن عبد الله المتوكل. وقد كانت أيامه قصيرة، وشغب عليه عماه (أخوا الغالب) أحمد وأبو مروان، وكانا قد ذهبا إلى القسطنطينية ودخلا في خدمة السلطان العثماني. وصحبا الحملة التركية إلى تونس، ورجوا السلطان أن يمدهما بالجند من الجزائر لاسترداد ملك أبيهما الذي غصبه، فيما قالا، ابن أخيهما. ولعل السلطان العثماني أحب أن يجرب فتح المغرب وضمه إلى بقية الشمال الافريقي فأعانهما. وتغلبا على المتوكل الذي شرد من مكان إلى آخر، وتولى أبو مروان الأمر.

كانت دولة البرتغال قد وسعت نطاق نشاطها في الخارج ـ في الهند والبرازيل ـ نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والعالم الجديد، بحيث إن يوحنا الثالث، ملك البرتغال (٩٢١هـ/ ١٥٢١م ـ ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م) تخلى عن المناطق التي كانت بلاده قد احتلتها على شاطىء المغرب لانصرافه إلى العمل البعيد. لكن يوحنا أخفقت سياسته في تلك الانحاء النائية، وتوفي وفي نفسه حسرة. وخلفه على العرش سبستيان (٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م ـ ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، الذي أراد أن يعيد أمجاد أسلافه في المغرب، فكان يرنو إلى تلك البلاد بنظره، دون أن يقوم بأي عمل.

وحدث في ذلك الوقت أن وقع الخصام على العرش المغربي بين محمد بن عبد الله، وبين عمه أبي مروان. فوقعت الحرب، واستنجد الثاني بجند من الأتراك نصروه على ابن أخيه وانتهى الأمر بهزيمة محمد بن عبد الله وتنقل هذا من مكان إلى آخر في المغرب، حتى انتهى به الأمر إلى طنجة (٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م). ومن هناك خطر له ان يستعين بسبستيان على عمه. ولقيت الصرخة هوى في نفس ملك البرتغال فلبى النداء، رغبة منه في أن يحقق أطماعه، ويعيد بناء أمجاد دولته.

فخرج في صيف ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م من البرتغال واحتل طنجة وأصيلا دون صعوبة، واقترب من القصر الكبير. والجيش الذي كان يقوده سبستيان اختلف المؤرخون في عدده.

فقدّره بعضهم بمائة وعشرين ألفاً، وقدره البعض الآخر بثمانين ألفاً، وروى فريق آخر بأنه كان نحو عشرين ألفاً فقط. ومهما يكن العدد، ولعله كان كثيراً بالنسبة إلى جيش المغرب، فإن الجنود كانوا خليطاً من البرتغاليين والاسبان والايطاليين والألمان، أي إن الجيش كان فيه الكثير من المرتزقة. وكان معه فئة صغيرة من المغاربة الذين رافقوا السلطان ابن عبد الله، ولم يكن بين الجيش من الفرسان عدد يستحق الذكر. ثم إن الجيش لم يكن يعرف أرض المغرب، ولا كان ضباطه يعرفونها. والصيف حار، والقتال يقتضي الكثير من العدة، وكل ما كان مع الجيش ستة وثلاثون مدفعاً، وإن كان لدى الجيش الكثير من البارود والسلاح.

أما جيش أبي مروان فقد جمعه السلطان من أنحاء المغرب وقد استحث المدن والقبائل على نصرته دفاعاً عن الوطن والأهل والولد. فكانت الاستجابة كبيرة. فقد تقدم أبو مروان على رأس أربعين ألفاً، عدتهم في الدرجة الأولى حماسة واندفاع في سبيل النصر. وكان معهم على ما يظهر نحو ٣٤ مدفعاً.

ولما وصل البرتغاليون إلى القصر خاف سكان المدينة، وهمَّ بعضهم بالفرار، لكن الشيخ أبا المحاسن يوسف الفاسي شجع الناس على البقاء، وقال لهم إن النصر للسلطان فليثبتوا في مكانهم. فكان لكلماته أثر كبير في ذلك فانقادوا إلى نصحه وثبتوا في أماكنهم.

ودارت بين أبي مروان وسبستيان مراسلات. فقد كتب الأول إلى الثاني طالباً منه أن يثبت حتى يقدم عليه. ويبدو أن المؤن لم تكن تكفي جيش البرتغال، فاستشار سبستيان رجاله في الأمر، فأشار بعضهم بأن يسارع إلى احتلال تطاوين والعرائش والقصر، فيتقوى جيشه بالعدة والذخائر والمؤن. ولكن الوقت فات. فإن السلطان أبا مروان وصل إلى مكان قريب، وكانت المعركة على وشك الابتداء.

تحدى السلطان سبستيان أن يتقدم بجنده، فوقع هذا في الشرك، إذ تقدم إلى موضع يقال له تاهدارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة، ثم إنه عبر الوادي، وكانت هذه غلطته الكبرى، إذ أصبح الوادي خلفه، وفيه ماء ووحل، وليس يجتازه الناس إلا على قنطرة هي التي عبرها سبستيان وجنده. فوجه السلطان عندئذ كتيبة من جيشه، دارت دورة بعيدة، حتى وصلت القنطرة فهدمتها. وكانت هذه أولى خطوات النصر.

زحف أبو مروان بجيوشه المغربية، وانضاف إليه من المتطوعة يومها كثيرون ممن رغبوا في الأجر، وطمعوا في الشهادة. وكان ممن أبلى بلاء حسناً أبو المحاسن يوسف الفاسي، الذي ترأس الميسرة، فثبت أقدام الناس هنا كما ثبت جأشهم في مدينة القصر الكبير. التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم إلى بعض وحمي الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على قدم وساق: «ولم يزل الحال على ذلك، والناس في المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب والاصطلاء بنار الطعان واحتساء كؤوس الحمام إلى أن هبت على المغاربة ريح النصر، وساعدهم القدر، واثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر، فولى البرتغاليون الأدبار، ودارت عليهم دائرة البوار، وحكمت السيوف في رقابهم ففروا ولات حين فرار، وقتل الطاغية سبستيان

غريقاً في الوادي، وقصد الجند القنطرة فلم يجدوا الا آثارها، فتهافتوا في النهر، فكان ذلك أكبر الأسباب في انه لم ينج منهم الا عدد نزر وشرذمة قليلة».

وبحث في القتلى فكان بينهم ابن عبد الله، الذي استنجد بالبرتغال، إذ غرق في الوادي، فقد فر من المعركة ناجياً بنفسه، فتورط في غدير منه وغرق ومات. وممن قتل في هذه المعركة محمد بن عسر الشفشاوني صاحب الدوحة، وكان في جماعة ابن عبد الله.

وحدث أيضاً ان السلطان أبا مروان كان مريضاً يوم دخل المعركة، وكان يقاد به في محفة. فكان من قضاء الله السابق أن توفي السلطان ولم يطلع على وفاته إلا حاجبه رضوان العلج وأخوه وخليفته أبو العباس. فكتمها الاثنان، وصار رضوان يختلف إلى الأجناد ويقول: «يأمر السلطان فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً أن يلزم الراية، وفلاناً يتقدم، وفلاناً يتأخر».

وحصل المغاربة على غنيمة كبيرة. لكن وفاة السلطان قبل الهزيمة واشتغال أخيه وخليفته بجمع الكلمة: «حالا دون تقسيمها على الوجه المشروع فانتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوي». كانت المعركة في يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ٩٨٦ (٤ آب/ اغسطس ١٥٧٨). وتعرف المعركة عند مؤرخي الافرنج باسم معركة الملوك الثلاثة الذين توفاهم الله فيها وهم أبو مروان وابن أخيه ابن عبد الله وسبستيان.

وتولى عرش المغرب بعد ذلك أبو العباس أحمد المنصور.

بويع أبو العباس أحمد المنصور بوادي المخازن، واجتمع عليه من حضر هناك من أهل الحل والعقد، ثم لما قفل من غزواته ودخل فاس جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن. ثم بعث إلى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة، وسارعوا إلى الدخول فيها. وقد كتب المنصور بخبر وادي المخازن والبيعة له إلى صاحب القسطنطينية العظمى، السلطان مراد، وإلى سائر ممالك الإسلام وغيرها ممن كان له بالمغرب علاقة سياسية. ولم يلبث أن ورد عليه المهنئون بالهدايا من الجزائر والقسطنطينية. وكانت هدية السلطان مراد سيفاً محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن.

والرجل الذي تولى شؤون المغرب في تلك السنة، والذي ظل على ذلك ربع قرن من الزمان، هو ولا ريب واسطة عقد الدولة السعدية، والرجل الذي انتهى إليه مجدها. كان عالماً حفياً بالعلماء، حتى سماه المؤرخون عالم الخلفاء وخليفة العلماء. كما كان رجل دولة بالمعنى الصحيح، يطلع على شؤون بلاده اطلاعاً واسعاً، ويتعرف إلى شؤونها تعرفاً دقيقاً.

كان شديداً شجاعاً فيه دهاء كثير. فكان الجميع يهابه، لكنه عندما كان يعتقد أن الرأي يجب أن يأتي قبل شجاعة الشجعان، نجد أنه كان يفعل ذلك، ويتم الأمر له بنجاح، على نحو ما فعل لما تغير قلب ابنه المأمون عليه وأراد الثورة. فقد احتال على الأمر وأطال النظر فيه حتى استوثق من الظفر، فألقى القبض على ابنه ونفاه.

وكان المنصور قليل الأسفار. فقد زار فاس مرتين فقط. لكنه إذا اعتزم الخروج مسافراً أو زائراً، خرج على أعظم أهبة وتعبئة. وقد وصف الفشتالي سرادقه وسعته وزخرفته ورياشه

وفرشه وصفاً مفصلاً، حتى ليكاد الواحد منا يتهم الكاتب بالمبالغة.

كان للمنصور سلطان واسع في الجنوب. فكانت «كلمته نافذة فيما بين بلاد النوبة إلى البحر المحيط من ناحية المغرب. وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله... ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل إليه من التبر ما يعيي الحاسبين، ويحيّر الناظرين حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب الا النضار الصافي والدينار الوافي، وكان ببابه كل يوم أربع عشر مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلي وشبه ذلك. ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في أيامه».

٤ ـ أسباب الحملة ومقدماتها

حري بنا أن نتناول الآن عدداً من القضايا التي هيأت المنصور الذهبي نفسياً لإرسال الحملة ضد مملكة سنغي. وأول هذه الأمور هي قضية الإمامة في المغرب وما إليه. فقد أقام الموحدون أنفسهم خلفاء أو أئمة في المغرب، وأصبح سلطان المغرب، منذ ذلك الحين، يلقب بأمير المؤمنين (وإن كان قد استعمل لقب أمير المسلمين بادىء ذي بدء)، وهو الوحيد في المنطقة الشمالية الغربية من افريقيا. وكانت الأسرة السعدية، وملوكها وأمراؤها من الأشراف، شديدة الحرص على الحفاظ على هذا المركز الخاص لملوك المغرب. وقد مر بنا أن الحاج محمد أسكية ملك سنغي (٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م ـ ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م) أدى فريضة الحج عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م ـ ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، وفي طريقه لقي بمصر الخليفة المتوكل (العباسي) الذي ألبس الحاج القلنسوة والعمامة ومنحه لقب «خليفة بلاد التكرور». ومعنى هذا قيام منافس على المنصب الروحي لسلطان المغرب. فلما عاد ملك سنغي إلى بلاده تمثل بالخليفة العباسي وأخذ نفسه بالقيام بدور الخليفة بشكل فعال. وكان من الطبيعي أن يغضب هذا الأمر السعديين. ويبدو أن محمد الشيخ، مؤسس الدولة السعدية، كان يود أن يضع حداً لهذا الأمر. لكن انشغاله بالحروب المختلفة حال دونه والقيام بهذه المهمة. وكان الأمر يهم محمد الشيخ بشكل خاص لأنه هو الذي «أحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة[٥٨]». ومن ثم فقد ظلت هذه القضية قائمة في نفوس الملوك السعديين حتى أيام المنصور الذهبي، الذي أثارها على نطاق واسع.

ففي سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م ورد على المنصور رسول أبي العلا إدريس صاحب مملكة بورنو، في السودان الأوسط، حاملاً معه الهدايا المعتادة طالباً من أمير المؤمنين المدد بالعساكر والأجناد والعدة من البندق ومدافع النار لمجاهدة من يلي بورنو بقاصية السودان من الكفار. ثم ورد الرسول ثانية: «فوافى أمير المؤمنين بحضرة مراكش فأزاح اللبس، وبيّن الغرض، فصدع لهم أمير المؤمنين أيده الله حينئذ بكلمة الحق وطالبهم بالمبايعة له والدخول في طاعته والانقياد لدعوته، وقرر لهم بلسان السنّة الناطق عن الكتاب المنزل، أن الجهاد الذي ينتحلونه

ويظهرون الميل إليه والرغبة فيه، لا يتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله اليوم أمير المؤمنين بوصفه الشريف، وقلده حماية بيضة الإسلام، وفضله على جميع أولى الأمر والسلطان، من ملوك الأرض بالنسب القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع من علماء الإسلام، وأئمة السنة الأعلام، ووراثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والزمهم أيده الله القيام في اقطارهم بدعوته ومجاهدة اعدائهم الكفار بكلمته وعلق لهم الامداد على الوفاء بهذا الشرط وعهدته، فالتزمه الرسول وزعم أيضاً عن سلطانه بالقبول والاجابة، فودع وانصرف[٥٩]».

كان رسول صاحب بورنو قد وفد على السلطان مراد العثماني باسطنبول يطلب منه المدد لجهاد الكفار فلم يفز بطائل[٦٠]. ولذلك لم يجد بداً من قبول اقتراح المنصور، وحمل معه نسخة من البيعة التي أنشأها الفشتالي في البلاط المغربي إلى صاحب بورنو، الذي وقّعها وأعادها إلى المنصور سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م. والبيعة وثيقة طويلة يمكن الرجوع إليها في الاستقصا[٦١]. وقد شجع هذا التصرف من قبل ملك برونو المنصور على أن يطلب الأمر نفسه من آل أسكية ملوك سنغي، الذين كانوا يدعون الخلافة ويلقبون أنفسهم بأمراء المؤمنين[٦٢]، فوجه ذلك إلى أسكية اسحق الذي لم يرض بذلك.

وحري بالذكر أنه في الوقت الذي كان فيه المنصور يحرص كل الحرص على تدعيم مركزه كخليفة، كانت الخلافة (العباسية) في القاهرة قد مضى بعض الوقت على انقضائها بسبب احتلال العثمانيين لمصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وحتى لو فرضنا أن السلطان العثماني أخذ نفسه بالتلقب بالخليفة، فقد كان مكانه بعيداً بالنسبة إلى المغرب والسودان. ومن ثم فقد خلا للمنصور الجو للقيام بالحملة التي تؤدي إلى الاعتراف به أميراً للمؤمنين في تلك الأصقاع جميعها.

وثاني القضايا التي هيأت الجو للحملة السودانية هي أن المغرب أقفلت في وجهه الأبواب التي كان يفيد منها في سبيل التوسع العسكري والتجاري. فقد كان من مألوف الأمور عند ملوك المغرب من أيام المرابطين أن يتوسعوا في الأندلس أو الجزائر. إلا أن استعادة ملوك اسبانيا لبلاد الأندلس جعل التوسع هناك متعذراً، واستتباب أمر الجزائر للأتراك حال دون الانسياح هناك. فلم يبق للمنصور إلا أن يتجه نحو السودان. وفي المشاورة التي عقدها المنصور لأخذ رأي نصحائه في غزو أسكية أورد أموراً كثيرة سنأتي على ذكرها، إلا أنه لفت المجتمعين إلى ما أشرنا إليه إذ قال: «فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقاتلة الافرنج ومن بذلك الساحل من أمم الاروام، والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان. ونحن اليوم قد انسدت أبواب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليه جملة، وانقضت عنا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها»[٦٣]. ومعنى هذا أن المنصور كان يرى في احتلال بلاد السودان منفذاً عسكرياً واقتصادياً للمغرب فرضته عليه الأحوال القائمة يومها في تلك الربوع.

والأمر الثالث الجدير بالذكر هو أن المنصور أرسل حملة لفتح توات وتيكورارين سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م. وقد أشار الفشتالي إلى ذلك في مناهل الصفا فقال:

«لما كانت هذه الممالك السودانية لم تسم قط همم الملوك المصاقبين لها إلى غزو ديارها ولا جعل أحد منهم ذلك غرضاً لسهام عزمه على اتصال الأحقاب والآماد، من أجيال الذين أوتوا الملك والبسط في العباد. واستولوا على الأقطار الدانية والبعاد، وقادوا العساكر والأجناد، وخدمه السعد والاقبال، وساعده القدر على ما أراد من الأمور والأحوال، ومع ذلك زوى عن هذه الأمم وجهه الاعتزام إليه ولم يعمل في ذلك روية ولا أجال قداح فكره فيه تفادياً من مرامها الصعب حتى ظن أهلها لذلك أنه لا يروع لهم سرب، ولا يكدر عليهم شرب، إلى أن قيض الله تعالى إليها الأسد الهصور مولانا أمير المؤمنين أبا العباس أحمد المنصور وتم له أيده الله ما أراد من فتح إقليمي توات وتيكورارين واحتوى على ما بها من المدن والقصور(٦٤)».

وثمة أمر رابع يقتضي التنويه به وهو أن المنصور وجه (سنة ٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) إلى أسكية اسحق رسالة يطلب فيها مثقال تبر عن كل حمل ملح. وقد روى صاحب نزهة الحادي خبر الرسالة التي وجهت إلى أسكية ببعض التفصيل المفيد، لذلك رأينا أن ننقل العبارة كاملة قال:

«لما استولى المنصور على بلاد توات وتيكورارين وأعمالها تاقت همته لبلاد السودان لكون تلك البلاد مجاورة لبلاد السودان ولما اجمع أمره على ذلك رأى أن يبدأ أولاً بمراسلة ملوك السودان ويدعوهم إلى الطاعة، فإن اذعنوا كان ذلك هو المطلوب وكفى الله المؤمنين القتال وأن امتنعوا يحكم الله بينه وبينهم. فكتب إلى سلطانهم سكية في شأن معدن الملاحة الكائن بتغازى ومنه يجلب لسائر بلاد السودان ويقول له أن على كل حمل مثقالاً من الذهب عوناً لجيوش الإسلام، فلما بلغت رسالته لسكية أظهر الامتناع من ذلك وأبى من مساعفته وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتى استفتى علماء ايالته وأشياخ الفتوى بها، فافتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر في المعادن مطلقاً إنما هو للامام لا لغيره وانه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه، وكانت الرسالة المتوجهة من إنشاء الامام العلامة الأشهر مفتي الحضرة المراكشية أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي، لأن كاتب الإنشاء أبا فراس عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الفشتالي كان مريضاً في الوقت»(٦٥). ولكن أسكية اسحق لم يساعفه بما طلب من التسليم بمعدن الملح الذي بتغازى، فاشتد غضب المنصور وعزم على توجيه العساكر إلى السودان(٦٦).

نرى من هذا أن المنصور تهيأت له الأحوال التي حملته على إصدار قراره بغزو أسكية واحتلال بلاده. ويقول المؤلف المجهول لتاريخ الدولة السعدية أن المنصور أرسل حملة إلى كاغوا من بلاد السودان، فلما دخل الجند الصحراء فرّ عنهم الخبير فتاهوا في الصحراء وهلكوا عن آخرهم. وأخذت عرب تلك الجهات عدة الهالكين(٦٧).

وقبل إرسال الحملة الرئيسة قام المنصور بأمرين أراد منهما أن يبرر حملته شرعاً. فأما الأمر الأول فهو انه استجاز عالمين من علماء مصر هما الإمام العارف بالله أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري، والثاني أبو عبد الله محمد بن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب ذيل الديباج. وقد أجاز العالمان للمنصور بالقيام بالحملة. فقد جاء في رسالة البكري قوله:

«لقد وصل إلى المثل العديم المثال، المزري نظامه بعقود اللآل، فإذا به السحر إلا أنه الحلال، ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد (ص) أن يمد الله كراماً كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله إلى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه، فما من خارق في الأمة إلا وهو من معجزاته (ص) دال على علاه، وأما ما شرفني به من طلب الإجازة فالبيت والحديث له، ولكن رب أب أرسل إلى ابنه على يد عبده عطاء فقبله، إليه بأمره حمله، وحيث وقع الأمر فأمر مولانا حتم، وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد، من جميع ما يجوز لهذا العبد، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهل الأمر، وكذلك مجاز أهل العصر اجازة عام بعام، ليكون أبناء الوقت جميعاً على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام، فإنه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريراً في رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة، محمد بن أبي الحسن الصديق سبط آل الحسن(٦٨)».

وأما الأمر الثاني فهو مشاورته لأهل الحل والعقد في دولته. فقد عقد مجلساً للشورى تحدث عنه الفشتالي بقوله:

«ثم عقد مجلساً للشورى والمؤامرة امتثالاً لما أمر الله به رسوله الاواه فجمع إليه الملأ من طبقة الأجناد، وذوي الحل والربط وذوي الخبرة والنباهة بالأمور الشداد لم يستثن منهم مشاوراً ولا مشاراً إليه. فصدع لهم أيده الله بذات صدره وفاتحهم بما اجمع عليه من تجهيز العساكر إلى هذه الاقاليم السودانية، معلناً لذلك الملأ أن لا يدخر أحد منهم رأياً ولا نصحاً وانه أيده الله غير مستنكف من حق بحجة يوضحونه ولا متوقف عن الرجوع إلى صواب ببرهان يثبتونه، تبرياً من الاستبداد بالرأي فاصفقوا اجماعاً لم يختلف فيه منهم اثنان، إن هذا غير داخل في حيز الامكان، ولا يتصور خياله في الاذهان، محتجين بأن من اجتاز بالمغرب من أهل الدول العظام أولي الشوكة ووفور الأجناد، وامتداد السلطان التام إلى الجهات البعاد، لم يعملوا في ذلك خطواً، ولا طاف بهم الأمل حوله شوطاً، ولا حاك لأحد في هاجس، ولا ألقى إليه صاغية، ولو كان ذلك في طوق اماكنهم لكان همهم الذي يسرع إليه هو ابتدارهم للحصول عليه فما أخذ بحجزتهم، ذلك إلا دخوله في حيز المتعذر.

«فأجاب ايده الله بأن لهم عائقاً عنه يقطع بهم عن الحصول على هذه الغاية لا محالة، وهو أن عساكرهم التي يستتبعونها القائمة بشوكتهم وحروبهم مع الأمم إنما كانت عساكر الخيل من الفرسان الرامحة وعصائب الرماة الناشبة، ولم تستتبع إذ ذاك عساكر النار

المرهوبة الصواعق، القاصفة الرعود، وغير خفي ان أجنادهم تلك لا تقاوم ولا تدوخ هذه الأقطار النازحة منها عصابة قليلة ولا طائفة نزرة ولو انتهت شوكة ونجدة، لأن سلاح الفريقين واحد وحربهم متفق فالقليل منهم بكل تقدير لا يقاوم الكثير من أمم السودان، ولا يتأتى لهم الغلب عليهم الا بالاستظهار عليهم بالعساكر المتناهية فخامة ووفور عدد وعدد.

«ومثل هذه الجيوش التي تكون بهذه المثابة في الكثرة لا يمكنها اقتحام هذه المفاوز البتة. لما تستدعيه مؤنها ورحالها واثقالها وازودتها من الظهر الذي يفوت الحسبان، ويكاد وجوده يخرج من حيز الامكان، بخلاف هذه العساكر فإنها عساكر قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب البارود المركوم، تزجيه الرعود القاصفة، والصواعق الراجفة، فالحصة القليلة منها تدوخ أقصى تلك الأقطار، لعدم القدرة على مقاومتها والانتصار لمحاربتها، وأيضاً فصرف الوجهة لاصقاع الجنوب وممالك السودان أحق وأولى بالتفات العزائم، فهي وان كانت أصعب مراماً فانها أغزر نفعاً وأجدى مغبة وأرحب جمالاً وأوسع عمراناً وأوفر نشباً وأقوى بمعادنها وكثرة المستاق من رقيقها يداً على الاستكثار من اقامة الأسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله وعزته، في عقر داره حسبما هو مبنى النية الصالحة على أساس هذا المقصد الجميل بلغ الله مرامها.

«ولما استضاء الملأ نور الحق المبين، فيما ذهب إليه أمير المؤمنين وتبينوا عراقة رأيه الحصيف. واصفقوا كلهم حينئذ رجوعاً عن رأيهم إلى سديد رأيه المصيب، انتضى أمير المؤمنين أيده الله صارم العز للاحتفال في الاستعداد والأهبة(٦٩)».

ورواية الناصري في الاستقصا فيها تفصيل لوجهات النظر. لذلك فإننا نؤثر نقلها هنا إتماماً للفائدة. قال الناصري:

«لما رجعت أرسال المنصور إليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية، والمنصور أمير ناحية، وأنه لا تجب طاعته عليه، شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأي والمشورة فاجتمعوا، وكان يوم اجتماعهم يوماً مشهوداً، فقال لهم المنصور: «اني عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو وبعث الجيوش إليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية، ولأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الإسلام ويشتد ساعد كتيبته، مع أن صاحب أمرهم والمتولى لسلطنتهم اليوم معزول عن الإمارة شرعاً، إذ ليس بقرشي ولا اجتمعت شروط السلطنة العظمى فيه». فلما نثل المنصور ما في كنانته وأبدى ما في خبيئته وعرض ما في عيبته سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء، فقال لهم: «أسكتم استصواباً لرأيي أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي؟» فأجاب كلهم بلسان واحد ورأي متفق: «إن ذلك رأى عن الصواب منحرف وانه بمهامه عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك، وذلك لأن بيننا وبين السودان مهامه فيحا تقصر فيها الخطا، وتحار فيها القطا، وليس فيها ماء ولا كلا، فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملؤة الجوانب ذعراً، وأيضاً فإن دولة المرابطين

على ضخامتها، ودولة الموحدين على عظمها، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك، ولا تعرضوا لما هنالك، وما ذاك الا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها، وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول فإن المتأخر لا يكون أعقل من الأول» فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم وأبدوا له رأيهم وملامهم، قال لهم المنصور: «إن كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري، وفيلتم به رأيي فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندي، أما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في احشائها مشاة وركباناً وجماعة ووحداناً، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهبة منهم وللجيش همة ليست للقوافل، وأما قولكم أن من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح ابصارهم لذلك، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الافرنج ومن بذلك الساحل من الاروام، والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان، ونحن اليوم قد أنسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليها جملة، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها، ثم ان اهل تلك الدول لو ارادو ما اردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرساناً رامحة ورماة ناشبة، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق، وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف، وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة، فمقاتلتهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء، وأيضاً فإن بلاد السودان أنفع من افريقيا فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل، فهذا جواب ما عرض لكم، ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل فإنه كم ترك الأول للآخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم». فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما في وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا اشارته واستجادوا رأيه، وقالوا له: «قد طبقت المفصل والهمت الصواب ولم تبق لأحد ما يقول، وصدق من قال: «عقول الملوك ملوك العقول». فانفصل الجمع على البعث إلى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور في رأيه عليه[٧٠]».

وهكذا فقد هيأ المنصور الجو كاملاً للحملة السودانية، وبدأ استعداده لها.

٥ ـ الحملة على السودان

لما تم للمنصور تهيئة الجو النفسي والشرعي للحملة على السودان أخذ نفسه بإعدادها عسكرياً. وقد اشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهماته سنة ٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م. فأمر القواد بأن يقوِّموا حصص القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل وبغال. وأخذ هو نفسه «بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص والكور وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء. وألف النجارون ذلك في البر إلى أن تألف ثم خلعوه وشدوه احمالاً. واستمر الحال إلى أن استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين[٧١]».

واجتمع كل شيء في مراكش، وعقد المنصور لجودر باشا على هذه العساكر، فبرزت «من الحضرة لمخيم محلاتها يوم الاثنين السادس عشر من ذي الحجة عام ثمانية وتسعين وتسعمائة (١٥٩٠م) وانجفلت الدهماء لمشاهدتهم لكثرة ما كان الناس يتحدثون بغرابة أمور هذه الحركة من أولها[٧٢]». وقد أورد السعدي أسماء القواد العشرة الذين كلفوا رسمياً بمساعدة جودر في مهمته وبينهم واحد تركي وثلاثة أندلسيون يغلب على الظن أن اثنين منهم هما من أسارى المسيحيين. وأضاف السعدي أن العساكر كان معهم «أجناس من الصناع والأطباء[٧٣]».

وقد بالغ بعض المؤرخين القدامى في عدد العساكر في الحملة المنصورية، فعدوها نحو اثنين وعشرين الفاً، وتابعهم في ذلك صاحب الاستقصا[٧٤]. ولكن يبدو أن المقاتلة على اختلاف طبقاتهم لم يتجاوز عددهم أربعة آلاف موزعين على الشكل التالي:

حملة البنادق (وأكثرهم من غرناطة بالأندلس)	٢٠٠٠
حملة البنادق الفرسان	٥٠٠
عرب من حملة الرماح	١٥٠٠(٧٥)

وكان إلى جانب ذلك ١٦٠٠ من الاتباع وقد قدّر السعدي العدد بثلاثة آلاف من الرماة «ما بين أصحاب الخيل والرجل ومعهم من الاتباع ضعفها[٧٦]» وهو من المعتدلين في تقديره بالنسبة إلى غيره.

ورافق الحملة ثمانية آلاف من الإبل وألف من الخيل واحتاج إلى ١٨٠ خيمة وحملوا معهم ٣٠٠ قنطار من البارود و١٠ قناطير من البمب و ٣٠٠ قنطار من الرصاص[٧٧].

ويلاحظ دوكاستريس أنه لم يكن في الحملة سوى ١٥٠٠ فارس هم من المغاربة، وأن أكثرية الجيش كانوا إما من مهاجرة الأندلس أو من المسيحيين، كما أن القائد نفسه ـ جودر ـ لم يكن مغربي الأصل، وإن كان يومها مغربي الدار[٧٨].

خرج الجيش من مراكش في ذي الحجة عام ٩٩٨هـ (تشرين الأول/ اكتوبر ١٥٩٠). وقد تمكن دو كاستريس من دراسة المصادر المختلفة وأخصها نص أسباني لشخص معاصر مجهول[٧٩] يبدو أنه كان يعرف التفاصيل ممن أسهم بالحملة، وكان يعرف المنطقة بعض الشيء، من تعيين الطريق التي اتبعها جودر وجيشه. فقد خرج الجيش من مراكش إلى درع واجتاز مرتفعات درن عند تيزي القلاوي حيث أراح قليلاً في لقتاوة قبل أن يقذف بنفسه في المهامه والقفار. واتجه بعد ذلك إلى تندف سائراً جنوباً في شرق حتى تغازى الغزلان (توندي). ومن هناك إلى كبرا الواقعة على النيجر فبلغها في ٤ جمادى الأولى ٩٩٩ (٢٨ شباط/ فبراير ١٥٩١). وقد قدر دو كاستريس المسافة على النحو التالي:

من مراكش إلى لقتاوة	٢٥٠ ك.م
من لقتاوة إلى تندف	٤٥٠ ك.م
من تندف إلى تغازى الغزلان	٨٠٠ ك.م
من تغازى إلى كبرا	٥٤٠ ك.م
مجموع المسافة	٢٠٤٠

واحتاج الجيش مائة وخمسة وثلاثين يوماً (بما في ذلك أيام الإراحة) لقطعها[٨٠].

ويبدو أن الجيش فقد نحو نصفه بسبب العطش والجوع والتعب، وكانت آثار الجهد بادية على أولئك الذين وصلوا كبرا، بحيث أنهم لم يكونوا يستطيعون خوض معركة رأساً. وكان على جودر أن يريح هناك ويستعيض عن الحيوانات التي نفقت. ولكن جيش أسكية السودان لم يظهر للعيان، مما أتاح لجودر الوقت الكافي ليستعيد نشاط جيشه ويدبر النقص في حاجاته، والمنطقة هناك خصبة غنية يسرت له كل ما أراد.

وقد روى السعدي ما كان قد جرى في مملكة سنغي مع أسكية اسحق إذ بلغه خبر هذه الحملة، قال: «جمع الأمير اسكيا اسحق قيّاده وكبراء مملكته في المشاورة في الرأي والتدبير، فكلما اشاروا إليه من الرأي السديد يرمونه وراء ظهرهم لما سبق في سابق علم الله تعالى الذي لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه من زوال ملكهم وانقراض دولتهم، ووجد الحال أن حمّ ابن عبد الحق الدرعي كان في كاغ حينئذ جاء لرسم فأمر الشيخ أحمد تويرق الزبيري الأمير اسحق بقبضه وسجنه وهو عامل على تغاز لأهل سغي، ورغم أنه ما جاء لكاغ إلا لأجل التجسس للأمير أحمد الذهبي فسجنه الأمير اسحق ورافع وأحمد نين بير والحروشي والد أحمد الأمجد حتى وصلوا البحر عند قرية كربر، فنزلوا هنالك وعمل الباشا جودار سفرة كبيرة لإطعام الطعام فرحاً لوصولهم البحر سالمين، لأن ذلك امارة ظفرهم بمرادهم ونجحهم لسعيهم من عند أميرهم، وكان ذلك يوم الأربعاء الرابع من جمادى الأولى في العام التاسع والتسعين بعد الهجرة(٨١)».

خلف جودر كبرا وراءه، وتخطى تمبكتو، واتجه نحو غوا قاعدة أسكية وعاصمة سنغي، حيث لقيه السلطان بجنوده التي بلغ عددها المائة ألف أو نحو ذلك، وقد روى اليفرني في نزهة الحادي خبر هذه المعركة قال:

«وكان لما سمع اسحاق سكية بخروج الجيوش وتوجهها إليه حشر جنوده وبعث في المدائن حاشرين وجمع جموعاً عديدة ويقال أنه جمع ماية ألف مقاتل وأربعة الاف مقاتل وكان ذا أهبة واستعداد قال الفشتالي ولم يقنع بالجيوش التي جمع حتى أضاف إلى ذلك أشياخ السحرة وأهل النفث في العقد وأرباب العزائم والسيما ظناً منه نجح ذلك وهيهات:

السيف أصدق انباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في ... متونهن جلاء الشك والريب

«فلما التقت الفئتان نكص اسحاق على عقبه وانتشرت جموعه وفل غربه والتحت الحرب من لدن الضحى إلى قرب العصر فطحنتهم رحى الحرب وصيّرتهم كأعجاز نخل خاوية ونجا اسحاق بنفسه في قليل من حاشيته، وكان جيش اسحاق إنما سلاحهم الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيأً، ومن حينهم ولوا الأدبار وحق عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جودر وجيوشه حتى كان أهل السودان ينادون نحن مسلمين نحن اخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم، وكان ذلك كله في السادس عشر من جمادى الأولى عام تسعة وتسعين وتسعماية (١٢

آذار/ مارس سنة ١٥٩١) ولما فر اسحاق تبعه جودر بعد أن استولى على تينبكت وسائر ما يواليها من المدائن والقرى وبعث جودر للمنصور يخبره بالفتح وبهدية عظيمة فيها عشرة آلاف مثقال ذهباً ومايتان من الرقيق وغير ذلك، ولم يزل في مطالبة اسحاق إلى أن قطع بحر النيل فقطعه جودر بجيوشه خلفه وتبعه إلى أن حاصره في مدينة كاغوا وهي كانت دار ملك اسحاق، ثم أن إسحاقاً راسل جودر يطلب منه الصلح على ضريبة يبذلها له في كل سنة وأموال طائلة يؤديها على أن يتركه في دار ملكه فاعجب ذلك جودر وبعث للمنصور يستشيره في ذلك(٨٢).

«كان ثمة فئة من السودان أبوا أن يفروا «فطرحوا دروقهم على الأرض وقعدوا عليهن متربعين حتى وصلهم جيش جودار وقتلوهم صبراً على تلك الحال، لأن من شأنهم عدم الفرار عند الفرار(٨٣)».

لما انكسر أسكية اسحق بعث إلى أهل غوا أن يرحلوا عن المدينة قبل أن يبلغها جودر بعساكره، كما أنه هو نفسه تجنب دخول قاعدة ملكه. فبكى الناس لذلك وناحوا: «وارتفعت الأصوات بذلك ارتفاعاً عظيماً وشرعوا في الخروج واقتطاع البحر (نهر النيجر) في القوارب بالمشقة والازدحام فغرق كثير من الناس وماتوا، وضاع من الأموال ما لا يحصيه الا الله سبحانه وتعالى(٨٤)».

ويبدو أن جودر لم تعجبه غوا قط. فقد كتب إلى المنصور، مع الرسالة التي عرض فيها شرط أسكية اسحق للصلح: «إن دار شيخ الحمارة في المغرب خير من دار اسكيا(٨٥)».

والصلح الذي عرضه أسكية اسحق على جودر هو أن يقدم اسحق للمنصور مائة ألف ذهب وألف خديم، ويرجع الجيش إلى مراكش ويسلم له في أرضه(٨٦).

«وكان جودر وجنوده قد وجدوا غوا وخيمة الهواء منحرفة المزاج، لا تنتقص بها الصحة إلا بشرك علاج، ولا يستشعر بها برد الصحة إلا من ألف جوها وربي في أفقها.. فانكفأت حينئذ العساكر المنصورية... صارفة الوجه إلى مدينة تنبكتو وخيموا عليها(٨٧)».

وحنق المنصور على جودر لأنه فكر حتى بقبول الصلح مع أسكية اسحق ولأنه رجع بالجيوش القهقرى إلى تمبكتو، فعزله عن القيادة وبعث محمود بن زرقون باشا بثمانين رامياً ليتولى إمارة الجند في السودان. فوصل القائد الجديد إلى تمبكتو في ٢٦ شوال عام ٩٩٩/ ١٧ آب/ اغسطس ١٥٩١، وعاتب جودر على تصرفه ثم أخذ نفسه بإعداد العدة للقضاء على أسكية اسحق وملكه مرة واحدة. وهنا نجد بعض الخلاف في رواية الاستعداد. فالسعدي يعزو ذلك إلى محمود باشا(٨٨)، لكن الفشتالي يقول إن جودر نفسه الذي خشي أن يكون أسكية اسحق قد عرض شرط الصلح اكتساباً للوقت فقط هو الذي أعد كل شيء احتمالاً لاستئناف القتال(٨٩).

وعلى كل فقد تجددت الحرب، وكان لا بد لها من أن تكون حرباً فاصلة. بذلك أمر المنصور، وكان محمود باشا يريد أن يتميز على جودر، فاندفع في القتال اندفاعاً تاماً.

وهنا يترتب علينا أن نذكر أن أخا أسكية اسحق، واسمه أسكية محمد كاغ، عزل أخاه عن الملك وأخذ البيعة لنفسه[٩٠]. ولذلك فقد حارب محمود باشا أسكية اسحق أولاً ثم أخاه الذي جرب هو الآخر الصلح على أن يدخل في طاعة المنصور. ولكن محمود باشا يعتزم، كما ذكرنا، القضاء نهائياً على مملكة سنغي. ولننقل ما ذكره الناصري في الاستقصا في خاتمة هذه الحملة، قال:

«وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر في زمان الحرب في وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدري وقطع القفر في خمسين مرحلة أمر لم يسمع بمثله، ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتو على رأس سنة الألف فأراح بها ثلاثاً، ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحصين ووجوه الجند فساروا في النيل وسار السواد الأعظم في البر إلى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك اسحق سكية، وكان اسحق لما رجعت عنه العساكر إلى تنبكتو احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه على الموت، فلما بلغه رجوع العساكر إلى كاغو قصدهم في جموعه، ولما التقى الجمعان لم يكن الا مقدار فواق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهاريس وارتفاع القنابل في الجو وهدير الطبول، وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون إلى أن غشيهم ظلام الليل ورجعوا بالغنائم والسبى فاستراحوا ثلاثاً، ثم أمر محمود أخاه جؤذراً أن يقيم بمدينة كاغو عامراً لها، ويترك معه عدداً من العسكر يكون ردئاً لهم، وسار هو في اتباع اسحق إلى ان لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفر في فل من قومه فعبر النيل إلى العدوة الأخرى، وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره في السفن وسار خلفه إلى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة، احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل اسحق القفر فهلك فيه، ثم كانت لمحمود وقعة أخرى من أخيه الذي كان ينازعه في الملك، فانه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف إلى محمود باشا فنهض إليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه جنده وأتباعه، وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كلياً، وكتب بخبر الفتح إلى المنصور[٩١]».

٦ ـ الخاتمة

لا نود أن نتابع، في هذا البحث، ما قام به المغاربة في السودان، فذلك أمر يطول. لكن لا بد من إبداء بعض الملاحظات على الفترة التي ظلت فيها الأقطار السودانية هذه تحت حكم السعديين ملوك المغرب، إذ إن التخلي عن السيادة المغربية هناك لم يتم إلا في سنة ١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م في أيام المولى زيدان[٩٢].

(١) بلغ عدد الجنود الذين أرسلهم المنصور إلى السودان نحو ٢٣,٠٠٠[٩٣]، هلك أكثرهم في الطريق أو المعارك أو بسبب الجوع والعطش اللذين كانوا يتعرضون لهما. ولما أوقف المولى زيدان إرسال المدد إلى السودان بقيت فلول الجيش مستقرة هناك إلا قلة عادت إلى البلاد. وكان هؤلاء يختارون من بينهم باشاوات (حكاماً) يقومون بأمورهم. إلا انهم مع توالي الزمن اختلطوا بسكان البلاد الأصليين بالزواج، وأصبحوا جزءاً من مواطنة السودان.

وتبدو آثار هذا الزواج المختلط إلى الآن في المناطق التي استقر فيها المغاربة في لون أحفادهم.

(٢) يتضح من متابعة ما دار على ألسنة القوم الذين شاورهم المنصور بادىء ذي بدء والذين تحدثوا عن بلاد السودان، أن القواد والجنود لما وصلوا المدن السودانية وجدوها دون ما أملوا ــ ثروة وعمراناً وعلماً ــ فهل حقاً كان التجار المغاربة الذين ترددوا على تمبكتو وغوا وسواهما لا يعرفون حقيقة الوضع في تلك المدن؟ المرجح أنهم كانوا يعرفون ولكنهم لم يذكروا للمنصور كل ما كانوا يعرفون. ولذلك سبب من اثنين، فإما انهم صمتوا لأن المنصور ما كان ليصدقهم بل قد يتهمهم بعرقلة الحملة لأغراضهم الخاصة، وإما إنهم خشوا أن لا يصدقهم أصلاً، ففضلوا السكوت. ولذلك كانت خيبة أمل جودر ومحمود وغيرهما كبيرة لما وصلوا إلى تلك الجهات.

(٣) كان المنصور حريصاً في كل مرة يرسل مدداً أن يضخم من نتائج المعركة التي انتصرت فيها جيوشه. فالمنشور الذي أذاعه على أهل المغرب عقب نجاح جودر الأول صيغ بشكل يحمل الناس على الاعتقاد بأن هذا الفتح كان نهائياً، وان كل مقاومة انتهت وأن الخير العميم لا يلبث أن يصل إلى بلاطه وبلاده وشعبه(٩٤).

(٤) كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت الفاتحين هي مشكلة الاحتفاظ بالبلاد التي احتلت، وهي منطقة يبلغ طولها نحو ١,٥٠٠ كيلومتر. على أن هذه المنطقة، على اتساعها، لم تكن سوى جزء صغير من البلاد السودانية، الأمر الذي ييسر لها مساعدة من الجوار في حالة الثورة. ولذلك فقد كان من الضروري أن تكون الحاميات قوية منظمة والمدد مستمراً. يضاف إلى ذلك أن تنظيم الإدارة، في مثل هذه الحالة، كان أمراً صعباً. وقد كان للتغيير المستمر في الباشاوات (الحكام)، في السنوات التي عقبت الفتح، أثر كبير في تعثر الإدارة. لكن لما استقرت الأمور بعض الشيء، وأقيم من آل أسكية حكام إسميون، نعمت البلاد المحتلة بحكومة منظمة لمدة قصيرة (١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م ـ ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م). إلا أن وفاة المنصور في هذه السنة ألقى بالمغرب كله في آتون الخلافات الأهلية والحروب بين أبناء الأسرة الواحدة والقبيل الواحد، فاضطرب الوضع في السودان تبعاً لذلك، وظل إلى أن تخلى المولى زيدان عن متابعة الفتح ١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م.

(٥) يبدو أن الرأي الذي ساد بلاط المنصور هو أن مناجم الذهب تقع في الأقطار السودانية التي وجهت الحملة إليها. لذلك بعد أن أصاب القواد الأوائل النصر، كان المنصور ينتظر أن يتبعوا ذلك بالوصول إلى التبر ومصادره. ولكن ذلك لم يتم لأحد، لأن مصادر التبر لم تكن في تلك المناطق، وإنما كانت إلى الغرب منها في جهات ونغره. وهذه ظلت بعيدة المنال بالنسبة إلى الجيوش المغربية. ولذلك فكل ما تسرب إلى المغرب من التبر لم يزد على ما كان يمر بالأقطار السودانية قبلاً، وإنما الفرق انه كان من قبل يأتي ثمن ملح ومتاع ومتاجر فيفيد منه التجار، فأصبح الآن يصادر ويرسل باسم السلطان.

(٦) حصل المنصور على غنائم كثيرة من هذه الحملة ومن الهدايا التي وصلت البلاد من الديار السودانية فقد روى اليفرني:

«ولما فتح عليه مماليك البلاد السودانية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحيِّر الناظرين حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي وكانت ببابه كل يوم أربعة عشر ماية مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ولأجل ذلك لقِّب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه[٩٥]».

(٧) أجمل المؤرخ المجهول ما وصل إلى بلاط المنصور من السودان بقوله: «فدخل لدار السلطان اثني عشر مائة مملوك بين الجواري والغلمان وأربعون حملاً من التبر وأربعة سروج من الذهب واحمال كثيرة من العاج واليبنوز وكور غالية وقطوط الغالية وذخائر السودان فتذخر من ذلك مولاي أحمد الذهبي وقوي ملكه وبقيت جباية السودان تأتيه في كل سنة إلى أن اتته فيلة ووصلت إليه بترجمان يكلمها وأرسلها إلى مدينة فاس ليراها الناس ويعتبرون بخلقتها[٩٦]».

وقد نقل بوفيل جزءاً من رسالة بعث بها تاجر إنكليزي اسمه هنري ماروك، كان يقيم في مراكش، إلى شريكه المقيم في لندن واسمه انتوني داسل (آب/اغسطس ١٥٩٤) يخبره فيها أنه رأى بأم عينه ثلاثين بغلاً محملة بالتبر تدخل مراكش وهي مرسلة من القائد محمود بن زرقون إلى المنصور. وفي رسالة ثانية كتبها مادوك في الشهر نفسه إلى شريكه داسل قدّر ما كان يرد سنوياً من تمبكتو بستين قنطار من التبر. وقد قدر بوفيل ما حملته البغال الثلاثون بما قيمته ١٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني بعملة الوقت، كما قدر ما يرد من تمبكتو بنحو ١٥٠,٠٠٠ استرلينية. ونقل عن تاجر انكليزي آخر اسمه جسبر طومسون بأن الباشا جودر احضر معه، لما عاد إلى مراكش، ما قيمته ٦٠٤,٨٠٠ استرلينية[٩٧].

(٨) على أن الذهب لم يكن الشيء الوحيد الذي كان البلاط المنصوري يحصل عليه من السودان. فقد كان الرقيق والعاج والغالية وقطط الغالية وما إلى ذلك من المتاجر.

(٩) وقد ترتب على ذلك أن المنصور أثرى كثيراً فصرف على تحصين أماكن كثيرة، فبنى حصنين في فاس وحصن العرائش وبنى المدارس وقصر البديع[٩٨]. واستخدم عدداً كبيراً من الصاغة والنحاتين وصانعي الساعات واتسعت تجارة المغرب مع أوروبا وخصوصاً انكلترا. وكان خير ما أنفقه المنصور في إعادة صناعة السكر في سوس إلى عزها، بحيث أصبح السكر من أهم المواد التي يصدرها المغرب إلى أوروبا[٩٩].

(١٠) على أنه ثمة مآخذ على المنصور من حيث موقفه من علماء السودان. وقد أجمل الناصري صاحب الاستقصا ذلك بقوله:

«وكان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان ديناً ودنيا، بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة، وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف، فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم

خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم، وربما وشي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش، فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد بن عمر بن محمد آقيت المدعو: بابا، صاحب «تكميل الديباج» وغيره من التآليف. وكان فيها أيضاً الفقيه القاضي أبو حفص بن محمود بن عمر بن محمد آقيت وغيرهما، وحملوا مصفدين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم(١٠٠)».

قال في «بذل المناصحة»: «سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول: أنا أقل عشيرتي كتباً وقد نهب في ست عشرة مائة مجلد»، وكان القبض عليهم في أواخر المحرم سنة اثنتين وألف، ووصلوا إلى مراكش في أول رمضان من السنة المذكورة، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى أن انصرم أمد المحنة، فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك(١٠١)».

«ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس إليه للأخذ عنه، ولم يزل بمراكش إلى أن مات المنصور لأنه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش، ولما توفي أذن ابنه زيدان لآل آقيت في الرجوع إلى بلادهم بعد أن مات جماعة منهم بمراكش، وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق إلى رؤية بلدته ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله في العود إليها، وله في ذلك شعر على طريقة الفقهاء. ولما خرج من مراكش قاصداً بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالماً، فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال: «لا ردني الله إلى هذا المعاد ولا رجعني إلى هذه البلاد» ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها إلى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله(١٠٢)».

(١١) ولم يسلم المنصور من النقد بسبب موقفه من استرقاق أهل السودان. ولعل رأي الناصري في هذه القضية حري بأن ينقل في الختام قال:

«قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من لدن قديم. وأنهم من أحسن الأمم اسلاماً واقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة، وهذا الأمر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقاً، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية، ويسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش، قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعاً هو اسوداد اللون وكونه مجلوباً من تلك الناحية، وهذا لعمر الله من أفحش المناكر واعظمها في الدين، إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر

غير الإسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير إنما هو الإسلام، والحكم للغالب، ولو فرضنا أن لا غالب وانما الكفر والإسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين. والأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق، ومدعي خلاف الحرية مدع لخلاف الأصل، ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم في الباعة مطلقاً من الكذب عند بيع سلعهم واطرائها بما ليس فيها، وفي باعة الرقيق خصوصاً مما هم من لا اخلاق لهم ولا مروءة ولا دين، والزمان كما علمت وأهله كما ترى، ولا يعتمد أيضاً على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك، فإن البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون إلا بما لا يقدح في صحة بيعهم، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان، فيهون عليه أن يقر على نفسه بالرقية كي ينفذ بيعه عاجلاً إلى غير ذلك من الأغراض، وقد استفاض عن أهل العدل السودان اليوم، وقبل اليوم، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض، ويسرقونهم من الأماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في اغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون، وإنما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل، وكيف يجوز له التسري باناثهم، وفي ذلك ما فيه من الاقدام على فرج مشكوك[١٠٣]».

الهوامش

(١) E.I. Microp, *Africa*, Vol. IV.pp. 488-489.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨٩.

(٣) يجد القارىء دراسة مفصلة لتاريخ سنغي في مطلع أمرها في:
John Spencer Trimingham, *A History of Islam in West Africa* (London: Oxford University Press, 1962), pp. 83-92.

(٤) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس** (باريس: المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، ١٩٦٤)، ص ٤٣.

(٥) عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، **تاريخ السودان** (باريس: المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، ١٩٦٤)، ص ٦٥ ــ ٦٦ يعدد السعدي أسماء الفقهاء الذين أساء سن علي اليهم إهانة أو قتلاً. انظر أيضاً كعت، المصدر نفسه، ص ٤٨ ــ ٤٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤ ــ ١٥.

(٧) كعت، المصدر نفسه، ص ٤٥ ــ ٤٨.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٩) راجع: Trimingham, *A History of Islam in West Africa*, p, 94.

(١٠) السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٦٤.
(١١) المصدر نفسه، ص ٦٧ ــ ٦٨.
(١٢) كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، ص ٥١ ــ ٥٢، والسعدي، المصدر نفسه، ص ٧١.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٩، راجع أيضاً السعدي، المصدر نفسه، ص ٧٧، حيث يقول: وصاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمور الحل والعقد.
(١٤) السعدي، المصدر نفسه، ص ٧٣.
(١٥) المصدر نفسه، ص ٧٢.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٧٤.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(١٨) Trimingham, *A History of Islam in West Africa*, pp, 100-101.
(١٩) السعدي، المصدر نفسه، ص ٧٢ ــ ٧٣؛ راجع أيضاً كعت، **تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، ص ١١ ــ ١٣، و٦٥ ــ ٧٠، ومحمد الافراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (انجي: مطبعة بردين، ١٨٨٨)، ص ٨٩.
(٢٠) راجع عن المغيلي: أحمد بابا، **تكملة الديباج** (القاهرة، ١٣٢٩هـ)، ص ٣٣٠ ــ ٣٣٢.
(٢١) كعت، المصدر نفسه، ص ١٨٠.
(٢٢) السعدي، تاريخ السودان، ص ٣٧ ــ ٦٣.
(٢٣) السعدي، المصدر نفسه، ص ٥٧. .Trimingham, *A History of Islam in West Africa*, p. 98, note 1

(٢٤) السعدي، المصدر نفسه، ص ٨١.
(٢٥) جاء بين داود وابنه اسحق اثنان من أولاد داود لكن أمرهما لا يهمنا في هذه الدراسة، يجد القارىء تفاصيل الحروب الأهلية وخلفاء أسكية الحاج محمد في: السعدي، المصدر نفسه، ص ٨١ ــ ١٠٠.
(٢٦) عماد الدين أبو الوفا، **تقويم البلدان** (باريس: المطبعة اللطانية، ١٨٤٠)، ص ١٣٧، وأحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤) ج ٥، ص ٩٩ ــ ١٠٠.
(٢٧) E. W, Bovil, *The Golden Trade of the Moors* (London: Oxford University Press, 1958), p. 94.
(٢٨) محمد بن عبد الله بن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار** (باريس: المطبعة الوطنية، ١٨٧٤ ــ ١٨٧٩)، ج ، ص ٣٧٦ ــ ٤٩٥.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٤٢٩.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٤٣٠ ــ ٤٤٢.
(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٩٩، وأبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **تاريخ العبر** (القاهرة: مطبعة بولاق، د.ت)، ج ٦، ص ٢٠٠.
(٣٢) Bovil, *The Golden Trade of the Moors*, p. 141, note, 1.
(٣٣) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥، ص ١٠١: السعدي، تاريخ السودان، ص ٨، وابن خلدون، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٠١.
(٣٤) Bovil, Ibid, p. 101.
(٣٥) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار**، ج ٤، ص ٤٣٥ ــ ٤٣٦.
(٣٦) السعدي، **تاريخ السودان**، ص ١١ ــ ١٢.
(٣٧) R. Mauny, in: *Hesperis*, Vol XLI (1954), pp. 379- 394.
(٣٨) Leo Africanus, *The History and Description of Africa* (London, Hakluyt, 1896), Vol, III, p, 784.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ٨٠٠ ــ ٨٠١.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ٨٢٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٨٢٤.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ٨٢٤.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ٨٢٤.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٨٢٥ ــ و ٨٤٤.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ٨٢٥. يصف أبون أسكية ملك سنغي وفخامته. راجع ص ٨٢٤ ــ ٨٢٥.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٨٢٢.
(٤٧) المصدر نفسه، ص٨٢٢، قابل، السعدي. **تاريخ السودان**، ص ١٦ ــ ٢٠.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٨٢٦.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٨٢٧.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٨٢٧.
(٥١) Bovil, *The Golden Trade of the Moors*, p. 129, note 1.
وقد حذفت هذه الفقرة من الترجمة الانكليزية لكتاب ليون الافريقي.
(٥٢) المصدر نفسه، ص ٩٧ ــ ٩٨.
(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٠٦.
(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٠٧.
(٥٥) H. De Castrie, *"La Conquête du Soudan pour al-mansour"* par: Hesperis, Vol 111(1923) p. 438.
(٥٦) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا** (تطوان: المطبعة المهدية، ١٩٦٤)، ص ٥٥.
(٥٧) راجع نقولا زيادة، «المنصور الذهبي سلطان المغرب»، في: **الأبحاث**، السنة ١٦ (١٩٦٣)، ج ٤، ص ٤٣٣ ــ ٤٥٣.
(٥٨) الافراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، ص ٣٦.
(٥٩) الفشتالي، **مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا**، ص ٦٢ ــ ٦٣.
(٦٠) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥، ص ١٠٥.
(٦١) المصدر نفسه، ص ١٠٦ ــ ١١٠.
(٦٢) الافراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، ص ٩١.
(٦٣) المصدر نفسه، ص ٩١ ــ ٩٢.
(٦٤) الفشتالي، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**، ص ٥٨، والسعدي تاريخ السودان، ص ١٣٧.
(٦٥) الافراني، المصدر نفسه، ص ٨٨.
(٦٦) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥، ص ١١٢، والسعدي، المصدر نفسه، ص ١٣٢. وقد أضاف السعدي بأن أسكية قبح الكلام للمنصور وبعث له حرشانا ونعلين من حديد.
(٦٧) **تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمادرتية**، تحقيق جورج كولان (الرباط: المطبعة الجديدة، ١٩٣٤)، ص ٦٨. وحري بالذكر أن الفشتالي، مؤرخ البلاط المنصوري، لم يذكر شيئاً عن هذه الحملة الفاشلة.
(٦٨) الناصري، المصدر نفسه، ج٥، ص ١١٥.
(٦٩) الفشتالي، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**، ص ٦٤ ــ ٦٥.
(٧٠) الناصري، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٢ ــ ١١٤.
(٧١) المصدر نفسه، ص ١٢١.
(٧٢) الفشتالي، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**، ص ٦٧. ورد اسم القائد جودر وجودار ورواه الفشتالي جؤذر. وقد أخذنا بالاسم الأسهل المقبول عند أكثر المشتغلين بتاريخ المغرب.
(٧٣) السعدي، تاريخ السودان، ص ١٣٨.
(٧٤) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٥، ص ١٢١.
(٧٥) De Castries, *"La Conquête du soundan"* par el Mansour,p. 444.
(٧٦) السعدي، تاريخ السودان، ص ١٢٣.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٧٨) De Castries, *"La Conquête du soudan"* par el Mansour, pp. 444- 445.

(٧٩) راجع النص الاسباني مع ترجمة فرنسية في المصدر نفسه، ص ٤٥٨ ـ ٤٧٨.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٤٤٥ و٤٤٩.

(٨١) السعدي، **تاريخ السودان** ص ١٢٣.

(٨٢) الافراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**. ص ٩٣ ــ ٩٤.

(٨٣) السعدي، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٨٤) المصدر نسفه، ص ١٤٠.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٨٩) الفشتالي، **مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا**، ص ٧٩.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٨٠. ويبدو مما جاء في الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥، ص ١٢٣، ان رواية الفشتالي أدق. ذلك بأن محمود باشا أراح ثلاثاً ثم شحن الغلائظ والسفن.

(٩١) الناصري، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٣ ــ ١٢٤.

(٩٢) لتتمة تسلسل الرواية، راجع: الفشتالي، المصدر نفسه: السعدي، تاريخ السودان: تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكما درئية: الناصري، المصبدر نفسه، والإفراني. نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي.

(٩٣) السعدي، المصدر نفسه، ص ١٤٩، والفشتالي، المصدر نفسه، ص ٨٣ ــ ٨٤.

(٩٤) راجع النص المنشور في: De Castries, *"La Conquête du Soudan"* par el-Mansour,pp.482 ff.

(٩٥) الافراني، **نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي**، ص ٩٥.

(٩٦) **تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرئية**، ص ٧٠.

(٩٧) Bevil, *The Golden Trade of the Moors*, pp. 179-181.

(٩٨) الافراني، **نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي**، ص ٩٥.

(٩٩) Bovil, Ibid, p. 182.

(١٠٠) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥، ص ١٢٩ ــ ١٣٠.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠ ــ ١٣١.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ١٣١ ــ ١٣٢، وراجع أيضاً: كعت، **تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، ص ١٧٠ ــ ١٧٥.

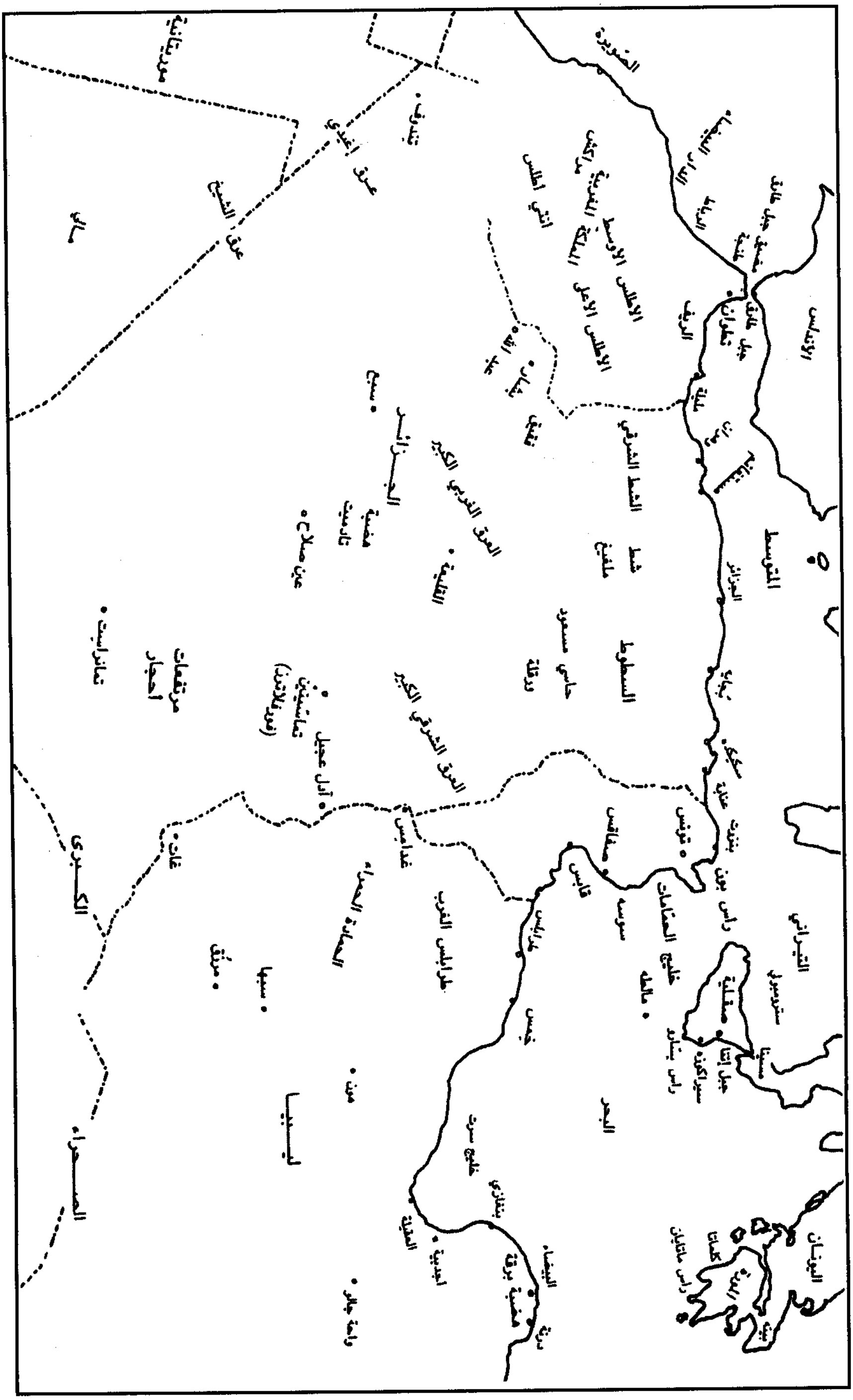
الأندلس
المتوسط
الجزائر
بجاية
سكيكدة
عنابة
بنزرت
تونس
رأس بون
صفاقس
قابس
سوسة
طرابلس
خليج الحمامات
مالطة
صقلية
جبل إتنا
سيراكوزة
رأس بسارو
التيراني
البحر
خليج سرت
بنغازي
البيضاء
هضبة برقة
درنة
أجدابيا
العقيلة
واحة جالو
ليبيا
هون
سبها
مرزق
الحمادة الحمراء
طرابلس الغرب
غدامس
غات
اليونان
الريف
تطوان
جبل طارق
الأطلس الأعلى
الأطلس الأوسط
العرق الغربي الكبير
العرق الشرقي الكبير
ورقلة
تمنراست
الصحراء

خارطة (١)

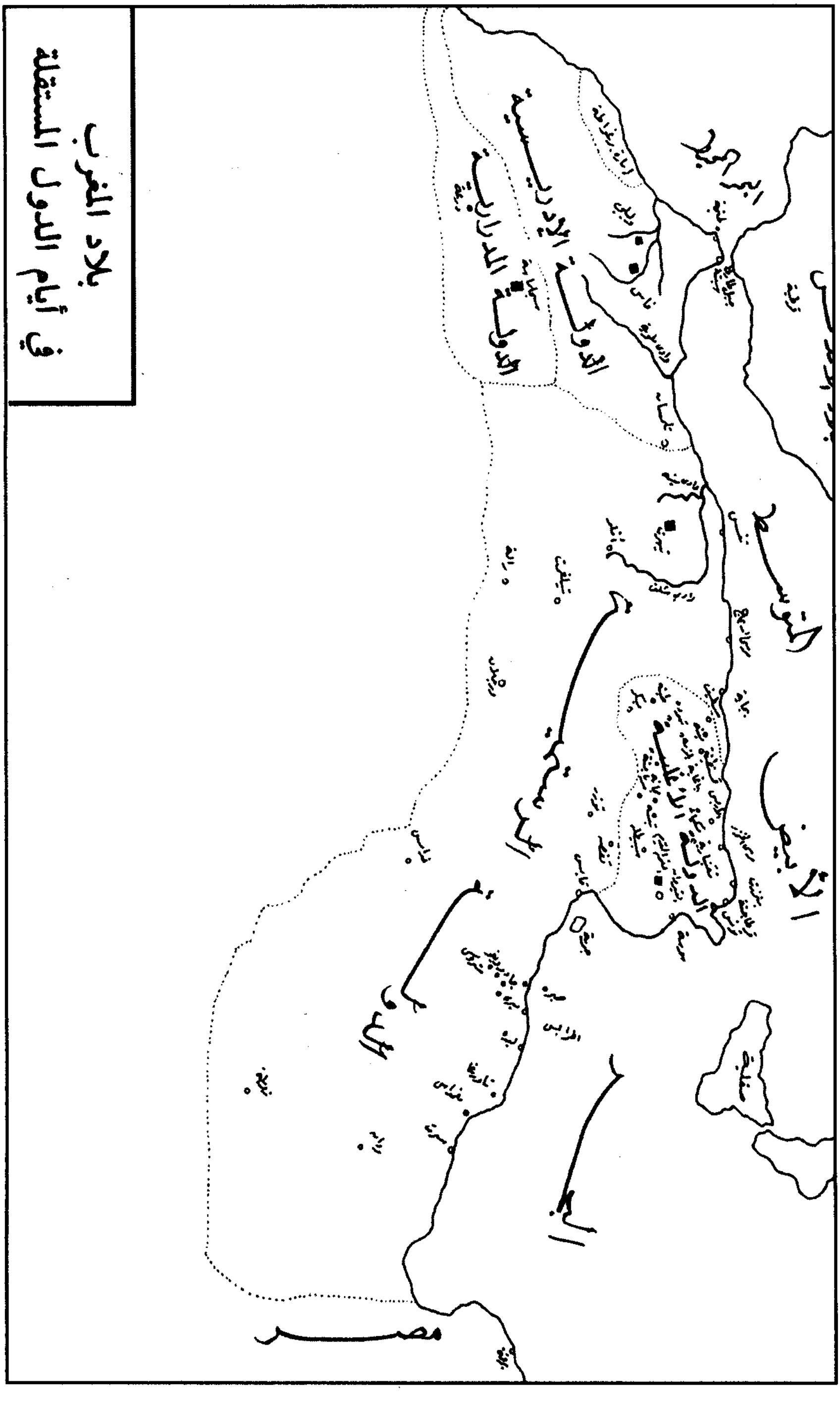
بلاد المغرب
في أيام الدول المستقلة
الدولة الإدريسية
الدولة الأغلبية
فاس
سجلماسة
مصر

خارطة (٢)

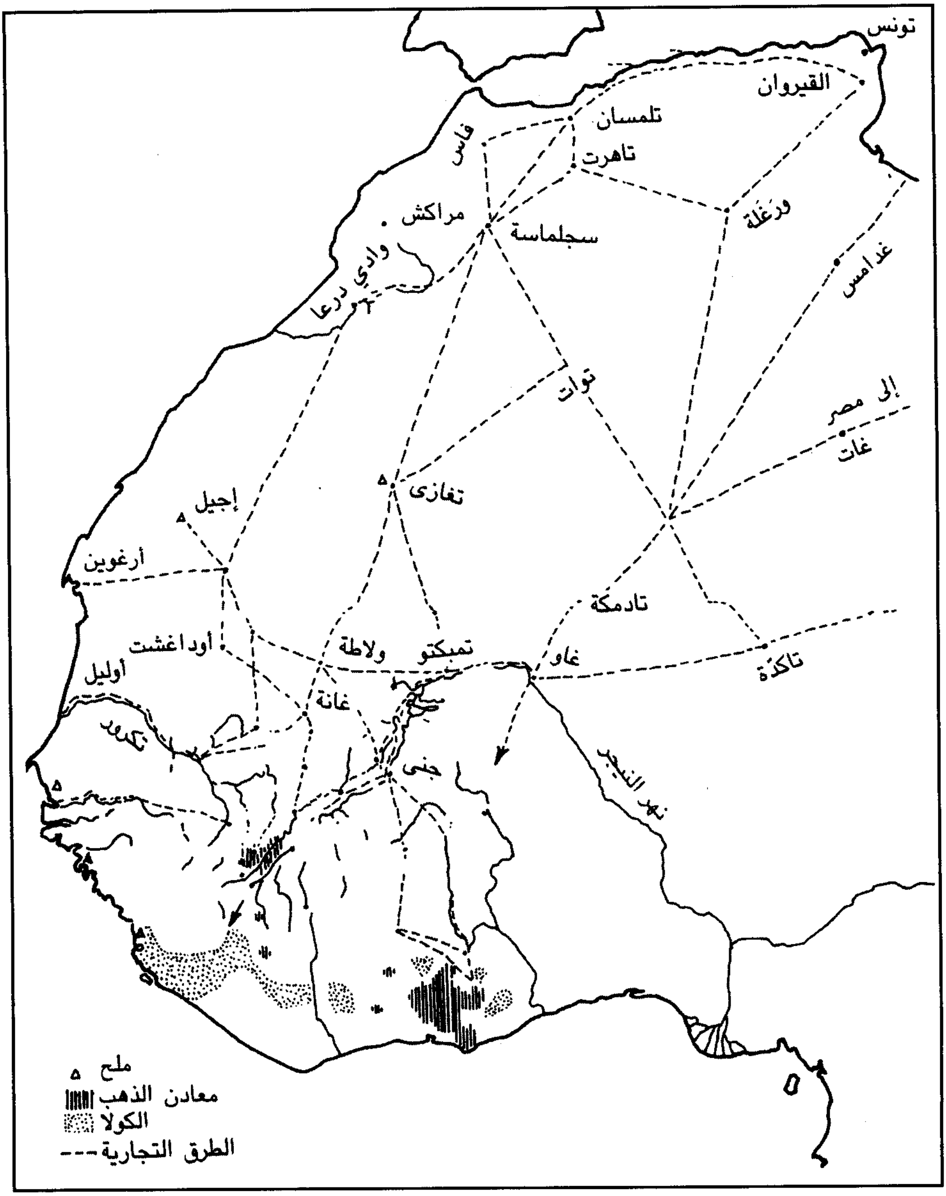

خارطة (٣) الطرق التجارية في الصحراء الكبرى والسودان الغربي
بين ١٠٠٠ و١٥٠٠م